تاريخ بيروت

سمير قصير



دار النهار

ربَّ مدينة تدعى بيرويه، موئلَ الحياة، مرفأ ألوان الحب، واقعة على البحر فيها جزر جميلة وأشجار ظليلة، ليست حدَّ برزخ ضيق دقيق... بل إنها تتمدد إلى الجهة الشرقيّة الحارقة عند قدمي جبال لبنان السورية المكسوة بالغابات... بيرويه أصل الحياة، حاضنة المدائن، شرف الملوك، الرؤيا الأولى، شقيقة الدهر، مواكبة الزّمن، عرش هرمس، حمى العدالة، مدينة المشرّعين، دار أفروزينيا، منزل [أفروديت] بافوس، بيت الهوى، نجمة بلاد لبنان.

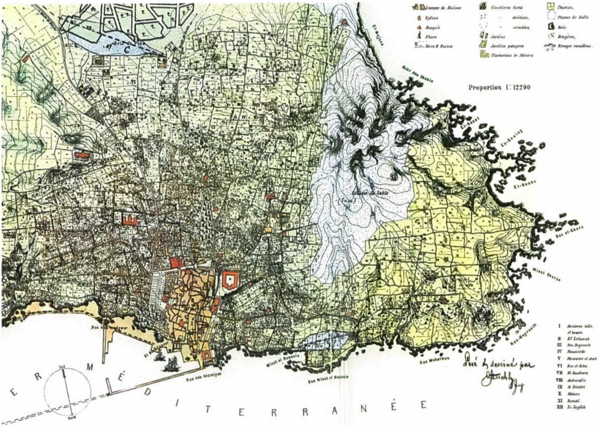
نونوس البانوبوليسي
القرن الخامس بعد الميلاد

أيّتها الطّبيعة، أيّها الجمال، يا سحراً فائق الوصف لحواضر الشّرق القائمة على شواطئ البحار، يا صوراً متألقة تألق الحياة، يا مسرحاً لأجمل أعراق البشر وللملابس والمراكب والسّفن المتلاقية فوق أمواج من أثير... كيف لنا أن نصف ما تثيرين من إنطباع في نفوس الحالمين، وما هو على ما هو عليه إلا حقيقة ما نتوقع؟ قد قرأنا ذلك في الكتب وأعجبنا به في تلك اللّوحات الايطاليّة القديمة أيّام كان أهل البندقيّة وجنوى أسياد البحار، إلا أن ما يفاجئنا اليوم أن نراه كما تصورناه، شديد اللصوق بتلك الصور.

جيرار دي نرفال ، 1843

قدر هذه المدينة أن تعيش وأن تعود إلى الحياة مهما كان: يمر الغزاة وتبعثُ المدينة بعدهم.

إليزيه روكلو، 1905



– تصميم بيروت المهدى الى السلطان عبد الحم
الدانمرك وناظر المدارس الإنكليزية السورية (
مجموعة نواف سلام.

سمير قصير

تاريخ بيروت

ترجمة
ماري طوق غوش

دار النهار

صدر هذا الكتاب تحت عنوان:
Histoire de Beyrouth

Cet ouvrage, publié dans le cadre du Programme Georges Schehadé, d'aide à la publication, bénéficie du soutien du Ministère des Affaires étrangères et du Service de Coopération et d'Action culturelle de l'Ambassade de France au Liban

يصدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الخارجية الفرنسية والسفارة الفرنسية في لبنان - قسم التعاون والعمل الثقافي - وذلك في اطار برنامج جورج شحاده للمساعدة على النشر

Ouvrage publié avec le concours de la Fondation Cedrona pour la Culture

الطبعة الأولى، تشرين الثاني 2006
ص. ب 226-11، بيروت، لبنان
فاكس 961-1-561693
darannahar@darannahar.com

ISBN 9953-74-101-8

فهرس

القسم الثالث
عصر النهضة

القسم الخامس
حاضرة العرب الكوسموبوليتية

القسم السادس
مدينة المخاطر كلها

إلى جيزيل،
بيروتيّة من خارج السور

تمهيد



عيون الروح

واكَبت شبابَك
سلسلةٌ طويلة من الجبال
كنتَ تحب الاستسلام لأصوات المدن النائمة
وتعشق التعرض لمعجزة الهواء.
رأيت الفتاة الوافدة من البحر
حاملة في شعرها ورود الاسكندريّة.
من الحدائق تبدأ أحلام الجنون.

جورج شحادة

هل تعرف لبنان؟

هززت رأسي.

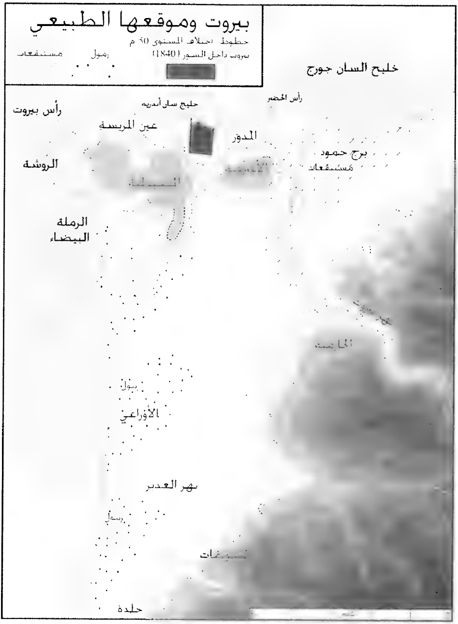
– عندما يأتي المساء تصبح السماء أشبه بالنّبيذ والظّلال المنهمرة فوق الشّرفات مكلّلة بهالة من النّور البنفسجي. تظلّل رأسك الدّوالي والنباتات المزدانة بأزهار كبيرة عطرة. وكل شيء من حولك ساكن، دافىء وعذب. كل شيء يوحي بالجوّ الذي مهّد للأساطير العظيمة. وتبدو لك الصّور التي تشاهدها بعيون الروح حقيقيّة أكثر من الكرسي الذّي تجلس عليه... لا يسعني أن أتكلّم، كما ترى، إلاّ بطريقة شاعريّة...

إريك أمبلر، القضيّة دلتشف

Eric Ambler, *L'Affaire Deltchev*

من الأمكنة ما يوقظ المشاعر. ومنها سهل بيروت الضيّق الممتد على طول السّاحل ويكاد يلتصق بخاصرة الجبل، تخترقه الأنهار التّي خطّت مجاريها المتناسقة يدُ الهيّة مجهولة... سهلٌ مرصّعٌ بالخلجان الصّغيرة والشّواطىء المفروشة بالصّخور والحصى ورواسب الرّمل. سهلٌ تزيّنه مرافىء لم تفارقها

يد الإنسان من غابر الأزمنة، ويدهش الزّائر كيفما نظر إليه، من عرض البحر أو من أعالي الجبل. يحدّه جرفان عميقان يفصل بينهما ثلاثون كيلومتراً يردّان البحر عن اليابسة؛ وعلى مسافة قريبة لجهة الجنوب، مطلّ يحرس البحر وخاصرة المتوسّط المستحمّة بالالوان ليلاً ونهاراً التي بدت لأكثر من كاتب وكأنّها تعانق السموات. «إنّه الشّاطىء البهج الذي تمرّغت الشّهوة المقدّسة عند قدميه»، كما



خطر للجغرافي الفوضوي إليزيه روكلو Elisée Reclus أن يصف ساحل بيبلوس[1].

وبالقرب من بيبلوس الأسطوريّة، وفي اليوم نفسه ولدت بيروت، حسبما ورد في خرافة قديمة، جاء على ذكرها إليزيه روكلو، ولم تكلّل بالألقاب المجيدة نفسها. لكن بيروت العائمة فوق شبه جزيرة فسيحة تترصّد البحر الواسع، الواقعة في وسط الخاصرة الشرقيّة للمتوسّط، على منتصف الطّريق بين انطاكية وغزّة والسّهل الذّي يحف بالجمهوريّة اللّبنانيّة ويبعد عنها مئتي كيلومتر، تمثّل نموذجاً آخر لمدينة يصعب وصفها بعبارات محايدة. لو أردنا فقط أن نحدّد موقعها لما استطعنا الإفلات من خيمياء الكلمات، ولوجب علينا حتماً اللّجوء إلى المفردات التّي تستخدمها النشرات السياحيّة: بين البحر والجبل. فهل بالإمكان الاستغناء عن هذه العبارة؟ وهل من طريقة أخرى لنحدّد موقع مدينة شيّدت فوق شبه جزيرة وترتفق إلى حاجز جبلي يحيط بها على مدارها؟

أيّاً تكن الجهة التّي تنظر إليها، يتّسم موقع بيروت بلعبة الأحجام التّي تتشكّل عند التقاء تضاريس الجبل بالبحر المتوسّط. وازداد هذا المشهد وضوحاً في الحقبة المعاصرة. ليس فقط المنحدر الغربي لجبل لبنان القليل الوعورة الذّي يبلغ ارتفاعه خمسمئة متر ولا يبعد إلاّ خمسة أو ستّة كيلومترات عن الحدود الإداريّة للمدينة*، ما يحدّد موقع بيروت، ولا الأكمة الواقعة على بعد أربعة كيلومترات إضافيّة البالغ ارتفاعها ألف متر، بل يحدده أيضاً المطل الذّي شيّدت فوقه بيروت والذّي نحت بتضاريسه المتباينة المدينة وغالباً أسماء مواقعها. وفوق التلتين اللّتين يتشكّل منهما المطل، استقرّت المدينة القديمة بمساحتها، ومن ثمّ تعدّتها باتّجاه المنحدرات لتجتاح لاحقاً الساحل الشّمالي وخواصر الجبل إثر الاختلال الذّي



صخور الروشة على ورقة العشر ليرات.

* اليوم، تتماثل حدود التجمع السكني مع هذا الخط وأحياناً تتعدّاه.

أحدثته الحرب الممتدّة من عام 1975 إلى عام 1990. شرقاً، تنتصب تلّة الأشرفيّة بارتفاعها البالغ مئة متر مشرفة على المرفأ الحالي وبمحاذاتها النّهر الذّي يحمل اسم المدينة «نهر بيروت»– أطلق عليه الرّومان قديماً اسم ماغوراس– امّا غرباً فتلّة المصيطبة الأكثر اتّساعاً والأقلّ ارتفاعاً، إذ لا تتخطّى الثّمانين متراً، تغوص عموديّاً في البحر عند صخور الرّوشة (من التّسمية الفرنسيّة rocher وتعني الصّخرة) لتكمل انحدارها الخفيف شمالاً باتّجاه مرفأ الصّيد في عين المريسة.

كلّ شيء يتآزر إذاً ليمنح بيروت رفعة وسحراً وطلّة بهيّة ما أن نلمح رؤاها من بعيد، سواء وصلناها برّاً أو أتيناها من دمشق. حتّى أنّ التقلّص المنهجي للمساحات الخضراء الذّي أفقر المنظر في المنتصف الثّاني للقرن العشرين، إذ اقتُلعت غابات الصّنوبر فوق قمم جبل لبنان، وكذلك أشجار الزّيتون والموز في السّهل، والسّرو والجمّيز في المدينة... لم يستطع أن يبدّد الشّعور المبهر الذّي يستولي علينا ما أن نرى فجأةً شبه جزيرة تنبثق أمامنا وكأنّها سقطت من السّماء. لا شكّ في أنّ هذا المثلّث الأرضي المزروع الآن بالمباني ذات الارتفاع المتباين والمتلاصقة كالحزم لا يزال يشدّ أنظار الزّائرين بتضاريسه الطّبيعيّة التّي يظلّلها الجبل ويضفي عليها البحر ألوانه القزحيّة، تماماً كما أدهشت بيروت زائر القرن التّاسع عشر بقرميدها الأحمر الذّي يكلّل بيوتها المتدرّجة المحروسة بالأشجار الخضراء ويجعلها أشبه بقرية.

أيجدر بنا إذاً أن نأخذ مسافة من بيروت لكي نكوّن عنها صورة جميلة؟ ربّما كان هذا صحيحاً. كلّما اقتربنا منها ازداد لدينا شعور بالصّدمة من تلاحق الأبنية والتشوهات العمرانيّة الكثيرة التّي تشي بالكارثة الناجمة عن سوء التّنظيم المدني. لذا، يجب والحالة هذه أن نقنّن انفعالنا الجمالي ونوجّه أنظارنا فقط إلى قنطرة مثلّثة هاهنا وواجهة زجاجيّة هناك وجزء من مشهد مترام في غير مكان. أو أن نترك أنفسنا لتلك الدّهشة التّي تتكرّر كلّ يوم حين يلتقي كورنيش البحر بالطّرف المسنّن لرأس بيروت جهة الغرب، فتبدو عندئذٍ القمّة المنتصبة شمالاً لجبل صنّين والمكلّلة بالثّلج وكأنّها طالعة من الأمواج. ثمّة لوحة كلاسيكيّة أخرى، وربّما أكثر لصوقاً بالمدينة، لأنّها لا تطلب شفاعة الجبل، وهي التّي تخطها صخرتا الروشة على الخاصرة الغربيّة لرأس بيروت. صخرتان كأنّهما جبلان صغيران عموديان تقريباً، تنتصبان على ارتفاع 47 متراً وسط الخليج الصّغير المحاط بالجدران الكلسيّة، أشبه بمسلّتين زرعتهما هناك عمداً قوة خارقة. صخرتان تشكلان هبة لهواة الشاعرية الغنائية – وملاذاً لمن هم على أهبة الانتحار.

إنّها لتعزية ضئيلة مع ذلك بالنّسبة إلى مدينة توحي بالكثير للنّاظر إليها من بعيد. فالفوضى المعماريّة التّي حصلت في الستّينات، وتحققنا منها بعد الحرب وخاصّة عقب أعمال التّرميم المدهشة التّي كشفت عن تحفٍ هندسيّة أغفلت من قبل، وكذلك الإخلال الفادح بالشّروط الفنيّة في مجال التنظيم المدني أفقدا المدينة سحر موقعها.

منذ الخمسينات، وعلى وتيرة أشدّ تسارعاً في الستينات، أخذ الاسمنت يكتسح الحدائق. حلّت المباني المعدّة للإيجار المؤلّفة من عدّة طوابق وبعض الأبراج الخالية من أي ظرف أو منفعة مكان البيوت المصنوعة من الحجارة الرمليّة التّي ميّزت المباني القديمة لبيروت. وأدّى التّهاون في تحقيق الإنماء وتوفير الخدمات من جهة والانفجار السكّاني من جهة أخرى، إلى حجب السّحر الذّي كانت تتمتّع به بيروت والتّفريط بالجهود التّي بذلتها السّلطنة العثمانيّة في آخر أيّامها في مجال التّخطيط المدني والسّلطة الفرنسيّة لاحقاً إبّان الانتداب الفرنسي، وأيضاً بالتّنظيم الحكيم الخفي الذّي كانت تتمتّع به الأسواق العتيقة الموروثة من القرن التّاسع عشر.

وهكذا حجب الاسمنت شكل المدينة نفسه، وإذا أعدنا اكتشاف بيروت الثلاثينات والأربعينات - كأن نستطلع ألبومات البطاقات البريديّة والصّور القديمة التّي راجت في نهاية الحرب - لبدت لنا الأشياء واضحة. احتلّت المدينة، في أواخر أيّام العهد العثماني وخلال الانتداب الفرنسي، المساحة المسطّحة بين الرّبوتين اللّتين تتصدران بيروت، انطلاقاً من المرفأ الأوّل وأسوار المدينة القديمة. صحيح أن الاحياء أخذت حولها بالانتشار، لكن الحدائق الخاصّة والمساحات الخالية كانت أشبه بمتنفس في النسيج المديني، فيما احتفظت التلّتان المنحوتتان في الصّخر بمبانيهما المكسوّة بقرميد مرسيليا مستوية فوق منحدر خفيف حول مجمّع الجامعة الأميركيّة غربي بيروت وفوق المرفأ لجهة الأشرفيّة. أمّا اليوم فتنتصب في كلّ مكان مبانٍ مختلفة ذات أحجام متباينة وأشكال غير متناسقة لم يبذل في إنشائها أي جهد لدمجها في إطار المكان، بل تبدو، خلافاً لذلك، وكأنّها تدّعي إعادة تشكيل المكان على هواها، كمثل تلك المباني التّي انتصبت فوق المنحدرات وشيّدت باستخفاف كامل للحسّ السّليم وتنظيم الطّرقات. إنّها مفارقة الحداثة: كلّما كبرت المدينة، ازدادت شبهاً بما كانت عليه من تراكم وفوضى داخل أسوارها قبل أن تخترق بعض الفرجات هذا الكمّ المتراكم وتضفي عليها شيئاً من التّناسق العابر. عبثاً اتّسعت الطّرقات، لأنّ ذلك لم يحل دون احتقان السّير أو العدوان المتواصل على الأرصفة والطّرقات، ما يزيد في انتشار الفوضى ويخلق انطباعاً متعاظماً بالتّراكم.

1974: بيروت ملاذ لبلاد العرب الأليفة

ربّما كانت بيروت في عصرها الذّهبي لا تُعدّ مدينة جميلة، لكن وسطها النّابض بالحياة لا يبقي المرء على حياده منها لا سيّما إذا كان غير مقيم فيها. لا جدال في أنّ نظرة الآخرين إليها الغرباء عنها هي التّي نسجت حولها الخرافات، لا الرّتابة التي يركن إليها سكّانها. لكأنّ بيروت، من بين المدن كلّها، مهيّأة لأمثلة صورتها الخارجيّة. وكما أنّه يجب الاحتفاظ بمسافة ما لكي نستطيع الإحاطة باتّساع الحاضرة، كذلك علينا الإبقاء على مسافة لكي تأخذنا النّشوة التّي تمنحها عيون الروح. ألهذا السّبب بالذّات

سيهبّ الطارئون على بيروت في المواسم والمناسبات قبل أهلها المقيمين فيها إلى رسم صورة مثاليّة للمدينة؟ على أيّ حال، لم تتوانَ بيروت لحظة عن شهر كلّ أقنعتها للزّائرين الآتين من الجهة الأخرى للمتوسّط أو من المحيط الأطلسي، وأيضاً لجيرانها في البلدان العربيّة.

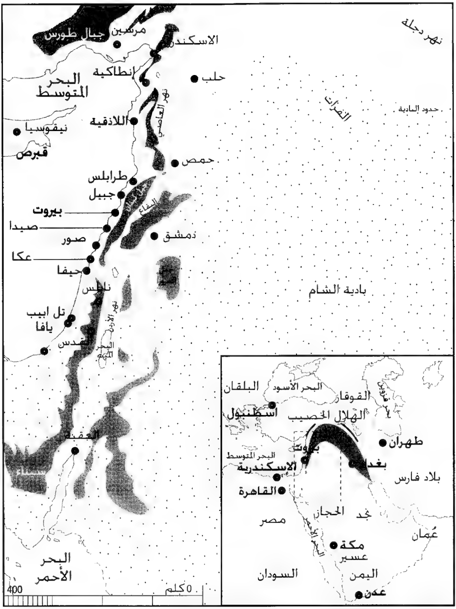
في مخيّلة العصر الذّهبي الضّائع، تغلّف اندفاعات الحنين بيروت، وتقع الذّروة حتماً عشيّة تسلسل العنف المتفجّر الممتد من ربيع 1975 إلى خريف 1990، الذّي أوشك أن يدمّر المدينة والبلاد. في العام 1974، كانت بيروت تعتبر عاصمة الشّرق الأدنى، مع أنّ وزنها الديموغرافي، الذّي يتجاوز المليون بقليل، يُعدّ متواضعاً نسبةً إلى القاهرة أو حتّى دمشق. بالطّبع، لم يكن بإمكان بيروت، وهي عاصمة الدّولة العربيّة الأصغر مساحةً، أن تشكّل مركز قرار قادر على تحريك خيوط السياسات في المنطقة، حتّى لو جرّها احتضان زعيم المقاومة الفلسطينيّة بين جدرانها إلى خضمّ ديناميّة سياسيّة تتخطّى حدودها. لكن هذا لم يحل دون أن تصبح بيروت منذ بداية السّتّينات أحد مراكز الاستقطاب الأولى في المنطقة، وموقعها هذا لم تُخله لأحد في أي من الحواضر العربيّة، ما عدا القاهرة، وليس في كلّ الميادين...

بيروت السّاحة المصرفيّة، المدينة الجامعيّة، عاصمة الصّحافة والمنشورات العربيّة، مركز الاستشفاء، مرفأ الترانزيت، عقدة المواصلات الجويّة، السّوق المفتوحة لكلّ الصّفقات التّجاريّة والمصرفيّة من أسخفها إلى أكثرها شبهةً... وظائف كثيرة أدّتها بيروت وتخطّت الإطار الجغرافي للجمهوريّة اللّبنانيّة. وفدتها الأرباح والعملات من كلّ نوع وتمتّعت بكلّ ما تملكه المدن الثريّة من دون ان تكون كذلك حقاً. وبما أنّ المال يجرّ المال، كان يطيب لها الاعتقاد بأنّ في وسعها الاستسلام المتهاون للثّروات التّي لا يمكن لأحد أن يجتزىء منها شيئاً.

لم تكن بيروت فقط مدينة منطلقة منفتحة على العالم من خلال الأدوار التّي لعبتها، بل أيضاً لطريقتها في العيش. ليست فقط الخدمات التّي صنعت شهرتها وسحرها بل كونها مدينة لا تهدأ حركتها. مدينة لا مثيل لها في قطر لا يتعدّى بضع مئات من الكيلومترات.

إذا أردنا الإحاطة بالأدوار التّي لعبتها بيروت، لوجب علينا استدعاء مشكال يعكس صور الزّهو العارم الذّي امتازت به كلّ المرحلة الذهبيّة الممتدّة من حرب فلسطين عام 1948 إلى النّزاع الدّامي الطّويل الذّي نشب عام 1975. ولو سلّمنا جدلاً بأنّ أوّل انطباع يتبادر إلى أذهاننا لدى تذكّرنا تلك الأيّام مغلّف بالحنين، فهذا لا ينفي أنّ بيروت كانت آنذاك مدينة تتحرّك ولا أحد يستطيع اللّحاق بها ولا أن ينافسها على السّحر الذّي تمارسه على النّفوس.

وهذا السّحر مارسته بيروت على جيرانها العرب فاجتذبتهم بكثافة. وتضافرت جميع الأسباب لتجعل الزّائر العربي يقع تحت سحرها سواء جاء من البلدان النّفطيّة لشبه الجزيرة العربيّة التّي لم تكن تتوافر فيها وسائل الرّاحة والرّفاهيّة آنذاك أم من المناطق المتمدّنة الرّاقية. وأوّل ما يجعل الزّائر العربي



مسحوراً بلبنان هو طبيعته. وحده لبنان في الشّرق الأدنى يمتاز بسلسلة جبال مماثلة ومثل هذا البحر الأليف والنباتات المتنوّعة. هذا بالطّبع إذا استثنينا سوريا التّي تملك مع لبنان، ما خلا بعض الفوارق*،

* على سبيل المثال الصنوبر الحلبي الشّبيه بالتّنوب الموجود على مرتفعات صلنفة وكَسَب، بدلاً من الأرز والصنوبر المظلّي في لبنان.

واجهة على المتوسّط والسّفح الآخر من قمّة حرمون المكلّلة بالثّلج الأبدي. وحده لبنان يملك مثل هذه المناخات المحليّة الناتجة عن التنوّع الجغرافي لتكوينه فهو برّ وجبل. فلنتخيّل إذاً تغيّر المشهد: يطالعك الأخضر والأزرق بكلّ فوارقهما ويضاف إليها الأبيض شتاءً بدل الرمال المرقشة في بوادي شبه الجزيرة العربيّة.حتّى لو أجرينا مقارنة بين بيروت وغوطة دمشق الخصبة الأشبه بجنّة عدن، أو بين بيروت ومدن العاصي الملتمعة ماءً وشجراً، لرأينا أنّ بيروت تستطيع أن تفوقها بغنى الألوان التّي تسم موقعها وعذوبة الظّلال. ألم يستوحِ لامارتين عبارته الشّهيرة من جبل لبنان تحديداً «سويسرا الشّرق»؟ ومن ثمّ جاء الاقتراع على قانون سريّة المصارف ليمنحها بعداً جديداً عام 1956.

ما إن يصل الزّائر الآتي من الخليج إلى بيروت الستينات أو السبعينات للمرّة الأولى حتّى يشعر بالدّهشة أمام هذه المناظر البانورامية التّي لا مثيل لها. ويزداد انبهاره كلّما توغّل في مدينة مرتفعة حيث لا شيء يراه يشبه ما شاهده من قبل. لا شيء إطلاقاً، لا التّنظيم المديني مهما بلغت فوضاه، ولا ما عرض في الواجهات، ولا فرص اللّهو، ولا فيض اللافتات المضاءة بالنّيون، ولا حمى الحياة الملتهبة ليلاً ونهاراً، ولا حريّة التحرّك التّي يتمتّع بها المارة في الشّوارع... وخصوصاً المارّات. لم تكن أوروبا آنذاك وجهة يقصدها العرب بعد الانفجار النّفطي. كانت بيروت تشكّل الغرب الأقرب، لكنّها غرب يتحدّث العربيّة نفسها وإن بلهجة أكثر ارتياحاً. لا بل أنّ السوريّين أنفسهم والعراقيّين والمصريّين حتّى، كانت تلتقفهم حيويّة الحاضرة وتستدعيهم إغواءاتها الكثيرة وتصلهم عدوى لذّة العيش فيها. وفي الوقت نفسه، كانوا يطمئنّون لنقاط التشابه العديدة مع حواضرهم بالذّات التّي سبقت أحياناً بيروت في ركب العصرنة، ويشعرون أنّهم مدعوّون باستمرار لاكتشاف ما يبدو لهم دفعة واحدةمدينتهم الثّانية ومدينة أخرى مختلفة في آن.

كان المجيء إلى بيروت يتطلّب من العرب بالطّبع عبوراً للحدود وجواز سفر وسمة دخول، باستثناء السّوريّين. لكن هذا المجيء يعتبر حتّى لمن يملكون الحدّ الأدنى من الوسائل، الانتقال الأسهل والأشدّ إثارة مع ذلك. يأتي الزّائرون إلى بيروت للتّوقيع على معاهدة أو لإجراء كشف حساب أو الالتقاء بأحد الوسطاء أو الحصول على عيّنة لإحدى السّلع. وقد يأتون للتسوّق أو قضاء عطلة أسبوع عاديّة أو السّهر ليلاً، على غرار هذه الأفلام المصريّة التّي تنتقل فيها الكاميرا بسرعة خاطفة من مشهد في القاهرة إلى «ترافيلينغ» في شوارع بيروت مسجّلة مروراً محتّماً أمام صخرات الرّوشة وصعوداً إلى أحد المطاعم الجبليّة حيث ترى الممثّلين يتناولون الغداء أو نزولاً من جديد لتناول القهوة في مقهى على شاطئ البحر. مع أفول نجم الاسكندريّة، أضحت بيروت إطاراً ترفيهيّاً للسينما المصريّة، ولا تحتاج المدينة إلى عناء كبير لترسيخ هذه الصّورة وإن لم تكن أيّامها شهر عسل دائم كما تصوّره الأفلام

المصريّة. ولم تشكّل بيروت فسحة ترفيه لنجوم القاهرة فحسب، بل أيضاً لرجال ونساء حقيقيّين من لحم ودم. لكأنّ بيروت، يوم أرادت الجنيّات توزيع الهبات على المدن العربيّة، أجمع رأيهنّ على أن يجعلن من بيروت مقراً لحلاوة العيش.

والدّور يُربط ببيروت وأدّته دون صعوبة تُذكر. ولكن، ودون ان تدري، بدا الدّور الذّي تلعبه متخلفاً عن زمانه، وأضحت حلاوة العيش مسرحا لمؤامرات خطيرة. فخلف ستار «الدولتشي فيتا» اللّبنانيّة (أي حلاوة العيش، والعبارة مستوحاة من عنوان فيلم لفيلليني) يتبيّن أنّ المقهى الأكثر ارتياداً على شاطئ البحر في الستينات شكّل ملتقى للمنفيّين العرب من كافّة البلدان، من العراق حتّى المغرب. هناك، يجلس أهل السّياسة والصّحافة والأدب ولا يكتفون بأحلامهم في تغيير العالم بل يدخلون في مشاحنات سياسيّة وأدبيّة صاخبة. وخلف المظهر اللاّهي للأحاديث، تُعقد الاتّصالات وتتمّ المفاوضات وتُحاك المؤامرات فتشكّل مادّة دسمة لصحافة بيروت تنشرها صبيحة اليوم التّالي وتُحدث وقعاً مدوّياً، أو تخلّف كوابيس جديدة لدى بعض أجهزة الشّرطة.

صرخات وهمسات تُقرأ أصداؤها في الصّحافة التعدديّة الوحيدة الموجودة بين الخليج والمحيط. وهذا سبب إضافي لاجتذاب الإنتلجنسيا العربيّة وكلّ الذّين يحلمون بالانتماء إليها، منفيّين مجبرين أو مخيّرين أو زائرين منتظمين يتردّدون إلى بيروت أكثر من تردّدهم على أحيائهم بالذّات. لا شكّ في أنّ مفاتن بيروت زادت من رصيدها الثّقافي، واعتبرت منذ الأربعينات المدينة المختارة بالنّسبة إلى بعض المفكّرين السّوريّين المنتمين إلى الطبقات الرّاقية الذين اجتذبهم إليها «الكامبوس» الرّيفي المظهر للجامعة الأميركيّة، أو ربّما المصاهرات التّي حدثت صدفةً أو، بكلّ بساطة، سهولة العيش. لكنّ الصّورة وضحت عقب نكبة 1948 التّي جلبت معها إلى لبنان، بالإضافة إلى عشرات الآلاف من اللاّجئين، رصيد الحداثة الفلسطينية بشقّيها المصرفي والثّقافي. ثمّ ما لبثت أن ترسّخت صورة بيروت مع نشوء الأنظمة الاستبداديّة في غالبيّة البلدان العربيّة إبّان الخمسينات. في تلك الفترة استعاد الاقتصاد اللّبناني تجارة مرفأ حيفا كما أفاد من تدفّق الثّروات المهرّبة من بغداد وحلب والقاهرة ودمشق وأودعت فيه أولى الأموال الناتجة عن تجارة النّفط. تلك كانت ولا شكّ فترة الازدهار المخادع لأنّ شريحة صغيرة فقط استفادت من جناه، لكنّه كان كافياً لتشحيم عجلات الآلة التي تحرك خيوط هذه «الكوميديا» الإنسانيّة التي لا تخلو من بعد مأسوي.

استطاعت بيروت التّي رفدتها كل سيول ذلك العصر الذّهبي البرّاق، ان تكرّس دعوتها التّي اضطّلعت بها منذ عصر النّهضة في القرن التّاسع عشر. بدت بيروت، من بين أقنعتها الكثيرة، مدينة للثّقافة يتوافد إليها الأدباء وأصحاب الرّساميل من غير مكان، وتنمو فيها دور النّشر مثل نبات الفطر.

أُخذت بيروت بنشوة الأفكار لكنّها لم تستطع التخلّي مع ذلك عن خفّة غامضة أحاطت بالسجالات الأكثر صخباً والجدالات الأكثر ضراوة. خصومات أدبيّة بين القدامى والمعاصرين؛ خصومات فكريّة بين الوجوديّين والماركسيّين، خصومات الولاء العقائدي بين النّاصرين والبعثيّين، بين القوميّين العرب المرتدّين إلى الاشتراكيّة وبين الذين تنبّهوا فجأةً لفضائل القوميّة المؤهّلة لتعبئة جماهير الأمّة. كان الصّراع على أشدّه بين هؤلاء المتبارزين المولعين بالكلام، سواء كانوا بيروتيّين بالتبنّي أو بالنّشأة. ولم يكن من رهان حقيقيّ إلاّ الأبهة المعطّرة بآخر عطور باريس التي تفوح من الملهمات العديدات اللواتي لا يأنفن من الاستفادة من المناظرات الخطابية ما بعد وجبات الطعام.

لم يكن محرّكو مسرح الظّلال والأنوار هذا يعرفون آنذاك أنّ ممارساتهم أغنت الثّقافة العربيّة أكثر من أعمالهم المكتوبة بكثير. على أية حال، هذا أثمن ما قدّمته لهم بيروت: فورة الفكر الممتزجة بطمأنينة العيش أي النعمة التّي يطلبها أي مفكّر يليق بهذا اللّقب، وخاصّةً المفكّر العربي الذّي فُطم عن الحريّة وأعاقت حركته محرّمات شتّى. من هنا، كانت بيروت بمثابة جنّة حقيقيّة، بعيدة جداً وقريبة جداً في آن. كما شجّع الدّور الاقتصادي الذي يلعبه لبنان كبلد وسيط على الغربنة الظّاهرة للعادات، فمنحت بيروت ضيوفها المنفيّين ومفكّريها بالذات، الإطار الأكثر تغريباً والأقلّ غربةً: مدينة عربيّة لكنّها مختلفة، مدينة مختلفة لكنّها عربيّة.

ليس هناك من مجال لحلٍّ وسط مع بيروت أو على الأقلّ لم يكن الأوان قد حلّ لذلك. يشعر المرء أنّه وقع تحت سطوة المدينة دفعة واحدة وقلّما عاد يصدمه الكيتش أو العرض الفاحش أحياناً للثّروات أو غياب الوقار أو الكثير من الخفة والتّباهي والتصنّع. وإذا أثارت بيروت شعوراً بالسّخط لدى البعض، فهذا فقط لدى أقلّية تمتنع عن الإفصاح عن ذلك. فالمدينة في الأصل متعدّدة وتمنح كلّ أحد، مهما بلغ تحفّظه، إمكانيّة أن يصنع ركناً خاصّاً به. تمنح طوعاً هذا العشّ الدّافئ للوافدين من بعيد ولمنبوذيها في الضّواحي. لا شيء آنذاك بإمكانه الاساءة فعلاً إلى الصّورة التّي رُسمت عن بيروت؛ لا عيب ولا نقص بإمكانهما أن يشوبا «واجهة الحريّة» التّي لجأ إليها العرب من منفيّين سياسيّين أو اقتصاديّين، من مفكّرين مضطّهدين أو مجرّد سائحين عاديّين باحثين عن هواء منعش. ولا شيء أيضاً يسيء للأسطورة التّي صنعتها المرائي التي تُليت حداداً عليها في ما بعد.

إلاّ أنّ بيروت تعكس في الوقت نفسه صورة أخرى مبسّطة لها، صورة من الخفة والفنّ الرّخيص والتّباهي السّخيف والمال السّهل. كانت بيروت بالنّسبة إلى العرب واحة على البحر وبالنّسبة إلى الغربيّين الشّرق العربي الأكثر ألفة. إنّها الشّرق في نسخته المصغّرة، المغامرة في التّرف - أو ما يحاكيه - الشّرق المعقّد المتنعّم في رغد اللّغات والعادات. إنّها أيضاً كلّ عادات المشرق التّي نفرّت في ما مضى الكولونيل لورنس في معرض بحثه عن العرب «الأنقياء»، تضافرت لتجعل من بيروت محطّة ملائمة

على طريق التغرّب، وغالباً ديكوراً لعالم وسيط بعيد بما فيه الكفاية ليوحي بالسفر وظريف بما يكفي ليحدّ من رغبة الاستمرار في الترحال. اعتقد الكثيرون أنّ بيروت مجرّد محطة ثمّ ما لبثوا أن أقاموا فيها سكناهم.

لكن، ليس بينهم دوريل ولا مايكل كورتز [مخرج فيلم «كازابلانكا»] ليصنع منها ديكوراً اسطورياً. وإذا كان جزء من سحر بيروت انعكس في الأدب العربي وعاصمته بيروت، إلاّ أنّ النّظرة الغربيّة لم تحفل به، هذا إذا استثنينا رواية بيار بونوا «سيّدة القصر اللّبنانيّة» التّي ترقى إلى أيّام الانتداب الفرنسي، وبعض أفلام التّشويق الرّخيصة. لكأنّ الجانب الاكزوتيكي للمدينة ليس قادراً على تغذية فانتسمات اللّقاء. أو لكأنّ الطابع الكوسموبوليتي للمكان، وهو العنصر الأساسي في تركيبته، ليس كافياً، أو ربّما لبداهته أفرغ المدينة من مضمونها.

لم تكن السّياحة الجماعية آنذاك إلاّ في بداياتها، ولم يعرف لبنان الهجوم الصّيفي للشماليّين الشّقر الذين صنعوا ثروة اسبانيا واليونان ولاحقاً تونس. لكن بيروت، من بين كلّ المدن العربيّة، هي المدينة التّي يلتقي فيها أكبر عدد من الأوروبيّين والأميركيّين، وليس فقط على الشّواطئ ومراكز الاستحمام والبارات أو الفنادق الضّخمة، بل في المدارس أيضاً والجامعات ومكاتب رجال الأعمال وقاعات المصارف ومكاتب التّحرير. هذا بصرف النّظر عن دواوين السّفارات الدبلوماسيّة المكتظّة أكثر ما يمكن لبلد مثل لبنان استيعابه نظراً لحجمه الجغرافي ونفوذه السياسي .

ويحدث أنّ كلّ هذه الأمكنة – ما خلا بالطّبع تلك المخصّصة للتّعليم– تتركّز في مكان واحد وهو بار أوتيل سان–جورج أو بار أوتيل النورماندي الذّي يعطي بيروت طابع منطقة حرّة تجري فيها السّمسرة القذرة والتّآمر. أضحت بيروت في الخمسينات القاعدة الخلفيّة لعملاء أجهزة الاستخبارات الذين يمارسون من حول كيم روزفلت «لعبة الأمم» كما عنّ لأحدهم أن يطلق هذه التسمية على تركيبة المناورات التّي قامت على خلفيّة الحرب الباردة، ابتداءً من طهران التّي يحكمها مصدّق إلى القاهرة أيام عبد النّاصر[2]. وعلى الرّغم من تقيّد لبنان الرّسمي بموقف الولايات المتّحدة الذي تجسّد من خلال إنزال المارينز عام 1958، وقد جرى لاحقاً التّخفيف منه عبر تعاون وثيق مع مصر الناصريّة، فإنّ بيروت كانت إحدى الخواصر الضعيفة للحرب الباردة حيث أتيح قيام جميع الاتّصالات، خفيةً أو علناً، وفقاً لرغبة الزّبائن.

وباستثناء أحداث عام 1958، وربّما لاحقاً عشيّة حرب 1975، لم تتّخذ المؤامرات الكبيرة والصّغيرة لبنان هدفاً لها. لكأنّ الأمر يشبه تلك الأفلام الأوروبيّة والأميركيّة الرّخيصة التّي تبيد الجبل والسّهل الدّاخلي ودمشق لتجعل من بيروت مرفأ للصّحراء يعجّ بالأعرابيّين. أمّا الجهّات المستهدفة فسوريا والعراق والأردن ومصر وايران وكلّ الدّول الممثّلة في بيروت من خلال جماعة من

العملاء السريّين او المموهين، او من خلال المنفيّين السّياسيّين الذين يدفع وجودهم إلى مضاعفة أوامر المهمات التّي تصدرها «مراكز الاستخبارات» الكبرى لعملائها البيروتيّين.

لم تكن بيروت فقط مكاناً لحبك المؤامرات المتعلّقة بالشّرق، كما يُظهر ذلك أدب التجسّس. اختار كيم فيلبي، الجاسوس البريطاني المعروف ، الاختفاء والظّهور من جديد في بيروت، ومن ثمّ أرسلته أجهزة الاستخبارات الروسيّة إليها في مهمّة جديّة. صحيح أنّ أحداً لم يلحظ جيمس بوند في بار السان جورج حيث كان فيلبي يتردّد عادةً، لكنّه ظهر بشكل خاطف في إحدى الكاباريهات الوهميّة للمدينة لينتقم لزميله 002 الذي اغتيل، ويعثر على الرّصاصة الذهبيّة التّي ستنقل ساحة الصّراع بعيداً. ولن يتورّع الكاتب الكبير لأدب التجسّس، اريك أمبلير، عن اللّجوء إلى خدمات بيروت، مرّةً لكي يشرح نفسيّة إحدى الشّخصيّات المرتبكة التّي تجد صعوبةً في التّعامل مع خشونة العاصمة صوفيا، ومرّةً أخرى ليعطي أمراً بتحويل مالي إلى جنيف. لكنّ الاجتياح الأوّل الذي قامت به سلسلة روايات التجسّس SAS [الصادرة في باريس لمؤلفها جيرار دو فيليه] لبيروت كان عام 1972 والهدف منه اكتشاف مؤامرة تتعلّق... بالصّين.

ومثل جيمس بوند، لم يبحث تان تان عن المغامرة في بيروت حتّى لو اضطرّ للإنزال فيها أكثر من مرّة عندما كان في طريقه إلى khemed (في مغامرته التّي تحمل عنوان Coke en stock). وبصفته مخبراً صحفياً يتقن مهنته، فهو يفضّل المساحات القاحلة. بيد أنّ بيروت ليست إلاّ مدخلاً للبوادي ولا شيء سيحدث فيها إلاّ تمرير للأسلحة السريّة أو أخذ فترة استراحة بعد العمل. وبين استراحة المحارب وجولة الغراندوقات على الحانات الليلية، يجمّع المراسل الصّحفي الأصداء الدبلوماسيّة وشذرات الأخبار التّي تسمح له بفهم مجتمعات الشّرق الأدنى غافلا عما يجري في المجتمع الأقرب الذي يحيط به . وهكذا، كما كتب الصّحافي الأميركي جوناتان راندل في كتابه عن حرب لبنان[3]، فإنّ أوّل ردّة فعل قام بها لدى نشوب المعارك هي عدم التّصديق. لم يكن يعرف أنّ هنالك أشياء يمكن أن تحدث فعلاً في بيروت.

وسوف تحدث فيها أشياء كثيرة، أكثر ممّا بوسع أيٍّ كان تخيّلها.

1975-1990: خارج الحياة

مدينة بأكملها يغطي فضاءها دخان الانفجارات الأسود والحرائق، ويضيء سماءها انفجار الصّواريخ فتبدو كبقعة دم كبيرة متوهّجة جاهزة لتقدّم في كلّ يوم طعاماً لفضول العالم. شوارع خالية إلاّ من المقاتلين عراة الصّدور أو المارّة التّعساء الذين يهرولون للاحتماء في مبانٍ أحدثت فيها القنابل فجوات واسعة، وأخرى خرّمتها الشظايا. قذائف تصطدم بالأبراج وسيارات مفخّخة تنفجر

لاسلكياً بالمارة على مفترق الطّرقات. عجائز وأطفال لم يستطيعوا قط تجاوز الصّدمة ولا الاعتياد على هذا العنف الذّي يحاصرهم ويتربّص بهم ويجبرهم على الخضوع له. دماء تسيل في كلّ يوم، والأسوأ من ذلك الدّماء التّي تجفّ فوق جثث مبعثرة هنا وهناك، وأحياناً مكدّسة فوق بعضها البعض.

الموت أيضاً وأيضاً. ما من أحد أدار جهاز تلفازه ساعة تُبثّ نشرات الأخبار، خلال الخمس عشرة سنة التّي سقطت فيها الضّحايا بالآلاف والآلاف، واستطاع أن يتجنّب الصّور التّي باتت مألوفة. ما من أحد في العالم شاء خلال تلك الخمس عشرة سنة أن يضع مقدّمة لبرنامج تلفزيوني مستوحى من الأحداث الرّاهنة، إلاّ واستعان بصور الحرب التّي تكرّرت حتّى الغثيان ولم تفقد مع ذلك من قدرتها على اجتذاب المشاهدين. وكلّ من تصفّح جريدة خلال تلك السّنوات، ارتسمت أمام عينيه مشاهد العنف الذي بدا لبنان مستكيناً إليها. كلّ من أراد أن يختلق استعارة عن الفوضى وجنون البشر وإبهام السّياسة لا يحتاج لأن يتخيّل ما هو أفظع، فبيروت هنا تشكّل رديفاً للحرب وظلّت كذلك في بعض حوارات الأفلام الأميركيّة التّي صوّرت في بداية القرن الواحد والعشرين

وقد عرف الكوكب في الفترة نفسها حروباً أخرى، أهليّة وغير أهليّة في نيكاراغوا وأنغولا وأفغانستان والسّودان... ولو سلّمنا بالوحشيّة الباردة التّي تظهرها الاحصاءات، لوجدنا مع ذلك أنّ عدد القتلى الذين سقطوا في مجازر الحرب في لبنان، وبالرّغم من هول الكارثة إذا ما قيست على ديموغرافيّة البلاد لا سيّما وأنّ عدد الذين قضوا فيها بلغ مئة وثلاثين ألف قتيل على مدى خمس عشرة سنة – أي ما يقارب مليوني قتيلاً قياساً إلى فرنسا – يبقى مقبولاً مقارنةً مع ما حصدت المجازر الكمبوديّة من أرواح. لكن هذا لم يمنع النّزاع اللّبناني الدّامي من ان يكون أحد أبرز الفصول في التاريخ الرّسمي لصحافة النّصف الثّاني من القرن العشرين. لكأنّه جاء في الوقت المناسب لينوب في «الصّفحة الأولى» من وسائل الإعلام عن مشاهد وأخبار حرب فيتنام، لتحتلّ الصّدارة من بعده الحروب التّي أدمت الاتّحاد اليوغوسلافي في التّسعينات.

يبدو التّسلسل التّاريخي للأحداث شبه كامل. عندما سقطت سايغون في 30 نيسان/ أبريل عام 1975، اجتمعت حفنة من الطلاّب اليساريّين المؤيّدين للاممية في المعهد العالي للآداب في بيروت، وأخذوا يعبّون الشامبانيا احتفالاً بالحدث. لكنّ النفوس كانت منذ ذلك الحين مأخوذة بحدث آخر حصل منذ سبعة عشر يوماً. في 13 نيسان أعلنت الحرب عن انطلاقتها في إحدى ضواحي المدينة وبدا الأمر وكأنّه مجرّد جولة مراقبة صغيرة، إلا أن جولة اخرى كانت تتحضّر وانفجر الوضع في بداية شهر أيّار/ مايو حول المنطقة التّي لم تكن قد سمّيت بعد بـ«خطّ التّماس». وبعد خمسة عشر أسبوعاً، في 17 أيلول/ سبتمبر من عام 1975، اتّسعت رقعة المعارك لتبلغ وسط بيروت التّاريخي ولم تفارقه قطّ. وبعد خمس عشرة سنة، في خريف 1995، عندما سكتت أصوات المدافع جدياً في بيروت وسلّمت

الميليشيات عتادها، لم تلبث أن أخذت بعض الأسلحة التّي خدمت طويلاً أثناء الحرب طريقها إلى يوغوسلافيا.

ليس التّسلسل المجنون للأحداث العالميّة وحده الذّي يفسّر الاهتمام الإعلامي الفائق بحرب لبنان خلال هذه الصّفحة الطّويلة، الطّويلة جداً من تاريخه. صحيح أنّ سقوط سايغون كان نوعاً ما «لصالح» الحرب اللّبنانيّة لأنّه حوّل عنها أنظار الصّحافة وبدّل عناوين الأحداث الراهنة في الصّحف وغيّر وجهة مراسلي الحرب. لكن صدفة أخرى تزامنت مع هذا السّقوط وجعلت صور الحرب اللّبنانيّة منتشرة ورائجة في العالم. حصل تحوّل في الصّحافة التلفزيونيّة والفضل يعود لاختراع الفيديو في المنتصف الثّاني من السّبعينات، وللسّهولة المتزايدة للاتّصالات عبر الأقمار الاصطناعيّة. سرعان ما أصبحت بيروت مسرحاً للموت المباشر. وكم كان الأمر مؤثّراً عندما طال الموت الإعلام نفسه، كذلك القصف الجوّي الاسرائيلي عشيّة الاجتياح الكبير عام 1982 الذي تسبّب في مقتل مصوّر في التلفزيون الفرنسي.

ولم تنتظر الصّحافة العالميّة، ولا التلفزيون، التّطوّرات الكبرى ليهرعا إلى بيروت في نهاية صيف 1975. كان أمراً طبيعياً للغاية أن يستقرّ مراسلو الصّحف الأجنبيّة فيها لا سيّما أنّ عدداً كبيراً منهم، يعرف المدينة جيّداً وسبق له أن نزل فيها عدّة مرّات عندما كان في طريقه لتتبّع سير الأحداث في الشّرق الأدنى. ولم تكد تمرّ عدّة أشهر على بداية المعارك، حتّى ظهر كتابان أو ثلاثة ألّفها صحافيّون على وجه السّرعة. ولم تنضب قريحة التّأليف إلاّ بعد وقت طويل، اذ أنتجت الحرب أدباً كثيراً، بالفرنسيّة والانكليزيّة والعربيّة، متفاوتاً جداً لكن سرعان ما تمّ تجاوزه. كانت البلاد والعاصمة لا يزالان يقدّمان لأي كان ما يغذي فضوله، وكأنّ العصر الذهبي متواصل حتّى في أفوله.

إنّ سهولة التّواصل اللّغوي والضّمانة التّي وفّرها بالأمس مشهد الشّرق الأليف، فتحت الطّريق للوصول إلى الشّرق المعقّد. إذ لا يخفّف التكلّم بلغات ثلاث من تغرّب السائح فقط، بل يسهّل أيضاً العمل على المراسل حتّى لو كان الأقلّ احتراساً للأمر، إذ يمكنه أن يجري مقابلة في إحدى اللّغتين العالميّتين مع زعيم حرب أو مع عابر في الشّارع. وعند اقتضاء الحاجة، يصبح المترجمون جيشاً، ويستطيع سائقو التّاكسي أن يتدبّروا أنفسهم لإرشاد الزّبون إلى وجهته الصّحيحة وسط التعرّجات الصغيرة للجغرافيا السياسيّة. نادراً ما أظهر النّاس المنذورون للموت اهتماماً على هذا النّحو ولا مثل هذه الطّلاقة في الكلام. وحتّى عندما تستنفد البراهين، بالإمكان إحياء الحوار والتذرّع أمام الصحافي، خصوصاً إذا كان قليل الخبرة، بأنّها مؤامرة. لا، بل هي المؤامرة الكبرى، المكيدة العظيمة المتربّصة بالوطن والمتغيّرة باستمرار. وما يتحدّث به النّاس مقنع، على الأقلّ في البداية. وحتّى عندما يغالون في أوصافهم يبدون، على حدّ قول الصحافيّين، مطّلعين وحاذقين في التّعبير عمّا يفكّرون به ولا يجوز

أن نحرم القارئ والمستمع والمشاهد ممّا يصرّحون به. إنّها الحرب التّي يسهل الولوج فيها أكثر من أيّ وقتٍ مضى وبالدّرجة الأولى من خلال عنصرها البشري الذي يعطي لوناً ومصداقيّة لتحليلات جغراسيّة تذهب في كافّة الاتّجاهات.

كانت المدينة منفتحة في ازدهارها واستمرّت كذلك في خرابها. صحيح أنّ ساكنيها انغلق أحدهم على الآخر لكنّهم ظلّوا لوقت طويل على رحابة صدرهم للأجنبي، المهمّ أن يأتي من بعيد. بيد أنّ بيروت تؤكّد استمراريّتها ليس فقط من خلال نمط عيشها بل عبر المعاني المتعدّدة لحربها. وبالتّأكيد، كلّ يوم يمرّ وكلّ جدال يحتدم وكلّ حقدٍ يظهر، كلّ ذلك يأتي بدلائل دامغة على هذا التمزّق الداخلي الذي يوغل جذوره في حسابات ماضية لم تحسم أبداً كما يجب لا بل يرقى عهدها أحياناً لأكثر من قرن. صحيح أيضاً أنّ حرب لبنان هي فعلاً حرب اللّبنانيّين ومنهم البيروتيون، حتّى لو رفض بعضهم أو يرفضون القيام بخطوة باتّجاه العنف. لكنّها أيضاً حرب الآخرين وهم كثر، حرب الغرباء الذين يزيدون الانشقاقات المحليّة تأجّجاً ويجعلون الوضع أكثر تعقيداً ويزوّدون أسياد الحرب بالأسلحة ويتلاعبون بهم ليدركوا في ما بعد أنّ العكس صحيح وأنهم هم أيضا يجري التلاعب بهم في الحرب كما في السّلم، دخلت المدينة في متاهات الصّراع الإقليمي، لا بل الدّولي، وهذا أمر واضح للعيان. لا حاجة للقيام بتحليل جغراسيّ لكي نتثبت من الأمر، فتعدديّة العنصر الانساني الذي أعاد تشكيل بيروت تشهد دائماً على ذلك.

والمدينة المختلطة سرّ الحرب المختلطة. وبيروت، كما في أيّام العزّ، مزجت بحجّة أو بأخرى كلّ الاختلافات، أيّ ما يقارب ثلاث دزّينات من الجنسيات المختلفة التّي خلّفت وراءها قتلاها. وعدا النّواة المؤلّفة من أطراف الحرب الأساسيّة أي اللّبنانيّين طبعاً والفلسطينيّين والسوريّين والاسرائيليّين، شهدت بيروت توافد جنسيّات وشعوب أخرى كالعراقيّين والليبيّين الذين ارسلتهم حكوماتهم باسم التّضامن العربي لمساندة الفلسطينيّين، ثمّ، لاحقاً، ما لبثت هذه الحكومات نفسها أن قدّمت دعماً دبلوماسياً لا بل أسلحة لأخصام الفلسطينيّين السّابقين. كذلك شهدت بيروت تدفّق السعوديّين والإماراتيّين واليمنيّين والسودانيّين الذين شكّلوا لسنتين عناصر ما سمّي: قوّات الرّدع العربيّة قبل ان تقتصر في ما بعد على السوريّين فقط. وايضاً الأميركيّين والفرنسيّين والإيطاليّين والبريطانيّين الذين شكلوا قوّة متعدّدة الجنسيّات بشكل عابر. وكان هنالك أيضاً الإيرانيّون المنتمون إلى حرس الثّورة وعملوا على تنظيم حزب الله في الضّاحية. وإمعاناً في الطّابع الكوسموبوليتي للحرب، انتدبت منظّمة الأمم المتّحدة قوّة دوليّة إلى لبنان، هي قوّات الطّوارئ الدوليّة التّي بقيت في لبنان من عام 1978 حتّى مطلع القرن الواحد والعشرين، وقد ضمّت إلى صفوفها جنوداً ووحدات من أقطار العالم الاربعة، من فرنسيّين وايطاليّين ونيباليّين وايرلنديّين وهنود ونروجيين وسويديين وإيرانيين – غادروا إثر سقوط

نظام الشّاه – وغانيّين، اتّخذوا لهم قاعدة في جنوب البلاد. ولم يكن يتورّع كلّ هؤلاء عن تمضية بضعة أيّام في بيروت عند هدوء جولات العنف.

وهناك من أتى إلى لبنان بصفة شخصيّة: الفاشيّون الفرنسيّون المنتمون إلى جماعة «أوكسيدان» Occident الذين حاربوا إلى صفوف الميليشيات المسيحيّة عام 1976، المقاتلون المصريّون والمغاربة والتونسيّون أنصار المقاومة الفلسطينيّة والمقاتلون المنتمون إلى حركات تحرّر اخرى ولكن مشكّلة ايضاً في إطار المقاومة ذاتها من اريتريّين وصحراويين وأكراد من حزب العمال الكردستاني، ولا ننسى الشيوعيّين العراقيّين. وهنالك ايضاً المناضلون من أقصى اليسار الأوروبي أو الأميركي الجنوبي كالمونتينيروس الارجنتينيين وأنصار «العمل المباشر» من المانيّين وسويسريّين وايطاليّين الذين شكّلت المنظّمات الفلسطينيّة الراديكاليّة ملاذاً لمشروعهم الإرهابي. ولا ننسى أيضاً الكلام عن حفنة من اليابانيّين التّابعين للجيش الأحمر وفنزويلي مدعو كارلوس. كما لا ننسى ايضاً، وإن في سياقٍ مختلف، الصحافيّين المنتمين إلى أصول متعدّدة كالموفدين السويسريّين من اللّجنة الدوليّة للصّليب الأحمر والاطبّاء دون حدود الفرنسيّين أو البلجيكيّين، والعاملين الآخرين في حقل النّشاطات الخيريّة الذين شكّل لبنان، بعد بيافرا، مجالاً أوّلاً لمساهماتهم.

وأخيراً، هنالك الذين اختاروا بيروت مقرا لهم ولا يزالون فيها. نعني بهم المفكّرين المعارضين الآتين من كافّة البلدان العربيّة، وهم غالباً ما أفادوا، بالإضافة إلى ترحيب اللّبنانيّين بهم، من رعاية المقاومة الفلسطينيّة لهم. وباستثناء السّوريّين الذين رحلوا إلى بلدان أخرى خوفاً من ان يعتقلهم النّظام السّوري من جديد، فإنّ غالبيّتهم بقوا في بيروت طيلة الوقت الذي كان الفلسطينيّون فيه يتصدّرون الموقف، أيّ حتّى عام 1982. زد عليهم فرنسيّي المشرق وقد ضمنت لهم طويلاً العلاقات المميّزة بين المسيحيّين و«الأمّ الحنون» من جهة، والسّياسة العربيّة الموروثة من الجنرال ديغول من جهة أخرى، أن يتعرّضوا لابتزازات أقلّ من رجال الشّارع. وحتّى بعد غياب هذه الضّمانة، اختار بعضهم البقاء وإن اضطرّوا إلى تغيير الحيّ الذي كانوا يسكنونه. ولا ننسى العمّال المهاجرين غير المتخصّصين المستخدمين في الاعمال الاكثر مشقّة كالمصريّين والهنود والسريلنكيّين والسريلنكيّات والفيلبينيّين والفيلبينيّات وجميعهم جاهزون لأعمال السّخرة والاستغلال. أحياناً كانت الميليشيات نفسها تصادرهم وترغمهم على ملء أكياس الرّمل. لكن يبدو أنّهم وجدوا الحياة تحت القنابل، ارحم بكثير من قراهم البائسة التي جاؤوا منها.

لم تستحقّ بيروت شهرتها كصورة مصغرة عن المعمورة كما استحقتها خلال هذه الخمس عشرة سنة المضنية. ولم يكن العديد من البشر، الذين هم ضحايا انعدام الانسانية، موجودين على ارض المعركة إلاّ بصفة المراقبين الموفدين بمهمّة أو الشهود المدعوّين على الرّغم منهم للشّهادة أو الضحايا

المحتملين، ويا للأسف، الفعليين في معظم الأحيان. أمّا الآخرون فكانوا المتورّطين بشكل اوثق في هذه المواجهة أو تلك من مواجهات العنف. لكن، ليس تعدّد الانتماءات القوميّة وحده الذي أعطى الصّراع الذي يمزّق المدينة والبلاد بعدا كونياً. فهنا تتلاقى تقاليد الشّرق السلفية بالحداثة الأكثر تفجّراً. هنا تجتمع كلّ خصومات العالم لتنفجر على أرض الوطن.

الخصومة الأكثر جلاءً للنّاظر، والتي تشكل على ما يبدو ميزة البلاد، مهما امتنعنا عن التسليم بالامر، هي الانقسام الطائفي: ذلك أنّ المسيحيّين والمسلمين الممثّلين لكافّة الانتماءات الدينيّة المتوارثة منذ نشوء المسيحيّة والإسلام في الشّرق، والذين صنعوا، كما يقال، غنى لبنان المعاصر، صنعوا شقاءه أيضاً. إلاّ أنّ هذه الخصوصيّة ليست ربّما كذلك. بالطّبع، لن ندخل في المفاضلة بين دين وآخر وخلف التسميات الدينيّة، هناك بكلّ بساطة غريزة التجمع الموغلة في القدم التي تعوم من جديد على السّطح نتيجة عجز الدولة-الأمة عن التحقق. رأينا ما حصل في أفريقيا وما حصل لاحقاً في يوغوسلافيا وهي بلاد حكمها العثمانيّون أيضاً في ما مضى. مهما يكن الانقسام الطّائفي فاعلاً، فهو أبعد من أن يستوفي الموضوع، ولا يظهر ابداً بعريه ولكن كما تحرفه وتبدل في مساره الشبكات العامة لتحليل الحرب. هاهنا تكمن ولا شك الخصوصيّة الحقيقيّة للحرب اللّبنانيّة، الا وهي التداخل مع مواجهات اخرى: اليسار واليمين، الصّراع الاسرائيلي-العربي، الحروب العربيّة الدّاخليّة، الحرب الباردة، وفي النّهاية المواجهة بين أميركا، الشّيطان الأكبر، والإرهاب الذي لم تغب عنه أيضاً صورة الشّيطان.

تبدو تركيبة الصّراعات التّي تألّفت منها حرب لبنان من الغنى بحيث زادت احتمال عودة التّحالفات الأكثر استبعاداً. لم تعد الانحرافات القصوى في المواقف، حتّى لو بلغت مئة وثمانين درجة، تثير الدّهشة ولا السّخط، فقط اللاّمبالاة. تضحي المصالحات مفاجئة كما حصلت القطيعات، من دون أن يزيد هذا من حجم الآمال المتوقّعة.أشياء كثيرة بوسعها أن تحدث والأسوأ أكيد ولا ينجو منه احد. لم تترك المجازر والاستفزازات التي حصلت أي فصيلة، أو محرّكاً لصراع محليّ أو أجنبي إلاّ وألبسته صورة الضحيّة من دون ان تمنعه أيضاً عن أن ينزع قناع الجلاّد. «للقتلة أمّهات أيضاً»، يقول عنوان أحد الكتب الكثيرة التّي ألّفها على عجل صحافيّون أرادوا التّزحلق فوق أمواج الأحداث الرّاهنة ولم يتردّدوا عن تنصيب أنفسهم خبراء في علم إناسة العنف.

ما همّ، ما من شيء إلاّ وقيل وكُتب عن هذه الحرب لأنّ كلّ شيء ممكن الحدوث في بلاد تبدو في آن الضحيّة والجلاّد وساحة خصبة لتقاتل جنوني ضار يشارك فيه الجميع. وهذا بالذات ما يثير حوافز القلق. في منتصف الثمانينات، أضحى جواز السّفر اللّبناني لعنةً في المطارات. يكفي أن يرد اسم بيروت على جواز سفر أجنبي ليكون مثار شبهات ويسبّب المتاعب لصاحبه. ولم يتوانَ الأدب البوليسي عن تصدير صورة اللّبناني الإرهابي العنيف إلى أربعة أقطار الدّنيا. أمّا في الأفلام التي تحلّت

بقدر اكبر من الجديّة، فحلت كلمة لبننة شيئا فشيئاً مكان كلمة «بلقنة»، كلمة طالما أرعبت اللّبناني في بداية الحرب، إلى أن تحوّلت بيروت إلى اسم عادي يراد من خلاله التّعبير عن سحر الموت. وأخذت العواصم الكبيرة تحصّن سفاراتها ومبانيها الحكوميّة على غرار بيروت واضعة أمام دوائرها أوتاداً من الباطون للحؤول دون دخول محتمل لشاحنات انتحاريّة راغبة في أن تحذو حذو الشاحنات التي دمّرت السّفارة الأميركيّة ثمّ مجمّع المارينز وبعده مجمّع دراكار لجنود الفيالق الفرنسيّة. وهذه أحداث ثلاثة كانت علماً في المتخيّل السّياسي الذي ميّز نهاية القرن العشرين.

مسرح العالم قاس . فلطالما أرادت بيروت الوصول إلى العالميّة منذ ما يقارب القرنين وها قد بلغتها أخيرا بفضل...حربها. والأسوأ من ذلك، ستصل إلى هذه العالميّة برفضها للعالمي. للمرّة الأولى في تاريخها المعاصر، تغلق بيروت أبوابها في وجه الأجنبي، ويفضي الإغواء الذي يخلقه الغرب إلى نقيضه. هذا ما دفع ثمنه بعض الرّعايا الأجانب التّعساء الذين أخذوا رهائن لسنوات طويلة. عبثاً ينصاع مجانين الحروب لمنطق الدّولة، بل كانوا أسرى حساباتهم الماديّة الضيّقة للحرب التّي أدّت في الوقت عينه إلى مواجهة عنيفة بين ايران والعراق. ونجحت بلاغة مستوردي الثّورة الايرانيّة في إبدال ثقافة المختلف بثقافة الآخر. استسلمت بيروت التي أضنتها الحرب للأمر. بعد ان شهدت بيروت اغتيال مالكولم كير Malcolm Kerr وهو باحث متعاطف مع العالم العربي، وُلد في لبنان ورئس الجامعة الأميركيّة التي لازم اسمها شهرة المدينة وازدهارها لدرجة أننا نسينا أصلها، أوشكت أن تفقد روحها عندما تركت ميشال سورا Michel Seurat يُقتل دون رحمة في أحد معتقلات ضاحيتها، ميشال سورا الفرنسي المستعرب الشّغوف بالإسلام والعروبي المناضل داعم القضيّة الفلسطينيّة والمساند الشّجاع للمجتمع السوري الرازح تحت وطأة نظامه.

لم يكن الرّهائن الغربيّون وحدهم «خارج الحياة»، تيمّناً بالعنوان الجميل لفيلم مارون بغدادي، أحد المبدعين البيروتيّين الأكثر تمثيلاً لروح المدينة، والذي صوّر في فيلمه صحافيّاً فرنسياً يختطف ويعتقل في الضّاحية. أصبح لبنان برمّته «خارج الحياة». صحيح أنّ الحرب لم تكن دائمة الاستمراريّة في الزّمان أو في المكان؛ هناك فترات هدوء طويلة أعقبت أحياناً حلقات العنف وخلقت حالة أشبه ما تكون طبيعيّة، واستطاعت بعض المناطق الأكثر أمناً أن تتخلّص من سطوة الحرب بلباقة. لكن هذه الخمس عشرة سنة ألّفت مع ذلك مجموعة متّصلة استمرّت فيها الحياة وكأنّها معلّقة خارج الزّمن، وجسّدتها بيروت أفضل تجسيد.

لا تختزل بيروت الحرب التي اجتاحت المناطق جميعها من حين إلى آخر، وبين الفينة والأخرى. لكن بيروت تبقى مع ذلك نجمتها التي لا تضاهى، ليس لأنّ الحرب فيها جميلة، بل لأنّ الحرب تحدث في ديكورات مدينة عصريّة فيعبّر العنف المتأصّل في نسيج أبناء المدينة عن نفسه أمام المشاهدين بلغة

أفضل . المدينة في الحرب تبدو شديدة التّأثير في نفوس المسمّرين أمام أجهزة التّلفاز، وهذا ما تحقّقنا منه يوم اندلعت الحرب في ساراييفو. المدينة في الحرب تشد المشاهد أكثر لا سيّما إذا اجتمعت فيها مشاهد متناقضة. ترى مساحات تمتدّ على عدّة مئات من الهكتارات، هجرتها الحياة وغزت النباتات البريّة مبانيها الشبحيّة معلنةً موت المدينة. ترى خطّ تماس واضحاً، جلياً ومحدّداً تحيط به متاريس من أكياس الرّمل وحصوناً معدّة في الطّوابق الأرضيّة الباقية من المباني المهدّمة، ومقاتلين يتبادلون الطّلقات والشّتائم؛ أحياء عسكريّة على الجهتين جعلت الشّوارع طرقاً مسدودة مقطوعة بدفاعات مرتجلة مصنوعة من هياكل الباصات وجبال الرّمل الأحمر أو من حاويات مسروقة من المرفأ بغية حماية السكّان الذين تحوّل صمودهم إلى أمر روتيني. أحياء تعجّ بالمارّة فتفرغ فجأةً لأنّ وابلاً من القذائف انهمر عليها أو لأنّ سيّارة مفخّخة انفجرت فأحدثت فراغاً في الشّارع لبضع ساعات أو بضعة أيّام تاركة آثارها على الفيترينات المحطّمة والجدران المثقوبة. وترى أحياناً بعض الأحياء البعيدة عن خطوط النّار كدور السينما والمطاعم تتحيّن الفرصة السّانحة لفترة من الهدوء النّسبي يقطعه أحياناً مرور الميلشياويّين ببذلاتهم وسياراتهم العسكريّة أو تقطعه من دون استئذان قذيفة بعيدة المدى أو اعتداء أو مواجهة بين أناس يسعون إلى تصفية حسابات فيما بينهم.

بالإضافة إلى التنوّع المكاني، شهدت بيروت تنوّعاً في ممارسات الحرب: قصف أعمى للأحياء السكنيّة بالمدفعيّة الثقيلة وهو الظّاهرة الأكثر تواتراً للنّزاع؛ قناصة مهمّتهم ترهيب الشّارع المواجه للمكان الذي يرابطون فيه أو قطع مفترق طرق؛ خطف على قاعدة الانتماء الطّائفي تكثّف في بداية الحرب عندما لم تكن المدينة مقسومة إلاّ جزئياً ثمّ وصل إلى ذروته في حملة السّبت الأسود في 6 كانون الأوّل/ ديسمبر 1975 ليعاود ظهوره في الثمانينات؛ حروب صغيرة داخل الحرب جعلت الميلشيات المنتمية إلى الخطّ نفسه تتقاتل في ما بينها مستعملة بشكل خاص الأسلحة الأوتوماتيكية؛ تفجير ليلي للمركبات والمخازن، سيارات مفخخة مفجرة لاسلكياً هدفها إمّا الإخلال باستقرار المنطقة المواجهة، وإمّا كوسيلة لاغتيال إحدى الشخصيّات السياسيّة؛ مصادرات تجري عنوةً للشّقق بهدف ايواء مدنيّين هُجّروا من بيوتهم. لكأنّ كلّ ذلك لا يكفي فوجب على بيروت أن تعرف الحرب «الكلاسيكيّة»، أي تلك التّي استخدمت فيها أحدث الأسلحة وشنّتها اسرائيل ضدّها خلال صيف 1982. وفيما كانت اسرائيل بمدرعاتها وجنود بحريّتها تفرض على بيروت الغربيّة حصاراً ينتمي إلى عصور أخرى عمدت فيه إلى قطع سبل الماء والغذاء، كان طيّاروها أسياد الجوّ الذين أنفقت ملايين الدولارات على تأهيلهم وتجهيزهم بآخر اختراعات التكنولوجيا الأميركيّة ينقضّون على ملعب المدينة الرّياضيّة ويدكون المباني السكنيّة ويقصفون... الكنيس الموجود في الحيّ اليهودي والذي يحرسه الفلسطينيّون. أظهر بعض البيروتيّين في تلك الحلقة الرهيبة من أيام الحصار – التّي تفوق بمآسيها الحلقات الأخرى

كلّها – منعة وكرامة. لكن لبنانيّين آخرين وبيروتيّين آخرين افتعلوا مجزرة صبرا وشاتيلا التي قضى فيها اكثر من ألف مدني فلسطيني ولبناني خلال 48 ساعة، بالمباركة التامّة للمحتلّين الاسرائيليّين. لم ينم أبناء المدينة عن جور الاحتلال لأكثر من يومين، وانطلقت المقاومة من شوارعها. وتنفست بيروت كما بعد كلّ محنة الصّعداء، إنّها الحياة حين تكون قريبة جداً من الموت.

ولمرّتين على التّوالي، في نوفمبر 1976 وأكتوبر 1982، حلمت بيروت بإعادة توحيدها. لمرّتين انكبّ علماء تنظيم المدن على دراسة مشروع إعادة بناء وسطها المهدّم. لمرتين ولم يدم هذا الفاصل في كتاب الحرب سوى ثمانية عشر شهراً في أحسن الحالتين. ثمّ عادت خطوط التّماس لتحتلّ مركز الصّدارة. هذا لا يمنع القول إنّ فترات هدنة قصيرة تخلّلت جولات العنف ولكنّها أضحت مجرّدة من الآمال الكاذبة. إنّها فترات اللاحرب واللاّسلم، أو على وجه أدقّ، فترات نصف الحرب نصف السّلم، وهي لو أحصيت دفعة واحدة لشكّلت الحيّز الأكبر من الصّراع الذي شهده لبنان طيلة خمس عشرة سنة.

لكن المدينة لم تكفّ إطلاقاً، وخلال فترات الهدنة الطّويلة الحافلة بالوعود، عن أن تحيا حياتها الغربية. وبالرّغم من كلّ المحاولات فقد أبناؤها الأمل في إعادة توحيدها. لم يعد هناك بيروت بل بيروت الشرقيّة وبيروت الغربيّة، نصفان لجسد واحد يدير أحدهما ظهره للآخر. وإن تجرّأ النّاس على العبور من جهة إلى أخرى في المدينة، في أيّام الهدوء النّسبي أو حين تستريح فوّهات المدافع تبقى المحاولة محفوفة بالأخطار. لكنّ منطقهم المديني صار مزدوجاً، خصوصاً مع توزّع المباني التّجاريّة والإدارات المعنيّة بمصالح المواطنين في شطري المدينة. أضحت الخطوط الأساسيّة للسّير تدور في حلقة مغلقة سواء في الجزء الغربي أم الشّرقي من المدينة. وظلّ المشهد المديني محتفظاً بتشوّهاته حتّى في فترات الهدوء: اتّجاهات وحيدة للسّير تأقلماً مع الجغرافيا الجديدة للمدينة، أوتاد منصوبة على حافّة الأرصفة لمنع سائقي السيّارات المجهولين من الوقوع في فخّ الحواجز المنصوبة والاحتياط بذلك لاعتداءات جديدة بواسطة السيارات المفخّخة، شوارع مسدودة بهدف الدّفاع عن مراكز الأحزاب الثّابتةأو مساكن زعمائها...

لكنّ الحالة الأغرب هي رغبة السكّان التي لا تقاوم في مواصلة مسيرة العيش بوتيرة طبيعيّة مهما تكن الظّروف غير مؤاتية. يذهب الأولاد إلى المدارس محاولين استدراك ما فاتهم من أيّام التّعطيل القسري بالرّغم من أنّهم غير واثقين من تحصيل ما ينبغي تحصيله خلال سنة دراسيّة كاملة. تتمّ بعض الزيجات وسط مظاهر الأبّهة أحياناً. تُعرض مسرحيّات وتُنظّم معارض رسم وتتأقلم حياة اللّهو والتّسلية مع أجواء الحرب. تُفتح قاعات السينما والمطاعم وتنمو، وكأنّ شيئاً لم يكن، خاصّةً مع توسّع بيروت الشرقيّة باتّجاه تجمّعات الساحل الشّمالي والضّواحي القديمة للاصطياف الملتصقة بخاصرة

الجبل. وعندما تسمح الحالة الأمنيّة، تعود في الرّبيع طقوس الاستحمام والبرونزاج إلى الشواطئ.

هل نُسيت الحرب؟ كلّ يوم تُنسى وكلّ لحظة تُذكر: ينهال علينا رصاص القنّاص ونحن نجازف بالعبور في شارع غير آمن للوصول إلى إحدى الحفلات عند الوقت المحدّد؛ تنفجر سيّارة مفخّخة ونحن في طريقنا إلى أحد السوبرماركات، ينهمر القصف ونحن ذاهبون إلى الشّاطئ؛ قد لا نرجع من حيث أتينا ونواصل سيرنا مع ذلك... نحيا حياتنا اليوميّة كأنّنا مقاتلون وإن لم نكن في صفوفهم؛ نتقن الاختباء عندما يستلزم الأمر؛ نرهف السّمع لكي نميّز أصوات القصف الرّوتيني عن القصف المدمّر. يقضي الكثيرون ويُصاب آخرون بجروح لا تشفى. ربّما هذا ما يجعل من بيروت مدينة آسرة، لأنّ الحياة تعاند فيها الجراح، ولأنّها في خرابها تبقى مدينة.

إلاّ أنّه جاء وقت لم تعد فيه المدينة تشبه نفسها. استطاعت بيروت الغربيّة التّي تتركّز فيها معظم المعالم السياحيّة الفخمة الدالّة على عصر المدينة الذّهبي أن تبقى رغم كلّ الظّروف مدينة توحي بأنّها تشبه ماضيها حتّى عام 1982. لكنّها لم تلبث أن تدهور وضعها بعد الهدنة التي شهدتها في الأشهر الأولى لعام 1983. بعد رحيل الفلسطينيّين وانتهاء الحرب الباردة، عادت الرّهانات اللّبنانيّة إلى الصّدارة ولم يعد مقاتلو الميلشيات يريدون التذرّع بأي حجّة او ايهام أحد لتبرير مواصلة جولات العنف. إنّها الحرب للحرب، إنّها الحرب لنضمّ حيّاً إلى المساحة التي سيطرنا عليها، إنّها حرب الإثراء عبر الابتزازات والاتّجار غير المشروع؛ حرب تصفية الحسابات بين ضحايا التّهجير الريفي ومدينة جعلتهم على هامشها ولم يتسنّ لهم الوقت لينصهروا في بوتقتها فعادوا ليكونوا الأسياد الجدد وينتقموا من مدينة لم يستطيعوا تدجينها. وإذا ما اخترق رهان خارجي هذا الحقل المغلق، أمعن المقاتلون في إقفال مداخل المدينة في وجهه. لم يعد الاجانب الذين يجازفون بالسّير في شوارعها صالحين إلاّ ليكونوا رهائن. أخذت بيروت تتصدّر الصّفحة الأولى من الأحداث العالميّة الرّاهنة ومع ذلك تجاهلها العالم. لم يعد يحدو ساكنيها إلاّ الرّغبة في الرّحيل ورحلوا بعشرات الآلاف. غادرت بدايةً النّخب الاجتماعيّة والشّرائح الأكثر التصاقاً بحضارة الغرب من الطّبقة الوسطى باتّجاه لندن وباريس، وغادر آخرون باتّجاه المانيا والسويد واوستراليا وكندا...أمّا بيروت الشرقيّة فبدت وكأنّها تكبر على حساب أفول بيروت الغربيّة، لكنّها لم تكن قادرة مع ذلك على أن تجسّد صورة المدينة الغابرة. ثم إنّ الحرب لم توفّرها هي أيضاً. وإذا وجدت صناعة وسائل التّرفيه أرضا خصبة في رحابها فقد تعدّت حدودها الجغرافيّة. ورحل أيضا ساكنوها عنها وبكثافة، لا سيّما أنّ الايديولوجيا السائدة في تلك المناطق تعارض الاختلاف. لقد احتضنت القادمين إليها من الغرب لكنّهم ظلّوا على مسافة من أهلها بسبب ضوضاء الحرب، كذلك احتضنت الزوّارالأثرياء من الخليج. أما المفكّرون العرب الذين تردّدوا إلى المدينة في أيّام عزّها المجيدة وصمد معظمهم في بيروت الغربيّة حتّى عام 1982، فإنّهم لم يشعروا بأيّ

جاذب يشدّهم إلى بيروت الشرقيّة.

ومن دون ضيوفها، تفقد بيروت روحها. لذا وجب البحث عن روحها على مسافة أبعد، أي في باريس ولندن اللّتين استقبلتا الصّحافيّين والأدباء من المحيط للخليج واحتضنتنا الصّحف المؤيّدة للعروبة ووكالات الإعلام، فبُذلت كل الجهود لكي يُستعاض عن بيروت العاصمة الفكريّة للعالم العربي. لكن، يجب البحث عن روح بيروت خصوصا في الاسطورة التّي حاكتها المراثي الجنائزية حداداً عليها.

لا يلحظ الادب الغربي موت بيروت ما خلا عبارات قليلة. أمّا الأدب العربي فأعلن الحداد عليها: « نعترف أننا ظلمناك يا بيروت»، يقول الشّاعر الدّمشقي نزار قبّاني، شاعر المرأة والحبّ الذي عاش فبها طويلاً ونشر فيها دواوينه التّي طبعت بآلاف النّسخ. ويقول محمود درويش الذي قضى فيها عشر سنوات: «بيروت خيمتنا»، «بيروت الاندلس والشام». صارت المدينة أسطورة تؤاسي نفسها بأنّها لم تعد موجودة وتتعهّد في آن بأنّها «ماتت ألف مرة وألف مرة عادت إلى الحياة» على حدّ قول الشّاعرة ناديا تويني.

أيّة مدينة لأي تاريخ؟

المخيلة الشّعريّة وحدها لا تفسّر هذه الرّؤية عن مدينة تُبعث باستمرار. ولا يعتبر قول ناديا تويني مجازاً، لأنّ ما فعلته الشّاعرة هو استعادة مضخّمة لمعتقد شعبي شائع مفاده أنّ بيروت تهدّمت سبع مرّات وفي كلّ مرّة كانت تنهض من الرّكام وتستعيد روعتها. وقبل آخر خراب لها استعاد إليزيه روكلو، أب الجغرافيا المعاصرة، الأسطورة قائلاً: «قدر هذه المدينة ان تعيش وتعيش من جديد رغم كلّ شيء. يمرّ الغزاة وتنهض المدينة بعد رحيلهم[4]».

لكن، هل هذا أكيد فعلاً؟ هل هي إذاً المدينة نفسها؟ والتّاريخ نفسه؟ لا يمكن لمن يؤرّخ لبيروت ان يتنصّل من الإجابة عن هذه الاسئلة، وهو يصطدم دفعة واحدة بمشكلة الانطلاق من نقطة البداية وبالتّالي مشكلة الموضوع الذي تتمحور حوله دراسته. هل يجب التشبّث باستعادة هذه الحيوات والميتات المتتالية لبيروت، وإلى متى؟ هل يجدر بنا أن نرقى إلى الماضي السّحيق، ونتشبّث بمقولة أنّ سكنى الإنسان في هذه المدينة ترقى إلى عهد قديم إلى ما قبل العصر النيوليتي وأنّها استمرّت من دون توقّف؟ هل يجدر البحث عن حلقات التّواصل بين عهود المدينة القديمة وعاصمة القرن العشرين المفاخرة التي تضمّد جراحها وتخرج من بين الأنقاض؟ هل يجدر بنا ان ندرج في الحلقة نفسها بيروت أم الشّرائع الرومانيّة وبيروت عاصمة الأدب العربي؟ أم علينا أن نكتفي بالرّبط بين حلقات تاريخها الراهن لأنّه وحده أسّس المدينة حسبما تنكشف للناظر والمتخيّل على السّواء؟!

إشكاليّة فريدة والحقّ يُقال. بدايةً لأنّ بيروت ظلّت لوقت طويل غريبة عن التّاريخ الرّسمي اللّبناني كما عن البحث التّاريخي، هذا من جهة؛ ولأنّ خيار المؤرّخ في لبنان يعني، أكثر من أيّ مكان آخر، التّأكيد على هويّة البلد(5). وهذا بالضّبط ما يواجهنا عندما ندرس تاريخ بيروت حتّى لو أدّى بنا البحث إلى نتائج متنافرة من خلال عرض نماذج تاريخيّة متشابهة بمنهجيّة محايدة يستدعيها التاريخ المدني بالمعنى الواسع للكلمة في هذه الجهة من المتوسّط.

في المحيط المباشر لبيروت، تخضع المدن لنموذجين متعارضين من الدّراسة التاريخيّة. هناك من جهة مدن باتت متواضعة اليوم مثل بيبلوس وصور وتتمحور الأعمال التّاريخيّة بشأنها حول مجد قديم لا ينضب، وهناك من جهة اخرى دمشق وحلب اللّتان تتنافسان على لقب المدينة الأقدم التي سكنها الإنسان على هذا الكوكب واللّتان تتناولهما أكثريّة المؤرّخين في إطار التاريخ العربي والعثماني. لكنّ كلا هذين النّموذجين ينطبقان على بيروت ويجعلان منها موضوعاً لمنهجين يتنكّر أحدهما للآخر، منهج الأثريّين أي علماء الأركيولوجيا – المختصين بالحضارة الفينيقيّة أو بالرومانيّة أو بالهلنستيّة – ومنهج دعاة التاريخ المعاصر الذي يبدأ بالسلطنة العثمانيّة وصولاً حتى القرن العشرين. من هنا، بالإمكان مقارنة بيروت فقط بالاسكندريّة التي احتجبت عن مسرح الأحداث فترة خمسة عشر قرناً فصلت عصرها الذهبي أيام بطليمس عن عصر دوريل. إلاّ أنّ الدراسات المتعلّقة بالاسكندريّة لا تستوجب، كما في حال بيروت وهي عاصمة دولة هي نفسها حديثة وموضوع إشكاليّة، سرداً تاريخياً متماسكاً لجماعة يتكوّن منها النّسيج الوطني.

هناك صعوبة ناتجة عن هذا الانقسام، ولا يمكن تلافيها ، كما لا يمكن تلافي فكرة الانبعاث الجديد لبيروت بعد خمس عشرة سنة من الحروب، وقد أعادت إلى الأذهان بشكل شبه عفوي الانبعاثات الأخرى الأكثر قدما في المتخيّل. يتبيّن لنا أنّه بإمكاننا أن نطرح كمبدأ أساسي إن لم يكن استمراريّة النّسيج المديني فعلى الأقلّ الأسطورة. شبّهت المدينة بطائر الفينيق الأسطوري الذي يُبعث دوماً من رماده، أي مدينة الصّراع الأزلي بين الحياة والموت. «مدينة عريقة للمستقبل»، كما يقول شعار سوليدير، الشّركة العقاريّة التي أوكل إليها بناء وسط المدينة.

إذا وضعنا الشّعار والإعلان جانباً، لرأينا أنّ الدّفاع عن قطيعة بين المراحل التاريخيّة أمر يصعب القبول به، خصوصاً بعد أن أثارت الورشة الكبيرة لإعادة الإعمار سجالاً حول ضرورة المحافظة على التّراث المنطلق من البحث الاركيولوجي عن الآثار القديمة ومن ترميم في آن للمعالم الهندسيّة لمرحلتين اكثر حداثة في تاريخ لبنان أي الامبراطوريّة العثمانيّة الآفلة والانتداب الفرنسي. يجب، ولا شك، التركيز على أهميّة التكامل بين أجزاء الموقع، إذا انفصلت الحلقات التاريخيّة بعضها عن بعض. لكن، هل بإمكاننا أن نتجاهل أنّ المدينة، ولو لم تكن رمت بثقلها في تاريخ العالم القديم، شهدت مع

ذلك، وهذا ما يشكّل مفخرتها، مرور شخصيّات لها ثقلها أمثال بومبيوس وصلاح الدين والجزّار الذي انتصر على نابليون في عكا، ولا ننسى دون شكّ معاوية المؤسّس العبقري للدّولة الأمويّة أو حتّى رمسيس الثّاني ويسوع النّاصري؟

إنّ مسألة الاختيار لا تنطلق بالضّرورة من هنا. لا وحدة المدينة ولا الاستمراريّة المتعلّقة باسمها (بيروتا، بيريتوس، بيروت) ولا عبور الغزاة المعروفين ولا كلّ ذلك بإمكانه حجب ضرورة تقسيم متسلسل للحلقات التي شكّلت تاريخ المدينة. لن يستطيع المؤرّخ التملّص من رؤية رومنطيقيّة ولو قليلاً لهذه المدينة والسبب انبعاثها مرّات عدّة، لكن لن يكون بمقدوره أيضاً أن يتجاهل ما يشكّل «اليوم» ذاكرة بيروت وصورتيها النموذجيّتين المتناقضتين والمتكاملتين في آن ألا وهما بؤرة الحداثة العربيّة والحلقة المغلقة التي تدمّر ذاتها بذاتها. هذا هو المرتكز الأساسي للبحث: نقطتا انطلاق توأمان والحقّ يُقال وتتوجّهان كلتاهما إلى خيال الباحث قبل التوجّه إلى علم التّاريخ.

إنّ العودة إلى الحقبات التاريخيّة المتعاقبة، أمر لا بدّ منه للباحث، وهو كذلك بسبب الفترة التاريخيّة الطّويلة الراهنة التي سجّلت فيها بيروت تميّزها. الواقع أنّ بيروت، بخلاف بيبلوس، وصور، وصيدا استطاعت أن تؤكّد نفسها خلال منتصف القرن التاسع عشر وطيلة القرن العشرين كمدينة كبيرة، مدينة احتلّت في المساحة العربيّة المتوسطيّة مكانةً تتجاوز حدودها الجغرافيّة ووزنها الديموغرافي.

تلك هي المنهجيّة التي اعتمدناها في هذا الكتاب الذي ينوي الإحاطة بتاريخ بيروت، أي بدءاً من اللّحظة التي تستدعي فيها انطلاقتها تفسيراً وتتطلّب سرداً. إذا اخترنا أن نأخذ بعين الاعتبار في فصلين سريعين المراحل المختلفة التي عرفتها المدينة منذ العصور القديمة وحتّى مشارف المسألة الشرقيّة في نهاية القرن الثامن عشر، فهذا ليس انطلاقاً من هم موسوعي ولا استدراكاً لنقد محتمل، بل لأنّ التصوّرات المعاصرة لبيروت كما للبنان بشكل عام تصطدم بنظرة مسبقة كيفيّة عن هذا الماضي بدءاً بالإيمان بانبعاث دائم. لا بدّ إذاً، لكي نقوى على نسيان هذه التصوّرات التي تغذيها استمراريّة مفترضة للمدينة، من أن نضفي عليها شيئاً من النسبيّة من خلال تذكيرنا بلا استمراريّة سكّانها. لفرط ما ماتت المدينة وانبعثت، جدّدت حتماً ساكنيها. ووحده التّزايد الديموغرافي الخارق الذي سجّل في بداية القرن التاسع عشر، عشيّة انطلاقة بيروت ونهاية القرن نفسه كاف ليجعلنا نعي حقيقة الانقطاع ويجنّبنا الوقوع في أضاليل التّاريخ إلاّ إذا تزامن تسلسل الأحداث التّاريخيّة مع حركة النموّ السكّاني للمدينة.

لا يجب اعتبار التّزايد الديموغرافي مجرّد زيادة عدديّة، تجدّد السكّان وتجدّد معهم الرّجال والنّساء الذين يشكّلونهم. بالطّبع، احتفظوا مع ذلك بشيء من خصوصيّاتهم الأساسيّة: لكنّ الوافدين الجدد كما الأقليّة الصّغيرة للسكان الأصليّين تغيّروا مع ذلك، كلّ واحد على المستوى الفردي حاول أن

يتأقلم مع سواه داخل مدينة هي أيضاً في طور التحوّل. هذا الاستنتاج، الذي سنرى لاحقاً إلى أي حدّ هو حقيقي، حملنا على عدم تبنّي مقاربة تنطلق من تاريخ الافراد. هناك أبحاث ممتازة متوفّرة في هذا المجال. لذا اخترنا، من دون أن نغفل نرجسيّة الفروقات الصّغيرة، ألاّ ندرس الخصوصيّات إلاّ في تفاعلها وإسهامها في خلق المدينة.

لا شكّ في أنّ هذه المدينة كانت متعدّدة. ما يجعل تاريخها متعدّداً ويستوجب إدراجه في الحلقات السيّاسيّة والاقتصاديّة المختلفة والثقافية خاصّةً التي اتّصلت بها المدينة في عصرها الذهبي الحديث. وإذا كانت بيروت مدينة متعدّدة فهذا لا يعني أنّه ليس في الإمكان تعريفها. بإمكان بيروت أن تعرّف خلال هذين القرنين وأن ترسم إطاراً لتاريخها، ولنجرؤ على الإدلاء بهذا التّعريف المتّسم بأكبر قدر ممكن من الاختزال. لنقل إنّ أهميّة بيروت المبدئيّة هي أنّها بالنّسبة للمؤرّخ حاضرة عربيّة متوسطيّة ذات طابع غربي. بيروت حاضرة عربيّة بصرف النّظر عن عدد سكانها. صحيح أنّ وزنها الديموغرافي متواضع نظراً للمقاييس العالميّة، لكن تسميتها «المتروبول» تفرض نفسها لأسباب تتعلّق بوظائفها وقد ذكرناها آنفاً. حاضرة عربيّة، نعم، والصّفة بديهيّة وهنا تكمن قوّتها. ويبدو مفيداً التذكير بملاءمة هذه الصّفة مع تاريخها الاجتماعي والمدني، بغضّ النّظر عن الأدوار التي لعبتها بيروت على الصّعيد الاقتصادي والثقافي على مساحة الوطن العربي. وبالرّغم من الأهميّة المتواضعة للمدينة في مختلف مراحل التاريخ الإسلامي وحتّى نشوء التّنظيمات العثمانية، فإنّنا نعجز عن فهم تطوّرها إذا أردنا إغفال التّاريخ المدني لسوريا العثمانيّة، وعلى وجه أعمّ للإطار الإسلامي العربي. بيروت مدينة متوسطيّة بامتياز ولسببين. أوّلاً، لأنّ بيروت، قبل أن تصبح مدينة كبيرة، ظلّت لوقت طويل إحدى أساكل الشّرق، وبالتالي على صلة بحركات التبادل التي جرت بين أبناء حوض المتوسّط. استقبلت على مرّ العصور، كما مدن السّاحل الأخرى، عدداً من التجّار الأوروبيّين وتحديداً الآتين من جنوى والبندقيّة. وكانت بيروت أحد المنافذ التي دخلت عبرها المنتوجات التجاريّة والبضائع والسّلع على الضفّة الأخرى للمتوسّط. لا يزال دورها هذا قائماً لكنّه اتّخذ طابعاً عصرياً مع تحوّل مرفأ بيروت في الحقبة المعاصرة إلى مركز استقطاب لسيل الصّادرات التّجاريّة الذي توجّهه أوروبا الصناعيّة. وثانياً، لأنّها تعيد بناء ذاتها اليوم على قواعد من التّنظيم المدني لتصبح أقدر على ممارسة هذا الدّور مع انطلاقة المدن الأخرى على ضفاف المتوسّط، من مرسيليا إلى الاسكندريّة ومن الجزائر إلى ازمير. وإلى احتفاظها بعناصر من البنية الهندسيّة المشرقيّة، تأثّرت مباني بيروت بأساليب الهندسة الأوروبيّة وخاصّةً الايطاليّة والفرنسيّة، إن بشكلٍ مباشر أم بالتّناوب من المهندسين العثمانيّين أو بالوساطة عبر مصر. وبيروت مدينة ذات طابع غربيٍ لأنّ الغربنة هي عنصر بارز من عناصر الصورة النموذجيّة التي تشكّلت حول بيروت.

اكتسبت المدينة شهرتها بالنّسبة إلى العرب كما بالنّسبة إلى الغربيّين أنفسهم بسبب طابعها

الكوسموبوليتي والثّقافي بالدّرجة الأولى. واكتسبت ثروتها من سهولة الوصول إلى المواد الاستهلاكيّة ووسائل الترفيه المستوردة من أوروبا واميركا، ومن الحريّة النسبيّة في ممارسة العادات السّائدة فيها. لكن اختزال الغربنة إلى هذا الأمر، اختزال مخادع ولا شكّ، وليس فقط لتاريخ المدينة وتاريخ لبنان بل لتاريخ الحداثة العربيّة كلّه. والواقع انّنا نواجه هاهنا إحدى «الفجوات السّوداء» للتأريخ العربي المعاصر. نشهد، وهنا المفارقة، غياباً للبحث يوازي حجمه سحر الحنين عند المفكرين الكثر المشتتين حالياً إلى الـ «دولشي فيتا» البيروتيّة التي كانت تجمعهم رغم الخلافات - والأمر نفسه ينطبق على السينما المصريّة التي تشهد تقديراً كبيراً لها من قبل المفكّرين الجادين لكنّها لم تكن قط منطلقاً لدراسة تاريخ الذهنيات.

ولا بدّ من التّذكير بالبعد الآخر لبيروت، مع أنّ في الأمر مجازفة. إنّها لمجازفة فعلاً التّأكيد على الصّورة التّحقيريّة للمدينة التي تمثّلها العبارة الاستعراضيّة الجامعة للباءات الثّلاثة: بيروت- بنك- بيت بغاء. ليس لأنّ هذه الصّورة خاطئة تماماً. لا، ليس الأمر كذلك، إذ لا يمكن الاعتراض كثيراً على هذا العنصر الذي شكّل أحد عناصر هويّة المدينة، بل لأنّ مثل هذا الاختزال يحول دون فهم التاريخ الحقيقي لبيروت، فالتاريخ الاجتماعي أكثر تلوناً مما يوحي به هذا الاختزال لوظيفة المدينة. والتاريخ المدني يعكس عبر الف دلالة ودلالة باروكيّة خيار التهجين الدائم وهو ما بقي غير مفهوم حتّى اليوم. وتاريخ الذهنيات لا يمكن اختصاره إلى مجموعة أخبار محليّة تُعنى بالأثرياء. وتاريخ الأفكار الذي ميّز المدينة لا يمكن طمس معالمه تحت إشكاليّة قائمة فقط على الرّبح والملذات المتيسّرة. لا يمكن لبيروت أن تتماهى مع صورة المركب - الكازينو الذي رسا في عرض الشّرق الأدنى، ولا أن تعتبر منطقة حرّة كما كانت حال مدن كثيرة في العالم الكولونيالي. ومهما بدت آفاقها غريبة بالنّسبة إلى زوّارها الآتين من بلاد الصّحراء والنّفط، فإنّ هذا لا يجعل منها منتجعاً سياحياً بحرياً.

بيروت مدينة مفتوحة ولكن حقيقيّة، وهنا تكمن قيمتها. بيروت جسد حيّ لا يلغي انفتاحها غناها الدّاخلي. وهنا بالضّبط تكمن حداثة بيروت الحقيقيّة التي تقاس انطلاقاً من تاريخ العادات والسلوكيات الاجتماعيّة وتاريخ الأفكار. وهذا ما جعل المدينة في تاريخها المعاصر تضطّلع بمهمّة مزدوجة؛ أوّلاً صياغة الحداثة العربيّة وبلورة مفاهيمها، لكن وأكثر من ذلك، المضي قدماً في ممارسة هذه الحداثة على الرّغم من العقبات القائمة والطّرق المسدودة.

نقترح هذا التاريخ لبيروت لكن دون أمثلة لموضوعه. لن ننسى أنّ موضوعه استنفد في دوّامة عنفه بالذات. وهكذا يؤدّي استجواب حداثة بيروت إلى سؤالها عن فشلها في آن. لكنّنا لم نشأ فقط قراءة تاريخها من خلال المعاناة التي مرّت بها حديثاً في الحقبة الراهنة. وهذا أمر سيتحقّق منه القارئ.

كلّ الأسباب الخفيّة التي أدّت إلى حرب بيروت باتت معلومة، والحرب بحدّ ذاتها في الكتاب ليست معالجة إلاّ كنتيجة حتّى عندما لا تكون محتومة. كان من الغواية العظيمة التحدّث عن بيروت إبّان الحرب وعن الطّريقة التي تأقلمت فيها المدينة مع هذه الحرب، لكن الاستسلام لذلك الإغواء كان من شأنه أن يشوّه تماماً الهدف من هذا الكتاب، لأنّ الكتاب يحكي تاريخ المدينة، وبالتّالي تاريخ تمدّنها، حتّى لو كان يجدر بنا خلقها من جديد، وليس فقط تاريخ موتها، أليس كذلك؟

بيروت، آب/ أغسطس 2003

شكر

يدين هذا الكتاب بوجوده إلى الرّهان الذي قامت به منذ وقت طويل أنياس فونتين Agnès Fontaine في منشورات فايار ضمن مجموعتها المتعلّقة بتواريخ المدن عندما قرّرت إدخال بيروت، وكانت لا تزال خراباً، ضمن المجموعة التي كانت تستعدّ لإطلاقها. نتوجّه إليها بالشّكر وإلى دني مارافال Denis Maraval الذي تعهّد بإنجاز المشروع. وأجرؤ على الأمل بأن يعوّض هذا الكتاب جزئياً عن الصّبر الذي أظهره كلاهما مداورةً.

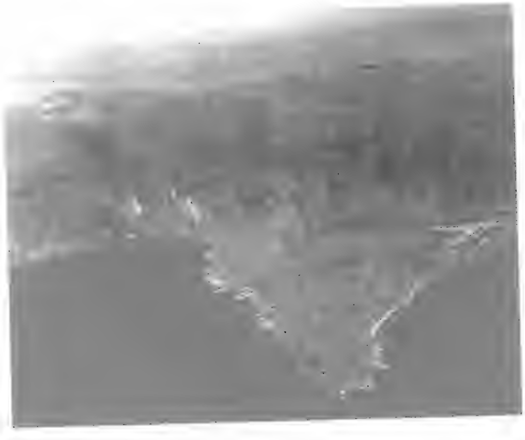
نادراً ما يقدّم المؤرّخ نفسه للناس وحيداً، لا سيّما المؤرّخ المعاصر الذي استغرق كلّ هذا الوقت لينضج عمله. لا شكّ في انّه عثر في طريقه على آلاف الأفكار التي أوحى له بها كلّ هؤلاء الذين خاطبهم ونسوه. أتوجّه بالشّكر إلى كلّ الذين عملوا على موضوع بيروت والذين تسنّت لي فرصة اللّقاء بهم خلال السنوات العشر الأخيرة من ادباء وفنّانين لم يتوقّفوا عن التّفكير بالمدينة. وأيضاً إلى البيروتيّين الذين لم يلتزموا بنشاط فكري مختصّ- لن يكونوا أبداً مجهولين- واستطاعوا أن يخبروني شيئاً عن تاريخ مدينتهم أو يحملوني على مشاهدته.

ومن بين كلّ هؤلاء الذين أدين لهم، يجدر بي أن أذكر بعض الأصدقاء الأعزّاء الذين سمحوا لي أن أشحذ أفكاري على أفكارهم أو أضيف لها بعض الفروقات الضروريّة: فوّاز طرابلسي الذي سلّم المخطوطة لمؤرّخ آخر، وملحم شاوول الذي وضعها في غربال عالم الاجتماع، وكلاهما دفعاني للقيام بتصويبات مهمّة؛ نوّاف سلام الذي قرأ هو أيضاً أجزاء كبيرة من الكتاب وكان حاضراً دوماً للتدقيق في نقطة ما أو لإثراء مراجعي وحملي على الإفادة من تاريخ بيروته هو بالذّات؛ جاد تابت الذي ساعدني على التعرّف على البنى الهندسيّة للمدينة؛ رشا سلطي التي دفعتني باستمرار إلى تعميق نظرتي

في الثّقافة الاجتماعيّة. ألكسندر مدوّر الذي قدّم لي يد العون بصفته مصمّم خرائط؛ وميساء قصير التي ارادت أن تلعب دور الفتاة البريئة وتمتحن تحليلاتي.

وأتوجّه بالشّكر إلى هنري لورانس Henry Laurens وهو بيروتي يتردّد غالباً إلى بيروت ومتخصّص ملمّ بتاريخ العثمانيّين وكان رئيس مركز الدّراسات والأبحاث في الشّرق الاوسط المعاصر (السيرموك CERMOC) الذي أخلى السّاحة للمعهد الفرنسي في الشّرق الأدنى IFPO . جاء هنري لورانس في اللّحظة المناسبة ليوافق على أحكامي او يعترض عليها. كما أتوجّه بالشّكر إلى دومينيك شوفالييه Dominique Chevallier الذي لا تزال محاضراته تواصل فعلها في روحي رغم مرور عشرين سنة على ذلك. وتحيّة إلى الصّديق العلاّمة فاروق مردم بك.

إذا كان لا يزال في الكتاب أخطاء، بالرّغم من هذه المساعدات والإضافات كلّها. فهي من دون شكّ أخطائي.



I

بيروت قبل بيروت



الفصل الأول

حبيبة البحر وأمّ الشّرائع

منذ ما قبل التاريخ الأكثر قدماً، ترك الإنسان آثاره في الشّرق الأدنى. لا يشكّل الموقع الذي احتضن بيروت استثناء، فقد عثر على أسلحة صوانية أشولية في رأس بيروت في الجزء الشّمالي الغربي من المنطقة يرقى عهدها إلى 600.000 سنة.[1]، في تلك الفترة التي سبقت العهد الأوسط من العصر الحجري القديم، كانت التلتان المرتفعتان في المدينة الحاليّة جزراً وكان مصبّ النّهر الذي يحاذي بيروت يقع في فرن الشبّاك، في الضّاحية الجنوبيّة الشرقيّة. الرأس كما نعرفه بكثبانه وصلصاله الرّملي تشكّل في الطّور الحجري الأوسط[2]. لكن بالرّغم من حركة الأمواج التي تضغط على الضّفاف والتحوّلات الأخرى للموقع، تبقى الآثار البشريّة التي حدثت في كلّ مراحل ما قبل التّاريخ، ظاهرة للعيان. وبالإضافة إلى مجموعة المخابئ الصّخريّة التي عُثر عليها في رأس بيروت، عثر أيضا على مخابئ أخرى في ضواحيها وتحديداً في فرن الشبّاك وسن الفيل وأنطلياس حيث اكتُشف هيكلان بشريّان في إحدى طبقات العصر الحجري الأعلى[3].

كانت المنطقة إذاً مأهولة باستمرار والدّليل على ذلك آثار وجدت تحت القبّة الزّرقاء في الرّمال جنوبي بيروت، تعود إلى العصر الميزوليتي المسمّى النّاطوفي في المشرق (10000-8000 ق.م.)، وهذه الآثار عبارة عن قطع كثيرة من الصوّان والشظايا[4]. لم يمارس إنسان العصر الميزوليتي الزّراعة، لكنّه استعمل المنجل ليحصد الحبوب. لكنّ الطّور النيوليتي لم يعد بعيداً. نشأ هذا الطّور في هذا الجزء من العالم في حوض الفرات ولم يلبث أن انتقل إلى السّاحل المتوسّطي. هناك قرية في بيروت تعود للعصر النيوليتي عثر عليها على طريق المطار بعد أن طمرت معالمها إنشاءات رومانيّة. كما اكتشفت آثار نيوليتيّة أخرى في وسط المدينة الحديثة، بين ساحة الشّهداء والبحر[5]؛ ومسلات من الصوّان على صخور الرّوشة حول مغارة الحمام تعود إلى العصر النّحاسي (4000-3000 ق.م.)، وهذه الآثار معاصرة لتلك التي عثر عليها في بيبلوس[6].

لكنّ التاريخ لن يتأخّر في المجيء. شهد الهلال الخصيب في نهاية الألف الرابع وبداية الألف

الثّالث قبل المسيح ظهور الكتابة. وانبثقت المدن المعاصرة لهذا الطّور الثاني والتي بفضلها ستطلق على الساحل الشّرقي للمتوسّط تسمية بلاد كنعان.

الماء والبحر

ليست استمراريّة الموقع استمراريّة سكانه بالضّرورة. لا شكّ في أنّ هؤلاء الكنعانيّين، الذين أعطوا اسمهم للساحل، أتوا من مكان آخر. ووفقاً للافتراض الحالي الأكثر شيوعاً، يعود أصلهم إلى شبه الجزيرة العربيّة. لكن هذا لم يحل دون اغتنام الفرصة لجني أكبر فائدة من استقرارهم الجغرافي الجديد المتّجه صوب البحر. ونالت الحواضر – المدن التي أسّسوها الواحدة تلو الأخرى ، شهرة بفضل جسارة بحّارتها ومهارة تجّارها. تمرّسوا بداية في الملاحة القريبة ثمّ راحوا يمضون أبعد فأبعد إلى أن أقام هؤلاء البحّارة- التّجار مراكز تجاريّة لهم على طول المتوسّط وحتى على الشاطئ الغربي من إفريقيا. أطلق عليهم الإغريق الذين صادفوهم في طريقهم اسم الفينيقيّين نسبةً إلى أسطورة طائر الفينيق الذي يبعث من رماده. وهكذا تلازم اسم فينيقيا مع اسم كنعان تعبيراً عن سكان السهل الساحلي الضيّق لشرق المتوسّط، وعلى وجه أخصّ، الجزء الممتدّ بين عكاّ وأوغاريت الملتصق بمرتفعات جبل لبنان– الوارد ذكره في التّوراة.

لم يخسر الفينيقيّون شيئاً لقاء هذه التّسمية. والإغريق هم الذين نقلوا حضارتهم بشكل خاصّ وعرّفوا بها. وبدورهم، منح الفينيقيّون، عبر صلتهم بالميتولوجيا الإغريقيّة اسماً عظيماً: «أوروبا»، أوروبا مدينة لهم باسمها. تروي إحدى الأساطير الإغريقيّة–الفينيقيّة، قصّة البطلة التّعيسة أوروبا أميرة صور وأخت قدموس. عندما اختطفها زوس، انطلق قدموس ليبحث عنها، وفي طريقه أسس مدينة تيبا، موطن أوديب وسلالته المأسويّة، وعند رجوعه حمل معه الاختراع الأثمن: الألفباء. وفي ما يتعدّى الأسطورة يرجع هيرودوت إليهم الفضل باختراع اوّل ألفباء معروفة في التاريخ مؤلّفة من اثنين وعشرين حرفاً صوتياً. صحيح انّ أبحاث اليوم أقلّ حسماً في هذا الموضوع إذ عثر على أنظمة كتابة ألفبائيّة أكثر قدماً في الشّرق الأدنى وخاصّةً الكتابة السينائيّة. لكن الفينقيّين اكتسبوا ميزة تحسينهم الكتابة ما يكفي لكي يجعلوا منها نظاماً عالميّاً، وينقلوها إلى الإغريق.

لا تختزل الحضارة الكنعانيّة– الفينيقيّة بهذا الاختراع ولا بتطوّر التجارة. هذه الحضارة أكثر تعقيداً مما يتبادر إلى أذهاننا وتبقى إعادة اكتشافها من جديد حاجة ملحّة. ثمّ إنّ الاكتشافات التي عثر عليها تحديداً في الحواضر القديمة للساحل اللّبناني، في جبلة (جبيل) مثلاً، التي مُنحت اسم بيبلوس في العصر الهلّنستي، أو في صيدون (صيدا) أو صور، تشهد على إضافات الفينيقيّين المميّزة في صناعة المعادن والنّسيج والزّجاج. يبدو أيضاً أنّ هذه الحواضر – الدول لعبت دوراً وسيطياً، اقتصادياً وثقافياً

في آن، بين مختلف الحضارات القديمة لا سيّما بين وادي النيل وبلاد ما بين النّهرين. وقد وقعت هذه الحواضر المستقلّة ردحاً من الزّمن تحت سيطرة الامبراطوريات الكبيرة ومراراً.

احتفظت الحوليات، من بين الحواضر-الدّول الكنعانيّة، بأسماء بيبلوس وصيدون وصور والمدن الثّلاث منتشرة اليوم على مساحة الجمهوريّة اللّبنانيّة، وأيضاً باسمي أرواد وأوغاريت وهما على الأراضي السّوريّة. لكن علم الآثار أشار إلى مناطق أخرى مثل بوتريس (البترون حالياً) حيث لا يزال هناك مرفأ هام، وطرابلس التي يشير اسمها الهلّنستي «تريبولي» إلى تمركز ثلاث جاليات أتت بالتناوب من صيدون وصور وأرواد وإلى إنشاء مجلس دوري فيها يحضره ممثّلو الحواضر الفينيقيّة. كما أشار علماء الآثار إلى وجود آثار لمدينة كنعانيّة في بيروت معاصرة للفترة التي تأسّست فيها بيبلوس وصيدون. وجاءت أعمال التّنقيب الطارئة التي شرع بها في التسعينات لتؤكّد قدم البنية المدنيّة الكنعانيّة بعد العثور على آثار تقع على مسافة عشرين سنتمتراً من الأرض، على التلّ وفي منطقة الأسواق، وعثر أيضاً على سور وجرار تعود إلى العصر البرونزي القديم (2400-2000 ق.م.) وعلى جدار فينيقي يعود إلى 1900 أو 1800 ق.م. وجرّة جنائزيّة تحوي هيكل فتاة صغيرة ترقى إلى القرن الثامن عشر ق.م..[7] على أيّة حال، وجب الانتظار حتّى القرن الرابع عشر ق.م. ليرد اسم المدينة في الكتابات.

وبسبب عدم توفّر الوثائق المقرونة بالتّواريخ، يحرص علماء الجغرافيا على القول إنّ أصول بيروت ترقى إلى العهود الأولى لفن الملاحة، كما كتب إليزيه روكلو: «يبدو هذا الساحل إذا شوهد في كليّته شبه مستقيم وماحلاً تماماً لجهته الجنوبيّة على امتداد شاطئ فلسطين القديمة. لكن، يتخلّله شمال جبل الكرمل عدد من الخلجان شبه الدّائريّة التي لجأت إليها المراكب الآتية من البحر قبل أن ينشئ الإنسان مرافئ اصطناعيّة. يضمّ ساحل سوريا ومثله ساحل موريتانيا في إفريقيا أو تشيلي في العالم الجديد وفي المناطق الجبليّة الأخرى، بالإضافة إلى النتوءات الصخريّة التابعة لسلسلة الجبال المحاذية له، سلسلة من الرؤوس الرّعناء المنظّمة تدريجياً والمتخلّف أحدها عن الآخر وقد شكّلت ملاجئ آمنة محميّة من الرّياح يركن إليها البحّارة. وهكذا ولدت على هذا الساحل مدن بيريت (بيروت) وطرابلس محميّة في حصن منيع من الأمواج العاتية الآتية من الجنوب والغرب[8]. ويدعم روكلو رأيه قائلاً إنّ بيروت بإمكانها أن تفتخر بموقعها الحسن المشابه لجبلة (جبيل) وبوصفها مركزاً للثّقافة وسوقاً يؤمّه الناس المنحدرون من الجبل». إلاّ أنّ لديها ميزة إضافيّة، وهي أنّها تؤمّن للسفن ملجأ أفضل، والفضل يعود إلى كونها شبه جزيرة طويلة مرميّة في عرض البحر. وفيما ميناء بيبلوس الصّغير لا يتّسع لمجموعة صغيرة من المراكب، فإنّ «كلّ السّفن الآتية من بحار فينيقيا واليونان احتمت من الرّياح الجنوبيّة والجنوبيّة الغربيّة قرب الينابيع المتدفّقة لبيروت، عند أسفل كثبان الرّمل الأحمر حيث تنتشر أشجار الصنوبر مرسلة حفيفها العذب»[9].

وفيما يتعدّى إعادة التمثّل التي قام بها روكلو لبيروت فجاءت حافلة بالصور الجميلة، نستطيع القول إذاً إنّ بيروت كانت ملجأ على الساحل المتوسّط ومورد سفن في آن بفضل الآبار العديدة للمياه العذبة الموجودة في تلّها[10]. وإحدى ميزات الموقع الأخرى هي أنّ السّهل الساحلي الذي يضيق عند سفح جبل لبنان يعود ليتّسع حول رأس بيروت. والميزة الثانية هي أنّ المرفأ كان محمياً من الرّياح القويّة الآتية من الجنوب الغربي عبر رأس بيروت والتلال المحيطة به، ورافق ذلك كلّه انحدار من الشّرق باتّجاه الغرب ليصل إلى شاطئ خليج ناتئ يربط جانباه بين الشمال والجنوب، ومن ريح الشمال كان المرفأ محمياً بفضل الجزر وبعضها لا يزال قائماً حتّى بداية القرن العشرين[11]، يبقى أن نقول إنّ بيروت لا تشغل حيّزاً كبيراً في مدوّنات الفينيقيّين التي لحظت فقط الصوريّين كبحّارة كبار. زد على ذلك أنّ مرفأ بيريتوس قلّما استعمل في العهد الروماني[12]. ووجب انتظار الحقبة المعاصرة لكي يضطلّع مرفأ بيروت بدوره كاملاً.

ومهما كان مثبتا الدّور الذي لعبه المرسى فهو لا يدل دلالة كافية على الظّروف التي أحاطت بولادة بيروت. وإذا كانت المدونات أشارت إلى أنّ صور أسّسها صيدون، لا توجد أي معلومات عن نشأة بيروت ما خلا بعض الأخبار التي تشهد على العلاقات المميّزة مع بيبلوس، جارتها الكبيرة شمالاً. ولم يكتب لأي أسطورة من الأساطير التي تحدّثت عن تأسيسها الرّسوخ في الذاكرة الجماعيّة بسبب تقطّع الحلقات التاريخيّة التي شهدتها المدينة. والخرافتان اللّتان وصلتا إلينا عن تأسيسها، تعودان إلى العصر الهلنستي وهما بالتّالي لا تسمحان بإعطاء فكرة واضحة عن نشأة المدينة حتّى لو جمعتهما سمة مشتركة وهي التأكيد على الدعوة البحريّة للمدينة. الخرافة الأولى يرقى عهدها إلى سنخونياتن وهو كاهن فينيقي من العصر السلوقي ذو نزعة هلنستيّة. زد على ذلك أنّ القصّة التي يرويها جاءتنا لاحقاً على لسان فيلون الجبلي في القرن الثاني بعد المسيح وأوسابيوس القيصري في نهاية القرن الثالث بعد المسيح. أمّا الخرافة الثانية فرواها نونّس دو بانوبوليس، وهو وثنيّ من القرن الخامس ارتدّ إلى المسيحيّة، في قصيدته الطّويلة «ديونيسيات». وهناك أسطورة ثالثة يغلب عليها طابع المسيحيّة اقترحها غيّوم الصوري كاتب حوليات الصليبيّين يقول فيها إنّ المدينة دعيت جريس على اسم مؤسّسها جرجاش من بني كنعان المنتسب نفسه إلى نوح. لا تضيف الأسطورة التي يرويها غيوم الصّوري أي معلومات هامّة عن بيروت سوى الإشارة إلى كنعان. بالمقابل، يعود للأسطورتين الأوليّين الفضل في التّشديد على رمزيّة موجودة في شهادات أخرى.

في إطار الكوسموغونيا المنسوبة إلى سنخونياتن، تندرج بيروت في الجزء الأقدم المتعلّق بـ«القصّة الإلهيّة للأورانيد» أي لعائلة أورانوس الذي أنجبه إيليوم السامي المقام وامرأة اسمها بيروت Bérouth. ثم أنجب أورانوس من أخته جي Gê ايلوس (في اللّغة الساميّة ايل) الذي هو كرونوس

في الوقت نفسه– وهذا ارتباط استثنائي لأنّ كرونوس يتحلّى بكلّ مواصفات بعلشمين[13]. بعد أن حارب ايلوس/ كرونوس أورانوس، وهب بيبلوس التي أسّسها الى الإلهة بعلتيس و«بيريت» إلى بوسيدون وإلى الكبيري الذين كرّموا في بيريت بقايا بونتوس (أي البحر). وبونتوس هذا لم يكن إلاّ أب بوسيدون وأيضاً صيدون التي وهبت صوتاً رائعاً. أماّ الكبيري حماة التّجارة وأولاد الاله سيديق فكانت رسومهم تتصدّر حسبما أورد هيرودت مقدّمات بعض السفن الفينيقيّة[14]. لا بدّ من أنّ الأسطورة انتشرت لأنّنا نجد صدىً لها في علم المسكوكات الذي يعنى بتحليل الرّسوم المنقوشة على القطع النقديّة المعدنيّة حيث يظهر اله البحر إما على عربة تجرّها أحصنة البحر الأسطوريّة أو عارياً مستنداً إلى مرفقه الشّمالي وحاملا شوكة ثلاثيّة يلتفّ حولها دلفين، مشابهاً تماماً لمنحوتة منسوبة إلى ليزيبُس Lysippe. وتظهر الشوكة الثلاثيّة التي يلتفّ من حولها الدلفين على أوزان السلوقيين في بيروت وترمز إلى الازدهار. أما الكبيري الذين يبلغ عددهم ثمانية فيظهرون على نقود ضُربت في بيروت في زمن الامبراطور الروماني من أصل حمصي إيلاغابال[15].

البحر، عند بوسيدون، حاضر في الأسطورة التي رواهانونّس دو بانوبوليس. لكي يمتلك بوسيدون قلب بيرويه Béroé، الإلهة التي على اسمها سمّيت المدينة، ابنة اوقيانوس وتيتيس Thétis (وأحياناً تصوّر على أنّها ابنة أفروديت وأدونيس)، حارب إله البحر ديونيسوس وانتصر عليه، بعد أن أصابهما ايروس كليهما بسهام الحبّ. لكن نصّ نونّس يستحقّ التّخليد ليس فقط لما يكشفه عن تأسيس المدينة بل أيضاً لوصفه البديع للمدينة البيزنطيّة التي عاصرها: «ثمّة مدينة تدعى بيرويه، ركيزة الحياة، مرفأ العشق. بيرويه مبنيّة على البحر تحيط بها جزر جميلة وأشجار ظليلة، تنبسط واسعة لا نتوء فيها لجهة الريح الشرقيّة الحارقة، في أسفل قمم لبنان السوري المكسوّة بالاخضرار... بيرويه ملكة الحياة، مرضعة الحواضر، فخر الملوك، أنشئت قبل مدن الأرض، أخت الزّمن ورفيقة الحاضر، موطن هرمس، موئل العدل، مدينة المشرّعين، مقرّ أفروزين، ملاذ باخوس، مأوى العاشقين... ونجمة لبنان»[16].

اسم المدينة أكثر ايحاءً من أسطورة تأسيسها. التسمية الأولى المعروفة هي بيروتا Birûta وترجع بالطّبع إلى الموارد المائيّة الكثيرة في المدينة والآبار المحفورة على تلّها المطلّ على المرفأ. وكلمة «بئر» تحوي تشابهاً صوتياً أكيداً مع بيروتا Birûta في اللّغات السّامية: يقال «بورتو» Burtu في اللّغة الأكاديّة و«بئر» Be'er في العبرانيّة و«بير» في العربيّة.

أطلق عليها الإغريق اسم بيريتوس Berytos والرومان Berytus والعرب لاحقاً بيروت. مقارنات أخرى أجريت مع اللغة العبريّة وهي «بئروت» أي السروة[17]. لكنّ التّسمية المنطلقة من ينابيع المياه العذبة مثبّتة في رسائل تلّ العمارنة. كان الكتبة، في أرشيفات السلالة المصريّة الثّامنة عشرة

إبّان القرن الخامس عشر قبل المسيح، يستبدلون أحياناً اسم بيروتا بالرّمز-الفكرة الذي يعني البئر في الكتابة المسماريّة[18].

من المصريّين إلى الرّومان

النقوش الأقدم المكتشفة في بيروت يرقى عهدها إلى بدايات الألفيّة الثّانية، زمن الغزوات الكبرى للسلالة المصريّة الثانية عشرة. كانت المدينة خاضعة آنذاك لسيطرة الفراعنة. وعثر على ثلاثة أنصاب على أرضها تثبت علاقاتها مع مصر. النّصب الاهمّ هو سفنكس ذو رأس بشري من الرخام الأسود المرقّط بالأبيض وبين قوائمه نقرأ باللّغة الهيروغليفيّة اسم أمنمهات الرابع، آخر فرعون من السلالة (1792-1800 ق.م.). يستدلّ من الخرطوش أنّ السفنكس أرسل إلى ملك المدينة عبارة على التقدير، وقد عثر عليه عام 1926 شمال ساحة الشّهداء الحاليّة ثمّ وضع المتحف البريطاني يده عليه، وهو يرمز إلى العلاقات الوطيدة التي وجدت بالطّبع مع جبلة (جبيل) لأنّ اسم الفرعون نفسه وجد في صندوق صغير من الحجر البركاني اللامع في بيبلوس[19] في الفترة نفسها.

ولم يتمّ العثورعلى أيّ ذكر معروف لبيروت في نصّ قديم قبل القرن الرابع عشر، وتحديداً في الألواح الشّهيرة لتلّ العمارنة. شهادة أساسيّة عن المدينة بقيت لنا من العصور القديمة وهي مؤلّفة من ثلاث رسائل وجّهها أحد أمراء بيروت ويدعى أمونيرا Ammunira إلى «الملك، شمسي، آلهتي، نفحة حياتي»، أي بكلام آخر إلى أخناتون، الفرعون الحاكم للسلالة الثانية عشرة الذي استماله حدس بوحدانية الخالق. كانت بيروتا آنذاك مقراً لمملكة صغيرة أي إقطاعة للفرعون وتعيش أياماً صعبة. وكانت الانشقاقات الداخليّة الناجمة عن عبادة أخناتون أضعفت الامبراطوريّة، وكانت المدينة مقسومة بين واجباتها كإقطاعة والاضطرابات التي تشهدها المدن المجاورة لها. تذكّر الرّسائل هذه التي كتبت تحت وطأة التهديد الحثي بالوضع الحرج الذي تعيشه مدن الساحل نظراً لهجوم الأموريّين، وهم شعب آتٍ من الجبال وأمراؤهم يمارسون سياسة مزدوجة في الصّراع الدائر بين أسيادهم المصريّين والحثّيّين وبدو هابيرو Hapiru. كما تذكّر الرّسائل أيضاً بالملجأ الذي قدّمه أمونيرا إلى «حاكم جبلة» (جبيل) ريبّادي Ribaddi بعد أن نحّاه أخوه عن العرش إثر انقلاب دبّره بالاشتراك مع المحاصرين الأموريّين. على أيّة حال، هناك رسالة أيضاً في سجلات الدواوين الملكيّة لتلّ العمارنة أرسلها «حاكم جبلة» من منفاه في بيروت يطلب فيها نجدة الفرعون. لكنّ أمونيرا اضطرّ في النّهاية، رغم بقائه على وفائه طويلاً للفرعون، إلى تسليم ريبّادي إلى أعدائه[20]. ولم يلبث الحثّيّون أن أخضعوا لسيطرتهم مجمل المنطقة لفترة قرن تقريباً، إلى أن تمكّنت الحملة الآسيويّة لرمسيس الثاني من استعادة الأمبراطوريّة الفرعونيّة. لم يجر على ذكر بيروتا في الحوليات المتعلّقة بالحملة المصريّة التي انتصر فيها

رمسيس الثاني على الحثيّين في معركة قادش على نهر العاصي عام 1238 ق.م. وخدمة للحقيقة لا بدّ من التّذكير بأن الفاتح التّابع للسلالة التاسعة عشرة مرّ في بيروت لأنّ ثلاثة انصاب تذكاريّة أقيمت على الصخرة المشرفة على مصبّ نهر الكلب الواقع على مسافة عشرات الكيلومترات من المدينة. وتشهد على العلاقات بين بيروت ومصر رمسيس الثاني شظيّة من إناء حجري يحمل اسم الفرعون عثر عليها في محيط ساحة الشّهداء في قبر يعود إلى العصر البرونزي الحديث. وهناك ذكر أخير لبيروت ورد في رسائل كتبها موظّف في البلاط في نهاية السّلالة التاسعة عشر رداً على كاتب شاب طلب منه أن يسعى له بوظيفة على ما يبدو. في هذه الرّسالة، يتوسّل الموظّف إلى الكاتب أن يعطيه تعليمات عن بيروت، لكن ليس في الإمكان استنتاج أي شيء كان من النبرة التي يستعملها[21].

وخارج إطار مصر على مسافة مئتي كيلومتر شمالاً، عثر على كتابات نوّهت ببيروت، معاصرة للسّلالتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، في سجلاّت دواوين قصر أوغاريت، وهي مدينة أخرى تقع على الساحل الكنعاني – بالقرب من اللاّذقيّة. ثمّة رسالة تفويض مكتوبة باللّغة الأكاديّة يتقدّم فيها رسول موفد «من ملك بلاد بيروت إلى عمدة بلاد أوغاريت». ووثيقة أخرى تتحدّث عن المدينة بصفتها شريكاً تجارياً لأوغاريت. هذا لا يمنع حدوث النّزاعات، كما جاء في تقرير يتحدّث عن تحرير أحد رهائن أوغاريت بعد أن تمّ توقيفه في بيروت. وفي نصين آخرين، يدور الكلام على ذكر صكوك منسوبة إلى سكّان بيروت في سياق الحديث عن أعمال تتعلّق بتجارة الكرمة. لعبت أوغاريت آنذاك دوراً يرتدي أهميّة كبيرة إذ كانت تشرف مع الآلخ Alalakh. [حاضرة بين اوغاريت وحلب] على التّجارة مع العالم الإيجي. لكنّ أجزاء من الفخّار الميقيني اكتشفت في بيروت أثبتت أن للمدينة أيضاً علاقاتها المباشرة مع ذلك العالم[22]. وهناك آثار أخرى تعود إلى الفترة ذاتها وتشهد على أنّ بيروت كانت تجمعاً مدينياً ذا شأن: ارتفعت عدّة جدران تعود إلى العصر البرونزي الأوسط والعصر البرونزي الحديث، وحفرت درجات بين التّل والمرفأ وظهرت أطلال مسكن وبرزت آثار أحدور يعود إلى القرن الثالث عشر[23].

ما خلا ألواح تلّ العمارنة ورسائل أوغاريت، عصور بأكملها مرّت ولم يذكر نصّ مكتوب بيروت. صحيح أنّ مضيق نهر الكلب شاهد بأنصابه ليس فقط على رعمسيس الثاني بل أيضاً على مرور الفاتحين الآتين من بلاد ما بين النّهرين أمثال شلمناصر الثالث في القرن الحادي عشر ق.م. وأسرحدون في القرن الثامن ق.م. ونبوخذنصّر في القرن السادس. لكن واحداً منها لا يذكر بيروت. أماّ المدن الساحليّة الأخرى فتظهر على لوائح الجزيات المدفوعة إلى ملوك أشور وبابل. ربّما كان مرد غياب بيروت يعود إلى افتراضين: إماّ أنّ بيروت دمّرت عندما غزّتها شعوب البحر في القرن الثاني عشر ق.م. وإماّ ألحقت بمدن ساحليّة أخرى مثل بيبلوس وصيدون.

لا يتيح علم الآثار الجزم بهذا الشّأن. لا شكّ في أنّ الأحدور المكتشف الذي يعود للقرن الثالث عشر يبدو وكأنّه بقي على حاله حتّى العصر الحديدي الحديث (700 ق.م.). لا شكّ أيضاً في أنّ المدينة الفينيقيّة التي سمحت أعمال التنقيب المعاصرة بإعادة تركيبها في منطقة الأسواق تكشف أيضاً عن استمراريّة ما حتّى هيمنة الأخامنة (او الأخمينيين) الفرس في القرن الرابع[24]. تشهد على هذه الحقبة الاخيرة أثريات أكثر قدماً: عثر في عام 1930 على فرسان صغار من الفخّار يعتمرون القبّعة المخروطيّة الفينيقيّة في حفرة على إحدى هضبات المدينة– على الواجهة الشرقيّة للسرايا. آثار أخرى تعود إلى العصر الأخميني كشف عنها حديثاً[25] وتحديداً مقبرة دفن فيها كلب قرب الأحدور الفينيقي[26]. لكن هذه الآثار لا تسمح لنا بأن نجزم باستمراريّة المدينة أو بدمارها على يد شعوب البحر. لنفرض أنّنا سلّمنا بالافتراض الأخير، فإنّ هذا لا يحول دون نهوض المدينة ببطء من دون ان تجد بالضّرورة مكاناً لها على الجغرافيا التّجاريّة والسياسيّة. في جميع الأحوال، لا يذكر هيرودوت بيروت في الوقت الذي يأتي فيه على ذكر صور وصيدون. لكنّ أعمال التنقيب المعاصرة أثبتت مع ذلك أنّه لا قطيعة بين الحقبة الأخمينيّة والمدينة الهلنستيّة. هناك تدوين وجد في دلفي، يعود إلى القرن الرابع، يذكر صيدونياً يعود أصله إلى بيريتوس[27]. وقبل مجيء الاسكندر بفترة قصيرة تضمّنت لائحة المدن الساحليّة التي يقترحها الكتاب المنسوب إلى سيلاكس: «رحلة عبر البحر الداخلي» بيروت مع «مرفئها المشرّع على الشّمال»[28].

وإثر حملة اسكندر المقدوني، احتلّت بيروت بوضوح مساحة في أعمال التّدوين التاريخيّة. صحيح أنّه لم يتمّ ذكر المدينة في الحوليات المتعلقّة بالحملة المقدونيّة التي توقّفت طويلاً أمام منعة أسوار صور، لكن، من المعروف أنّ نقوداً ضربت فيها على اسم الفاتح الشّهير[29]. وشهدت المدينة، بعد وفاة الاسكندر وكما كلّ المنطقة المجاورة، فترة من التّأرجح. اقتسمت سوريا بين اللاّجيّين والسلوقيّين ووقعت بيروت تحت سيطرة بطليموس حاكم مصر. ثمّ دخلت لفترة قصيرة في مملكة السلّوقيّين، لكن البطالسة عادوا فملكوها من جديد، والدّليل على ذلك النّقود المضروبة على اسم بطليموس الثالث وبطليموس الخامس، إلى أن صارت ردحاً طويلاً من الزّمن في بداية القرن الثاني ق.م. في حوزة السلوقيّين الذين بسطوا سلطتهم على جميع أنحاء سوريا. عندئذٍ نعمت بيروت مع الحواضر الأخرى لفينيقيا بشيء من الاستقلال الإداري، كما يوحي بذلك ضربُ العملات الخاصّة بها كما أفادت في الوقت نفسه من انتشار الهلنستيّة. وارتدت بيروتا زياً جديداً فصارت تدعى بيريتوس أو بيريتون[30] متّخذة لنفسها ساحة عامّة ومقرّها في محيط شارع فوش حالياً[31].

في منتصف القرن الثاني ق.م. غرقت المملكة السلوقيّة في دوامة الحرب الأهليّة، لكن هذه الحرب لم تؤثر طويلاً على فترة الازدهار النّاشئة. حاولت بيروت الدّفاع عن حقوق ملكها الشّرعي في وجه



آثار هلنستية بمستوى الأرض جنوبي التل (ساحة الشهداء).

تريفون Tryphon مغتصب العرش فأحرق أبنيتها ودمّرها بين 143 و138 ق.م.[32]. لكن، خلافاً لما يذكره البعض استناداً إلى عبارة يوردها الجغرافي استرابون Strabon وحُملت على غير معناها، لم تبق المدينة خراباً لمدّة قرن، حتّى وصول أوكتافيوس، كما زعموا، بل سرعان ما تخطّت المحنة[33] وعاد سكّانها إليها ورمّموها وأطلقوا عليها اسم «لاوديسيه فينيقيا» («لاذيقيّة فينيقيا») أو «لاوديسيه كنعان»، وهذه التّسميات كانت مستخدمة أصلاً قبل انطلاق جولات الحرب الأهليّة السلوقيّة. والدّليل على ذلك أنّه تحت حكم سلوقس الرابع فيليباتور (187-175 ق.م.) ضُربت نقود كتب عليها باللغة الفينيقيّة «لاوديسيه التي في كنعان». وفي سنة 178، كرّم هليودورس، وزير الحاكم، في ديلوس عبر إهداء كتاب رفعه إلى أبولون «تجّار وبحّارة سفينة لاوديسيه فينيقيا». كما أنّ مجموعة نقود تمّ تداولها بين 176 و123 ق.م. تمثّل رمز بيريتوس أي عشتروت على رأس سفينة مكتوب عليها بالحروف اليونانيّة «لاوديسيه فينيقيا». أما بالنّسبة إلى الفترة التي أعقبت الدّمار الذي أحدثه تريفون، فعُثر على وزن يعود إلى عام 128 رسم عليه شعار المدينة واسم قاضيها نيقون. وهذا دليل آخر يثبت النّهضة السّريعة لبيروت إما على الموقع نفسه، وإما، بحسب رأي يُرجّح أنّه غير صحيح، إلى جهة الجنوب بالقرب من وادي الشويفات[34]. زد على ذلك البيوت العديدة التي أنشئت في المدينة ومنها دور جميلة تعود إلى 150 و125 ق.م. تماماً كما في المدن الأخرى من سوريا السلوقيّة التي شهدت ازدهاراً ونمواً ديموغرافياً

مماثلين. ولكن، بسبب عدم وجود تواريخ تشير بدقّة إلى كون بناء المدينة عائد إلى مرحلة ما، قبل مجيء تريفون أو بعده، لا يمكننا أن نعلم بالتالي عن المدّة التي ظلّت فيها المدينة مدمّرة[35].

وما يشهد لنهضة بيروت بشكل خاصّ، ازدهار تجارها في ديلوس وهي السوق التجاريّة المعروفة في ذلك الوقت. وكما يظهر تكريس النّصب الذي رُفع لأبولون على شرف هليودورس، عاد أهل بيريتوس ليسكنوا فيها منذ توطيد السّلطة السلوقيّة على سوريا. في منتصف القرن الثاني ق.م. اجتمع أهل بيريتوس في ديلوس في ظلّ شعار «جمعيّة عابدي بوسيدون من تجار وبحّارة وأصحاب مستودعات»، ونعثر على أثرهم في 110-109، أي بعد ثلاثين عاماً من دمار مدينتهم وقد اتّخذوا لتجارتهم مراكز متباعدة يشار إليها بالشّعار التالي: «جمعيّة أهل بيريتوس البوسيديّين من تجّار وبحّارة ومستودعين التي كرّست لآلهتها الأوائل المحلّ والرّواق والملحقات»[36].

شارف العهد السلوقي على نهايته، وأحدث ضعف السلالة الحاكمة في بداية القرن الأوّل ق.م.، اضطرابات في حواضر الساحل الفينيقي. ثمّ أتت هيمنة دغران، ملك أرمينيا وصهر ميثريدات السادس الذي كان ملك نبطس، فاستنجد به السلوقيون (في 84-69 ق.م.)، لكي يستعيدوا السّيطرة على سوريا. وبيريتوس، ومثلها المدن الأخرى للساحل، لم تتمّ معاقبتها، لا بل استطاعت خلافاً لذلك أن تزيد من استقلالها الذاتي[37]. لكنّ التدخّل الأرمني لم ينجح في دحر خطر تهديد آخر متمثّل في الايطوريّين وهم شعب عربي استقرّوا في الجبال ثمّ تحصّنوا فوق رؤوس القمم وراحوا يشنّون غارات على سهول السّاحل ومدنه من بيروت إلى طرابلس. وبالمقابل، كان لهذه الغارات الفضل في جذب انتباه الرومان على الأراضي السوريّة بعدما كان اهتمامهم فقط متمحوراً آنذاك على نبطس. حاول الحكم السلوقي الآفل أن ينهض من كبوته مع أنطيوخس الثالث عشر سالكاً طريق البحر حاذياً حذو الجيوش الرومانيّة لكنّه ما لبث أن تلاشى واضمحلّ أمام جيوش بومبيوس التي غزت أقطار سوريا عام 64 ق.م.

المستعمرة الرومانيّة

يمثّل العهد الروماني، بالإضافة إلى الحقبة المعاصرة، الفصل الأشهر والأغنى في تاريخ بيروت التي بفضل وضعها كمستعمرة رومانية أعفيت من دفع الجزية وصارت إحدى المراكز المدنيّة الراقية في الشّرق. لم تكن هذه الانطلاقة تلقائيّة وليست لدينا معلومات وافية عن تطوّر المدينة خلال العقود الأولى من الهيمنة الرومانيّة. ما نعلمه، عبر استرابون، أنّ الرومان أوقفوا سريعاً غزوات الايطوريّين بعد وقت قليل من افتتاحهم المدينة، وأنّ بومبيوس دمّر معاقلهم المبعثرة على الساحل ومنحدرات لبنان وفي مقاطعة ماسياس – أي البقاع – حيث كانت تنطلق دون توقّف زمر جديدة وتنقضّ لتعيث الفساد في بلاد بيبلوس ومقاطعة بيريتوس التابعة لها[38]. بوسعنا أن نتخيّل كم أفادت المدينة من فترة

السّلم هذه. ويبدو أكيداً على أيّة حال أنّ بيريتوس كانت موجودة كبنية عمرانيّة، خلافاً للطّرح الذي يزعم بأنّ خراب المدينة على يد تريفون دام وقتاً طويلاً. يبدو أيضاً أن المدينة زجّت في الحرب الأهليّة التي دارت بين أوكتافيوس و أنطونيو لأنّها شكّلت جزءاً من الأعمال الرومانيّة التي منحها أنطونيو لكليوبترا كمهر مؤجّل، لا بل انّها كانت ملجأ لقسم من أسطوله. وقد ضربت فيها عملات حملت رسم الملكة في العام 31 أي العام الذي دارت فيه معركة أكسيوم. إلا أن نقوداً أخرى ضربت في العام نفسه تظهر أن المدينة تمردت على كليوباترا[39].

وأصبحت الأمور أكثر جلاء بعد معركة اكسيوم. بلغ السّلم الروماني أوجّه وكانت بيريت إحدى أكثر المدن التي أفادت من هذا السّلم تحت اسم «مستعمرة جوليا أوغستا السعيدة بريتوس» إكراماً لابنة أوكتافيوس. قسمت المستعمرة إلى قسمين، قسم الايطوريين[40] الذين استكانوا في ذلك الوقت ويغطي، حسب قول استرابون، سهل ماسياس حتّى ينابيع العاصي بالقرب من لبنان[41] أي شمال البقاع حول مدينة الشّمس بعلبك (هليوبولس). لكن يبدو أنّ مدينة بعلبك اقتطعت لاحقاً بأمر من كلوديوس وشكّلت مستعمرة مستقلّة[42].

ظلّ الاعتقاد سائداً لفترة طويلة بأنّ تأسيس المستعمرة قام على يد مرقس أغريبا، أميرال جيوش أوكتافيوس في أكسيوم وصديقه وصهره، أثناء جولة له في المناطق الشرقيّة عام 14-15 ق.م.. يستند هذا الافتراض إلى استرابون عندما أشار إلى أنّ المدينة «صنع الرومان نهضتها» مضيفاً أنّ أغريبا استدعى اليها فرقتين من الجيوش الرومانيّة وألحق بها سهل ماسياس. لكنّ هذه المقولة ينفيها بلينيوس القديم حين أتى على ذكر لمستعمرة جوليا السعيدة بيريتوس ولما فيها من خمور طيّبة، لا سيّما أنّ أخباره عن سوريا تستندإلى السنوات الممتدّة بين 30 و20 ق.م.[43]. لعلّ تأسيس المدينة حصل بعد فترة قصيرة من معركة أكسيوم أي في زمن يوليوس قيصر الذي كان مهتماً بضم المقاطعات إلى ايطاليا، فاختار أن ينشئ أول مستعمرة رومانيّة لسوريا في بيروت. لكن، إذا كان صحيحاً أنّ الفرقتين اللتين يتكوّن منهما الجيش الروماني، وهما المقدونية الخامسة وغاليكا الثامنة، حاربتا كليهما إلى جانب قيصر، فلا شكّ في أنّهما ساهمتا أيضاً في الجهود الحربيّة التي قام بها أوكتافيوس. وبعد معركة أكسيوم، شرع أوكتافيوس في إنشاء المستعمرات من اسبانيا إلى ليديا مولياً عليها ما يقارب مئة ألف محارب قديم من صفوف جيشه.لا بدّ أنّه أيضاً في هذا السّياق أحلّ عام 27 في بيريتوس وفي هليوبوليس الفرقة المقدونيّة الخامسة والفرقة الثامنة غاليكا سابقاً والتي باتت منسوبة إلى أغسطوس قيصر[44]. إذاً، أقام المستعمرون الأوائل في بيروت قبل العام 14؛ وإذا كان هناك من دور مثبت لمرقس أغريبا في ذلك الوقت فهو يقتصر ربّما على إدخال وحدات جديدة من المحاربين القدامى وتوسيع حدود المستعمرة ومنح أهلها حقوق المواطنيّة.

إذا كان السّجال الدائر حول تأسيس المستعمرة مستنداً الى بعض العناصر[45]، فهذا لا ينطبق على الخيار الذي وقع على بيريتوس لتكون مستعمرة رومانيّة. ولكي نعلّل حدوث ظاهرة حاسمة من هذا النّوع لمستقبل المدينة، خصوصاً أنّ إنشاء المستعمرات الرومانيّة في سوريا آنذاك كان نادراً[46]، فليس علينا إلاّ الاحتكام إلى الافتراضات. هل أنشئت المستعمرة نظراً للعلاقات التي عقدها الرومان في ديلوس مع تجار بيروت؟ هل توطيد تلك العلاقة، علامة امتنان للثّورة التي شنّتها المدينة على أنطونيو وكليوباترا؟ أم لأن موقع بيروت وسط الخاصرة الشرقيّة للمتوسّط يجعل منها نقطة عبور بين ايطاليا والمقاطعات السوريّة رغم مشقات الطّريق؟ أو ربّما كان الامر بكلّ بساطة هو أنّ المدينة كانت محطّة واقعة على طريق القوافل وإن كانت لا تملك ماضياً عظيماً ولا بنى معقّدة بل كانت على درجة من الشفافيّة تستطيع معها أن تستوعب رومنتها.

بالإضافة إلى إعفاء أهل المدينة من أي ضريبة أو جزية *jus italicum*، فرض على المستعمرة نظام داخلي مطابق للأنظمة المعمول بها في روما. فمجلس العاصمة في روما و يقابله في المستعمرة دار ندوة يجتمع فيها رؤساء الأعشار المئة وهي الطّبقة الأكثر ثراء بين السكان. وكما هي الحال في روما هناك قاضيان في المدينة يتوليان تدبير الأمور المعلّقة بالعدالة *duoviri iuri dicundo* وموظّفان يشرفان على الأمور الإداريّة *duoviri aediles*. وكل خمس سنوات يتحوّل هؤلاء القضاة إلى *duoviri* أو *quattorviri quinquennales* أي يعرّفون أيضاً بـ *Censoria potestate*، ومهمتهم إدارة شؤون الأهلين والتّدقيق في الحسابات وإقامة الموازنة للسنوات الخمس المقبلة. نعمت المستعمرة بفضل هذا التّنظيم بهامش كبير من الاستقلال الذاتي ولم يتدخّل حكام روما في شؤونها إلاّ في حالات النّزاع[47].

وكان التّنظيم العمراني للمدينة مشابهاً لما هو عليه الحال في عاصمة الامبراطوريّة روما وكان يضمّ ساحة كبيرة forum ومقراً للسلطة الحاكمة (كابيتول Capitole) يُكرّم فيه الآلهة الرومان الثلاثة جوبيتير وجونون ومينرفا ولاحقاً رسما روما والامبراطور. كانت الساحة مرسومة على النّقود وهي لا تتطابق مع أغورا المدينة الهلنستيّة. ليست الحالة نادرة وهي تنطبق على أوستيا وكابوا وبومبيي أي بشكل عام، عندما تكون المدينة موجودة قبل انشاء المستعمرة. تلك كانت حال بيروت، حسبما يُفترض، وإنْ لم تكن الخطّة النموذجيّة للمستعمرات محترمة بالضّرورة فيها: كانت هذه التّرسيمة ترمي إلى تنظيم المستعمرات على مثال المعسكر الروماني المألوف للمحاربين القدامى أي أن تبنى على شكل مربّع كبير يخترقه شارعان رئيسيّان، الشّارع الواقع على المحور الشمالي-الجنوبي ويدعى الكاردو ماكسيموس Cardo maximus، والشارع على المحور الشّرقي-الغربي ويدعى ديكومانوس decumanos. أما الساحة الكبيرة (الفوروم)، فتشكّل نقطة التقاء الطّرق الرّئيسية[48]. استعان عالم الأثار جان لوفريه Jean Lauffray بهذا المبدأ ليحدّد، في الأربعينات من القرن الماضي، «ديكومانوس» بيريت على



المحور الذي يخترق شارع ويغان حالياً. والكاردو ماكسيموس على الخطّ الذي يجتاز كاتدرائيّة مار جاورجيوس للروم الأرثوذكس الموازي لشارع المعرض. لم تُثبت أعمال التنقيب الطارئة التي شرع بها في التسعينات صحّة هذا القول بشكل حاسم. ورغم أنّ الصّحافة رحّبت بالاكتشافات التي تجري والتي اعتبرت في حينها مطابقة لتصوّرات لوفري ، برز تحليل آخر لأعمال التنقيب ليؤكّد تصوراً للمحور الشرقي– الغربي يتلاءم أكثر مع التقليد الشائع في سوريا الرومانيّة وحُدّد في المكان الذي عثر فيه على عدّة أعمدة وأجزاء من طريق رومانية بين الكاتدرائيّتين الحاليتين المارونيّة والأرثوذكسيّة[49].

أياً يكن التنظيم الذي اعتمدته المدينة او تميّزت به فقد تمتّعت المستعمرة بنفوذ واسع. وهذا ما نستطيع التثبّت منه من خلال بعض التجهيزات التي أقيمت فيها مثل الحمامات الرومانيّة التي اكتشفت تحت السّراي الكبير، أو المدافن المبنيّة خارج نطاق السور المحيط بالمدينة الرومانيّة، سواء على



الحمامات الرومانية في وسط المدينة الجديد (تلة السراي الكبير).

تلّة القنطاري أمام برج المر[50] أم على تلّة الأشرفيّة[51] حيث عثر على مدفنين- والاكتشاف الأقرب في الزّمن جرى عام 2001 على أرض متاخمة لمدفن مار متر للروم الارثوذكس[52] - أو ميدان الخيل الواقع على تخوم المدينة في وادي أبو جميل - وقد أطلق عليه تسمية الحيّ اليهودي لاحقاً في القرن التاسع عشر- ويمكن رؤية معالمه الباقية في بعض اللّقطات المأخوذة له من الجوّ، بجوانبه الطّويلة



قناطر زبيدة. آثار قنوات الماء على الماغوراس.

المتوازية ومبنيه نصف الدائريّين[53]. واكتشفت دارات رومانيّة في منطقة الجناح، على التّخوم الجنوبيّة لبيروت المعاصرة[54]. وما يثبت أيضاً توسّع المدينة هو القناة التي أقيمت فوقها قناطر وكانت تجر الماء من ماغوراس، نهر بيروت. والأطلال الباقية من هذه القناة تعرف باسم قناطر زبيدة وتشكّل دليلاً ساطعاً على متانة بنيانه. في هذا الموقع بالذات يرتفع الجسر الذي قورن بقناة سيغوبيا أو بجسر غارد، وهو مرفوع على أعمدة تربط بينها ثلاثة صفوف متوازية من القناطر المبنيّة فوق النّهر على امتداد 240 متراً[55]. بيد أنّ قناة بيروت، التي لا يزال شكلها موجودا في أفاميا شمال سوريا أو في بُصرى جنوباً، كانت معدّة فقط لتزويد المدينة بالماء وليس للري[56]، وإن أشير إلى زراعة لأشجار الكرمة بالقرب من المدينة التي أشاد بلينوس بجودة خمورها[57].

يبدو أنّ الوضع الخاص الذي حظيت به مستعمرة بيروت ساهم في تطوير تجهيزاتها وتعزيز جمالها، والفضل يعود لنظام التبرعات التي كان يسبغها عليها الأمراء حلفاء روما. ولم يكن غريباً أن تحمل المدينة اسم ابنة أغسطس، على أيّة حال في البداية. عندما حكم هيرودس الكبير، أوّل امبراطور في بيروت، وكان متنبهاً دوماً لما يشيد ويقال في روما، أمر بأن يبنى في بيروت، وفقاً لما رواه فلافيوس يوسيفوس، «مجالس وأروقة مثبّتة على أعمدة ومعابد وساحات كبيرة»[58]. ويعني استعمال العبارة الأخيرة بالجمع إنشاء ساحة كبيرة (فوروم) أخرى. ربّما كان صحيحاً أن يكون هيرودس اهتمّ على حدّ سواء بتحسين صور[59] التي لم تكن مستعمرة وأن تفيد معظم حواضر سوريا من نظام التبرّعات[60]، لكن بيروت حظيت باهتمام دائم من قبل الهيروديّين. فأغريبا الأوّل، حفيد هيرودس الكبير وصديق كاليغولا، زانها بدوره بالتّماثيل وبنسخ عن المنحوتات القديمة وشيّد فيها مسرحاً يفوق مسارح المدن الأخرى روعةً وأناقةً وأقام فيها سيركاً للحيوانات وأنشأ فيها حمامات وأروقة قائمة



عواميد رومانية تحدد المحور القديم المتماثل مع الكاردو ماكسيموس.

على أعمدة. وأقيمت من أجل افتتاح السيرك، وآثاره ترى بمواجهة البحر في ميناء الحصن، احتفالات كبيرة توجّها بإجراء مبارزات على طريقة المحاربين بين 1400 من أصحاب الجنايات المعتقلين في كافّة ولايات أغريبا، فقسموا إلى قسمين يقاتل بعضهم بعضاً[61]. ثمّ خلف أغريبا الأوّل ابنه أغريبا الثاني فولاّه الرومان قسماً من «سوريا المجوّفة» وجعلوه حاكماً كلسيس (المعروفة اليوم بعنجر) من 50 حتى 100 ميلاديّة. وحذا أغريبا الثاني حذو والده فأنفق الكثير على تشييد مسرح في المدينة وأقام «احتفالات سنويّة» قلّما تتلاءم مع الشعائر اليهودية[62].

كان يؤتى بالغرانيت من مصر لبناء الأنصاب، لكن بعضها شيّد من الرّخام المستخرج من مقالع الجبل[63] واستخدمه الرومان في التّجهيزات التي شيّدوها، ومن بينها مجمعاً مدنياً basilique. لكن المبنى الذي افتُرض أنّه المجمع والذي افترض أنّه شيّد على تخوم فوروم في العهد الفلافي[64]، كشفت أعمال التنقيب على أنّه ساحة رياضة أو باحة قائمة على أعمدة[65]. أياً يكن، خلّف الرومان وراءهم في مجال الهندسة المعماريّة ولا سيّما هيرودوس وأتباعه، هذا بغضّ النّظر عن الأنصاب الكثيرة الدالّة على مسافات الطّريق الرومانيّة، آثاراً لا تحصى، وكان بعضها يُرى قبل الحقبة المعاصرة، بالإضافة إلى آثار أخرى عثر عليها خلال أعمال الحفريات الطارئة في التسعينات. لكن، من الأكيد أنّ الطّبقة الموجودة حالياً تحت أعمدة الفوروم[66] تطمس آثاراً كثيرة أخرى.

توحي التبرّعات التي أسبغت على بيروت بأهميّتها وتشهد على هذه الأهميّة بعض الأحداث التي تتّصل رهاناتها، فيما يتعدّى المستعمرة، بالحياة السياسيّة للشّرق الروماني وبالتالي للامبراطوريّة. استطاع هيرودس الكبير، مثلاً، أن ينال من أغسطس الإذن بجمع محفل لمحاكمة ولديه اسكندر وأرسطا بولس (ابنيه من زوجته مريم المكابية)، لكن تساهل المحكمة الرومانيّة معهما دفعه لاقتيادهما إلى الجليل لتنفيذ حكم الإعدام بهما. وفي بيروت، في السيرك الذي شيّده أغريبا الأوّل، بايع الجنود الرومان قائدهم فسبسيانوس امبراطوراً بعد وفاة نيرون في تمّوز/ يوليو 69. وفي الميدان نفسه، بعد سنة، احتفل ابنه تيطوس بعيد مولد أبيه بعد فتحه أورشليم وسط احتفالات توجت بقتل جمع غفير من أسرى اليهود[67].

وأفضل ما يجسّد اندماج بيريت في العالم الروماني مآثر بعض رجالات العلم الذين ولدوا فيها ونذكر منهم تحديداً اللّغوي لوبركوس، الذي ألّف كتباً عن البلاغة اليونانيّة في عهد كلوديوس؛ أغناطيوس تشالر، فيلسوف رواقي رحل إلى روما في عهد نيرون؛ استراتون، طبيب ألّف كتباً امتدحها غالينوس؛ مرقس فاليريوس بروبوس لغوي وعلاّمة شهير من القرن الأوّل للميلاد، ألّف كتباً شرح فيها قصائد فيرجيل وهوراس، كما وضع بحثاً في أصول البلاغة اللاتينيّة أطرى عليه المؤرّخ سويتونيوس في كتابه والقدّيس جيروم في العام 75م في ترجمته اللاتينيّة لحوليات اوسابيوس؛ هرميبوس، الفيلسوف

الأفلاطوني الذي كان تلميذاً لفيلون الجبيلي وألّف كتباً عن التنجيم وتفسير الأحلام في عهد القيصرين ترايانوس وأدريان في أواخر القرن الأوّل وبدايات القرن الثاني ميلادي؛ تيودورس الذي تشيّع مثله لمذهب أفلاطون ومن تآليفه كتاب الفرق بين أرسطو وأفلاطون. هؤلاء الفلاسفة الثلاثة كانوا أوّل من كرّموا بإعطائهم حق المواطنيّة من قبل أهل دلفي عام 163م.[68].

وككلّ المستعمرات التي أعدّت لتكون معاقل للرومنة[69]، لعبت بيريت دورها بشكل واضح لكن وضعها مع الوقت لم يشهد تغيّراً ملحوظاً. فمنذ القرن الثاني عشر والمستعمرات والمستلحقات التي أقيمت في الشّرق لم تكن تتميّز عن المدن المجاورة إلاّ بنظامها الضرائبي وأسماء حكامها[70]. وفي عهد ساويرس أطلقت تسمية المستعمرة على عدّة مدن من سوريا مما خفّف من حدّة الفروقات[71]. ولم تتميز بيروت عن سائر المدن لا بصناعة المعادن ولا بمنسوجاتها النفيسة التي كانت تمرّ كمنسوجات بيبلوس ولاوذيقيّة وجرش في محترفات الصّباغة بالأرجوان الموجودة في صور وصيدون[72]. كذلك فإنّ خصوصيّتها الدينيّة لم تكن معلنة. وبالرّغم من الأصول التي ينتمي إليها مؤسّسو المستعمرات، لم يكن الآلهة الرومانيّون يلقون التّكريم والتعظيم الذي يليق بهم من أبناء بيروت[73]. وإذا حلّ ثنائي الهي مكان الثالوث الإلهي المعهود في حواضر سوريا[74]، كان مجسّداً للسنسكريتيّة التي ميّزت الشّرق منذ انتصار الهلنستيّة. في هليوبولس، لم تمح المعابد المقامة لجوبيتر وباخوس اسم بعل الذي احتفظت به بعلبك في تسميتها المحليّة. واستمرّت عبادة الإله بعل في هيكل القلعة المطلّ على الحاضرة الرومانيّة بيريت، وقد عرف الهيكل باسم بعل مرقد، وآثاره لا تزال ترى حتى الآن في بيت مري. لكن سرعان ما ظهر إيمان جديد خاطب قلوب الناس فمالوا إليه[75].



أيقونة للقديس جاورجيوس.

المدينة المسيحيّة

على مسيرة يوم أو يومين، تقع الأمكنة التي شهدت ولادة المسيحيّة. وبيروت كانت حتماً إحدى المحطات التي انتشرت منها المسيحيّة في كلّ اتّجاه. وحين يجري الكلام عن الأرض المقدّسة، بالمعنى الواسع للكلمة، فإنّ بيروت تشكّل جزءاً منها. طقوس كثيرة لا تزال تمارس وتنسب للعهد الأوّل للمسيحيّة. واستناداً إلى القدّيسين متى (11:15) ومرقس (24:7)، فإنّ يسوع بشّر بالإنجيل في صور وصيدون. فهل وصل إلى مشارف بيروت؟ هذا

ما أشار إليه تحليل متأخر للراهب الدومينيكاني بركارد دو مون-سيون Burchard de Mont-Sion من القرن الثالث عشر وأخذه عنه علماء يسوعيون وأيضاً بروتستانتيون[76]. يقال إنّ القدّيس بطرس نفسه أقام في بيروت وجعل عليها أسقفاً يدعى كوارتوس المذكور في رسالة بولس إلى أهل روما (3:16). ويقال أيضاً أنّ رسولاً آخر هو يهوذا أو تداوس استشهد في بيروت، وهناك على أية حال كنيسة شيّدت على اسمه في القرن الخامس.

يزعم أناس انّ القديسة بربارة توفّيت في بيروت، ويزعم اخرون أنّ مكان استشهادها هو نيقوميديّة على بحر مرمرة. لكن، حتى اليوم لا تزال الطوائف المسيحيّة تحتفل بذكرى القديسة في بيروت ليلة 3 كانون الأوّل/ ديسمبر من خلال ارتداء الأقنعة وتناول حلوى تدعى بربارة[77]- على اسم القديسة- يدخل في إعدادها القمح والزبيب. وهناك كنيسة في بيروت شيّدت على اسمها وبقيت كذلك حتّى القرن الخامس عشر ثمّ حوّلت إلى مسجد[78]. إضافة إلى كلّ هذا، تفتخر المدينة بانّها كانت مسرحاً للمعركة التي حارب فيها مار جرجس التنّين، وان كانت نيقوميديّة تدّعي في هذا السّياق أيضاً الشيء نفسه أو أيضاً مدينة اللد في فلسطين[79].

في بيروت، منح القديس جرجس اسمه للخليج الواقع على الجهة الشماليّة الشرقيّة من رأس بيروت (خليج السان- جورج) وللرأس الذي يحاذيه عند مصب نهر ماغوراس (رأس الخضر). وبقيت عبادة الخضر، وفقاً للتسمية الشائعة للقديس في أواسط المسلمين سارية حتى القرن العشرين، وبني مسجد يحمل اسمه. وعلى التلال المشرفة على بيروت، احتفظت الذاكرة الشعبيّة أيضاً بذكرى العثور على الصليب الحقيقي في القدس، خلال زيارة حج قامت بها القديسة هيلينة، والدة الامبراطور قسطنطين فأقيمت الاحتفالات وأوقدت النيران فوق القمم. وهذه الذكرى يعاد إحياؤها في المدن المسيحيّة في الجبال في الرابع عشر من أيلول/ سبتمبر فتوقد النيران (ما يسمّى بـ«القبولة») ابتهاجاً بالعيد.

لم تحمل التّقاليدالشعبيّة قط تواريخ دقيقة؛ وهناك احتمال كبير أن تكون الطّقوس المتعلّقة بحياة القديسين الواقعيّة أو المتخيّلة فرضت نفسها بعد تطوّر المسيحيّة، لا سيّما أنّ الايمان الجديد انتصر في وقت مبكر نسبياً في الشرق المسيحي. وقبل صدور إعلان ميلانو، عام 313، الذي أعقب ارتداد قسطنطين إلى المسيحيّة، وقبل تكريس المسيحيّة ديناً للدولة في عهد تاودوسيوس، شهدت بيروت إقبالاً شديداً على اعتناق الدين الجديد. فوجود أسقف فيها مثبت منذ منتصف القرن الثاني[80]. وأمفيان، شهيد الكنيسة، الذي يعود بأصله إلى آسيا الصّغرى، ارتدّ إلى المسيحيّة خلال دراسته الحقوق في بيروت قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة شهيداً في مدينة قيصريّة في تركيا. وربّما كان غريغوريوس العجائبي، أسقف قيصريّة العتيد، أقام فيها أيضاً في القرن الثالث، ولكن من الأكيد أنّه لم يدرس فيها[81]. وبمفيل البيروتي الذي يحمل هذا الاسم لكونه واصل دروسه في بيروت، عاد إلى القيصرية

الأخرى في فلسطين، ليؤسّس مدرسة شهيرة للعلوم التوراتيّة مع تلميذه أوسابيوس الذي يعد أب التاريخ الديني[82]. وهناك كتابات عديدة باللاتينيّة أو بالإغريقيّة تعود إلى العهد الروماني وتحمل شارة الصّليب وسعف النّخيل، وهذه رموز مسيحيّة. على أية حال، كانت بيروت في القرن الرابع حاضرة مسيحيّة بلا منازع رغم بقايا الوثنيّة فيها.

ومع انتشار المسيحيّة في المدينة تورّط أهلها في الخصومات الدينيّة اللاهوتيّة وانجرّت المدينة حتماً إلى دوامة الهرطقات. وانضوى أكثريّة أساقفتها تباعاً تحت لواء آريوس الذي أدانه مجمع نيقيا الأول (325) لكنّه عاد ليحاكم من جديد في بداية عهد تيودوسيوس خلال المجمع الاول للقسطنطينيّة (381). كما التحق أساقفة آخرون في القرن الخامس بأوطيخا الذي كفّره وحرّم تعاليمه المجمع الخلقيدوني (451). وتميّز أساقفة آخرون في القرن الخامس بدفاعهم عن الأرثوذكسيّة مثل تيموتاوس، أحد آباء المجمع القسطنطيني ويوحنا المذكور في جدول شهداء الكنيسة اليونانيّة في التاسع عشر من شباط[83].

وترافق تعزيز سلطة الكنيسة الأرثوذكسيّة في القسطنطينيّة في منتصف القرن الخامس مع إعلاء شأن أسقف بيروت الذي كان تابعاً لكرسي صور حتى ذلك الحين. ثمّ جعل الحاكم البيزنطي تيودوسيوس الثاني من المدينة مركزاً لكرسي المتروبوليت، ممّا أثار حفيظة أسقف صور، وألحقت بها أبرشيات بيبلوس وبوتريس (البترون) وطرابلس وعرقة وطرطوس[84]. وما يؤكّد على انتشار المسيحيّة في المدينة، انتشار الكنائس في عدد من أحيائها. ووفقاً لساويرس الإنطاكي الذي درس الحقوق في بيروت في منتصف القرن الخامس واشتهر في بداية القرن السادس كزعيم معتدل للحزب المونوفيزي، والذي أفادنا عن شهادته صديقه ومؤرّخ سيرته زكريا الخطيب، وحسب ما يذكره، كانت هناك في بيروت ستّ كنائس من بينها واحدة باسم يهوذا. وشيّدت إحدى هذه الكنائس تكريماً لأعجوبة حصلت فيها حين طعن بعض اليهود أيقونة بسكين فراحت تنزف دماً. وفي هذه الكنيسة أقام الفرنسيسكان في القرن الثالث عشر مركزاً لهم أيام السيطرة الصليبيّة. وورد ذكر هذه الأيقونة العجائبيّة في بيروت في أعمال المجمع الثاني لنيقيا (787) الذي حرّم إتلاف الأيقونات، ولها عيد تحتفل به كنائس الشّرق والغرب في التاسع من تشرين الثاني/ نوفمبر، حسب السنكسار الروماني[85]. ولا بدّ أنّ هذا التقليد دام طويلاً لأن صالح بن يحيى، مؤرّخ القرن الخامس عشر، يذكره ويرجع عهده للقرن الخامس[86].

مدرسة الحقوق

إذا كانت بيروت احتلّت مركزاً في تاريخ المسيحيّة، فهذا ليس فقط بفضل تقاليدها العجائبيّة أو مشاركتها في المناظرات اللاهوتيّة، بل بفضل إسهام مدرسة الحقوق فيها في صياغة التشريعات

القانونيّة التي بنيت على اساسها أوروبا المعاصرة، أي الدستور اليوستينياني في القرن السادس. ويعود اوّل ذكر لهذه المدرسة إلى غريغوريوس العجائبي في معرض مديحه لأوريجنس المنشور عام 293. والمرجّح أنّ هذه المدرسة أنشئت في ظلّ سبتيموس ساويرس في نهاية القرن الثاني للمسيح[87]. لم تكن مدرسة الحقوق المدرسة الوحيدة في الامبراطوريّة بل إنّ مدارس أخرى أنشئت في روما والاسكندريّة والقيصريّة وأثينا، ثم لاحقاً في القسطنطينيّة. وهناك نظريّة تقول بأنّ تعليم الحقوق في بيريتوس كان يعطى في إطار منظّم[88]، وإنّ المدينة اجتذبت أنظار رجالات القانون لأنّها كانت مركزاً لصياغة الدساتير الأمبراطوريّة، ونقلها عن طريق الترجمة إلى اليونانيّة وانتشار المراسيم. لا بدّ أنّ هذا الدّور الذي أثبت فقط ابتداءً من العام 196، سبق أن لعبته المدينة بسبب وضع بيريتوس كمستعمرة[89]. والدليل على ذلك انّ كبار القانونيّين السوريّين وفدوا إلى بيريتوس في بداية القرن الثالث، أمثال أولبيانوس الصوري وبابينيانوس صهر سبتيموس ساويرس ويوليوس باولس الحمصي، أو حتى كلوديوس تريفونيون[90]. وربّما كان إليهم يعود الفضل في إنشاء المدرسة[91]. وما يدلّ على نجاحها القرار الذي اتّخذه ديوقلسيانس في أواخر القرن الثالث بإعفاء دارسي الحقوق في بيروت من الضّرائب. ومنحت المدرسة أيضاً صك امتياز أي شرعة اختيارها مدرسة الدّولة[92].

في منتصف القرن الرابع، تكرست شهرة المدرسة ووصفت المدينة للمرّة الأولى على انّها أمّ الشرائع. أوّل ذكر لهذه العبارة ورد عند الفيلسوف السفسطائي أونابيوس، أحد أتباع يوليانس الجاحد. وفي معرض حديثه عن أحد الموظّفين الكبار ويدعى أناطوليوس، كتب يقول: «بلغ الذروة في علم الحقوق. ولا عجب في ذلك لأنّ بيريت، موطنه هي أم هذه العلوم ومرضعتها[93]. وسيستعيد ليبانيوس، الخطيب الانطاكي الشهير، الفكرة في رسالة تعود إلى سنة 361 يتحدّث فيها عن «أم الشرائع»[94]. وليبانيوس على ايّة حال، ساهم لاحقاً، وإن من مكانه في إنطاكية، في شهرة المدرسة معرباً، في التوصيات التي كتبها بناءً على طلب الشبان الراغبين في دراسة الحقوق في بيريتوس، عن أسفه لرؤية الطلاب يهجرون الآداب الإغريقيّة. والواقع أنّ الطلاب كانوا يتوافدون من كلّ صوب، من إنطاكية وفلسطين والاسكندريّة ومدن الجزيرة العربيّة الرومانيّة ومن القسطنطينيّة حتى[95].

وبلغت بيريتوس قمة مجدها في القرن الخامس مع ما يسمّى مدرسة الاساتذة المسكونيين أو الفقهاء العالميين الذين إلى جانب إتقانهم اللاتينيّة، كانوا يدرّسون باللّغة الإغريقيّة. ومؤسّس هذه العصبة هو كيرلّس الذي ألّف كتاباً يعرّف بالتحديدات القانونيّة، وكان متداولاً كثيراً بين الطلبة، وممثله الأبرز هو تلميذه باتريكيوس. تذكر مقدّمات الدّستور اليوستنياني هذا الأستاذ الكبير ويصفه مؤرّخو القانون بأنّه «ملك المدرسة». وعلى أثره أحيا فقهاء كبار آخرون العلوم الفقهيّة في بيريتوس وتحديداً دومنينوس وديموستان واودكسيوس[96]. وأكمل لاونطيوس ابن اودكسيوس تعاليم ابيه إلى ان استأثرت الدولة

بخدماته، متقلّداً وظائف مشرّفة عدّة، من عمدة لقضاة الشّرق في ظلّ حكم اناستازيوس (المتوفي عام 518) إلى قاض عسكري عام 582، ورقي أخيراً إلى رتبة بطريك.

لا بدّ أنّ الموقع الذي احتلّته مدرسة بيروت في العلوم القانونيّة هو ما دفع الامبراطور يوستينيانوس إلى اتّخاذ القرار بالإبقاء عليها عندما باشر في حملته الاصلاحيّة المتعلّقة بتطوير الشّرائع الرومانيّة وتنظيمها وحصر أبوابها، فيما اقفل مدارس قيصرية وأثينا والاسكندريّة. كانت بيروت آنذاك، بالإضافة إلى العاصمتين الامبراطوريّتين المدينة الوحيدة التي تُدرس فيها علوم القانون. لكن التكريس الاهم كان عندما ساهم أساتذة بيريتوس في إنجاز الدّستور اليوستينياني: كان لاونطيوس من بين الذين ألحقوا بالتّخطيط للمشروع وكان ابنه أناطوليوس، حفيد أودكسيوس إذاً، أحد مشرّعي الدستور المعروف بـ«المنظم»، وأيضاً زميله دوروثيوس[97]. وشددت مقدمات الدستور المنظم على مركزبيرتيوس في عالم الحقوق، وأشارت إلى الإنجاز الذي حققه اساتذتها ويجدر القول أن المقدمة الثانية المسماة «الدستور العام»، شرّعت شهرة المدينة كأم مرضعة للشرائع واشترطت نقل المؤلفات الثلاثة للدستور في بيروت بالاضافة إلى المدن الملكية: «in Berytiensium pulcherrima civitate quam et legum nutricem bene quis appelet.»[98].

لم تقتصر الاضافة التي أحرزتها مدرسة الحقوق في بيريتوس على التشريع القضائي فقط فمنذ القرن الثالث بدت المدرسة وكأنها تحاول التوفيق بين نصوص القانون الروماني وتعاليم المسيحية التي اعتنقها معظم الناس. وهذا ما نستطيع أن نتبينه من خلال المسار المعروف لبعض طلابها امثال بمفيل أو الشهيد إيفيان واخيه أداسيوس اللذين إرتدّ كلاهما إلى الايمان خلال إنكبابهما على دراسة الحقوق في بيريتوس: ثم إن مرور ساويرس الانطاكي فيها في القرن الخامس يشير أيضاً إلى أن مدرسة بيروت عرفت كيف تشّرع القوانين لتواكب التّحول الديني للامبراطورية في ذلك العهد. كما يبدو أن كيرلس عقد القرار في تلك الفترة، وهو أول الاساتذة المسكونين، على إدخال المسيحية إلى تعاليمه لتشكل بعداً آخر لها[99].

وغالباً ما طوى النسيان شهرة بيروت في القرون اللاحقة الاّ في أوساط بعض الملمّين بالقانون[100]. ووجب انتظار نهضة بيروت في الحقبة المعاصرة لكي تظهرمن جديد عبارة «بيروت، أم الشّرائع» وهو الشعار الذي رفعته نقابة المحامين التي تأسّست عام 1919. وأراد بول هوفلان إعطاء مزيد من الشرعية لكلية الحقوق التي انشئت في جامعة القديس يوسف عشية الحرب العالمية الاولى، فكرّس مؤسسها الفرنسي محاضرته الافتتاحية عام 1914 للتحدث عن مدرسة بيريت. واعادت حملة التنقيب الطارئة التي بوشر بها في التسعينات إحياء ذكرى المدرسة وكبر الامل بالعثور على آثارها. لكن اي دليل اثري عن مدرسة بيريت لم يظهر حتى الآن. وليس اكيداً، على اية حال، أنه بالامكان أن يوجد اثر

لها. فتنظيم التعليم في العصور الرومانية القديمة لا علاقة له بالجامعات المعاصرة ولا حتى بجامعات القرون الوسطى، إذ لم تكن هناك أمكنة محددة مخصصة بشكل حاسم للتعليم. وبإمكان الدروس التي يعطيها خمسة اساتذة موزعين على عدد السنوات الدراسية الخمس اللازمة أن تجري في الهواء الطلق تقريباً او ربّما بجوار بناء ديني كالبازيليكا البيزنطية التي شيّدت فوق معبد روماني والتي على أنقاضها قامت منذ القرن الثامن عشر كاتدرائية مار جاورجيوس للروم الأرثوذكس.

لم يجر تحديد موقع مدرسة بيروت حتى الآن. أما عن الجو الذي كان سائداً فيها فقد وصلتنا اشارات من خلال الشهادات التي قام بها اوسابيوس القيصري وغريغوريوس العجائبي في القرن الثالث، وحيث يظهر واضحاً سخطهما على ما تمثله المدينةمن مصيدة للنفوس البارّة. وصفها غريغوريوس بانها مدينة ساحرة تأخذ بألباب الشبان فتجرهم الى مهاوي الفساد[101]. كانت حدائقها وحماماتها ومطاعمها تغري الطلاّب وتزرع البهجة في نفوسهم وهذا الوصف يجعلها شبيهة بما هي عليه في الحقبة المعاصرة. ولم يتردّد نونُّس دوبانوبوليس في القرن الخامس عن وصف بيروت بأنّها مقام الملذّات وبلاط عشتروت. وكانت هناك مداعبات ساخرة يمارسها الطلاب القدامى بحق الطلاب الجدد، الشيء الذي كان يثير المخاوف لدى بعض الطلاب مثال زكريا الخطيب الآتي من غزّة، واستطاع أن يتجنّبها بفضل رعاية ساويرس. كما أشار زكريا الخطيب إلى ممارسة السّحر الأسود وعبادة الشيطان والطّقوس المحرّمة كما راجت عادة المراهنات على الجياد المضمّرة المشاركة في سباق الخيل.

وقد ساهم بقاء الوثنيّة في المدينة على استمرار هذا الجوّ من الحريّة والإباحة لوقت طويل رغم تغلغل المسيحيّة فيها، حسب ما يشير نونّس وزكريا الخطيب. وأقيمت المعابد لعشتروت وباخوس وأمّتها وفود الوثنيّين. واكتُشف مذبح يرقى إلى القرن السادس لفينوس/ عشتروت[102]. لذا يجب التّعديل قليلاً في الصورة التي رسمت لبيروت على أنّها حاضرة مسيحيّة صرفة. كما يجب أن يؤخذ بالاعتبار الحضور الكثيف لليهود فيها وتشهد له كتابات جنائزيّة في مقابر المدينة أو في حواضر أخرى من فلسطين[103]، وتشير المراجع إلى انهيار معبد يهودي خلال زلزال 502. لكنّ هذا التنوّع الديني يعكس من دون شكّ انفتاح المدينة في العهد البيزنطي وأهميّتها كمرفق تجاري.

وإذا أردنا أن نرسم صورة المدينة في تلك الفترة لرأيناها من دون شكّ في أبهى حلّة من الرقيّ والازدهار. في عام 350، وصفت في كتاب «معرض العالم كلّه» بأنّها المدينة الساحرة. وفي الفترة نفسها، يتحدّث ليبانيوس عن بيريتوس «البديعة الجمال»[104]، وفي رسائل أخرى يسمّيها «مدينة فينيقيا الزّاهية». لكن تكريسها أتى مرّة أخرى من يوستينيانوس. بالإضافة إلى التنويه المذكور في المقدّمة الثانية من كتابه مجموعة القوانين ويدعى «الديجست» *Digeste*، هناك تنويه أيضاً في المقدّمة الثالثة المسمّاة «دستور Tanta» – يقول إنّ دورتيوس يعلّم «في بيريتوس أروع المدن»[105].

كانت بيروت محاطة آنذاك بالجزر وبالرّياض المزروعة بالسّرو وأشجار النّخيل وبغابات الصّنوبر[106]. وبالإضافة إلى قناة ماغوراس التي تزودها بالماء، ساعد على نموها إنشاء قناة جديدة تجّر الماء من نبع العرعار في الجبل، في أسفل ضهور الشوير حالياً، حسب ما أكّد صالح بن يحيي، وجاء اكتشاف آثار هذه القنوات والأحواض في بعبدات وبرمانا وبيت مري ليثبت صحّة قوله[107]. وظلّت بيروت تعتمد في دعم اقتصادها، كما في الفترات الأولى لتأسيس المستعمرة الرومانيّة، على صهر المعادن المستخرجة من المناجم المحيطة بها، وكذلك على إنتاج المنسوجات والصوف والكتان والحرير[108]. كما تعتمد على موارد أخرى وفّرتها خصوبة أراضيها المجاورة وخاصّة كرومها ممّا دفع نونّس إلى الحديث عن جودة خمورها بعد أربعة قرون من بلينيوس. لكنّ التجارة ظلّت العمود الفقري لاقتصاد المدينة. هناك شواهد كثيرة على تجار أصلهم من بيروت برعوا في باقي أقطار العالم الروماني. وأنشئت مؤسّسات لتعزيز الأعمال التجاريّة. وبدت بيروت وكأنّها أحد مراكز تجارة الحرير في ظلّ يوستينيانوس.

في تلك الفترة بالتّحديد أي خلال القرن السادس حين بلغت بيروت ذروة مجدها الاقتصادي والثقافي، داهمتها الكوارث الطبيعيّة فعاثت فيها خراباً ودماراً. صحيح أنّ المدينة كانت معتادة على الكوارث إذ سبق وضربها زلزال في القرن الرابع نحو عام 334 وضرب أيضاً جيرانها لكنّها ما لبثت أن نهضت من كبوتها بسرعة. وفي الزلزالين اللذين هزّا مدينتي صيدون وصور، الأوّل عام 494 والثاني عام 502 وأدّيا إلى دمار المدينتين، لم تنل بيروت منهما إلاّ قسط قليل من الأضرار اقتصر على دمار كنيس يهودي وبعض الابنية. لكنّ الكارثة الأعظم التي تسببت بخراب أوسع حصلت سنة 551، حين انسحب البحر إلى مسافة ميل من الشاطئ وارتدّت أمواجه بعد ذلك كطود شاهق جارفة معها السفن الراسية كلّها لتنقضّ من ثمّ على المدينة كلّها وتتسبب بآلاف القتلى، قدّرعددهم بحوالي ثلاثين ألفاً حسبما يذكر أحد الرحّالة[109]. وكتب أغاتياس الذي صادف نزوله في المدينة بعد وفاة يوستنيانوس عام 565 يقول: «بيريت، لؤلؤة فينيقيا الأجمل، جرّدت من سحرها كلّه. هدمت مبانيها الرائعة الشهيرة المزخرفة بفنّ بديع فلم يسلم منها شيء. لم يبق منها إلاّ ركام وأنقاض»[110].

وبالرّغم من اتّساع رقعة الدّمار، سعت بيروت أيضاً للنهوض من جديد. نقلت مدرسة الحقوق فيها إلى صيدا، وهذه علامة جديدة على أهميّتها في العالم البيزنطي، وبالرّغم من زلزال جديد ضربها عام 554، عاد الناجون من ارتداد الفيضان للإقامة فيها. لكن، يا للأسف، هذه المحاولة لترميم المدينة لم تدم طويلاً، إذ نشب عام 560 حريق هائل في المدينة قضى على ما تبقّى منها وعلى ما بني فيها من جديد. وإثر هذه الكارثة الكبرى، انهارت إرادة النّهوض لدى شعبها واستسلم سكانها لقدرهم. وقد رثاها شاعر إغريقي يحمل اسم يوهانس باربوكالوس قائلاً «يا عابر الطّريق اندب سوء طالعي

واذرف الدموع على بيروت التي اضمحلّت. واكتب على حجر ضريحها الوحيد: أيّها الفانون الأحياء، هنا ترقد بيروت المدينة المأسوف على شبابها، المدفونة تحت التّراب. أيّها البحّار، لا توقف إبحارك من أجلي ولا تخفض الأشرعة، ليس من أرض يابسة كما ترى إلاّ المرفأ، وأنا صرت قبراً»[111].

بقيت المدينة وقتاً طويلاً مدفونة تحت رمادها. وفي نهاية القرن السادس، ذكر الرحالة المسيحي انطونينوس الشهيد بأن المدينة كانت لا تزال مدمرة حين مرَّ بها[112]. ثمَّ قامت السلطة البيزنطية ببعض الجهود لاعادة اعمار المدينة واستعادة النشاط التجاري سيره، كما توحي بذلك نقود مضروبة على رسم موريقيوس وكونستانس الثانية[113]. لكن الانشقاقات الداخلية التي حصلت في القسطنطينية حدت من هذه الاندفاعة، وكذلك الحملة التي قام بها خسرو في سوريا مخضعا مدنها في الداخل لهيمنة الفرس الى ان اعاد قيصر بيزنطية هرقل السيطرة على الوضع عشية الفتح العربي. صحيح أن جيوش الفرس تجنبت شنّ الحرب على المدن الساحلية، لكن المواجهة الطويلة بين الامبراطوريتين لم تشجع قط على اعادة ترميم بيريت. وهكذا، حين اجتاح الفاتحون العرب سوريا، كانت بيروت أبعد من أن تشكل هدفاً لطموحاتهم.

الفصل الثاني

من الرّباط إلى الأسكلة

انطلقت جيوش الاسلام من شبه الجزيرة العربيّة لمحاربة الإمبراطوريّتين الكبيرتين المجاورتين، البيزنطيّة والفارسيّة، بعد وفاة النبيّ في السنّة 12 للهجرة. لم يكن ساحل المتوسّط هدفاً مباشراً للعرب المسلمين واستهدفت غارات خيولهم الرّائعة دمشق بالدّرجة الأولى والقدس وقطسيفون وهي مدن لا تزال صورتها ماثلة في أذهانهم وتشكّل لهم مصدر غواية دائماً. لم تكن هناك أيّة مدينة على الساحل، باستثناء قيصريّة فلسطين تستحق، على ما يبدو، أن يبذل العرب جهداً للسيطرة عليها. وبالتالي فإنّ أسماء هذه المدن واردة بشكل عابر في أغلب الأحيان في أخبار الفتوحات العربيّة.

وبيروت، لا أخبار عنها، وكأنّها مغفلة تقريباً. لنا أن تستوقفنا في غير مكان إشارات سريعة لكن ما من بحث وافٍ يتناولها. فالبلاذري صاحب «فتوح البلدان» يكتفي على سبيل المثال بذكر بيروت من ضمن لائحة المدن الساحليّة التي افتتحها يزيد بن أبي سفيان عندما استولى على مدينة دمشق 14هـ. 635م. ويوضح المؤرّخ قائلاً إنّ معاوية أخا يزيد بن أبي سفيان كان في مقدّمة الجيش، لكنا لا نعرف ما إذا كان مؤسّس الدولة الأمويّة العتيد اكتشف بيروت في ذلك الوقت، لا سيّما أنّ البلاذري ضنّ بالكلام ولم يذكر المزيد من التّفاصيل. وإذا كان يذكر استيلاء البيزنطيّين على بعض المناطق الساحليّة الآهلة بالسكّان في آخر خلافة عمر بن الخطّاب (توفي عام 644م.)، فهو لا يحدّدها ولا يذكر المزيد عن حملة معاوية في بداية خلافة عثمان بن عفان لاستعادة السيطرة على الساحل، إلاّ في إشارة سريعة إلى أنّه أعاد ترميم تحصيناتها وأمّن حمايتها بعناصر من المقاتلين. أما الواقدي فيسرد رواية أخرى من كتابه «فتوح الشام» من دون أن يذكر المزيد من الإيضاح، لأنّه يكتفي بإدراج اسم بيروت مع مدن أخرى تمّ الاستيلاء عليها في سياق الحديث عن افتتاح القيصريّة في 19هـ./ 640م. على يد فاتح مصر عمرو بن العاص. إنّ انكفاء الدّور الذي لعبته بيروت في ذلك العهد مثبت من خلال إعادة التنظيم الإداري لبلاد الشام، إذ قسّم العرب بلاد الشام إلى خمسة أجناد وكانت بيروت تابعة لجند دمشق.

لم ترد عند الواقدي ولا عند البلاذري ولا في أي مكان آخر معلومات كافية عن الطريقة التي

سقطت فيها المدينة أو عن طريقة معاملة سكانها، فيما أخبار التاريخ العربي تحفل بالايضاحات عن معاهدات الحماية التي جنّبت معظم مدن سوريا الدّمار وسمحت لأهلها المسيحيّين أو اليهود بالبقاء على دينهم وممارسة شعائرهم الدينيّة شرط أن يدفعوا الجزية. الإشارة الوحيدة عن الموضوع أتتنا متأخّرة جداً في القرن الخامس عشر من المؤرّخ صالح بن يحيى الذي أكّد أنّ مسيحيّين كثرا ظلّوا في بيروت بعد الفتح العربي، وأضاف أنّ عددهم تضاءل لاحقا فيما ازداد عدد المسلمين حتّى صاروا يشكّلون أكثريّة أهلها[1]. هذه الظاهرة تنطبق على جميع مدن سوريا حيث دخلت كتائب جند الاسلام سريعاً في نسيج المدينة. وفي ما يخصّ بيروت وجاراتها على الساحل يجب أخذ المبادرة التي قام بها معاوية بالاعتبار ويذكرها اليعقوبي في «كتاب البلدان» عندما يشير إلى أنّ معاوية نقل إليها قوما من الفرس الداخلين في الإسلام. ولكن، نجهل ما إذا كان الأمر متعلّقاً بـ«المقاتلة» التي تحدّث عنهم البلاذري حين تطرّق إلى الافتتاح الثاني للمدن الساحليّة، أو بالجماعات الأخرى التي أقامت في بيروت بموجب قرار لاحق صادر عن معاوية بعد أن تولّى خلافة المسلمين.

رباط لدار الإسلام

بعد أن بسطت الدّولة الإسلاميّة سلطتها الفعليّة على البلاد، شكّلت المدن الواقعة على ساحل المتوسّط نظريّاً ما سمّاه العرب «الرّباط»، إشارة إلى الحزام الأمني الأقصى لموقع انتشارهم – وهو ما يشبه تخوم الامبراطوريّة الرومانيّة – والهدف منه حراسة دار الإسلام واستخدامه منطلقاً لفتوحات جديدة. ورغم أنّ مفهوم «الرباط» شائع الذّكر في أوصاف الرحّالة والجغرافيّين، إلاّ أنّ الأحداث التي وقعت على الحدود البحريّة لم تحفّز المؤرّخين على ذكرها. وإذا كان يروى أنّ معاوية قد طلب من حرفيّي بيروت أن يبنوا له الأسطول الذي يمكّنه الاستيلاء على قبرص، إلاّ أنّ الأخبار المدوّنة لم تشر حتى القرن العاشر إلى هجومات محتملة قام بها الأسطول البيزنطي على التحصينات الساحليّة ولا إلى إجراءات عسكريّة في الموانئ تمهيداً لتجهيز أساطيل لتلك الغاية. وحدها مستندات غير مثبتة حفظت في أرشيف العائلات تذكر أحداثاً حربيّة وتروي عن اشتباكات حصلت مع مردة لبنان الشّمالي أدّت إلى وفاة زعيم من آل ارسلان، وهم فرع من سلالة اللخميين، في سن الفيل الواقعة في ضاحية بيروت الشرقيّة حوالى العام 171هـ. 687م.، وعن غارة قام بها البيزنطيّون وأسر على أثرها شخص آخر من آل إرسلان عام 185هـ. 801م. وأخلي سبيله بعدما دفع الفدية أحد أبناء الخليفة هارون الرّشيد[2]، لكن هذه الأحداث لم ترد في مصدر آخر.

بالمقابل، يذكر عن بيروت أنّها احتضنت داخل جدرانها مرابطا من نوع آخر، مرابطا مسالما هو الإمام عبد الرّحمن بن عمرو الأوزاعي. ولد في دمشق ويُعتقد أنّه عمل في دواوينها قبل مجيئه النّهائي

إلى بيروت حيث بقي فيها حتّى وفاته، بحسب الطبري، عن عمر يناهز السبعين عاماً 157هـ./ 774م.[3]. أما صالح بن يحيى فيعتبر من جهته أنّ الإمام ولد في بعلبك عام 88هـ./ 707م. أو عام 93هـ./ 712م.، ويضيف أنّه بعد نشأته في البقاع، نقلته أمّه إلى بيروت فرابط فيها (استناداً إلى «رباط») حتّى وفاته[4]. يصفه الطّبري قائلاً إنّه كان مفتي تلك الناحية وأنّ صيته ذاع كصاحب مذهب فقهي وتعدّت شهرته حدود المدينة. أحيط الإمام بتقدير كبير من معاصريه ويمكن التثبت من أهميّته عبر مراجعة المسائل التي وجّهها إلى الأعيان الأكثر نفوذاً في الدّولة حتى بعد تولي العباسيّين الحكم ونقل العاصمة إلى بغداد. كان الإمام قادراً على التدخّل مباشرةً لدى الخليفة المنصور. وتعتبر آراؤه المتعلّقة بالفقه، بصرف النّظر عن شبكة العلاقات السياسيّة الواسعة التي عقدها، من أقدم المذاهب المعتمدة في الفقه الإسلامي ، أمّا «مذهبه» أو المدرسة الفقهيّة التي أنشأها فعظُم شأنها ليس فقط في بلاد الشام – وعلى مدى مئتي سنة كما يؤكّد صالح بن يحيى – بل في المغرب أيضاً وصولاً إلى الأندلس إلى أن خلفه مالك بن أنس[5]. وأورث اسمه لموقعين في بيروت: الزاوية حيث درّس، جنوب سوق الطويلة حالياً، وهناك أنشئ سبيل ماء عام 1528 تخليداً لذكراه، لكنّه لم يعد الآن موجوداً؛ وقرية «حنتوش» حيث ووري الثرى في الضاحية الجنوبيّة والتي تعرف اليوم باسم «الأوزاعي». إنّ شهرة الأوزاعي وهالة القدسيّة التي أحاطت به وبابنه محمّد من بعده وبعدد من أتباعه، جعلت بيروت ماثلة في الجغرافيا الوجدانيّة للمسلمين. وكان الرحّالة العرب الذين يمرّون ببيروت يأتون على ذكرها بالتّفصيل لأنّها احتضنت إمامهم المبجّل.

مهما يكن شأن الاوزاعي عظيماً فهذا لم يجعل بيروت تحتلّ مكانة مرموقة في الأدب العربي الكلاسيكي. أبو نوّاس شاعر الخمرة في العهد العبّاسي، يأتي على ذكر تفاح لبنان في وصفه الخمرة:

سلافُ دنٍّ إذا ما الماء خالطها   فاحت كما فاح تفّاحُ بلبنانِ

لكن مدائح بلينيوس ونونّس لخمر بيروت لم تصل إلى مسامعه بالتّأكيد. وإذا كان المتنبّي، عملاق الشّعر العربي، يذكر طرقات لبنان المتعرّجة بقوله:

وجبال لبنانٍ وكيف بقطعها   وهو الشّتاءُ وصيفهنّ شتاء

فلا يبدو أنّه مرّ ببيروت رغم انّ اثنين من معاصريه في القرن العاشر، وهما الاصطخري صاحب **مسالك الممالك** وابن حوقل صاحب **المسالك والممالك**، يأتيان على ذكر المدينة. يذكر الأوّل تحصيناتها والثاني ضخامة الكتيبة المرابطة فيها والتي تضمّ جنوداً من دمشق، إلاّ أنّه ينوّه باختلاف طباع أهل دمشق عن أهل بيروت الأكثر دماثة وتهذيباً حسب رأيه. كما يتحدّث ابن حوقل عن مرفئها التّجاري ويتطرّق إلى وصف النباتات والأشجار من نخيل وقصب سكّر وأشجار مثمرة.وبعد عدّة عقود، في عام 1047، تحدث الرحّالة الفارسي ناصر خسرو عن بيروت في كتابه سفرنامة معبّراً عن دهشته، ازاء

منظر قوس نصر يعود إلى الحقبة الرومانيّة[6].

وظلّت بيروت بمنأى عن الأحداث السياسيّة التي عصفت بدار الإسلام ولم تشارك فيها حتّى القرن العاشر. انتقلت المدينة من الدولة الأمويّة إلى الدّولة العبّاسيّة من دون أحداث تذكر. ولكن، عندما ضعفت شوكة العباسيّين، دخلت بيروت مع بقيّة بلاد الشام تحت حكم السلطنة الطولونيّة التي نشأت في القاهرة في 264هـ/ 877م ولاحقاً تحت حكم الإخشيديّين في 323هـ/ 935م. خلال هذه الفترة بقي السكان مختلطين – من دون معرفة النّسب بين الجماعات – وهذا ما نستطيع أن نتثبّت منه استناداً إلى الشّهرة التي بلغها الشماس رومانوس في القرن الثامن وهو مرتّل وكاتب تسابيح دينية. ولد في بيروت ثمّ انتقل إلى بيزنطية بعد أن ذاع صيته، أو لدعوة تلقاها من توما، أسقف بيروت، للمشاركة في مجمع القسطنطينيّة عام 869م.[7].

وما لبث الاستقرار الذي وطّده الإسلام في بداياته المجيدة أن تزعزع تدريجياً. ضعفت الدّولة العباسيّة واشتدت النّزاعات بين الحكّام، عندئذتحرّكت مشاعر الحماس في نفوس البيزنطيّين فبادر يوحنا زيميساس الذي دعاه العرب بـ«الشمشقيق»، الى احتلال قسم كبير من فلسطين في القرن العاشر. ولدى مروره افتتح بيروت عنوةً في العام 364هـ/ 974م ونهبها وسبى الكثير من أهلها وفقاً لما أورده ابن القلانسي. ولم تحرّر المدينة إلاّ بعد سنتين على يد حاكم دمشق الذي ولّى عليها دوريش بن عمر الارسلاني، ثمّ ألحقت سوريا وفلسطين في 384هـ/ 994م بالخلافة الفاطميّة ومعهما بيروت، رغم أنّنا لا نملك معلومات عن الموضوع سوى إسمي الحاكمين الفاطميّين للمدينة: الأوّل اسمه فتح وهو أحد محميي حاكم حلب الذي عيّن في 405هـ/ 1014م، والثاني أبو سعيد قابوس المعني عام 435هـ/ 1043م وتذكر الحوليات حادثة معبّرة حصلت عام 448هـ/ 1056م حين أقطعت مدينة بيروت مع عكا وبيبلوس إرضاءً لابن مرداس، حاكم حلب المخلوع. لكنها كانت تعزية هزيلة لأنّ مقرّبين من ابن مرداس استولوا على حلب والخليفة الفاطمي استردّ منه بيروت.

أما عن الأمر الأساسي أي عن إمكانيّة أن تكون بيروت استجابت لدعوة التشيّع التي أطلقها الفاطميّون، فلا نعرف شيئاً. جلّ ما نعرفه هو أنّه في مصر، حيث أقامت السلالة الفاطميّة الحاكمة، الآتية من تونس وجعلت القاهرة عاصمة لها، كان التأثير الشيعي المتعاظم خلال قرن من الزّمن قد بلغ أقصى مداه لدرجة استوجبت معها جهوداً جبّارة لمحوه بدءاً بـ صلاح الدين والأيوبيين الذين خلفوه وصولاً الى المماليك. لم يشر الى شيء من ظاهرة التشيّع في بيروت. ولم يكتب للهيمنة الفاطميّة أن تفعل فعلها كما يجب فانحسرت في النّصف الثاني من القرن الحادي عشر مع تقدّم الأتراك السلاجقة الذين بعد أن استولوا على العراق، بسطوا سلطتهم على حلب ودمشق ومن هناك على مدن الساحل. في بيروت، تولى السّلطة حاكم من التنوخيّين باسم أحد أمراء الأتابكة في دمشق، لكن ليس لفترة

طويلة، لأنّ أوروبا الكاثوليكيّة ستدخل الشّرق في دوّامة الحروب الدينيّة لقرنين من الزّمن متذرّعة بالمضايقات التي يتعرّض لها الحجاج الذاهبون إلى الأرض المقدّسة. حصل هذا في البداية برضى الفاطميّين. ولأوّل مرّة منذ الفتح العربي، انقطع التّواصل بين دمشق وبيروت.

إقطاعة فرنجيّة

صحيح أنّ بيروت لم تسقط سريعاً في أيدي الصليبيّين، إلاّ أنّها من المدن التي بقيت أطول فترة بحوزتهم: مئة وإحدى وسبعون سنة مع فاصل زمني مدته تسع سنوات. أمّا دمشق فكانت بالتناوب مع حلب في ظلّ حكم أتابك آل زنكي، والقاهرة تحت سلطة الأيوبيّين والمماليك، التي اعتبرت معقلاً حصيناً من معاقل المقاومة الإسلاميّة ضدّ الغزو الأوروبي.

بعد فشل الحملة الشعبيّة التي قام بها بطرس الناسك، بدأت الحملة الصليبية الأولى بالاستيلاء على انطاكية عام 1098، ومن بعدها توغّل الصليبيّون في وادي العاصي وصولاً الى منطقة البقاع. وبدل مواصلة الزّحف جنوباً إلى فلسطين، انحرفت جيوش الصّليبيّين باتّجاه الساحل حيث مرّت بطرابلس ثمّ واصلت السير إلى بيروت. ولم يطل بها الأمر كثيراً. ففي تلك الفترة، كانت بيروت لا تزال تحت حكم الدّولة السّلجوقيّة ويتولّى حكمها أحد الأمراء التنوخيّين الذي لم يتوان عن تقديم المعونة إلى الفاتحين الجدد، ففكوا الحصار وأكملوا طريقهم إلى القدس التي سقطت عام 1099. بعد ثلاث سنوات، قام بودوان، كونت الرها، أخ غودفروا دو بويون وأوّل ملك على القدس، بهجوم جديد ولكنّه لم ينجح في الدّخول عنوةً إلى المدينة. واستطاع حاكم بيروت إرضاءه وردّه عن المدينة بعد تزويده بالذّخائر. ثمّ عاد بودوان ليحكم الحصار على المدينة بمساندة برتران دوتولوز كونت طرابلس عام 1110. ظلّت المواجهة شهرين، عمل الفرنج خلالها على بناء الأبراج من الخشب المقتطع من الغابات المجاورة، لكن المدافعين عن المدينة حطّموها. فجهّزوا أبراجاً أخرى لمحاربتهم، لكن أسطولاً أرسله المصريون أجبر الصليبيّين على التّراجع. فما كان من بودوان إلا أن عاد على رأس أسطول من أربعين مركباً وتمكّن من الاستيلاء على المدينة فدمّرها وهجّر أهلها كما روى ذلك ابن القلانسي.

وأقطع بودوان مدينة باروت Baruth، كما دوّن اسمها الصليبيون، الى البارون فوك دوغين Foulques de Guines، فلملمت آثار جراحها جراء الحصار. ودشّن بودوان عصر الهيمنة الفرنجية بإصدار الامر بتشييد بازيليكا على اسم يوحنا المعمدان على شكل المصلب المعمول به في الكنائس اللاتينية. لكن الكنيسة تحولت الى مسجد بعد جلاء الفرنجة*. أعاد الصليبيون تحصين اسوار

* المسجد العمري الكبير حالياً.



الجامع العمري، وفي الأصل كنيسة مار يوحنا التي ترقى الى الحقبة الصليبية.

المدينة وبنوا برجين جديدين للحراسة. وكانت النتيجة مرضية حسب قول الادريسي في كتابه «نزهة المشتاق» الذي اورد فيه وصفاً للاسوار المبنيّة بحجارة كبيرة. كذلك يذكر الادريسي التلال المجاورة التي تستخرج منها اصناف الحديد الجيد وتوزع على كافة انحاء سوريا، وتطرّق ايضاً الى غابة الصنوبر جنوب المدينة التي اسماها الفرنج «الصنوبرية». كذلك تحدث الرحالة البيزنطي جان فوكاس عن مدينة حافلة بالسكان تحيط بها البساتين وفيها مرفأ جميل: «ليس مرفأ طبيعيا فحسب بل انجاز رائع يشكل تحفة فنية داخلة في وسط المدينة اشبه بهلال. وعلى طرفي المرفأ اقيم برجان كبيران تربط بينهما سلسلة ضخمة تمنع سفن الغزاة من الدخول الى المرفأ»[8].

وبالرغم من اعمال النفي والتهجير التي حصلت بعد الحصار، لم يختف الوجود الاسلامي تماماً خلال تلك الفترة الطويلة من تاريخ بيروت الممتدة لسبعة وسبعين عاماً. ومن جملة ما يذكر عن احوال المسلمين في بيروت، عدا شهادة الإدريسي، خلاف دموي نشب بين عائلة تلحوق وآل بنو حمرا عام 1144. كان بنو تلحوق يسكنون منطقة رأس بيروت خارج السّور، فيما كان آل بنو حمرا المنحدّرين من أصول بدويّة وفارسيّة يسكنون داخل المدينة بعد أن نزلوا من البقاع على أثر مشاجرة مجهولة الأسباب حصلت بين الفريقين، انكفأ آل تلحوق إلى الغرب، إلى المنطقة المشرفة على سهل الشويفات جنوبي بيروت. وحدث أن حضر أحدهم صدفة إلى بيروت فاغتيل. عندئذ، نزل التلاحقة بسلاحهم الكامل إلى بيروت واقتحموا أسوار المدينة وقتلوا عدّة مواطنين[9]. تذكر الحوليات أيضاً أحداثاً كانت على

صلة بالدّسائس والمؤامرات التي كانت تدبّرها الجماعات التابعة لسلطة الحكام الصّليبيّين في الشّرق لقرنين من الزّمن. فمثلاً يروي ابن القلانسي والمقدسي في **كتاب الروضتين** عن غارة قام بها الأسطول المصري عام 1151 على بيروت وعدّة موانئ قريبة. كذلك يتحدّث ابن الميسر في كتابه **أخبار مصر** عام 1157 – العام الذي شهد زلزالاً مدمّراً – عن غارة أخرى أو عن وفاة بودوان الثالث ملك القدس في بيروت عند عودته من إنطاكية، مسموماً على الأرجح بدسيسة من أحد أخصامه. كانت باروت (بيروت) في عهدة جوسلين، كونت الرها (أورفا حالياً) عندما استولى صلاح الدين الأيوبي على المدينة عام 1187[10]. حاول سلطان مصر وبلاد الشام إخضاع المدينة أوّل مرّة عام 1181. زحف إليها من دمشق براً بينما أمر أسطوله المصري بالمجيء في البحر، ثمّ بدأ باحتلال المواقع الخلفيّة للمدينة قبل الشّروع بالحصار، ولكنّه ما لبث أن رفعه لعدّة أيام. ثمّ عدل نهائياً وفقاً لما يقوله ابن الأثير، عن مواصلة الحصار عندما بلغه أنّ مركباً فرنجياً على وشك الوصول من دمياط، ويكتفي كاتب سيرته ابن شداد بذكر فشل الحصار. مهما يكن، فإنّ صلاح الدين لم يعد إلى بيروت إلاّ عقب انتصاره الكبير في حطّين عام 1187، وفتحه القدس وعدّة مدن أخرى. بعد ثمانية أيام من الحصار استسلم الصليبيّون وسُمح لهم بالانكفاء إلى صور. ولاحقاً، بعد الاستيلاء على عكّا، أقام صلاح الدّين عدّة أيام في بيروت واستقبل بويمون Bohémond حاكم انطاكية وطرابلس.

مهما شكّلت مأثرة صلاح الدين علامة بارزة في نفوس العرب وأيضاً الأوروبيّين، إلاّ أنّها لم تكن إلاّ هامشاً صغيراً في تاريخ الحملات الصليبيّة. إبّان حياة السّلطان صلاح الدين، ترك الساحل الفلسطيني للفرنج بموجب المعاهدة التي عقدت بين صلاح الدين وبينهم بعد استعادتهم عكا إثر الحملة الصليبيّة الثالثة. ثمّ عادت بيروت لتقع في قبضة الصليبيّين بعد أربع سنوات من وفاة صلاح الدين عام 1193. وعندما خلفه أخوه العادل ووصله الخبر بأنّ أسطولاً صليبياً يوشك أن يهاجم المدينة هرع إلى بيروت وأعطى الأمر بتدمير سورها وقلعتها أملاً منه في تجريدها من أي أهميّة استراتيجيّة. عندئذ حاول أسامة حاكم بيروت أن يجعله يعدل عن موقفه في تخريب المدينة واعداً إيّاه بأن يتكفّل بالدّفاع عنها حتّى النّهاية. لكن شيئاً من هذا القبيل لم يحصل لأنّ أسامة استسلم، حسبما يورد ابن الأثير، دون مقاومة للأسطول الرابض قبالته في المرسى عام 593هـ./ 1197م. وبعد سنة من ذلك التاريخ، وقّعت هدنة بين العزيز، ابن صلاح الدين الذي أصبح سلطاناً والفرنج، مكرّسة بذلك هيمنة الصليبيّين على بيروت.

دام الفصل الجديد من تاريخ باروت اللاتيني أربعة وتسعين عاماً، وكان أكثر من ثلثه في أمرة السيّد نفسه جان ديبلان Jean d'Ibelin الذي دعّم السور ورمّم الحصن وبنى الأبراج. اهتمّ ديبلان خلال الخمسة وثلاثين سنة من عهده، يجدر التذكير إنّه ورث السيادة على يافا وكان لفترة

وصياً على عرش قبرص، بتشجيع الصّناعة والتّجارة واستقدام المقاولين من البندقيّة وجنوى وبيزا الذين أقاموا طويلاً في الشرق، وعلى صعيد آخر استمرّ وجود الفرنسيسكان في بيروت. لكن مهما دامت سيطرة الافرنج في الشّرق، فإنّ أيّامهم أصبحت معدودة، لأنّ دولة المماليك التي أسّسها العبيد الذين كانوا مجندين لدى الأيوبيّين، حلّت مكان سلالة الأيوبيّين، وراحت توجّه ضربات قاتلة إلى الفرنجة، مع العلم أنّ خطراً داهماً آخر راح يهدّد الوجود الصّليبي وهو خطر المغول بقيادة هولاكو، وهم المتحالفون ظاهريّاً مع الفرنج. وتحت وطأة الضّغوط التي مارسها عليهم بيبرس ثمّ من بعده السلطان قلاوون، أخذت الاقطاعات اللاتينيّة تنحسر لتختفي تماماً ولن يبقى منها أثر في قبرص وفي بيروت التي كان يحكمها خامس أحفاد جان ديبلان. في تلك الأثناء، أمر السّلطان الأشرف بن قلاوون بأن يضرب الحصار حول المدينة عام 690هـ/ 1291م فأعلن الصليبيّون عن نيّتهم بتسليم المدينة، لكنّ المماليك لم يكونوا من هؤلاء الناس الذين يقبلون بالمساومات. وأوكل إلى سنجر الشّجاع مهمّة الاستيلاء على المدينة فصار الأسياد الفرنج في خبر كان. وبعد أن انتهى سنجر من تدمير الأسوار والحصن، أرسل الأسرى إلى مصر وهناك أطلقهم السّلطان تاركاً لهم الخيار بين التوجّه إلى قبرص أو العودة إلى بيروت[11]. وكان هذا الأمر شكليّاً لأنّه لا وجود لأي أثر لعودة الفرنج إلى المدينة.

عودة الحكم إلى المسلمين

في نهاية القرن الثالث عشر، انتهى وجود الفرنج عملياً في الشّرق. لكن، أشير عدّة مرّات إلى غارات متفرّقة على المدن الساحليّة في القرن الرابع عشر ومن ضمنها بيروت، لا بل إلى الاستيلاء لفترة قصيرة على أحد الموانئ، صيدا مثلاً. إلاّ أنّ الحملات الصليبيّة المنظّمة والجيوش الجرّارة أصبحت من الماضي، على الأقلّ في الشّرق. بعد سلسلة محاولات سقطت مدينة القدس وأحكم عليها المسلمون قبضتهم، والساحل لم يعد جسر عبور. فقادة الجيوش الإسلامية أخذوا العبرة من السابق وارتأوا عدم اتّخاذ الموانئ ساحة للقتال لأنّ تفوّق الفرنجة في الحرب البحريّة اسهل. والأيوبيّون كانوا أوّل من تنبّه للأمر وتيقّنوا منه إثر المواجهة البحريّة التي قام بها ملكهم العادل وباءت بالفشل. أما المماليك فكانوا أكثر منهجيّة إذ باشروا على شكل منظّم بتدمير كامل للموانئ والقلاع الساحليّة لسوريا وفلسطين، ولم تنج أي قلعة من التّدمير إلاّ قلعة طرابلس المطلّة على المدينة. صحيح أنّهم عمدوا أحياناً إلى بناء أبراج لمراقبة البحر على أنقاض التّحصينات بغية استيعاب الضّربات الأولى لهجوم محتمل، لكن الساحل الفلسطيني بقي مكشوفاً قرابة ستّة قرون. بالمقابل استعادت مدن طرابلس وبيروت وصيدا لاحقاً شيئاً من عافيتها بعد هذه المحنة الأليمة، فالتّجارة السوريّة كانت بحاجة إلى مرافئ والمرافئ إلى

دفاعات حتّى لو اختلفت كثيراً عن دفاعات الماضي المعهودة.

في بيروت، قرّر المماليك، وابتداءً من أواسط القرن الرابع عشر بناء تحصينات للمرفأ وترميم السّور الغربي مستعملين لذلك بقايا التّحصينات التي كانت قائمة أيام الفرنج. وبنى حاكم دمشق تنكز برجاً سمّاه «البعلبكيّة» تيمناً بجنود بعلبك الذين تولّوا حراسته. أما خليفته بيدمر فحوّل واجهة الميناء إلى بوّابة وأقفل المرفأ بالسلسلة الجديدة التي سبق وذكرها جان فوكاس لمنع دخول السفن إلى المرفأ وجعلها تصل برج تنكز بآخر السور الغربي. هذه السلسلة هي التي أعطت البوابة البحريّة للمدينة اسم «باب السلسلة»[12]. وأكمل المماليك جهاز خطّتهم للدفاع عن المدينة باستحداث نظام اتّصال مع دمشق من خلال أعلام ناريّة تنصب فوق الجبال تنبئ بالخطر المداهم فتصلهم الامدادات في أقلّ من شهر[13].

كان مفترضاً أن يردع غياب التّحصينات البحريّة إنزال الجيوش المنظّمة على شواطئ المدينة لكنّه شجّع في الوقت نفسه الغارات التي كانت تشنّ انطلاقاً من قبرص حيث ظلّت الروح الصليبيّة سائدة لوقت طويل. وكان القراصنة الجنويّون (أهل جنوى) والبنادقة (أهل البندقيّة) والبيزان (أهل بيزا) والقشتاليّون يلجأون أحياناً إلى استخدام أسلوب الغارات لتصفية حسابات في ما بينهم. وبهذا الشأن، يفيد صالح بن يحيى أنّ جماعة من مدينة جنوى هاجموا بيروت عام 734هـ/ 1334م. للاستيلاء على باخرة قشتاليّة، فانحاز المسلمون المدافعون عن المدينة إلى القشتاليّين لكنّهم لم ينجحوا في ردع الجنويّين، وأسفرت عن سقوط عدد كبير من القتلى في يومين. وتكرّرت الهجمات على بيروت وصيدا وطاولت الاسكندريّة التي استهدفتها غارة شنّها أوغ دولوزيزنيان Hugues de Lusignan وأعقبها نهب منظّم للمدينة عام 767هـ/ 1365م. وإزاء هذه الاعتداءات المتكرّرة، عزم المماليك على غزو قبرص. وأعطي الأمر بتجهيز أسطول في بيروت حيث الخشب متوفّر بكثرة. لكن المشروع، حسب ما يروي صالح بن يحيى، والذي استعجل بيدمر في تنفيذه لم يبصر النور بعد موته، والمركبان الوحيدان اللّذان أنجزا، أصابهما العفن في موضعهما[14]. وأدّى النّزاع الحاصل بين ملك قبرص والجنويّين الذين استولوا على فاماغوستا عام 1372 إلى ازدياد حدّة المخاطر والتهديدات. تكرّرت هجومات الجنويّين وتحديداً في 1382 و1403، إلى أن تمكّنوا في الغارة الأخيرة من الاستيلاء على شحنة من البضائع المنهوبة بينها كميّة كبيرة من التّوابل تعود إلى أهل البندقيّة الذين استطاعوا ان ينافسوا جيرانهم ويستعيدوا منهم حقّهم المسلوب[15].

لكنّ تكرار الهجمات وعنفها لا يعني إطلاقاً أنّ حكم المماليك كان مهدّداً. صحيح أنّ الغارات أوقعت خسائر عديدة بين سكّان المدن الساحليّة وفي صفوف الجنود المسلمين.لكنّ المهاجمين كانوا يتعرّضون للكمائن المنصوبة فيجري تقطيع أصولهم إرباً كما حصل عام 1403. وفي فترة لاحقة تمكّن

المماليك البرجيون الذين حلّوا مكان المماليك البحريّين عام 1382* من احتلال قبرص عام 1424 وظلوا فيها لسنتين حتّى استعاد آل لوزنيان Lusignan السيطرة عليها- إلى آن أزاحهم أبناء البندقيّة عن الحكم في قبرص عام 1489. ويبدو أنّ بيروت لعبت على الأرجح دورا إبّان هذه الفتوحات العابرة من خلال مشاركة أمراء الغرب الذين استوطنوها. لكنّ أهميّة المدينة الاستراتيجيّة في نظر المماليك لم تأت فقط من موقعها الجغرافي. فبالإضافة إلى الخشب الذي كان يستخدم في بناء السّفن، كانت تنتج الحديد الذي تهافت الجميع على شرائه لصناعة الأسلحة والسّفن الحربيّة. وفي كل أرجاء السلطنة، لم يكن استخراج الحديد ميسوراً وعلى درجة عالية من الجودة كما هو في منجم صغير بالقرب من بيروت[16].

كانت حركة المرفأ توفّر موارد جمركيّة أساسيّة مجباة تحت سلطة حاكم دمشق. ومن مظاهر السلطة التي بسطها الحاكم المملوكي، التّسامح الذي أظهره حيال التجّار البنادقة الذين كانوا يملكون كنيسة وخانات وحمامات[17]. لكن المماليك البحريّين كانوا أقلّ تسامحا مع الشيعة الذين سكنوا في كسروان



الجامع العمري من الداخل في نهاية القرن التاسع عشر (الصورة لتنكريد دوما).

* دعي المماليك بالبحريّين لإقامتهم على البحر (يُقصد النّيل) وكانوا عبيداً قدامى من السلافيين والإغريق والجراكسة والأتراك خصوصاً. ودعوا بالبرجيّين لأنهم أقاموا في برج القلعة التي بناها صلاح الدين وكانوا من الجراكسة وقد تميّزوا خاصّة باتّباع نظام ينتخب وفقه السلطان ولا ينتقل الحكم فيه بالوراثة، مما شجع المؤامرات والاغتيالات.

بالقرب من بيروت في المرتفعات الواقعة وراء نهر الكلب. لا نعلم ما إذا كانت خطّة محاربة الشّيعة، التي كان شرع بها صلاح الدين، أحدثت حركة نزوح مباشرة في بيروت. لكنّ الاجتياح المدمّر لكسروان بداية القرن الرابع عشر كان له عظيم الأثر في تاريخ الجبل وبالتالي في تاريخ بيروت بطريقة غير مباشرة لأنّ الفراغ السكّاني الذي يتسبّب به في هذه المنطقة اجتذب السكّان الموارنة من لبنان الشّمالي، نزولاً باتّجاه الجنوب، واستمرّت الحال على ما هي عليه لعدّة عصور على حساب الدّروز الذين كانوا سبقوهم إلى جبل لبنان.

لكنّ المفارقة الكبيرة هي أنّ تشدد المماليك حيال الشيعة لم يمنعهم من التّعاون المثمر مع الدّروز وتبادل الخدمات معهم، وهم طائفة شيعيّة الأصل وتعود إلى الفترة الفاطميّة المذمومة. وخلال عهد المماليك البحريّين والبرجيّين، كانت سلطة حاكم دمشق ممثلة في بيروت من خلال الأمراء البحتريّين، وتاريخ آل بحتر معروف من خلال أحد أحفادهم الشهيرين ألا وهو صالح بن يحيى الذي يعود أصله إلى التنوخيّين ومنه إلى المناذرة، ملوك الحيرة اللّخميّين المتحدّر أصلهم من قحطان جدّ العرب الأسطوري عبر يزيد بن كهلان. التنوخيون هم من النّصارى الذين اعتنقوا الإسلام ثمّ تفرّقوا بعد الفتح العربي في منطقة الفرات، حيث أنّ أحدهم كان أميراً بالحيرة خلال عهد الفاطميّين. ومن المرجّح أن يكون ابنه علي المعروف بـ«مجد الدّولة» قدم إلى لبنان فولاّه الخليفة الفاطمي مقاطعة الغرب جنوب بيروت و الساحل السوري. ثمّ أعاد تعيينه على المناطق نفسها الأتابك السلجوقي في دمشق. لعلّ مجد الدّولة هو الأمير التّنوخي الذي جنّب بيروت الحصار لدى عبور اوّل حملة صليبيّة أمام اسوارها باتّجاه بيت المقدس. بعد احتلال الفرنج المدينة، حافظ التنوخيّون على مواقعهم في إمارة الغرب. وعيّن أتابك دمشق بحتر بن علي أميراً، حسب ما يروي صالح بن يحيى. ويضيف المؤرّخ أنّ صلاح الدّين نفسه ولّى أحفاد بحتر على بيروت. اعتنق البحتريّون الدّيانة الدرزيّة في زمن غير محدّد بين القرن الحادي عشر أو الثاني عشر، ورغم أنّهم اشتركوا في محاربة الصليبيّين، إلاّ أنّهم حافظوا في الوقت نفسه على علاقات مزدوجة مع الأمراء الفرنج في بيروت قبل فتوحات صلاح الدّين وبعدها لدرجة أثارت شكوك سلطان المماليك بيبرس الذي زجّ في السّجن ثلاثة أمراء من العائلة، ولم يطلق سراحهم إلاّ بعد وفاة السّلطان. ثمّ عفا عنهم الأشرف في بداية عهده وعادوا إلى بيروت التي اصبحت في عهدة المماليك. ومنذ ذلك الوقت، ساهموا في الدّفاع عن المدينة، وطلى أحد أعيانهم رسوم بازيليكة القدّيس يوحنا بالكلس بعد ان تحوّلت إلى مسجد[18]. واشتهر أحفادهم بشجاعتهم في ردّ الغزوات التي كان يقوم بها الجنويّون بالرّغم من الهزائم الأخيرة التي تعرّضوا لها خلال حكم بيدمر لدمشق. لعلّ صالحا بن يحيى نفسه شارك على رأس وحدة من مئة رجل في الحملة المملوكيّة ضدّ قبرص.

وتميّز عهد أمراء الغرب، الذين كانوا دوماً تحت سلطة دمشق، بتشييد قصور عدّة وحمامات وإعادة



زاوية ابن عُراق.

بناء الأسوار البحرية. وأحد هذه القصور ذكره ابن سباط في تاريخه المكتوب عام 1520[19]. لكن، مهما تكن الجهود التي بذلها البحتريّون لتحسين صورة بيروت ومهما استفاض في وصفها صالح بن يحيى، فلا يبدو مع ذلك أنّ بيروت حظيت بأي مظهر من مظاهر الشّهرة. ولا مجال لمقارنة الآثار القليلة العائدة لتلك الحقبة التي اكتشفت أثناء أعمال الحفريات السريعة في التسعينات مع مدينة طرابلس القديمة التي شكّلت متحفاً حقيقيا للهندسة المملوكيّة. هناك فقط بناء لا يزال ماثلاً للعيان يعود للعهد المملوكي وهو زاوية ابن عراق الدمشقي على طول شارع ويغان، غير بعيد عن زاوية الأوزاعي. وبطبيعة الحال، لم يكن القرن الخامس عشر فترة متألّقة بالنّسبة إلى الشّرق لما ألّم به من أوبئة ومجاعات، بالإضافة إلى التّداعيات الناجمة عن حملة تيمورلنك التي هدّدت دمشق واجتاحت الشّمال السوري. وكذلك انطلاق موجة القرصنة التي استهدفت السّفن التي تتعاطى التّجارة مع أوروبا، ممّا أدىّ إلى اعتبار الطريق إلى بيروت محفوفة بالمخاطر. ووجب انتظار نهاية عهد المماليك على يد القوّة الجبّارة الجديدة الامبراطوريّة العثمانيّة عام 1516-1517 لتنهض بيروت من كبوتها مجدّداً.

استطاع صلاح الدّين تعبئة القوى المعنويّة للشّرق المسلم وتجديدها. وجسّد المماليك بنجاح صورة المقاومة، مقاومة الفرنج وصدّ الهجمات المغوليّة، لكن على حساب اختلالات في النّظام السياسي القائم بسبب عسكرة الدّولة والدّسائس المستمرّة بين أفراد الأسر الحاكمة. على أنّ تلك الحال تشهد

على أنّ صورتهم في التاريخ العربي بقيت ملازمة لعصر الانحطاط. أما الحكم العثماني فهو الذي أعاد تجديد قوى الإسلام في جغرافية العالم القديم السياسيّة. ولا يمكن لسقوط إمبراطوريّتهم لاحقاً في نهاية القرن الثامن عشر أن ينسي أنّهم شكّلوا قوّة من الطّراز الأول – ولو كان للعبارة معنى في ذلك الوقت لقلنا أنّهم شكّلوا قوّة عظمى. وباستثناء الفترة الذهبيّة للأمويّين والعبّاسيّين، لم يسبق للإسلام أن بلغ هذا المجد.

في السوق العثمانية الكبرى

لم تكن الامبراطوريّة البيزنطيّة إلاّ ظلّ ماضيها عندما فتح محمّد الثاني القسطنطينيّة عام 1453. ولا ننسى أنّ البيزنطيّين كانوا العدو التاريخي الأوّل الذي حاربته الجيوش الإسلاميّة خارج الجزيرة



العربيّة. ثمّ إنّ المواجهة مع الروم سكنت النّفوس لقرون عديدة – وألهمت الأدب العربي بعضاً من قصائده الملحميّة الخالدة. وتزامن المدّ العثماني مع السيطرة العربيّة على الأندلس حين طرد الإسلام من اسبانيا، لكنّه أعاد انتشاره على الأراضي الأوروبيّة الواقعة في الجنوب الشّرقي باحتلاله البلقان وقسماً كبيراً من حوض الدانوب. ولم يرتدّ العثمانّيون كما نعلم إلاّ عند أبواب فيينا ولمرّتين. أثناء هذا الوقت، قضوا على دولة المماليك ولكن ليس على المماليك انفسهم – وبسطوا سيطرتهم على كلّ المحيط الشرقي والجنوبي للمتوسّط وصولاً إلى الجزائر. كان العثمانيّون يهيمنون على ثلاث قارات ولم تكن بيزنطية قادرة على اعتراض تقدّمهم عند بابها. وانتزعت الامبراطوريّة العثمانيّة، بطبيعة الحال، وظيفة الرّباط التي كان يؤدّيها ساحل المشرق، خاصّةً بعد طرد البنادقة من قبرص عام 1571. وبالرّغم من الخسارة التي تكبّدها أسطول علي باشا في السّنة نفسها أمام الحلف المقدّس في ليبانت، فإنّ الشّرق لم يعد يخاف الخطر البحري الذي كان يمثّله البيزنطيّون ثمّ الصليبيّون وبعدهم الجنويّون والذّي دام طويلاً. وبدل مراكب الحرب، أخذت السّفن التّجاريّة تمهّد ما يسمّى في ذلك الوقت أساكل المشرق ومن بينها أسكلة بيروت.

دام الحكم العثماني في المشرق أربعة قرون كاملة من انتصار السّلطان سليم الأوّل على المماليك في معركة مرج دابق شمال سوريا عام 1517 إلى نهاية الحرب العالميّة الأولى. وبقيت صورة هذا الحكم قائمة لوقت طويل بتأثير من الرحّالة الأوروبيين الذين أشاعوا في ادبياتهم احكاماً مسبقة عن الشرق وعن السلطنة العثمانية ثم من بعدهم من الايديولوجيات القومية. لكنّ سقوط مفهوم الدولة – الأمّة في الشّرق الأدنى – والذي تجلّى تحديداً عبر الحرب اللبنانيّة – وفي قسم من البلقان من جهة ، ونبش ارشيفات أسطنبول في بداية الثمانينات من جهة أخرى أدّيا إلى إعادة تقييم لإرث الامبراطوريّة العثمانيّة. وحلّت مكان الصورة التي كان يمثّلها الحكم العثماني والتي تجلّت عبر الهيمنة العشوائيّة المفروضة بالقوّة، صورة أكثر تعقيداً لامبراطوريّة بسطت سلطانها على أرض شاسعة بلغت مساحتها أكثر من مليوني كيلومتر مربّع عندما كانت في ذروة مجدها، هذا إذا استثنينا الصّحاري – وحافظت على تماسكها حتى نهاية القرن الثامن عشر على الأقلّ... وبالرّغم من التنوّع العرقي والثّقافي الذي تميّز به السكّان الخاضعون لسيطرة السلطنة العثمانيّة من أتراك ويونان وعرب وصرب وأرمن وبلغار وغيرهم، فإنّ التعدّديّة كانت تشكّل توازناً مع قوى انصهاريّة كبيرة. كان الإسلام ولا شكّ إحدى قوى الانصهار هذه لكنّه ليس الوحيد. ذلك أنّ التقليد الإداري العريق الذي اعتمده العثمانيّون في كلّ الأماكن وطيلة فترة حكمهم ساهم إلى حدّ كبير في إطالة عمر الامبراطوريّة التي سجّلت ولا شك بالدرجة الأولى نجاحاً بيروقراطياً. لقد حافظ التّنظيم الإداري على حيويّة لافتة طيلة القرون في المجال الضرائبي والقانوني والديني مساهماً في سدّ النّقص الناتج عن عدم الاستقرار السياسي وما

ينجم عن تغيير يطال رأس السلطة الحاكمة بحيث يتمّ استبدال الوالي كلّ عام في معظم الأحوال. لكنّ هذا الأمر بالمقابل، أحبط مساعي الداعين إلى الاستقلال الذاتي الذي تمتّعت به ولايات عدّة في فترات زمنيّة سابقة – في القرن الثامن عشر – عندما حاولت أشباه سلالات من الحكام أو أشكال من ملكيات محليّة أن تنتزع من السّلطة انواعاً من الحكم الذاتي. وفي كلّ الأحوال، بقيت الضريبة تجبى وتقام صلاة الجمعة على اسم السّلطان، ولم تتمكّن الاضطرابات السياسيّة أن ترسم حدوداً لها داخل الامبراطوريّة. وهذه الحريّة في التنقّل، التي أعاقتها الاضطرابات من دون أن تلغيها، كانت حاجة ملحّة لدى غالبيّة السكّان الموزّعين على القارات الثّلاث، لتنمية سوق داخليّة تعزّز بدورها لحمة المجموعة[20].

واحتلّت بلاد الشّام، ضمن هذه الهيكليّة مركزاً مميّزاً، ويمكن أن يستدلّ على ذلك من خلال نوعيّة حكّام عديدين تعاقبوا على الولايات وتبوّأ بعضهم مراكز عالية في السّلطة بلغت أعلى الهرم ووصلت إلى مرتبة الصّدر الأعظم. وبما أنّ سوريا كانت بعيدة عن جبهات الحرب في أوروبا الدانوبيّة، وأيضاً بمنأى عن الخطر الصّفوي الذي كان يتهدّد العراق باستمرار في ظلّ الحكم العثماني، وبما أنّها واقعة على طريق القوافل التّجاريّة الآتية من آسيا البعيدة، وبما انّها كانت بارعة في إنتاج المنسوجات وصناعة الأخشاب والمعادن وتشرف مباشرةً على مخازن الحبوب، استطاعت أن تكون نقطة الدائرة في السوق العثمانيّة الكبيرة. ونقصد بكلامنا تحديداً وعلى وجه أخصّ سوريا الداخليّة. إذ ظلّ اقتصاد أساكل الشّرق، الذي اجتذب كثيراً انتباه الرحّالة الأوروبيّين، غير ذي وزن بالمقارنة مع نموّ التّجارة الداخليّة. زد على ذلك أنّ التجّار الذين تردّدوا على هذه الأساكل لم يتعاطوا فقط التّجارة مع نظرائهم الأوروبيّين. مهما يكن، لا يمكن مقارنة مدينة ساحليّة، لا طرابلس وهي مركز ولاية منذ بداية الهيمنة العثمانيّة، ولا حتّى صيدا التي أعطت اسمها لمقاطعة أخرى في أواسط القرن السابع عشر والتي تطوّرت أسكلتها إلى حدٍّ بعيد خلال القرن اللاحق، ولا بالطّبع بيروت، بمدن الداخل السوري ولا سيّما حلب ودمشق في مجال التطوّر التّجاري[21]. كانت حلب منذ الأزمنة السحيقة نقطة التقاء القوافل المحمّلة بالبضائع عبر السّهوب والسّهول، المنقولة على ظهور الجمال والبغال وقد تعاظم نفوذها بسبب هذا الدّور الذي لعبته بامتياز. وأعطت حاجات السوق العثمانيّة دورها هذا قيمة أكبر. أما دمشق، التي كانت تتحكّم بطرق تجاريّة اخرى، وتشرف على الزّراعة في الغوطة والبقاع، فكانت إلى اهميّتها الاقتصاديّة، مركزاً سياسياً ورثته من ماضيها كعاصمة الامويّين وقلعة المقاومة الإسلاميّة للفرنج. وتعاظم نفوذها إبّان العهد العثماني، ليس فقط من خلال التّأثير التّلقائي الذي مارسه حكّامها على المقاطعات الأخرى من بلاد الشام – ما عدا حلب – ولكن من خلال تنظيمها مراسم الحجّ إلى مكّة المكرّمة، هذا «المؤتمر الإسلامي» السّنوي حسب تعبير اندريه ريمون André Raymond، الذي

اصبح أحد أهمّ رموز وحدة السّلطة السياسيّة في الامبراطوريّة[22].

لم تكن الامبراطوريّة العثمانيّة قوّة مسلمة فقط بل كانت أيضاً وريثة بيزنطية بالرّغم من النّظرة الاختزاليّة التي يصرّ عليها بعض المؤرّخين بدافع من شعورهم القومي او المسيحي – سواء كانوا يونانيّين، صربا أم لبنانيّين. كان اليونانيّون المسيحيّون جيشاً في الإدارة العثمانيّة. وبالرّغم من تحويل كنيسة آياصوفيا إلى مسجد، فإنّ الكنيسة اليونانيّة نفسها كانت تابعة طوعاً للسّلطة وليست ملحقة بها على الرّغم منها. فاعتبر بطريرك الفنار من الشخصيّات الأساسيّة في اسطنبول. عندما احتلّ مصطفى لالا باشا قبرص باسم السّلطان سليم الثّاني، لم تكن الغاية أسلمة كاملة للجزيرة، بل بالأحرى إصلاحاً للكنيسة اليونانيّة. كما أنّ هناك دلالات مشابهة يمكن استشفافها في الرؤية الجغراسيّة للسلاطين. ذلك أنّ تحالف الزّنبقة والهلال الذي عقده سليمان القانوني مع فرنسوا الأوّل ضدّ شارل الخامس، أعطى ثماره الطيّبة. إضافةً إلى هامش المناورة الواسع الذي يسّره هذا التّحالف للفريقين في مواجهة النّمسا، فقد تعزّز أيضاً بمنح فرنسا امتيازات تجاريّة والاعتراف بها بوصفها حامية للكاثوليك في الامبراطوريّة. كتب ميشليه يقول: «ما خلا البندقيّة وبعض الفرنسيّين فإنّ أحداً في أوروبا لم يفهم شيئاً من المسألة الشرقيّة». لكن إذا أردنا الدقّة في الكلام لرأينا انّ المسألة الشرقيّة لم تكن مطروحة آنذاك لأنّ ميشليه يقصد بحديثه القرن السادس عشر لكن يبقى صحيحاً أنّه عندما طُرحت هذه المسألة في نهاية القرن الثامن عشر، فإن أحد اهمّ مكوناتها ديناميّة كانت الأقليّات المسيحيّة التى عزّز وجودها نظام الحكم الذاتي الذي تمتّعت به الطّوائف ورسّخته الحماية الفرنسيّة حين تعلّق الأمر بالمسيحيّين الخاضعين لسلطة البابا.

كان نظام الملل العثماني يستند إلى التّعاليم القرآنيّة التي فرضت حماية أهل الكتاب أي أهل الذمّة مقابل دفعهم الجزية. إنّ ميزة الحكم العثماني تجلّت باحترام هذه التّعاليم ومنح المجموعات غير المسلمة استقلالاً ذاتياً شبه تام في مسألة الأحوال الشخصيّة مدعوماً بالحماية الأجنبيّة إذا اقتضى الأمر. وبطبيعة الحال لم تؤد هذه المبادرة إلى مساواة في الحقوق بين أهل الذمّة والمسلمين إذ وضعت السّلطة عدّة قيود في أماكن وأزمنة مختلفة اثقلت كاهل الحياة الاجتماعيّة لغير المسلمين، لكنّها لم تصل يوماً إلى مرحلة الاستعباد الذي تضمّنته كلمة «أهل ذمة». كان المسيحيّون واليهود على نطاق واسع من الامبراطوريّة يتمتّعون بحريّة المعتقد وبإمكانيّة تقرير مصيرهم بأنفسهم، وهذا كان جلياً في بيروت وضواحيها. ففي بيروت أفادت الطّائفة الأرثوذكسيّة من الودّ الذي ساد طويلاً بين العثمانيّن والروم وإن كانت كنيسة إنطاكية، ومركزها دمشق، لم تلحق قطّ ببطريركية الفنار في اسطنبول. أما في الجبل المشرف على بيروت فقد أفاد الموارنة خصوصاً من النموذج العثماني لا سيّما أنّ الاستقلاليّة الدينيّة اختلطت بالعوامل السياسيّة في مسألة دفع الجزية.

لم يكن جبل لبنان يُعتبر ولاية حتى عام 1861. كان موزّعاً بين ولايتي دمشق وطرابلس ثمّ لاحقاً

بين ولايتي صيدا وطرابلس، لكنّه كان في واقع الامر معظم الأحيان تابعاً لوالي دمشق وخاضعاً لنظام الإلتزام الضرائبي المشابه لنظام الاقطاعة في الحكومة الفرنسيّة قبل الثّورة.

هذا النّظام الذي بقي مهيمناً على معظم المقاطعات الأخرى* لم يمنح الجبل خصوصيّة إلاّ حين جرى تقسيمه إلى إقطاعيّات على رأس كلّ منها ملتزم ضرائب. إذا كان الجبل تمتّع بخصوصية ما في عهد السلطنة فهي ناتجة بالأحرى عن الاختلاط الطائفي لسكانه وعن الديناميات الاجتماعيّة التي يجسّدها كلّ من الفريقين الرئيسيّين أي الدّروز والموارنة، ومن تفاعلهما[23]. كانت هناك سمة مشتركة تجمعهما وهي أنّهما لم يكن لهما انتشار آخر على سائر أراضي الامبراطوريّة. فما عدا الانتشار الخجول للدّروز في وادي التيم جنوب البقاع وحدود حوران، والانتشار المحدود للموارنة في شمال سوريا، فإنّ أتباع هاتين الطّائفتين تمركزوا بشكل أساسي في جبل لبنان.

إلى هذا تضاف الخصوصيّة الدينية التي جعلت منهما طائفتين وكأنّهما أقليّتان تمثّلان النّموذج الوطني المحتذى، فالدّيانة الدرزيّة التي انبثقت عن المذهب الفاطمي الشيعي تشربت مناهل من الحكمة القديمة في الشّرق واتّخذت الباطنيّة قاعدة سلوكيّة متخليّة عن أساليب التبشير الديني.

أما الكنيسة المارونيّة التي أسّسها القديس يوحنا مارون والتي تنتسب إلى الراهب مار مارون شفيعها**، فقد تخلّت عن مبادئها المونوتيليّة، وآثرت الاتّحاد بروما، وسرعان ما ترسّخ الخلاف بينها وبين المذاهب المسيحيّة الأخرى ومنها طوائف الرّوم والأرمن والسّريان والآشوريّين في العراق، على أنّها ظلّت محافظة على خصوصيّتها ولم تنخرط في موجة الانقياد الأعمى للسّلطة البابويّة التي شجّعها المرسلون الأوروبيّون والتي قسمت جميع الطوائف الشرقيّة إلى قسمين مؤيّد لروما أو معارض لها بدءاً من القرن الثامن عشر. ثمّ ما لبث ان جرّت إلى مواقعها بعض الطّوائف من الروم الكاثوليك والأرمن الكاثوليك والسريان الكاثوليك والكلدان والأقباط الكاثوليك. ومع انّ الطائفة المارونيّة وفدت من شمال سوريا فإنّ عزيمة أبنائها الصلبة تبدو وكأنّها قدّت من شموخ جبل لبنان ومن طبيعته الوعرة على جانبي وادي قاديشا في أسفل الأرز حيث ركنت كنيسة مار مارون. ثمّ بدأت في عهد المماليك وفي ظلّ العثمانيّين انتشارها الأوسع نحو الجنوب الأقلّ وعورة يواكبها أتباعها وهم فلاحون معدمون بأغلبيّتهم ليستوطنوا في الجبل كلّه ويستصلحوا أرضه فتفيض بالغلال والمزروعات. وبالمقابل تآلفت الخصوصيّة المارونيّة مع الخصوصيّة الدرزيّة فمنح هذا الاتّحاد الجبل هويّته وبات يُعرف باسمه الجديد «جبل لبنان».

* مارس العثمانيون أيضاً نظام التيمار وهو تنازل شبه إقطاعي عن أرض مقابل خدمات يجب تأديتها، وتحديداً في الأناضول، ونظام الأمانة الذي كان يعهد بجباية الضّرائب إلى أحد الموظّفين.

** كانت الكنيسة البيزنطيّة تجلّه أصلا.


جامع الأمير منصور عساف (القرن السادس عشر).

وكرسّت هذه الخصوصيّة بإصدار قانون ضرائبي وإن غير حصري، ولم يتردّد العثمانيّون في أن يعهدوا بإدارة الجبل إلى عائلات تنتمي إجمالا لهاتين الأقليّتين.

وأوكل إلى بعض العائلات الوجيهة من المقاطعجية أمر جباية الأموال لصالح خزينة الدّولة العثمانيّة، وبعض هذه العائلات سبق لها وأن تولّت هذه المهمات منذ العهد المملوكي، فانحصرت السّلطة المحليّة بيدها ونشأت بينها وبين العائلات الأخرى في عواصم الأرياف علاقات خصومة أو تحالف. نحّى العثمانيّون جانبا أمراء الغرب التنوخيّين بسبب انحيازهم إلى جانب المماليك وولّوا على هرم السّلطة عائلات سيفا في الشّمال وعساف التركمانيّة في كسروان ومعن في الشّوف. وبعد سلسلة من المشاحنات بين هذه العائلات ومحاولات تصفية حسابات في ما بينها، لم يبق في بداية القرن السابع عشر إلاّ آل معن الدّروز. ورغم محاولات اختبار القوى المتكرّرة بين فخر الدّين المعني الثاني وحكّام دمشق، فإنّ السّلطات العثمانيّة لم تمنع العائلة من بسط نفوذها حتّى عام 1637. وبعد انقراض سلالة المعنيّين، انتقلت الكرة إلى يد أسرة آل شهاب المسلمة السنيّة لتلعب لعبة التّوازن في الجبل عام 1690 وكان من أبرز وجوهها في نهاية القرن الثامن عشر الأمير بشير الشّهابي الثاني.

لكنّ مبدأ الوراثة في الأسر الحاكمة كان وهما. فإطلاق تسمية «نظام الإمارة» من قبل المؤرّخين المحليّين في مطلع القرن العشرين على تلك الحقبة من تاريخ لبنان لا يعني بالضّرورة أن يكون شبيها بالمفهوم الأوروبي لها. كذلك، فإنّ ألقاب «أمير» و«بك» و«شيخ» التي منحها العثمانيّون إلى مقاطعجية الجبل، لم تكن رتبة أرستقراطيّة. فالإمارة، التي دعاها أحيانا الرحّالة الأوروبيّون بـ«دولة الدّروز» رغم أنّ آل شهاب الذين خلفوا آل معن كانوا سنّة وفيها أعرب بشير الثاني عن موقفه الملتبس في إمكانيّة اعتناقه المسيحيّة كانت الإمارة بالنّسبة إلى العثمانيّين آليّة ملائمة لجمع الضّرائب وإدارة شؤون المجموعات الطائفية المتنوّعة في الجبل. صيغة ملائمة لدرجة أنّ الباب العالي لم يتحفّظ في تقبّله انتقال الحكم بالوراثة كأمر واقع يعطى لمن هو في مركز الحاكم ملتزم الاقطاعة، حتّى لو كانت مدّة



جامع الأمير منذر (القرن السابع عشر).

تولّيه الحكم قابلة للتّجديد. كان الهمّ الأساسي لدى السّلطنة العثمانيّة أن تتمّ جباية الضّريبة من جبل لبنان أسوة بسائر مناطق السلطنة وأن يستمر الوضع هادئاً - فلا تفضي مطامع الأمراء الحاكمين في التوسّع، إلى الإخلال بالتّوازن وخلق الاضطرابات التي تهدّد الواقع الأمني في الامبراطوريّة، وإلا اضطر حكّام دمشق أو صيدا للقيام بأعمال عنف منظمة لإعادة الأمور إلى نصابها.

استهدفت أول حملة لإعادة النّظام فخر الدين الثاني بعد ان انكشفت طموحاته في توسيع حدود ولايته حتى منطقة حمص شمال سوريا فوجد نفسه في مواجهة مع والي دمشق وكان تابعاً له إدارياً.

كان الأمير فخر الدين أفاد من انشغال الباب العالي في حربه ضدّ الفرس فعقد علاقات مع غراندوق توسكانا ونفي للمرّة الأولى عام 1613 حيث أمضى خمس سنوات في فلورنسا وجذب هناك اهتمام بعض السياسيين الاوروبيين لكن الأمر لم يتّسم بالجديّة اللازمة.

بعد أن أعفي عنه نشأت نزاعات جديدة بينه وبين الحكّام العثمانيّين أدت إلى اعتقاله ونفيه إلى اسطنبول حيث توفّي عام 1633. ومع انّ المغامرات التي خاضها فخر الدّين سبقت تبلور الوعي الوطني إلاّ أنّها حوّلته لاحقاً إلى مؤسّس للقوميّة اللّبنانيّة لا بل، وفقاً لبعض الآراء، إلى منشيء أوّل نواة للدّولة اللّبنانيّة فيما لم يكن في أفضل الحالات إلاّ مجرّد رجل سياسي حاذق مهتمّ بتوسيع حدود مزرعته كما الحال مع العديد من الطّامحين على حساب وحدة الأمبراطوريّة. هذه الأمثلة لصورة الوطن مردّها ايضاً ولا شكّ إلى أنّ الجبل شهد مرحلة من الاستقرار نتيجة التّعايش بين الطّوائف لا سيّما مع الامتداد المكثّف للموارنة باتّجاه الجنوب في تلك الفترة وإلى أنّ فخر الدّين استعان بخدماتهم وخاصّة العسكريّة منها. لذلك فإنّ اتّساع العلاقات مع أوروبا بواسطة التجّار الايطاليّين وهم كثر في أساكل الشّرق بدأ ينعكس ايجاباً على مستوى المعيشة لسكان الجبل.



كاتدرائية القديس جاورجيوس للروم الارثوذكس المكرسة عام **1767**.

وانعكس تمجيد تاريخ لبنان في ظلّ حكم فخر الدّين على تاريخ بيروت أيضاً حتّى أنّ بعض الكتب لا تتردّد عن اعتبار بيروت عاصمة الدّولة التي أنشأها فخر الدّين، إلاّ أنّه رغم الانجازات التي حقّقها الامير في بيروت، بقي وضع المدينة ملتبساً. في بداية الهيمنة العثمانيّة، كانت المدينة ملحقة بإمارة دمشق التي كانت أحد السناجق العشرة. هذا لم يمنع العثمانيّين وقبلهم المماليك من موافقتهم على أن توضع تحت الإشراف المباشر لعائلة من الوجهاء المقيمين بجوارها كعائلة عسّاف الكسروانيّة التي ترافق ظهورها على مسرح الحياة السياسيّة مع بناء المسجد الذي يحمل اسم الأمير منصور عسّاف المشيّد في القرن السادس عشر بالقرب من البازيليكة القديمة لمار يوحنا التي تحوّلت لاحقاً إلى المسجد العمري. بعد أن حكم آل سيفا لفترة قصيرة في أواخر القرن ، استلم فخر الدّين الحكم عام 1598. فهل جعل بيروت مركز إقامته؟ ما نعرفه على أيّة حال هو انّه كان يقيم غالباً في دير القمر في قلب الشّوف وأحياناً في صيدا ولكن من الأكيد أنّه شرع في الاهتمام بشؤون بيروت.

أعاد تشجير غابة الصّنوبر وبنى الحدائق العامّة وشيّد قصراً كبيراً ليسكنه شتاءً واستقدم لبنائه مهندسين ايطاليّين هما تشيولي وفاني[25]. كما بنى برجاً هو برج الكشّاف الذي بقي قائماً حتى منتصف القرن التاسع عشر. وقد حملت الساحة المفتوحة شرقي السّور اسمه والتي صارت في ما بعد قلب

العاصمة. لكنّ الأثر الهندسي الأهمّ الذي ميّز فترة حكم فخر الدّين لم يقم هو بتشييده، ونعني به المسجد الصّغير للأمير منذر، وهو تحفة هندسيّة بناها عام 1620 أحد أحفاد أمراء الغرب التنوخيّين على الجهة الغربيّة للسور.

بعد وفاة الأمير فخر الدين تولّى أفراد آخرون من عائلته جباية الضّرائب في الجبل وامتدّ تأثيرهم حتى ضواحي بيروت كما احتفظوا بمركز لهم في بيروت وإن كان يحقّ لوالي صيدا الساكن على بعد ثلاث ساعات ممارسة سلطته مباشرةً وفقاً لتشريع الولايات الصادر عام 1660. بعدئذٍ أصبح للمدينة حاكمها لكن هذا لم يحل دون التباس العلاقات التي تربطها بالجبل كما يؤكّد على هذا بعض الأبنية التي شيّدها الأمير منصور شهاب. على ايّة حال، بقيت بيروت مدينة متواضعة لا يتجاوز عدد سكّانها بضعة آلاف فيما كان عدد سكّان دمشق يبلغ مئة ألف نسمة. تجدر الإشارة إلى أنّ الطّائفة الأرثوذكسيّة بنت فيها كاتدرائيّة رائعة عام 1767.

كان المسلمون السنّة والمسيحيون الأرثوذكس يشكّلون أكثريّة أهل المدينة بالإضافة إلى بعض العائلات الدرزيّة وأقليّة مارونيّة صغيرة. يذكر الدويهي مثلاً أسماء ثلاثة أساقفة موارنة بين القرنين السادس والثامن عشر لكنّنا نعرف أنّ هؤلاء الأحبار لم يقيموا في بيروت بل ظلّوا بالقرب من رئيس كنيستهم في الدّيمان[26]. ولا نعرف الكثير عن نشاطات أهل بيروت إذ لم يُعرف عن المدينة في التاريخ العثماني أنّها اشتهرت بأعمال حرفيّة خاصّة إلاّ نسج الحرير الأبيض. أما بالنّسبة إلى دورها التّجاري فكان محدوداً هو أيضاً. كانت المدينة مركز تصدير للحرير يصل الشّوف بدمشق[27]. صحيح أنّها كانت محطّ رحال التّجار البنادقة لكنّ مرفأها لم يعد يصلح سوى لأعمال تجاريّة محدودة لا سيّما وأنّ جزءاً من الميناء ردمه فخر الدّين لسوء الحظّ بهدف منع الأسطول العثماني عن الرّسو فيه[28]. ولاحظ الفارس دارفيو d'Arvieux لدى مروره في بيروت عام 1660 أنّ الرّمل الذي قذف به المدّ البحري غمر جوانب المرسى[29]. والصّحيح هو أنّ مرفأ صيدا عاصمة الولاية منذ عام 1660[30] هو الذي استأثر بمجمل التّجارة بين بلاد الشام والغرب طيلة القرن الثامن عشر[31].

على مشارف المسألة الشرقيّة

وجدت ولاية صيدا ومعها ولاية بيروت نفسيهما في صلب اهتمام السياسة العالميّة في نهاية القرن الثامن عشر، حين بدأت تطرح جدياً المسألة الشرقيّة بتأثير من الاندفاعة الروسيّة باتّجاه البحار الدافئة والناتجة عن حرب القرم ومعاهدة كجك قينارجة عام 1774 التي كرّست الانسحاب العثماني[32]. وفيما لم يعد البحر الأسود بحيرة عثمانيّة، عاد شرق المتوسّط ليكون جبهة مواجهة. استعان الأسطول الرّوسي بالقراصنة اليونانيين وهاجم بعنف الشاطئ الشّرقي وتحديداً في بيروت. بدت المسألة

الشرقيّة منذ بداياتها مسرحاً لجميع التّناقضات. فبالإضافة الى الحرب التي خاضها العثمانيون في القرم، أثارت مطامح المملوك المصري علي بك الكبير* في فلسطين وسوريا ثغرة في جدار السّلام الذي وطّده العثمانيّون في الشّرق. زد على ذلك الحركات الاستقلاليّة الهزيلة التي تجلّت في الجليل على يد ظاهر العمر الزيداني حليف علي بك الكبير. ولم يتوان الشّريكان عن الالتحاق بالسّياسة الروسيّة، ممّا لفت إليهما انتباه الباب العالي فبادر إلى التصدّي لهما والبشناقي أحمد باشا الجزّار الذي ولي لاحقاً على صيدا ومارس نفوذاً لم يُمارس عليها من قبل، وسطّر اسمه في أبرز صفحات التاريخ في أوروبا والعالم حين دحر بونابرت أمام أسوار عكا. كان الجزّار رجلاً سياسياً استثنائياً، أدرك ببصيرته الثاقبة العوامل المتحكّمة بالبنية الشّرق الأوسطيّة نتيجة هذا الانقلاب المفاجئ في موازين القوى . وكان سيّد المناورات السياسيّة، خدم في سرايا علي بك فارتدّ عليه ولاذ إلى ظاهر العمر ثمّ خانه بدوره ليحظى برضى الباب العالي وينجح في توطيد سلطان الدّولة العثمانيّة وتوسيع رقعة نفوذه لتشمل ولاية دمشق إضافةً إلى ولاية صيدا التي كان يستأثر بها**.

ولم تكن الأمور سهلة بالنّسبة إلى الجزّار عندما قدم إلى بيروت التي كانت ساحة لتطوّرات متلاحقة في ذلك العقد من الزّمن، ويحكمها فعلاً امراء آل شهاب المعتبرون حلفاء الباب العالي. في حزيران/ يونيو 1772، تقدّمت مراكب الأسطول الروسي باتّجاه الشّاطئ، وسبق لروسيا أن تدخّلت وهاجمت صيدا بناءً على طلب علي بك وظاهر العمر وحاولت الإنزال في بيروت لكنّ المحاولة باءت بالفشل. ثمّ تعرّضت المدينة لخمسة أيام من القصف العنيف استطاع بعدها الجنود الروس أن ينزلوا في المدينة ويُمعنوا في نهبها ثمّ ردّوا على أعقابهم لاحقاً. وتلبية لنداء الأمير يوسف الشهابي أرسل الجزّار – ولم يكن والياً بعد – على رأس فرقة من الجنود المغاربة[33]، فانكبّ على تعزيز المواقع وبناء التّحصينات. شعر الأمير يوسف بأنّ الجزار يخدعه وبأنه لن ينسحب بسهولة من بيروت فسارع عندئذ ليسأل حاكم دمشق ان يتدخل لاسيما أنه كان يطمح بأن يمتدّ نفوذه ليشمل بيروت ليس فقط لموقعها الجغرافي في حال أراد الجيش العثماني أن يضيّق الخناق على الظّاهر، بل لأنّ مرفأ بيروت هو المرفأ الوحيد الذي يشرف عليه العثمانيّون على طول الساحل الواقع بين مصر وطرابلس ولأنّ المراسلات السريّة تتمّ عبره مع السّلطة المركزيّة في اسطنبول[34]. اختار يوسف الشّهابي إذاً أن يغيّر معسكره ويلتجئ إلى

* احتفظ المماليك بعد تفكك دولتهم عام 1517 بلقب بك وتولوا السلطة في الولايات المصرية الملحقة بالامبراطورية العثمانية كما حدوا تدريجا من سلطة الباشوات الذين عينهم الباب العالي وعادوا في القرن الثامن عشر ليصيروا الاسياد الفعليين للبلاد وان في اطار السيادة العثمانية .

** ان اضطلاع الوالي بدور الحاكم على ولايتين لا يعد حالة فريدة لكنها المرة الاولى التي يتم فيها «التوسع» باتجاه صيدا – دمشق.

ظاهر العمر وحلفائه المتاولة ، شيعة جبل عامل على الحدود مع الجليل. وبناءً على طلب ظاهر العمر ويوسف، أتت السّفن الروسيّة وقصفت بمدافعها بيروت مجدّداً في آب/ أغسطس 1773 دون أن يثير هذا ردود فعل من جانب العثمانيّين. عندئذٍ، حصلت تظاهرات في دمشق تطالب الحاكم وآمر الجيوش بالتحرّك والتدخّل للدّفاع عن بيروت.

وبعد عدّة اسابيع من الحصار، انقضّ الروس وحلفاؤهم في هجوم برّي وبحرّي مركّز على بيروت، واستطاع الأسطول الروسي من البحر أن يشلّ قوّة الجزّار، وتولّت قوّات يوسف الشّهابي برّاً أن ترغم الجزار على الاستسلام فالتجأ إلى ظاهر العمر، ومن ثمّ عاد ليخدم لدى الباب العالي. دخل الرّوس إلى المدينة في تشرين الأوّل/ أكتوبر ولم يخرجوا منها إلاّ في شباط/ فبراير 1774. وحلّ العلم المسكوبي لبضعة أشهر مكان الرّاية العثمانيّة كما علّقت صورة للامبراطورة كاترين على الباب الرئيسي للمدينة، وكان يجدر بالمارّة العابرين الانحناء أمام الصورة وبالفرسان الترجّل عن أحصنتهم احتراماً، وفقاً لما رواه القنصل الفرنسي في طرابلس[36]. وخلال فترة احتلالهم بيروت، ركّز الروس سلاح مدفعيتهم أمام السور الشّرقي للمدينة وبينها مدفع ضخم. تُرى هذا هو السّبب في أنّ الساحة عرفت لاحقاً بساحة المدفع أو ساحة المدافع؟ الواقع أنّ هذه التسمية ليست متداولة بالعربيّة وتُعرف الساحة باسم ساحة البرج.

ولكن، لا معاهدة السّلام التي عُقدت في كجك قينارجة ولا وفاة ظاهر العمر عام 1775، استطاعتا أن تضعا حداً للاضطرابات. بقي الأسطول الروسي مرابطاً في ضواحي بيروت ولم يكن بقاؤه خاضعاً إلاّ لاعتبارات استراتيجيّة، أما تدخّله في المرّتين السابقتين، فقد تقاضى عنها أجراً دفعه ظاهر العمر والأمير يوسف كما وعداه[37]. وكان الأسطول لا يزال مستعداً لتلبية الخدمات وقد سنحت الفرصة عام 1779. في غضون ذلك، أصبح الجزّار حاكم صيدا، أو عرّج على بيروت ليرغم الأمير يوسف على تسديد الضّريبة التي تخلّف عن دفعها. عندئذٍ، سلّم الأمير يوسف بيروت إلى البشناقي بعد أن نال وعداً منه بتعزيز سلطته في الشّوف[38]. لكنّ الصّراع على إثبات الوجود بين الأمير يوسف والجزّار لم تقف عند هذا الحدّ. أراد الأمير يوسف استعادة بيروت وكان الرّوس حلفاءه. وفي عام 1777 شهدت بيروت هجومين من الرّوس وضربت جيوش الأمير يوسف الشّهابي حصاراً حولها. أعاقت هذه الحالة من عدم الاستقرار النّشاط التّجاري إلى حدّ كبير، وتسبّبت في انتقال التّجار الأوروبيّين من بيروت إلى طرابلس[39]. لكنّ الجزّار، الذي أحكم سيطرته على ولاية دمشق إلى جانب ولاية صيدا، نجح في إعادة الأمور إلى نصابها وبسط سلطته على فلسطين وجبل لبنان. صحيح أنّه انتزع بيروت من الشّهابيّين لكنّه عاد ليولّي عام 1788 أميراً جديداً من العائلة وهو بشير الشّهابي الثاني. واستطاع الأمير بشير الثاني، بفضل مؤازرة الجزّار، أن يوطّد الاستقرار في إمارته لفترة طويلة اعتُبرت العصر

الذّهبي لإمارة الدروز أو إمارة جبل لبنان.

استطاع بشير الثاني أن يسبح في أمواج السياسة الإقليميّة المضطربة بعد فشل حملة بونابرت على مصر وانهزامه امام الجزّار عند أسوار عكّا، ثمّ خلال فترة استعادة العثمانيّين سيطرتهم والتدخّل البريطاني. نجح الأمير بشير الثاني في تجنيب لبنان الآثار السلبيّة للأعاصير التي عصفت بالشّرق. وبعد وفاة الجزّار (1804)، شهدت ولاية صيدا اضطرابات، لكن الأمير بشير استطاع أن يجد حليفاً جديداً ذا شأن هو محمّد علي الكبير، حاكم مصر وهو داعية إصلاح رفيع الشّان ورجل نافذ في المنطقة لم يتوان في الكشف عن نواياه في بسط سلطانه على سوريا. زد على ذلك أنّ الأمير أفاد من هذه المناورات الجغراسية الكبيرة ليوطّد سلطته في الجبل نفسه ويحدّ من نفوذ العائلات الوجيهة الأخرى لا سيّما الدرزيّة منها. لكن عهد الأمير بشير الشّهابي، إلى جانب محاولة فرض سلطانه بالقوّة، امتاز بجانب سلمي تمثّل في اهتمامه بشؤون الهندسة المعماريّة. فبعد أن نقل الأمير بشير مقرّ الحكم في الجبل إلى بيت الدّين، بنى فيها قصراً بديعاً زانه بدارات أربع أخرى خصّها بزوجته وأولاده. وقد جمع هذا القصر بين الإرث الهندسي الدمشقي ولعبة الظّلال الايطاليّة ولا يزال يعتبر حتّى يومنا هذا، إحدى تحف التّراث اللّبناني[40]. شهد عهد بشير الشّهابي أيضاً تحوّلات اجتماعيّة واقتصاديّة كبيرة. عزّز الفلاّحون الموارنة سلطتهم أكثر فأكثر جنوبي جبل لبنان، الأمر الذي أدّى لاحقاً إلى نزاعات طائفيّة وتميّز اقتصاد الجبل بتعميم تربية دود القزّ وصناعة الحرير التي أوشكت آنذاك أن تبلغ عصرها الذّهبي، لكنّ اختلال التّكافؤ بين البائع والشّاري فرض منطقه تدريجياً فعمد صانعو الحرير في ليون إلى تربية دود القزّ في بلادهم فتضاءلت فرص نجاح هذه التّجارة.

أما بيروت، فلم تستطع أن تلعب دوراً بارزاً على مسرح الأحداث. لم يكن عدد سكانها يتجاوز الأربعة آلاف نسمة عقب الاضطرابات التي حصلت. لا شيء فيها كان يوحي بالدّور الذي ستلعبه لاحقاً على صعيد النموّ الاقتصادي. لكن، بعد عشرين سنة من الاضطرابات السياسيّة، كان لا بدّ لهذه المدينة من أن تتنفّس الصّعداء. عاد إليها التجّار الأوروبيّون الذين كانوا هربوا منها إلى طرابلس، بعد استعادة السّلطة العثمانيّة سيطرتها على مدن السّاحل. واستطاعت بيروت أن تجدّد معاملاتها التّجاريّة، دائماً عبر صيدا، بينها وبين مرسيليا وجنوى وليفورنو والبندقيّة.

لكنّ ازدهار صيدا بات جزءاً من الماضي ولن يتسنّى لأسكلتها الكبيرة إبّان القرن السّابع عشر أن تنهض من كبوتها بعد أن حطّ الجزّار من مرتبتها. لم يكن الجزّار يعلم أنّه بنقله مقرّ الولاية إلى عكّا وتعزيز تحصيناتها سيغيّر مجرى تاريخ أوروبا مما دفع نابوليون على الاستسلام والتخلّي عن طموحاته في الشّرق. لم يكن يعرف آنذاك أنّه أعدّ لبيروت المكانة التي سترتقي إليها، لا سيّما عندما اتّخذ القرار برفع الرّكام عن السّاحة وإرجاع جزء من جدار سور المرفأ إلى الخلف بعد ان رأى، وهو السيّد في

حصار المدن، أنّ السّور قريب جداً من الشّاطئ.

كانت الستارة معدّة لترفع عن تاريخ مختلف. والغريب في الأمر أنّ هذا البشناقي الذي لا تزال صورته المرعبة ماثلة في أذهان الناس والذي أطلق عليه لقب الجزّار* المخيف، هو من كان وراء الكواليس ليحرّك الأحداث. ربّما كان يجدر بالبيروتيّين وبكلّ هؤلاء الذين أفادوا من الانطلاقة التي مهّدت لها ثلاثينات القرن الماضي أن يتساءلوا عمّا إذا كان الملاك الحارس الذي تشفع في تحقيق هذه الانطلاقة هو الشّيطان المرعب نفسه أي الجزّار. قد يبدو هذا التّساؤل مفيداً قبل المباشرة بالكلام عن الازدهار الذي نعمت به المدينة والدّور الذي لعبه ابراهيم باشا. أبعد الجزّار صيدا عن ميدان السّباق وجنّب بيروت المظالم التي لحقت بأبناء الجبل وساهم في توسّع المدينة العتيدة عن طريق إرجاع جزء من جدار السّور. وهكذا فإنّ قاهر بونابرت حقّق لبيروت ما لم يحقّقه الأشخاص الذين حسنت سيرتهم وصدقت نواياهم تجاه المدينة، وهو بذلك يمهّد لإجابة اوليّة على السّؤال الكبير المطروح حول النّهضة التي شهدتها بيروت لاحقاً.

* خلافاً للاعتقاد السائد، أكتسب الجزار لقبه في مصر عندما كان في خدمة علي بك.

II

أسكلة مختلفة



الفصل الثالث

التحوّل الكبير

لنا أن نتحقّق من التحوّل الكبير الذي شهدته بيروت بإجراء مقارنة رقميّة خلال فترة من تاريخ المدينة لا تتجاوز بضعة عقود. ارتفع عدد سكّانها في بداية القرن التاسع عشر من أربعة آلاف إلى ستّة آلاف نسمة ليفوق المئة ألف نسمة في أواخره. اتّسعت رقعة المدينة المأهولة بالسكّان خمس عشرة مرّة خلال أقلّ من ربع قرن - بين 1841 و1876 - وتسارعت وتيرة هذا الاتّساع في الفترة اللاحقة. تعزّزت تجارتها البحريّة، خلال خمسين عاماً بنسبة 1 إلى 12، وهذا قبل أن يبنى مرفأها الجديد. أما المرفأ الجديد فاستأثر في مطلع القرن العشرين بما يقارب ثلث تجارة سوريا. فتحت طريق دمشق، وباتت الرّحلة بين المدينتين تستغرق ثلاث عشرة ساعة بدلاً من ثلاثة أيام في ما مضى.لكأنّ ازدهار المدينة تخطّى التوقّعات على كافّة الصّعد وباتت الأرقام والنّسب عاجزة عن مواكبته: شوارع مستقيمة، ساحات عامّة، فنادق لا حدّ لها، مدارس لا تحصى، كليتان، مستشفيات، صحف، جمعيات علميّة وأحزاب سياسيّة... أي باختصار كلّ مظاهر الحداثة التي بلغته أعرق مدن حوض البحر المتوسّط. وذلك خلال فترة زمنيّة قياسيّة، ممّا مهّد لها السّبيل للتحوّل العظيم الذي شهدته في القرن التاسع عشر على حساب المدن المجاورة والذي يستمرّ من دون انقطاع ليجعل منها مدينة فريدة بامتياز.

وليس على سبيل المبالغة، الكلام عن ولادة ثانية للمدينة نظراً للتحوّل المشرّع على جميع الاتّجاهات والذي طال كافّة الميادين الديموغرافي منها والمدني والإنساني والثّقافي. لا مجال للمقارنة بين التطوّر الذي أحرزته بيروت خلال تاريخها الألفي والتطوّر الذي بلغته آنذاك؛ لم يسبق للمدينة أن بلغت الشّهرة التي تجعل منها مدينة معترفاً بها في أرجاء الكوكب كما حصل لها في تلك الفترة الوجيزة من الزّمن. أضحت «الدرّة الفريدة في تاج السّلطان»، كما وصفها القيصر غليوم الثاني عندما نزل فيها وكانت في قمّة تبدلها المذهل.

ومذهلاً كان تبدلها وأكثر، لأنّ تباشيره التي لم تلح في الافق كانت أشبه بمفاجأة. حين قام فولني

Volney، رحّالة القرن التاسع عشر، بجولة إلى بيروت، لم يتنبّأ لها بمستقبل كبير. كانت شبكات المياه التي تغذيها بدائيّة، وبدت له التّلال المحيطة بالمدينة ذات المساحة الصّغيرة المربّعة التي لا تتجاوز مساحتها عشرين هكتاراً، وكأنّها عقبة تحوّل دون انتشارها وبلوغها المكانة التي تطمح إليها[1]. وإلى الحاجز الذي يشكّله جبل لبنان ويعيق الوصول إلى بيروت برّاً، هناك حاجز الجبال في السلسلة الشرقيّة وهو أشبه بسدّ منيع يعزل المدينة عن سوريا الداخليّة وبالأخصّ عن دمشق، عاصمتها العريقة.

وكان لا بدّ من تضافر التوسّع الأوروبي الذي حفّزته بدايات الثّورة الصناعيّة وغذّته باستمرار الخصومات الناشئة بين القوى العظمى الجديدة، والتنافس الاقتصادي إثر تطوّر الرأسماليّة، لمخالفة رأي الرحّالة الفرنسي وتحدّي نواميس الطّبيعة. وبيروت كانت ثمرة هذا التوسّع الذي أخلّ بتوازنات هذه الكتلة الجغراسيّة الهائلة التي تدعى الامبراطوريّة العثمانيّة، ممهّداً لنهضة ساحل شرقي المتوسّط. لا جدال في انّ الفائدة التي جنتها بيروت من هذا التطوّر، على المدى المباشر، كانت أقلّ بكثير من الاسكندريّة، لكنّها فاقت كلّ المرافئ الأخرى للساحل السوري.

التوسّع الأوروبي والمسألة الشرقيّة

من الناحية الجغرافيّة، كان المتوسّط قريباً جداً من القارة الأوروبيّة، وبالتالي كان المكان المهيّأ لتنعكس فيه، وبسرعة فائقة، تحوّلات الاقتصاد العالمي. منذ الرّبع الأخير من القرن الثامن عشر، أخذت طبيعة المبادلات التجاريّة تشهد تغيّراً جذرياً لجهة النّوع والشّكل. وفيما كانت حركة السّوق الداخليّة الكبيرة للسلطنة تتسّم بالاستقرار والتّوازن في معظم مدن المتوسّط، كان التبادل غير المتكافئ فاتحة لتغير حثيث للعلاقات بين دول غرب المتوسّط وشرقه. وهذا بدءاً بالنّشاط الملفت للتجّار وأصحاب السّفن الأوروبيّين الذين كانوا يشرفون على المبادلات في الرّحلات البحريّة الطّويلة، على حساب التّجارة البريّة او التبادل المحدود بين مرفأ وآخر.

أغرقت المنسوجات الفرنسيّة أسواق المشرق، معلنة انطلاقة الثّورة الصناعيّة العالميّة. وأخذت المنتوجات الأوروبيّة بشكل عام - أو التي يشرف عليها الأوروبيّون في المزارع التي يملكونها في أميركا وآسيا - تحلّ تدريجياً مكان المنتوجات التيى تغلّها الأراضي العثمانيّة، ليس فقط في أوروبا بل في أسواق السّلطنة نفسها. صحيح أنّ حركة الواردات الناجمة عن هذه الوفرة في الإنتاج كانت لا تزال محدودة. لكن، منذ نهاية القرن الثامن عشر، بدأ التنافس في اسطنبول نفسها وفي القاهرة أيضاً بين القهوة اليمنيّة - قهوة الموكا الشّهيرة - وقهوة المارتينيك، بعد أن اختفت الموكا عملياً من أوروبا. لا جدال في أنّ السكر المصري واجه منافسة شديدة من السكر المستخرج من جزر الانتيل المكرّر في مرسيليا. لكن الانفتاح التّجاري، خفّض من قيمة بعض المواد التي أضحى إنتاجها أقلّ كلفة في العالم



أسكلة بيروت كما رسمها بارتليت في بداية القرن التاسع عشر.

الجديد، فيما رفع من قيمة مواد أخرى كقطن مصر وفلسطين، وحرائر لبنان وسوريا. وهكذا، أخذت بلدان المشرق بالتّزامن مع بلدان المغرب العربي تصدّر إلى الدّول الأوروبيّة المواد الأوليّة وتستورد منها البضائع المصنّعة[2].

وترسّخت القواعد الجديدة للنّفوذ الأوروبي بشكل حاسم بعد انتهاء مسلسل الثورة الفرنسيّة والحروب النابوليونيّة. ومع التطوّرات التكنولوجيّة التّي أحدثتها الثّورة الصناعيّة في بداية القرن التاسع عشر وحفّزتها أحياناً متطلّبات الحرب، ومع التقنيات الجديدة التي توفّر لها الجوّ الملائم بعد حلول مرحلة السّلم المستعاد، ازداد الشّرخ بين أوروبا الغربيّة وباقي دول العالم. ثمّ إنّ التوازن الأوروبي الذي نتج عن مؤتمر فيينا أعتق النّفوس من هاجس العنف وأدخل اليها الطمأنينة. وبعد أن أزيحت العقبات الناجمة عن الحرب والحصار البحريّين، استعاد أصحاب السّفن والتجّار الأوروبيّون حريّتهم الكاملة في التحرّك؛ ولم يعد أي شيء يعيق هذه الحريّة إلاّ القراصنة البربريّون في المتوسّط الغربي، ولكن إلى حين. وبالمقابل أصبحت الطّريق مفتوحة في شرقي المتوسّط أمام البضائع الأوروبيّة ولم يعد يعكّر صفو الرّحلات البحريّة إلاّ طول المسافة. لكن هذا الحاجز سيختفي بدوره مع ظهور السّفن البخاريّة (البوابير من عبارة Vapeurs الفرنسية) في ثلاثينات القرن التاسع عشر واستخدام خطوط الملاحة المنتظمة المنطلقة من شتّى مرافئ أوروبا[3]، مما يعني ان أساكل الشّرق بات عليها ان تودّع الحقبة التاريخيّة المنصرمة وتتهيّأ لاستقبال مرحلة جديدة.

ومع انخفاض كلفة المواصلات في المدن الصناعيّة الأوروبيّة إلى النّصف، لأنّ إنشاء السّكك الحديديّة اختصر الطّريق بين أمكنة الإنتاج والمرافئ، ازدادت قدرة الصناعة الأوروبية على التّصدير بشكل ملحوظ. مثالنا على ذلك، بريطانيا العظمى وصادراتها إلى مدن شرقي المتوسّط، التي بلغت ثمانية أضعاف عمّا كانت عليه في الفترة الممتدّة بين 1815 و1850. كان البدوي في صحراء سوريا آنذاك، كما كتب ألبرت حوراني، يلبس قميصاً قطنيّة من لانكشير[4] ويشرب القهوة المستوردة المنتشرة بكثرة على حساب قهوة الموكا التي أصبحت نادرة جداً منذ عشرينات القرن التاسع عشر. وكما يذكر القنصل هنري غيز: «اعتاد الناس في بيروت على احتساء القهوة البرازيليّة[5]».

وبالتوازي مع توسّعها التّجاري، أنشأت أوروبا الغربيّة شبكة من العلاقات الدبلوماسيّة الأكثر تشعّباً. صحيح أنّ القناصل الأجانب أو ممثّليهم أقاموا في المدن العثمانيّة الرّئيسة منذ زمن طويل، لكنّهم بدأوا يمارسون نشاطات سياسيّة ملحوظة ويتدخّلون باستمرار في الشّؤون الطارئة وكأنّ النفوذ السياسي والعسكري لبلدانهم يبرّر لهم القيام بهذا الدّور المتعاظم. وإذا استثنيت روسيا، يمكن القول إنّ هذا النّفوذ لم يكن مستخدماً ضدّ السلطة العثمانيّة في عقر دارها، لكنّه، بعد حملة بونابرت على مصر، تجلّى بوضوح في أكثر من مرّة لا سيّما في المقاطعات العربيّة التابعة للسّلطنة. نذكر على سبيل المثال: غزو الجزائر منذ عام 1830، استيلاء الانكليز على مرفأ عدن عام 1839، نظام الوصاية الفرنسي على تونس عام 1881 والبريطاني على مصر عام 1882.

وفي غضون ذلك، كانت الخاصرة الشرقيّة للمتوسّط مسرحاً لتدخّلات عسكريّة أوروبيّة أكثر تطوّراً وبالتالي أكثر تعبيراً عن تعقيدات المسألة الشرقيّة، بدءاً بالأزمة التركيّة-المصريّة، كما سمي الصّراع الذي نشأ بين الباب العالي وحاكم مصر محمّد علي ودام من عام 1831 إلى عام 1840. بعد أن أرسل محمّد علي ابنه ابراهيم باشا لاحتلال سوريا، سارعت الدّول المتحالفة، بريطانيا العظمى والنّمسا وروسيا لتدعم السّلطة العثمانيّة وتضع حداً في العام 1840 لهذه المطامح والحركات التغييريّة. بعد أن احتلّ ابراهيم باشا سوريا، هدّد اسطنبول لمرّتين معوّلاً على دعم ضمنيّ إلى حدّ ما من فرنسا. وتعرّضت بيروت في تلك الفترة إلى قصف مدفعي من القوى البحريّة للدّول المتحالفة، فيما أطاح عملاء لبريطانيا بدعائم السّلطة المصريّة في جبل لبنان. وخوفاً من حصول القطيعة مع مجموعة دول التحالف الأوروبي، اختارت فرنسا أن تمتثل للأمر، واختارت الوقوف إلى جانب الدّول الأوروبيّة المتحالفة مع الباب العالي، فما كان من محمّد علي إلاّ أن أمر بسحب جيوشه إلى قواعدها في مصر، لكنّه، لقاء ذلك، ضمن له ولسلالته حكم مصر وفاز بلقب الخديوي.

عشرون سنة مرّت وجاء دور فرنسا لتتدخّل هذه المرّة عسكرياً في لبنان متذرّعة بحماية المسيحيّين إثر الحرب الأهليّة الدّامية التي شهدها جبل لبنان في صيف 1860. ولم يكن أمام الباب العالي إلا

الاذعان لا سيّما انه كان غارقاً في شجونه المتشعبة ومديناً لباريس - ولندن - بالانتصار الذي سجّله على الروس في حرب القرم الثانية منذ سنوات. زد إلى ذلك أنّ نظام الحكم الذاتي الذي تمتّع به الجبل بضمانة عالميّة متعدّدة غيّب السّلطة العثمانيّة عنه على صعيد الممارسة اليوميّة.

لا شكَّ أن سياسة القضم الكولونيالي التي اتبعتها فرنسا في المغرب العربي وحزام انظمة الوصاية الذي اطبقته بريطانيا حول الجزيرة العربيّة - من عدن إلى الكويت مروراً بشطّ القراصنة الذي صار في ما بعد يعرف بالشطّ المتصالح، على طول الخليج الفارسي- وأن الزّحف الروسي باتّجاه البحار الدافئة والاضطرابات في البلقان تشكل جوانب هامة للمسألة الشرقية. لكن المسألة الشرقية تجلت في شرقي المتوسط، أكثر من أي مكان آخر، بكل تعقيداتها وأظهرت هنا بالذات وعلى النّحو الأفضل، الخلل الوظيفي للسلطة العثمانيّة ولعبة التنافسات الأوروبيّة المضمرة أو المعلنة في الشّرق. فبعد ان ساهمت حملة بونابرت على مصر في توريط أوروبا أكثر فأكثر في الشؤون العثمانيّة، جاءت تجربة محمّد علي، مع ما تميّزت به من نفوذ متنامٍ وسلطة متنورة، لتنعش الآمال لدى الفرنسيّين وتدغدغ أحلامهم في اقامة «مملكة عربية»[6]، لكنها تحيي في الوقت نفسه المخاوف الناجمة عن تفكيك مبكر للسلطنة العثمانية يهدد التوازن الاوروبي بشكل دائم. أما الأمر الأساسي الذي أظهرته تجربة محمّد علي فهو أنّ المسألة الشّرقيّة هي بالدّرجة الأولى مسألة أوروبا في الشّرق.

شبّه الحكم العثماني بـ«الرّجل المريض»ويجب ألا نتسبب في وفاته قبل الأوان. هكذا وصفه القيصر نيقولا الأوّل في عبارة شاعت من بعده[7]. كان «الرّجل المريض» يرى مساعيه الإصلاحيّة مجهضة بسبب المواقف المتناقضة للدول العظمى فهي تدأب على تشييع التعصرن في المجالين التشريعي والاقتصادي وتريد في الوقت نفسه التمسّك بنظام الامتيازات الذي حصلت عليه من قبل على سبيل صفتها الدبلوماسيّة المكتسبة، وصارت، مع تغيّر موازين القوى في المشرق العربي، تجسيداً للسّلطة الفعليّة، لا بل أنّ المساواة بين الرّعايا التي وردت أصلاً في «خط شريف» كولخانة، وهو المرسوم الذي أعلن انطلاقة الاصلاحات المعروفة بـ«التنظيمات»، أُلغيت مفاعيله من خلال إعادة الامتيازات المتعلّقة بحماية الرّعايا غير المسلمين التي فرضتها القوى العظمى، عقب حرب القرم، في المرحلة الثانية من الإصلاحات المعروفة بـ«خطّ همايون».

ومع عودة ما يسمّى بنظام الملل، وجد بعض الرّعايا أنفسهم أكثر مساواة من الآخرين. وهنا تكمن ذروة المفارقة بالنّسبة إلى دولة حملت عالياً راية الإسلام المجيدة، لا سيّما أنّ عدم المساواة الحاصلة كانت لمصلحة الرّعايا غير المسلمين فثارت ثائرة المسلمين إثر هذا الانقلاب الغريب في المواقف وحصلت ردّة الفعل الفوريّة لا سيّما في سوريا حيث كان التنوّع الطائفي كافياً لإذكاء مشاعر الحقد والكراهية[8]. ومجاراةً للحرب الأهليّة التي نشبت في جبل لبنان بين الدّروز والموارنة، أُبيد

بضعة آلاف من المسيحيين في دمشق، وكان هذا حدثاً فريداً في تاريخ المدينة الطّويل، وتجسيداً معمّداً بالدّم لهذه اللّحظة من التناحر الطائفي الذي أغرق بيروت، وهي المدينة- الملجأ، بأمواج اللاجئين من المسيحيّين الهاربين فاستوطنوا فيها وزاد بهم عدد سكّانها[٦].

لكنّ السّلطة العثمانيّة كانت محكومة بالعصرنة وهي لم تقف إطلاقاً في وجه الحركات الإصلاحيّة، وحتى لو حاول السلطان عبد الحميد أن ينتزع عنها كلّ صبغة ليبراليّة في الرّبع الأخير من القرن التاسع عشر. ولن تسعى السلطنة لان تلتزم بمواقف متحفظة حيال الدّول العظمى، إلاّ بالمراهنة أحياناً على هذه الدّولة بدلاً من تلك، إلى أن تخلّت، مع انتفاضة عبد الحميد ضد التدخل الأوروبي، عن الإرشادات الفرنسيّة والبريطانيّة، لتحذو حذو النموذج البروسي منذ العام 1870. عدا ذلك ومنذ إطلاق حملة التنظيمات، وعلى مدى القرن التاسع عشر، أبدى الباب العالي رغبة في التّعاون تلامس التواطؤ مع التدخّل الأوروبي في شؤونه. لم يعد هذا التدخل استعراضياً كما كان على الصّعيدين السّياسي والعسكري أيام النّزاعات الكبيرة كالأزمة التركيّة-المصريّة وحرب القرم أو أزمة البلقان في سبعينات القرن التاسع عشر. أضحت سياسة التدخّل الأوروبي جوهر ما يسمّى المسألة الشرقيّة، بحيث باتت اوروبا تتدخّل بشكل سافر في الكبير والصّغير من الأمور في شتّى ميادين الاقتصاد والقانون، في بيروت كما في اسطنبول، حتى تحوّلت الامبراطوريّة العثمانيّة الجبّارة سابقاً إلى دولة تشبه المستعمرة.

وخلافاً للصين، بقيت الدّولة العثمانيّة تتمتّع مع ذلك بسلطة سياسيّة مركزيّة قوية وبنخبة بيروقراطيّة جديدة لا تهن عزيمتها و تحلم بانقلاب المواقف لصالحها. وقد عاشت بيروت هذا الشّعور نفسه حتّى النّهاية. ففي ربيع 1915، وفي خضمّ الحرب العالميّة الأولى وفيما كانت اسطنبول تستعدّ للانضمام، إلى جانب الامبراطوريات المركزية، إلى «المجزرة الكبرى»، كان الوالي بكر سامي بك وخلفه عزمي بك منشغلين بشقّ شوارع كبيرة في بيروت تنفيذاً لخطّة مدنية اجّلت طويلاً بسبب تعقيدات محلية.

نهضة الساحل

خلقت المسألة الشرقيّة واقعاً جغرافياً جديداً انعكس على تطوّر بيروت ومستقبلها من خلال أمرين. الأمر الأوّل حصل تحت تأثير التوسّع الأوروبي، ويتعلّق بتحوّل حركة التبادل التّجاري لسوريا الداخليّة باتّجاه المناطق الساحليّة بدلاً من حلب التي كانت همزة وصل للتّجارة الداخليّة التقليديّة. ومع تغيّر طرق المواصلات وإعادة تنظيم تراتبيّة المدن في المشرق، كانت بيروت، من بين الأساكل جميعاً، المعدّة لجني أكبر فائدة من نهضة الساحل هذه، ولتصبح لاحقاً رأس جسر لما سيدعى بالمحور الكولونيالي باتّجاه دمشق. أما الأمر الثاني فيتعلّق، وإن على مستوى أقلّ، بالتحوّلات التي

شهدها جبل لبنان المتاخم لها، تحوّلات لن تتوقّف عن خلق توازنات جديدة في مدينة هي نفسها في تحوّل دائم.

لكن، وفي الحالتين، لم يكن التغيّر الجغراسي إلاّ شرطاً ضرورياً. ولم تكن بيروت في وضع يجعلها تمتاز عن جاراتها من المدن الساحليّة في مجال التطوّر فتنفرد عنها في تحقيق انطلاقتها المرجوّة. لا بل خلافاً لذلك لا شيء كان يوحي بأنّ المدينة تستعدّ للعب دور رئيسي، إذ إنّ مجدها القديم لا يشفع بها وهو أدنى مرتبة من مجد صيدا. وباستثناء الحقبة الرومانيّة، لم تكن بيروت قطّ مدينة رئيسة، سيّما وأنها تعرّضت للدّمار منذ ثلاثة عشر قرناً ما جعلها متخلفة عن جارتيها صيدا وطرابلس وعن دمشق أولى المدن الشّرق أوسطيّة تطوّرا وازدهاراً. صحيح أنّ خليج السان جورج بموقعه القائم على المنحدر الشّرقي-الغربي النادر في منطقة شرقي المتوسّط[10] وبمياهه العميقة قادر على استقبال السّفن، لكن، لم يكن مشجّعاً البتّة منظر المدينة الداخلة في البحر بانحداراتها وجروفها وكثبانها الرمليّة ونهرها الذي ينحدر إليها من ناحية الشّرق؛ ثمّ أنّ المنفّذ التقليدي للدّاخل السوري لم يكن عبر بيروت، والسدّ المنيع لجبل لبنان يشكّل عائقاً أساسياً لنقل البضائع في وقت كانت فيه الحسابات المتعلّقة بالمنفعة الاقتصاديّة وسهولة الحركة وشحن البضائع تعتبر شرطاً أولياً من شروط ازدهار المدينة. بيد أنّ حاجز الجبل لم يكن طبيعياً فقط، وبيروت ليست مؤهّلة جغرافياً للإشراف على داخل البلاد، بل خلافاً لذلك، سقطت المدينة في قبضة الامراء الشهابيّين وبات مرفأها تحت نفوذهم، وهذا الانقطاع في واقعها السّياسي والاجتماعي كان من شأنه إبقاء المرفأ معزولاً مقابل تلّة تشرف عليه من مكان مرتفع. وهكذا اصطدم البحّاثة الذين انكبّوا على دراسة الأسباب التي أدّت إلى انطلاقة بيروت في القرن التاسع عشر، بالسّؤال المتعلّق باختيار بيروت دون غيرها لتصير أشهر أسكلة من أساكل الشّرق.

وعلى هذا السّؤال، يقدّم التاريخ إجابة لا ترضي إطلاقاً أصحاب المذهب الحتمي الأكثر تجذّراً ولا أصحاب الاعتقاد الإرادوي المؤمن بأنّ عزم بعض أهل المدينة وتصميمهم هو الذي ساهم في بنائها ورفعتها، ولا احد من هؤلاء يستطيع أن يدّعي معرفة الأسباب الحقيقيّة الكافية وراء تطوّر بيروت. أمّا لماذا بيروت؟ ربّما، بكلّ بساطة، لأنّ الأوان قد فات بالنّسبة إلى طرابلس وصيدا ولأنّ الأمر لم يحن بعد بالنّسبة إلى حيفا.

بإمكان طرابلس أن تفتخر بتقليد مدني عريق يرقى إلى العهد المملوكي، لكنّها تأثرت بالأفول التّجاري لحلب وبابتعادها الكلي عن اقتصاد الحرير. وكانت صيدا تتمتّع نظريّاً بمزايا كثيرة جديرة بالاعتبار. صيدا قريبة من دير القمر وبيت الدّين وهما مركزان اقتصاديّان وإداريّان في الجبل. هذا من جهة، ومن جهة أخرى تقع المدينة على خطّ العرض نفسه الموازي لدمشق، ثمّ إنّ موقعها متّجه جنوباً أكثر من بيروت، أي في المكان الذي تصير فيه قمم لبنان أقلّ وعورة وتسمح بعبور حاجز التّضاريس

بسهولة أكبر، لا بل الالتفاف من حوله عبر سهل مرجعيون. على أيّة حال، استأثرت أسكلة صيدا في القرن الفائت بالتّجارة مع اوروبا. كما حظيت ولاية صيدا برعاية الجزّار. لكنّ مجد صيدا أيام الجزّار لم يكن يعني إلاّ بداية النّهاية، لأنّ الباشا اختار أن ينقل مقرّه إلى حصون عكا. ولم تستطع صيدا النّهوض من الكبوة التي ألّمت بها وإن احتفظت بوضعها كولاية حتى عام 1864. انقطعت التّجارة البحريّة خلال الحروب النابوليونيّة ولم تستطع صيدا الإفادة من فترة السّلم التي وسمت حكم سليمان باشا الذي جعل عكّا مقراً لولايته. وعندما عادت للملاحة البحريّة حريّة التنقّل في المتوسّط مع عودة السّلام إلى أوروبا، وجدت ولاية صيدا نفسها من جديد في مواجهة الاضطرابات التي أثارها الحكم الاعتباطي للوالي عبدالله باشا.

تخلّت التّجارة العالميّة عن صيدا متّجهة صوب الشّمال. أما جنوباً فبقي الساحل الفلسطيني منكوباً منذ أصدرت الدّولة المملوكيّة قراراً في القرن الرابع عشر بتهديم تحصينات المدن الساحليّة درءاً منها لأي خطر محتمل تمثّله عودة الصليبيّين. ولم تسفر حملة نابوليون عن أي بادرة لإصلاح الأمور في هذه المدن. وحدها عكّا استطاعت، بالقسم المتبقي من دفاعاتها، أن تفلت من الدّمار المملوكي وتشكّل استثناء، لا سيّما بعد أن أنقذها الجزّار من عثرتها. لكنّها، مثل صيدا، تأثّرت بحرب أوروبا وبالاضطرابات السائدة في المقاطعات المجاورة، ولم تستطع أن تستعيد تلقائياً الإندفاعة التي منحها إياها الجزّار قاهر بونابرت، إلى ان احتلّ ابراهيم باشا مدن الساحل الفلسطيني فانتعشت من جديد. لكنّ التّجارة الفلسطينيّة لم تنطلق جديّاً إلاّ بعد حرب القرم[11]، في الوقت الذي كانت فيه بيروت تتهيأ بدورها لانطلاقة مماثلة. ولم تكن المرافئ الفلسطينيّة الثّلاثة يافا وحيفا وعكا قادرة على منافسة بيروت مع أنّها ساهمت بنشاط في الحدّ من العجز التّجاري الذي ترتّب على سوريا لمصلحة دول أوروبا[12]. أولاً، بالنّسبة إلى يافا، فهي خارج دائرة المدن الكبرى لسوريا الداخليّة. أما مدينة عكّا فيكاد دورها ينحصر بتصدير محاصيل سهول حوران من الجنوب. تبقى حيفا التي يتمتّع مرفأها المتّجه إلى محور شرقي غربي بإمكانيّات تجاريّة جيّدة، وقد شهد نموّاً مطّرداً لدرجة أدّى معها إلى تبرير الشّروع بمدّ خطّ سكّة حديديّة تتّصل بدمشق. لكن بيروت أفشلت المشروع في اللّحظة المناسبة. كانت أوساط رجال الأعمال في بيروت تراقب عن كثب المشاريع المنوي إنشاؤها في الجليل، فتصّدت للكارثة قبل وقوعها وتدبّرت أمرها مستبقة حيفا في تنفيذ مشروع سكّة حديديّة بغية قطع الطّريق على تطوير مرفأ حيفا التي بات عليها أن تنتظر انتهاء الحرب العالميّة وإحلال الانتداب البريطاني على فلسطين لكي يصعد نجم مرفئها. لكن هذا الصّعود لم يدم طويلاً إذ تمكّنت بيروت من اختطاف وهجه بعد نكبة فلسطين وإنشاء دولة اسرائيل عام 1948، وإغلاق الحدود.

وفي خضمّ هذه المنافسة المسعورة، امتازت بيروت في أواسط القرن التاسع عشر بحسنة تفوّقت

بها على سواها من المدن: إذ سجّلت قفزة نوعيّة تمثّلت بإعادة تأهيل مرفئها التّجاري الذي استقبل طلائع السّفن البخاريّة التي رست على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسّط مع حلول العام 1836[13]. وما هي إلاّ سنوات حتّى تضاعفت أرتال السّفن البخاريّة المتّجهة إلى بيروت وكأنّ الطّريق ممهّد منذ زمن بعيد...

الفرصة التاريخية

لا شكّ في أنّ بيروت تدين لابراهيم باشا بهذه الاندفاعة التي جاءت في حينها وكأنّ قدراً عجيباً أدار عقارب الزّمن. مذ تولّى ابن محمّد علي الحكم على بلاد الشّام، شرع في الإصلاح الإداري للمدن ومن بينها بيروت. لكنّ سانحة القدر كانت بإطلاق ورشة لتوسيع المرفأ وإعادة بناء الرّصيف. وهكذا، لم تعد بيروت الأسكلة السيّئة الحظّ كما وصفها الرحّالة الأجانب بل غدت درّة الشّرق بمرفئها الذي بات جاهزاً لاستقبال السّفن البخاريّة. وعلاوة على ذلك، أنشئ محجر صحي تحوّل لاحقاً إلى محجر أساسي للمرافئ السوريّة.

لا شك أن النموّ المذهل لمدينة انطلقت من الصّفر يدفع بالمؤرّخ ليتساءل عن سببه، فكيف بالأحرى عن الأسباب – إذا كان هناك من سبب فعلاً – التي حدت بإبراهيم باشا ليقع خياره على بيروت بالذات. أيا يكن الأمر فإنّنا لا نملك معلومات وافية وتبقى الافتراضات كثيرة. لا جدال في أنّ فاتح سوريا كان مصلحاً ملهماً ثاقب الرؤية على غرار والده وقادراً على استباق التحوّل الثاني للتّجارة العالميّة نتيجة اختراع السفن البخاريّة. لكن هل كان ابراهيم باشا يطمح إلى جعل بيروت في موقع مماثل لمدينة الاسكندريّة؟ لو سلّمنا بأنّ الأمر كذلك، فهذا يعني أنّ مشروعه السوري كان مرسوماً سلفاً، ولا برهان على ذلك، أقلّه في بداية الاحتلال المصري عندما كان جميع الأطراف المتصارعين، بدءاً بمحمّد علي وابنه، يجهلون خطورة الرهانات المتحكمة بالأحداث في الشرق وهي كثيرة: هل هو جني ثمار الخدمات التي أدّيت للباب العالي والتي كلّفت المصريين أثماناً باهظة منها خسارة الأسطول المصري في الموره إبّان حرب الاستقلال اليونانيّة؟ هل هو استقلال مصر وتوسيع حدودها لتشمل سوريا – لا بل طرابلس الغرب وتونس – وتضمّها تحت لواء العروبة التي كان الألباني ابراهيم باشا يدّعي أنّه يناضل من أجلها مفاخراً بأنّ دماء العروبة قد جرت في عروقه مذ لوّحته شمس مصر؟ هل هو قيام مملكة عربية حليفة لمملكة لويس فيليب في فرنسا تخلف الامبراطوريّة العثمانيّة التي تنتظر الضّربة القاضية الأخيرة وقد أوشك ابراهيم باشا أن يسدّدها لها مرّتين؟ أو أنّ الأمر، كما شاءته مسيرة الأحداث مجرّد الحصول على ضمانة لمحمّد علي بانتقال الحكم في مصر المستقلّة له ولسلالته من بعده؟ إنّ تضارب الرّهانات[14] يفضي بنا إلى استبعاد موقف متبصّر مسبق للفاتح يرمي إلى التأثير في مجرى

الأحداث، أو بالأحرى يحدو بنا الى إضفاء طابع النسبيّة عليه. وفيما يتعلّق ببيروت، ربّما كان الأمر سياسة ظرفيّة يتّخذها الحكّام عادة وحفّزتها مع ذلك الرؤيا الواسعة للفاتح المصري. بيد أنّ مؤرّخي المدينة يميلون أحياناً لأن يجدوا في الأعمال التي حقّقها الحكم المصري دلالة على إيثار بيروت على غيرها من المدن لا سيّما مدن سوريا التي كانت كلّها معنيّة بإعادة التّنظيم هذه. بعد ان احتلّت المدينة، لا يجوز أن نغالي في تضخيم الإصلاحات التي أنجزت في بيروت، لانّها طالت أيضاً كل الأمكنة التي خفقت فيها الرّاية المصريّة، بل ينبغي بالأحرى الكلام عن تجهيز المدينة للمهمات التي استوجبها التوسّع الأوروبي وقبل الوصول إلى هذه المرحلة المتقدّمة التي تتجلّى فيها الإرادة الإصلاحيّة، لا نرى ما يبرر اختيار بيروت لتحظى بهذا الدّور إلاّ مشيئة الظروف والأحداث.

لم تكن المدينة الصّغيرة لعام 1832 تتحلّى في نظر التجّار الاوروبيّين أو في نظر ابراهيم باشا بمزايا استراتيجيّة واضحة. لكنّها كانت في وسط الساحل السوري، على منتصف الطّريق بين جبل طورس وسيناء، مما جعلها في موقع جغرافي مميّز أهّلها فيما بعد لتصبح محجراً صحياً مركزياً، اضف الى ذلك أن الاهمال الذي كانت طرابلس غارقة فيه شكّل أحد العوامل الأهم الحاسمة في الخيار. ثمّة احتمال آخر يجعل الخيار ممكناً هو الوضع الذي كانت عليه المدينة عند وقوعها تحت الهيمنة المصريّة: مذ حكمها الجزّار من خمسة وأربعين عاماً، لم تعد المدينة تحت التأثير المباشر لنفوذ حكم الجبل. لو كانت على هذا الخضوع، لما أدرجت في إطار إعادة التنظيم المدني التي باشر بها ابراهيم باشا، حتى لو كان صحيحاً أنّه خصّ الأمير بشير الشّهابي الثاني، حليفه الوفي، بدعم ثابت دفعه ليقترح عليه تولّي الحكم في سوريا. بعد رحيل المصريّين، أصبح انفصال بيروت عن الجبل أمراً ملحاً. ولا جدال في أنّه لو كانت بيروت مدمجة في جغراسية الجبل، لكان العثمانيّون السّاعون إلى إصلاح حقيقي تردّدوا في التصديق على الخيار الذي قام به ابراهيم باشا. ليس للسؤال معنى إلا من وجهة نظر لاحقة للأحداث. لقد بات واضحاً بالنّسبة إلى أهلها آنذاك، أنّ المدينة سجّلت انطلاقة منذ بضع سنوات ولا يبدو أنّ شيئاً سيقف في وجه تلك الانطلاقة، ولا حتى المدافع التي أطلقها أسطول التحالف الانكليزي-الروسي-النّمساوي عندما حاول طرد ابراهيم باشا. بل خلافاً لذلك، عندما دمّر الكومودور شارل نابير Charles Napier، المسؤول في قوّات البحريّة البريطانيّة، بمدافعه جزءاً من السّور، أدّى بذلك خدمة جلّى لبيروت لأنّ تدمير أسوار المدينة كان حافزاً لتوسيعها والانطلاق إلى خارج جدرانها[15].

بعد طي صفحة الفصل التّأسيسي لنهضة بيروت الذي سطره الاحتلال المصري وتكريس إنجازاته من خلال الإصلاح العثماني، حان للحتميّة التاريخيّة ان تلعب دورها في مستقبل المدينة وبدا تطوّر بيروت آنذاك وكأنّه يخضع لمعطيات جذرية. كان قدر المدينة أن تنمو وفقاً للإطار الذي رسمه لها التّوسع الأوروبي. لكن تورّطها الجغراسي وضعها، دفعة واحدة، في حالة ارتباك زاد من تفاقمها

ترسّخ نظام آخر للحكم من حولها في جبل لبنان حيث اتخذت التغيّرات الاجتماعيّة والطائفيّة، التي نشأت منذ فترة طويلة[16]، طابعاً متسارعاً مفاجئاً بظهور ابراهيم باشا في بلاد الشام إبّان خريف 1831، وازدادت تسارعاً بخروجه منها عام 1840.

حوادث الجبل

جاءت الإصلاحات المصريّة مطابقة تماماً للإصلاحات التي قام بها محمّد علي في وادي النّيل. واستقبلها أهل جبل لبنان بالتّرحاب في البداية. لكن إعادة تنظيم الضّرائب وإلزام الأهلين بالخدمة العسكريّة ما لبثا أن ألّبا الرأي العام على المصريّين، لا سيّما حين قرّر ابراهيم باشا تجريد السكّان في الجبل من الأسلحة. كانت الفرصة سانحة إذاً أمام المأجورين البريطانيّين لإذكاء نار الاستياء الشّعبي بهدف زيادة الضّغوط على المصريّين إلى أن أرغموا على الخروج، ومع خروجهم لم تعد الأمور إلى سابق عهدها. كان حاكم الجبل العجوز الأمير بشير الثاني قد ربط مصيره بمصير ابراهيم باشا متخلياً عن سياسة الحذر التي اتّبعها منذ وقت طويل وسمحت له في أواخر القرن الثامن عشر أن يتدبّر لنفسه مخرجاً ملائماً مع بونابرت الذي كان يطرق أبواب عكا فيوصدها الجزّار في وجهه. وقد سعى الامير فعلاً لتكرار هذه اللّعبة المزدوجة مع ابراهيم باشا ، لكنّه أذعن لدى تلقّيه تكليفاً رسمياً ملحاً من محمّد علي فانضمّ إلى حلفه[17].

انصاع الأمير إذاً ولم يقف عند حدّ تسهيل مهمّة جيوش محمّد علي لتنتشر على طول السّاحل، انطلاقاً من مدينة عكّا[18]، بل كان إلى جانبه أيضاً حين استولى على دمشق. وكان أوّل من خطر على بال الفاتح المصري ليولّيه سوريا. مرّت ثماني سنوات وكانت كافية لإزاحة الأمير بشير عن مسرح الأحداث. نفي إلى مالطة لكنّه أنهى حياته في اسطنبول حيث يقال إنّه شنق. لكن، فيما يتعدّى شخص الأمير القابع في قصره البديع في بيت الدّين، بلحيته الكثّة المشعّثة، والذي صار، عن خطأ أو عن صواب، احد الرّموز الوطنيّة في الوجدان القومي اللّبناني في القرن العشرين*، يبدو انّ النّظام السياسي للجبل هو الذي اختلّ برمّته بعد انقضاء عهده والسّبب يعود إلى الأسلوب الذي أديرت به الأزمة التركيّة-المصريّة والتي نجم عنها ما يشبه شر البلية المتكرّر. وبالطّبع انعكست نتائج هذا الانقلاب الذي شهده الجبل على بيروت واستمر أثرها خلال العقود اللاّحقة إلى أن توّجت عام 1920 بإنشاء بيروت عاصمة لبنان الكبير الذي كان نواته هذا الجبل بعد أن غيّرت الأحداث الممتدّة من عام 1840 إلى عام 1860 في تركيبته.

* في عام 1947، أي بعد مرور أربع سنوات على استقلال الجمهوريّة اللّبنانيّة، نقلت رفات الأمير إلى أرض الوطن وأقيم بالمناسبة احتفال وطني.

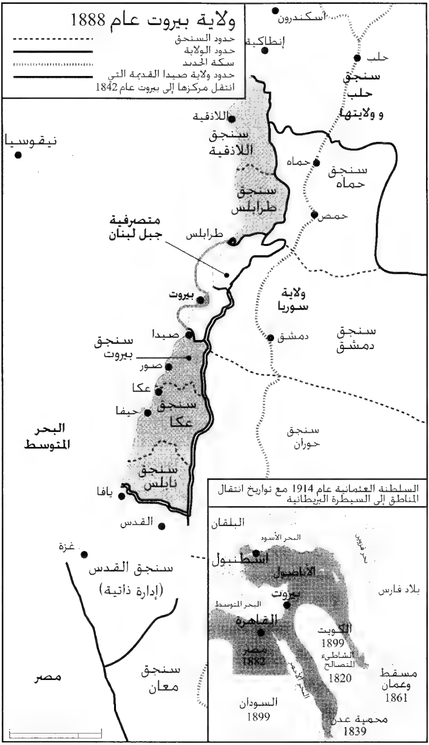
عندئذٍ استدعي بشير الشّهابي الثالث ليخلف قريبه الأمير بشير الشّهابي الثاني. لكنّه لم يستطع البقاء في منصبه، فعزل بعد اشهر قليلة. لقد أخلّ الاحتلال المصري نهائياً بتوازن الجبل ولم يعد بإمكان نظام الإمارة لجم التوتّر الطائفي المتنامي. لم يكن ترسيخ اقدام الطائفة المارونيّة فقط وانتشارها البطيء باتّجاه جنوبي الجبل[19] هو الذي أثار لدى الدّروز شعوراً بأفول نجمهم المحتّم، فأطلقت من هذه الجهة او تلك، مواقف التحدّي التي تجاوزت كلّ حدّ. لكن، منذ صدور خطّ شريف، تمّ التخلّي عن النظام الضّريبي المتّبع. وبعد أن أتخذت السلطنة العثمانية مواقف متساهلة من الولايات التي أظهرت ميلاً للحكم الذاتي في القرن الثامن عشر، عادت وأخضعت ولاياتها لإدارتها المباشرة لا سيما الجبل حيث استدعت الاضطرابات الطائفية ذلك. إلى ان سوّيت المشكلة أخيراً بعد ثلاث سنوات بمجيء شكيب أفندي فقسّم الجبل إلى قائمقاميّتين، احداهما يحكمها الموارنة في القسم الشّمالي والأخرى يحكمها الدّروز في القسم الجنوبي. ومنعاً لحصول أي احتكاك في المستقبل، جرى تبنّي مبدأ التوزيع الطائفي لأوّل مرّة في الأجهزة الإداريّة للمقاطعتين. ولكن نظام القائمقاميّتين نفخ في رماد المشاحنات الطائفيّة بدل ان يخمدها لا سيّما في المقاطعة الجنوبيّة التي تحكمها إدارة درزيّة بالرّغم من انتماء عدد كبير من سكّانها إلى الطّائفة المارونيّة. اعقبت ذلك خمس عشرة سنة من الاضطرابات التي أطلقت عليها تسمية «الحركات» وهي مزيج من العاميّات الفلاحيّة والصّدامات الطائفيّة التي بلغت ذروتها في حمام الدّم الذي أغرق الجبل عام 1860 عندما تحوّل التمرّد، الذي كان أثاره فلاّحون قبل ثلاثة عشر عاماً بزعامة طانيوس شاهين في كسروان المارونيّة، إلى حرب أهليّة في المناطق المختلطة امتدّت إلى مسافة أبعد جنوباً لتصل بعدها إلى دمشق. وتوّج النّزاع، الذي لم تطل مدّته مع ذلك، بعدّة مجازر ذهب ضحيّتها الفلاّحون المسيحيّون بالدّرجة الأولى، ولم يحرّك الجنود العثمانيّون ساكناً، ممّا ولّد انطباعاً بأنّهم متواطئون مع مفتعلي الفتنة. وشهد الجبل إثر ذلك هجرة كثيفة للمسيحيّين باتّجاه بيروت، وما لبث أن لحق بهم اللاّجئون الهاربون من دمشق، ما أحدث في المدينة زيادة سكّانيّة مفاجئة.

في تلك المرحلة، لم تعد اضطرابات المشرق تجري بمعزل عن العالم. لم يكن هناك تلغراف في سوريا آنذاك- لم يصل إلى بيروت إلا عام 1863 - لكنّ الخبر بات يُنقل بسرعة أكبر بفضل السّفن البخاريّة. تابع الرّأي العام الأوروبي بدقّة، كما فعل أثناء حرب القرم منذ سنوات، مجريات الأحداث التي تحصل في الطّرف الآخر من المتوسّط. لا بل إنّ كارل ماركس اهتمّ شخصيا بتجربة طانيوس شاهين، وأثارت مجازر الجبل مشاعر الفرنسيين، بحيث أنّ نابوليون الثالث اتّخذها ذريعة ليخاطب الأطراف المتنازعة بلغّة عسكريّة قائلاً إنّ فرنسا ابنة الكنيسة البكر ما زالت على عهدها بحماية المسيحيّين في الشّرق ومواظبة على الاضطلاع بالدّور الذي لعبته منذ الامتيازات الأولى. وشكّل إرسال حملة الجنود



انزال الحملة العسكرية الفرنسية في بيروت عام **1860**.

الفرنسيّين منفذاً ملائماً لإرضاء الرّأي العام الكاثوليكي الذي كان مستاءً مما يحدث في ايطاليا، كما دفعت بنابليون الثالث ليمهّد للخطّة، التي تبناها بعد غيزو Guizot، بالعمل على إنشاء مملكة عربيّة في الشّرق يولّى عليها الأمير عبد القادر[20]، وهو الزّعيم الجزائري الذي تجلّت مآثره بحماية المسيحيّين في دمشق حيث كان منفياً. لكنّ الجزائري لم يطمئن كثيراً للدّور الذي أعدّه له نابوليون الثالث[21]. على أيّة حال، لم يسع الامبراطور بشكل جدي إلى تحقيق حلمه الكبير في الشّرق. في غضون ذلك، أرست الحملة الفرنسيّة بأمرة الجنرال بوفور دوبول Beaufort d'Hautpoul دعائم سياسة أخرى تعارض تماماً، كما سيتبيّن لاحقاً، المخطّطات العروبيّة للامبراطور نابوليون الثالث. وبعد عشرين عاماً، مهدت هذه السابقة العسكرية الانتقال لمقولة أخرى بدل «المملكة العربية» هي تعزيز الأقليّات في الشّرق وذلك برعاية إرنست رينان Ernest Renan المعنوية مما عزز الطّموحات الكولونياليّة للجمهوريّة الثالثة المناهضة للإكليروس، وهنا المفارقة[22].


ولاية بيروت عام 1888
حدود السنجق
حدود الولاية
سكة الحديد
حدود ولاية صيدا القديمة التي انتقل مركزها إلى بيروت عام 1842
إسكندرون
إنطاكية
حلب
سنجق حلب و ولايتها
اللاذقية
سنجق اللاذقية
نيقوسيا
حماه
سنجق حماه
سنجق طرابلس
حمص
متصرفية جبل لبنان
طرابلس
بيروت
ولاية سوريا
صيدا
دمشق
سنجق دمشق
سنجق بيروت
صور
عكا
سنجق عكا
حيفا
البحر المتوسط
سنجق حوران
سنجق نابلس
يافا
القدس
غزة
سنجق القدس (إدارة ذاتية)
مصر
سنجق معان
السلطنة العثمانية عام 1914 مع تواريخ انتقال المناطق إلى السيطرة البريطانية
البلقان
البحر الأسود
استنبول
الأناضول
بيروت
البحر المتوسط
القاهرة
مصر 1882
بلاد فارس
الكويت 1899
الشاطىء المتصالح 1820
مسقط وعمان 1861
السودان 1899
محمية عدن 1839

لم يحن الأوان بعد لإنشاء نظام الوصاية الفرنسيّة أياً كان المحتوى الذي سيتضمّنه. وصل الجنود الفرنسيّون بعد انتهاء المواجهات في الجبل، ورابطوا بالقرب من بيروت حيث اهتمّوا بإغاثة اللاّجئين، دون أن يضطلعوا بمهمات عسكريّة حقيقيّة، عدا القيام بمسح جغرافي شامل للمنطقة. صحيح أنّ الهدف من البادرة الفرنسيّة عاد بالنّفع على السّلطات الفرنسيّة فيما يخص الرأي العام الداخلي، لكنّها لم تنته دون تعقيدات جغراسيّة. إضافةً إلى أنّها جسّدت للمرّة الأولى، على هذا المستوى، الدّور الذي تدّعيه فرنسا لنفسها وهو حماية المسيحيّين في الشّرق، وإضافةً إلى أنّها عزّزت لدى موارنة الجبل على ما يبدو الطموحات الوطنيّة الأوليّة لإنشاء كيان مستقلّ لهم، فإنّ حملة الجنرال بوفور، دفعت تلقائياً بالدّول العظمى الأخرى لتتدخّل. وكما صار معهوداً، أعطت التّركيبة الخاصّة بالمسألة الشرقيّة هامشا للباب العالي كي يبادر إلى معالجة الخسائر النّاجمة والحدّ من تداعياتها وللحال، هرع وزير الخارجيّة العثماني فؤاد باشا إلى بيروت ليستوعب تأثيرات الحملة الفرنسيّة التي لا يستطيع الحؤول دون حدوثها. وهناك، بذل كلّ جهوده لإنجاح مهمّته، فعقد على الفور محكمة ميدانيّة أصدرت أحكاماً فوريّة بإعدام كلّ الزّعماء الدّروز المسؤولين عن المجازر وايضاً الضبّاط العثمانيّين المتواطئين معهم. في غضون ذلك، وصلت تعزيزات من اسطنبول فأحلّت السّلم في الجبل وقطعت الطّريق على التدخّل الفرنسي.

كان لزاماً على الباب العالي، رغم كلّ ما حدث، أن يحزم أمره ويوقف المواجهات الدّامية ولو اضطرّ إلى تقديم بعض التنازلات على حساب سلطته، علّه يتمكّن على الأقلّ من أن يتملّص من الشّروط التي تنفرد فرنسا بإملائها عليه، ذلك انّ وجودها الميداني يتيح لها ان تشارك في وضع الحلول لمشكلة الجبل وفقاً لما يعزّز مصالحها ويقوّي نفوذها.

ونتيجة لكلّ هذه التطوّرات، اجتمع ممثّلو الدّول العظمى في بيروت عام 1861 برئاسة فؤاد باشا، وأدّت المفاوضات إلى توقيع بروتوكول دولي بين الامبراطوريّة العثمانيّة وخمس دول أوروبيّة وهي فرنسا، وبريطانيا العظمى، وروسيا، والنّمسا، وبروسيا. وبموجب هذا النّظام الأساسي لجبل لبنان، الذي أقرّ وعدّل عام 1864، استعيض عن نظام القائمقاميّتين بنظام إداري جديد يضمّ الجبل كلّه في إطار سنجق يتمتّع باستقلال ذاتي، عرف باسم متصرفيّة جبل لبنان. ووفقاً «للبروتوكول» يولّى على جبل لبنان حاكم عثماني مسيحي يعيّنه السّلطان، على أن يكون من غير اهل الجبل. وفي الوقت نفسه كرّس مجلس إدارة منتخب على قاعدة مذهبية ريادة الطائفة المارونية.

بما انّ الجبل بات يتمتّع منذ ذلك الحين باستقلال ذاتي تضمنه الدول العظمى رسمياً، فقد شهد فترة سلام طويلة ترسّخت خلالها الدعائم المؤسساتية لوعي جماعي طائفي ذي رسالة وطنية. وكان أبناء الجبل مستمرين في سعيهم الملحّ لتوسيع رقعتهم الجغرافيّة لتشمل مدينة بيروت التي كانت بمثابة الرّئة التي يتنفّس منها أبناء المتصرفيّة. وقبل أن يتجسد هذا المشروع الوطني المولود في مخيّلة أبناء

الطّائفة المارونيّة في دولة لبنان الكبير التي تشمل الحدود التاريخيّة المفترضة التي وضعها فخر الدّين بالإضافة الى الساحل كلّه – وأيضاً سهل البقاع والسّفح الغربي للسّلسلة الشّرقيّة –، كانت بيروت الوجهة المستهدفة من قبل الزّعماء المحليّين للمتصرفيّة. وقد خطرت الفكرة للمتصرّف الأوّل داود باشا الارمني، وبدأت المسألة تُطرح بشكل أكثر جديّة في تسعينات القرن التاسع عشر. كما اخذ بعض زعماء الكنيسة المارونيّة، التي صارت المحرّك الأساسي للحياة السياسيّة في الجبل[23]، وأيضاً المناصرون المتحمّسون للعقيدة اللّبنانويّة النّاشئة، يطالبون جميعاً بإلحاق بيروت بالجبل.

إلاّ أنّ بيروت بقيت بمنأى عن هذا التصوّر الاولي للوطنيّة. وإذا كان عدد السكّان في بيروت يزيد جرّاء النّزوح المستمر «للّبنانيّين»، كما كان يسمّى آنذاك سكّان الجبل دون سواهم، إلا أنها اجتذبت أيضاً مهاجرين من سوريا الداخليّة. ذلك أنّ المدينة لم تكن مرفأ الجبل فقط بل مرفأ دمشق أيضاً. لذا كانت نخبها الاقتصاديّة تناهض فكرة دمج بيروت بالمتصرفيّة حتّى لو كان السّلطان يوافق على هذا الضمّ. وكيف بإمكانه أن يوافق في وقت تعزّز فيه وضع بيروت فجعلها ولاية مستقلّة بين عامي 1887 و1888 بموجب مرسوم إداري جديد، بحيث تمتدّ من اللاذقيّة شمالاً حتّى نابلس جنوباً؟

لا شيء كان يبعث على الاعتقاد بأنّ بيروت قاعدة الولاية التي تمتدّ على مساحة ثلاثين ألف كيلومتر مربّع (أي ما يعادل ثلاث مرّات مساحة لبنان الكبير العتيد) يمكن ان تكون جزءاً في مخيّلة جماعة شكّلت خارجها، ولو كان على بعد بضعة كيلومترات من ضواحيها. خلافاً لذلك، ورغم التّواصل الذي يعزّزه توافد السكّان الجدد الآتين من الجبل، كانت المدينة تبثّ ايديولوجيّتها الخاصّة بها[24]. وهي ايديولوجيّة صاعدة في زمن باتت فيه المدينة المتجذرة عميقاً في التراث الاسلامي تزدان بسحر الحداثة في المناطق العثمانية كافة. بيروت، المدينة التي قامت على أنقاض الامبراطوريّة العثمانيّة ستستمرّ في تبنّي نهجها القائم على احترام التنوّع الدّيني في أرجاء السّلطنة ورعاية ازدواجيّته الملتبسة بما يسمح بتجاوز عمر الامبراطوريات على قاعدة تأمين أكبر قدر ممكن من الفائدة لنفسها.

الفصل الرابع

زمن ابراهيم باشا

«أيّتها الطّبيعة، أيّها الجمال، السّحر فائق الوصف لحواضر الشّرق القائمة على شواطئ البحار، أيتّها اللّوحات المتموّجة تموّج الحياة. يا أجمل أعراق البشر! يا للملابس، والمراكب، والسّفن المتلاقية فوق أمواج الأثير... كيف بالإمكان وصف الشّعور الذي تثيرينه في كلّ حالم، شعور ليس إلاّ تأكيداً لما رصدناه. قرأنا جمالك في الكتب وتأمّلناه في تلك اللّوحات الايطاليّة القديمة أيّام كان أهل البندقيّة وجنوى ملوك البحار. ما أشدّ دهشتنا لرؤية هذا الجمال متجسّداً أمام اعيننا كما حلمنا به من قبل...»[1].

هذه الاسطر التي عبّر بها جيرار دي نرفال Gérard de Nerval عن شعوره حين أطلّ على مرفأ بيروت إبّان زيارته للشّرق عام 1843، جديرة بأن تدوّن في أنطولوجيا أدبية لأدب الرّحلات وليس في مجموعة منتخبات تاريخيّة. كان الشّاعر متمتّعاً بجولته في «البازار الهائل» لبيروت المحاط «بهذه الممرات الطّويلة التي افترشت فوقها البضائع وظلّلت بخيام من شتّى الألوان حيث نفذت بعض خيوط الشّمس وانعكست على أصناف الفواكه والخضرة النّضرة ثمّ انتشرت أشعّتها لتشمل الملابس الفاخرة المطرّزة المعلّقة فوق أبواب تجّار الرّثاث». كان الشاعر مهتماً بشكل خاص بان يستعيد الصورة التي رسمها الرحّالة السابقون للامكنة التي وصفوها في رحلاتهم. نفرّته البيوت العالية وبدت له أشبه بحصون فعبر الأسواق بسرعة: «كنت أريد الوصول بأي ثمن إلى المرفأ واستسلم كلياً للشعور الذي يمنحني إيّاه المنظر الرائع الذي كان ينتظرني هناك». هذا ما اعترف به الكاتب في إشارة منه ان لا شيء في المدينة كان قادراً على أن يصرفه عن المتعة الأدبيّة والفنيّة التي يمنحها إياها «المشهد كما رسمته ريشة الرسّامين الغربيّين»، بحسب قول دومينيك شوفالييه[2].

ربّما كانت الرغبة التي عبَّر عنها نرفال آنفاً نزوة غريبة صادرة عن رجل أدب، لكنّها تشير، بلا شكّ، إلى ضعة المدينة بالرّغم من تباشير الازدهار التي يلمّح اليها كلامه في ما يتعلّق بتجارة المرفأ والزّحام والبازار – وهو على أيّة حال أقلّ ضخامة بكثير مما وصفه الكاتب – والشارع «المخصّص

لتجارة الافرنج» حيث تسنّى للاديب الرومنطيقي التمتّع برؤية «مرسيليا تزاحم لندن راضية». قبله بسنوات في عام 1833، حذّر ادوار بلونديل Edouard Blondel، وهو تاجر فرنسي تسنّى له أن يدقّق في التّفاصيل ويتحقّق مما يجري حوله بسبب إقامته الطّويلة في المدينة، قرّاءه قائلاً: «بالرّغم من المظهر البهيج الذي تتجلّى فيه بيروت من البحر، يجب ألاّ نتوقّع، كما اوحى معظم الرحّالة الذين يزورون الشّرق للمرّة الأولى، بان يضارع جمال المدينة من الدّاخل ما أوحته لنا رؤيتها من الخارج»[3]. نرفال وبلونديل، كلاهما كتبا بعد التحسينات التي ادخلها الاحتلال المصري إلى بيروت - وقد تطرّق إليها بلونديل.

كانت بيروت تثير انتباه الرحّالة الأوروبي فقط بوصفها ذريعة للتّعبير عن الحماس الذي يبثه السّفر في نفسه. وحين اكتشفها ابراهيم باشا عام 1832، لم تكن لتثير أي انطباع لدى الزّائر العادي القادم من القاهرة، عدا الإعجاب بحسن موقعها. بقيت أسوارها، التي أعاد الجزّار بناءها بعد قصف الأسطول الروسي، لا تقارن بدفاعات عكا التي أثارت حفيظة القائد المصري، حتى لو رأى فيها لامارتين، وكان ماراً ببيروت في الفترة نفسها، «تحصينات تركيّة ظريفة كتلك التي نراها في لوحات الرّسم».



قلعة المرفاء نحو 1870 (بعدسة جان - باتيست كارلييه).

مربّع مكتظ

كانت بيروت مختزلة آنذاك، كما لعصور خلت، إلى المربّع الذي يحدّده التقاء السّاحل بالسّور. كانت مسافة هذا المربّع تبلغ خمسمائة وسبعين متراً انطلاقاً من المرفأ ووصولاً إلى الباب الجنوبي، وثلاثمائة وسبعين متراً عند أكبر اتّساع له بين البابين الشّرقي والغربي[4]. يعلو السور عند طرفه الشّمالي الشّرقي



أسكلة بيروت (لوحة من كتاب «رحلة سوريا» للرحالة ليون دولابورد).



سور بيروت عام 1820 (لوحة من كتاب «رحلة سوريا» للرحالة ليون دولابورد).

برج مطلّ على المرفأ يدعى برج البحر. ويدعى أيضاً البرج المسلّح وهو حصن يعود لعهد الصليبيّين، ذو أحجام متناسقة مع أنّ الصّورة الباقية له تظهره أكثر تواضعاً مما وصفه نرفال حين تحدّث عن «ضخامة الظلّ» الذي تحدثه «القلعة البحريّة»[5]. وكانت الأسكلة بحد ذاتها، وهي موجودة على خرائط الرّحلات البحريّة القصيرة منذ قرون ويتردّد إليها التجّار الاجانب، لا تزال ضيّقة جداً ومجهّزة

بشكل سيّئ؛ من الغرب يحدّها برج الفنار، ومن الشّرق برج السلسلة، وترقى التّسمية لأيام الصليبيّين والمماليك وهي تشير إلى الوسيلة التي كانت مهّمتها قطع الطّريق أمام البوّابة البحريّة التي دعيت هي أيضاً باب السلسلة.

وفي الدّاخل أيضاً كان لـ«بيروت المحروسة» شكل المربّع وتحوي «بيروت المربّعة» هذه عدّة مبانٍ دينيّة متواضعة تعبّر أصدق تعبير عن تاريخ المدينة المتواضع. بلونديل يتحدّث عن «خمسة أو ستّة مساجد» وعن «كنائس مسيحيّة شتّى»، ولم يستدلّ من وصف أي منها بأنّها جديرة بالملاحظة، إذ بدت له كلّها «بائسة ودون أهميّة تُذكر»[6]. كذلك بدت له المباني الإداريّة عاديّة. أما نسيج المدينة الاجتماعي، فلم يكن أيضاً جديراً بالاهتمام وفقاً لما وصفه ج.ج. بوجولا J.-J.Poujoulat في أواخر ولاية ابراهيم باشا: «لم أرَ في حياتي شيئاً بهذه الغرابة، بهذا التّفاوت في التّنظيم كما رأيت الحاضرة العربيّة بيروت. فبيوتها المبنيّة من حجر أكثر ارتفاعاً منها في أي مدينة من سوريا. ترى قناطر ومنافذ سريّة وممرات غامضة وشوارع ضيّقة وملتوية تثير الرّعب في قلب المسافر الذي يسعى لعبور المدينة. وكلّ بيت فيها أشبه بحصن منيع»[7]. أما بلونديل ففضّل استعمال التورية في معرض وصفه لأولى التحوّلات التي أحدثها الحكم المصري في بيروت: «تتّسع الشّوارع المتاخمة للبحر التي يسكنها الأوروبيّون والقناصل أو التجار على نحو معتدل، تحف بها منازل عادية وغير منتظمة لكنّها مبنيّة فقط من حجر. لكن، كلّما توغّلنا في الدّاخل، صارت الشّوارع أضيق وأكثر التواء ومظلّلة بعدد لا يحصى من القناطر المنخفضة



السور قبل مجيء ابراهيم باشا (لوحة من كتاب «رحلة سوريا» لليون دو لابورد).

المظلمة التي لا تضفي على المدينة أي جمال...»[8].

كانت بيروت بترسيمتها غير المنتظمة مشابهة لكلّ المدن العربيّة التي تُضلّ الرحّالة، لكنّها امتازت عن تلك المدن بميلها إلى بناء البيوت المرتفعة. كنت تجد في بيروت بيوتاً من طابقين أو ثلاثة، وكان تراكمها يتسبّب بالمزيد من الازدحام والفوضى، بخلاف البيوت الأخرى فوق المطلّ. تنظر إلى ما وراء السّور فترى مشهداً يتكوّن من مدافن وكثبان رمل وحدائق، وأبعد في الأرياف، ترى مجموعات منازل مبعثرة أخذت تتشكّل[9]. لكنّ الانطباع الذي يرسخ في الذّهن عن المدينة هو سمة التّراكم وهنا تكمن المفارقة: بالرّغم من حجمها المتواضع الذي يجعلها أقرب إلى بلدة كبيرة، كانت بيروت تملك فعلاً خصائص المدينة. فإلى ارتفاع الأسوار وقيام عدّة مبانٍ دينيّة إسلاميّة ومسيحيّة، كنت ترى عدداً من المباني العامة كالسّراي والخانات وفندقين[10]، وكنت تلمح في شوارع المدينة السكّان المتعدّدي الأصول والطّوائف[11].

فكم بلغ عدد الساكنين خلف جدرانها؟ أثبت دومينيك شوفالييه أنّ الأرقام المسجّلة في القرن التاسع عشر تعود في معظمها إلى «انطباع ديموغرافي[12]». ويجب أن ينظر اليها على انّها مجرّد تخمينات، وخصوصاً في تلك المرحلة. كانت المدينة، في الرّبع الاخير من القرن الثامن عشر، تعدّ أربعة آلاف إلى خمسة آلاف نسمة، لا بل ستّة آلاف نسمة[13]. وخلال العقود الأولى من القرن التاسع عشر، جرى الحديث عن ستّة آلاف نسمة، وهذا الرّقم ذاته يتبنّاه ليون دولابورد **Léon de Laborde** لكن في معرض كلامه عن العام 1827[14]، فيما تتحدّث **الكورسنبدانس دوريان** ***Correspondance d'Orient*** لصاحبيها ميشو **Michaud** وبوجولا **Poujoulat** عن 9000 نسمة[15]. ربّما كانت المقارنة لا تصحّ بين أرقام منسوبة إلى مصادر مختلفة لكنّها تؤكّد مع ذلك الزّيادة المطّردة في عدد السكّان. ويمكن أن نوافق مع شوفالييه الذي يقدر انّ عدد السكان بلغ عام 1834 عشرة آلاف نسمة في المدينة داخل جدرانها وضواحيها مباشرةً. وباختصار، يمكن القول إنّ أوّل زيادة سكانيّة في بيروت سبقت الحملة المصريّة. شهدت مجمل مدن سوريا آنذاك مرحلة من النمو الديموغرافي، لكن الازدياد السكّاني الذي سجّلته بيروت ناتج في الأساس، كما كل الزيادات اللاحقة، عن الهجرة الداخليّة التي تعود أسبابها إلى الأوضاع السياسيّة غير المستقرّة في المناطق الأخرى المجاورة للمدينة. مثلاً، الاضطرابات التي هزّت بشليق صيدا في ظلّ حكم عبدالله باشا وتسبّبت بموجة نزوح عن المدينة. وقبلها أيضاً، انتشار الثّورة الوهابيّة خارج شبه الجزيرة العربيّةالتي أوفدت إلى بيروت النازحين عن ولايتي حلب ودمشق. والبؤس الذي شهده جبل لبنان عام 1812، وقد ذكره أحد الرحّالة[16]، أمدّ أيضاً بيروت بدفعة من المهاجرين المسيحيين. وكما يبدو، اشتهرت بيروت، التي كان المسيحيّون يمثّلون في ثلاثينات القرن التاسع عشر، إن لم يكن أكثريّة، فأقلّه نسبة مهمّة تفوق نسبة تواجدهم في أي مرفأ على الساحل

السوري[17]، بأنّها الملجأ الذي يستقبل الجميع في احضانه.

ونتيجة هذا الازدياد السكّاني، بدت المدينة مزدحمة داخل جدرانها، كما تظهر ذلك أوصاف بوجولا وبلونديل. السّور الذي اعاد الجزّار بناءه على مسافة ابعد قليلاً من السور القديم ليسهّل التحرك امام المدافعين عن المدينة، أفسح في المجال أمام توسّع أولي لها. ودخلت بيروت في طور جديد متّجهة خارج اسوارها، وسرعان ما استولى أهلها على المساحات التي مهّدها الجزّار لمواجهة أي هجوم محتمل، وكانت مزروعة بالبساتين. وعلى مسافة ابعد شيّدت مساكن صيفيّة معدّة خصّيصاً للبيروتيين الميسورين، وابنية اخرى فوق قرى المطلّ[18].

بالموازاة مع هذا التوسّع الأولي، الذي لا يزال محدوداً، أرجعت عودة السلام إلى أوروبا الحيويّة للتّجارة العالميّة، الأمر الذي أفادت منه سريعاً كل مدن الساحل السوري. واستطاعت بيروت، بعدما شجّعها أفول نجم صيدا وإقامة أول القناصلة الأجانب فيها في العشرينات من القرن التاسع عشر أن تستأثر بحصّة لها؛ ومع وصول ابراهيم باشا، في اللّحظة المناسبة، كانت بيروت قد هيّأت نفسها لمواجهة كل ما يطرأ من مستجدّات.

العصرنة المصريّة

انطلقت الحملة المصريّة في 29 تشرين الأوّل/ أكتوبر 1831. أخضع ابراهيم باشا غزّة ويافا وحيفا سلمياً ثم ضرب الحصار حول عكا في 26 تشرين الثاني/ نوفمبر، ولم يحالفه الحظّ بعد مرور ثلاثة أشهر في إخضاع المدينة.عندئذٍ سعى للالتفاف حول الأسوار شمالاً باتّجاه صور وصيدا وبيروت وطرابلس واللاذقيّة. وبعد ستّة أشهر من الحصار، سقطت عكا في 27 أيار/ مايو 1832. عندئذٍ توجّه ابراهيم باشا إلى دمشق واحتلّها في 16 حزيران/ يونيو. ولم يشارف شهر تموز/ يوليو على نهايته حتّى كانت مدن سوريا كلّها تحت سيطرته، ما أتاح له الانطلاق نحو الاناضول، وهيّأ له الانتصار على قونية أن يهاجم اسطنبول. لكنّه ما لبث أن انسحب، إثر تهديد الدول العظمى له، في طورس مكتفياً فقط بحكم سوريا التي تخلّى عنها الباب العالي في 8 نيسان/ أبريل 1833، بموجب معاهدة كوتاهية – مع الاحتفاظ لنفسه بالسّلطة الاسميّة. لكنّ السّلطان لم يرض بهذه الخسارة. واستمرّ الوضع على تلك الحالة طيلة ستّ سنوات، شنّت بعدها الجيوش العثمانيّة هجوماً مرتداً، لم يتكلّل بالنّجاح في البداية. فبعد معركة نصيبين في الشّمال السوري في 4 حزيران 1839، فتحت أبواب اسطنبول أمام ابراهيم باشا للمرّة الثّانية. لكنّها كانت بداية النّهاية، لأنّ حلفاء الدّولة العثمانيّة هبّوا لمواجهة جيوش ابراهيم باشا الزّاحفة، وهذا ما حدث فعلاً، بعد توسع رقعة الاضطرابات في عدة أماكن من سوريا مما أربك قيادة الجيش المصري الذي حاول إخمادها فاستغلّ الانكليز الفرصة السانحة وقصف الأسطول البريطاني

بيروت في 11 أيلول/ سبتمبر 1840 وبدا انّه مستعدّ لإنزال قواته على الشاطئ والمضي صوب الشمال، ففرّ ابراهيم باشا وخرج بجيشه من سوريا نهائياً.

ولم يتميّز هذا العقد المضطرب بالنّزاعات فقط أو الاجراءات الفوقية التي كانت تمارسها الإدارة المصريّة أحياناً. فالتبعات الناجمة عن التغيّرات التي أحدثها الاحتلال المصري في إدارة سوريا وخصوصاً في مدنها، إبّان تلك الفترة من الهدنة غير المستقرّة، كانت طويلة المدى ومخلّة بتوازن المنطقة. وبدا الاهتمام الشخصي لمحمّد علي ولابنه ابراهيم باشا حاسماً على هذا المستوى. أظهر محمّد علي، دون ان تطأ قدماه أرض سوريا طيلة الفترة التي احتلّتها فيها جيوشه، إصراراً لا يكل على تحديث سوريا على غرار مصر، متابعاً بدقّة كلّ التفاصيل، كما تشهد على ذلك الأرشيفات المصريّة. كان يراسل ابنه باستمرار والمسؤولين في إدارته. وإليه كان يرجع تعيين الأشخاص في المناصب التي أحدثها ابنه لتنفيذ المهمات الموكلة إليه في الشؤون الإصلاحيّة . أما ابراهيم باشا فقد ادرك بسرعة كبيرة أن متطلبات الحملة العسكريّة ستستأثر بكلّ وقته؛ لا بل كان واثقاً أنّه لن يستطيع، بالرّغم من الفعالية التي تميّز بها ضبّاطه وخصوصاً الضابط الشهير سيف Sèves، المعروف بسليمان باشا وهو ضابط من قدامى الضبّاط في جيوش نابوليون الاوّل ورئيس الأركان في الجيش المصري، أن يحكم سوريا بنفسه. عندئذٍ، أوصى ابراهيم باشا بتعيين حاكم عام على سوريا. للوهلة الأولى، فكّر بالأمير بشير ليوليه هذا المنصب لكنّه ما لبث ان غيّر رأيه واختار، بالاتّفاق مع أبيه، محمّد شريف بك حاكماً عاماً، وهو أحد أقربائه وقد أظهر بتولّي الشؤون الماليّة مهارة، وحكمة في إدارته لشؤون مصر العليا، فيما عهد إلى حنا البحري بإدارة الأموال، وهو سوري مسيحي مقرّب منذ وقت طويل من الحكم في مصر[19].

ولم يكفّ ابراهيم باشا لحظة واحدة عن التدخّل في كلّ كبيرة وصغيرة تطرأ أينما ذهب. وتحفل الأرشيفات المصريّة بالأحكام العديدة التي أصدرها وتشهد على متابعته المطّردة لإدارة الشؤون اليوميّة. وفي ما يتعلّق ببيروت، يشار إلى حالة تدخّل فيها ابراهيم باشا شخصياً إذ أوعز إلى المعنيّين بفتح تحقيق بوليسي عن جريمة حصلت أمام إحدى الخانات الواقعة خارج المدينة[20]. مذهلاً أيضاً كان إصراره على تنفيذ الاصلاحات وتعميمها على طول الأراضي التي احتلّها، وكأنّه واثق من أنّه سيظلّ قادراً على حسن تطبيقها إلى الأبد. وإذا كانت حاجات الجيش تفرض عليه الإقامة الدائمة في شمال سوريا؛ وإذا كانت دمشق تستأثر منه باهتمام خاص نظراً للهالة الرمزيّة التي تتمتّع بها، إلاّ أنّه أظهر مع ذلك الاهتمام ذاته بكل المدن على حدّ سواء. لم يهمل ابراهيم باشا المدن الساحليّة وظلّ ينظر إلى بشليق صيدا وبشليق دمشق نظرة واحدة[21].

وبغية السير قدماً في تسريع عمليّة الإصلاح، حظي التنظيم المدني على القسم الأكبر من جهوده، نظراً للتّقليد العريق لمدن سوريا في هذا المجال. بخلاف مصر وهي مجتمع فلاّحي، وبالرّغم من تاريخ

القاهرة العريق، فإنّ تاريخ سوريا منذ آلاف السّنين يقتصر على تاريخ المدن الرئيسة فيها. وهكذا يجب أن تمرّ العصرنة من خلالها لتشمل أكبر عدد ممكن من النّخب المحليّة. منذ الاستيلاء على يافا ارتأى ابراهيم باشا أن يوكل إلى السكّان المحليّين مهمّة إدارة شؤونهم اليوميّة[22]. لا بل ذهب أبعد من ذلك، فأقام في دمشق بعد احتلالها مجلساً شورياً مؤلفاً من اثنين وعشرين عضواً لا يقتصر فقط على الطّبقة الأرستقراطيّة من البكوات والأفنديات بل يشمل التجار وبينهم مسيحي ويهودي[23]. وأصبحت التّجربة لاحقاً مبدأ عاماً[24] يطبّق على جميع المدن التي تضمّ أكثر من 20000 نسمة- وهذا المجلس يبعد عن مفهوم الديوان التقليدي للولايات العثمانيّة. كان يفترض بمجلس الشورى أن يؤازر الحاكم الذي دعي بـ «المتسلّم»، وإن يضمّ وفقاً للمعطيات بين اثنين عشر وواحد وعشرين عضواً، مفسحاً المجال في كل مكان أمام تمثيل الطوائف غير المسلمة[25]. وعلاوة على ذلك، كان هذا التنظيم ما قبل البلدي يندرج ضمن خطّة شاملة ترجمت من خلال تراتبيّة المجالس الاستشاريّة التي تفترض أن يمنح مجلسان حق الاشراف على الأخرى، فاختيرت دمشق مقراً رئيسياً لإدارة سوريا بقيادة شريف بك، وكذلك عكّا. وفي حال وقع خلاف بين هذين المجلسين، فالقرار النّهائي يعود إلى القاهرة، حيث كان محمّد علي يتابع يومياً التّقارير الواردة من هناك[26]. استبقت هذه الإجراءات المدنية التنظيمات التي أطلقتها اسطنبول لاحقاً، وحدّدت المسار الجديد للمدن الذي سيطبع نهاية العهد العثماني بطابع مميّز، ومن بين هذه المدن التي ستدخل حلبة الصّراع لتحظى بالمرتبة الأولى في العراقة، ستفوز بيروت بحصّة لا يستهان بها.

صحة المدينة

خضعت المدينة دون مقاومة للجيش المصري في 2 نيسان/ أبريل عام 1832.وكما في صيدا وفي صور، عهد بمركز المتسلّم لأحد أقرباء الأمير بشير الثاني الشّهابي وهو الأمير ملحم الذي ما لبث أن عُزل[27]. لم تكن بيروت تعدّ أكثر من 20000 نسمة، ومع ذلك أقيم فيها مجلس من اثني عشر عضواً بأمر من ابراهيم باشا في كانون الثاني/ يناير 1834[28]. ودعت الحاجة إلى التمثيل الطائفي في المجلس من خلال توزيع المقاعد مناصفة بين المسيحيّين والمسلمين، وهذه الحالة انفردت بها المدينة وكانت دلالة على خصوصيّتها الطائفيّة فهي الوحيدة، بين كلّ مدن الساحل، التي تضمّ هذه النّسبة الكبيرة من المسيحيين.

ولم يكن في بيروت وزن للأرستقراطيّة المدينيّة التي يمثّلها الأشراف، مع أنّه كانت هناك حفنة صغيرة تنتمي لهذه الطّبقة، لا بل كان هناك نقيب الأشراف وهو الذي يحصي أنساب الذين ينتسبون إلى السّلالة النبويّة، وكان يدعى في ذلك الوقت أحمد الأغر. أما البيكوات وهم النّخبة العثمانيّة

المحاربة فكانوا يسعون إلى الحصول على مكان يرتاحون فيه بعد التقاعد، فظلوا خارجه. وهكذا تشكّل المجلس من التجّار الذين عيّنوا من قبل ابراهيم باشا. وهذه الخصوصيّة تلقي الضّوء على خصوصيّة أخرى وهي أنّ مجلس بيروت توجّب عليه أحياناً أن يعالج خلافات تجاريّة متجاوزاً بذلك صلاحيّاته الأساسيّة(29). تلك لحظة البداية الحاسمة للنفوذ، المضمر أو المعلن، الذي سيمارسه التجّار في حياة المدينة في أواخر القرن التاسع عشر. وعلاوة على ذلك، تميّز المجلس بفعاليّته وتنظيمه وتشهد عليهما إدارة الأعمال اليوميّة(30). وألحق هذا الجهاز الإداري بديوانين خاصّين، مهمّة الأوّل الاهتمام بالصحّة العامّة، والثاني بالتّجارة. وفي هذا الوقت أقيم جهاز للشّرطة وآخر للحراسة فأعطيا مفهوماً جديداً للمدينة.

وأكثر من عمل المجلس والأجهزة الأخرى، أضفت شخصيّة المتسلم الجديد محمود نامي بك، المعيّن عام 1835، ديناميّة على حياة المدينة. كان محمود بك ضابطاً مصريا من أصل جركسي؛ درس في فرنسا بعد ان كان في عداد الطلاب الأوائل الذين أرسلهم محمّد علي في بعثة ليتعلّموا التقنيات الجديدة(31). أظهر محمود بك، خلال ترؤّسه المجلس، حزماً كبيراً وحساً للخدمة العامة أثار إعجاب معاصريه. يصفه بلونديل حاكما «اهتمّ كثيراً بترقية بيروت وتحسين منظرها وأدى بذلك خدمات جلّى لسكّانها(32)». والغريب في الأمر أنّ فخري بك، ابن هذا الأمير الجركسي، ستتاح له الفرصة بعد ثلاثة عقود بمواصلة جهود أبيه في الإصلاح عندما عيّن رئيساً للبلديّة الجديدة التي أنشأها الحكم العثماني في بيروت(33).

بالطّبع، لم يستطع محمود بك والمجلس الأول لبيروت أن يحقّق الطّموحات التي سعى إليها الحكام العثمانيّون في نهاية القرن التاسع عشر. لكن المدينة كانت آنذاك تنطلق من الصّفر وهناك الكثير من الامور الملحّة التي ينبغي مواجهتها، لذا، جرى العمل على محورين اعتبرا من الأولويات وهما النّظام الصحي وإصلاح الطّرقات. وهكذا اتّخذت، بالتّزامن مع التوجّهات العامة للحكم المصري في مجمل بلاد الشّام، عدّة إجراءات صحيّة: أعمال تجفيف وإنشاء قنوات مياه ونقل المدافن خارج السّور(34). وثمّة أخبار غير أكيدة عن أنّ إدارة ابراهيم باشا قامت بعمليّة تشجير واسعة في غابة الصّنوبر القريبة لتنقية الهواء والاحتراز من الحمّى(35).

لا جدال في أنّ إصلاح الشّوارع كان من الحاجات الملحّة، حتّى لو لم تصل المهمة إلى غايتها المرجوّة. بعد أن اطرى بلونديل على المتسلّم، كما سبق وذكرنا، عاد ليتحدّث في العام 1838، عن انّ المتسلّم «نال من حكومته إذناً برصف المدينة وأنّ العمل بوشر به بنشاط وحمية». ثمّ يضيف: «استغلت الفرصة لإرجاع الطّرقات إلى اتّساعها المعهود فأزيلت كلّ العوائق القائمة على الجانبين وقد لاقى هذا العمل ارتياحاً لدى الكثيرين لأنّ بعض المخالفات والتعديات كإقامة المحال الضيّقة او بناء الادراج

والسلالم تمّت تسويتها بما يحفظ حقوق الجميع[36]». وبعد سنتين من ذلك التاريخ، التقط غوبيل فيكيه Goupil Fesquet أوّل صورة لبيروت على طريقة داغير Daguerre، ولاحظ بدوره «نظافة الطّرقات التي رصفها حديثاً الحاكم محمود نامي بك»، ثمّ اعترف أنّ الأمر شكّل بالنّسبة إليه «مفاجأة ومثار إعجاب، لأنّ القذارة هي ما تتميّز به مدن سوريا عادةً[37]». وامتدّ العمل على إصلاح الطّرقات إلى خارج أسوار المدينة ورصف الشّارع الذي يمتدّ من الزاوية الجنوبيّة - الغربيّة للسور إلى الأحياء الجديدة التي بدأت تنمو على سفح التلّة، واحتفظت المنطقة باسم زقاق البلاط.

موعد مع البوابير

إضافةً إلى المدينة، وجّه المصريّون عنايتهم نحو المرفأ فبوشر منذ العام 1834 بإنشاء محجر صحي يقع على بعد كيلومترين أو ثلاثة منه، فإذا به إنجاز عظيم غير متوقّع ونعمة حلّت على أبناء المدينة. تضافرت الظروف إذاً وجعلت بيروت تفيد من الاهتمام المصري بالصحّة العامّة. وهكذا صمّم ابراهيم باشا، بدعم من القناصلة الأجانب، على إقامة شبكة صحيّة عبر سوريا للحدّ من انتشار الأوبئة، ما أثار عداء رجال الدّين. ففي دمشق، اعترض العلماء متذرّعين أنّ سلب حريّة الإنسان ووضعه في حجر من دون سبب قانوني مخالف لتعاليم الإسلام[38]. وللأسباب ذاتها، رفض وجهاء طرابلس إقامة محجر صحي بحري. لذا اتّخذ القرار بإنشاء المحجر بالقرب من بيروت حيث نفوذ العلماء ضعيف، واختير الموقع على مسافة غير بعيدة كثيراً من المدينة، إلى الشّمال من خليج السان جورج على رأس الخضر، أي من المنطقة التي ستلحق في ما بعد ببيروت والتي ستظلّ على اسمها القديم الكرنتينا.

كانت فترة المحجر تفرض على المسافرين كلّهم البقاء فيه لمدّة اثني عشر يوماً؛ لكنّ الصّعوبات ما لبثت أن نشأت، فما كان من ابراهيم باشا إلاّ أن أنزل المسؤوليّة عن كاهله وسلّم إدارة النّظام الصحي للوهلة الأولى إلى القنصل هنري غيز، حسب ما روى القنصل نفسه. وساهم قناصلة آخرون في المشروع، إذ قدّم قناصلة فرنسا والنّمسا والدانمرك وإسبانيا واليونان المال لبناء التّخشيبات، كما أنشأوا لجنة صحيّة هدفها الإشراف على سير المحجر الصحي[39] وعهدوا للبارون دارمانياك D'Armagnac إدارتها[40]، وهو احد الفرنسيّين المتحالفين مع محمّد علي على غرار سليمان باشا الذي كان مرافقه العسكري. لكن المشاكل التي أثارها القناصلة لدى إدارتهم شؤون المحجر الصحي اثارت فوضى عارمة، ما دفع ابراهيم باشا ليوكل إلى حنا البحري، المسؤول المالي في سوريا، إعادة النّظر في أسلوب إدارة المحجر. وخلص من مهمّته بالدّعوة إلى إلحاق المحجر الصحي في بيروت إلى محجر الاسكندريّة[41].

ايّاً تكن الجدوى الصحيّة من المحجر الصحي، فقد ساهم في تطوّر الاقتصاد في المدينة التي صارت



المحجر عام 1860 (صورة التقطها لوي فيني).

محطّة إلزاميّة لكل المراكب البحريّة[42]. ولمواكبة هذه الحركة التجاريّة الناشطة، كان لا بدّ من إعادة تأهيل المرفأ. لذا أمر محمود بك بأن تشيد فيه مستودعات وتدعّم الأرصفة بعد أن اشتكى التجّار الأجانب لابراهيم باشا من سوء التّجهيزات المرفئيّة[43]. لذا عني بإصدار تشريعات تنظّم الاجراءات المرفئيّة والجمركيّة. وهكذا أصبحت بيروت مؤهّلة أكثر فأكثر لتستأثر بالتّجارة مع أوروبا. وبفضل حصر تصدير حرائر لبنان ومنتوجات دمشق عبره وبفضل الواردات، أصبح مرفأ لبنان بوابة المشرق بالنّسبة إلى الصّناعة الأوروبيّة. وازدهر التّجار المحليّون على حساب أفول تجّار صيدا، وإن لم تكن لديهم تلك «الثروات الطائلة»[44]. وهذا العامل الذي أنعش اقتصاد المدينة دفع بالفرنسيّين إلى اختيارها مكاناً ملائماً لإحياء تجارتهم التي تعرّضت لفترة من الرّكود تسبّبت به حرب ابراهيم باشا[45]. وقد عزّز من خيارهم التطوّر الذي شهده المرفأ تحت إشراف المصريّين. ارتفع عدد بيوت التّجارة المحليّة خلال هذا العقد من عشرين إلى أربعة وثلاثين بيتاً، وأنشئ عدد مماثل من البيوت التجاريّة الأوروبيّة في المدينة[46]. ما دفع أحد المرسلين اليسوعيّين للقول عام 1836: «إنّ بيروت هي حقاً أسكلة هذا الشرق. تنمو وتزدهر فيما عدد الأوروبيّين والمسيحيين فيها ينمو باطّراد[47]». وأتت السّفن البخاريّة الأولى لتسرّع وتيرة الحركة مسهّلة ليس فقط المبادلات التجاريّة بل أيضاً تناقل الأخبار. «آه، إنّها لتعزية كبيرة أن نتمكن من التواصل بهذه السّهولة وبهذه السّرعة بفضل السّفن التّجاريّة». كما أسرّ الرئيس العام لليسوعيين في رسالة إلى أحد مراسليه في جبل لبنان[48].

وبفضل هذه الحركة التجاريّة الموجّهة، عمدت السلطات السياسيّة الأوروبيّة إلى اختيار بيروت مقراً لبعثاتها الدبلوماسيّة. ولم تلبث أن وافقت على أفضلية بيروت فأنشأت سفارات وقنصليات

تابعة لها. كانت أولى المؤسّسات القنصليّة ترقى إلى بداية العقد الثاني من القرن التاسع عشر، وهي الفترة التي أخذت فيها التّجارة المتوسطيّة تستعيد حيويّتها. لكن بيروت لم تضطلع بدور مركزي إلاّ في العقد اللاحق من القرن نفسه. هذا ما تظهره مسيرة هنري غيز المهنيّة: عيّن في العام 1824 نائباً للقنصل في بيروت حيث تمثّلت فرنسا للمرّة الأولى عام 1821؛ وبعد أربع سنوات، رقّي فأصبح «قنصل فرنسا في عكا والمدن التابعة لها ومركزها بيروت»، ثمّ قنصلاً من الدّرجة الأولى عام 1833. وأخيراً انتقلت القنصليّة الفرنسيّة من عكا إلى بيروت بشكل رسمي في كانون الأوّل/ ديسمبر 1837، فيما نقل مندوبها، وهو معاد للحكم المصري وتشبّث بمفهوم بائد عن التّجارة الغربيّة، إلى حلب[49]. وبالتّزامن مع ذلك، التحقت قنصليّة طرابلس بقنصليّة بيروت، ولم يبق فيها إلاّ موظّف واحد. وبادرت أيضاً الولايات المتّحدة على درجة أقلّ من الحماس إلى ترقية مندوبها القنصلي عام 1832 الى مرتبة قنصل أصيل عام 1836[50]. وفي غضون ذلك، أنشأ مرسلون كاثوليك وبروتستانت مدارس جديدة وأعادوا تأهيل القديم منها وطوّروا مناهج التّعليم فيها.

أفادت بيروت من السّياق العام للاصلاحات المصرية التي تجسّدت فيها، كما في سواها من المدن، عبر إجراءات عدّة لا سابقة لها من قبل، كتلك التي تتعلّق بتنظيم الشّرطة وتعزيز الحراسة[51]، ومحاربة الجدري بابتكار وسيلة التّلقيح[52] الذي من أجله فعلت السلطة المصرية حسناً بإذكاء المنافسة بين المرسلين الفرنسيّين والانكليز والاميركيّين الذين كانوا يتوافدون إلى المشرق آنذاك بأعداد متزايدة[53]. كما أفادت بيروت من السرعة التي شهدها تناقل الأخبار بين مختلف قطاعات الحكم في سوريا من خلال إقامة مركز رسمي للبريد يؤمّن الاتّصال بين انطاكية وعكا خلال يومين وبين عكا والاسكندريّة خلال ثلاثة أيام[54]. ولكن هنا أيضاً، اصطدمت إدارة الإصلاح المصريّة بمصالح الأوروبيّين. خصّص البريد في البداية لمحمد علي الذي أراد متابعة كلّ ما يحصل في أرجاء المناطق التي احتلّها، ثمّ لمراسلات الإدارة المصريّة وأخيراً كان لا بدّ للجميع الافادة من الخدمات البريدية. لكن المشروع اصطدم بمعارضة القنصل البريطاني في دمشق لانّه كان يمثّل في نظره تهديداً لمصالح انكلترا التي تريد أن تقتصر أعمال البريد على الاتّصال السّريع بينها وبين دمشق وبيروت[55].

إلاّ أنّ التدخّل البريطاني، مهما يكن سخيفاً أو حتّى هزلياً يكشف بوضوح عن الرّهانات التي اتّخذتها الدّول العظمى بشأن محمّد علي والامبراطوريّة العثمانيّة أيضاً. ارادت الدّول العظمى التّرويج لمفهوم العصرنة لكنّها تعمل بما يحول دون تطبيقه فحين تنضج الظّروف لتلك العصرنة تهبّ هذه الدّول إلى اجهاضها بكلّ الوسائل المتاحة. بيد أنّ هناك تدخّلاً آخر أكثر عنفاً وأبعد أثراً من السابق وقد حصل في بيروت عام 1840، فيما كان ثوّار الجبل يخيمون بزعامة الشّيخ

فرنسيس الخازن في غابة الصّنوبر جنوبي العاصمة، إذ أخذت القوات البريطانيّة تقصف الأسوار في 11 أيلول/ سبتمبر محدثة ذعراً أعقبه تهجير بضعة آلاف من السكّان. وما هي إلاّ أسابيع حتّى أنزلت الجيوش الحليفة للباب العالي قواتها على بعد بضعة كيلومترات جهة الشّمال.

وكان من نتيجتة أن وقعت بيروت مجدّداً تحت سلطة العثمانيّين.

تباشير الازدهار

أقل من تسع سنوات مرّت على وصول الجيش المصري الى بيروت، ومع ذلك طرأت تغيرات كثيرة على المدينة كما لو أنّ الفصل المصري دام قرناً. لا شكّ في أنّ الحكم على هذه الحقبة يبقى متبايناً علماً بأنّ ممارسات كثيرة قام بها الاحتلال المصري لم تدرك أبعادها بوضوح - والأمر ينطبق على الجبل أكثر منه على بيروت- ما جعل صورة الحكم المصري تتّصف بهالة من السلبيّة في المتخيل الجماعي. لعلّ هذه الصورة هي التي يفضل القنصل الفرنسي هنري غيز الاحتفاظ بها عن المصريّين متهماً اياهم بتحصيل الجبايات غير القانونيّة وبفرض أعمال السخرة على المواطنين واستغلالهم. لكن هنري غيز، الذي عرف بيروت في بداية القرن قبل أن يستقر فيها بين 1824 و1830، يعود ليستدرك موقفه قائلاً إنّ بيروت شهدت بداية نموّها الاقتصادي وازدهار في تلك الفترة بالذات التي تزامنت مع الاحتلال المصري لها[56].

ولكن، للمراقب المتنبّه مثل بلونديل وغوبيل فيكيه، لا يمكن التحقق من التحوّل الذي شهدته المدينة إلاّ بالمعاينة المتأنية للتغيّرات الحاصلة في شوارعها، كما أظهر ذلك وصف نرفال. لا جدال في أنّ الشّروط الصحيّة للمدينة تحسّنت كثيراً إبان العهد المصري لكنّها بقيت غير كافية لتأمين الازدياد الطبيعي المحسوس للسكّان، ومشابهة بالطّبع للظّروف الصحيّة التي كانت سائدة في أوروبا ما قبل الثّورة الصناعيّة[57]. ثمّة دلائل على تحوّل المدينة الايجابي ولا يمكنها أن تكون مخادعة وأهمّها أنّ التحوّل الذي طرا عليهافجّر الطاقات والقدرات التي يتمتّع بها أهل المدينة. الدّلائل كثيرة منها ازدياد عدد السكان الذي لا يعود بالضّرورة إلى النسبة الطبيعيّة للنمو السكاني ولكنّه يظهر مع ذلك قدرة بيروت على اجتذاب الناس إليها، وهي قدرة تتفوق فيها على كلّ المدن الساحليّة الأخرى. وهناك أيضاً النّشاط الهائل للإعمار خارج السور انعكس في ازدياد الطّلب على البنائين وحجارة البناء الذي تجاوز كلّ العروض السابقة[58].

وهناك أيضاً المشهد الجديد الذي تدور أحداثه خارج أسوار المدينة والذي استطاع غوبيل أن يصفه بدقّة في قوله: «تلمح من البعيد بيوتاً ريفيّة تجعل من هذا البلد مقاماً لذيذاً. تخرج من المدينة فترى أكثر من ثلاثمئة بيت منتشرة بعيداً باتجاه الجبل وسط المنظر الأكثر سحراً. وغالبيّة هذه الدارات الجميلة

التي يسكنها مرسلون أميركيّون وعائلات أوروبيّة، تحيط بها البساتين المزروعة بأشجار الليمون والإجاص والزّيتون،ألخ...»[59]. ولكن، ليس الأجانب فقط هم الذين يسكنون هذا الريف. لاحظ رحّالة آخرون، منذ العام 1837، ربّما بشيء من المبالغة التي لا تخلو من الحقيقة أنّ نصف السكان يقيمون في الحدائق التي تحيط بالمدينة[60].

وهكذا، شيئاً فشيئاً، لم يعد بإمكان بيروت أن تظلّ رهينة الأسوار المحيطة بها، فخرجت منها وعليها.

الفصل الخامس

طرق الشام

كتب قنصل فرنسا السابق هنري غيز يصف مدينة بيروت عام 1847، بعد ما قضى فيها فترة طويلة امتدّت بين العامين 1824 و1838: «بيروت تستعدّ اليوم لتأخذ مكانها بعد إزمير والاسكندريّة». بدأ القنصل الفصل نفسه بالقول إنّ المدينة «لا تسترعي انتباه الناظر للوهلة الأولى». ثمّ كرّس بضع صفحات ليتكلّم بالتفصيل عن ضعة «مدينة نشأت فيها التجارة حديثاً». لا شك في أنّ كلامه يعبّر عن واقع المدينة أصدق تعبير، وأنّ هذه الملاحظة الوجيزة التي أضيفت في آخر لحظة أتت لتضفي طابع الدقّة على شهادة تعود أصلاً إلى عشر سنوات - نُقل غيز خلالها إلى حلب - من خلال معلومات حديثة جمعها القنصل لدى عبوره في المدينة: «أُنشئت فيها قنصليات تمثّل كافّة الدول تقريباً ومؤسسات تجاريّة وفنادق ومخازن مجهزة على أكمل وجه وصيدلية أوروبيّة وأخيراً، أقيم فيها كازينو فخم لا مثيل له حتى في الأساكل الأرفع مقاماً[1]».

مهما يكن كلامه تعبيراً عن خبرة سلبية، فقد بقي القنصل السابق متنبّهاً للتغيّرات التي عاينها خلال إقامته في المدينة. لم تكن هذه حال الرحّالة الآخرين أمثال ماكسيم دوكان Maxime du Camp الذي قدم من الاسكندريّة برفقة فلوبير عام 1850، إلى بيروت فوصفها وصفاً انطباعياً ومعبّراً مع ذلك: «بيروت مدينة لا تضاهى، ليس المدينة نفسها فهي فقيرة ولا شيء فيها يثير الفضول، ولكن الريف الذي يحيط بها وغابة الصّنوبر والطّرقات المزروعة بأشجار الصبّار والآس وأشجار الرمّان التي تتسلقها الحرابي. لا بل قل منظر المتوسّط وقمم لبنان التي تغطيها الأشجار الراسمة على صفحة السماء الزرقاء ظلال أغصانها النقيّة. إنّها الملاذ المرجو للمتأملين والخائبين والمجروحين في وجودهم. يبدو لي أنّه باستطاعة المرء أن يعيش سعيداً هنا، لا لشيء إلاّ للنّظر إلى الجبال والبحر[2].

الأسكلة الأولى في بلاد الشام

لا شك في أنّ المنظر الذي يشبه بطاقة بريديّة حسبما وصفه ماكسيم دوكان لم يكن مطابقاً لواقع المدينة في ذلك الحين، لكنّه كان أيضاً أحد العوامل التي ساهمت، إن لم يكن في تطوّر المدينة، فأقلّه في شهرتها السياحيّة المتزايدة. كتب رحّالة آخر، شارل أوبريف Charles Auberive عندما زار بيروت في خمسينات القرن التاسع عشر: «أصبحت بيروت، بفضل السّفن البخاريّة، المدينة التي يقصدها المرء بحثاً عن ربيع دائم عند سفح لبنان، كما كانت مدينة نيس تُقصد قديماً وساحل المتوسّط...ليست الرّحلة شاقّة كثيراً: ثمانية أيام من الإبحار مع خدمة فائقة تثير الارتياح في النّفوس. كانت الرّحلة في القرن السابع عشر من باريس إلى بروفانس أصعب بكثير[3]». الواقع أنّ بيروت أخذت تفرض نفسها في تلك الحقبة بين أفواج السيّاح المتدفّقة كوجهة رائجة على المتوسّط. والمفارقة أنها ستزداد شهرة بعد الأحداث الدامية لفتنة 1860، وهنا المفارقة، عندما قرّب التدخّل العسكري الفرنسي حدود الشّرق ليصبح في متناول السائح الأوروبي المتوسط الثقافة والثروة.

وبدءاً من أربعينات القرن التاسع عشر، تضاعفت الشهادات التي أشارت إلى انطلاقة بيروت المذهلة، ولم تقتصر فقط على الانفعال الاستشراقي. كتب اليسوعي بلانشيه للامارتين عام 1842: «مع أنّ مدينة حلب أكثر عراقة من بيروت لكنها لا تجاريها في الأهميّة. بيروت هي أوّل أسكلة في سوريا، وسكانها في ازدياد مطّرد، المواصلات فيها مع اوروبا أسهل والحماية الأوروبيّة أكثر فعاليّة فيهاوالمعيشة أقلّ كلفة[4]». وبعد إحدى عشرة سنة من هذا التاريخ، كتب مرسل آخر الأب بدور Badour وكان الرئيس العام الجديد لليسوعيّين: «أصبحت بيروت إحدى المدن الرئيسة في هذا القسم من الشّرق[5]». وفي غضون ذلك، ورد في تقرير قنصلي صادر عام 1846 أنّ طرابلس فقدت، كغيرها من الأساكل في سوريا، أهميّتها مذ استأثرت بيروت بالتّجارة على الساحل كلّه[6]». وعام 1835، صوّرت صيدا، التي كانت مزدهرة قديماً، وكأن بيروت سحقتها[7].

أبعد من هذه المقارنات، هناك بالطّبع التطوّر الذي شهده المرفأ في ظلّ حكم ابراهيم باشا، عندما بدأت السفن البخاريّة الأولى تنقل البضائع والمسافرين والبريد، وإن استغرق التّغيير وقتاً لتظهر نتائجه للعيان. كانت هياكل الدّفعة الأولى من السفن البخاريّة خشبية وحمولتها محدودة لا تتجاوز الألف والخمسمئة طناً[8] وكان ذلك تطوّراً جديراً بالاعتبار لأنّه يسمح بالزّيادة التلقائيّة لحركة التبادل التّجاري. ففي زمن السّفن الشّراعيّة لم تكن شركات التأمين تغطي مخاطر البحر أثناء الرّحلات إلى بيروت إلاّ خلال مئة وثلاثين يوماً في العام (من أيار/ مايو حتى أيلول/ سبتمبر)، والسّبب عائد إلى الأخطار التي يشكلها الرسو في مرفأ مثل مرفأ بيروت المعتبر مفتوحاً باستمرار على حركة الرّسو والإقلاع[9]. لكن الثورة في عالم المواصلات البحريّة ستتجاوز كلّ حدود في أربعينات القرن التاسع

عشر مع السفن البخاريّة التي صنعت هياكلها من فولاذ، والتي عمّم استعمالها في خمسينات ذلك القرن[10]. بقيت السفن الشراعية تستخدم لبعض الوقت. يذكر أحد الآباء اليسوعيين، في رسالة تعود إلى العام 1850، سفينة شراعيّة على أهبة الانطلاق إلى الاسكندريّة[11]، ويتحدث قنصل فرنسا عن عشر سفن شراعيّة تحمّل الحرائر عام 1852، لكنّها السفن الشراعيّة الأخيرة التي تنقل هذه البضاعة حسب توضيحه[12].

وفيما يتعدّى التطوّر التكنولوجي، سمحت انطلاقة الرأسماليّة بتنظيم أفضل للمبادلات التجاريّة. وانتقلت حركة التبادل نفسها إلى المستوى الصّناعي مع إقامة خطوط منظّمة لها. والخطوط الأولى التي أمّنت المواصلات إلى المرافئ السوريّة في ثلاثينات وأربعينات القرن التاسع عشر كانت بريطانية، وما لبثت أن خلفتها الخطوط الفرنسيّة والنمساويّة. وفي منتصف القرن، سجّلت الخطوط البريطانيّة أرقاماً قياسيّة، إلى أن روّج أصحاب السّفن الفرنسيّة لـ«الشركة الامبراطوريّة للنقل»، التي صارت لاحقا «شركة النقل البحري» Messageries Maritimes. لكن المراكب التي ارتادت مرفأ بيروت لم تكن فقط تابعة للدول العظمى. فبالإضافة إلى الايطاليين، ورثة التقليد البحري المشرقي الأكثر عراقة، وإلى الإغريق الذين ألفوا منذ القدم الإبحار في الشّواطئ التركيّة، أمكنت أيضا ملاحظة الرايات البلجيكيّة والدانمركيّة والاسبانيّة والسويديّة والنروجيّة. وهناك أيضاً المراكب العثمانيّة والمصريّة التي رست أيضاً في مرفأ بيروت[13].

ولم يشكل رحيل المصريين قطيعة في تجارة مرفأ بيروت كما تشهد على ذلك الحركة التصاعديّة للتّجارة منذ العقد الثالث من القرن التاسع عشر. بل خلافاً لذلك، أدرك رجال الإصلاح العثماني الأهميّة المركزيّة التي اكتسبها المرفأ وبالتالي المدينة. وبعد انحسار النفوذ المصري، ترقت المدينة، اذا أمكننا القول، في إطار التنظيم الإداري العثماني الذي كان هو نفسه يعيد تشكله، ضمن روحيّة الدّفعة الأولى من الإصلاحات التي صدرت عام 1839. في عام 1842، حلّت بيروت مكان عكّا كمقرّ رسمي لولاية صيدا التي اتّسعت حدودها. لكن هذه التّرقية كانت موضع بحث عام 1864-1865 إبان تقسيم عثماني جديد لولاية سوريا الكبيرة المؤلفة من اتّحاد ولايتي دمشق وصيدا. وبالطّبع اختيرت دمشق عاصمة للولاية الجديدة، مع أنّ بعض وجهاء بيروت اعترضوا على الأمر - وهذا دليل على تململ أبناء بيروت الذين أثار حفيظتهم ما بلغته بيروت في اندفاعتها الاقتصاديّة. شكّلت بيروت، ضمن ولاية سوريا الكبيرة هذه، أحد السّناجق الخمسة مع عكا وطرابلس واللاذقية ونابلس. وجعلت بيروت مقراً لغرفة التجارة.

والتكريس العثماني لبيروت صدّقت عليه أيضاً الدول العظمى، فعملت على ترقية عدّة قنصليات. فإلى فرنسا وبريطانيا العظمى، كان لروسيا والنمسا قنصليات عامّة. وما لبثت أن حذت حذوها

بروسيا وسردينيا وتوسكانا واسبانيا ومملكة نابولي واليونان ومعظم دول البلدان المنخفضة في شمال غرب أوروبا[14].

الإنفجار السكاني

تزامن التطور الإداري في بيروت مع نمّو سكاني ملحوظ، بسبب الوافدين الجدد الذين أمدّوا المدينة بزيادة سكانية مذهلة. وكما رأينا آنفاً، ظلّ عدد السكان ضئيلاً حتى عشرينات القرن التاسع عشر متراوحاً إجمالاً بين 7000 و8000 نسمة مع تزايد أولي ملحوظ في الثلاثينات حيث بلغ عام 1840 خمسة عشر ألف نسمة، ووصل العدد في الخمسينات إلى 40000 نسمة. وكتب الأب اليسوعي بدور عام 1853 أن «عدد السكان بلغ ضعفه في السنوات العشر الأخيرة[15]». وأكثر من الأرقام نفسها التي ظلّت عند هذا المستوى متواضعة، ما يلفت الانتباه هو الزيادة بحد ذاتها، ومن الثابت بأن عدد السكان زاد بين عامي 1830 و1850 أربعة أضعاف.

وهذه الزيادة، كالأولى التي حصلت في العشرينات والثلاثينات وكتلك التي حصلت لاحقاً على



بداية الخروج من الأسوار. رسم مأخوذ عن أول صورة فوتوغرافية معروفة لبيروت التقطها غوبيل فيكيه عام 1840.

مدى القرن التاسع عشر لا تعود أسبابها إلى نسبة نموّ طبيعية في عدد السكان، حتى لو لاحظنا نسبة نمو عالية للسكان في سوريا وفي الجبل خصوصاً حيث تضافرت عوامل طبيعية وثقافية (النزوح باتجاه الجنوب) لتخلق تخمة سكانية. لكن هذه الظاهرة لم تعرف حركة منتظمة لان نسبة الوفيات لم تكن محصورة أو خاضعة لاحصاءات دقيقة في ذلك الحين، فالتجهيز الاستشفائي في سوريا بقي ضعيفاً لا بل معدماً، وتلك كانت حالة بيروت إلى إن انشيء المستشفى العسكري العثماني في 1846. وقد عانى الوضع الصحي من أزمة خطيرة في منتصف القرن. إبان انتشار الكوليرا، استلزم الامر إقدام تدخل القناصلة على إصدار الأوامر بتنظيف المزابل من رأس بيروت [16]. أما نظام الحجر الصحي فلم يعد بإمكانه تأمين الحماية المطلوبة ضد انتشار الأوبئة. بل خلافاً لذلك، بدا المحجر الصحي نفسه يمثل مشكلة صحية إضافية بعد عقدين من إنشائه. فالتوسع السكاني اقترب من الحجر لدرجة بات معها يهدد بتسميم المدينة بدلاً من حمايتها. علاوة على ذلك، ضاقت مساحته قياساً إلى حاجات السكان ولم يعد بإمكانه تلبيتها، فالمحجر بني أساساً ليتسع على الأكثر لبضع مئات من الأشخاص وليس لألفي شخص كما كان يحدث أحياناً. إعتبر المحجر موئلاً للطاعون، أو في أحسن الحالات، مأوى المحتضرين حيث يمكن للأشخاص الموجودين في حجراته أن يموتوا نتيجة الاهمال أو النقص في توفير الخدمات الصحية لهم[17]. استمرت أوبئة الكوليرا والطاعون تفتك بالناس وتدفع في كل مرة السكان إلى الهجرة من بيروت باتجاه الجبل الأنقى هواء[18].

إنّها ظاهرة الهجرة إلى الجبل، ولكن الهجرة من الجبل الى بيروت كانت أيضاً جديرة بالاعتبار ومستمرة. ومردّها إلى التضخم الديموغرافي بالطبع ولكنها كانت بالدرجة الأولى نتيجة للاضطرابات الطائفية التي أمضّت جبل لبنان منذ رحيل المصريين، طوال عشرين عاماً. وكانت بيروت بمنأى من هذه الاضطرابات والمكان الذي يشكل ملجأ للنازحين المسيحيين من الجبل وللمسيحيين الهاربين من سوريا الداخلية إثر الانتفاضة الوهابية عام 1830 أو تجنباً من مواجهة الخصومات الحادة في صفوف الطائفة الملكية التي إنقسمت على ذاتها بعد إنقسام الكنائس الشرقية. ووصل هذا النزوح الباحث عن الأمان إلى ذروته عام 1860 إثر المجازر الطائفية التي حصلت في الجبل وفي دمشق. لم تكن المدينة مهيأة بعد لاستيعاب هذه الموجات المتدفقة من اللاجئين، ما دفع بالكثير منهم إلى السكن في ظروف بائسة وبعضهم نزل على حدود الحجر الصحي فقضوا بسبب سوء التغذية وانتشار الأمراض المعدية[19]. ومع ذلك، لم تخفف نسبة الوفيات هذه من التزايد السكاني الناتج عن هجرة المسيحيين عام 1860. لكن تجدر الإشارة إلى إن بيروت لم تكن ملجأ فقط بل كان نجاحها الاقتصادي يشكل أيضاً عامل جذب لسكان الجبل وسوريا الداخلية بالإضافة إلى تجار من صيدا وطرابلس جاؤوا وسكنوا فيها.

ونتيجة هذا التزايد السكاني من جهة، والانطلاقة الاقتصادية والوضع الاداري الجديد للمدينة،



أحد الأزقة التي كانت تثير الحيرة في نفس هنرييت رينان (عن صورة سلبية تعود الى نهاية القرن التاسع عشر).

راح وجه بيروت يتغيّر تدريجاً. بالطبع، كانت لا تزال الأزقة القديمة الضيقة تثير الريبة في نفوس الذين يتجولون فيها لا سيما الأجانب أمثال بوجولا، وهنرييت رينان Henriette Renan التي هتفت قائلة في 1861: «أن يعرف المرء طريقه في بيروت يبدو لي أمراً مستحيلاً[20]» وبمعنى ما، زادت المشكلة تفاقماً لأن الهجرة والحركة الاقتصادية الجديدة جعلت المدينة القديمة المزدحمة أصلاً تغصّ بسكانها وباتت البيوت ذات الطبقتين غير قادرة على استيعاب المزيد من الوافدين. تقلّصت رقعة الحدائق والمساحات الخضراء ورسخ الانطباع في أذهان الناس بأن المدينة المكتظة ضاقت بسكانها ولا سيما في القطاع الجنوبي حيث يتركز النشاط الاقتصادي.

إلاّ إن بيروت لا يمكن إختزالها إلى صورة الازدحام هذه.. كانت المساحة الواسعة للمناطق السكنية المتزايدة خارج أسوارها تضفي عليها وجهاً جديداً. وأضحت بيروت المربعة أمراً وهمياً. صحيح إن السور كان لا يزال موجوداً لكنه لم يعد بإمكانه إحتواء المدينة التي اتسعت وفتحت ثغرة فيه. ثم إن قصف الاسطول الانكليزي في سبتمبر/ أيلول جعل السور في حالة سيئة وأضر بأبراج المرفأ ودمّر الجسر الذي يصل البحر باليابسة[21]. ولم تُعد المدينة بناء هذه الدفاعات القديمة لأنها فقدت كل منفعة تذكر. والأمر الأشدّ تعبيراً هو أن حصناً قديماً كان يشكل جزءاً من الأسوار على مسافة قريبة من المرفأ، حُوّل، لأمر أكثر إنسجاماً مع الاتجاه السلمي للمدينة، إلى مسجد دُعي بمسجد المجيدية، على اسم السلطان الحاكم عبد المجيد[22]. لا بل أكثر من ذلك، أقيمت فتحات جديدة في السور: فتح بابان: باب «أبو النصر» في الطرف الجنوبي-الغربي وباب إدريس في السور الغربي، على اسم عائلة ادريس.

ظهرت آثار الانفجار السكاني الأول واضحة ميدانياً منذ نهاية الأربعينات من القرن التاسع عشر،

وتشهد على ذلك كتابات رحّالة عديدين. وقد عمد القناصلة إلى التمايز عن أبناء المدينة بإنشاء قصور لهم فوق تلة القنطاري بالقرب من زقاق البلاط، الطريق التي رصفها محمود نامي بك، وخاصة في السنطية القريبة من الساحل وهي منطقة المدافن القديمة، فأصبحت حي القناصلة، وحذا السكان الميسورون حذو القناصلة، وهم من الوجهاء والتجار في آن، مسلمين ومسيحيين، فضلوا الخروج من المدينة القديمة المزدحمة. وعلى الجهة الشرقية من السور، شرقي ساحة البرج أنشئ أول مركز لليسوعيين والبعثة الرسولية[23]، ثم أنشئت مدرسة الأقمار الثلاثة للروم الأرثوذكس، مما شجّع عدداً من العائلات المسيحية للإقامة هناك. وقامت مساكن ضخمة على مسافة أبعد من حي القيراط جنوب السور بالقرب من الجامعة اليسوعية الحالية - وخصوصاً إلى الشمال على صخرة المدور[24] حيث اختارت البورجوازية المسيحية الجديدة مقراً لها. وبدأت تعمر الضواحي الأكثر بعداً التي سكنها النازحون. وبطريقة أعم، انضم كل الريف القائم حول بيروت القديمة إلى النسيج المديني. كما دفع تعزيز جهاز الأمن السكان في أواسط القرن التاسع عشر للإقامة الدائمة خلف الأسوار. وفي عام 1845، امكن إحصاء 345 بيتاً خارج المدينة واتفقت المصادر في العام 1850 على القول إن الريف شهد ازدحاماً شديداً[25].

انبسطت المدينة أفقياً وتنوعت تشكيلتها. أخذت المدينة القديمة نفسها تتغير تدريجاً، دون أن تتراجع كثافة السكان فيها. كانت البيوت، سواء تلك التي باعها الوجهاء لينتقلوا للسكن خارج الأسوار أم تلك التي احتفظوا بها، متمركزة حول باحة داخلية غير مسقوفة، تغير شكلها هي أيضاً ووظيفتها. جرى تحويلها إلى مكاتب لرجال الأعمال أو إلى أبنية صالحة للإيجار،أوجرى توسيع مساحتها والحاقها بطوابق جديدة لتصير جاهزة للسكن الجماعي. كانت هنالك طوابق تشغلها عدة عائلات من أصول متواضعة (مكوّنة من غرفة أو غرفتين)، فيما كان الطابق الأرضي مخصصاً للتجارة أو محولاً إلى مستودع. وخارج الجدران، ظهرت مبانٍ جديدة كاملة التجهيز عام 1853، ثمّ أمر الحاكم سليم باشا بإنشاء ثكنة كبيرة على تلة القنطاري فساعدت على تحسين الوضع الأمني خارج السور، مع أن الثكنات موجودة سابقاً داخل المدينة وخارجها. وانضم إلى هذه القشلة على التلة نفسها المستشفى العسكري عام 1861 .

إن تطور النشاط المرفئي وتدفق الأجانب شجعا على إنشاء مؤسسات تابعة للقطاع الخاص. لم تعد النُزُل القديمة قادرة على استيعاب المسافرين وأول فندق بني على المرفأ كان فندق أوروبا. شيّده رجل إيطالي يدعى باتيستا Battista عام 1849 واستقبل وفوداً كثيرة من السياح أشهرهم فلوبير Flaubert وماكسيم دو كان اللذان نزلا فيه عام 1850[26]. ولاحقاً، انتشرت الفنادق الايطالية غربي السور، على طول الساحل أو في الحدائق، وظلت هذه الحركة باتجاه ميناء الحصن ناشطة حتى القرن



من الفنادق الأولى على الواجهة البحرية في ميناء الحصن.

العشرين وأنشيء ما سيصير لاحقاً حي الفنادق الكبرى.

وكان أحد معالم هذا التوسع غربا إنشاء خان انطون بك، على اسم متعهده. أقيم خان القوافل هذا، وهو أكبر خانات المدينة، مباشرة على الرصيف وكان يؤوي غالبية القناصل الأجانب مؤمنا خدماتهم البريدية، كمثل الخانات الأخرى. لكنه كان أكثر من خان عادي للقوافل. لا بل قل مركزا كبيرا للأعمال. وعندما قرر المصرف الامبراطوري العثماني الذي أسس عام 1856، أن يفتح فرعا له في بيروت، اختار أن يتخذ مقرا له هناك. وبهذا المعنى، كان خان انطون بك يمثل مرحلة انتقالية بين اقتصاد الخانات الذي ميّز مرحلة الأساكل وبين المدينة العصرية التي جعلتها طريق بيروت-دمشق، وهي الانجاز الأهم في القرن التاسع عشر بعد المرفأ، تعزّز من دورها الريادي.

منعطف الطريق

إذا كان مجيء ابراهيم باشا يشكل أول منعطف لبيروت، فإن المنعطف الثاني تحدّد، بشكل لا جدال فيه، في بداية الستينات من القرن التاسع عشر عندما افتتحت تدريجا شبكة طرق للمركبات تؤمن المواصلات داخل البلاد عبر جبل لبنان ثم البقاع والسلسلة الشرقية. وترامن ذلك مع الحرب في الجبل واتساع رقعتها باتجاه دمشق. وللحال، سهّل هذا الشريان الجديد للاقتصاد، والذي ترسخت



أول مبنى للمصرف الامبراطوري العثماني، على أرصفة الميناء.

من خلاله مكانة بيروت، حركة الهجرة التي ستزيد عدد سكانه بطريقة دراماتيكية. عندما كانت بيروت في ظل الحكم المصري، أعدت خطة لمشروع طريق عسكرية تصل بيروت بدمشق. لكن، لم تدعُ الحاجة فعلاً لانشاء طريق جديدة تصل الساحل بدمشق إلاّ بعد الانطلاقة المذهلة للمبادلات التجارية. وكان متعهدها على أية حال مندوب الشركة الامبراطورية للنقل البحري الكونت ادمون دو برتوي Edmond de Perthuis، وهو ضابط قديم في البحرية الاورليانية أقام في سوريا بعد ثورة 1848. حتى ذلك الحين، كان نقل البضائع يتم على ظهور البهائم عبر مسالك وعرة للغاية محفوفة بالأخطار ويستغرق عبورها يومين وليلة على الأقل، هذا إذا كان المسافر مجهزا كما يجب، أما عندما تكون القافلة بطيئة، فتستغرق الرحلة ثلاثة أو أربعة أيام. وجد دو برتوي نفسه بين خيارين لا ثالث لهما. إما إنشاء خط مباشر بين بيروت ودمشق وهذا صعب شقه بسبب إرتفاع الحاجز الجبلي الذي يصل أحياناً إلى 1500 متر. زد على أنها محفوفة بالأخطار بسبب قطاع الطرق الذين يجدون في تلك الحصون الجبلية ملجأ لهم، أو اختيار طريق أطول ولكن أكثر أماناً عبر صيدا. لكن هذه الطريق الجديدة قد تسدد ضربة كبيرة للإقتصاد الصاعد لبيروت لأنها تعيد إحياء مرفأ صيدا. وإذ خشي المتعهدون المحليون خسارة كل مكتسباتهم خلال ربع قرن، عملوا على تشجيع سلوك الطريق المباشر إلى دمشق. وكان النجاح حليفهم[27] ففي عام 1857، أعطى الباب العالي رخصة بإنشاء طريق تسلكها المركبات،

إلى الكونت دوبرتوي، فأنشا في السنة التالية شركة حقوق عثمانية Société de droit، وأقام لها مكتباً في باريس وآخر في بيروت. كانت الشركة تضم بين مالكي الأسهم فيها شركة سكك الحديد باريس – اورليان، وشركة سكك الحديد باريس – ليون – المتوسط التابعة لبنك الاعتماد الليوني، وقد جندت للمشروع ثلاثة ملايين فرنك موزّعة ثلاثة آلاف سهم، وكل سهم بقيمة 500 فرنك[28].

بوشر العمل في يناير/ كانون الثاني 1859، خلال إحتفال مهيب أطلقت فيه المدافع وترأسه الوالي خورشيد باشا بحضور القناصلة الأجانب وخلال أقل من سنة، أنجز قسم من الطريق بين المدينة وغابة الصنوبر. لكن توقفت الأعمال بسبب الحرب الأهلية في الجبل. في غضون ذلك ، فُتحت الأقسام الجاهزة من الطريق أمام المسافرين ونقل البضائع – مسهّلة دون شك هجرة السكان في المناطق المتاخمة. وأخيراً، في الأول من كانون الثاني / يناير عام 1863، أي بعد أربع سنوات تقريباً من بدء العمل من دون انقطاع، وصلت أول قافلة للبضائع إلى دمشق، وعما قريب باتت الطريق مفتوحة أمام العابرين.

ومنذ ذلك الحين، أخذت رحلة المئة واثني عشر كيلومتراً تستغرق بين اثنتي عشرة وخمس عشرة ساعة وفقاً لنوعية القوافل وثلاث عشرة ساعة في عربة جياد المسافرين أو ما يسمى دليجنس[29]. ولتأمين النقليات، إستخدمت الشركة 348 حصاناً وبغلاً و14 عربة خيل للمسافرين Omnibus، ودليجنس واحدة أضيفت إليها أخرى لاحقاً. وكانت هناك عشر محطات تؤمن خدمة يومية سريعة لعربات الخيل التي تضاعف عددها باطّراد منذ افتتاح الطريق. وفي كل يوم، إلاّ في موسم الثلج، كانت عربة جياد تنطلق من بيروت وأخرى من دمشق.

وكما غيرت السفن التجارية نمط الحياة في أوروبا، كان خط بيروت – دمشق أول تدبير يغير حياة سكان البلاد لا بل وأكثر. إن نجاح الطريق، وخاصة رواج عربة جياد المسافرين، كان كبيراً بحيث أن الأمكنة كانت تحجز مسبقاً في مواسم الصيف. ولم تكن كلفة النقل، مع إنها مرتفعة، تشكل حاجزاً أمام المسافرين الذين كانت الشركة تنقلهم سنوياً ويبلغ عددهم أحد عشر ألف مسافر أما تحميل البضائع فقد انتقل سريعاً من أربعة آلاف طن في السنة إلى أكثر من 21000 طن. لكن الشركة تأخرت في تحقيق الأرباح نظراً للمشاكل التقنية والسياسية التي اعترضتها وللصعوبات الطارئة في بداية التنفيذ جراء السرقة والطوفان. وبالرغم من حسن إدارتها ونوعية خدماتها، استوجب الأمر عشر سنوات تقريباً بعد إنتهاء الأعمال لكي تعيد تحصيل ما أنفقته في مشروعها. ولكن في عام 1872، اخذت الشركة تدر أرباحاً توازي 42 فرنكاً للسهم الواحد ما لبثت أن وصلت إلى 80 فرنكاً بعد عشر سنوات[30].

وكانت المنافع التي نتجت عن إنشاء طريق بيروت – دمشق لا تحصى إذ عادت بالخير على المدينتين

وعلى كل المنطقة الواقعة بينها[31]. أصبحت دمشق على مسافة يوم تقريباً وأقل من مرفأ بيروت وباتت تجارتها وثيقة الصلة بالتجارة العالمية الكبرى، ومن خلال هذا المحور الكولونيالي الذي لم يعلن اسمه بعد سيتكرس نفوذها على حلب باطراد. وأفادت زحلة، الواقعة على منتصف الطريق بين بيروت ودمشق وبدأت تنشط أعمال استصلاح الأراضي فتحولت الأراضي الخصبة في نجود البقاع المجاورة إلى منطقة استثمار زراعية. أما القرى التي تزين الطريق على الخاصرة الغربية للجبل، فبدأت هي تحولها وخصوصاً عاليه وصوفر اللتين أصبحتا مركزي اصطياف يؤمهما البورجوازيون الجدد من بيروت ومن مناطق أبعد منها. وهكذا أصبحت بيروت بفضل هذه الطريق، بوابة سوريا الرئيسية.

ثمة مفارقة تحيط بهذه اللحظة التاريخية: شهدت بيروت فترة صعودها وأضحت مركزاً إقتصادياً في الوقت الذي لم تعد فيه عاصمة الولاية، لأن مدينة صيدا أُلحقت عام 1864 بولاية سوريا الكبرى. وحين عمدت السلطة إلى تأسيس سنجق مستقل للقدس في عام 1872 كان مناسبة استغلها الوجهاء البيروتيون ليطالبوا بوضع مماثل لمدينتهم، ما أثار حفيظة الباب العالي، لكنه عاد فوافق على المطلب. والسبب انه عاد أيضاً في عام 1888 عن القرار الذي اتخذه بإنشاء ولاية سوريا الكبرى حتى لا يشجع السكان على رفع الشعارات العروبية كما حصل عام 1880–1881 حين ألصقت إعلانات تنادي برفع راية العروبة على جدران دمشق وبيروت. فما كان من السلطة الحميدية إلا أن أنشأت ولاية جديدة حملت بيروت اسمها واسم عاصمتها[32].

وفي الوقت الذي عمدت فيه السلطات العثمانية إلى تنظيم المدينة الذي بقي عشوائياً حتى ذلك الحين ووضع خطط جديدة لبلوغ هذا الهدف، تضاعفت التدابير التي اتخذت لتستجيب لحاجات المرفأ الذي بلغ في ذلك الحين ذروة نشاطه. لكن الانشاءات المرفئية ظلت قديمة العهد وتأخرت مرحلة تعصرُنها.

المرفأ الجديد

جرى التخطيط لبناء مرفأ جديد منذ العام 1860، لكن المشروع تأخر في التنفيذ. عندئذ أعدّت دراسة أولية قام بها ضابط في البحرية في الحملة الفرنسية ويدعى غيبرات Guépratte[33]. وعندما رأى الكونت دو برتوي نجاح مشروع طريق بيروت – دمشق راح يقنع شركة النقل الإمبراطورية لتبنّي هذا المشروع الجديد. وفي عام 1863، ارسل المهندس ستوكلين Stoecklin على عجل إلى بيروت لدراسة مشروع غيبرات. وبما إن التقرير الذي قام به عن المشروع كان مشجعاً فقد وافقت شركة النقل عليه ورفعته إلى اسطنبول فوافقت عليه مبدئياً لكنها ماطلت في عملية التنفيذ، إذ فضل الباب العالي أن يتولى بنفسه المسؤولية المترتبة عن المشروع بدلاً من إعطاء الرخصة المطلوبة لفرنسا. رأى الباب العالي

أنه، إذا عهد لشركة أجنبية الاهتمام بمرفأ بيروت في وقت أصبحت فيه الدول العظمى هي الضامنة لاستقلال جبل لبنان، فهذا يشكل تأكيداً على تبعية الامبراطورية العثمانية لها.

لكن الأمور المطروحة ملحة ويجب الاستجابة لها. وللقيام بذلك رُدم المكان أمام الجمرك القديم وكان المصريون خططوا مسبقاً لتوسيعه. أنشىء مبنى جديد للجمرك وأيضاً محكمة تجارية واهراءات أكثر ضخامة وجرى توسيع القسم المتعلق بالخدمات الصحية، وأقيم فوق الرصيف الجديد سرادق يحتمي به المسافرون الذين هم على أهبة الاقلاع. وأنشىء حوض لملاحة السواحل. وبموازاة ذلك، بنيت منارة على أعلى رأس بيروت إلى الجهة الشمالية - الغربية من المطل[34]. وجرى التخطيط فيما بعد لردم مسافة أكبر من البحر لتوسيع رقعة المرفأ، ولكن المشروع لم ينفذ[35]. هكذا، وبالرغم من هذه التغييرات الكبيرة التي شهدها المرفأ، بقي غير مؤهل للتكيف مع حجم حركة النقل البحري التي ازدادت بسرعة مذهلة: من أقل من خمسين ألف طن في ثلاثينات القرن التاسع عشر إلى أكثر من ستمائة ألف طن عام 1886[36]. لكن، لم تكن السفن قادرة على إفراغ حمولاتها على الرصيف، مما أدّى مرات عدة إلى سقوط الحمولة وبعض العمليات المعقدة في مجال المسافنة.

وعاد مشروع بناء المرفأ الجديد ليطرح على جدول البحث عام 1879، عندما تدخل وجهاء المدينة لدى الباب العالي ليطلبوا منه الترخيص للبلدية وإطلاق يدها في إجراء ما تراه مناسباً[37]. لكن المسعى لم يتكلل بالنجاح. إلاّ إن المساومات كانت تستأنف وراء الكواليس بين المستثمرين الفرنسيين والباب العالي. وأخيراً، في العام 1888، أنشئت جمعية ساهمت فيها شركة بيروت- دمشق والبنك العثماني ومكتب إعتماد الحسومات في باريس وبنك باريس والبلدان المنخفضة وشركة النقل البحري. وبعد فترة، علم أن رجل أعمال من بعلبك يدعى يوسف مطران نال الرخصة بإنشاء المرفأ بعد نيله سابقاً رخصة بإنشاء سكة الحديد بين دمشق وحوران. كان مطران في الواقع شخصاً سمساراً للتمويه، ويبدو أن «الانقلاب المفاجىء» في الموقف، وفقاً لعبارة وصف فيها مكسيم دو دوما Maxime de Dumast أحد الفرنسيين المشاركين في المفاوضات، قد حُضّر له بدقة. باع مطران الرخصة للشركة الفرنسية في الحال[38] فأصبحت الشركة في 20 حزيران/ يونيو 1888 مكان الشركة الامبراطورية العثمانية لمرفأ بيروت وأرصفته ومستودعاته*. واتخذت الشركة مقراً لها في باريس وعينت ممثلاً لها في بيروت، وبلغ رأسمالها خمسة ملايين فرنك جمّعتها من شركائها وبعض المتعهدين المحليين. كان الكونت دو برتوي الأب الروحي للمشروع وأول رئيس له فيما ترأس سليم ملحمة، وهو وجيه ماروني من بيروت ووزير لدى عبد الحميد، مجلس الإدارة. وبالاضافة إلى رخصة استثمار المرفأ، نالت

* احتفظت الشركة بقانونها واسمها حتى اليوم الذي أصبحت فيه فرنسية بشكل مباشر في ظل الانتداب ومن ثم لبنانية.



تدشين المحطة البحرية عام 1903.

الشركة في أيار/ مايو 1890 رخصة إدارة الجمارك في المرفأ وبالطبع كانت مصلحة ادارة الدين العثماني هي المستفيد الأول من ذلك.

رسم التصاميم الجديدة عام 1889، التي استلهمت تقريبا من مشروع غيرات، مهندس يدعى هنري غاريتا Henri Garetta وهو صهر ستوكلين. وبدأت الأعمال بلا تأخير في أيار من السنة نفسها. لكن الأعمال واجهت ظروفا مناخية معاكسة (كان الشتاء قاسيا لسنتين على التوالي) وحال دونها أحد الأوبئة الخطيرة ولم تنجز إلاّ في تشرين الأول/ اكتوبر.

وفي العام 1893، شهد مرفأ بيروت نشاطا مؤقتا. كان المرفأ القديم يبلغ طوله مئة وخمسين مترا وعرضه مئة متر وعمقه متران. أما المرفأ الجديد الذي جرى توسيعه أكثر فأكثر من ناحية الشرق فكانت طاقته على الاستيعاب كبيرة بفضل رصيفه الموازي للشاطئ الذي يبلغ طوله 800 مترا. وكان محمياً بسدّ يبلغ ارتفاعه 350 متراً ويسمح برسوّ السفن على عمق مترين إلى ستة أمتار. وتكملة للتجهيزات، أنشئت منطقة مستودعات مساحتها أحد وعشرون هكتارا وعدة مبان شيّدت على الأراضي المردومة عند البحر والمعدّة للخدمات الصحية والشرطة البحرية والجمرك[39]، وجهّز مبنى الجمارك بمستودعات فسيحة صمّم هيكلها المعدني المهندس إيفل[40]. لم تعد القوارب ا لقديمة التي نصبت فوقها خيم درءاً للشمس تقل المسافرين الى رصيف المرفأ بل بات يتم انزالهم على طوفيات[41].

تسبّب المرفأ الجديد في تغيير معالم الأمكنة المعهودة، بحيث جرى ردم المرفأ القديم ودكّ الأبراج والقلعة. أصبحت الاهراءات التي تضم مستوعبات الحبوب كمستودع القمح والخشب، موجودة داخل حوض المرفأ، وأضحى الرصيف القديم شارعاً أعطي اسم المارسيليز، وفقد خان أنطون بك رصيفه الخاص به وأصبح شارع الرصيف. وجُهز المرفأ الجديد لاحقاً عام 1903 بمحطة بحرية عملت الشركة على بنائها وصارت المحطة النهائية لسكة الحديد بيروت - دمشق وأيضاً لحافلات الترامواي اللبنانية التي كانت تؤمن منذ العام 1893، المواصلات على الساحل الشمالي حتى المعاملتين، نقطة إلتقاء ولايتي صيدا وبيروت السابقتين[42].

وفي بيروت، تزامن بناء سكة الحديد مع بناء المرفأ الجديد. أنشئت سكة حديد مضرّسة لاجتياز طريق بيروت - دمشق[43]». في الثمانينات من القرن التاسع عشر لم تعد طريق دو برتوي تكفي ولم يعد بإمكان المحطات أن تستوعب فوق طاقتها من المسافرين. صحيح أن الشركة عززت حظائرها، لكنها لا تستطيع تأمين الملجأ والمأوى لأكثر من ألف بهيمة. وبالاضافة إلى ذلك، كانت تفضل أن ترجئ تطوير تجهيزاتها بسبب رفض الحكم العثماني إعطاءها ضمانة بتمديد الرخصة. لذا، قررت أن تحول الطريق إلى سكة حديدية. ثمة سبب آخر لامتناع السلطة عن تطوير الطريق البري هو المشروع البريطاني الذي كان يجري درسه ويقضي بإنشاء سكة حديد تربط دمشق بحيفا. إلاّ أن الإحتمال بأن تنقلب حركة النقل المرفئية في بيروت لمصلحة مرفأ الجليل، أقلق المتعهدين الفرنسيين وكذلك رجال الأعمال المحليين، لا سيما أن المرفأ الجديد لبيروت كان هو نفسه قيد الإنشاء. من هنا اتخذ التفاوض بشأن نيل الرخصة لسكة الحديد شكل السباق مع عقارب الساعة. وانتهى السباق لصالح بيروت. بعد فشل مشروع سكة حديدية تمر بطرابلس- حلب - حمص ثم يصل بيروت بدمشق ملتفاً حول الجبل[44]، أنشأت شركة بيروت - دمشق الشركة العثمانية لسكة الحديد السريعة من بيروت إلى دمشق في مطلع عام 1891، ووضعت خطط التنفيذ المتعلقة بالمشروع قيد الدرس. وتلقى المهندسون إشارة الضوء الأخضر بالعمل على رسم التصاميم وتنفيذالمشروع بأقصى سرعة للحؤول دون تحويل حركة النقل بإتجاه حيفا. وفي حزيران/ يونيو من السنة نفسها، نال حسن بيهم، وهو أحد الوجهاء المسلمين في بيروت وكان أيضاً سمساراً، رخصة لبناء سكة الحديد على الطريق التي اقترحتها شركة سكة الحديد السريعة . إنضمت هذه الشركة إلى شركة الترامواي في دمشق والسكك الحديدية السريعة في سوريا التي نالت، عن طريق يوسف مطران الذي سبق وأن تولى الوساطة في مسألة مرفأ بيروت، رخصة تصل دمشق بمزيريب في حوران. وحملت الشركة الجديدة التي تأسست برساميل فرنسية وبلجيكية اسم «شركة خطوط الحديد العثمانية السريعة» لبيروت - دمشق- حوران في سوريا. بعد أن جرى التحويل السريع لرخصة بيهم، بوشر بالعمل، وفي عام 1895، أي في السنة التي انجز فيها المرفأ،

دشّنت طريق بيروت -دمشق. وللحال توقف العمل على خط حيفا - دمشق عام 1898، الذي كان بوشر به عام 1892، بعدما انجزت من السكك ثمانية كيلومترات[45]. ولم يستأنف العمل في المشروع إلاّ في ظلّ الانتداب البريطاني.

لم يكن اجتياز المئة وأربعين كيلومتراً من خطوط سكك الحديد يتطلب سوى تسع ساعات ومن ضمنها ثلاثة وثلاثون كيلومتراً مؤهلة بسكك مضرّسة تسمح باجتياز جبل لبنان على إرتفاع قدره 1486 متراً ثم سلسلة جبال لبنان الشرقية[46]. وهكذا باتت بيروت، بالتوقيت الفعلي، أقرب لدمشق من حيفا أوطرابلس، وبذلك ضمنت تفوقها بشكل دائم، إلاّ أن شركة سكك الحديد لم تحقق نجاحاً على الصعيد المالي كما حققته الطريق البري. وحتى الحرب العالمية الأولى، كانت لا تزال تعاني من الخسارة، ووجب الانتظار حتى العام 1920 لكي تضطلع سكة الحديد بدورها في إقتصاد بيروت[47].

بيروت همزة الوصل البحرية والبرية والحديدية، لا يمكنها إلاّ أن تكون على موعد مع احتلال الجو. بعد مرور أربع سنوات على المأثرة التي قام بها بليريو Blériot في عالم الطيران، كان جول فيدرين Jules Védrines أول طيار يحط في بيروت عام 1913 ويصل المدينة لأول مرة بعالم الأجواء. وبعد سنتين، حطّ طيّاران عثمانيان بدورهما في طيارتهما الصغيرة. ولكن حركة النقل الجوي، هنا كما في الأمكنة الأخرى،انتظرت عقوداً من الزمن لكي تفرض نفسها على حركة انتقال الركاب والبضائع.

وبانتظار ذلك، سمحت التجهيزات الجديدة لبيروت بأن تستوعب تطور حركة النقل المرفئية سنة بعد سنة، وبلغت حركة النقل ذروتها بين 1891 و 1892، حتى قبل إنجاز المرفأ الجديد، ثم شهدت تراجعاً عام 1895 بسبب النقص في انتاج الحرير والمجازر الأرمنية والإفلاسات المتتابعة الناتجة عن المضاربة على الذهب في ترانسفال. ثمّ عاد المرفأ، وقد ازداد نموه، يحتل الصدارة في استقبال الواردات وشحن الصادرات حتى عام 1913[48]. ووحدها سنوات الحرب أعاقت حركته: الحرب اليونانية- العثمانية عام 1897 والحرب الايطالية - العثمانية التي تخللها قصف لمدينة بيروت عام 1812، وحرب البلقان في عام 1813. وعندما اشتعلت الحرب العالمية الأولى، كانت هناك تسع شركات تؤمن المواصلات على الساحل السوري على فترات منتظمة (أسبوع في كل شهر)، واخرى تعمل وفق ايقاع غير منتظم. المهم أن بيروت استقبلت من المراكب أكثر من أي مرفأ آخر على الساحل السوري[49].

الارتباط بالتجارة الاوروبية

وأكثر ما ميّز بيروت في قمة انطلاقتها، ليس الحجم الذي بلغته حركة النقل فيها بل وخصوصاً ارتباطها بالتجارة الاوروبية. صحيح أن المدينة عززت صلاتها التجارية الوثيقة أصلاً مع المناطق

الداخلية ولا سيما طرابلس التي لعبت دوراً كبيراً في هذا الميدان بالإضافة إلى حلب، لكن الشحنات التجارية الآتية عبر المتوسط فرضت منطقها بالذات متحكمة بحركة التطور الاقتصادي في المنطقة كلها. وإذا كانت بيروت المرفأ الأكثر نشاطاً مع أوروبا والأقل إرتباطاً بمصر وتركيا، فإن هذا التوجه اتخذ أهمية أكبر، لان مصر وتركيا لم تسعيا إلى تطوير علاقتهما التجارية مع سوريا. وفيما كانتا تستأثران في الثلاثينات من القرن التاسع عشر، بنصف تجارة سوريا، فقد بلغت حصتاهما في عام 1910، فقط الثلث، أما الثلثان الآخران فاستأثرت بهما أوروبا عبر مرفأ بيروت.

إن بنية هذه المبادلات عبر المتوسط كانت حاسمة بالنسبة لنمو بيروت وتحديد الأدوار التي لعبتها الأطراف المحرّكة التي واكبت نموها. وكان هناك محركان أساسيان وهما بالطبع فرنسا وبريطانيا العظمى. كانت الأولى تحظى بالقسم الأكبر من الصادرات السورية، 25% في عام 1833 و 32% في عام 1910، فيما كان مقدار وارداتها، المنخفض أصلاً يتضاءل تدريجياً، فمن 15.9% عام 1833، تراجع إلى 9.3% في عام 1910. وكانت بريطانيا تستورد القسم الأكبر من المنتوجات السورية التي حافظت على نسبتها المرتفعة أصلاً منذ بدء الثورة الصناعية. ولم تتدنَّ عن نسبة الثلث في جميع الأحوال من 31.9% عام 1833 إلى 35.3% عام 1910، بالمقابل لم ترتفع نسبة الصادرات البريطانية مع سوريا قياساً لتلك الواردات. لم يكن الانكليز مهتمين بتجارة الحرير التي حلّت في المرتبة الأولى في الصادرات السورية فيما الفرنسيون اشتروه بكميات عالية لتنشيط صناعة الحرير في ليون[50].

ومع أن صادرات الحرير في مجموع الامبراطورية العثمانية تضاعفت أربع مرات خلال عشرين سنة بحيث ارتفعت من 309000 كلغ في عام 1855 إلى 1265000 كلغ عام 1875[51]، إلاّ أن حركة الواردات في بيروت كانت أسرع من الصادرات. ففي خلال 70 سنة ازدادت الواردات بنسبة 270%، بحيث إرتفعت من 19 مليون فرنك في عام 1841 إلى 54 مليون فرنك في عام 1910، فيما لم تسجّل الصادرات زيادة الا بنسبة 16% بحيث ارتفعت في الفترة نفسها من 15 مليون إلى 21 مليون. وكانت بيروت، في الحالتين، تضطلع بمكانة أساسية. في عام 1910، استأثرت بثلث الواردات السورية وبربع صادراتها ونظراً للأهمية التي ارتدتها بيروت على صعيد الاستيراد، فقد بلغت حصتها في حركة النقل البحري بمرفأ بيروت قدراً فاق مجمل المرافئ السورية 43.45 % مقابل 35.30 %[52]. وكان مرفأها، وهو الأساسي في سوريا، ولكن ليس الوحيد يستأثر بحصة الأسد في المنافسة الدائرة بينه وبين سائر المرافئ من دون أن يلغي أحدهما دور الآخر. استمرت صيدا وطرابلس تستقبلان البضائع ورسّخت حيفا تجارتها. وهذا يثبت، أكثر من أي شيء آخر أن انطلاقة بيروت تندرج في السياق الأوسع لنهضة الساحل الذي احيت التجارة الاوروبية ديناميته، حتى لو كان تجارها يستفيدون من الوضع أكثر من غيرهم.

وإذا كانت حصة بيروت في الصادرات أقل منها في الورادات، فهذا لم يمنع أن تتميز المدينة بمنتوج كانت تصدّره ووسم تطورها بطابعه. كانت بيروت تهيمن على تجارة الحرير، وكذلك جبل لبنان، وكان الحرير يأتي في المرتبة الثانية ضمن حركة التبادل التجاري المرفئية في بيروت بعد الذهب والفضة. لكن ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر راجت تجارة الحرير لتبلغ أوجها مع نهاية القرن. في عام 1853، أصبح الحرير يتصدر المرتبة الأولى في الصادرات ويحتل ربع الحجم العام في سنة 1856. في تلك المرحلة راجت أيضاً تربية دود القز بشكل لا مثيل له حتى بلغت 65% من انتاج جبل لبنان و45% من مجمل سوريا (62% حسب إحصاء آخر) وهكذا بدأ هذا المنتوج، الذي تهافتت دول أوروبا على شرائه يحتل المرتبة الاولى في الانتاج المحلي ونشطت حركة تصديره، فكانت بيروت القناة المتميزة لذلك، لان 80 إلى 90% من الحرائر كانت تصدّر عبر مرفئها. واتجهت النسبة الأكبر من هذه الصادرات إلى فرنسا 40% عام 1873 و90% عام 1990[53].

ولكن الأثر الذي أحدثته تربية دود القز لم يكن يقتصر على حركة الصادرات. فصناعة الحرير انتشرت في سوريا، وتحكمت في توجيه الاقتصاد في جبل لبنان كله، فغصّت المساحات بدءاً من أواسط القرن، بأشجار التوت لتربية دودة القزّ[54]. وبما أن الرساميل الأجنبية باتت تشرف عليها أكثر فأكثر، اقتضى الأمر والحالة هذه إيجاد بنى إقتصادية حديثة لا تستطيع تقديمها إلا المدينة. وكانت بيروت المدينة المثلى، بمرفئها الحديث ونفوذها الاقتصادي، المهيأة لتصير عاصمة هذا الاقتصاد. كانت محكمتها التجارية، مكاناً صالحا لحسم النزاعات وساحة يمارس فيها السماسرة عملهم على أكمل وجه. وفي هذه المحكمة بالذات احتشد رجال المال والأعمال الممولون لهذه التجارة. وبالإضافة إلى البنك الإمبراطوري العثماني، الذي صار لاحقاً البنك العثماني وهيئة إدارة الدين، تأسست عدة بيوتات هدفها ممارسة نشاطات مصرفية مرتبطة بالحرير كـ«الفوف غيران إي فيس» Veuve Guérin et fils، وهو فرع لصانع الانسجة الليوني العامل في الجبل وبسّول وفرعون وحبيب صباغ وج. طراد وشركاؤه، وجميعها بيوت تطورت باتجاه إنشاء مؤسسات مصرفية أكثر تعقيداً بالاشتراك مع بنوك فرنسية كبيرة.

لكن النشاطات الوسيطية المصرفية بين التمويل الليوني والأنسجة المحلية اجتاحت البيوت اللبنانية العاملة في بيروت أكثر من البيوت البيروتية بالذات. ويجب أن نوضح بعض الأمور على هذا المستوى: صحيح أن الاقتصاد اللبناني أي اقتصاد الجبل ساهم في تطوّر بيروت ولكن لم يختزله. لا بل إن الأمر أبعد من هذا، فنشاطات البيروتيين التجارية تندرج في مساحة أوسع والصلات الاقتصادية مع جبل لبنان أقل كثافة من شبكة الاتصالات مع مدن سوريا وفلسطين التي كانت تتقاسم مع بيروت التشكيلات الاجتماعية والإقتصادية نفسها، هذا بالإضافة الى العلاقات العائلية والدينية فيما

بينها. لكن التنظيمات العثمانية كان لها التأثير الأكبر في توطيد هذه العلاقات. فعندما أعادت السلطنة العثمانية تنظيم ولاياتها توّجت هذه الشبكة الاقتصادية بالإلحاق الاداري لعدد كبير من هذه المراكز المدنية، وكان هذا لمصلحة بيروت.

العاصمة الاقتصادية

كانت بيروت في الوقت نفسه عاصمة اقتصادية لجبل لبنان من خارجه وبوابة سوريا، لكنها أخذت تتجاوز وظيفتها المرفئية تحديداً والتجارية كذلك. إذ دفع نمو قطاعها التجاري إلى ظهور قطاع جديد وهو قطاع الخدمات الذي ما إن سجل انطلاقته حتى بدأت المصارف الاوروبية تفتتح فروعا لها في بيروت وأنشئت في ساحة العاصمة بيوت للنقل والتأمين أو الخدمات. وهكذا، من خلال تنوع الخدمات المتوفرة، يضاف إليه حجم السلع المتبادلة، اخذت بيروت تتحول إلى حاضرة تجارية كبيرة، حتى لو كانت ديموغرافيتها أبعد من أن تبرر الأهمية التي اكتسبتها.

لا شك أن عدد سكان المدينة مع ضواحيها بقي متواضعاً عام 1914 بالنسبة إلى عددهم في الحواضر العثمانية الأخرى كأزمير ودمشق واسطنبول. فعلى سبيل المثال، ارتفع عدد السكان في اسطنبول من 400000 نسمة عام 1840 إلى 900000 نسمة عام 1890، وفي الفترة نفسها، ارتفع عدد سكان إزمير من 110000 نسمة إلى 200000 نسمة[55]. وكان عدد سكان دمشق مقارباً لهذه النسبة، مع انه قدّر في عام 1920 بأكثر من 200000 نسمة، أي ضعف الاحصاءات التي أجريت قبل نشوء التنظيمات[56]. وبيروت التي بلغت في أعلى نسبة لها 140000 نسمة فقط[57] في نهاية الحقبة العثمانية، وربما 130000 أو 120000 نسمة فقط[58]، لم تكن أقل مرتبة من غيرها وبالامكان مقارنتها مع المراكز المدنية الكبيرة للسلطنة. ثم إنها كانت تجسد هذا الوجه الجديد للمدينة[59] الذي تطابق مع أحد أهم التحولات التي حققتها التنظيمات. وإذا كان نموها السكاني يترافق مع الايقاع المشهود له في أمكنة أخرى بالرغم من بعض التراجع في نسب النموّ المقارنة، فإن نسبة الانخفاض في عدد الوفيات، وهذه مفارقة غريبة، أتاح للمدينة بأن تصير في عداد المدن الكبيرة.

ولكن نسبة التباطؤ في الواقع لم تكن واضحة إلاّ في الاحصاءات التي أجريت فيما بعد. ففي المدى المنظور، بدا التزايد السكاني صارخاً والتطور مذهلاً. سبق أن رأينا أن عدد السكان تزايد بنسبة أربع مرات في خلال ربع قرن بدءاً من نهاية العشرينات في القرن التاسع عشر. ثم حصل ارتفاع بسرعة مذهلة إثر أحداث عام 1860 التي جعلت آلاف اللاجئين من المسيحيين يتدفقون من الجبل ومن دمشق أيضاً. وفي غضون ثلاث أو أربع سنوات، رفعت هذه الزيادة عدد السكان إلى 60000 نسمة[60]. وتضاعف العدد من جديد خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر[61].

وبالطبع، ما ورد ليس صادراً عن أرقام دقيقة بل مستند إلى انطباع ديموغرافي عام. إن تضارب الأرقام الواردة في الاحصاءات يظهر هوامش ملتبسة. والصعوبة ناجمة عن كون الاحصاءات التي شرعت السلطات العثمانية بإجرائها لم تكن على درجة عالية من الدقة، والسبب أنَّ السكان كانوا يحاولون التهرّب من تدوين أسمائهم في قوائم الاحصاء تهرباً من الضريبة وخوفاً من سوقهم مكرهين إلى الخدمة العسكرية. وفيما يخص بيروت برزت صعوبة إضافية، لان الاحصاءات تأخذ بعين الاعتبار عدد اللبنانيين المسجلين في المتصرفية. وهكذا أشارت سجلات بيروت التابعة للأحوال الشخصية إن 50000 من الذكور كانوا مدونين فيها[62]. ويبدو الرقم منسجماً مع الرأي القائل بأن العدد وصل إلى 120000 نسمة عام 1920، شرط أن نرفقه بعدد السكان المقيمين في بيروت والذين ليسوا من أصل بيروتي، إضافة إلى المهاجرين والوفيات الذين جرى احصاؤهم خلال الحرب العالمية الأولى.

إن عدم التناسب بين ديموغرافية بيروت ودورها الاقتصادي يؤكد أن هذا التطور الذي شهدته العاصمة كان متصلاً بأسباب طارئة أي توسع التجارة الاوروبية. ولكن يخطئ من يعتقد إن المدينة كانت فقط رأس جسر لأوروبا. فرجال الأعمال الأجانب كانوا يحتلون في بيروت مكانة أقل أهمية أو بالأحرى أقل وضوحاً منها في الاسكندرية واضطروا إلى مواجهة دينامية المتعهدين المحليين. وقد فرضت طبقة من رجال الأعمال المحليين نفسها واستأثرت في الواقع بقسم من التجارة الاوروبية فحققت أرباحاً طائلة. إنّه نشاط تجاري ذو اتجاهين: من جهة، أثار الانفتاح التجاري تحول طبقة التجار إلى بورجوازية معاصرة إتسع نطاقها بسبب الوافدين من جبل لبنان ومدن أخرى من المشرق وخصوصاً دمشق، ومن جهة أخرى كانت هذه البورجوازية بمقدار ما تفيد من التطورات الحاصلة بمقدار ما تجعل من نفسها محوراً موجّهاً لها.

وكان للتجار المحليين أفضليات في منافستهم للمتعهدين الأجانب كرستها لهم الأعراف والقوانين ويجب تفعيلها. فطبقة التجار هذه، كانت تسيطر على أملاك عقارية ما سهّل استقرارها، وهي لا تحتاج إلى الاستعانة بمترجمين ولا إلى استخدام وسطاء ، ثم إن المحطات التقليدية للتجارة الداخلية السورية كانت مألوفة بالنسبة لها. لهذا، لا يتوجب عليها نفقات كثيرة لإطلاق مشاريعها. وليس هذا سبباً كافياً. سبق إن رأينا السهولة التي أطاح بها التوسع الأوروبي بالبنى الاجتماعية الأكثر استقراراً في البلدان الواقعة بعيداً عن المراكز الاقتصادية، وأحلّ مكان الطبقات التي كانت مهيمنة سابقاً طبقة بورجوازيةً كولونيالية إما مستوردة وأما متصلة مباشرة بالمدن الرئيسيّة. هذا بشكل عام. لكن العكس حصل هنا. ساهم ازدهار أوروبا الصناعية في ترقية الطبقة المحلية المهيمنة عن طريق تحويل الأعيان المحليين إلى بورجوازيين. وكانت الأفضليات التي يتميز بها المتعهدون المحليون مفعّلة إلى أبعد الحدود عبر الحماية التي تمنحها اياها الدول العظمى عبر القناصلة المتواجدين في أقطارها.

وهنا بالذات برزت تعقيدات جديدة للمسألة الشرقية تزامنت مع توسع الاقتصاد الاوروبي ولكن منعته من أن يتجسد في علاقات كولونيالية كلاسيكية. إن إجماع أوروبا إبقاء «الرجل المريض» على قيد الحياة حال دون أن تتصرف دولة ما من الدول العظمى وكأنه فريستها التي تريد أن تستأثر بها لنفسها. من هنا ظلّت الخصومات الأوروبية الداخلية تجد نفسها على درجة عالية من التأزم دون أن تتخطّى السقف المحدّد لها. وبالتزامن مع ذلك، كانت الدولة العثمانية، رغم تبعيتها للدول العظمى، صامدة بوجه الضغوطات ومصممة على تطوير نهضتها لا سّيما أن حضورها لا يزال قوياً ومتأصلاً في حياة الولايات التي تحكمها، وهي لا زالت قادرة على الحؤول دون أن يحل كارتيل من الدول العظمى وحده مكان السلطات المحلية، كما سنرى لاحقاً في الصين. وهكذا فإن التنافس بين الأمبرياليات أفضى بها إلى سلوك الدروب المواربة التي تخطها لها التركيبة الطائفية المتعددة والإثنية المتعددة للامبراطورية.

كان ثقيلاً عبء الامتيازات وكان لا بدّ للحداثة العثمانية أن تلغيها وفقاً لمنطق الأمر السليم، ولكن فرنسا وبريطانيا فرضتا عودة الامتيازات وكرستها في خط همايون، وهو المرحلة الاصلاحية الثانية من التنظيمات التي أجريت عام 1856. كان الشأن الاقتصادي هو المدخل الرئيسي لعودة نظام الملل الذي يقوم على مبدأ أساسي هو حماية الطوائف غير المسلمة، وقد استغل من قبل التجار المسيحيين[63]. وبما إن التنافس بين القناصلة كان حاداً، فقد تضاعف عندئذ عدد التراجمة فيما كانوا لا يهتمون بالترجمة إلاّ نادراً، وربما لم يهتموا بها إطلاقاً. وكان بامكانهم، بفضل حصانتهم أن يرجحوا بالتناوب أو بالتوازي مصلحة أحد الطرفين على حساب الآخر فيما يتعلق بالخصومات التجارية العالقة بين أوروبا والسلطنة العثمانية، من خلال لعبهم دور الوكلاء الراغبين بالحصول على امتيازات.

وهذه الصورة للأمور كانت ناجمة من ظروف الهيمنة الأوروبية المتزايدة بالرغم من الخصومات الداخلية الناشئة بين الدول العظمى. ولكن الأمر لا يتعلق فقط بمسار المستشارين الاستعماريين الذين تتم بواسطتهم عمليات التجارة الاوروبية. لقد بدأت تتشكل بفضل مرقاة بيروت والمحطات التي تمثلها مدن أخرى في السلطنة، لا بل في مصر، طبقة بورجوازية تهتم بالشؤون والأعمال المحلية وتحاول الظهور بمظهر الارستقراطية مستفيدة من ميزات هذه العولمة الأولى للمبادلات والمال، وشرعت تعمل في أساكل أوروبا نفسها فأقامت لها مراكز نفوذ ثابتة في جنوى و مرسيليا أو حتى في مانشستر. وبالاضافة إلى اهتماماتها التجارية في بيروت وأرباحها العقارية التي انعكست تراكماً أولياً، كانت تهتم أيضاً بنشاطات متنوعة خارج النطاق المحلي لدائرة أعمالها. فمن مؤسسات للاعتماد المحدود وهي أشبه بمصارف أولية، هدفها تمويل المبادلات التجارية واقتصاد الحرير سرعان ما انتقلت الى توظيفات مالية وعمليات مصرفية واعتمادية فيما يتعدى نطاق بيروت. وحرية التحرك

هذه محلياً وأوروبياً ترافقت مع قدرات مالية متزايدة، لدى فئة من البورجوازية الجديدة المتحدرة من الأعيان التقليديين فأحدثت تغيراً في نمط الحياة انعكس في الهندسة الفخمة للمساكن المبنية في ضواحي بيروت.

تصدرت عائلة سرسق المسيحية الارثوذكسية هذه الطبقة الجديدة ويلقي مسارها الضوء على الموضوع. يرقى أصل العائلة، واسمها من التركية سَرساق، إلى مرسين حيث كانت تملك أراضي شاسعة. في القرن السابع عشر، وربما قبل هذا التاريخ، أقام السراسقة في قرية البربارة، غير البعيدة عن جبيل، حيث جمعوا رأسمالاً لقاء الخدمات التي أدوها بصفتهم ملتزمي إقطاع زراعي. وفي نهاية القرن الثامن عشر أو في مطلع القرن التاسع عشر، انتقل فرع من العائلة إلى بيروت وهناك أقاموا اتصالات بالقناصلة الأجانب. وفي عام 1832، كان أحد السراسقة يعمل ترجماناً عند المندوب الأميركي ونال آخرون من العائلة حظوة لدى الجاليات الروسية واليونانية. وما يدهش في هذه المرحلة أننا نجد في هذه العائلة المسيحية غير اللاتينية أفراداً يتمتعون بالحماية الفرنسية. كان السراسقة يفرضون أنفسهم أيضاً كوكلاء تجاريين في تصدير الحبوب، ثم تنوعت أعمالهم في مجال التوظيف المالي والعديد من الاستثمارات منها في شركة قناة السويس وطريق بيروت–دمشق. وفي مصر، عززت العائلة اتصالاتها بالخديوي سعيد ثم بأخيه اسماعيل. وعرفاناً لدعمه في مواجهة المعتمدين البريطانيين والفرنسيين، منحهم اسماعيل الخديوي بعض أسهمه في شركة القناة. ثمّ انتقلت العائلة إلى بيروت حيث سكنت في تلة الأشرفية وأعطت اسمها للناحية الأكثر رقياً في المدينة وهي حي السراسقة، المزدانة بمساكن فخمة على الطراز الايطالي الذي استمد شهرته على مرّ الأسفار والاتصالات بالمجتمع الاوروبي الراقي. وهذا البروفيل الارستقراطي، الذي جرى ابرازه خلال حفلة استقبال الغراندوق ديمتري، ترسخت صورته عندما اقترنت ابنة كونت في نابولي بألفرد سرسق. وهذه المصاهرة العائلية لم تكن الأخيرة مع أفراد من طبقة النبلاء الاوروبية. لكن السراسقة لم يتخلوا عن الاهتمام بالشأن العام في بيروت ولا قطعوا صلاتهم بأبناء الطبقة الحاكمة العثمانية. كما قاموا بنشاطات خيرية كانت ثمرتها الأفضل إنشاء مدرسة زهرة الإحسان للبنات، وساهموا بشكل مباشر أو غير مباشر في إدارة المدينة. وانتخب أحد أفراد العائلة، ميشال سرسق نائباً عن بيروت في البرلمان العثماني عام 1914[64].

وعلى غرار آل سرسق، فرضت بعض العائلات نفسها على رأس بورجوازية الأعمال هذه التي حافظت على امتيازاتها حتى نهاية القرن العشرين. منها عائلات ارثوذكسية مثل بسترس وفياض ولاتينية مثل آبيلا وروم كاثوليك مثل آل فرعون أو موارنة مثل آل ملحمة. كما وفدت عائلات أخرى من دمشق كآل دباس (وهم ارثوذكس) الذين التجأوا عام 1860 إلى بيروت، ومن العراق كآل شيحا (لاتين) وعززوا الطابع المسيحي للمدينة لكن التجار المسلمين لم يكونوا هم أيضاً بمنأى عن التطور.

بالطبع، كانوا يظهرون بعض التذمر من المنافسة الاوروبية وأيضاً من الأعيان المحليين المستفيدين من الحماية الاوروبية. وهكذا، وخلال بناء المرفأ الجديد، استغلّ سبعون تاجراً مسلماً الانتقادات التي وجهت إلى تصرفات الشركة، وقد وجهت أيضاً من قبل الاوروبيين أنفسهم، ورفعوا العرائض المندّدة بالامتيازات التي منحت لشركة فرنسية وتجيز لها إدارة مشروع المرفأ، مذكّرين أن هذا يشكل خطراً على السلطة[65]. ومع ذلك، كان الأعيان المسلمون يشكلون جزءاً لا يتجزأ من التركيبة التي توزعت الأدوار فيما بينها، وكانت الانطلاقة الاقتصادية للمدينة مرتبطة أيضاً بتطور العلاقات مع المناطق الخلفية في البلاد. بيد أن المتعهدين المسلمين كانوا يتمتعون بمكانة مميزة دون أن تكون حصرية.

وكانت روح التنظيمات تهيمن على كل النخب المدينية التي ساهمت في تكوين السلطة المحلية، وعندما تفككت الولاية الحديثة لسوريا وتأسست ولاية بيروت، وجدت البورجوازية البيروتية نفسها مسؤولة عن إدارة قطاع يصل حتى حيفا ونابلس ومضطلعة بدور يشبه إلى حد بعيد الدور الذي لعبه أعيان دمشق.

الفصل السادس

واجهة الحداثة العثمانية

لا يصعب علينا أن نتخيل الأحمر الذي تلونت به بيروت تحت الألوان البنّية sépia في الصور الفوتوغرافية الأولى. وهذا يظهر بوضوح عندما تقارن الصور الأولى للمدينة المأخوذة بطريقة داغير Daguerre في أربعينات القرن التاسع عشر والصور السالبة clichés البانورامية التي التقطت للمدينة في العقد التالي. نرى أن قرميد مرسيليا أصبح، بدءاً من ستينات القرن التاسع عشر وسبعيناته جزءاً لا يتجزأ من المشهد المديني يضفي على بيروت طابعاً متوسطيا «معاصراً» أو بورجوازياً بالأحرى. لكن التحول لم يقف عند هذا الحد حسبما توحي به مستندات فوتوغرافية مأخوذة من زوايا قريبة تبرز بوضوح الشوارع وأصحاب الحرف اليديوية والعادات الاجتماعية السائدة.

وما يظهر هذا التحول أيضاً إمتزاج الاساليب الهندسية وتجاورها. ففي اللقطة نفسها نرى مثلاً اللباس التقليدي جنباً إلى جنب مع الزي الاوروبي الذي يضفي عليه الطربوش مسحة عثمانية ونرى مساحات عامة تختلط فيها المباني الحديثة بالمباني القديمة: أما المدينة فهي منهما في منزلة بين المنزلتين. ربما كان المشهد شبيهاً بكل التجمعات السكنية العثمانية في تلك الفترة حيث لا يوجد حدّ فاصل بين «المدينة الاوروبية» و «المدينة العربية»، خلافاً لما نرى في الجزائر وتونس أو القاهرة. الأمر واضح هنا: المدينة الجديدة تجاور المدينة القديمة وتتجاوزها في آن. ثمة مشهدان يسترعيان الانتباه من بين مئة صورة وقد التقطهما أدريان بونفيس Adrien Bonfils في عام 1897 أو 1898، بحيث تظهر المدينة ويظهر الجبل في العمق إلى الجهة الشمالية الشرقية من بيروت[1]. ورغم الاكتظاظ الموجود في الصورة، يمكن تعيين بعض الأمكنة بسهولة: الثكنة العثمانية الكبيرة، المؤسسات العامة، رصيف المرفأ، بعض الشوارع المستقيمة... ويمكن خصوصاً ملاحظة اجتياح الأبنية للمساحات الخضراء الجديدة ما يعطي رونقاً لعموم المشهد ويضفي عليه حيوية. أما على تخوم التجمعات فنشاهد بعض الأبنية المتفرقة التي تبدو وكأنها عوامل تشجيع للتوسع المدني العتيد.

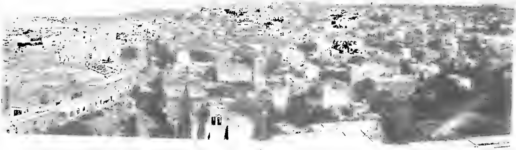
للمدينة الجديدة حاجات جديدة والاستجابة لها تتطلب إعادة تشكيل للمشهد الذي تتخلله مبانٍ

منتشرة او متفرقة، يسهل التعرف إليها: جامعتان ومدارس داخلية ومساكن طلابية وكاتدرائيات. واحدة لكل طائفة من الطوائف الثلاث: أرثوذكسية وكاثوليكية ومارونية، تضاف إليها كنيسة القديس لويس للكبوشيين وبعض الأبنية الاستشفائية وأكبرها المستشفى العسكري المشرف على الموقع، بالقرب من الثكنة. أما الخطوط الجديدة التي تبرزها الأخاديد فوق مساحات المدينة في الصور السالبة البانورامية والتي تظهرها لقطات أخرى بكل تفاصيلها، فلا تسترعي الانتباه للوهلة الأولى لكنها مع ذلك تثير الرغبة وتدعو إلى التأمل بأمارات التغيير: ساحات وحدائق عامة وطرق معبدة واسعة كطريق الشام... وبالمقابل لم يعد يُرى السور القديم بل احتجب وراء المباني منذ عام 1870 أو ضاع من جراء إعادة تنظيم شبكات الطرق.

مدينة التنظيمات

إن جانباً كبيراً من إعادة تشكل المدينة هذه لا علاقة له بأي إرادة تنظيمية بل هو تعبير حرّ عن النموّ الديموغرافي الجديد والتغيير الذي شهدته التركيبات الاجتماعية. هذا من جهة، أما من جهة أخرى هناك التأثير الذي مارسته المجموعات المتنافسة أو المتعاونة من الناشطين في مجال التوسع





الحدود الجديدة للمدينة في أواخر القرن التاسع عشر بعدسة أ. بونفيس.

الأوروبي كالبعثات الدينية التي راحت تنشئ المدارس الواحدة تلو الأخرى. لكن تحول بيروت يبقى غير مفهوم إذا تجاهلنا الإرادة التحديثية الصريحة للسلطات المحلية. صحيح أن بيروت النموذج الحي عن «الغرب الذي لا يمكن تجنبه[2]» لكنها كانت أيضاً مدينة التنظيمات العثمانية. وروحية الإصلاح كانت تحرّك الحكام فيها والموظفين المحليين والأعيان؛ كلهم كانوا مقتنعين أن هذه هي طريق المستقبل الوحيدة، لاسيما أن الإصلاح الضرائبي وتكريس المساواة بين الرعايا أمام القانون شجّعا أهل المدينة على اتخاذ المبادرة. وبالإضافة إلى التأثيرات العامة التي أحدثتها القوانين الجديدة والمناخ السائد في تطوير المدينة، هناك الاهتمام الخاص الذي حظيت به من قبل الاصلاحيين في اسطنبول الذين اعتنوا ببيروت عنايتهم بدمشق، ما يدل على أن بيروت كانت في عداد المدن العثمانية المفضلة. وحين زار الوالي العثماني كمال بك بيروت عام 1898 أعلن صراحة أن بيروت هي «مصدر غنى وموئل للثقافة» وانه سيبذل ما في وسعه لتسريع تطويرها لتواكب ركب الحضارة الطالع[3]». ومن الأمثلة الحية على هذا الاهتمام أن مهندس البلدية أمين عبد النور ترجم نص القانون العثماني الجديد ونشره عام 1898، وهذا القانون يحدّد مستوى الكفاءات عند الذين سيتولون الشأن العام في المدينة[4].

وبمقدار ما تطور أسلوب عمل التنظيمات، بدت المدينة وكأنها المكان المفضل لنشاط رجال الكفاءة في كل الميادين لإحداث ثورة من فوق، لا يمكن تفسيرها على أنها نتيجة للضغوط التي تمارسها جهات غربية. ومثل هذه الثورة التي صاغت علاقات جديدة بين السلطان ورعاياه، وقد باتوا متساوين في الحقوق، والتي جدّدت النظام القضائي لتجعله متكيفاً مع تطور الرأسمالية وحدّثت جهاز الدولة، وبالتالي المجتمع، كانت توازي إعادة تأسيس الامبراطورية التي لم يعد بإمكانها أن تختزل إلى اقطاعة هائلة لجباية الضرائب وآلة لصنع الحرب. وفيما يتعدى الإجراءات التي اتخذت لتنشيط عمل إدارات الدولة (كالأبنية الوزارية، والمحاكم المدنية، ومعاهد التأهيل...) كان التغيير الفعلي الذي أحدثته التنظيمات هو إن المسؤول في الدولة بات يضطلع برسالة وهي الاستجابة لحاجات الناس والتخطيط لرفاهيتهم. وكان من نتيجة استقرار السلطة العثمانية، وهو أحد الرهانات الاساسية في الاصلاح، أن اتجهت الأمور وجهة عقلانية كما هي الحال في أرقى الحواضر. وبالمقابل، برز مصدر جديد للشرعية من شأنه التقليل من الآثار السلبية الناشئة عن الاضطراب الذي تعاني منه الامبراطورية على المستوى الرمزي، فيما أخذ الاسلام يكف عن أن يكون المرتكز الأوحد لسلطة الامبراطورية. لذا، طفقت الإدارة الاختيارية للدولة تشدّد على مفهوم جديد يعيد اللحمة بين السكان ويمهد لانصهارهم وهي الهوية العثمانية «العثمانليليك».

ولم تتمكن الدولة العثمانية على الرغم مما تميّزت به من حزم في تحقيق الاصلاحات، وعلى الرغم من سعيها الدؤوب الذي بذلته لتغذية الشعور بالهوية العثمانية من أن تطمس تأجج الفروقات الاثنية

والطائفية أو من أن تنجح في إبقاء الغرب على الحياد. لذا بذلت أقصى جهودها لاعادة تشكيل المدن الواقعة تحت سيطرتها لتصير الهدف الأساسي للتنظيمات ومسرح تحولاتها الأكثر جلاء[5]. ذلك أن السياسة المدنية كانت هي التجسيد الأساسي لعهد الاصلاحات هذا وقد أفادت منه أكثر مما أفادت من الجهود المبذولة في ميدان التشريعات، والسبب أن هذه السياسة جسّدت على المستوى الانساني علاقات جديدة بين الامبراطورية ورعاياها بأن أحلّت مكان الاجراءات الاستشارية التقليدية، وكان إطارها ديوان الولاية، أجهزة حكومية محلية أكثر تمثيلاً، واستطاعت أن تربط القطاعات الأكثر دينامية بالمبادرة العامة. غير أنّ التحديث شمل بداية التجهيزات المادية في المدينة، وهو مصدر لتحسين نوعية حياة الأفراد كالطرقات والعربات وجرّ المياه والغاز، ولاحقاً الانارة الكهربائية والتراموای، بالإضافة الى مساحات الترفيه. وانسجاماً مع زمن تفوّق العقل، تبنّى الحكم العثماني نهجاً جديداً في إدارة شؤون المدن يختلف عن النهج الاسلامي العربي ثمّ لاحقاً التركي بحيث يسعى من دون أن يتنكر إلى التراث القديم لتبنّي المخططات التي اعتمدها الاوروبيون في تنظيم مدنهم مع إدخال عناصر من التراث الهندسي التركي إليها، بكل ما فيه من غنى.

وكما في كل المدن الأخرى، أفادت بيروت من روحية التنظيمات التي أتاحت أمام الدولة العثمانية استعادة سلطتها في الولايات، بعد الحركات الاستقلالية التي شهدها القرن الثامن عشر، دون أن تقف حاجزاً في وجه المبادرات المحلية. وكان مفيداً في هذا الشأن أن تنشأ هيئات رسمية لتمثيل السكان، على مستوى الولاية، ثم البلدية. وكانت لهذه الأجهزة حسنة مزدوجة: السماح بهامش من اللامركزية الإدارية وتعزيز المركزية السياسية. وبما أن هذه الأجهزة تلبي رغبة النخب في المدن في التعبير عن نفسها فقد تكرست وحدة الولايات الشكلية من خلال وحدة هيئتها الإدارية. وكانت بتنظيمها لسير الاخبار في كل الاتجاهات، تزيد من قدرة السلطة المركزية على اتخاذ القرار. وأول مرحلة في هذا الاصلاح الاداري هي فرمان عام 1840 الذي صدر بعد بضعة أشهر من خط كولخانة، وينص على إنشاء مجالس في الولايات ينتخب أعضاؤها من قبل المسؤولين الدنيويين والدينيين في كل طائفة.

وما ان تحدّدت صلاحيات هذه الهيئات الحكومية المحلية حتى أباحت لها التشريعات القضائية التدخل في كل الأمور. والمثال على ذلك، صدور القانون المتعلق بالتخطيط المدني بحيث يحدد المواصفات الجديدة للطرقات وينص على مواصفات للشوارع تحدّد، عرضها وتدرجها. بموجب هذا القانون المصدّق عليه عام 1848 والمعدل لأول مرة عام 1858 أو لمرة ثانية عام 1863، أصبحت الطرق الرئيسية بعرض يزيد على أحد عشر متراً فيما توجب على الطرق الثانوية أن تكون بعرض سبعة أمتار، وأوكل تنفيذ القانون إلى المجالس التمثيلية في المدن. واضطلع مجلس بيروت بمهمة إضافية هي العمل على استحداث الطرق التي تصل المدينة القديمة بالضواحي والتي كانت حتى الآن مسالك

مرصوفة بالحصى لا تسمح بمرور عربات الخيل الحديثة الصنع. وبموازاة ذلك، سمح القانون المنظم لاستخدام الاراضي الزراعية ، والذي جرى التصويت عليه عام 1858، باستثمار أراضي الضواحي في المدينة، ما عزّز في بيروت بشكل خاص، التدفق السكاني خارج الأسوار.

وتحدّدت صلاحيات المجالس البلدية من خلال قانون 1864 المتعلق بالولايات والذي أنجز عام 1877. ومنذ عُدّل لأول مرة، نصّ هذا القانون على تنظيم التجمعات السكنية بحيث يتولى إدارتها مجلس منتخب يضطلع بدور سياسي مباشر على أن يكون المجلس البلدي، المنتخب هو أيضاً الممثل الشرعي للسلطة العامة. ولكن، قبل أن يتم إقرار هذا القانون، كانت بيروت قد حظيت باهتمام فؤاد باشا، وزير الخارجية حين كان يقوم بمساعيه الخيّرة لازالة التداعيات الناتجة عن حرب الجبل. من مركزه في القشلة، أنشأ مجلساً عاماً لكل ولاية أوكلت إليه مهمة تنظيم المساكن وإغاثة ضحايا الحرب الأهلية، كذلك أعطيت له صلاحيات اتخاذ المبادرات على المستوى المدني. وظلّ فؤاد باشا يسهر على رعاية مصالح أبناء المدينة عبر حاكم ولاية صيدا وهو صهره بالذات ويُدعى قبولي باشا. وفي عام 1863، أسّس حاكم صيدا، نزولاً عند رغبة فؤاد باشا بالطبع، مجلساً بلدياً، قبل صدور قانون البلديات العتيد وحدّد له نظاماً داخلياً ثمَّ أقرّ له موازنة مستقلّة في وقت لاحق ليسهر على تنظيم الخدمات المدنية التي صارت أكثر تعقداً، سيما وان اتساع أراضي المدينة والتغييرات في بنيانها أحدثت ثورة في نمط حياة السكان اليومية. وفي عام 1868، أعيد إنشاء البلدية على أكمل وجه على غرار بلدية بيرا في اسطنبول الذي يعود انشاؤها إلى عام 1856 حسبما أورد الكونت دو برتوي في إحدى ملاحظاته[6].

عصر معماري جديد

خلال فترة الاحتلال المصري لبيروت، توسعت رقعة المدينة إلى خارج الأسوار. لكن أولى بوادر التجديد في التنظيم المدني ظهرت فعلاً في أواسط القرن التاسع عشر، عندما اقترنت المبادرة الحكومية بمنطق التلزيم والتعهدات، فتغير بنيان المدينة بفضل إنجازين جرى تمويلها من مصدرين مختلفين، أبصرا النور في مدة لا تتجاوز بضعة أشهر، في عام 1853 وهما الثكنة الكبيرة (أوالقشلة) وخان أنطوان بك.

كان القرار بإنشاء القشلة أول قرار تتخذه السلطة الحكومية وينعكس إيجاباً على تنظيم الحاضرة، حتى لو لم يستجب بكل معنى الكلمة إلى تحفيز عمراني مباشر. كان الهدف من إنشائها ايواء الفيلق السابع المرابط في بيروت. واختير موقعها على تلة القنطاري المشرفة على المدينة القديمة في الزاوية الجنوبية - الغربية تقريباً من السور وعلى طول شارع محمود نامي بك المرصوف بالحجارة المزخرفة.

ومن أجل إنشائها. اقتضى تمهيد التلة بعد أن جرى هدم الأبراج القديمة الباقية. ومع أن القشلة مؤلفة من طابق واحد، إلاّ أنها كانت تشرف على المدينة كلها وتبرز كأضخم المعالم العمرانية التي ترى من عرض البحر ومن الضواحي. وبعد عقد من الزمن أضيف إليها طابق جديد يعلوه سقف من القرميد الأحمر الذي كان يساهم إلى حد كبير في إبراز عظمتها، فيما كانت زخرفة الواجهات تعيد إلى الذاكرة الأسلوب نفسه في بناء المنشآت الحكومية التي راجت آنذاك في اسطنبول وفي عواصم الولايات. ثم تحولت القشلة لاحقاً إلى «السراي الكبير» في عهد الانتداب الفرنسي وكانت مقراً له ثم انتقلت لتصير مركز رئيس الحكومة اللبنانية بعد الانتداب*.

كانت القشلة صورة مصغّرة لثكنة السليمية في اسطنبول، وتبدو بخطوطها ذات الزوايا المربعة وبحجمها متباينةً مع الازقة المتشابكة والانشاءات التي أقيمت في الأسفل، وتعلن عن قيام نظام هندسي عثماني جديد في بيروت: النوافذ العديدة المطلّة على الخارج من الجهات الأربع والباحات القائمة على أعمدة والمزينة بالقناطر تعلوها جبهات جملون وسقوف زاهية الألوان. وعلاوة على ذلك، كان تحويل الأرض المتاخمة للثكنة إلى ساحة خضعت لتحسينات متتالية يبرز المقاربة المدينية الجديدة، لا سيما بعد أن بُني على التلة، عام 1861، مستشفى عسكري مشابه للنمط الذي بُنيت عليه الثكنة، مع أن حجمه أكثر تواضعاً. وفي نهاية القرن لم تعد المساحة الفاصلة بينهما مكاناً لتجمع الفرق العسكرية بل تحولت الى حديقة. وهذا التحول نفسه، قبل أن تصير الثكنة «السراي الكبير» لاحقاً، يؤكد على الطابع المدني للانجازات العمرانية التي كانت ناتجة عن قرار عسكري في الأصل.

وإذا كان إنشاء القشلة يرمز منذ البداية إلى الروح العثمانية الجديدة المهتمة بالشأن العام، فإن خان انطون بك يكشف عن مدى الدور الذي لعبته المبادرة الفردية في تجديد طابع المدينة في هذه المرحلة الانتقالية من الاقتصاد البيروتي، وصاحب فكرة خان القوافل كان هو نفسه رجلاً انتقالياً وهو انطون بك المصري، أرمني من أصل مصري، المعروف كذلك باسم انطون مصريليان بالأرمنية وميسيريوغلو في التركية. جمع انطون بك ثروة طائلة في اسطنبول وكان على بيّنة من الذوق الجديد الذي كان سائداً في العاصمة آنذاك وفي القاهرة والاسكندرية. وكان هذا البناء يختلف بوضوح عن خانات القوافل القديمة، المنغلقة داخل جدرانها على غرار المساكن التقليدية. أما خان انطون بك فكان يتميز بمظهره الرشيق وواجهته المفتوحة على البحر، المزدانة بصفين من القناطر. وكان هناك رصيف خاص يسمح بنقل السلع مباشرة من القوارب إلى داخل المستودعات: ومع ذلك، ورغم الطاقة على الاستيعاب التي يتمتع بها المستودع، لم يكن خان انطون بك مجرد مخزّن للبضائع: إذ كانت

* أعيد بناء السراي في تسعينات القرن العشرين وأبقي على الجدران الخارجية لكن شكل البناء العام تغير بسبب إضافة طابق ثالث اليه.



خان انطون بك ورصيفه.

النشاطات الاقتصادية المعاصرة التي انخرط فيها كثيرة، من وكالات بحرية ومصرفية ونشاطات تجارية، بالإضافة إلى مكاتب البريد والخدمات الإدارية. وفي خان أنطون بك بالذات، اختار المصرف العثماني الامبراطوري أن ينشئ فرعاً له في عام 1865. وبفضل هذا الاستقطاب الجديد للنشاطات، مارس خان انطون بك تأثيراً ملحوظاً على هندسة الأبنية في الواجهة المرفئية لبيروت لا بل تعداها إلى الجهة السفلى من المدينة.

وعند ملتقى الطريق بين إنجازات الحكومة والمبادرة العفوية أو المخطط لها من القطاع الخاص، شكلت بداية الستينات من القرن التاسع عشر منعطفاً هاماً للتنظيم المدني في بيروت، وأول الغيث كان إطلاق ورشة طريق دمشق - بيروت التي بدأت أعمالها في كانون الثاني/ يناير عام 1859 . وكانت ترسيمة القسم الأول من هذه الطريق تؤشر بحد ذاتها إلى منطق جديد في التعامل مع التجمعات السكنية. كانت الطريق القديمة الضيقة الواقعة على الجهة الشرقية من المدينة القديمة، تنبثق من متاهة الشوارع الداخلية المحيطة بالمرفأ لتخرج من باب الدبّاغة إلى المكان المفتوح لساحة البرج خارج

جدران المدينة. أما الطريق الجديدة التي يبلغ اتساعها اثني عشر متراً تقريباً، فتتحاشى الزحام في المدينة القديمة من خلال تجنب المداخل باتجاه المركز. كانت الطريق تنطلق من الجهة الغربية للمرفأ في محاذاة السور الغربي ثم الجنوبي لتصل إلى آخر ساحة البرج ومن ثم تنطلق نحو الضواحي، ومنها إلى القمم الأولى للجبل(7). وبعد أقل من عشرين شهراً من بدء الأعمال، سلكت فرق الجيوش الفرنسية بعد الانزال الذي قامت به في 16 آب / أغسطس 1860 ، هذه الطريق لتصل الى غابة الصنوبر حيث أقامت مخيماً لعشرة أشهر. وبعد أسابيع تمّ تجهيز عربة خيل لنقل الجنود المأذونين إلى ساحة المدافع لتسهيل انتقالهم إلى المدينة، وترددوا إلى الحي حيث توجد بيوت الدعارة والذي خرج هو أيضاً من الجدران ليتمركز شمالي شرقي المدينة القديمة(8).

وفي غضون ذلك، توقفت ورشة الأعمال على طريق دمشق، لكن هذا لم يؤثر سلباً على تطور المدينة بل أفادها. اذ استُخدم التقنيون الذين هم في إمرة الكونت دو برتوي وفرق العمّال التابعة لهم للبدء في الأشغال المتعلقة بتوسيع شبكة طرقات المدينة، والتي كانت خططت لها السلطة العثمانية أصلاً. على أية حال، كانت بنود القرار المتخذ تكشف بوضوح عن الروح التي طبعت التنظيمات، فالمبادرة لم تكن إلاّ تنفيذاً لتلك التي قام بها فؤاد باشا، وزير الخارجية، وأحد الوجوه الكبيرة للعهد الإصلاحي(9)، حين استُدعي على عجل إلى بيروت ودمشق على إثر النكبة التي أحدثتها مجازر الجبل. وبالتوازي مع مهماته السياسية الحسّاسة، استلم فؤاد باشا إدارة الولاية واهتم بالتنظيم المدني طالباً من الكونت دو برتوي بأن يعمل بمعونة فريق أعماله على شقّ ثلاث طرق تصل وسط المدينة القديم بالضواحي.

وعما قريب، استؤنفت الأعمال وأنجزت طريق دمشق عام 1863، وانجازها لن يساهم في تعزيز إقتصاد بيروت بقدر ما ساهم في تنظيمها المدني. حفّز انشاؤها على قيام سلسلة من النشاطات في القسم البيروتي منها، تحديداً حول الساحتين المفتوحتين على طول السور، شرقاً في ساحة البرج وجنوباً في ساحة عصور. حول ساحة البرج، كان تطور المدينة قد بدأ وبلغ مرحلة متقدّمة وهذا يتجلى لدى مقارنة الخرائط بين عامي 1841 و 1861(10)، ثمّ اتخذ القرار بتمهيد الطريق عام 1862 وتحويله باحة عامة تكون منتزها ومكاناً للاحتفال بالأعياد. ومع فتح طريق دمشق، انتشرت المقاهي والمخازن والفنادق، ووجد الماخور مكاناً ملائماً له في شرقي الساحة.وهذا ما حصل أيضاً مع مثلث عصور الذي اتصل بساحة البرج القريبة وساعد على ذلك إمتداد العمران. وبعد أن كانت ساحتا البرج وعصور من المداخل المؤدية الى المدينة أصبحتا مركزين أساسيين وسط التجمع الذي هو قيد الإنشاء.

كذلك ساهمت طريق الشام في التحول الذي شهدته المدينة السفلى حول المرفأ، والذي كان بوشر العمل فيه أثناء مرحلة التحسينات المصرية وسُرّع إثر بناء خان انطون بك وحُفّز من خلال التنظيم

الجديد للمساحة المحيطة بالمرفأ عام 1863. شيّدت مبانٍ مخصصة للإيجار حديثة الطراز مع واجهات زجاجية فسيحة مشرعة على البحر مسقوفة بالقرميد الأحمر، واحتضنت البنوك والوكالات البحرية وكل أشكال النشاطات التجارية والخدماتية المرتبطة بالمرفأ. وامتد التغير الحاصل في منطقة رصيف المرفأ تدريجياً إلى الأحياء الداخلية والأراضي الزراعية غرباً، فنشأ قطاع تجاري مترف. وهنا أيضاً كانت الخطوات الاعدادية لهذا التغيير قد وُضعت سابقاً، وهناك خريطة تعود لعام 1861 تشهد على التطور المدني المتحقق من خلال الأسواق الجديدة والخانات. وهكذا، فإن ترسيم طريق بيروت - دمشق أحدث بنقله مركز الثقل للمرفأ من الشرق إلى الغرب تغييراً - ولو مؤقتاً، وسرّع بذلك تحوّل أسفل المدينة إلى حي للأعمال.

واحتفظت المدينة القديمة، لبعض الوقت، بدورها كمركز سكني، لكن الكثافة السكانية حوّلت القادمين الجدد بإتجاه الضواحي التي كانت في طور التوسّع، فيها استوطنت العائلات الميسورة على مسافة أبعد، موسعة حدود المدينة، التي لو حكمنا عليها من خلال المقارنة بين الخرائط التي تعود إلى عامي 1841 و 1876، لرأينا إنها كبرت خمس عشر مرة أكثرمما كانت سابقاً[11]. وهذا التوسع العمراني حدا بالبعض إلى تفكيك قطع من القناطر الرومانية لتلبية الطلبات المتزايدة على الأحجار المنقوشة[12].

وإزاء هذه التجمعات السكنية المتشكلة، لم تعد المدينة القائمة داخل الجدران، تحتل سوى جزء صغير من مساحة المدينة وهذا التباين أبرز التفاوت بين منظرين من المدينة: من جهة، هناك الكتلة المتراصة للمدينة القديمة مع طرقها المسدودة وأزقتها المتعرجة وأسواقها المكتظة وأبنيتها المتراكمة المؤلفة من طبقتين أو ثلاث. ومن جهة أخرى ضواحٍ مترامية الأطراف بشوارعها الفسيحة المنتظمة الممتدة على خطوط مستقيمة، وبيوتها المتباعدة التيً غالباً ما تتكون من طبقتين، المحاطة بحدائق خاصة، ويكللها القرميد الأحمر. وخلافاً للهندسة المعمارية القديمة، ظهرت جمالية جديدة، كانت هذه الهندسة الجديدة المستوحاة من النماذج الأوروبية تُبقي في الأبنية المستحدثة على التنظيم الداخلي القديم للمنزل وعلى الباحة المركزية المسقوفة التي تكون بمثابة صالة الاستقبال، تتوزع من حولها بالغرف الأخرى، وتعتمد أيضاً على إنشاء الفتحات لتسهيل دخول الضوء الخارجي عبر النوافذ، وهذه ظاهرة جديدة في المساكن الخاصة في المنطقة، كما تعتمد على رفع القناطر المثلثة الحادة، في مساكن الطبقة الميسورة ،التي أصبحت سمة البناء الجديد في المدينة. كذلك كان هناك سعي حثيث من جانب الطبقة الارستقراطية لان تستوطن الأماكن المشرفة، على شاطئ البحر أو على التلال، بحيث يمكن التمتع بالمنظر العام للخليج والجبل، وذلك استجابة للمتعة البصرية الجديدة ولما تثيره في النفس من انفعالات جمالية.

وفوق النتوءات الصخرية الموجودة في الشمال الشرقي، ارتفعت مساكن مهيبة بناها تجار أثرياء من الطائفة الارثوذكسية، وكانت القصور الصغيرة لعائلة سرسق ترسم حدوداً لحيٍّ شاعت العائلة أن يكون حكراً على النبلاء[13]. والى تلك الفترة تعود وفرة تسميات الأمكنة تبعاً لأسماء العائلات مثل: شارع سرسق، حي مدوّر، تصوينة التويني، طلعة دبّاس... وهناك نادرة بيروتية تكشف عن هذه الاهتمامات الجمالية، وهي تتحدث عن خلاف حصل بين زعيم عائلة تويني وبين عائلة دبّاس الوافدة حديثاً من دمشق إثر مجازر 1860، وتوصلت، ليس من دون مشقة، لان تحتفظ بمركزها الاجتماعي. عندما قرّرت العائلة بناء منزل على بعد خمسمائة متر من منزل آل تويني، تضايق الوجيه النافذ جريس تويني واستخدم نفوذه ليحول دون بناء المنزل الذي يحجب عنه رؤية البحر ونجح في مسعاه ومنع عائلة دبّاس من ذلك، حتى أقنعته زوجته الفاضلة بالتخلي لهم عن قطعة أرض أخرى بعيدة عن الموقع قليلاً، وسُمّي الطريق الذي يحاذي مسكنهم الجديد بطلعة دبّاس.

وشجعت هذا المنحى الهندسي الجديد إقامة تجهيزات جماعية من مستشفيات ومدارس ومبانٍ مخصّصة للطلاب شُيدت في الضواحي القريبة بمبادرة من الإرساليات الأجنبية والطوائف. هذه هي حال مستشفى مار جاورجيوس للروم الأرثوذكس في الرميل، الواقع شمال شرقي تلة مار متر، وهو أقدم بناء استشفائي خاص في بيروت. وبالرغم من أن القسم الأول من المستشفى ذو طابع تقليدي، إلاّ أن امتداده ونوافذه المفتوحة على المرفأ يجسّد التحول الجمالي الحاصل. وفي الجهة الأخرى من المدينة ارتدى المستشفى الألماني للقديس يوحنا، قبالة عين المريسة، مظهراً أكثر أناقة، بحديقته المتناسقة وبنائه الضخم المؤلف من طبقتين والمشيّد على شكل صليب وواجهاته المزدانة بجملون وسلسلة من النوافذ الآخذة بالطول التي تعلوها الأقواس المسننة. وبالقرب منه، تمركزت الأوانس البروتستانتيات المعروفات بـ«الدياكونس» diaconesses، في بناء على شكل «U» وواجهاته مؤلفة من مجموعة نوافذ مزدانة بصفّ من القناطر القائمة على أعمدة وكوى مستديرة. كان يحيط بالمبنى جدار مسنن، كما البرج المثمن الاضلاع الذي يشكل امتداداً له، وتزينه الحدائق، ويشرف على البحر مشرعاً واجهاته الزجاجية الواسعة المبنية على شكل أقواس حادة. وعلى مسافة أقرب من المدينة القديمة، في مواجهة السور وباب الدركة، الباب الجنوبي الشرقي، أقامت راهبات المحبة في أول الأبنية التي تزينت بالقرميد الأحمر. وفي المكان نفسه ستشيّد لاحقاً عام 1950 مجموعة المباني المعروفة بـ«اللعازارية» ، وهو لا يزال قائماً حتى أيامنا هذه ويعطي فكرة، بعد ترميمه، عن مدى اتساع هذا الميدان الذي يصل «ساحة المدافع» بالسور، مظهراً التباين الواضح بينه وبين المنشآت الصغيرة داخل جدران المدينة.

ويعود الفضل في هذا التواصل بين المساحة السكنية الفسيحة في الضواحي والقطاع المكتظ في المدينة القديمة إلى التنظيم المدني العثماني الذي كان أول من ساهم في إرساء قواعده. وترقى بداية هذا

التنظيم الموجّه إلى بداية السبعينات من القرن التاسع عشر مع افتتاح دوائر خاصة بالأشغال العامة والهندسة داخل البلدية. لقد ولّى عصر المعلمين - البنائين، وأخذ الناس يلجأون إلى مهندسي البلدية الذين تدرّبوا في اسطنبول لكي يضعوا لهم تصاميم المنشآت الجديدة. وكان يفترض بهذه التصاميم أن تحصل على موافقة المجلس البلدي قبل إصدار فرمان يسمح لها بالمباشرة في عملية التنفيذ، وجاء قانون 1877 ليكمل ما بدأه الاصلاح البلدي عام 1864، معززاً دور الأجهزة الحكومية المحلية بإنشاء مجلسين منتخبين الأول إداري والثاني بلدي يتمتع كل منهما بكامل الصلاحية.

إكتشاف التنظيم المدني

أسفر الاصلاح البلدي العثماني الذي شهدته الأعوام الممتدة بين 1864 و 1877، وجرى تطبيقه في مجمل الولايات العربية الخاضعة للسلطنة، عن نتائج متفاوتة تبعاً للاستعدادات الاصلاحية للذين أشرفوا على حسن تنفيذها[14]. وبعد تولّي فؤاد باشا السهر على تنظيم بيروت، أفادت المدينة أيضاً من تعيين مدحت باشا على رأس ولاية سوريا، وهو آخر الوزراء الاصلاحيين الكبار ومؤسس دستور عام 1876. ولكنه جُرّد من حقوقه المدنية وأبعد عن العاصمة ونُبذ عندما أمر السلطان عبد الحميد الثاني بتعليق الدستور. وبعد إنشاء ولاية بيروت عام 1888، لم يتسنَ للحكام الفرصة ليكملوا مسيرة تنظيم شؤون المدينة بعد تعاقب ستة عشر والياً على الحكم لمدة ثلاثين عاماً بين السنوات 1888 و1918[15]، بمعدّل سنتين لكلّ منهم ونادراً ما وصلت ولاية أحدهم لأربع سنوات. لكن قرار الاصلاح اتخذ، وبالرغم من العراقيل التي وضعها استبداد عبد الحميد في عجلة التطور الذي حققته الدولة باتجاه الليبرالية، استطاعت السلطات المركزية في المدينة أن تواصل مسيرة النشاط البلدي. وهذا يؤكد، على الأقل في حالة بيروت، أن السلطان الأحمر، لم يكن حفار قبور التنظيمات بل المكمّل لها، لكن عبر وسائل أخرى إذ تبدو الفترة الحميدية، على صعيد التنظيم المدني، المرحلة التي بلغت فيها روحية الاصلاح حدّها الأقصى.

لا بل إن القرارات الفوقية شجّعت المشاريع العمرانية التي تولّت تنفيذها السلطات العامة. وجب الاقتداء بالنموذج الذي روّج له هوسمان عمدة باريس والانجازات العمرانية التي تحققت في أوروبا إبّان القرن الثامن عشر باسم العقل، واستخدام الوسائل الناجحة لتحقيق التقدم في البنية المدنية واستبدال الفوضى الظاهرة لشبكة الطرقات المهملة بخطوط مستقيمة. كان لا بدّ للتنظيم المدني الذي أعتقته الفنون الحربية الجديدة من القيود التي تحتبس المدينة داخل أسوارها، من أن يخضع لضرورة أخرى يفرضها تنظيم السير ووسائل النقل. ذلك أن التطورات التكنولوجية، وليس فقط الزيادة السكانية، المتمثلة في العربات العامة وسكك الحديد ومحطة الترامواي في بداية القرن العشرين،

كانت تفترض إيجاد مساحات إضافية عامة مفتوحة.

وقبل أن تصبح الكلمة الفصل لفكرة الخطّ المستقيم فرضت هذه المساحات المفتوحة تدابير هدفها الاستجابة لحاجات النقل كالساحات وأماكن التوقف والساعات العامة ولاحقاً المحطات. ونتيجة لذلك، ظهرت باحات التنزه والمقاهي، لا بل الفنادق. وأنشئت الساحات الدائرية الشكل حيناً والمضلعة في أغلب الأحيان، وكانت شاهدة على هذا التمدن المتطوّر فافتتحت فسحات في جدار العمران من خفف في الشعور بالاكتظاظ وحفّز سلوكيات جديدة[16].

إقتضى تطور الديمقراطية والنظام المركزي الحميدي بناء صروح عامة عبّرت هي أيضاً عما طرأ من تغيير. إذ كانت هذه الأبنية المعدة أصلاً لاستيعاب أجهزة السلطة ودوائر الخدمات العامة التي ازدادت يوماً بعد يوم، تشاد في العاصمة وسائر المدن، وفق هندسة نيوكلاسيكية جسّدت آخر مظاهر السلطة العثمانية التي كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة في كل مكان. كان الطابع الوظائفي للانشاءات يقترن بتعديلات على الفن الاسلامي التقليدي الذي يسمح بإظهار خصوصية الامبراطورية بالنسبة إلى هذا الغرب الذي ينزل فيها[17]. وعلى امتداد الأراضي العثمانية، وخاصة الولايات العربية التي كانت تحظى باهتمام السلطان عبد الحميد الخاص. كان مفهوم الهوية العثمانية، وهو مفهوم جديد، يتذرّع بهذه المرجعيات الزخرفية التي رسمت المجد الغابر للإمبراطورية، لكي يبرر لنفسه الاستمرار في السلطة ويعبّر عن حيويّة شاءتها الإمبراطورية أبدية. على أية حال كان الأسلوب نفسه متبعاً في أدرنة وبيروت على حد سواء[18] معلناً تفوّقه وواضعاً الحواضر العثمانية على مستوى واحد مع العمران الاوروبي، ليدعم استمرارية امبراطورية شهدت فترة تاريخية من التمدّن وهي ماضية قدماً في تنفيذ مشروعها الوحدوي.

لم يجرِ وضع هذا العمران من قبل السلطات العليا قيد التنفيذ دون عوائق إدارية أو صعوبات محلية. وجب انتظار التصديق على قانون 1877 والدفع الذي أحدثته تولية مدحت باشا على دمشق -بعد تنحيته من منصبه كصدر أعظم - حتى تتسنى لنا رؤية مشروع متماسك عام 1878 في بيروت. استعاضت البلدية التي أضحت بمثابة جهاز يتولى تنظيم سير الأمور عن التدابير العفوية الطابع بالمشاريع التي يجري التخطيط لها وراحت تعمل على تحديد المساحات العامة الجديدة التي أدخلت إليها ساحات ذات أشكال هندسية وطرقات تحف بها الأرصفة وحدائق وممرات للتنزه انتشرت من حولها الأبنية الإدارية والمدارس وأكشاك الموسيقى والمسارح والحمامات وكلها مبنية وفق الطراز النيوكلاسيكي الرائج[19].

وتتويجاً لادارة التقدم و«التمدن»، كانت مشاريع البلدية تهدف بشكل جلي بعد عام 1878 إلى تحسين هيئة الحاضرة بحيث تكون أقدر على تلبية حاجات السكان الطارئة والى إبراز النزعة التجديدية



حديقة الحميدية.

للعثمنة مستجيبة على نحو خاص لضرورة تحسين النظام الصحي وتسهيل حركة السير، الأمر الذي تجسد عبر منطق هندسي يرمي إلى اعادة تنظيم التشكيلة المدينية داخل السور وجعلها متصلة بالضواحي القديمة التي صارت مركزاً جديداً لها، وكل هذا من خلال التخطيط لتنظيم الطرقات والجادات الواسعة المستقيمة. لكن مشروع شق ثلاثة مداخل إلى المدينة، اثنين منها يتجهان صعداً من المرفأ - باتجاه الشارعين اللذين سيصيران شارعي أللنبي وفوش لاحقاً - وواحد جانبي ينطلق بموازاة الخط القديم شرق غربي السور، اعترضت تنفيذه صعوبات عقارية جمّة. بالمقابل، جرى توسيع طريق طرابلس على محور مواز للمرفأ عام 1886. فأعمال الهدم لم يُباشر بها إلا عام 1915. بيدَ أن التغيير الذي طرأ على ساحة البرج هو الذي أدخل بيروت عملياً في العهد الجديد للعمران العثماني.

منذ عام 1879، قدّم رئيس المجلس البلدي، فخري بك (ابن محمود نامي بك) مشروعاً لتنظيم الساحة التي ستحمل اسم ساحة الحميدية والتي سيتم تشييدها تخليداً لذكرى السلطان عبد الحميد



الساعة التي صممها يوسف أفتيموس في فناء الثكنة.

تحيط بها حديقة عامة مستوحاة من حديقة الازبكية في القاهرة. بعد موافقة الوالي في دمشق، أطلق فخري بك عريضة للبدء بتنفيذ المشروع تبرعاً وكان هو أول الموقعين عليها. وصمّم بشاره أفندي، رئيس المهندسين في الولاية، حديقة على الطراز التركي مزروعة بالليلك الفارسي ومزدانة بممرات للمتنزهين وتحتوي على بركة وكشك موسيقى. أبصرت الحديقة النور عام 1881. في الجهة الشمالية من الحديقة، جرى التخطيط لبناء السراي الجديد الذي صمّمه بشارة افندي نفسه بمساعدة يوسف أفندي خياط، ووُضع حجر الأساس خلال احتفال أقيم في حزيران/يونيو 1881. دُشّنت الحديقة

في أيار/ مايو 1884 خلال احتفال مهيب بحضور أعيان المدينة، وكانت مصوّنة ومجهزة بالانارة، وموسومة في وسطها بالطغرة، أي ختم السلطان، وقد أقيم إلى جانبها مقهى فخم. وبعد ثمانية أشهر، في كانون الأول/ ديسمبر 1884 جرى احتفال كبير أشدّ فخامة من السابق ترأسه والي دمشق حمدي باشا تمّ خلاله الإعلان عن انتهاء الاعمال في السراي[20]. وبعد 1888 بات هذا السراي مقرّ والي بيروت وضمّ مكاتب المتصرفية[21].

وبالتزامن مع ذلك، جاء المسح العقاري وإصدار قوانين البناء ليجعلا من الساحة العامة نموذجاً حياً عن التنظيم العمراني. واختيرت الأراضي المعدّة للبناء وفقاً لمقاسات لا عهد للمدينة القديمة بها. توجب على الأبنية المشيدة بجوارها أن تكون ذات إرتفاع واحد كي لا تنتقص من قيمة الجادة الواسعة التي تنتهي شمال السراي. متحداً باسم ساحة السلطان، أضفى السراي بخطوطه النيو كلاسيكية التي تمثل الهندسة العثمانية المعتمدة مظهراً امبراطورياً على ساحة البرج التي كانت مجردة من أي طابع رسمي. وأضحت ساحة الحميدية، مع وجود موظفي الولايات ومقر البلدية في السراي نفسه المتاخم لها، وثكنة الدرك على المنحدر الغربي، تجسيداً حياً لتجدد النظام الحكومي[22]، وقد مهدت لتحسين وتنسيق العلاقات بين الموظفين. وشُيّد لاحقاً في عام 1910 بناء خشبي على الطراز المغربي وسط الحديقة ليكون مركز البلدية. ولكن المركز لم يدم لفترة طويلة لأن البلدية انتقلت عام1917 إلى مقرّها الجديد في السراي، بعد أن نقل مقرّ الولاية إلى الثكنة في الأعلى، المعروفة منذ ذلك الحين بالسراي الكبير.

لم يمنع الطابع الرسمي لساحة الحميدية من أن تصبح المركز الأكبر للأعمال في المدينة. والى الطرف الشمالي، على جهتي الحديقة، جعلت بعض الشركات الكبيرة التي تعنى بمصالح الناس أو بأهداف استراتيجية مقراً لها، كشركة المرفأ وسكك الحديد وغاز المدينة والتبغ شمالاً والبنك العثماني يميناً. كذلك ازدهرت ساحة الحميدية في قسمها الجنوبي فأحاطت بها الفنادق والمقاهي والكازينوهات، ولا ننسى الكلام عن بيوت الدعارة المجمعة على جانبي الشارع الشرقي الذي يؤدي عمودياً إلى الساحة[23]. وظهر نموذج غير معهود من المحال ذات الواجهات الزجاجية التي تعرض سلعاً حديثة تثير فضول العابرين، كالمكتبات والصيدليات ومحلات الساعات، الخ.. وجاء سوق رعد وهاني الذي بُني حديثاً عند الزاوية الجنوبية الغربية حول إحدى الساحات المركزية المعروف بسوق الحميدية وهي مزينة بنافورة ماء، ليزيد في الوظائف العمرانية المتعددة للساحة، سيّما وان صالة مسرح وقاعة احتفالات ألحقتا بها.

ومن بين كل هذه الوظائف، برز الدور الذي تقوم به محطة الطرق فكانت المساهم الأكبر في إحياء الأمكنة. أصبح البرج قلب المدينة النابض وبابها، محتفظاً بذلك بدوره القديم الذي جعل منه آخر

محطة للقوافل قبل عبورها إلى داخل جدران المدينة، ومستبقاً أيضاً الدور الذي سيتخذه بعد اختراع السيارة. كانت خطوط عربات النقل التي تؤمن المواصلات للأحياء الجديدة في المدينة أو للقرى في الجبل، ومن بعدها عام 1907 خطوط الترامواي ، تنطلق من المحطات المنتظمة بشكل شبه تام على الخاصرتين الجنوبية والشرقية. كما كانت هناك الطريقان الكبريان اللتان تخترقان المدينة، طريق دمشق - التي تفرّع منها خطّ على حدود التجمع السكاني باتجاه صيدا - والطريق الساحلية نحو طرابلس. وأتاح شق الطريق الجديدة عام 1894 (وهي شارع ويغان فيما بعد) بين المسجد العمري وباب ادريس قيام خطين يؤدي كل منهما إلى المرفأ بعد أن كان الطريق الوحيد الذي يؤدي إلى المرفأ يمتد من طريق دمشق عبر ساحة عصور، مستهلاً بذلك حركة السير باتجاه غرب المدينة التي كانت في أوج توسعها.

وعلى أثر ثورة تركيا الفتاة عام 1908 وتنحية السلطان عبد الحميد الثاني عن السلطة في السنة التالية، أطلق على ساحة الحميدية اسم ساحة الاتحاد، فيما أصبحت الحديقة المحيطة بها حديقة الحرية. وهذه التسميات كانت عابرة لأن الساحة، بعد انتهاء الامبراطورية العثمانية باتت تعرف باسم ساحة الشهداء، تخليداً لذكرى القوميين العرب واللبنانيين الذين شنقوا عام 1916، وبقيت التسمية سارية حتى أيامنا هذه، لكن التسمية التي دارت على ألسن الناس والتي لا تزال متداولة هي ساحة البرج. لاضَيْر في ذلك، فبالرغم من زوال التسميات العثمانية وزوال الحديقة المحيطة بها، ظلّ بنيان الساحة وأهميتها الوظائفية نموذجاً حتى عام 1975، على نحو واسع، لأسلوب الهندسة التركية في الحقبة الحميدية.

وتحكمت هذه الرؤية أيضاً، في إطار الشؤون الكبرى للبلدية، بتنظيم ساحة عصور (ساحة رياض الصلح فيما بعد) التي تشكل المساحة العامة الأخرى الكبيرة على حدود السور القديم، بالرغم من التأخر في الأعمال الذي يعود دون شك إلى مشاكل مادية. وأدّت الطريق المرصوفة لمحمود نامي بك ثم بناء الثكنة فوق التلة القريبة، وأخيراً طريق دمشق التي تمر آنذاك بتلك الساحة، إلى أن تجعل منها مفترق طرق هاماً للتجمع، وممراً الزامياً باتجاه الأحياء الغربية أو الجنوبية الغربية التي هي قيد الإنشاء. وفي سنة 1882، اتخذ القرار بتسوية أرضها وإنشاء حديقة مركزية فيها، لكنه بقي دون تنفيذ. وبعد عشر سنوات اقترح المجلس البلدي الذي كان يرأسه محمد أفندي بيهم خطة جديدة محاولاً أن يبني فيها صرحاً للبلدية. وهذا المشروع بقي أيضاً من دون تنفيذ، لكن الطرق مُهدت وشارع الباشورة جرى توسيعه جنوباً. وفي غضون ذلك، أثبت منطق التطور العمراني أهمية الساحة فاستحدثت بجوارها محطات للعربات العامة والمحال التجارية وصيدلية تابعة للبلدية ومركز تلغراف، وبالرغم من فشل المشروعين اللذين قدمتهما البلدية تباعاً، لم يحل هذا دون اختيار تلك الساحة مركزاً لبناء مهيب يكرّس مكانتها. أقيمت فيها عند نهاية القرن نافورة ماء مهداة إلى السلطان عبد الحميد يميزها



نافورة اليوبيل الحميدي
في ساحة عصور.



بدايات الترامواي جنوبي
ساحة البرج.

الطابع الشرقي وكانت من إنجاز يوسف افتيموس صهر بشارة أفندي، الذي عُين رئيس المهندسين في البلدية بعد أن انهى دراسته في الولايات المتحدة وعاد من هناك ... برؤية هندسية تميزت بطابعه النيومغربي الذي يتلاءم فعلاً مع الرغبة العثمانية في إظهار خصوصية السلطنة[24].

والى غرب ساحة عصور، فوق التلة، أنشئت ساحة الثكنة وفقاً للأسلوب السائد في تسعينات القرن التاسع عشر، تحيط بها حديقة مرسومة بشكل هندسي بين الثكنة والمستشفى العسكري تشرف على المرفأ والمدينة القديمة، وشيّد يوسف أفتيموس فيها عام 1898 برج ساعة يتميز بطابع شرقي، وهو الأول من نوعه في مدينة عربية بعد عشر سنوات على بناء ساعة طوفان في اسطنبول[25]. وإمعاناً في التفذلك، كانت الساعة تدق بحسب التوقيتين الفرنسي والتركي، وكأنها تؤكد على تأرجح المدينة بين زمنين، زمن العالم المحكوم بالتوسع الاوروبي وزمن الإمبراطورية التي ترفض الموت.

واستكمالاً للنهضة التي شهدها وسط المدينة، أفاد القسم الشمالي القديم منها من خلال التأثير الذي أحدثه توسع المرفأ والاهتمام الحكومي وتحديداً البلدي. وفي الربع الأخير من القرن العشرين، عرفت الجهة الشمالية الشرقية من المدينة ظاهرة الأسواق الحديثة، وهي أسواق تجارية مخصصة للمشاة تتقاطع عمودياً مع خطّ الأرصفة. كانت هذه المجموعات التجارية تُعنى بعرض المنتوجات الأوروبية المترفة من فضيات وثياب مزركشة وقطنيات وأقمشة وملابس. امتازت هذه الأسواق عن سابقاتها بانتظامها وواجهاتها الزجاجية ولافتاتها المزينة . وأول سوق أبصر النور هو سوق الطويلة عام 1874، الذي أقيم مكان الزقاق المحفوف بأشجار الصبّار الذي كان يخترق غابة التوت الصغيرة إلى الزاوية الشمالية الغربية من السور باتجاه المرفأ. عُرف سوق الطويلة في بادئ الأمر بإسم سوق المسيحيين وكان يضم محلات ألبسة فرنسية الاسم والصنع إلى الجهة العليا منه، «سوق الجميل» الذي بُني عام 1894، والذي عرّف عنه الفيتال كوينيه Vital - Cuinet كما يلي: «انه تجمّع من المخازن المتتالية حيث لا تُباع إلاّ المنتوجات الأوروبية [26]». وقد ساهم فتح الطريق الجديدة على الخط الشرقي - الغربي في شهرة الاسواق التجارية التي نشأت في هذا الحي وأيضاً حملات النظافة التي قامت بها البلدية لاحقاً. وعلى امتداد هذا الشارع، إلى الغرب، نشأ في الحقبة نفسها حي وادي «أبو جميل» الذي اختارته الطائفة اليهودية مقاماً لها بعد أن انطلقت خارج جدران المدينة. بالمقابل، شهدت الجهة الشمالية - الشرقية من المدينة القديمة بطئاً في نموّها، إذ راوحت مشاريع توسيع الطرقات مكانها، بسبب الصعوبات العقارية، ووجب انتظار الحرب العالمية الأولى ليُشق الشارعان الكبيران في المحور الشمالي - الجنوبي اللذان خُطط لهما سابقاً. لكن الدرج الفخم الذي يصل سراي ساحة الحميدية بالمرفأ لم يرَ النور قط. بَيْدَ أن توسيع الأرصفة وتحديث الواجهة البحرية زادا من الضغوط على الأحياء المتاخمة وأرغماها على اللحاق بركاب العصرنة.

ولم يعد المرفأ ذاته تابعاً لسلطة البلدية. لكن ما إن أنشئت التجهيزات الجديدة ارتدت الأرصفة المواجهة لباس العصرنة. ومن الجهتين، أصبحت الممرات المخصصة للمشاة والمتنزهين موازية لواجهة المرفأ على امتداد الساحل. وأضحى رصيف المرفأ بحد ذاته طريقاً للنزهة يقصده الأهلون، والأرصفة مكاناً للتجمع والأبهة خلال العروض العسكرية أو لدى وصول السفن المهمة. وفي بداية القرن، استكملت المنشآت البحرية من خلال بناء محطة بحرية وفي غضون ذلك ارتفعت مبانٍ مؤلفة من ثلاث أو أربع طبقات مخصصة للمصارف والفنادق ووكالات السفر البحرية والمقاهي والمطاعم. وفوق المرفأ القديم المردوم، اختارت مجموعة المخازن الكبرى أوروزدي - بك التي تملكها عائلة يهودية في العراق أن تبني فرعاً لها في بيروت ودشّنته في أول أيلول / سبتمبر عام 1900. جُهّز المبنى بمصاعد كهربائية وهي الأولى من نوعها في المدينة، وزُيّن بنقوش مستوحاة من الطراز الاوروبي الرائج آنذاك[27]. وأقام البنك الأمبراطوري العثماني مبنى جديداً عام 1906 عند زاوية الرصيف بجوار خان انطون بك، الذي أنشئ عام 1865، ثم انتقل عام 1892 إلى ساحة الحميدية لخمس عشرة سنة مقبلة. وكذلك شُيدت صروح أخرى أقل ضخامة كصرح الجمارك الذي زُيّن سقفه بالقرميد الأحمر تماشياً مع البناء المحلّي وازدانت واجهاته بالاقواس والقناطر.

وإذا كانت السلطات العامة تعمل في غالبية الأحياء، لصالح التوسع العمراني الذي تمليه عليها التحولات الاقتصادية للمدينة وحركة مرفئها، فإن البلدية لم تتوان أيضاً عن التدخل لتخلق من لا شيء عملياً قطباً عمرانياً جديداً: حي الصنائع في ضاحية «مزرعة يمين» القديمة، غربي تلة القنطاري



تدشين مدرسة الصنائع والفنون.

ووادي «أبو جميل».

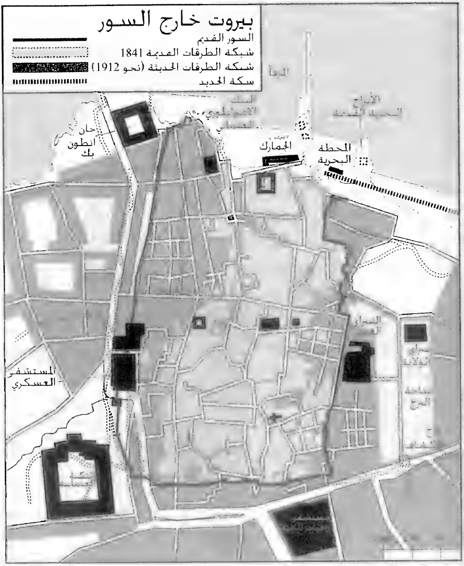
اكتسب الحي الجديد اسمه من مدرسة الصنائع ومن الحديقة المجاورة التي دشّنها الوالي عام 1907، وقررت البلدية أن تنشئ في الوقت نفسه مستشفى وكركولاً (أي مركزاً للبوليس) وسجناً[28]. كانت الطريق التي تؤمن المواصلات للحي مستقيمة وستصير شارع القنطاري الذي ازدهر في القرن العشرين ممهداً السبيل مستقبلاً لولادة شارع الحمراء. ولكنه كان منذ ذلك الحين يدفع بالتجمعات ناحية الغرب، ويزيد من توغلها شمالاً باتجاه الفنادق الناشئة على طول خليج ميناء الحصن وباتجاه مجمّع الكلية السورية الانجيلية على المنحدر المؤدي إلى رأس بيروت.

مساحة للحداثة

شهدت مراكز التجمع نهاية القرن التاسع عشر تجدداً على كافة الأصعدة، لا بل إن اسلوب ممارسة حياة المدن تطور مع تلاشي الوظيفة السكنية للأحياء المركزية، القديمة والجديدة على حد سواء، وازدياد المساحات العامة التي ظهرت على تخوم المدينة القديمة. كما انعكست الحداثة باطراد في جميع مظاهر الحياة في المدينة.

إنها الحداثة الرسمية التي تعهدتها الدولة العثمانية عبر ترسيم الساحات وتوسيع الطرق وانشاء المباني الحكومية، والتي زادتها الاحتفالات الرسمية ترسيخاً. آنذاك، غابت الانتصارات العسكرية، وهي مادة تقليدية لإقامة الاحتفالات في السلطنة. لكن هذا لم يمنع أن تنتهز المناسبة فتنظم عروض عسكرية ويحتفل بالأعياد، ما يحافظ رغم كل شيء على مشهد العظمة واثبات النفوذ[29]، كأن يحتفل مثلاً بذكرى تولي السلطان العرش أو بزيارات كبار المسؤولين الاوروبيين أو وصول كبار الموظفين ورسو الأساطيل الأجنبية، في الساحات الجديدة، وتحديداً حول المرفأ في ساحة الحميدية.

إنها أيضاً حداثة على الصعيد الفردي وإن لم يكن نمو التجمعات قد سمح بعد بتفكيك أواصر العائلة أو الطائفة. لكن وسط المدينة كان مكاناً للعلاقات الاجتماعية المفتوحة وإطاراً يسمح للأشخاص بأن يثبتوا وجودهم من دون أن يفرض عليهم تستراً كاملاً. وكانت هذه العلاقات الاجتماعية محفزة نهاراً عبر نشاطات تجارية محرّرة من القيود الجغرافية في السوق القديم وعن طريق إرتياد مكاتب الدوائر التواصل مع المسافرين الذين يملأون المقاهي والفنادق. كما كانت العلاقات تستمر ليلاً بفضل تزايد أماكن اللهو وانتشار المطاعم والنوادي، دون أن ننسى بيوت الدعارة التي ارتدت هي أيضاً طابعاً اوروبياً. كانت الحانات والمقاهي تقفل أبوابها عند مغيب الشمس، ولكن الحصول على إذن خاص كان كفيلاً باطالة الفترة حتى منتصف الليل[30].


بيروت خارج السور
السور القديم
شبكة الطرقات القديمة 1841
شبكة الطرقات الحديثة (نحو 1912)
سكة الحديد
خان انطون بك
الجمارك
المحطة البحرية
المستشفى العسكري

لقد شجعت الهندسة المعمارية بحد ذاتها حركة تنقل الأفراد آنذاك. وجسّدت الأسواق الجديدة الواسعة المنتظمة التي انطلقت من الضواحي باتجاه قلب المدينة القديم في الشمال الغربي والجنوب الغربي هذه المرحلة الانتقالية باتجاه تنشيط الحركة الاقتصادية في المدينة. وحافظت الأسواق على الاشكال القديمة عبر القناطر ونوافير المياه والنمط المعماري المكتظ الذي منح الشرع طابعا حميميا. لكنها أفسحت المجال امام حركة المرور مستجيبة للتخطيط المنظم فجرى توسيع الطرق على الجنبين بحيث تتلاءم مع تنقل عربات الخيل وقد شمل هذا التحول المدينة القديمة. صحيح إن الخطين الشمالي - الجنوبي لم يتم انجازهما في وقت مبكر لكي يبثا في المدينة حياة جديدة، لكن إنشاء مجموعة من الأسواق وفق ترسيمة عمودية مخصصة للمنتوجات المستوردة، حول السراي القديم الملتصق بالسور القديم الشرقي وفي ومن محيط كاتدرائية مار جاورجيوس للروم الارثوذكس، اتاح للمدينة أن تتخلص من المشاكل التي تكبلها وتخرج من المتاهة الغارقة فيها. هذه هي حال سوق سرسق الذي بُني مكان السراي القديم بالذات والمؤلف من شارعين تنتشر فيهما الحوانيت المربعة، لكنه يتآلف مع غيره من الأسواق المجاورة القديمة المحيطة بالمسجد العمري التي تعرض في واجهاتها المنتوجات المحلية. شكلت هذه الأسواق كلها، بخطوطها المستقيمة، تجديدا حاسما إذ لم تترك للمساحة السكنية أن تتداخل كما في السابق مع المساحة التجارية. وبعد أن غرقت المدينة في وسطها المتسع الذي بات يجسّد فصلا بين العام والخاص. وبعد أن أصبحت هي نفسها خاضعة لتحوّل يجعلها تتجه باطراد نحو النشاطات الاقتصادية، بدأت تتخلّى والحالة هذه تدريجيّ ولكن بشكل حاسم عن دورها السكني لصالح الضواحي القديمة.



عظمة المباني الدينية الحديثة: الكاتدرائية المارونية المكرّسة عام 1894.

وانعكس هذا الفصل بين العام والخاص

على ممارسة الشعائر الدينية وتعددت داخل المدينة القديمة الصروح الدينية التي لم تعد تستجيب كثيراً للتقاليد الدينية القديمة بل سعت إلى تجسيد دورها العظيم وإعادة الاعتبار له من خلال مظهرها المهيب.

كانت هذه هي حال الكنائس الموسّعة التي ازدانت سقوفها بالقرميد. وأضيفت إلى كاتدرائتي مار جاورجيوس للروم الارثوذكس المكرسة عام 1767 ومار الياس للروم الكاثوليك المشيدة عام 1849، كاتدرائية ثالثة للموارنة مقابل مقرّ راهبات المحبة وهي قامت أيضاً على اسم القديس مار جرجس مكان الكنيسة التي تحمل الاسم نفسه. وكُرّس هذا الصرح الضخم ذو الطابع الايطالي الذي صمّمه جويزبي ماجوري Giuseppe Maggiori عام 1894 بعد عشر سنوات من بدء الأعمال فيه. وزاد من هذا الانطباع بالفخامة الدينية، الكنيسة المهيبة للقديس لويس الكبوشي التي صممها الفرنسي ادمون دو توا Edmond Duthoit حسب الطراز الروماني - البيزنطي، في أعلى السور القديم، على مسافة قريبة من الثكنة. وضخامة هذه الأبنية معطوفة على الأمكنة الرسمية في ساحة الحميدية والأحياء التجارية في المرفأ وعلى تخلّي المدينة القديمة عن وظيفتها السكنية، أبرزت بشكل أشدّ جلاء الوضعية الجديدة لوسط المدينة كمحور مركزي لتجمع سكاني يتجاوز حدودها يوماً بعد يوم.

وما ميّز أكثر من أي شيء آخر وسط المدينة الجديد هو انه كان مركز النشاطات كافة. وفيما كانت المدينة القديمة تختصر لبضعة عقود خلت كل التجمعات السكنية التي أضيفت إليها لاحقاً بعض الضواحي الناشئة أو حفنة من القرى المعزولة بعضها عن بعض، كان وسطها الذي زاد اتساعه كثيرا بالمقارنة مع المدينة داخل الأسوار، لا تزال مساحة محدودة منه تستأثر بالنفوذ العمراني الذي ازدادت كثافته باطراد.

ومع بداية القرن العشرين، توقفت حركة انتقال السكان في المدينة القديمة، لكن النشاط الداخلي لم يتوقف وهجرت العائلات الميسورة الضواحي القديمة التي أصبحت إما من الأحياء المركزية أو حاصرتها المؤسسات التجارية، سيما أن موجات الهجرة ظلت تتدفق على بيروت لدوافع اقتصادية أو استجابة للمغريات التي يمارسها النموذج المديني والآفاق التي يفتحها في وجه الطامحين من رجال الأعمال.

أما الضواحي القديمة فكانت تحافظ على استمراريتها واتصالها بالمدينة والقرى المنتشرة في الضواحي التي اختطفها التمدد العمراني مع الأراضي الوعرة المحيطة بها وكان التنظيم المدني أهملها سابقاً ثم تهافت الناس عليها بعد الانفجار العمراني. كانت بيروت آنذاك ما زالت قادرة على استيعاب القادمين إليها وخاصة في منطقة تلال الرمل جنوباً وعلى طول الخاصرة الغربية للمطل. ولكن، من الجهتين الأخريين، شمالاً البحر وشرقاً النهر، بدأت تستكمل حدودها الطبيعية. وبعد أن استوعبت



الواجهة البحرية في ميناء الحصن.

بيروت المساحة المربعة والحزام الأول من الضواحي الذي يحيط بها. أخذت مجموعة من أبنية طولية تتشكل على المحور الشرقي - الغربي منتشرة على حدود شبه الجزيرة ومندفعة أكثر باتجاه الواجهة الغربية التي لن تمتلئ كلياً إلا في النصف الثاني من القرن العشرين.

والى الشرق من المرفأ، مهّد امتداد الضاحية القديمة المعروفة بالصيفي لولادة حي الجميزة الذي برز من خلف ساحة الحميدية من جهة ولامس صخور المدور من جهة أخرى. ما شجّع على مواصلة العمران مقابل البحر حتى حدود النهر. وبالتزامن مع ذلك، كان امتداد العمران إلى تخوم النهر عبر محلة الرميل. يساعد على تشكل حي الأشرفية حول تلة مار متر. وأفادت الأشرفية من الأبهة التي أضفتها عليها الشوارع الأنيقة للبورجوازية التجارية الكبيرة كشارع سرسق، فاتصلت مع وسط المدينة من خلال الانجاز الضخم لليسوعيين وهو جامعة القديس يوسف التي تأسست عام 1875 وضمت اليها الضاحية المسماة آنذاك بحي القيراط، الذي لم يعد معروفاً في يومنا هذا.

والى الغرب، اجتذبت منطقة رأس بيروت على الواجهة البحرية الشمالية الاهتمام العمراني. فهناك، على طرف التلة، تملّك المرسلون الأميركيون قطعة أرض عملاقة لينشئوا فوقها «كامبوس» الكلية السورية الانجيلية، الكبير الاشبه بمدينة. وفي الأسفل، على خليج سانت-أندريه، أضحت الضاحية القديمة لميناء الحصن ملاصقة للانشاءات المرفئية وخان انطوان بك، وزاد من ثرائها الحركة الفندقية الناشطة فيها، مستكملة امتدادها باتجاه قرية الصيادين في دار المريسة التي أصبحت عين

المريسة. وجاء إنشاء البلدية لمتنزه باتجاه المنارة ليكمل التحول الذي شهدته الواجهة الشمالية. وأصبح حي عين المريسة منطقة عامرة بفضل وجود الجامعة الأميركية على مقربة منها، كما شكل شارع بلس، مستقبلاً، الواقع إلى جنوب الكامبوس، والذي يصل المكان بالمنارة، نواة لحي من الطبقة المتعصرنة والمثقفة طوعاً حملت فيما بعد اسم راس بيروت، فيما كانت هذه المنطقة تُعد فقيرة وموبوءة في منتصف القرن[31].

إضافة إلى اتصال حي رأس بيروت بالمدينة عبر الواجهة البحرية، فقد شكل امتدادا لها في الداخل عبر وادي «أبو جميل» وحي القنطاري الجديد. هذا هو المسار الذي تبعه خط الترمواي ليؤمن المواصلات إلى تلك المنطقة في بداية القرن، لكنها بقيت معزولة نوعاً ما على خاصرتها الجنوبية وكأنها من المناطق المنعزلة عن وسط المدينة، بالرغم من أن حزام المدينة الغربي والجنوبي ضاق بسكانه.

وعلى تخوم ساحة عصور، عند زاوية السور القديم، امتد حي الباشورة نحو البسطة، ثم اتصل غرباً بالمصيطبة ومنها بزقاق البلاط. وبين البسطة، وهي حي اسلامي، والمصيطبة بأكثرية مسيحية،



صخور منطقة المدوّر وتبدو المساكن الجديدة الفخمة في الخلف.

إمتد العمران بدوره إلى قرية مزرعة العرب راسماً حدود الحزام الجنوبي الجديد للتجمع السكني الذي صار اسمه أكثر بساطة: المزرعة. وامتدت الضاحية القديمة المسماة «الغلغول» المتاخمة للباشورة ولساحة عصور، باتجاه حي القيراط ومشارف الأشرفية صعوداً إلى ينابيع رأس النبع[32] وهي قرية قديمة على طول طريق دمشق[33]. واستكمل انشاء البلدية لمنتزه باتجاه غابة الصنوبر، التوسع العمراني نحو الجنوب.

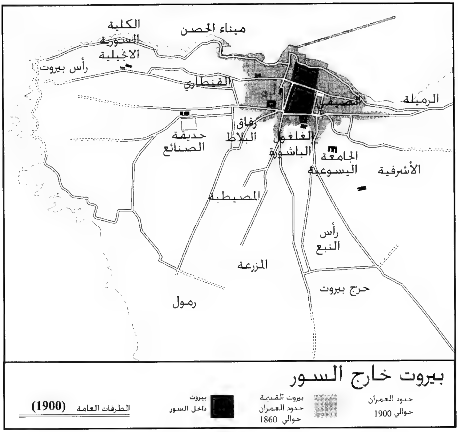
في حين بدأ يلوح توسع جديد للحزام المديني، حول طريق دمشق وقبل البدء بالصعود نحو قمم الجبل، أخذت قرية فرن الشباك، المشار هكذا إلى اسمها عام 1850[34]، تشكل ضاحية جديدة، واستكملت بضاحية عين الرمانة التي نشأت من التمدد العمراني لقرية الشياح، النواة العتيدة للضاحية الجنوبية[35].

ضواحٍ خضر وسطوحٌ حمر

ضمن هذا الامتداد لمراكز التجمع، أخذ الفصل بين المساحة العامة لوسط المدينة والمناطق السكنية يزداد وضوحاً، نظراً لتباين المشهد المديني. لكن التنظيم التدريجي للمدينة القديمة وجوارها خفّف قليلاً من التباعد الملحوظ في الخمسينات من القرن التاسع عشر بين اكتظاظ الانشاءات داخل المدينة



التوسع العمراني في أسفل الاشرفية.



والرقعة الجغرافية الأقل كثافة في الضواحي. وكان شيوع استعمال قرميد مرسيليا والواجهات ذات الأقواس المثلثة، يضفي انسجاماً على المشهد المديني. لكن التمييز بين العام والخاص جسدته فوارق الكثافة، وذلك يظهر جلياً لدى مراجعة الصور الفوتوغرافية المأخوذة في بداية القرن. فالصور المأخوذة لوسط المدينة الذي هجره سكانه، تُظهر الاكتظاظ خاصة في النهار فيما يشبه مشهد الأحياء السكنية لوحات الطبيعة الصامتة. في الواقع، لم تكن الهندسة الجديدة للأحياء تحث على التمركز البشري.

وفي جميع الضواحي القديمة، وتحديداً الاقطاب الثلاثة الكبيرة، وهي رأس بيروت والأشرفية والمصيطبة[36]، كان النموذج الطاغي إنشاء المساحات الخضراء حيث تفصل بين الأبنية حدائق خاصة متفاوتة الأحجام. في الجعيتاوي، شمال شرقي الأشرفية، كان الإطار رعويا بما يكفي ليحتضن بناء اليسوعيين ذا الطابع الريفي - وتيمناً به سيطلق على الحديقة المجاورة اسم «جنينة اليسوعية». كانت المنازل المشيدة في هذه الأحياء تفرض نفسها حتى لو لم تتعدّ الطبقتين - ولو وصل ارتفاع الطبقة فيها إلى خمسة أو ستة أمتار. ذلك إن انتظام الطرق وانسجام التفاصيل الزخرفية الموحدة

فوق الواجهات أضفت عليها طابعاً مدينياً.

كانت الأقواس المثلثة للواجهات، والتي ما يزال مؤرخو الهندسة المعمارية يجهلون مصدرها، تستجيب لمتطلبات الضوء والتهوئة التي تبنتها الفلسفة الجديدة للاسكان. كان همّ السلامة والصحة هو الذي دفع بالكثيرين إلى هجر المدينة داخل الأسوار سعياً وراء نور الشمس وطمعاً بنسمات الهواء المنعش. لكن مع تحول الايوان المركزي لصالة كبيرة مسقوفة لم يعد بامكان الضوء والهواء النفاذ من الجوّ والنوافذ المشرفة على الباحة. مما استوجب توزيع الغرف حول هذه القاعة الرئيسية للحصول على أكبر قدر ممكن من الضوء والهواء ليعاد توزيعه على باقي الغرف. والهمّ الصحي نفسه تحكم بإنشاء مطبخ معزول وحمامات مفتوحة أيضاً على الخارج.

ظهر نموذج البيت المفتوح على الخارج ومن حوله الحديقة الخاصة في منازل البورجوازية الكبيرة عقب أول انطلاقة لبيروت في الاربعينات من القرن التاسع عشر. وهذا النموذج، الذي أثقلته في هذه الأوساط، التحسينات الخارجية المستوحاة هي نفسها من مصادر مختلفة منها التأثير الباروكي والمغربي أو النيو مغربي، وحيث أعمدة المرمر في الداخل تتداخل مع الزخارف الجدرانية والسقوف المزدانة بالرسوم[37]، والأثاث الداخلي مأخوذ عن الارستقراطية الاوروبية ومستورد من بلد المنشأ... هذا النموذج مهّد، على مرّ السنين لانتشار قصور حقيقية. ولا تزال منها بقايا تشهد على ثراء القناصلة والمطامح الارستقراطية لعائلات التجار الأكثر ثراء كالسراسقة وآل تويني وبسترس وهي عائلات ارثوذكسية تقطن الاشرفية، وآل الداعوق السنّة في رأس بيروت وآل فرعون الروم الكاثوليك في زقاق البلاط. ولكن هذا النموذج أخذ أيضاً طريقه إلى المزيد من الفئات الشعبية. فبوجود التقنيات الصناعية الجديدة، انخفضت كلفة تجارة الجدران والحديد المطروق وزجاج الواجهات، واستطاعت الطبقات الأقل يسراً تحريف هذه الهندسة المنزلية إلى تنويعات وأحجام مختلفة مبقية مع ذلك على الانسجام العام لمنظر المدينة خارج جدرانها[38]، سيما أن عدة مبانٍ في وسط المدينة أو خارجها، وتحديداً مركز الشرطة، استنسخت النماذج نفسها.

وشكّل شيوع هذا النوع من الهندسة، في توجهاته الجديدة المنزلية منها والعامة، سمة أساسية لتجمع لا يملك في النهاية، فيما خلا الصروح الدينية، إلا القليل من السمات العمرانية. على أية حال، طال الأسلوب العمراني الجديد الصروح الدينية نفسها وكذلك جميع المباني التابعة للطوائف الدينية المشيّدة في الأحياء الجديدة، من مدارس ومستشفيات وكنائس فاتبعت المعايير العامة للهندسة العثمانية المعاصرة، متخليّة عن القبب لمصلحة السقوف المسطحة المكلّلة بالقرميد الأحمر، ومستعملة مواد جديدة تفرضها هيكلية البيوت الجديدة. لكن معظمها كان مزوداً بالإضافة إلى مجموع ما يسقف به البيت، بالواجهات المزدانة بالأقواس المثلثة في وسط البناء كمعهد الحكمة والمقاصد ومدارس زهرة

الاحسان والقلب الأقدس والاتحاد الاسرائيلي ومستشفى مار جاورجيوس. وقد امتازت عن هذه الأبنية بعض المؤسسات الكبيرة التي شيدها المرسلون الاوروبيون والأميركيون كجامعة القديس يوسف ومعهد سيدة الناصرة.

وبالامكان رؤية الصرح الذي بنته راهبات الناصرة للبنات على تلة الأشرفية، من عدة أماكن بانورامية في شرق بيروت عند مطلع القرن. كان يبدو، بشرفاته العالية كأنه نُقل مباشرة من اوروبا ليستقرّ في بيروت. كذلك الأمر بالنسبة للمبنى الأول لجامعة القديس يوسف الذي استنسخ عن الجامعات الاوروبية لجهة تصميم قاعات الدروس فيها، وأعطى انطباعاً بالعزلة التي تحث على التأمل، وهذا منافٍ للرغبة العارمة التي تحدو باليسوعيين إلى الاندماج في المحيط الثقافي والاجتماعي من خلال انخراط آباء كثيرين في حياة المدينة. وساهم توسع المبنى الجامعي في أن يكون عامل اجتذاب لكل الحي الذي يجاوره مشكّلاً مفصلاً بين وسط المدينة والقطاعات السكنية في الأشرفية التي كانت في أوج نموها.

كذلك شكلت الكلية السورية الإنجيلية قطباً حول رأس بيروت وحافزاً أكبر على إحداث التغيير في محيطها المباشر. لقد حملت الكلية رؤية من نمط آخر، على غرار تلك المجمّعات الأميركية الكبيرة.



مدرسة اليسوعيين الاكليريكية، نواة جامعة القديس يوسف.

وبدا حجم البناء نفسه وكأنه آتٍ من عالم آخر، بالمقارنة مع الاحجام الهزيلة التي عرفتها بيروت. فالأرض التي اشتراها المرسلون الأميركيون من المالكين الدروز كانت أكثر اتساعاً من المدينة خلف جدرانها. وسط هذه المساحة الخضراء المزدانة بشتى أنواع الأشجار شُيّدت مبانٍ مبعثرة تحاكي الهندسة الأميركية الشمالية بطابعها القوطي المبسّط. وامتازت الجامعة بممراتها المفتوحة على البحر والجبل بأنها الموقع الأجمل في شبه الجزيرة هذه وأحد الأمكنة التي تستجيب كلياً لرغبة المتنزهين العارمة في مشاهدة المناظر البانورامية. وخفّف هذا البناء اللافت الواقع تحديداً على المنحنى الشمالي لمرتفع بيروت، بسبب موقعه الجغرافي، من حجم الصدمة التي يمكن أن يحدثها التقاء الهندستين وأصبح الكامبوس الأميركي إحدى رئتي بيروت - والرئة الأخرى غابة الصنوبر - ومعلماً أساسياً من معالم المدينة.

الحاجات المعقدة

استدعت الحداثة المدينية المعمارية حداثة عملية وظيفية. وجب على السلطة السياسية الممثلة بخدمات الولاية والبلدية الاستجابة إلى متطلبات تزداد تعقداً، لمواكبة النمو الأفقي للمدينة من خلال زيادة شبكات الانارة العامة وجرّ المياه والتلغراف وخطوط الترامواي والطرقات المعبدة.

وبالتزامن مع ذلك، كان الاهتمام بالصحة العامة هدفاً رئيسياً للتنظيمات في المدن وقد جعله انتشار الصحف الصادرة حديثاً في متناول الجميع. ووجب التحرك المباشر لمكافحة الأوبئة المحتملة، ومارست البلدية الرقابة على أعمال التلقيح وصيانة المستشفيات والمقابر.

لكن التغيير الجذري الذي حصل في هذا الشأن كان تنفيذ شبكة جرّ المياه. كانت المدينة، حتى سبعينات القرن التاسع عشر، تزود بالماء من نهر بيروت عبر القناة الرومانية القديمة، بالإضافة إلى بعض الينابيع المحلية. وكان مألوفاً منظر الناس وهم ينقلون المياه على ظهور الحمير لبيعها إلى السكان بعد تعبئتها من الينابيع. بالطبع، لم تكن هذه الكميات تسدّ الحاجات الراهنة المتزايدة للسكان، فقرّر المجلس البلدي في أول مراحل مشروعه أن يجر المياه من نهر الكلب على بعد عشرات الكيلومترات شمالاً، لكنه واجه مشكلة التمويل. وبما انه لا يستطيع تحقيق المشروع في المدى القريب، عمد إذا إلى حفر بئرين في الستينات من القرن التاسع عشر في منطقة رأس النبع لرفد النبع الرئيسي الذي أعطى اسمه لهذه المنطقة. ولم ترَ شبكة جرّ المياه من نهر الكلب النور إلاّ في عام 1875 بواسطة شركة بريطانية اسمها شركة بيروت لأعمال المياه Beirut Water Works Company التي أخلت مكانها عام 1909 لشركة فرنسية، اسمها «شركة مياه بيروت» وتمكنت الشركة مع وصول عدد مشتركيها إلى ما يزيد عن السبعة آلاف مشترك عام 1913 من تحقيق أرباح هامة[39]. ووجب انتظار عام 1922 لرؤية

أول مصلحة مياه تنشأ في بيروت.

وكما هي الحال بالنسبة للمياه، تأخرت الانارة العامة بعض الوقت، ولكن ما إن وضع المشروع قيد التنفيذ حتى حُلّت مسألة الانارة. وفي عام 1879 تملكت الشركة العثمانية لغاز بيروت توزيع الغاز، ما سمح بشيوع استعمال الفوانيس، وبعد عشر سنوات، أحصي ما يزيد عن الستمائة فانوس. وفي وقت لاحق ظهرت الانارة الكهربائية مما استوجب إعادة تجهيز تولتها شركة الترامواي والانارة التي تأسست عام 1894 برؤوس أموال فرنسية وبالتعاون مع وجهاء محليين. وإبتداءً من عام 1908، كان الترامواي يعبر شوارع بيروت على أربعة خطوط بعد سنتين من عبوره شوارع دمشق، وفي السنة نفسها من عبوره شوارع اسطنبول. أما بالنسبة لانارة المدينة، فقد تحوّلت إلى الكهرباء عام 1910. لكنّ شركة الغاز لم يحالفها الحظ إذ حُرمت من سوق القطاع العام ولم تتمكن ايضاً من التعويل على القطاعات الخاصة. وفي تلك السنة تراجع عدد المشتركين فيها إلى 158 مشتركاً فقط.

وفيما يتعدى الحاجات الجديدة التي عمدت شبكات البنى التحتية للاستجابة لها، كانت السلطة السياسية منقادة الى فكرة جديدة كلياً، تتعلق برفع مستوى حياة الناس وإن لم يكن هذا المفهوم واضحاً في الأذهان. من هنا الأهمية المعطاة للحدائق التي إلى مساهمتها في تنقية أجواء المدينة، شكلت فسحات تسلية والترفيه. تلك كانت أيضاً حال الممرات المنظمة التي انشئت للتنزه، بعضها باتجاه المنارة والبعض الآخر باتجاه غابة الصنوبر.

بدت بيروت الحاضرة الألفية في قمة هذه التحولات مدينة شابة نجحت في أن تصهر التأثيرات الآتية من المتوسط ومن إرث الفن الاسلامي في بوتقة الحداثة التي سبقتها إليها القاهرة واسطنبول. وعشية الحرب العالمية، لا شيء كان يوحي بأنه قادر على كبح جماح ارتقائها، بالرغم من التصور المشترك القائل إن الساعة الأخيرة التي ستؤذن بسقوط الامبراطورية العثمانية لن تلبث أن تدق. فالامبراطورية قد أُفرغت من محتواها بسبب لعبة الدول العظمى الاوروبية وبزوغ قومية تركية سلطوية. وإذا كانت المدينة عانت مرارة قصف الاسطول الايطالي الذي استهدف عام 1912 واجهتها المرفئية وأحياءها الأساسية -إلاّ إنها سرعان ما تجاوزت الخلل الذي أعقب ذلك والذي يشهد له قول شعبي مأثور يلقي كل التبعات على الطليان: «الحق على الطليان!» واستمرت أعمال الاعمار التي بوشر بها خلال السنتين اللتين سبقتا انهيار المدينة.

وأكثر من هذا، لم يضع دخول تركيا إلى الحرب حداً للحركة التمدينية التي تقوم بها السلطات العامة. بل خلافاً لذلك، استغل الوالي بكر سامي بك حالة الحرب والقانون العرفي ليضع قيد التنفيذ مشروعين كانا يراوحان مكانيهما بسبب معارضة التجار الصغار ومديري الأوقاف لهما. بعد أن نال الوالي إذناً من جمال باشا آمر الفيلق الرابع والحاكم العسكري لسوريا، وجّه إنذاراً مدته ثلاثة أيام

لتجار السوق الذين كانوا يعرقلون شق الطريقين الموازيين للأرصفة اللذين سيصيران شارعي أللنبي وفوش العتيدين وبلغ عرض كل منهما عشرين متراً. وفي 8 ابريل نيسان 1915 جرى احتفال مهيب يعلن بدء عمليات التهديم وبعد ثلاثة أشهر وفد والٍ جديد هو عزمي بك تسبقه شهرة اكتسبها في طرابلس - ولا يزال الشارع الكبير الذي يهيكل وسط المدينة يحمل اسمه. أقيمت لجنة تخمينات واستمرت الأعمال مسببة باختفاء بضعة أنصاب[40] لكنها كشفت ايضاً عن بقايا كنيسة بيزنطية في سوق البازركان[41].

وذهب عزمي بك إلى حد أن يضع مشاريع جديدة قيد الدراسة ومن بينها ساحة النجمة العتيدة التي بناها الفرنسيون لاحقاً. في غضون ذلك حال توسع الحرب والركود الاقتصادي اللذين تسببا في المجاعة لسكان بيروت والجبل، دون اتمام بعض الأعمال على شبكة الطرقات وبالمقابل نجح عزمي بك في إتمام كازينو غابة الصنوبر عام 1917.

وبعد سنتين من هذا التاريخ، وفي هذا الكازينو بالذات الذي بُني على الطريقة النيومغربية والذي كان يفترض به أن يتضمن قاعة لعرض الأفلام، جعل المفوض السامي الفرنسي مقراً له وشاء انطلاقا منه بأن يقامر في أول ايلول/ سبتمبر عام 1920 بورقة اعلان لبنان الكبير.

III

عصر النهضة



الفصل السابع

الثورة الثقافية

لم يكن تطور بيروت يقاس فقط بتوسعها الجغرافي. بعد أن كانت محرومة من المدارس والصحف وأماكن التسلية بشكل عام في زمن القنصل غيز[1]، أخذت أجواؤها تتغير وفاق هذا التغيير تنامي عدد سكانها حتى. فبعد مضي أربعين عاماً على قدوم ابراهيم باشا أصبحت بيروت، ليس فقط المرفأ الأول في سوريا بل قطباً للمعارف وموئلاً للنشاط الفكري. وعلاوة على المدارس التي تنامى عددها باطراد والجامعتين اللتين أنشئتا، كانت دواليب المطابع تدور، والصحف تزدهر والكتب تُنشر بأعداد متزايدة. وفي أواسط القرن التاسع عشر ظهر المسرح على يد مارون النقاش. كان مارون النقاش تاجرا تردد خلال أسفاره الى إيطاليا لكنه كان مولعا بالفن المسرحي، فاقتبس مسرحية البخيل لموليير وعرضها في منزله بمساعدة ممثلين إيطاليين ثم ألّف مسرحيتين إحداهما تدور حول شخصية الخليفة العباسي الاسطوري هارون الرشيد[2]، ثم حصل عام 1853 على فرمان امبراطوري يُجيز له انشاء مسرح حقيقي بجوار منزله في احدى ضواحي بيروت. وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر تضمنت إنشاءات السوق الجديد رعد وهاني صالة للمسرح، ولكن بيروت فرضت نفسها بعد القاهرة كأحد المحاور الرائدة للثورة الثقافية التي عرفها المشرق باسم عصر النهضة وهذا بفضل الظروف الاجتماعية الملائمة التي شهدت سجالات وجدالات لم يكن من الممكن إدراك حقيقتها لو حصلت قبل عدّة عقود.

رجل النهضة

هل كان أحمد فارس الشدياق مسيحياً؟ أم كان مسلماً؟ لا يجيب مرقده الأخير في الحازمية الواقعة على مسافة قريبة شرقي بيروت، عن هذا السؤال ولكنه يعبر اصدق تعبير عن الانقلاب الذي شهده الشرق في الحيّز الزمني الفاصل بين ولادة الكاتب عام 1805 وموته عام 1887.

وخلال المسيرة الطويلة لهذه الشخصية التي أصبحت رمزاً للنهضة العربية، لم تكن بيروت مسرحاً لاعمال الشدياق نفسه كما انه لم يشارك في أي من المراحل التي جعلت البلدة الصغيرة في مطلع



ضريح أحمد فارس الشدياق.

القرن التاسع تتحول لتصير أحد المراكز الرئيسية العمرانية في المشرق. ولكن بيروت هي التي كرسته أديباً شهيراً بعد موته فأقامت له ضريحاً مهيباً وهذا امتياز لم يحظ به الأقطاب الآخرون لهذه الثورة الثقافية مع انهم ساهموا إلى حد بعيد في انطلاقة المدينة. وحتى قبل أن يُقام في بيروت ضريح يليق بالشدياق، كانت المدينة مسرحاً لآخر فضيحة أثارها الأديب ليس فقط في حياته بل بعد مماته حين أقلّ جثته مركب من اسطنبول فقامت الخلافات الدينية وانقسمت الطوائف. بعد ستين عاماً من التنقل بين القاهرة ومالطا وباريس ولندن واسطنبول لم يعد الشدياق إلى أرضه الأم. بعد مماته، إلاّ ليذكي النزاعات التي جسدتها حياة أديب بلغ من الشهرة حداً لا يمكن تصنيفه؛ فهو المعجمي وصاحب قاموس ضخم وهو المتعصّب للعربية، والحريص على نشرها بين الأمم وهو أيضا الذي أغنى اللغة العربية بتعابير جديدة لا حدّ لها والمترجم للتوراة نزولاً عند رغبة الطائفة الإنجيلية وكاتب رواية من خلال نص يحكي سيرته الذاتية التي تعمد إظهار ما فيها من إباحية[3]. وهو المدافع عن حقوق المرأة والقريب من الاشتراكية وقد صاغ ما يرادفها بالعربية والمقرّب من السلطات العثمانية، وهو الذي اعتنق الاسلام طوعاً.

ولد فارس الشدياق مارونياً في عشقوت في جبل لبنان وارتد إلى البروتستانتية في أوّل امره على غرار أخيه أسعد وتعبيراً عن استنكاره لموت أخيه في سجن البطريركية التابع للكنيسة المارونية* وبعد أن جرب حظه في بلاط محمد علي حيث خلف رفاعة الطهطاوي في ترؤس أول صحيفة مطبوعة بالعربية: الوقائع المصرية. ثمّ علّم جماعة من المرسلين الأميركيين اللغة العربية متعقباً أثرهم إلى مالطا ومن هناك انتقل إلى باريس فاطّلع على أحوالها - خلال ثورة 1840 - وأحوال لندن والاشتراكية، أعلن اعتناقه الاسلام متخذاً اسم محمد في تونس حيث حلّ ضيفاً على السلطة الاصلاحية المحلية. وبعدئذ توجّه إلى اسطنبول حيث وافته المنية بعد أن كان يتلقى أعالة من السلطان. كان الشدياق مداورة مسيحياً ومسلماً وربما لا هذا ولا ذاك في الحقيقة، وها هو يشعل بمماته فتيل حرب حامية الوطيس بين السلطات الدينية التابعة للطائفتين، فكل منهما حاول أن يستأثر بجثته ليدفنها وفقاً لشعائره الدينية بالذات ولكن المعركة لم تُحسم لصالح أحد طرفي النزاع على انهما شاركا معاً في مأتمه ونزلا معاً عند رغبته في وصيته: دُفِن في مقبرة صغيرة يعلو قبتها هلال في الحازمية بين بيروت وبعبدا في جبل لبنان حيث يرقد اثنان من الحكام المسيحيين العثمانيين في المتصرفية[4]. ثم أن التسوية الأخيرة تؤكد ذلك: لم يكرّس الخلاف حول دفن الشدياق الهيمنة التي أرادتها لنفسها كل من الطائفتين بل وضع كلاً منهما عند حدها. ففي النهاية فرضت رغبة الشدياق نفسها بعد موته حتى لو كانت الشكليات الدينية قد احتُرمت وعلاوة على ذلك أظهر الخصام بأن الرجل الكبير حقق شهرته



المعلم بطرس البستاني
في لوحة لداوود القرم.

* الهمت هذه المرحلة من حياته قصة جبران خليل جبران «الأرواح المتمردة».

وبلغ موقعه مؤسساً منذ ذلك الحين للمسارات المستقلة عن حياة الجماعة. لم يستطع الرجل الذي ولد في رحم النهضة أن يُصلح كلياً المجتمع ففرض عليه وجوده وتميزه.

الصحوة على الزمن الحاضر

تلقى فارس الشدياق تعليمه الابتدائي في مدرسة عين ورقة في جبل لبنان التي أُسست عام 1789 على غرار أخويْه أسعد ضحية البطريركية وطنوس المؤرخ الذي خلف ورائه مدونة «قيمة» عن أحداث جبل لبنان، وعلى غرار الوجهين الكبيرين للنهضة في بيروت ناصيف اليازجي المولود عام 1800 وبطرس البستاني المولود عام 1819. واذا كان فضل هذه المدرسة أمراً لا جدال فيه إلاّ انه لم يكن سبباً مباشراً من أسباب النهضة التي بدت وكأنها حتمية تاريخية لا مفرّ منها. وهناك فرق شاسع بين اليقظة الثقافية المتواضعة في القرن الثامن عشر التي رفعت من وتيرتها أعمال المرسلين اليسوعيين لدى الطوائف البابوية وبين التحول الثقافي والاجتماعي الشامل الذي أثارته النهضة. إن مسار الوجوه الشهيرة لتلامذة عين ورقة القدامى يُظهر إن الصحوة على الحداثة حصلت بعد انهائهم لمرحلة الدراسة ابان مسيرتهم المهنية والفكرية بفضل سلسلة لقاءات وصُدفٌ عارضة. وكانت بيروت اطاراً لنشاط هؤلاء الرواد ما عدا الشدياق الذي شمل نشاطه الفكري الشرق والغرب.



تمثال نصفي لابراهيم اليازجي

بدأ ناصيف اليازجي حياته المهنية (1871-1800) بصفته أمين سرّ خاصاً للأمير حيدر الشهابي ومن ثم عمل في خدمة بشير الثاني الشهابي حاكم الجبل ولكن انعطافة حياته كانت في سن الأربعين عندما استقر في بيروت على اثر تنحي سيده وأنشأ علاقات مع المرسلين الأميركيين. درّس العربية في مدارسهم وانتدب لاعمال الترجمة وخصوصاً الكتاب المقدس. ولاحقا درّس في الكلية السورية الانجيلية. أعدّ الكثير من الأبحاث من بينها دراسة عن الشاعر الكبير المتنبي. أما إسهامه الأساسي في النهضة فهو انه سعى ليحرّر العربية من القيود الشكلية التي فرضها عليها الكتّاب الكلاسيكيون وسيكون ابنه ابراهيم (1906-1847) امتدادا له ولما أنجزه اذ كان لغويا ومعلما ومترجما استدعي بدوره من قبل

اليسوعيين لترجمة الكتاب المقدس (1880-1872) بعد أن ساهم والده في ترجمة الكتاب المقدس للإنجيليين ولكن حياة الابن كانت أكثر تعقيداً وتكشف هي أيضاً مدى شمولية التغيير الذي حصل بين جيلين. وبالاضافة إلى أعماله اللغوية وتحديداً قاموسه للمرادفات وترجمته للكتاب المقدس اهتم ابراهيم اليازجي بالموسيقى والطب والرسم وعلم الفلك ومن بين التجديدات التي أنجزها انشاؤه أول روزنامة غريغورية حديثة في اللغة العربية واختراعه للائحة حروف مبسطة اختزلت أشكال الأحرف العربية من ثلاثمئة شكل إلى ستين، ليسهّل على أبناء الضاد استخدام الآلة الكاتبة المخترعة حديثاً. صحيح إن شعره بقي كلاسيكياً في شكله ولكن حماسته الوطنية وسلاقته أدتا إلى تغير جذري في المناخ الايديولوجي لتلك المرحلة كما يشهد على ذلك بيت شعر كتبه وبات شهيراً جداً:

تنبهوا واستفيقوا أيها العربُ

فقد طمى الخطبُ حتى غاصت الركبُ

وبين اليازجي الأب واليازجي الابن امتدّ اثر بطرس البستاني، رائد الوطنية العربية السورية وموسوعي النهضة الذي أطلق عليه لقب المعلم. وكان هو أيضاً لغوياً ومعجمياً ومربياً وصحافياً. و كان الحدث الذي شكل انعطافة في حياته مشابهاً لما حدث مع اليازجي، وهو لقاؤه بالارسالية الأميركية في بيروت حيث علّم العربية. اشترك في ترجمة الكتاب المقدس وشغلته أيضاً اهتمامات أخرى دنيوية للغاية؛ واستطاع أن يحتفظ باستقلاله الذاتي حيال المرسلين مع انه اعتنق البروتستانتية. إبان الحرب الأهلية التي اندلعت عام 1860، ترجم كتاب روبنسون كروزو إلى العربية ثم أصدر مجلة بين أيلول/ 1860 سبتمبر و نيسان/ ابريل 1861 بعنوان **نفير سوريا**. في 1870، أصدر مجلة ذات طابع موسوعي تدعى **الجنان** ثم صحيفة يومية: **الجنة** وكان يحررها ابنه سليم، ومجلة اسبوعية **الجنينة**، عهد بها إلى قريبه سليمان وهو المترجم العتيد للإلياذة والوزير العتيد في اسطنبول. وفي غضون ذلك، افتتح بطرس البستاني في 1863 مدرسة للتعليم العام وأرادها أن تجّسد ليس فقط تنوع المعارف والدروس (في العربية والتركية والانكليزية والاغريقية واللاتينية...) بل أيضاً إرادة العيش المشترك التي كان يدعو إليها. كانت مدرسته أول مؤسسة علمانية تربوية في الشرق وأطلق عليها اسم المدرسة الوطنية، تعبيراً عن المبادئ التي يؤمن بها. ولكن عمله الأبرز يبقى موسوعة **دائرة المعارف** بأجزائها الستة والتي عمل عليها بين 1870 و1882، ثم أضاف إليها خلفاه بعد موته سليم وسليمان خمسة أجزاء أخرى. ولا ننسى أيضاً القاموس المهم الذي وضعه وهو **محيط المحيط**. لكن ما خلّد البستاني ليس عمله الموسوعي بل جملة بسيطة جعلها شعاراً له في أعلى صحيفته **نفير سوريا** وهي: «الدين لله والوطن للجميع».

كان البستاني والشدياق مارونيّين مولداً، وينتمي ناصيف اليازجي إلى عائلة موزعة بين كنيستي

الروم الكاثوليك والروم الارثوذكس*. ولكن النهضة لم تكن ظاهرة مقتصرة على مسيحيي الشرق. انطلقت النهضة في مصر ولم ترتدِ أي طابع محلّي أو إقليمي ضيق وجيّشت في بيروت مثقفين من كل الطوائف المسيحية والمسلمة. ويمكن أن نذكر من الطائفة المسلمة الاسمين البارزين للأمير الدرزي محمد أرسلان والشيخ المسلم يوسف الأسير. انتفض الأمير محمد ارسلان على الحرب الأهلية في الجبل عام 1860 وتخلى عن منصبه الاداري في القائمقامية الدرزية في جبل لبنان ليقيم في بيروت ويكرّس نفسه للأدب. وترأس لاحقاً الجمعية العلمية السورية. أما الشيخ يوسف الأسير فكان له عظيم التأثير على تجدد اللغة العربية. ولد في صيدا عام 1815 ودرس في جامعة الأزهر في القاهرة متولياً تباعاً مناصب القاضي الديني في طرابلس والمفتي في عكار والمدعى العام لدى المتصرفية مكرساً مع ذلك جزءاً كبيراً من وقته للكتابة. ألف بالإضافة إلى العديد من القصائد، دراسة علق فيها على القانون العثماني الجديد، وساهم في 1875 في تأسيس جريدة **ثمرات الفنون** مع عبد القادر القباني، وهي جريدة النخبة المسلمة. كما تميز يوسف الأسير بمراجعته للترجمة العربية للكتاب المقدس الذي نشره البروتستانت[5] ولعلّ مساهمة هذا الشيخ الجليل المسلم في عمل ديني مسيحي أصدق تعبير عن النزعة الانسانية التي ميزت عصر النهضة.

النزعة الانسانية والشعور الوطني

كانت النهضة في التصور العربي للتاريخ والثقافة لحظة تاريخية وموقفاً أُريد لهما أن يكونا شبيهين بنموذج النهضة الأوروبية. النهضة موقف لان عبارة «نهضوي»، بالرغم من مآزق الحداثة العربية، لا زالت تحتفظ حتى يومنا هذا بقيمة ايجابية شبيهة بتلك التي انطبعت بها النزعة الانسانية في اوروبا. النهضة لحظة تاريخية وليست صورة طبق الأصل عن النهضة التي حصلت في اوروبا، مع انها حصلت على غرار النهضة الاوروبية اذ نشأت بعد مرحلتين اثنتين: اعقبت عصر الانحطاط الذي اعقب بدوره عصراً ذهبياً من التاريخ العربي.

وإذا توخينا الدقة في الكلام نرى إن مثل هذا الفصل بين المراحل التاريخية لا يصمد أمام التاريخ الحقيقي. ليس لان عصر الانحطاط، بغض النظر عن صورته التي عهدناها في الأدبيات، يشكل هو نفسه عصراً ذهبياً آخر أي الحقبة العثمانية المجيدة، ولنا أن نتحقق من ذلك عبر الانجازات الهندسية الكبيرة آنذاك ولا ننسى أن تلك الحقبة شكلت عروة ايديولوجية وثيقة جمعت العرب في بوتقة واحدة

* نشأت كنيسة الروم الكاثوليك في العقد الثالث من القرن الثامن عشر انطلاقاً من انقسام في الكنيسة الملكية، واختار المنشقون أن يكونوا تابعين لروما وعندئذ وجدت عائلات كثيرة نفسها منقسمة على غرار آل يازجي، بسبب هذا الشرخ. وكان ناصيف نفسه ينتمي للفرع التابع لكنيسة الروم الكاثوليك.

حتى عتبة الحرب العالمية الأولى. بل لان النهضة أيضاً، في محتواها كما في انماط تعبيرها كانت ثمرة عصر الأنوار الأوروبي وترجمة لمبادئ الثورة الفرنسية والتقدم التكنولوجي في آن. وهذا يمكن إدراكه من خلال السجل السياسي الذي ميز فكر النهضويين ولم يخل من التناقضات، فمسارات الوعي الفردي لم تفضِ أبداً إلى لحظات وعي جماعي لا سيما فيما يخص نشوء النزعة الوطنية لا بل قل النزعات الوطنية: نزعة وطنية مصرية في القاهرة اقتداء برفاعة الطهطاوي الذي أكسب كلمة وطن معناها المعاصر[6]: وطنية عربية – سورية في بيروت نادى بها البستاني مستعيداً أطروحات الطهطاوي ليطبقها على بلاد الشام لكن من دون أن يرفض المواطنية العثمانية[7] ووطنية لبنانوية انطلقت لاحقاً من بيروت.

النهضة هي إذاً انبعاث ثقافي ويقظة لوعي وطني أولي شبيه بتجلياته بتبلور النزعة الوطنية الايطالية. وبما ان النهضة العربية تنتسب معاً لحركة Risorgimento [توحيد ايطاليا السياسي في القرن التاسع عشر] والـRinascimento [النهضة الفنية الايطالية] التي حصلت في القرنين الخامس عشر والقرن السادس عشر، فهي تفترض إذاً قراءة «قومية» لتاريخ الاسلام يمكن من خلالها اعتبار «العصر الذهبي» و«عصر الانحطاط» و«عصر النهضة» مراحل تاريخية تعني فقط العرب دون سواهم. والواقع إذا نظرنا إلى الموضوع من هذه الزاوية يمكن للتقسيم الثلاثي للتاريخ ان يصبح مبرراً. ولكن من ناحية أخرى هذا الغليان الفكري لا يختزله المجال العربي وحده ولا يُفهم إلاّ في إطار حركة شاملة طالت كل إثنيا ت الامبراطورية العثمانية بطريقة أو بأخرى وتحديداً الاتراك أنفسهم. لا يمكن للقومية العربية اللاحقة أن تتجاهل هذا الأمر، لان إرادة النهضة انطلقت من اسطنبول والتعطش لانوار العقل أكثر ما تجلى هناك بكل حيويته[8]، مرسياً قواعد الاصلاح في العاصمة ومجيشاً اندفاعة النخب الاجتماعية في جميع مدن السلطنة حتى ولو تقاطعت هنا أو هنالك مع تأثيرات أخرى نابعة من مسألة الهوية. وكانت حركة الأفكار في بيروت تجسد هذه الازدواجية حيث التأكيد على النهضة، مهما يكن ساطعاً، كان لا بدّ له أن يستجيب للتساؤلات المتعلقة بالهوية العثمانية فيما انطلاقة القاهرة زمن الخديوي ظلت مكتفية بذاتها.

وإذا كان النقاش حول أسباب النهضة بعد لم يُحسَم، بين كونها صدمة من الغرب أعقبت حملة بونابرت على مصر، أو اكتمالاً خاصاً بالحيّز العربي الاسلامي، فبإمكاننا التأريخ الدّقيق لأولى تجلّياتها: كإرسال محمّد علي الطلائع من أصحاب المِنَح إلى فرنسا، عام 1826، برعاية رفاعة الطهطاوي؛ أو نشر هذا الأخير كتابه **تخليص الابريز في تلخيص باريز**، وهو وصف موضوعي لعادات الغربيين ويوميّاتهم: أو افتتاح مطبعة بولاق في ضاحية القاهرة، بإدارة الطهطاوي نفسه. أما في بيروت، فاعترى النّهضة بعض التباطؤ، لأنها ولا شكّ، لم تحظَ بالدّعم الرسمي، بل انطلقت بمساهمة مشتركة من المرسلين الأجانب والنُخَب المحلية. وإن أولى الابداعات التي لا يمكن تجاهلها في الشأن الثقافي

تكشف عن الرهانات والصيغ التي احاطت بالنهضة في بيروت. والمقصود هنا الجمعيات العلمية التي نشأت بدءاً من السنة 1840: **جمعية التّهذيب**، التي تأسست عام 1845 في محيط المرسلين الأميركيين، و**الجمعية السورية للعلوم والفنون** التي أبصرت النور عام 1847 بتشجيع من المرسلين الأميركيين أنفسهم، والهادفة الى إحياء اللقاء بين رجال النخبة من الطوائف كافة، و**الجمعية الكاثوليكية** التي أطلقها اليسوعيّون عام 1849. وسوف تنشأ لاحقاً **العمدة الأدبية**، ثم **الجمعية العلمية السورية** وهي فرع من **الجمعية العلمية العثمانية** في اسطنبول.

وفي غياب مؤسسات التعليم العالي، التي ظهرت في ما بعد، راح نمط التعاون الجديدهذا من خلال الجمعيات يخلق الفُرص لنشر المعارف في أكثر المجالات تنوعاً، ويتيح تجديداً في طرائق التفكير. فإلى الكلام على الاكتشافات العلمية، كان النقاش يراوح بين التاريخ، وفوائد التجارة، أو ضرورة مكافحة الخرافات؛ وقد يطاول أوضاع المرأة كما ذكرها البستاني في كلامه على تعليم النساء، أمام الجمعية السورية للفنون والعلوم سنة 1849. وموجز القول إنّ كل ذلك أسهم إسهاماً فعّالا في يقظة الوعي الاجتماعي والتغلّب على عوامل التخلّف. وكانت إرادة التجدّد هذه تتجلّى أحياناً تحت شعار الاستجابة لسلطان العقل رافضة الفصل بين الهم الثقافي والهم السياسي، وبات يُنظر على إنها مرادفة ل «استعادة المجد الغابر». و عقدت حلقات النقاش في الأندية وكتبت المقالات في الصحف، وافتتح الجدال جهاراً عن مفهوم الوطنية. إضافة إلى ذلك عمدت بعض الجمعيات إلى إقامة ندوات و لقاءات في أماكن مخصصة لهؤلاء الذين صاروا يُسمَّوْن «بالوطنيين» ذلك شأن **جمعية العمدة الأدبية**، التي كان هدفها أساساً نشر المؤلفات العربية، والجمعية العلمية السورية برئاسة محمّد ارسلان وعضوية ابرهيم اليازجي صاحب القصائد التي تحض العرب على التحرّر من سلطة «الأجنبي» بغية استعادة المجد الماضي. ومع استمرار النشاط السياسي، تركز الاهتمام على تجديد الاساليب الأدبية في الشعر العربي وتحديث اللغة، بإحساس ذي طابع «قومي». من هنا أكّد البستاني بصراحة وجوب وضع قاموسه **محيط المحيط** في خدمة المواطن العربي فيما أوضح الشدياق انه أنجَزَ مؤلفه المعجمي **الجاسوس على القاموس** لِحَثِّ أبناء الضاد على التمسّك بلغتهم. وفي السياق نفسه، وبموازاة النشاط الثقافي المحلي، وبعيداً عن الفائدة المباشرة التي تقدّمها، جاءت ترجمة الآثار الغربية لتساهم في نشر الافكار التحررية وإثارة فضول رجال الفكر والأدب.

وكما هي الحال مع الترجمات إلى التركية التي سبقت الترجمات العربية، كان أدباء عصر الأنوار موضع ثناء وتقدير. وكانت الروح الموسوعية التي دفعها البستاني إلى الذروة في موسوعته **دائرة المعارف** تنسجم مع هذه الارادة في إعلاء شأن الفكر.

رهان اللغة

من بين رهانات هؤلاء الذين ركبوا مغامرة النهضة هذه، التأكيد على ضرورة أن تواكب حركة التجديد في الفكر والسياسة والاجتماع نهضة لغوية مماثلة. لم تكن وحدها الرغبة في الافادة من التقنيات الاوروبية دافعاً إلى خلق مفردات جديدة، بل أيضاً المواجهة مع طرائق التفكير الأخرى وقد باتت الحاجة ملحّة إلى تخطّي أساليب التعبير الكلاسيكية. فيما نشأت المواجهة في القاهرة واسطنبول - نتيجة إقامة أصحاب المِنَح والدبلوماسّيين في أوروبا وتعرفهم على أنماط حياة وتفكير جديدة، جاء الغرب نفسه إلى بيروت من خلال الارساليات. وكان لتعريب الأدب الدّيني، بدفع من المرسلين الأميركيين، ومن بعدهم اليسوعيين، تأثير عميق وفعلي في تحديث اللغة العربية. وقبل إنشاء مؤسسات تعليمية كبرى كانت الحاجة ماسّة إلى بروز نخبة من الأدباء الجدد القادرين على بلورة الأفكار النهضوية الجديدة وتعميمها على القطاعات الشعبية المثقفة وهؤلاء سيصبحون فيما بعد من كبار وجوه النهضة. بَلَغَتْ هذه الجهود مداها مع ترجمة الكتاب المقدس، أو قلْ: مع ترجماته، بحيث عُرِضت ثلاث ترجمات للكتاب المقدّس في مدى ربع قرن. ظهرت الأولى عام 1857، آتية من الخارج، من لندن حيث كان يعيش الشدياق. وقد أنجز العمل بعد جهود جبارة بذلها بمشاركة القسّ لي Lee. وفي بيروت باشرت البعثة الاميركية العمل في ترجمة أخرى عام 1847 بإشراف المرسل ايلي سميث Eli Smith والبستاني وناصيف اليازجي. وبعد وفاة سميث عام 1852، تابع عمله مرسل آخر هو كورنيليوس فانديك Cornelius Van Dyck. وأبصرت الترجمة النهائية النور عام 1865 بعد أن راجعها الشيخ يوسف الأسير. وأخيراً، وفي عام 1880، قام ابراهيم اليازجي بترجمة ثالثة، بمعاونة اليسوعيين وتمويلهم. ولم تكن هذه الترجمة فقط رداً على عمل البروتستنت، بل أيضاً موضوعاً لخلافات لغوية ترقى لسنوات شكّل فيها المترجم نفسه أحد الأطراف الرئيسيين لأنه كان من أكبر المتحمسين لقضية اللغة. وكانت الحجج المتبادلة في هذه المجادلة الطويلة علمية على الغالب، أكان في باب المقارنة بين طرائق الترجمة، أو في العلائق التي تربط العربية بالعبرية والسريانية، وهي اللغة الطقسية لدى جزء من المسيحية الشرقية بالاضافة الى اليونانية. لكنّ الرّهان كان أكثر بساطة وشمولاً متمحوراً حول إمكانية فهم النص، وتحديد مستوى اللغة التي تمثل روح العصر بمقدار ما توافق عبقرية العربية.

تزامن اندلاع النزاع مع ظهور ترجمة الشدياق والقس لي Lee. وبالاضافة إلى النقد الكنسي الصادر عن رجال الدين الكاثوليك، أثار أسلوب الشدياق القريب من لغة القرآن، بعض تحفظات. حتى إن شريكه وجّه إليه اللوم. ومع ظهور الترجمة الثانية، امتزجت الأحكام الأدبية الصادرة عن المتبارين بمواقعهم ونزعاتهم الشخصية. ونشبت المجادلات الأكثر حدّة بين الشدياق وابراهيم اليازجي


HADIKAT-EL-AKHBAR

JOURNAL DE SYRIE ET LIBAN

حديقة الأخبار

الحوادث الداخلية

حديقة الأخبار. أول جريدة في بيروت باللغتين الفرنسية والعربية.

الشاب الذي، وقبل أن يلجأ إلى ترجمته الخاصة، قصد الدفاع عن إسهامات والده، وعن الأسلوب الكلاسيكي الذي اعتمده. أما الشدياق من جهته فاعتبر إن السجع شكل من أشكال الكتابة البائدة. وبأية حال، فالنزاع كان مكتوباً له أن يطول: فهذه مجلة **الجنان** تفتح له صدر صفحاتها، وقد بدأ صدورها بعد خمس سنوات على صدور الطبعة البروتستانتية للكتاب المقدس. ولقد أبدى البستاني تسامحاً رائعا بتقبله جميع الآراء، ومن بينها الانتقادات القاسية الصادرة عن الشدياق والمتعلقة بالترجمة التي كان هو نفسه مشاركاً فيها. أما الشيخ يوسف الأسير الشريك في الترجمة عينها، فقد انحاز مع ذلك إلى الشدياق. وانضم أيضاً المطران الماروني يوسف الدّبس إلى الترجمة الصادرة بلندن إذ رأى فيها أكثر ترجمات الكتاب المقدّس دقة. وعلى أية حال، فان الترجمات الجديدة للكتاب المقدس كان لها الأثر البالغ في أبناء جيل كامل من الناثرين، ولا سيما جبران خليل جبران.

أما التحدّي اللغوي الآخر فكان في استحداث أنواع أدبية لم تعرفها العربية من قبل: كالمسرح



الجنان



الجنة

جريدتا الجنان لبطرس البستاني والجنة لابنه سليم.

مع مارون النقاش، والسيرة الذاتية، والشدياق المقيم في أوروبا رائدها، ولميخائيل مشاقة محاولات فيها ضمّنها أحد كتبه الصادرة في بيروت عام 1873 ويروي فيه سيرته الذاتية مركزاً على دور الفرد؛ والرواية بخاصة التي اقتبسها سليم البستاني في **الهيام في جنان الشام** و**زنوبيا**، ثم انتشرت مع جرجي زيدان، المولود في بيروت عام 1860، ضمن سلسلة روايات تاريخية نُشرت في القاهرة هدفها تسليط الضوء على العصر الذهبي العربي. ولكن، ومع تعثر الأدب في بداياته، ومع ترجمة نصوص دينية أو دنيوية، فقد يكون محرّك التجديد الأهم في اللغة هو ظهور الصحافة، حيث عممت المفردات الجديدة والألفاظ المستعارة والصيغ الاسلوبية المبسطة؛ لا سيما وان الصحف التي قيدت نفسها بالمصلحة العامة، تبنّت بوضوح ايديولوجية التقدّم. وبخلاف واقع الحال في مصر، حيث أتت المبادرة من السلطة، بدءاً من بونابرت ثم وصولاً إلى المونيتور إجبسيان *Le Moniteur égyptien* أيام محمد علي، كانت الصحافة بكليتها في بلاد الشام صنيعة ملتزمين مستنيرين من رجال أدب في غالبيتهم.

طغى عليهم هاجس الحداثة أكثر مما طغى عليهم عامل الربح. وبأية حال، فالرأي غالباً ما كان يتصدّر النبأ. وإذا كان أول اسم أطلقه خليل الخوري في بيروت عام 1885 هو **حديقة الأخبار** فان تسميات آخرى كشفت عن مفهوم الصحافة كرسالة: مثال ذلك **نفير سوريا** التي أصدرها البستاني بعد احداث 1860، و**لسان الحال** عام 1877، والأسبوعية اليسوعية **البشير** عام 1870.

وذهب آخرون إلى الكشف عن انتماء إلى مذهب اللذة الذي يحمل في طياته رؤية تقدمية: وقد عبّرت عن هذا الاتجاه المؤلفات الثلاثة التي نشرها البستاني: **الجنان والجنة والجنينة**، أو: **ثمرات الفنون** للشيخ عبد القادر قباني[9] وكان هاجس الرسالة ظاهراً في عرض الأفكار التي تميزت بمضمون إيديولوجي رفيع المستوى مسلّطة الضوء بوضوح على قيم التقدّم والحضارة، كما في الصحافة الموسوعية المتجسّدة في **الجنان** عام 1870، أو في **المقتطف** مع يعقوب صرّوف وفارس نمر عام 1876.

ولكونه شاهداً على التزام جيل كامل من المثقفين رأى في الصحافة الوسيلة الفضلى لنشر المعارف،


لسان الحال

عدد ٣٤٥

حوادث بلدية

لسان الحال
«صحيفة سياسية تجارية ادبية».

بات تطوّر الصحافة رهناً بوجود جمهور من القرّاء يتزايد يوماً بعد يوم. الصحافة هي ناشرة الفكر النهضوي، وإحدى ثمرات نجاحه الشعبي. وفي المدينة النامية باطراد، ما عادت القراءة وقفاً على النخبة، اذ تنامى عدد القراء الذين تدرّبوا في المدرسة على القراءة، ولا سيّما على اكتساب المعارف، ومتابعة الحركة الثقافية في العالم.

إن هذه الارادة التي تحلت بها النهضة وصارت قيمة معياريّة للسلوك الاجتماعي، ما كان ليُعبّر عنها بأفضل من الجهود المتعددة الأشكال المبذولة في مجال التعليم وقد شكّل الرافعة الكبرى للنهضة العربية في القرن التاسع عشر في ظلّ الحكم العثماني؛ وسوف تكون بيروت أهم مركز لانطلاقها واستمرارها.

مدرسة التنوع

إن النظام التربوي الذي وُضع في بلاد بني عثمان في القرن التاسع عشر، كان محصّلة ثلاثة أساليب تربوية، راح واحدها ينافس الآخر: الارادة الرسمية للاصلاح والتكيّف مع الحاجات الجديدة، وحركة المرسلين الأجانب، واهتمام النُّخَب المحليّة بتقديم بديل عن التعليم الأجنبي.

تَمَخَّضَت المبادرة الرسمية في فترة أولى، عن إنشاء مدارس حربيّة، بمشاركة معلّمين فرنسيين، ثم عن إرسال بعثات دراسية إلى أوروبا، على صورة ما كان محمّد علي قد اعتمده في مصر.

وبينما أنشئ مكتب للترجمة في اسطنبول، وراح يتحوّل إلى قطب من أقطاب الإدارة في زمن الإصلاح، كانت اللغتان الفرنسية والايطالية تُدَرسان في تلك المدارس التي لم تلبث إن تجاوزَتْ مهمتها العسكرية في تدريب الضّباط، فراحت تخرّج المهندسين والأطباء والدبلوماسيين والموظفين. وامتدّ الاختبار بعد ذلك إلى إنشاء نظام أكثر تسلسلاً، قوامه المدارس الرشيدية (الإعدادية) والسلطانية (الثانوية) وفي مقدّمها «**سراي غلاطا**» الشهير في اسطنبول[10]. تبلورت هذه المساعي في عاصمة السلطنة، قبل انتقالها إلى مدن الأقاليم، لكن تأخرت عن بلوغ بيروت، حيث فتحت أول مؤسسة رسمية أبوابها زمن العهد الحميدي، في محلّة حوض الولاية.

ولا شكّ أنّ الحاجة كانت أقلّ إلحاحاً في بيروت والسبب أن المبادرة الفردية سبق لها أن لعبت دورها في حقل التعليم وأن الطوائف الدينية، كانت أول من بادر إلى إنشاء مؤسسات تربوية ناشطة وكثيرة التنوّع. وفي جبل لبنان القريب، كانت مدرسة عين ورقة رائدة في نهاية القرن الثامن عشر. وأنشئت مدرسة أخرى في عين تراز، برعاية كنيسة الروم الكاثوليك، لكنها لم تحظَ بالنجاح نفسه. وتحرّكت كنيسة الروم الارثوذكس متأخرة، فافتتحت أول مدرسة لها في بيروت عام 1836 بمساعدة من روسيا واخرى عام 1852[11]، ومع ذلك، كان لا بدّ من انتظار انطلاقة بيروت الجبارة في المجال الاقتصادي، بدءاً من العام

1860، لنشهد ظهور مؤسسات أكثر تكاملاً توفر للطلاب التعليم التكميلي والثانوي. ومع أنّ أولى تلك المنشآت هي مدرسة البستاني الوطنيّة المستقلّة عن منطق الجماعات، فالبقيّة كلّها كانت تابعة للمؤسسات الدينية: كالمدرسة البطريركية للروم الكاثوليك عام 1865، ومدرسة **الحكمة** للموارنة عام 1874، ومدرسة **الثلاثة أقمار** ومعهد **زهرة الإحسان** للبنات عام 1880 وكلاهما أرثوذكسيان. تلك المدارس كلها أُعدّت في الأساس لأولاد الطوائف التي تشرف عليها؛ وكان استقبالها تلاميذ من طوائف أخرى يعكس تماماً التجدّد الحاصل في كنائس الشرق، والملموس على مستوى السلطنة عامة، وضمن الظاهرة المعروفة بنظام الملل، نتيجة التوسع الاوروبي وعمل البعثات. وبالمقارنة، يبدو المسلمون محرومين لاسيما أن مؤسساتهم الدينية اختلطت **بجهاز الدولة**، ما حملهم بادئ الأمر على الاعتماد على المبادرة الرسمية. لكنّ عِظَم التحدي الذي شكّله عمل المرسلين وجهود الطوائف المسيحيّة، شكّل بالمقابل حافزاً للنخب الاجتماعية المسلمة لكي تبادر إلى التحرك.

تمثلت ردّة الفعل الأولى بنشوء «جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية» المعروفة بالمقاصد. وإنّ ما ورد في مقدمة تقريرها الأول يُظهر بوضوح إن للجمعية هدفاً تعليمياً مؤكداً: فبعد ظهور النتائج الخيّرة التي أغدقتها «شمس العلوم» على الطوائف الأخرى، أرادت الجمعية التعويض عن التأخير الحاصل في ميدان التعليم عند الطوائف المسلمة، المقتصر على بضع غرف خالية وعفنة، يديرها شيوخ عميان[12]. ومع كل ما تستحقه من ثناء، فان المدارس الحكومية من **رشدية** وعسكرية، لم تكن كافية للتعويض عن هذا التأخير، لان الانتساب إليها كان متعذراً على الأولاد الذين لم ينهوا صفوف المرحلة الابتدائية[13]. لذلك وجب التشديد على المرحلة التحضيرية الذي قد يتيح للأولاد المسلمين الاندماج بالمدارس الحكومية.

وأبعد من هذا الوجه العملي المباشر، فإن فلسفة المؤسسين تبنّت نظرة تقدّمية تعتبر أن اكتساب المعرفة يرادف الانتماء إلى «روح العصر» من هنا الأفضلية المعطاة لتربية البنات، والتي اعتُبِرت «الطريقة الفضلى لنشر المعارف» في الطائفة[14]. وعملت المقاصد على فتح مدرسة ابتدائية للبنات في قلب المدينة، ثم ثانية في حيّ الباشورة القريب، بعد أشهر قليلة. وتبعتها مدرستان أخريان للصبيان في المنطقتين عينهما. وضمّت هذه المدارس منذ السنة الأولى 430 فتاة و 218 فتى. واشتمل برنامج الدروس على القراءة البسيطة والخطّ والقواعد والحساب، بالإضافة إلى الدين والأخلاق وبلغ عدد المعلمين 18، منهم 11 معلمة.

وتجلّت أيضاً أهمية التعليم الابتدائي سنة 1880 من خلال فتح مدرسة ابتدائية مسلمة أخرى، سميت دار الفنون. لكن الجهد التعليمي ضمن الطائفة المسلمة سوف يخضع بوضوح لعمل المقاصد التي ترأسها عبد القادر قبّاني تلميذ مدرسة البستاني سابقاً، والمتأثر بالشيخ يوسف الأسير[15]، ثم تسلّم

الرئاسة من بعده حسن محرّم. ويُستَدَل من المساهمات المالية والأراضي الموهوبة كأوقاف للجمعية، ومن التقرير الأول لنشاطات الجمعية الذي أورد لائحة طويلة، أن الروح العلموية scientiste التي تحلّى بها المؤسسون قد تركت أصداءها الايجابية لدى الأُسَر المسلمة في بيروت؛ ولم تكن السلطات الإقليمية العثمانية ببعيدة عن هذا المشروع. وقد شجّع مدحت باشا، الوزير السابق والمصلح السياسي، يوم كان حاكم سوريا، تأسيس الجمعية التي صارت نموذجاً ومدرسة. وسوف تنشأ مدارس مقاصد مستقلّة في كل من صيدا والقدس وحلب وبعلبك.

ومن خلال العمل على تنشيط الطموحات الاصلاحية وحتى القومية منها التي بدأت تظهر في بيروت، كانت الجمعيّة شاهدة على العلاقات المعقّدة بين النزعتين العربيّة والعثمانية. وسوف تكون في ما بعد موئلاً لدعاة اللامركزية وأحد المحرّكين الرئيسيين لقضية الملصقات الشهيرة التي وضعت على جدران المدينة، هذه القضية التي شكلت حلقة مهمة في معارضة السيطرة العثمانية؛ وغالب الظنّ إنها حظيت، مرة أخرى، بدعم من مدحت باشا[16] ولكن السلطة الحميدية لم تحفظ لها ضغينة في الظاهر؛ واستطاعت المقاصد أن تنصرف إلى تنمية شبكة مدرسية سوف يُكتَب لها مستقبل زاهر، من خلال تأسيس مدارس عديدة في مطلع القرن العشرين، ومنها مدرسة للبنات. وبعدما تأخّرت السلطة عن إثبات وجودها في بيروت، أخذت تبذل جهداً متنامياً في مجال التعليم. وفي بيروت كما في دمشق، بات الانتساب إلى مدارس الدولة في ارتفاع يوم كانت الولايات العربية محطّ اهتمام عبد الحميد[17].

ومهما كان الالتزام الرسمي في التعليم أو في النجاح الذي حققته المدارس الوطنية، فإن هذه الجهود لم تُفسِدْ صورة المشهد المدرسي الذي يسيطر عليه التعليم الأجنبي، لدرجة أن تاريخ بيروت في القرن التاسع عشر طغى عليه وجود الإرساليات المسيحية. وارتبط توسّع التجارة الاجنبية بوجود هذه الارساليات. احتفظت بعض الرهبانيات، ومنها الفرانسيسكان والدومينيكان والكبّوشيون، بأنشاءات في الأراضي المقدّسة وجبل لبنان؛ وأسس اليسوعيون بعثة منذ القرن السابع عشر؛ ثم اضطروا إلى التخلي عنها بعد حظر النشاط الذي فرض على رهبانيتهم. ولم يبرز نشاط الارساليات كمبادر للقطاع التربوي إلاّ بعد النهضة الصناعية في أوروبا؛ وسوف تنمو شبكة واسعة من المؤسسات التعليمية هي الأكبر في العالم خارج أوروبا.

ومع بروز المنافسة الروسية الارثوذكسية، والمبشرين الجُدد من الطائفة البروتستنتية الأميركية، لا سيما في بيروت والقدس، وانطلاقاً من الفكرة التقليدية لحماية مسيحيي الشرق، قاد هذه الحركة رجال دين فرنسيون أو على صلة بفرنسا، تحت راية اليسوعيين العائدين عام 1831، بعد استئناف الرهبانية عملها. وقد أوكل الرئيس العام لليسوعيين الى رهبنة «مقاطعة» ليون الاشراف على بعثة سوريا وادارتها. وكانت رهبنة ليون معروفة يومذاك بنشاطها في كل فرنسا، وبتمركزها في عاصمة

الحرير[18]. وبالمقابل، كان لا بدّ لهذه المدارس من تأدية دور مهمّ لاحياء علاقات متينة مع اوروبا، تعمل على إلحاق المجتمع الشرقي بركب الثقافة الأوروبية.

إن تطور بيروت اللاحق، كعاصمة كوسموبوليتية لدولة لبنان الليبرالية، المنفتحة على حرية التعليم، في محيط تحكمه رؤية «يعقوبية» ويطغى عليه التحزب للغة العربية، قد يعطي انطباعاً غير واقعي عن تاريخ التعليم في القرن التاسع عشر حيث لم تكن السلطنة العثمانية وحدها منكبة على العمل في هذه الورشة الكبيرة، بل امتد نشاط المرسلين من كاثوليك وبروتستنت ليشمل الأراضي السورية كافة، حتى عمَّ كامل أرجاء السلطنة. وفي الربع الأخير من القرن، أُحْصِيَتْ في السلطنة 205 مؤسسة للبعثات الأميركية، ومئات المدارس العائدة إلى البعثات الكاثوليكية، وحوالي 50 مدرسة **للأليانس الاسرائيلية العالمية**[19]. وعام 1914 بلغ مجموع الطلاب الذي يتلقون تعليمهم في المؤسسات الدينية ما يقارب 90000 تلميذ، معظمهم من مسيحيي سوريا، وبينهم 10 بالمئة من التلاميذ المسلمين[20]. غير أن بيروت تتمتع مع ذلك بخصوصية نابعة من موقعها كرأس جسر للتوسع الاقتصادي الأوروبي، وكواجهة رغب الكلّ في الحصول على قاعدة فيها. وهذا ما يبرّر تجمّع البعثات والمؤسسات على اختلافها، ومن بينها اثنتان متنافستان في التعليم العالي: الكلية السورية الإنجيلية، التي اسّستها بعثة أميركية سنة 1866، ومعهد اليسوعيين الذي انشئ عام 1875 وصار في ما بعد، عام 1881، جامعة القديس يوسف. وسوف يكرّسان المدينة عاصمة للآداب وقطباً للنهضة.

وفي فترة الثمانين سنة الفاصلة بين مغامرة ابراهيم باشا والحرب العالمية الأولى، كان لكلّ من الرهبانيات الفرنسية العاملة في مجال التعليم في سوريا، مؤسستها البيروتية: اللعازاريون، اليسوعيون، إخوة دي لاسال، الإخوة المريميّون، العائلة المقدّسة، راهبات اللعازارية، راهبات البزنسون، راهبات التجلّي... وكذلك **الأليانس الاسرائيلية العالمية**، وهي من أصل فرنسي، فتحت مدرسة مخصصة للجالية اليهودية في المدينة. وفي عام 1905، عندما انتقلت البعثة العلمانية الفرنسية (وهي امتداد في ما وراء البحار لمدرسة الجمهورية الثالثة التي تأسست سنة 1902) إلى سوريا، كانت ليسيه بيروت تُعتبَر سفينة القيادة. أما الانكلوساكسون فكانوا أقلّ تنوعاً. وبينما تمثّلتْ في القدس عدة إرساليات بروتستنتية، لم يترك جماعة الكتاب المقدّس الأميركيون، ومن بعدهم الكالفينيون أيَّ مكان لسواهم.

وشاءت الصُدَف أن يتزامن في المشرق ظهور جماعة الكتاب المقدّس مع تهيؤ اليسوعيين للعودة بعد اعادة الاعتبار للرهبانية، علماً أن تسع سنوات تفصل بين عودة البعثتين الى بيروت. وإن إنشاء كل منهما للمعهدين العاليين مع فارق تسع سنوات بينهما يُظهر مدى التنافس الذي أحدثته هذه الصدفة بعد عقود من الزمن.. لكنّ مسافة العقود الأربعة الفاصلة بين وصول البعثات وبين بلوغها أهدافها المذهلة، توحي أيضاً بأن إنشاءها، على عكس ما يُظهِر، لم يكن متسقاً في الزمن كما تبادر إلى الأذهان.

فالاضطرابات الجغراسية المرتبطة بالحقبة المصرية، ثم عدم الاستقرار السياسي في الجبل الذي تأثرت به بيروت بين 1840 و1860، وتردّد السلطات العثمانية تجاه البعثات الأجنبية تلقي الضوء على الصعوبات التي اعترضت تلك البعثات. ثم ان النظرة المتباينة بين المرسلين المتمركزين في المشرق، وبين سلطاتهم الرئاسية في تقدير الحاجات، ساهمت كذلك في ابطاء الخطط التربوية التي تأخرت بعض الشيء لكنها ما لبثت ان حققت غاياتها المرجوّة، وقد ظهر هذا التباين عند كل من الأميركيين واليسوعيين.

الفصل الثامن

بين روما وبوسطن

مع بداية القرن الحادي والعشرين لا يزال اثنان من أكثر شوارع بيروت حياة، بلس ومونو، يتقاسمان النشاط الثقافي بفضل وجود الجامعة الأميركية وجامعة القديس يوسف اللتين يرقى انشاؤهما الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر. إن التكريم المستمر وغير المقصود لتلك المؤسستين هو في حدّ ذاته شهادة لهما في المكان والزمان تاريخياً وجغرافياً.

ثمة أحياء أخرى، قد تكون واسعة الامتداد أحياناً، تحمل أسماء مستوحاة من مؤسسات تعليمية عائدة إلى الفترة نفسها. فالى حيّ اليسوعية، الناشئ حول جامعة القديس يوسف، نما حيّ الناصرة على المنحدر الجنوبي الغربي لتلة الاشرفية في محيط المدرسة التي أنشأتها «راهبات الناصرة»؛ وعلى تلة المصيطبة، أعطى المعهد البطريركي للروم الكاثوليك اسمه لحيّ البطريركية. وفي وسط المدينة، مقابل الزاوية الجنوبية الشرقية للسور القديم، حافظ بيت «راهبات المحبة» على اسم «اللعازارية» بالرغم من استبداله بمبنى ضخم من المكاتب، تعود ملكيته، مع ذلك إلى الرهبانية نفسها. ونجد أيضاً حيّ «الطبية» المحيط بالمباني التي شغلها معهد الطب الفرنسي للآباء اليسوعيين على طريق الشام، سنة 1913، وزهرة الإحسان، مدرسة الفتيات الأرثوذكسية التي تأسست سنة 1880 في الأشرفية. وكذلك حيّ «الحكمة» في الأشرفية حول معهد الحكمة للموارنة، الذي افتُتح عام 1874.

إن التسمية الرسمية لتلك الأحياء تتطابق والحالة هذه مع التداول الشعبي لها - وتلك ليست قاعدة دائمة في بيروت - لكنها لا تحمل فقط علامة امتنان معنوي في هذه الحال، بل تؤكد ما ظهر في الصور الفوتوغرافية في نهاية القرن التاسع عشر، حيث تمثل المؤسسات التربوية مع أماكن العبادة، وقبل المستشفيات، أهم معالم المدينة: أي أنّ نموّ بيروت الذي أطلقه الاقتصاد وكرسته السياسة، تحقق أيضاً على إيقاع هذه الثورة الثقافية التي عُرفت «بالنهضة».

من التبشير إلى التربية

لا شك أن المرسلين الأميركيين قصدوا الشرق بهدف تبشيري، لا سيما باتجاه اليهود والمسيحيين. ولكنّ مشروعهم لم يكن محدداً بشكل واضح ولم يفكّروا قطّ بانشاء جامعة. وان البعثة التي انتدبتها جمعية نافذة في بوسطن، تدعى: المجلس الأميركي لمفوّضي البعثات الأجنبية American Board of Commissioners for Foreign Missions، شاءت اول ألأمر ان تكون مهمتها استكشافية[1]. وقضت التوصيات التي تلقاها المرسلان ليفي بارسنز Levi Parsons وبليني فيسك Pliny Fisk، قبيل ذهابهما، خلال احتفال عام في كنيسة الأولد ساوث ببوسطن، في 31 تشرين الأول 1819، بالسعي للقيام باعمال خيرية تصبّ في مصلحة السكان المحليين، ولأيجاد سبل تنفيذها. كذلك بقيت وجهة البعثة الجغرافية غامضة. صحيح ان القدس وفلسطين احيطتا بمكانة متميزة لكن تعليمات المجلس الأميركي ذكرت أيضاً مصر وسوريا وأرمينيا ومناطق أخرى غير محدّدة. وبأية حال، كانت الوجهة الأولى لهذين المبشرين مدينة ازمير الجامعة أجناساً مختلفة، والمرفأ الوحيد في المنطقة الذي تؤمه الأساطيل التجارية الأميركية بشكل منتظم. وما لبثا إن اكتشفا أن التمركز في القدس كان مستحيلاً نظراً للخلافات المزمنة التي فرضها الوضع الراهن بين الكنائس، وللحظر المفروض على نشاط الأجانب العلمانيين في الاقامة الدائمة. وبالرغم من ذلك، أقام بارسنز في المدينة المقدسة خلال شتاء 1821. لكن هذه الزيارة كانت الأخيرة، بسبب وضعه الصحي ووفاته في السنة التالية في الاسكندرية. وإذ بقي فيسك وحيداً إثر وفاة رفيقه، إختار مغادرة مدينة ازميرالتي اعتبرها غير آمنة بسبب اندلاع الثورة اليونانية، وانصرف إلى مالطا التي كانت ملكية بريطانية تقيم فيها بعثة انجيلية انكليزية منذ 1815. والتقى هناك مُرسلاً آخر من قِبل المجلس الأميركي هو دانيال تامبل، الذي يمتلك مطبعة صغيرة. ولحق بالاثنين، في نهاية 1822، خليفة بارسنز وهو دجوناس كينغ، ثم وليام غوديل واسحاق بيرد. وصلوا في كانون الثاني 1823 برفقة زوجاتهم، لاكمال عديد البعثة الاميركية في الأرض المقدسة. وبالطبع لم تستطع مالطا أن تستوعب طموح الاميركيين، فتابع فيسك طريقه. وخلال زيارة القدس في ربيع 1823 برفقة دجوناس كينغ، لاحظ بالإضافة إلى الصعوبات القانونية القائمة في المدينة المقدسة، وجود بعثة بريطانية سبقت الأميركيين، وكانت تعمل على نشر المسيحية بين اليهود؛ فاختار عندئذ أن يكون ميدان نشاطه في جبل لبنان.

ونظراً لكثافة سكانه المسيحيين، بدا الجبل اللبناني أرضا مختارة، فسارع فيسك لأنشاء مركز في بلدة عينطورة. وكانت المبادرة مفعمة بالرموز: فاليسوعيون شغلوا هذا المركز قبل أن يفرض الحظر على نشاط رهبانيتهم. ولم تلبث الصعوبات أن برزت بالرغم من الاستقبال شبه الودي من جانب البطريرك الماروني، الذي استبقى الأميركيين إلى مائدته. ومع بداية خريف 1823، أدّى اجتماع

الانجيلين في عينطوره إلى ما يشبه بادرة الاستفزاز. شارك فيه بالإضافة إلى الأميركيين، ممثلون عن البعثتين البريطانيتين في مالطا والقدس. عندئذ أصدر الأمير بشير الشهابي حاكم الجبل أمرا بترحيل البروتستانت من عينطوره، نزولا عند رغبة البطريرك ومتجاهلاً الحاح القنصل البريطاني. لكن هذا لم يثبط عزيمة الأميركيين اطلاقا. اذ واصل كينغ، المقيم في دير القمر،وهي المركز القديم لحاكم الجبل تعلّم العربية وخوض السجالات مع كهنة الجوار الموارنة. لكنّ البادرة الأكثر تصميما كانت تعزيز البعثة. ففي تشرين الثاني أوعز الى وليام غودل وأسحاق بيرد بمغادرة مالطا حيث كانا يقيمان منذ مطلع العام والذهاب الى بيروت.

ومع أن المدينة لم تكن قد شهدت انطلاقتها بعد، وقع خيار الانجيليين على بيروت لتكون مركزا لنشاطهم نظرا لوجود قنصل بريطانيا الذي يستطيع تامين الحماية لهم. كان الأميركيون، في نظر السلطات العثمانية يندرجون في عداد الملة الأنكليزية ولقد أتاح هذا النظام أخيراً للمبشرين أن ينصرفوا إلى العمل، في مكان يُعتَبرُ قريبا من الأرض المقدّسة، ناشرين أدبياتهم في بيئة تحفل بأعدادجماعات «تسمي ذاتها مسيحية». ومن أجل ذلك تخلّى بيرد وغودل عن الايطالية التي كانا يدرسانها، فانكبَّ الأول على دراسة العربية، والآخر على الأرمنية وعملا لاحقا على تاسيس أول كنيسة بروتستنتية في سوريا. انحصر عمل البعثة أساساً في الترويج للأدبيات التبشيرية، لكن ألأنجيليين الأميركيين ما لبثوا ان أولوا اهتمامهم للشأن التربوي. عندئذوبعد انصرافهما إلى تعليم مجموعة من الصبية بعض مبادئ الايطالية، استقبلا في دارتهما في ضاحية بيروت منذ تموز 1824، صفاً من سبعة تلاميذ برعاية معلّم مسيحي من المنطقة. وفي الخريف أُتيحَ للمدرسة إن تتوسّع لتستقبل 50 تلميذاً عن طريق استئجار بيت في المدينة، فأحدَثَ ذلك ردّات فعل معارضة من قِبَل الكنائس المحلّية.

في مرحلة سابقة لهذا النشاط التربوي، كانت الكنيسة المارونية قد باشرت النشاط التربوي بدعوة من روما. وفي رسالة مؤرخة في 31 كانون الثاني 1824، حذّر الكاردينال ساماغليا Samaglia عميد المعهد المقدّس لنشر الإيمان، المبعوث الرسولي والبطريرك الماروني من «لصوص الضلال والفساد[2]» ولم يلبث البطريرك حبيش أن رشَق المرسَلين بالحِرم الكنسي، بعد اتهامهم بالهرطقة والإلحاد، وحظّر اللجوء إلى الطبعة البروتستنتية من الكتاب المقدس، والسبب يعود لنبذها بعض الكتب التي اعتُبِرت محرمة منذ مجمع ترنتو. ونظراً للنجاح الذي لاقته المدرسة، جاءت ردّة فعل بطريرك الروم الارثوذكس، الذي نشَرَ عام 1825، رسالة ضدّ التعليم البروتستنتي من دون أن ينجح في إيصال صوته إلى كامل الرعيّة؛ ومع مرور الزمن، كان انتشار البروتستنتية في صفوف تلك الطائفة هو الأقوى. وبالمقابل نجحت الكنيسة المارونية في مواجهة الانجيليين بشكل فعّال، إذ لجأت بعد الحرم إلى القهر، كما في احتجاز أسعد الشدياق. وكان هذا الأخير بدّل إيمانه بعد أن علّم فيسك وكينغ العربية، ثم ترجمَ

رسالة الوداع الهجومية التي كتبها «يونس كين» قبيل مغادرته المشرق[3]. سُجن أسعد الشدياق في أحد أقبية البطريركية في قنّوبين وتوفي هناك بعد أعوام من الحرمان وسوء المعاملة[4].

لم يستسلم المبشّرون. في عام 1826 تلقّوا توجيهات من بوسطن باستمالة المؤمنين وتوسيع نشاطهم التربوي من خلال إنشاء المدارس او تقديم الإعانات المالية. وفي مدرسة البعثة والمدارس التي استفادت من الإعانات، قارب عدد التلاميذ ثلاثمائة، وحظيت الفتيات بمساعدة مضاعفة. لكنّ اندفاعة البعثة شهدت تراجعاً، عام 1828، عندما قرّر الأميركيون الانكفاء إلى مالطا خوفاً من الحرب الروسية العثمانية وإثر الشائعات التي راجت عن احتمال حدوث تدخُّل بريطاني وشيك. وإذ رجعوا إلى بيروت عام 1830، كان لا بدّ لهم من العودة إلى الانطلاق من الصّفر. ومع افتتاحهم مدرستين، واحدة للصبيان وأخرى للبنات عام 1833، لم يتجاوز عدد التلاميذ الإثني عشر في كلا المؤسستين. لكنّ مجيء ابراهيم باشا شجّع الأميركيين لاختيار بيروت وحثهم على اتخاذ القرار بنقل مطبعة مالطا إليها، وفي أيار 1834 وصلت المطبعة، لكن العمل اقتضى سنتين من التجارب لاعادة طباعة أربعة من الكتب المنشورة سابقاً في مالطا. وتوقّف العمل عام 1840 على إثر حملة العثمانيين وحلفائهم الاوروبيين ضدّ ابراهيم باشا: انكفأ المرسلون هذه المرّة إلى قبرص. وفي السنة التالية، كانت عودتهم مع مرسلين جّدد، من بينهم كورنيليوس فان ديك، الطبيب الذي انكبّ فوراً على تعلّم العربية على يد بطرس البستاني، الذي اعتنق حديثاً البروتستنتية. وسوف يلعب في ما بعد دوراً حاسماً في إطلاق الجامعة. لكنّ المبشرين اضطروا في ذلك الوقت إلى تعديل طموحاتهم التربوية، استجابة لمبعوث المجلس الأميركي الذي جاء ليذكّرهم بضرورة إعطاء الأفضلية للتبشير؛ وإن دعت الحاجة إلى الاهتمام بالمدارس، فليقتصر الأمر على إعداد المبشرين وليس لنشر الثقافة العامة. والظاهر إن هذه الدعوة إلى الطاعة أتتْ ثمارها، فكان عدد المهتدين كافياً لإنشاء كنيسة انجيلية محلّية قبيل أواسط القرن.

اعترضت قيود مشابهة سبيل الطباعة المتنامية النشاط. أصرّت بوسطن باستمرار ألا تكون بيروت وحدها مركزاً للنشر. ومع ذلك فان انصراف المطبعة إلى طبع الكتب غير الدينية بقي محدوداً. فلو استثنينا الأعمال المُنجَزَة لحساب السلطات والمؤسسات التجارية التي ساهمت في تمويل الصحافة، لن يبقى بين 1834 و1854 سوى عدد محدود من المؤلفات المختصة بالمدارس: موجزان في الجغرافيا والجبر، أصدرهما بالعربية كورنيليوس فانديك، وموجز في الحساب نشرَهُ مرسل آخر هو إيلي سميث، وموجز لناصيف اليازجي في القواعد العربية. وبالمقابل نشرت البعثة الأميركية أدباً وافراً ذا منحىً ديني واصدرت طبعة عربية جديدة ثانية للكتاب المقدّس، شُرِعَ بالتحضير لها قرابة عام 1847. وشَغَلَتْ لسنوات عديدة مترجميها الثلاثة المعهودين: إيلي سميث والبستاني، وناصيف اليازجي. وسوف يعلن فانديك عام 1860، وهو المسؤول عن المشروع منذ وفاة سميث، عن إنجاز ترجمة العهد

الجديد. وفي عام 1865 ظهرت الطبعة الكاملة التي نقّحها الشيخ يوسف الأسير.

وشكّلت بداية الستينات مفارقة بالنسبة للبعثة الانجيلية، وتزامن ذلك مع أزمة قد تكون مزدوجة. عند اندلاع الحرب الأهلية في جبل لبنان، اضطر المرسلون الى مغادرة بيروت للمرة الثالثة، ولكن ولدى عودتهم الى ديارهم عام 1861، وجدوا انفسهم في مواجهة حرب أخرى أكثر ماساوية مزقت الولايات المتحدة. ومع نضوب الموارد التي سببتها الحرب الأهلية، بدا استمرار العمل مهدداً، بعدما أرادت بوسطن فرض مزيد من القيود على عمل البعثة التربوي. بيدا إن المنافسة راحت تزداد حدّة: لاسيما ان المرسلين الكاثوليك استقووا بالتدخّل العسكري الفرنسي ونظام الحكم الذاتي الممنوح لجبل لبنان؛ وان الكنيسة الارثوذكسية المدعومة من روسيا، باتت قادرة على تأمين المزيد من المساعدات لمدارسها، فيما بدأت جمعيات بروتستنتية أخرى بمباشرة أعمالها. وفي تلك الأثناء، وبالرغم من التعليمات الصادرة عن بوسطن، ولدت فكرة إنشاء مؤسسة تربوية كبرى.

جامعة أميركية للتربية الأوروبية

تعود صياغة مشروع معهد التعليم العالي إلى كانون الثاني 1862، بتحريض من دانيال بلسّ Daniel Bliss، الذي التحق بالبعثة الأميركية عام 1856. كان الهدف من المشروع منافسة عمل المرسلين المنتمين إلى رهبانيات أخرى. ولم تكن ردّة فعل بوسطن واضحة: فقد رَفَضَتْ تحمّل مسؤولية المعهد المنوي إنشاؤه طالبةً فصله عن بعثة سوريا، وأصدر المجلس الأميركي قوانين صارمة جداً بالنسبة لنشاطه. عندئذ أراد بلس ان يفعل الخطة التي وضعها بحجة ان الأهلين يطالبون بنظام تربوي اوروبي الطراز.

أما من الناحية العملية فكان اتفاق بوسطن يبيح لمرسلي بيروت اختيار طرق العمل وكيفية تنفيذ المشروع على ان تُحتَرَم توجهات المجلس الأميركي. وسارت الأمور وفقاً لما هو مرسوم لها. وقضت الخطة في بادئ الأمر بربط المعهد بمؤسسة بريطانية وقام المسؤولون عن المعهد بجولة في انكلترا لم تكن مشجّعة، فقرر أعضاء البعثة منذ تموز 1862 منح المؤسسة هوية أميركية، مع اختيار العربية كلغة تدريس. لذلك، كان لا بدّ لهم من البدء بحملة التمويل في الولايات المتحدة، بالرغم من الحرب الأهلية، شرط البحث عن الاعتمادات في ما بعد، في بريطانيا. وفي الخريف، توجّه دانيال بلس إلى نيويورك للقيام بما يلزم من إجراءات ولجمع الهبات. وعملاً بالتقليد الأميركي، تألف مجلس أمناء ضمّ أربع شخصيات من نيويورك واثنتين من بوسطن ورفعوا مشروعهم إلى سلطات نيويورك. شُكّل في بيروت مجلس آخر من ثمانية عشر عضواً، سُمّي **مجلس المديرين**، ضمّ كل مُرسَلي سوريا ومصر، والقنصل الأميركي، ومساعدي القناصل البريطانيين في بيروت ودمشق، وأربعة تجّار إنكليز. وشقّ

المشروع طريقه نحو التنفيذ بالرغم من الصعوبات التي اعترضت عملية جمع التبرّعات في الولايات المتحددة كما في بريطانيا حيث أقام بلِس من ايلول/ سبتمبر الى شباط / فبراير 1866.، وقد بات آنذاك رئيسا رسميا للكلية. وفي عام 1865 تقرّر اعتبار مدرسة البستاني الوطنيّة فرعاً تحضيرياً لكن هذا التدبير لم يَدُمْ طويلاً. وشَغَلت الكلية المباني الملاصقة التي استأجرها البستاني. وأخيراً، في 3 كانون الأول 1866، فتحت الكلية الأنجيلية السورية أبوابها أمام الطلاب.

ومن أجل إعداد الدفعة الأولى من الخريجين؛ وعددهم 16، استخدمت الكلية ثلاثة معلمين: الأميركي دافيد رودج، وآخرين من المنطقة: ناصيف اليازجي للعربية وأسعد شدودي للرياضيات. ولم يلبث المعهد أن اتسّع، ليضم بعد أربع سنوات 70 طالباً. وعَظُم شأن المناهج بدءاً من السنة الأكاديمية الثانية. والى المبنى التابع لقسم الآداب الذي كان يوفّر تنوعاً في الفروع: العربية، الانكليزية، الفرنسية، التركية، العلوم الطبيعية، الفيزياء، الرياضيات، الدراسات التوراتية، وألحق بها فرع للطّب. وحتى ذلك التاريخ، لم تعرف المنطقة إلاّ مدرستين للطبّ، واحدة في اسطنبول وأخرى في القاهرة، فالحدث إذاً مهم بالنسبة لمدينة كبيروت لا تزال مفتقرة إلى التجهيز الحديث. نتيجة لذلك نشأت صعوبات عدّة، أولها إن الدراسات الطبية تتطلّب إنشاء مستشفى. وبانتظار أن يؤمّن المعهد مستشفاه الخاص، تمَّ التعاون مع المستشفى الألماني جوهانيتر Johanitter، الذي أنشأته حديثاً أوانس الدياكونيس البروتستنتيات[5] Les Diaconesses du Kaiserwerth. والأصعب من ذلك كان مشكلة معادلة الشهادات الطبية، التي احتكرتها المدرسة السلطانية للطبّ في اسطنبول. وفي عام 1871 عندما طلب



الكولدج هول، أول مبنى في الجامعة الاميركية.

المسؤولون عن المعهد معادلة الشهادات، قدّمت السلطات العثمانية تنازلاً محدوداً إذ وافقت أن يقدّم متخرّجو بيروت امتحاناً في العاصمة اسطنبول، وتغطي الحكومة نفقات الرّحلة. دام هذا التدبير حتى نهاية القرن، بالرغم من تدخلات القنصل الأميركي. لكنه أثار مشكلة على المستوى اللغوي، فاللغات المقبولة في اسطنبول كانت التركية والفرنسية، بينما الطلاب في المعهد يدرسون الطبّ بالعربية والانكليزية. وفي عام 1903 وافقت اسطنبول على إرسال لجنة امتحان إلى بيروت، كما هي الحال في مدرسة الطبّ التابعة لليسوعيين، والتي تأسست خلال هذه الفترة[6].

شهد عام 1870 تخريج أول دفعة من الطلاب، ومن بينهم يعقوب صرّوف، أحد دعاة النهضة الأوائل. ولم يغادر صرّوف المعهد، حيث اوكلت اليه مهمات تعليمية. وفي تلك السنة أيضاً لم تعد البعثة الأنجيلية السورية تابعة للمجلس الأميركي بل الى مجلس البعثات الأجنبية للكنيسة الكلفينية. وأما المعهد الذي صار مستقلاً عن البعثة، فلم يتأثر بذلك. اعترضت مدارس البعثة بعض صعوبات مالية، ولم تكن سُلطة الوصاية الجديدة أكثر سخاءً في المجال التعليمي، لكن المعهد بات يُموِّل نفسه بطُرُقِه الخاصة، ويخطّط للمستقبل بوضوح. وفي آذار من العام 1870 تملّك ثلاثة عقارات شاسعة تقع على كامل الامتداد الشمالي لتلّة رأس بيروت؛ وتدبر امره ليتخلص من الرسم الضريبي على هذه الأوقاف بواسطة مواطن يدعى مخايل غرزوزي. وفي سبيل تمويل البناء قام دانيال بلّس بجولة أخرى لجمع التبرّعات في الولايات المتحدة وانكلترا؛ وبعد سنوات ثلاث انتقل المعهد إلى مبانٍ جديدة.

وفي هذا الحرم الجامعي الواسع المحاط بالأخضرار الذي بات نقطة انطلاق للتوسّع العمراني غرب المدينة القديمة، حيث يرتفع برج الساعة وقُبة المرصد، وحيث المحترم فانديك يرسل مرتين في اليوم تقارير تلغرافية إلى اسطنبول[7]، تسنّى للكلية السورية الإنجيلية أن تتحول، ولأمد طويل إلى أحد المعالم الثقافية الرئيسية في بيروت. لكن أداءه لم يكن بعد قد بلغ المستوى الذي يتناسب مع نوعية منشآتها. ولن تصل إلى ذلك إلاّ بعد أزمة داخلية أفقدتها بعضاً من روحيتها، دارت حول لغة التعلّم، وتناولت مسألة الحرية الأكاديمية، والعلاقات بين الأميركيين والسكان المحلّيين.

داروين والعربية

في إطار المشروع الأكاديمي للكلية السورية الأنجيلية، حُدِّدت العربية لغة التدريس. وكان هذا الاختيار متناسباً مع فكر المرسلين الذين كانوا كلّهم يتعلمون لغة البلاد لدى وصولهم إليها. ولكن، ومنذ عام 1896، سُجّل أول تحوّل في هذا الشأن مع إعلان الرئيس بلس، الذي عبَّر عن خوفه من غياب المراجع في هذه اللغة، وعدم كفاءة الجسم التعليمي الذي سيتولى مهمة التدريس في الصفوف المتقدمة في فروع الآداب. وبعد فترة من الزمن، استقدم المعهد للمرة الأولى، استاذين من الولايات

المتحدة لا يتقنان العربية: أحدهما مُبشّر يحمل شهادة في الطب من هارفرد لتدريس مادة الكيمياء، والآخر مجاز من أمهرست لتعليم التاريخ. وطُرحت بوضوح مسألة لغة التعليم في اجتماع مجلس الأمناء في نيويورك عام 1875، بحضور بلس ودودج. في البداية اتُخذَ قرار بجعل الانكليزية لغة الزامية للطلاب كافة. وبعد ثلاث سنوات أجرى بلس تغييراً تمهيدياً شبه «جذري»، وسمح للأنكليزية بأن تكون لغة التدريس في بعض المواد.

وخلال السنة الجامعية 1879–1880 لم تعد العربية وحدها لغة التدريس الرسمية. كان المعهد يضمّ يومها 33 طالباً في قسم الآداب و 37 في قسم الطب. لكن الانتقال الكامل إلى الانكليزية اتخذ بعض الوقت بسبب المعارضة؛ ليس لأن الأساتذة والطلاب المحلّيين كان لهم الحق في ابداء رأيهم. فباستثناء جون ورتبات John Wortabet، ابن أول منتسب أرمني إلى البعثة، والذي درس في انكلترا، لم يحمل الأساتذة المحليون، وعددهم خمسة، لقب بروفسور. بل لأن الردّ جاء من البعثة نفسها التي أعلنت إنها ما كانت لتقفل أبواب مدرستها في عبيه، لو علمت مسبقاً بالقرار، وبأية حال فان هذا التغيير مناقض لمخططات مؤسسي المعهد. وظهرت معارضة أخرى في صفوف الاساتذة، أدت إلى إعادة التدريس باللغة العربية لبعض الوقت.

ومن غريب الصُدَف أن المقاومة الأبرز ظهرت في قسم الطبّ، فيما تمَّ الانتقال إلى الانكليزية بشكل أسرع في قسم الآداب. مردّ ذلك إن الأميركيين المستعربين، أمثال كورنيليوس فانديك وجورج بوست وورتبات كانوا يعتمدون في تدريس مادة الطب على المؤلفات العربية الضرورية المنشورة في مصر منذ سنة 1820، بالإضافة إلى مؤلفاتهم. نتيجة ذلك، تمكّن الجسم التعليمي في مدرسة الطب، عام 1881، من تأجيل إدخال الانكليزية. لم يدم هذا الإرجاء طويلاً، وكانت العربية تتراجع بشكل حتمي إلى أن برزت قضية جديدة مستقلة تماماً عن سابقتها. وهزّت المعهد في السنة التالية مع وفاة داروين.

وفي تمّوز 1882، وخلال حفل تسليم الشهادات هبّت العاصفة عندما قام إدون لويس أستاذ الكيمياء في المعهد والطبيب ورجل الدين من غير المنتمين إلى البعثة، بالقاء الخطاب المتعلّق بالمناسبة. وكان لويس غير مقبول أصلاً في الأوساط الجامعية لأنه يحتسي الخمر على المائدة[8]. ضمّن خطابه أفكاراً مؤيدة للداروينية فتسبب بإشعال فتيلة النزاع. وكان الجدال نشأ منذ نشرت مجلة المقتطف التي يصدرها استاذان في المعهد هما يعقوب صرّوف وفارس نمر، في عدد شهر أيار، خبر وفاة صاحب نظرية التطور والارتقاء، موجّهة تحية «للرّجل الأكثر علماً وشهرة في زمانه». وخُصِّصتْ افتتاحية العدد التالي لداروين، وعدد تمّوز للداروينية. وفي عدد آب نُشرَ خطاب لويس الذي ساهم في إشعال الجدال. وإزاء هذا التركيز المقصود على نظرية التطور والارتقاء كانت ردّة فعل مجلس الأمناء عنيفة،

وطالبت نيويورك باستقالة لويس، فقُبلَتْ استقالته. لكن الأزمة لم تكن إلا في بداياتها؛ وأراد الطلاّب الاحتجاج على هذه العقوبة فرفضوا إنشاد المزامير وأعلنوا الإضراب. ووقّع أربعون منهم رسالة احتجاج سببت طردهم لمدة شهر؛ وأعلنت الإدارة شرطاً واحداً لإعادتهم هو سحب تواقيعهم. وسبب هذا بدوره استقالة أحد الآباء مؤسسي المعهد، المحترم فانديك، وجميع أساتذة قسم الطب باستثناء جورج بوست، المروّج المرجّح للحملة ضد لويس. وذهب المنشقون أبعد من ذلك، ومن أجل مواصلة تدريس الطلاب المفصولين، أقاموا لهم مركزاً مؤقتاً لإلقاء الدروس في فرع الطب وراحوا يؤمنون الدروس في بيوتهم وفي مستشفى القديس جاورجيوس للروم الأرثوذكس، المُنشأ حديثاً[9]. أما في المعهد فالأزمة حُلّت بصعوبة، وسُجلت اضطرابات طوال العام 1882–1883. وتعرّض بعض الطلاب الذين أعيدوا الى الكلية للتنكيد. وفي النهاية. قررت نيويورك إعادة نظر كاملة في القسم الطبي من خلال توظيف أساتذة أميركيين جُدد، طُلِب من كلّ منهم أن يوقّع مسبقاً تعهداً لاهوتياً. وتمثل المشهد الأخير بفصل صرّوف ونمر؛ وكانا مُرَشحين للترقية ومرضياً عنهما حتى قبيل اندلاع الأزمة. وقد صُرفا من المعهد في نهاية السنة 1883–1884، وغادرا بيروت إلى القاهرة ومن هناك تابعا اصدار مجلة المقتطف[10].

لم تكن للجدال حول داروين أية علاقة بمشكلة الانتقال إلى الانكليزية. ولم يكن الرجل الذي تسبّب في نشوء الأزمة، وهو البروفسور لويس مستعرباً. لا بل كان أحد أول الأساتذة الذين استقدمتهم الجامعة ولا يتقنون العربية. وبخلاف ذلك، كان غريمه جورج بوست في عداد الذين أيّدوا الوضع اللغوي الراهن في مدرسة الطبّ. ومع ذلك، فالعربية أمسَتْ إحدى ضحايا النزاع الحاصل. وبعد إعادة ترتيب القسم الطبي وتوظيف أساتذة أميركيين جدد، لم يعد من معلمين قادرين على التعليم بالعربية؛ ففرضت الانكليزية نفسها.

ومهما يكن من أمر، فلا بدّ للجامعة من استعادة الهدوء، والانطلاق لتتحوّل في أمد قصير إلى مؤسسة تعليمية تستقطب النخب من كافة بلدان المنطقة. لقد خلّف زمن الأزمة هذا، تبعات كثيرة طالما تناولها صرّوف ونمر في مقالاتهما المخصّصة لجامعتهما الأم، بعد انتقال المقتطف إلى القاهرة. وعندما قررت الكلية السورية الأنجيلية ان تمنحهما اول شهادتي دكتوراه فخرية.، رفضا المجيء الى بيروت لتسلم الأوسمة واعتبرا ذلك بادرة صلح متأخرة.

وعلى الرغم من مرور قرن من الزّمن، فإن محاولات الشحن العاطفي ظلت مستعرة في النفوس. فهي تظهر من خلال معظم الدراسات المختصة بتلك الفترة، بإشراف مؤرخين من الجامعة الأميركية. والحقيقة أن فرض التدريس باللغة الانكليزية الذي تزامن مع ابعاد صرّوف ونمر، أضفى على عمل المُرسَلين طابعا أبويا كان خلوا منه حتى الأمس القريب ؛ لا سيما وأن إمكانية توظيف أساتذة أميركيين

أو إنكليز، من دون قيد لغوي، ساهمت لأمد طويل في حرمان حملة الشهادات المحلّيين من فُرص العمل والترقي والمشاركة في اتخاذ القرارات[11]. وبمعزل عن الكلية، ترتَّبت على القضيتين نتائج تستحقّ الذكر، تركت بصماتها على مسيرة النهضة والدور الذي لعبته في بيروت. وإذا كان التنوع اللغوي مزدهرا، فهذا لأنه اعتبر بُعداً من أبعاد بيروت ولبنان في القرن العشرين؛ لكن تهميش العربية انعكس سلباً على مسيرة النهضة في التجديد اللغوي والثقافي. وان الإضرار بالحريّة الأكاديمية كشف أن العمل التربوي الغربي لم يكن بحدّ ذاته مرادفاً للتحرُّر. هذا ما عبّر عنه نفي صروف و نمر إلى مصر. وبالرغم من انهما كانا مرتبطين بالاوساط الناشئة المنادية بالوطنية السورية ، فقد غادرا بيروت بسبب أفكار دينية مسبقة مستوردة وليس تحت وطأة الاستبداد الحميدي الذي كان في الوقت عينه، يبعد المثقفين في سوريا، نحو القاهرة. وبالمناسبة، فالسلطات العثمانية اقترحت إعفاء **المقتطف** من التوقف عن الصدور الذي شمل كل المطبوعات الصادرة في مصر.

وامتد تأثير الطروحات الداروينية من بيروت ليشمل القاهرة ويشهد انتشارا اوسع على يد احد متخرجي الكلية السورية الأنجيلية شبلي الشميّل، الذي تابع تحصيله في أوروبا بعد أن درس الطبّ. لقد أثارت مقالاته وترجماته، المنشورة بشكل عام في مجلة صرّوف، ردات فعل عديدة في مصر؛ لكنّ الهجمة هذه المرّة لم تأتِ من المرسلين البروتستنت، بل من صحيفة **البشير** التي كان يصدرها منافسوهم اليسوعيون.

إرث اليسوعيين

إن مسار اليسوعيين بعد عودتهم إلى الشرق يُظهر تشابهاً غريباً مع مسار الانجيليين الأمريكيين. فالأولية نفسها معطاة للتبشير، والتنافُر عينه قائم بين المرسلين ورؤسائهم، والتذبذب نفسه في مواصلة عمل البعثة؛ والمفهوم الوظيفي نفسه للتعليم، والتقويم المتشابه للحاجات التربوية المحلية هو ذاته. وقد جاء في نصّ التحضير لمشروع تأسيس معهد يسوعي كبير في آسيا: «من يستطع الأشراف على تربية الناشئة في هذه البلدان يمسك بقرارها»[12]. ومع ذلك، لم نجد عند أي من هاتين البعثتين خطّة تربوية موضوعة سلفاً لمواجهة المستقبل.

علق الآباء اليسوعيون نشاطهم التربوي بأمر من روما عام 1773 وأعيد إحياؤها عام 1814. لكن المشرق الذي تواجدت فيه منذ القرن السابع عشر، لم يكن ضمن أولوياتها. وعام 1816، رفع رؤساء الكنائس المتحدة في روما التماساً إلى البابا، من أجل إحياء نشاط الآباء اليسوعيين، لكن طلبهم قوبل بالرفض. وانقضت سنوات عشر قبل الإعداد لأية عودة. وسنحت الفرصة في تشرين الثاني 1831 حيث وصل إلى بيروت مُرسلان هما الأب ريكادونا Riccadona والأب بلانشيه Planchet،

برفقة المطران مظلوم، الاسقف في كنيسة الروم الكاثوليك، الذي اقترح إحياء مدرسة عين تراز بعد أن أقام طويلاً في روما. بالرغم من الذكرى الطيبة التي خلفتها هذه الرهبانية بين الكنائس المشرقية البابوية، فان موقف الارتياب الذي اتخذته منها ملكية لويس فيليب في فرنسا لم يُتح لها التفكير في بعثة أكبر حجماً، فارتضت عدم التوسع في الشرق. وتمكّن اللعازاريون، الذين كانوا يحظون برضى غيزو، من تملُّك مقرّ اليسوعيين في عينطورة دون أن تواجههم أية معارضة. ولم يسع الأب ريكادونا ولا الأب بلانشيه قط إلى استثمار حقوق الرهبانية، حتى عندما قرّرا بالاتفاق مع الأب الرئيس العام روثان Roothan فك الارتباط بمشروع عين تراز، حيث التعاون مع المطران مظلوم لم يعد مثمراً. ومنذ عام 1836 سعوا إلى إقامة مركز لهم في بيروت التي «صارت أسكلة هذا الشرق»، وهي تضمّ عدداً متنامياً من الاوروبيين والمسيحين المحليين. وكان لروما موقف آخر. وبالمقابل، أسّست الإرسالية العاملة في بلاد الشام التي انضمت إليها عناصر جديدة، مركزاً في المعلقة، قرب مدينة زحلة في البقاع، وآخر في بكفيا في جبل لبنان، بينما توسعت طموحات بعثة الأب بلانشيه الجغرافية، لتمتد إلى بلاد الكلدان.

وسارت البعثة في طريق التوسّع عندما ظهرت عام 1836 فكرة إنشاء معهد كبير لآسيا وقد عمدت هيئة الايمان في روما الى توكيل اليسوعيين به. وانتدب الأب ماكسيمليان ريلّو Maximilien Ryllo وهو مرسل بولوني بارز يعِدَ بمستقبل زاهر، إلى بلاد الكلدان. ووضع عام 1838 مشروع اكليريكية غريغورية في آسيا. وخَطر له إنشاء المعهد في الموصل، لكن اختلال الأمن في تلك المنطقة دفع روما إلى مركز يحظى بحماية القناصل الاوروبيين. ولما كانت بيروت تتمتع بهذه المميزات، بدأ ريلّو، الذي أصبح رئيس الإرسالية العاملة في سوريا، بتنفيذ مشروع الاكليريكية المسماة أيضاً بالمعهد المركزي الأسيوي. لكن تفاقم الأزمة بين الأتراك والمصريين حدّ من هذا الانطلاق.

وبسبب اتهامه بالتقرّب من العثمانيين واشتراكه بالمناورات التي رافقت حملة الانكليز ضدّ ابراهيم باشا، أثار ريلّو غضب فرنسا وفضّلت روما إبعاده عن المشرق. ولكنه تمكّن في هذا الوقت من الحصول على عقار بهدف أن يُقام عليه معهد اليسوعيين ومقرّ إقامتهم. وكانت السلطات العثمانية عرضت على ريلّو قطعة أرض كبيرة بمحاذاة سور المدينة، ربما هي ساحة البرج. ونتساءل اليوم عمّا كان سيؤول نمو بيروت العمراني لو انشئت في هذه الساحة، المرشحة أن تصبح لاحقاً مركزاً للمدينة، مبانٍ تتمتع فضلا عن الأمر بالحماية القنصلية. ولم يتبنّ الآباء اليسوعيون الاقتراح، وتملّك ريلّو أراضي محاذية لتلك، بالقرب من أملاك البعثة البابوية. وفي تشرين الثاني 1841، استقبل المقرّ، وهو قيد البناء، أولى «المدارس العامة». واستعمال صيغة الجمع الواردة في مراسلات اليسوعيين غير دقيق، لان المقصود مدرسة ابتدائية واحدة تضمّ صفوفاً عديدة[13]. وأما المعهد العتيد فلم يرَ النور قط.

وغضبت فرنسا من التعاون المشبوه بين ريلّو والسلطة العثمانية، وهي التي تحذر بأي حال جانب اليسوعيين، فأرادت تسليم إدارة النشاط التربوي المرتبط بروما للعازاريين. ولم تقبل المشاركة بإنشاء المعهد المركزي الأسيوي، إلاّ إذا أقيم في حلب. واعتبر اليسوعيون ذلك مناورة هدفها القضاء على مخططاتهم في المشرق. وكتب الأب بلانشيه للرئيس العام: «حلب في وسط صحراء، وتفصلها ثلاثة أيام عن البحر»، مؤكداً أن اليسوعيين لا يمكنهم مغادرة بيروت «من دون أن يفقدوا بعضاً» من موقعهم في سوريا[14]. وفي رسالة أخرى موجهة إلى الشاعر لامارتين، وكان يأمل في دعمه، أكد بلانشيه أن حلب ولو كانت «أكثر اعتباراً»، فان إنشاء المعهد في بيروت يؤمن إمكانيات أفضل، لا سيما من حيث سهولة المواصلات وفعالية الحماية الاوروبية. لكنّ تلك الحماية لم تكن دوماً فاعلة بسبب النزاعات بين الاوروبيين أنفسهم.وقد تدخلت السلطات العثمانية غير مرة لمنع اليسوعيين من مواصلة البناء، بحجة عدم حصولهم على الفرمان. وبأية حال، فتلك كانت ذريعة لليسوعيين: فبينما رفضوا التخلّي عن مركز إقامتهم في بيروت، كما أرادت فرنسا، فكروا بإمكانية إنشاء المعهد في صيدا. ثم اختيرت بكفيا حيث كان للآباء مدرسة ومركز إقامة.

وفي جبل لبنان، كان العرف يسمح بالتغاضي عن الفرمان. لكنّ بطء المعاملات وتردّد روما أخّرا المشروع، حتى أن الآباء عمدوا إلى خيار آخر في قرية غزير في كسروان، حيث عُرِضَت عليهم دارة واسعة تعود إلى أحد الأعيان. ومع تمسّك الرئيس العام بخيار بكفيا، فان خيار غزير القريبة من مؤسسة اللعازاريين في عينطوره، قد غلب. وفي تموز 1843، وبعد حصول تأخر طارئ على عمل البريد، فرض بلانشيه الأمر الواقع بتشجيع من المبعوث البابوي، فقرّر قبول عرض البيع بمباركة الرئيس العام الذي قال: «فلتكن مشيئتك!»[15]. ومع ذلك تأخر إفتتاح الاكليريكية سنوات ثلاث إضافية بسبب الصعوبات المالية وتشابك السياسة الدولية في روما، وتعرّض المقرّ الجديد للنهب خلال الاضطرابات الطائفية التي اندلعت في جبل لبنان عام 1845.

كان التسرّع في اختيار غزير، والجدال الحاد الذي ظهر في المراسلات المتعلقة بمشروع المعهد، يعبّران عن رغبة الآباء بالاستعجال، وكأن مستقبل وجودهم في المشرق مرتبط بإتساع مشروعهم التربوي. ومع ذلك، فالرئاسة العامةلم تكن ترى في التربية أولوية، والدليل هو النقد المتكرّر الذي لا يخلو من النكهة الموجّه من قبل الرئيس العام. وقد قام الأب روثان غير مرّة بتوجيه اللوم إلى المرسلين لانهم انصرفوا كلياً للتعليم وتخلّوا عن مهامهم الدينية الأساسية: «القيام بعمل الخير والمناولة والرياضات الروحية» التي يشكّل التقيد بها واحداً من أهمّ مبادئ التواصل مع روما. وكانت الرهبانية حريصة على توسيع البعثة، وإن لم ترسل إلاّ القليل من المبعوثين. وكان الرئيس العام يسعى بانتظام إلى جمع التبرعات.

وفيما كان الرئيس العام يسعى إلى الحد من حماسة مُرسليه، أيّد مع ذلك التوجه التربوي الذي كان يجد له مرتعاً خصباً لديهم. وبدا الإقبال المحلي على التعلم الأوروبي، ويمكن معاينته عبر الرسائل التي تبادلها الآباء شديداً لدرجة ظهرت معها التربية وكأنها رافعة كل عمل إرسالي. على أية حال، كان التنافس بين الأنجيليين الأميركيين والأرثوذكس «المنشقين» الذين أنشأوا مدرسة ناجحة في بيروت، دافعاً إضافيا يحث اليسوعيين على عدم الابطاء في مشاريعهم.

ومع ذلك، واجهت مهمة اليسوعيين بعض الصعوبات بسبب حجب الثقة الدائم للحكومة الفرنسية عنها[16] التي ثَنَتْ روما عن تقديم الدعم اللازم لمشاريع التوسّع لرهبانية اليسوعيين في الشرق وخاصة في بيروت. عندئذ، اتخذ الرئيس العام قراراً يتيح له نزع فتيل المعارضة ويقضي بوضع «إرسالية سوريا» تحت وصاية ليون وهي احدى المقاطعات الفرنسية الانشط والأغنى والأقدر على تنفيذ المهمات الاجتماعية الموكلة إليها[17]. ومنذ ذلك الحين، بدأ التعليم الكاثوليكي في الشرق يأخذ طابعاً فرنسياً حتى لو كان هناك رجال دين من أصول مختلفة يساهمون فيه. وكان التحول واضح المعالم مع تعميم التدريس باللغة الفرنسية. وتفيد إحدى الرسائل التي بعثتها عام 1849 الجمعية الكاثوليكية في بيروت إلى الجمعية الآسيوية في باريس، بأن اللغة الفرنسية باتت منذ بعض الوقت في متناول الجميع في البلاد، والفضل يعود إلى مدرسة اللعازاريين في عينطورة ومدرسة اليسوعيين في بيروت: «وهكذا، فإن جيلنا، من بين كل الأجيال التي انطلقت في عالم الأعمال، أول من بات يتقن اللغة الفرنسية[18]...»

لم يكن اعتماد الفرنسية التدريجي، بالنسبة لليسوعيين أمراً بديهياً، حتى بعدما وُضعت إرسالية سوريا تحت وصاية ليون ولم يكن الأمر يتعلق آنذاك بالقيام بخيار بين العربية والفرنسية، فالآباء الأوائل، بدافع من وفائهم للتقليد الذي درجت عليه الجمعية والذي يقوم على التطبع مع البيئة الاجتماعية التي يعملون فيها وعلى تحقيق أكبر قدر ممكن من الفعالية، بادروا إلى تعلم اللغة العربية، كما فعل المرسلون الأميركيون على أية حال. وإذا كانت ثمة منافسة فهي تأتي من الايطالية التي كانت شائعة الاستعمال في الأوساط التجارية وقد أدرجها اليسوعيون، وهم معتادون على الإدارة البابوية، في مناهجهم المدرسية بصورة تلقائية. لكن انتشار اللغة الايطالية الخجول لم يسمح لها بالدوران على ألسنة الناس، فالفرنسية كانت هنا، وهي لغة النخبة المعاصرة، في محيط ابراهيم باشا كما في الأوساط الحكومية العثمانية. أضف إلى ذلك أن اللغة الفرنسية تمثل بالنسبة للمسيحيين التابعين للبابا صورة فرنسا، البلد الحامي لهم، ولم تعد هذه الحماية فكرة مبهمة بعد اليوم، وما ساعد في ذلك، سرعة الاتصالات التي جعلت من النشاط الدبلوماسي الذي باشرت به ملكية لويس فيليب، ومن بعدها الامبراطورية الثانية [نابليون الثالث] أمراً ملموساً ويومياً. كان القرار المتخذ بوضع

الارسالية العاملة في سوريا تحت وصاية ليون نابع من هنا. لكن، اعتماد اللغة الفرنسية لم يتكرّس إلاّ بعد سلسلة من المناحرات الداخلية. ففي إحدى الرسائل المكتوبة عام 1846، يتحدث الأب بلانشيه وهو نفسه فرنسي عن الخطر الناجم من تعليم اللغة الفرنسية «بسبب ما تنشره الصحف الفرنسية والكتب الفرنسية السيئة، الخ،...» «فيما ندّد المبعوث الرسولي، في أحد التقارير المرسلة إلى الجمعية المقدسة ب «التبعات السيئة» الناتجة عن اعتماد الفرنسية في البلاد[19]. أما الأب ريكادونا الايطالي فدافع، انطلاقاً من براغماتيته، عن التدريس باللغة الفرنسية في مدرسة غزير[20]. على أية حال، لم يعد هناك سوى الاستسلام للأمر لان اللغة الفرنسية كانت تحظى بالتشجيع الشعبي وبدعم المؤسسات الإدارية، كما تظهر ذلك إحدى الرسائل المكتوبة في عام 1835[21]. لكن التحول كان حاسماً مما ساهم في إبراز صورة الفرانكوفونية لبيروت ولبنان، مع إن الأمر كان مبهماً آنذاك، وهذه الصورة ستؤثر عَرَضاً في الدعوة التي تميز بها اليسوعيون وكانت تحثهم على التكيف مع محيطهم الثقافي، فالكثيرون منهم لم يعودوا يظهرون الرغبة في تعلم العربية.

نداء المدينة

إن إنشاء مدرسة اليسوعيين في غزير والتوسع الجغرافي الذي حققته إرسالية سوريا لم يحوّلا انتباه اليسوعيين عن بيروت. وبالرغم من استحالة بناء المؤسسة الكبيرة التي كان مزمعاً انشاؤها في بيروت، فإن انطلاقة المدينة المستمرة، منذ عودة اليسوعيين، جعلتها مؤهلة لتكون مركز الثقل للإرسالية. وفي معرض جوابه على المسائل المطروحة عن تنظيم الإدارة وعن إنشاء مقر للرئيس العام، أشار الأب استيف Estève، وكان يشغل هذا المنصب حينئذٍ، بأن ما من شك في أن بيروت ستكون المقرّ الأساسي للرهبنة[22] حتى لو وضعنا جانباً وجود اكليركية غزير وهي تشكل الشريان الأساسي للرهبنة. يبدو إن وجود اليسوعيين في بيروت بدأ يتكثف بشكل ملحوظ، بالمعنى الجغرافي أولاً، لأن مقر الرئاسة الذي أنشى فوق رقعة أرض سبق أن اشتراها الأب ريلّو عام 1840 كان يشغل حيزاً جوهرياً من التجمع السكني الذي بدأ يتمدّد خارج أسوار المدينة. وبات هناك حي يسوعيّ حقيقي شرقي ساحة البرج، والكنيسة التي أنجزت مؤخراً خلقت شبكة أبنية متصلة بعضها بالبعض الآخر عبر ممرات وأزقة تستخدم لأغراض متنوعة. فتناول القربان والتمارين الروحية، بالرغم من أن الآباء كانوا يأتون على ذكرها دوماً في مراسلاتهم الدورية، كانت أبعد من أن تحولهم عن اهتمامهم الرئيسي المنصب على التعليم. والى المدرسة الابتدائية التابعة للمقر العام للرئاسة، أنشئت مدرسة أخرى في رأس بيروت.

ولم يكتفِ اليسوعيون بإحياء صفوفهم بالذات، ويبدوا انهم بسبب تقربهم من المبعوث الرسولي،



دفتر المعلم في مدرسة اللعازاريين (حوالى 1870).

قد لعبوا دوراً شبه رسمي في التنسيق بين أعمال الارساليات الكاثوليكية، وتشجيع جمعيات دينية، (منهم مباشرة او بإيعاز منهم لروما) على الاستجابة للحاجات المتنامية في الميدان التربوي. وجرى التأكيد في بيروت، على وجه خاص، على الاستجابة لهذه الحاجات ردّا على النشاطات التي يقوم بها البروتستانت الأميركيون أو البروسيون أو الكنيسة الارثوذكسية، التي بعد أن أنشأت مدرسة لها عام 1836، افتتحت أخرى بتمويل من روسيا عام 1852. وإذا استثنينا الآباء اللعازاريين الذين جعلوا مقرّهم في عينطورة وراهبات المحبة التابعات لرهبنتهم اللواتي افتتحن مدرسة للبنات في بيروت عام 1840، فإن تمركز الجمعيات الكاثوليكية الأخرى جاء نتيجة التعليمات البابوية التي كان لليسوعيين ضلع فيها بشكل مستمرّ. وهذا ما حصل مع راهبات مار يوسف الظهور اللواتي أقمن لفترة قصيرة في بيروت عام 1847 بناءً على طلب الموفد الرسولي وعلى اقتراح من اليسوعيين أنفسهم، ثم استقرين فيها نهائياً عام 1872 بعد أن أسسن فرعاً لهنّ في حلب[23]. وكانت هذه أيضاً حال «راهبات الناصرة اللواتي استدعين إلى بيروت عام 1869 ليضعن حداً لتأثير أوانس الدياكونيس البروتستانتيات اللواتي تولين إدارة مدرسة داخلية لفتيات المجتمع الراقي، ولم تستطع راهبات المحبة التفوّق عليهن أو

منافستهن في النجاح الذي وصلن إليه لأنهن، أي راهبات المحبة قبلن إدخال فتيات من عائلات أقل يسراً[24]. وإذا كان رهبان المدارس المسيحية نجحوا في أداء رسالتهم التربوية على امتداد رقعة المشرق الجغرافية، فهذا لان اليسوعيين حثوهم على القيام بهذا الدور في الرسائل المتبادلة فيما بينهم.

ولم يشمل تأثير اليسوعيين فقط طبقات الأعمار التي توجهت إليها هذه الشبكة التربوية المتنامية. فالى مدرسة غزير التي كانت تعطي دروساً معمّقة في اللاهوت والفلسفة، أحاط الآباء أنفسهم بجماعة من الشبان المتعلمين، وتأسست بالتالي جمعية هدفها الحد من التأثير البروتستانتي واحتواء السجالات المثارة في العلوم الطبيعية والفيزياء أو التاريخ. وكان اليسوعيون يطلقون في مراسلاتهم على هذه الجمعية تسمية الأكاديمية أو الجمعية. وواجهت هذه الجمعية منذ إنشائها عام 1849 صعوبات نسبها الأب بدور في تقريره عام 1853 إلى طبائع السكان[25]. ولكن يبدو أن هذه الصعوبات ناتجة عن الاستياء الذي أثارته اهتمامات أعضاء الجمعية في أوساط اليسوعيين. فبالإضافة إلى الملاحظات التي أبدوها عن النشاط السياسي المحرج الذي يمارسه الطلاب، نجد في رسائلهم أيضاً ذكر للمخاطر التي يجسدها اهتمام الشبان بالمسرح خصوصاً عندما تطوع نقولا النقاش ليكمل عمل أخيه مارون المتوفى عام 1855، فاستعان ببعض الطلاب وأسند اليهم أدواراً في مسرحية ساخرة[26]. على أية حال، غابت



المطبعة الكاثوليكية التي أسسها الآباء اليسوعيون.

الفرقة المسرحية عن المسرح لفترات متقطعة مما أساء إلى استمراريتها ولكنها سرعان ما انطلقت من جديد تحت أشكال جديدة وتسميات متنوعة.

على أن صفة الاستمرارية لازمت نشاط المطبعة التي أسسها اليسوعيون في منتصف القرن التاسع عشر. وهنا أيضاً، كان الحافز الديني حاسماً، فمطبعة المرسلين الأميركيين في بيروت التي أنشئت عام 1833 ظلت تصدر بانتظام نشرات دينية مترجمة إلى العربية. أما مطبعة القديس جاورجيوس للروم الارثوذكس فعادت إلى عملها عام 1842بعد الضرر الذي لحق بها إثر قصف الاسطول الروسي عام 1771. كما انشئت مطابع أخرى في جبل لبنان تابعة للرهبنات البابوية. للوهلة الأولى اكتفى اليسوعيون بأدوات نسخ وطباعة حجرية أرسلت اليهم من ليون عام 1847-1848 ثم أتاحت لهم مساهمة أحد المتبرعين الفرنسيين بإنشاء مطبعة طبقاً للأصول الواجب اعتمادها عام 1853، وفي السنة التالية، أصدرت أول كتاب بالعربية، وفي عام 1856 اتسع نطاق أعمالها فاتخذت لنفسها مطبعة جديدة[27]. كانت الإصدارات، تماماً كتلك التي ينشرها البروتستانت الأميركيون محصورة بشكل أولوي في المواضيع الدينية وتحديداً في كتب جدالية تحارب التأثير البروتستانتي. ولكن المطبعة اهتمت أيضاً بأعمال دنيوية، وعلى سبيل المثال القاموس العربي الفرنسي الذي أعدّه الأب كوش Cuche عام 1856 إنطلاقاً من القاموس العربي اللاتيني الذي ألّفه فريتاغ Freytag [28]. وبلغت طريقة الطباعة التي اعتمدتها آنذاك مطبعة اليسوعيين - وصار اسمها المطبعة الكاثوليكية - مستوى ارفع من ذلك الذي بلغته مطبعة الأميركان. واستمر مشروعها عملياً حتى نهاية القرن العشرين. وبعد خمس عشرة سنة من العمل الدؤوب، اكتسب محترف المطبعة من النظامية ما يكفي ليكون قادراً على تأمين الإصدار الاسبوعي لصحيفة الإرسالية في سوريا. في البداية، أطلق على الصحيفة اسم «مجمع الفاتيكان» أو «الفاتيكان» وباتت تصدر بالعربية في مطلع 1870 في حجم صغير (26.5 × 16.5). في أيلول سبتمبر من السنة نفسها، اتخذت الصحيفة اسم «البشير» وبعدها اعتمدت حجماً أكبر بقياس (64×50) اعتمدته أيضاً في النشرات الأخرى لكي يسهل نقلها عبر البريد[29]. وكما يوحي إسمها «البشير»، استلهمت الصحيفة الدعوة التبشيرية التي تميز بها اليسوعيون، وقد أثار صدورها بعض المشاكل مع السلطات العثمانية[30]، على الرغم من كون الأمر يتعلق بمحاربة اليسوعيين للنفوذ الأميركي المتزايد مع تأسيس الكلية السورية الانجيلية[31].

أما العام 1870 فكان عام انعطافة أخرى حاسمة إلى أبعد الحدود في المغامرة التي خاضها اليسوعيون في المشرق، بإعلان الأب امبواز مونو Amboise Monnot في الثلاثين من تموز، وهو رئيس الإرسالية، شراء قطعة أرض كبيرة من شأنها احتواء مدرسة اليسوعيين بعد انتقالها من غزير. وكان هذا الإجراء أول إجراء مهّد لإنشاء الجامعة الثانية في بيروت التي سبتصر النور عام 1875.

وقبل ذلك التاريخ بأربعة أشهر، في آذار/ مارس 1870، عمد الأميركيون، كما رأينا، إلى شراء قطعة أرض في رأس بيروت، جعلوها مقراً للكلية السورية الأنجيلية بعدما كانت بدأت أعمالها منذ عام 1866. صحيح إن هناك تسع سنوات تفصل بين إنشاء الجامعة الأميركية والجامعة اليسوعية، لكن الشراء المتزامن لقطع الأراضي أوضح دليل على منطق المنافسة الذي تميزت به كل من الارساليتين. وهذا المنطق بادٍ في جميع المراسلات التي تناقلها اليسوعيون لكنه لم يكن غائباً أيضاً عن الأميركيين، ويمكن التثبت منه من خلال القول المنسوب الى دانيال بلس، الذي في لحظة إنشائه للكلية السورية الأنجيلية، أعرب عن قناعته بأنه مهّد لنشوء جامعتين، لان اليسوعيين لن يلبثوا، حسب رأيه، أن يردوا على التحدي. على أية حال كان اليسوعيون يصورون العلوم الطبية وكأنها «الوسيلة الأشنع التي اقترحها الشيطان لاتباعه بهدف تشويه الايمان لدى عدد لا يستهان به من الشبان فيزرعوا بدورهم الكفر والفتور الديني في أوساط شعوبنا الطبية[32]»

جامعة لأجل فرنسا

عاد مشروع بناء الكلية اليسوعية في بيروت يُطرح على بساط البحث إثر أحداث 1860. وإبتداءً من ذلك التاريخ، أخذت أهداف الرهبانية تتقاطع مع التوجيهات الفرنسية. فبالرغم من المنافسة الدائرة مع البروتستانت والارثوذكس، بدأت المدينة تكتسب أهمية سرّعت في انشاء مثل هذه المؤسسة وإلا فهناك خطر زرع البلبلة أو الشكوك ليس في نفوس الجالية الأجنبية فحسب بل السكان المحليين أيضاً حيال نشاط الارساليات الكاثوليكية[33]. وبعد بضع سنوات، تحققت المعجزة، وبدا انتقال مدرسة غزير إلى بيروت حتمياً لدرجة شعر معها الآباء بأن أمراً طارئاً يدعوهم للتحرك وهم الذين ينتهزون كل فرصة سانحة، تحدوهم أيضاً الرغبة في حمل بعض العائلات على إرجاء تسجيل أولادهم من خلال الاعلان عن اجراءات ملموسة[34]. وهكذا فإن الخطوط العملية سبقت المحتوى الأكاديمي، وشراء الأرض الذي سرّع فيه الأب مونو استبق صياغة المشروع[35]. كانت قطعة الأرض مسجلة في عداد الأوقاف كما قطعة الأرض التابعة للكلية السورية الإنجيلية، بهدف التخفيض من قيمة الضرائب العقارية. وكانت الجامعة تقع إلى الجهة الجنوبية الشرقية لساحة البرج على مسافة بضع مئات من الأمتار عن المقر الأول لليسوعيين، كان شكلها مربعاً وتبلغ مساحتها عشرة آلاف متر مربع وهي واسعة بما فيه الكفاية لتستوعب جميع نشاطات الإرسالية ومن ضمنها المطبعة. عندئذٍ وجب أيضاً إيجاد التمويل ولم تكن روما قادرة على تأمينه، فانكب مونو على القيام بحملة تبرعات على غرار ما فعل دانيال بلس قادته حتى الولايات المتحدة[36]. ويبدو أن إحدى مفارقات التاريخ الثقافي في بيروت المثقل بالتأثيرات والأحكام الايديولوجية المسبقة هي أن الجامعة الفرنسية، - التي ستصير

لاحقاً لبنانية فرنكوفونية - أنشئت بفضل هبات أميركية وإن كان المتبرعون كاثوليكيين.

وبنيت الكلية على اسم شفيعها في بيروت القديس يوسف وقد فتحت أبوابها في عام 1875 وامتازت عن معهد غزير بقدرتها على الاستيعاب. احتفظ معهد غزير بطابعه الديني لان أغلبية المنتسبين إليه كانوا مُرسلين من قبل المسؤولين الدينيين التابعين للكنائس التابعة لروما. وقضى التعدّد الطائفي لأبناء بيروت أن تستقبل الكلية تلامذة من مختلف الطوائف ومن ضمنهم المسلمون. وكان التغيير على المستوى التربوي يُلحظ أيضاً في هندسة المبنى الجديد بسوره الطويل المهيب والواجهة المهيبة للكنيسة المكرسة عشية الميلاد 1875. ولما كانت الطموحات الأكاديمية غير محدودة استفادت المدرسة من معادلة شهادة البكالوريا للدروس الثانوية بالبكالوريا الفرنسية. لكن طابعها الجامعي لم يترسخ في الحال، لا سيما إن المباني الجديدة ضمّت طلاباً من كل الأعمار بدءاً من المرحلة الابتدائية حتى طلاب اللاهوت الديني الذين اقتصر التعليم العالي بالنسبة اليهم على اللاهوت والفلسفة. لكن الخطط المستقبلية وُضعت ومن المعهد ستولد في عام 1881 جامعة القديس يوسف برعاية الكرسي الأعظم والجمهورية الثالثة اللذين تعاونا للمرة الأولى في سبيل إنجاح هذا المشروع. وفيما كان البابا ليون الثالث عشر في روما يجيز للجامعة الجديدة بأن تمنح رتباً أكاديمية في اللاهوت، كان غامبيتا Gambetta وجول فرّي Jules Ferry يحثان البرلمان في باريس على التصويت لتخصيص الاعتمادات اللازمة للجامعة بهدف تمويل كلية للطب فيها[37] في عام 1888. اقتضت الضرورة إذاً أن يستكمل التعليم النظري بدروس اعدادية تطبيقية في الاستشفاء، مما استلزم تدبيراً لا يتفق مع العقيدة، فاتفق الآباء اليسوعيون، على غرابة الأمر، مع المسؤولين في مستشفى القديس جاورجيوس للروم الأرثوذكس الذي افتتح حديثاً على تلة الأشرفية. وظلت الأمور كذلك الى أن أنجز بناء مستشفى القلب الأقدس الكاثوليكي عام 1885 على حدود المدينة القديمة[38] ووجهوا إليه طلابهم ليكملوا مسيرتهم على درب كاثوليكي. وبالنسبة إلى إجازة الطب، لم يكن الاعتراف بها يطرح أية مشكلة في اسطنبول بخلاف الاجازة الممنوحة من الكلية السورية الاميركية. فاللغة الفرنسية كانت إحدى اللغتين المعترف بهما في الأمبراطورية وكان يكفي أن يترأس لجنة الحكم طبيب من التابعية التركية، وبدءاً من سنة 1895، تشكلت لجنة مزدوجة فرنسية وعثمانية مهمتها توزيع الإجازات على المتخرجين[39].

أما مواد التدريس في الجامعة فقد تنوعت أيضاً في تسعينات القرن التاسع عشر مع إدخال قسم الدراسات العربية إلى الجامعة، وهذا القسم ازداد أهمية بوجود مكتبة الآداب الشرقية في حرم الجامعة، ومجلة المشرق لصاحبها الأب لويس شيخو اليسوعي. ومع ذلك، وجب الانتظار حتى عشية الحرب العالمية الأولى لتشهد انطلاقة العلوم القانونية عصرها الذهبي في جامعة القديس يوسف وسيستمرّ اسهامها العظيم في الحياة السياسية اللبنانية طيلة القرن العشرين. أشياء كثيرة تغيرت فعلاً منذ العام



كلية الطب الفرنسية، بعد انتقالها الى طريق الشام.



الأعضاء الفرنسيون والعثمانيون في اللجنة الفاحصة لشهادة الطب في كلية الطب الفرنسية.

1831 أو حتى العام 1913، يوم أُقيمَ احتفال مهيب للغاية في 24 تشرين الثاني/ نوفمبر من تلك السنة بمناسبة افتتاح كلية الحقوق الفرنسية في بيروت في قاعات كلية الطب، التي انتقلت جنوبا على طول طريق الشام، وبحضور حاكم جبل لبنان أوهانس باشا قويومجيان وممثل والي بيروت والأميرال بوني دو لابيرير Boné de Lapyrère، قائد القوات البحرية الفرنسية وعميد جامعة ليون وقنصل فرنسا العام. استهلّ بول هوفلان Paul Huvelin، وهو استاذ القانون الروماني في جامعة ليون محاضرته الأولى في جامعة القديس يوسف بخطاب مسهب عن الدور الريادي الذي لعبته مدرسة بيريت القديمة للحقوق ثم أعلن عن فخره واعتزازه الكبيرين بالهوية الفرنسية للمؤسسة الجديدة، ولم ينس في طريقه أن يحيي «الأمة العثمانية النبيلة»[40] التي ستغيب عن مسرح الأحداث فور بدء كلية الحقوق بإعطاء الدروس عام 1919 بشكل متواصل بعد انقطاع طويل ناتج عن الحرب العالمية الكبرى والاضطرابات التي رافقتها.

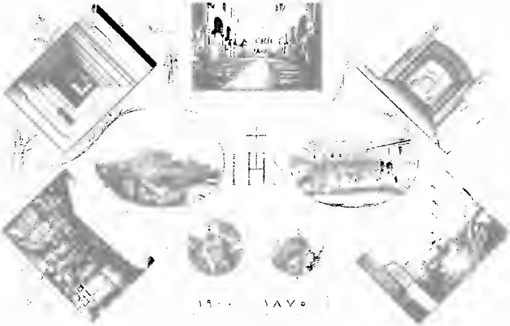
ذكر بول هوفلان عام 1913 «الدولتين العظميين الصديقتين»، ويقصد بكلامه فرنسا والأمبراطورية العثمانية، لكن قوله هذا صادر عن لياقة فرضتها المناسبة أكثر مما هو نابع من التحليل السياسي. في اسطنبول بدأ تودّد النخب العثمانية لفرنسا يضعف ليحلّ مكانه الإغواء الذي يمارسه النموذج البروسي، فيما كان أعضاء الحزب الكولونيالي المؤيد لاستعمار سوريا يخفون بمشقة كبيرة أطماعهم الاستعمارية ويحثهم على ذلك رجال الأعمال في ليون ومرسيليا[41]. وكانت فكرة قيام نظام الحماية على «سوريا الفرنسية» والتي تعمل للترويج له لجنة من أجل آسيا الفرنسية بتشجيع من الصحفي روبير دو كي Robert De Caix، قد تخطت حاجزاً كبيراً عام 1912 بالحصول على الموافقة الضمنية لبريطانيا العظمى التي أكدّت انه ليست لديها طموحات في سوريا ولا رغبة لها في لعب أي دور، وهذا كان واضحاً عبر الرسائل الشهيرة التي تبادلها إدوار غراي Edward Grey، أمين سرّ الخارجية البريطانية وبول كامبون Paul Cambon سفير فرنسا في لندن[42]. لكن في «لاسيري فرانسيز» هذه، كان هناك خط موّجه فعّال بقدر فعالية المصالح الاقتصادية، ألا وهو الشبكة الكثيفة للمؤسسات التربوية المتصلة بفرنسا والتي كان لليسوعيين فيها حصة الأسد. بدا تمركز رهبانية اليسوعيين، إن لم يكن رأس جسر لوزارة الخارجية الفرنسية، فعلى الأقل شهادة حية على إنجاز فرنسي وجب المضي فيه قدماً واستثماره. ومهما تكن الجمهورية الثالثة متورطة آنذاك في حملتها على الأكليروس، فهذا لم يغير شيئاً في المعادلة.. و«بتدبير عجيب من الروح القدس»، أفاد يسوعيو فرنسا من الحظوات التي منحتهم أياها الحكومات المتعاقبة نفسها التي كانت تحاربهم في عقر دارهم، وأتاحت لهم أن يوجهوا ارسالية سوريا بإشراف مقاطعة ليون حتى الثلاثينات من القرن العشرين*. وعلاوة على ذلك، أفاد أعضاء

* أنشئت عندئذٍ نيابة ولاية لليسوعيين للشرق الأدنى أصبحت فيها بعد ولاية تامة.

الارسالية أيضاً، حسب ما أشار مؤرخها الأب سامي خوري Sami Kuri، من المعونة غير المتوقعة التي قدمها له السياسي المناهض للإكليروس كومب Combes، الذي بإرغامه اليسوعيين الفرنسيين على التخلي عن أعمالهم، أعتق سبيل الكثيرين من «أعوانهم» التابعين للرهبنة، فأفادت بيروت من خدماتهم. وكما كتب باريس Barrès: «الآباء اليسوعيون! أي درس في الشهامة يقدمه لنا هؤلاء. فرنسا تطردهم فيزداد عددهم لخدمتها في الخارج. تتنكر فرنسا لهم ويخسرونها؟ لا بأس، يخلقون فرنسا أخرى، منطلقين لغزو المشرق معنوياً»(43).

لكن صورة اليسوعيين المقترنة بفرنسا لم تكن تسيء إلى عملهم. بل على العكس. ثم إن مشروع نظام الحماية الفرنسي لم يكن معروفاً من جماهير الناس حتى نهاية الحرب العالمية الكبرى. ولنفرض انه كان معروفاً، فهذا لا يعني انه لن يلقى إعجاب شريحة واسعة من المسيحيين ذوي الولاء الكاثوليكي، وخصوصاً مسيحيي جبل لبنان، الذين أصبحت حماية فرنسا بالنسبة لهم أحد مرتكزات عالمهم السياسي منذ تدخلها عام 1860 وقيام نظام الحكم الذاتي المعروف بالمتصرفية. أما بالنسبة للآخرين فكانت فرنسا لا تزال تحتفظ بهالتها كأمة عظيمة، وكان سبق لهم التعرّف على الثقافة الفرنسية منذ حكم محمد علي واستمرّ حتى نشوء التنظيمات العثمانية، ولم يجرِ التنكر لها إلاّ في القليل النادر وعلى وجه أعم، كان النموذج الأوروبي للتعليم مثار إعجاب العثمانيين والنخب المحلية في آن. هذا ما أظهره التنافس بين مختلف الارساليات، إذ كان النموذج الأوروبي من القوة بحيث أظهر قدرته على تجاوز الحدود الطائفية. فطلاب جامعة القديس يوسف كما طلاب الكلية السورية الأنجيلية ينتمون إلى مختلف الطوائف. وكانت كلا الجامعتين تضمان في عدادها طلاباً مسلمين منذ إنشائهما، حتى لو احتفظت المؤسسة الجامعية اليسوعية بصبغة مسيحية مهيمنة. ويجب التحدث بالأحرى عن حيوية الاقبال المحلي أكثر منه عن نجاح النظام التربوي الذي توفره المؤسسات التعليمية، هذه الحيوية التي كان التطور الاجتماعي - الاقتصادي لبيروت امتداداً لها. كما يجدر التحدث عن الإقبال الاقليمي، فلائحة المتخرجين من الكلية الفرنسية للطب تكشف أن نصف العدد كان يأتي من خارج بيروت والجبل، بل من فلسطين ودمشق وبلاد ما بين النهرين وأيضاً بلاد فارس وكورفو(44).

استطاع المرسلون الأجانب أن يعوّضوا عن غياب استراتيجيا تربوية موضوعة مسبقاً إذ كانوا يتصرفون وفقاً لمقتضيات الواقع المحيط بهم ويعالجون المشاكل الطارئة بحكمة وروّية وان خالفوا التوجيهات الصادرة عن سلطاتهم الدينية، انسجاماً مع دينامية النهضة التي ساهم حضورهم في اذكائها. وكانت مساعيهم تستحق الثناء لا سيما إن النموذج الغربي، بالرغم من السحر الذي يمارسه، فإن تكييفه كان أيضاً نتيجة التطور المواكب لأساليب التربية الجامعية في الغرب. إن إنشاء الكثير من الجامعات في أميركا الشمالية جاء متأخراً عن إنشاء الكلية السورية الأنجيلية كما ان الجامعة اليسوعية



يوبيل جامعة القديس يوسف

في جورج تاون تأسست بعد قرن تقريبا على إنشاء جامعة القديس يوسف. وبهذا المعنى، يبدو نشاط الارساليات في الشرق سبّاقاً.

وإذا كانت بيروت الوعاء الأمثل في هذا الشرق الذي امتاز عن غيره في مجال المعرفة، فبهذا لأن انطلاقتها الاقتصادية وعاداتها الناتجة عن ذلك كانت تشجع المرسلين على الذهاب قدماً، لا بل على التحول عن الأهداف الأساسية التي كانت تمليها عليهم باستمرار سلطات الوصاية. وكانت الدينامية واضحة. وعدا تأسيس جامعة القديس يوسف التي كانت رداً فرنسياً على «التدخل» الأميركي عبر الكلية السورية الأنجيلية، فإن الدخول القوي للجمعيات الدينية والشبكات الأخرى ترافق مع المرحلة الثانية لازدهار بيروت بعد 1860. وبسرعة قصوى تعصرنت المدينة واتخذت قُدُماً، طابع التغريب الذي نشر على نطاق واسع بذور الثقافة الأجنبية مسرّعاً تطور السلوكيات والتحول المفاجىء في سلّم القيم.

الفصل التاسع

العالم أفقاً

في مطلع عهد التنظيمات، كان الشيخ أحمد الأغر أحد أعيان بيروت الرئيسيين وربما أهمهم. إلى جانب كونه نقيب الأشراف وهي رتبة شرف أكثر منها منصباً سياسياً، شغل أيضاً منصب قاضي المدينة ومفتيها عام 1841. وبالرغم من المتاعب التي واجهته من حين إلى آخر مع والي صيدا وسبّبت إقصاءه مراراً، إلاّ انه اعتبر الحاكم الحقيقي للمدينة، يجلّه معاصروه وتخشى جانبه السلطات[1]. وعندما زفت أبنته لعمر البربير، الذي يتحدر أيضاً من سلالة وجيهة، بقيت أبواب السور مفتوحة أربعة أيام وأربع ليالٍ. وفي عام 1887، أي بعد مرور ردح طويل من الزمن على زفاف ابنته، اقترنت حفيدته كلثوم بسليم علي سلام إبن أحد التجار بالجملة وهو شاب وسيم يتوقع له الجميع مستقبلاً واعداً.

ونجح سليم سلام في الأعمال كما في السياسة. وعند اندلاع الحرب العالمية الأولى، احتل سليم سلام مركز الصدارة في المدينة. اختير نائباً عن بيروت في «مجلس المبعوثان»، أي البرلمان العثماني بعد أن شغل منصب عضو مجلس الولاية ورئيس البلدية ومندوب غرفة التجارة في المحكمة التجارية، ورئيس جمعية المقاصد ورئيس البنك الزراعي... كل هذه المناصب التي تبوأها هذا التاجر المزدهر جعلته نقطة التقاء لكل المبادرات العامة، وعلى بيّنة تامة من الأمور التي تحدث في بيروت صغيرها وكبيرها.

صحيح أن سليم سلام المولود عام 1868 اكتسب شهرة وحظوة يمكن مقارنتهما بما بلغه من قبله أحمد الأغر الذي توفي عام 1857، لكن، عدا المصاهرة العائلية، قلّما كانت أمور تجمع الرجلين، إذ ما يفصل بينهما ليس فقط ثلاثة أجيال وإنما عالم بأكمله.

الأزمنة الحديثة

كانت تجربة سليم سلام، كما أعاد كتابتها أو صياغتها المؤرخ كمال الصليبي وكما وردت في مذكرات ابنته عنبرة ومذكراته هو بالذات[2] تنتمي بوضوح إلى الأزمنة الجديدة. وتُظهر المناصب التي

تولاها تباعاً أو مزامنة، تغييراً راديكالياً في مكونات الحياة السياسة. كانت الأحلام التي تراود مخيلة ذلك التاجر الناجح والسياسي الفذّ تكشف بوضوح عن التحولات التي شهدتها تلك المرحلة. أفاد سليم سلام من تبدل احجام التبادل التجاري، ووجد نفسه هو أيضاً على مفترق التيارات الفكرية التي كانت تجتذب النخب العربية. وبعد ثورة تركيا الفتاة عام 1908، برز كأحد الناشطين الأوائل المنخرطين في حركة الاصلاح في المجتمع البيروتي. شارك في المؤتمر العربي الذي عقد في باريس، وكان في عداد الوفد الذي التقى ستيفان بيشون Stephen Pichon، المستشار الفرنسي لوزارة الخارجية ثم السفير العثماني في باريس، وحمل بعدها إلى الحكومة الاتحادية في اسطنبول الشكاوى التي رفعها المؤتمر. أقلقته لاحقاً التدابير الكيدية التي قام بها جمال باشا لكنه لم ينضم إلى قافلة شهداء القومية العربية الناشئة أو منبوذيها. وفي ظل الانتداب الفرنسي، قاد صفوف المعارضة التي كانت تناهض إنشاء دولة لبنان الكبير.

إن صعود سليم سلام الاجتماعي والسياسي ونمط الحياة الذي عاشه خير تعبير عن التحول الكبير لمجتمعه وزمانه. فهذا الرجل المهتم بالشؤون السياسية لا ينتمي إلى تلك العائلات التقليدية للإسلام البيروتي. ويستدل من سيرة العائلة أن اصلها يعود إلى المغرب أو إلى الأندلس ولم تبدأ العائلة بالبروز إلاّ في عهد علي سلام والد سليم. عاش علي سلام في الريف لفترة من الزمن، في التلال التي تشرف على رأس بيروت وتولى تجارة الحبوب في المدينة. وبعد مولد سليم، استوطنت عائلة سلام هضبة المصيطبة حيث اقتنى علي بيتاً مؤلفاً من طبقة فأضاف إليه طبقة أخرى لتضاف عليه فيما بعد طبقة ثالثة تشرف على البحر والجبل. وسرعان ما ترسخ نجاح آل سلام في الأعمال سيما انهم صاهروا العائلات البيروتية الكبيرة. اقترن علي بفتاة من عائلة شاتيلا وكانت خالتها زوجة أحمد الأغر. تعزز النفوذ الاجتماعي لسليم بزواجه ومصاهرته عائلتين عريقتين تنتميان إلى أصول دينية معروفة، عائلة البربير والأغر. في الوقت نفسه، كان نجاح سليم في الأعمال التجارية اضافة إلى موقعه السياسي المميز يفسحان المجال أمامه ليتخطى آل بيهم، عائلة التجار التي بقيت في الصدارة منذ نهاية القرن الثامن عشر. كان سليم سلام رجلاً أنيقاً، حسن المظهر، يرتدي ثيابه على الطريقة الاوروبية معتمراً الطربوش العثماني ويجسد في شخصيته مزيجاً من الفضائل التقليدية والقيم الجديدة. حافظ طيلة حياته على ورعه متقيداً بالشعائر والصلوات اليومية ومواظباً على قراءة النصوص القرآنية. لكنه في الوقت نفسه أظهر انفتاحاً فكرياً مختلفاً عن الطابع التقليدي للمجتمع الذي نشأ في أوساطه. ويمكن التثبت من هذا الانفتاح عبر نمط حياته ككل. لم يكن انفتاحه إستعداداً شخصياً فقط، فوالده هو الذي أملى عليه اللباس الأوروبي والعادات الأوروبية، إذ لم يتردد في إدخاله إلى مدرسة مسيحية وهي الكلية البطريركية التي أنشأتها حديثاً طائفة الروم الكاثوليك والتي لا تبعد عن المنزل العائلي كثيراً. وزوّج الوالد ابنته بأحد الأطباء

الأوائل في بيروت الذين درسوا على الطريقة الأوروبية وهو الدكتور أنسي.وكان عُمر الأنسي، أحد رواد الرسم في لبنان، ثمرة هذا الزواج. ولد في عام 1901 وكان ميله لفن دنيوي لا بل منافٍ للتقاليد الدينية خير شاهد على بعض التحولات التي طرأت على المجتمعات المسلمة على أثر التنظيمات حتى لو ترسخت دعوته بتجلياتها بعد سقوط السلطنة العثمانية.

انخرط أولاد سليم سلام في الدعوات التجديدية لكنهم لم يبلغوا المراحل التي بلغها نسيبهم عمر الأنسي. اختار سليم لذكور العائلة «الأميركان كولدج»، ثم أرسل ابنه البكر علي عام 1910 ليتابع دروسه في الهندسة الزراعية في بريطانيا العظمى، أما البنات فلم يتردّد في توفير التربية الحديثة لهنَّ، وقد استدعى راهباً مسيحياً ليعلّم الفرنسية لابنته عنبرة ومعلماً مسيحياً ليدرسها العربية. ثم التحقت عنبرة بمدرسة مار يوسف ذي الرؤيا، ومن بعدها بمدرسة المقاصد حين قرّر والدها وكان رئيس الجميعة أن يفتتح فرعاً للبنات، وعهد بادارتها إلى شابة مسيحية تدعى جوليا طعمة ستقترن بدورها ببدر دمشقية أحد أصدقاء سليم سلام وهو عضو في جمعية المقاصد وأحد وجهاء الطائفة المسلمة البارزين. وكان هذا الزواج إحدى أولى الزيجات المختلطة في بيروت، ولم يحدث أي ردات فعل اجتماعية[3].

وتجسد الانفتاح الديني لسليم سلام من خلال اختياره لصداقاته ففي تلك المرحلة التي تميزت بالتوتر الطائفي الذي اججت ناره مآسي الأمبراطورية العثمانية، وفيما كان سليم الوجه الأبرز لطائفة مسلمة يخلّ بتوازنها التدخل الغربي، استطاع أن يعقد مع ذلك صداقة متينة مع مطران بيروت للروم الارثوذكس المطران مسرّة، ومن جملة أصدقائه الماروني حبيب باشا السعد، رئيس مجلس إدارة المتصرفية في جبل لبنان. كان سليم رجلاً مواكباً لتطور العصر وكان كثير التنقل، ويحرص بانتظام على ركوب القطار للتوجّه إلى دارته الجبلية في نهاية كل أسبوع أو للسفر إلى دمشق أو لمواكبة زوجته وبناته لمشاهدة آثار بعلبك. وبالاضافة إلى رحلاته الرسمية إلى اسطنبول ليشارك في جلسات البرلمان، أو إلى باريس لحضور مؤتمر 1913، قام برحلة طويلة إلى مصر عام 1912، برفقة ابنته عنبرة. لا شك أن عنبرة سترت وجهها بالحجاب في عمر العاشرة نزولاً عند رغبة امها وامتثالاً للأمر الواقع والضغط الاجتماعي[4]، ولكنها ستكون أول مسلمة في لبنان تخلع الحجاب علناً في العشرينات من القرن المنصرم. وفي غضون ذلك، أرسلت لاكمال دراستها في لندن برفقة اختها الصغرى، وهناك صورة تظهرها خلال إقامتها اللندنية معتمرة قبعة أنيقة «كلوش» ومرتدية تنورة تُظهر كاحلها والى جانبها أبوها وأخوها صائب وفيصل ملك العراق[5]. هذه الصورة خير دليل على ان سلام كان يتقبل طوعاً فكرة سفور ابنته فيما العرف الاجتماعي كان لا يزال يرفضه في بيروت.

كان النشاط السياسي المتعدّد الوجوه الذي يمارسه سليم سلام يضعه في موقع يسمح له بمواكبة التغيرات الاجتماعية والتطورّات الحاصلة في المدينة. كذلك انطبعت حياته بكوسموبولية جاراه فيها،

لا بل تجاوزه باشواط، أحد معاصريه وهو الفرد سرسق المسيحي الارثوذكسي الذي تميزت حياته بالبذخ والترف. اقترنت صورة عائلة سرسق بانطلاقة بيروت منذ ثلاثينات القرن التاسع عشر، واستطاعت أن تصل إلى قمة الهرم الاجتماعي في منتصف القرن التاسع عشر، بفضل الحماية القنصلية المتواصلة لها، والعلاقات الاقتصادية المتينة القائمة بينها وبين العائلة الخديوية في مصر[6]. ويكمن نجاح ألفرد سرسق في انه استطاع أن يكون مقرّباً من دوائر السلطة العثمانية والمجتمع الأوروبي الراقي في آن. عُيّنَ ألفرد سرسق أميناً عاماً للسفارة العثمانية في باريس عام 1905 وترعرع في الأوساط الأكثر ثراء في أوروبا. ثم اقترن بماريا سيرا دي كاسانو Maria Serra di Cassano، ابنة كونت نابولي، وعُرفت لاحقاً في بيروت بإسم دونا ماريا. وكانت هذه المصاهرة الأولى مع الارستقراطية الأوروبية مثارَ إعجاب في الأوساط البيروتية. إقترن أحد أقربائه نيكولا بفتاة أخرى من عائلة دي كاسانو وزُفَت اثنتان من قريباته إلى نبلاء إيطاليين، وإحداهما تزوجت زعيم عائلة كولونا Colonna، وفيما بعد، اقترنت ابنة ألفرد سرسق بأرستقراطي إيرلندي وأصبحت الليدي كوكرن Cochrane.

وكانت بيروت بعيدة جداً عن هذه الوجاهة المتنقلة بين روما وباريس التي امتدت مع السراسقة إلى اسطنبول والاسكندرية. ومع ذلك، لم تنس العائلة أصل ثروتها. انتخب ميشال شقيق ألفرد عضواً في البرلمان العثماني على اللائحة نفسها لسليم سلام وكامل الأسعد. ووَطّدت العائلة نفوذها في الشأن الاجتماعي كأحد الأعمدة الرئيسية للطائفة الارثوذكسية المرتبطة بصلة وثيقة بمطران بيروت ومن بين انجازاتها مدرسة زهرة الإحسان للبنات التي أسستها إفلين سرسق عام 1880 والتي عُهدت إدارتها إلى راهبات الطائفة، وعكست هذه المدرسة توجّهات تلك المرحلة[7].

كانت حياة ألفرد سرسق وحياة سليم سلام استثنائيتين ولا شك. وكانت الشروط الاجتماعية التي أحاطت بالعائلتين استثنائية أيضاً. ولكن التغيير الذي طرأ على أنماط الحياة وعلى التطور الاجتماعي يمكن معاينته عبر تقصي مسيرة حياة جملة من الرجال الذين ينتمون إلى تلك الفترة الزمنية أياً تكن الأوساط الاجتماعية التي تحدّروا منها.

ومن بين كل قطاعات المجتمع، هناك ظواهر ثلاث بارزة ساهمت إلى حد كبير في التحوّلات الاجتماعية وهي: أولاً تضاعف عدد المؤسسات التربوية ونموها، وثانياً التنشئة الاجتماعية التي عبرت اسلوب الحياة المحلية البسيطة لتبلغ أساليب الحياة من المدينية المتطوّرة باستمرار والتي تزيدها تعقيداً العلاقات الدائمة مع أوروبا وثالثاً بروز وعي الجماعة لذاتها رغم تشابك الهويات وتداخلها (الهوية الطائفية، العثمانية، القومية العربية، القومية اللبنانية، القومية السورية). لكن أياً من هذه الظواهر الثلاث لم يحسم النزاع الناشئ بين تأكيد الفردية والديناميات الاجتماعية بسبب التفاعل المستمرّ بينها وبين الغرب.

مجال لمحاكاة أوروبا

«بانتظار أن يمنّ الدهر عليها برجال عظام سعت بيروت الى ان تكون نموذجا حيا عن المدينة الأوروبية وبما ان الأوروبيين ليسوا متواجدين بكثرة في المدينة فان بيروت بذلت ما في وسعها لتكون صورة عن اوروبا التي ان لم تعاينها بالعين المجردة فقد كوّنت عنها صورة خيالية[8]».

إن الصورة الكاريكاتورية التي رسمها غبريال شارم عن بيروت، وهو رحّالة كان ماراً فيها في مطلع التسعينات من القرن التاسع عشر، تُعدّ قاسية فعلاً، وغير جديرة بأن تطلق حكماً على نمط حياة البيارتة طيلة القرن العشرين. ولكن، فيما يتعدى المبالغة التي تتضمنها هذه الصورة، فهي تظهر مع ذلك الوجه الذي اتخذته بيروت خلال فترة التفرنج، هذه الظاهرة التي واكبت تطور المدينة، محاولة إلى حدّ بعيد محاكاة الغرب. ولم يكن هذا التقليد محاولة واعية دائماً. وإذا كان التفرنج ميزة وسمت في البداية نخبة اجتماعية كانت على اتصال بالاوروبيين، فان امتداده يعني أن التغربن شمل كل قطاعات الشعب وترك بصماته على مجمل النشاط الاجتماعي وبات من المتعذر الصمود بوجهه وقد تجلّى في المنازل السكنية وفي أماكن اللهو مروراً بالصحة واللباس، أي باختصار طال التغيير كل الممارسات التي يتصف بها المجتمع المديني.

وهذا التغيير الذي كان غنيّاً بالدلالات هو الذي تجلّى في أساليب الهندسة المعمارية لأن اعتماد معايير جديدة للبناء يخلق تحولاً سريعاً في حياة الناس اليومية. أضحى البيت موجهاً نحو الخارج وهذا بادٍ في الأولوية التي اتخذتها النافذة ومن ثم الشرفة. وبدلاً من أن يكون مكتفياً بذاته، بات يستدعي إتصالاً مباشراً بالخارج وتوزيعاً متخصصاً لمساحة الداخل فصارت للغرف وظائف محددة وخصوصاً غرفة النوم وغرفة الطعام.

بقيت فكرة الغرف المخصصة للنوم غير معروفة حتى السبعينات من القرن التاسع عشر، كما تظهر ذلك مذكرات الكاتب والطبيب جرجي زيدان الذي ولد في حي مدرسة اليسوعيين والذي انتقلت عائلته من منزلها اثنتي عشرة مرة في زهاء اثنتي وعشرين سنة. كانت أكثرية هذه المنازل حيث عاش زيدان مؤلفة من غرفتين وأحياناً من ثلاث. وكانت الغرف ذاتها مستخدمة للنوم والاستقبال، والأفرشة تُطوى كل صباح لتخلي المكان للنشاطات النهارية، ولم يكن غياب الأسرّة علامة فقر، لأن سكان بيروت كلهم اعتادوا أن يناموا على فراش يبسط ليلاً ويطوى عند الصباح. وهذه العادة أثارت صدمة لدى الرّحالة بلونديل الذي أشار عام 1832 إلى غياب الأسرّة في مساكن المدينة مذكّراً إن هناك أسرّة مصنوعة من خشب الجوز في قصر بيت الدين[9]. وتبدو شهادة لا مارتين أكثر إيحاءً من سابقتها عن غياب الأسرّة، في المنزل الذي أستأجره على تلة الأشرفية، مع أنه كان يُعدّ فخماً. والواقع أن الوضع الاجتماعي لم يكن يحدده آنذاك وجود الأسرّة بل نوعية الأفرشة وغنى الشراشف بالتطريز



داخل احدى الدور البيروتية الميسورة قبل موجة التغرب في عشرينات القرن التاسع عشر

ووفرة الوسائد ووجود الغرف الاضافية التي يمكن استعمالها وعدم اللجوء إلى طيّ الفراش.

وكما الأسرّة، كانت الكراسي والطاولات العالية غير موجودة. وكان الأثاث في جوهره مقتصرا على الدواوين والأفرشة والوسائد والستائر والأدراج والمقصورات التي يوضع فيها الأثاث والبسط التي تكسى بها الأرض وأحيانا الجدران. أما وجبات الطعام فكانت تقدم على طاولة منخفضة أو على حصير بسيط أرضا. هنا أيضا كان الوضع الاجتماعي تحدده الزخرفة وليس الأثاث الكثير. كانت بيوت الأثرياء تُعرف من الصناديق والمقصورات وقوائم الطاولات والقطع الخشبية المنحوتة باتقان، وفقا لنموذج معين من الأبهة الذي لم يتغير في الشرق العربي كله منذ الحقبة العباسية.

لكن التحوّل إرتسمت ملامحه في منتصف القرن وبالطبع نتيجة الاتصال بأوروبا. في عام 1859 لاحظ البريطاني فارلي Farley أن غالبية التجار الأثرياء الذين زاروا أوروب كانوا يفرشون بيوتهم وفقا للذوق الباريسي واللندني. وانتشرت الحركة خلال عشرين سنة، فمنذ صدور جريدة «لسان الحال» عام 1878 ظهرت على صفحاتها إعلانات عن أثاث من طراز أوروبي، كراس، طاولات، مرايا «من نوعية فائقة الجودة»، وبنبرة توصي بأن هذه البضاعة متوفرة في السوق منذ فترة معينة. وعلى مرّ السنوات، تكثفت الاعلانات وهذا يعني إن جمهورها توسع، وأصبح ينبني

الأسلوب الأوروبي سمةً تميّز الوضع الاجتماعي، أو على الأقل مؤشراً للرغبة في الارتقاء الاجتماعي. وهكذا، انتشر الأثاث الأوروبي الذي اعتمدته البورجوازية التجارية الكبيرة في بيوتها لينتقل بفعل المحاكاة إلى العديد من بيوت الطبقات المتوسطة، خاصة بين الطوائف المسيحية: أسرّة من حديد، كنبات، مقاعد، غرف طعام، مناضد، صوانٍ، ثريات، شماعد، «بسط غربية» أيضاً.

وظهر في أعقاب هذه الخطوة اهتمام بالديكور الداخلي الذي تجسّد تحديداً عبر هوى لا سابقة له للوحات الرسم وخصوصاً تلك التي تجسّد مناظر أوروبية وصوراً من العهد القديم إلى جانب بورتريهات الملوك الأجانب والمشاهير العالميين. وفي هذا المضمار أيضاً، كانت العائلات المسيحية المنتمية إلى الطبقات العليا ثم المتوسطة أول من أظهرت هذا الميل لتزيين بيوتها باللوحات الفنية وكانت تُعتبر في الحقيقة مجرد زخرفة بسيطة. أما اللوحات والصور فتأخرت كثيراً في الدخول إلى بيوت العائلات المسلمة بسبب تحريم الدين الاسلامي للصور. وبطبيعة الحال، لم تكن الاعلانات الصادرة عن تجار اللوحات معروضة إطلاقاً على صفحات **ثمرات الفنون** وهي الجريدة التي تتوجّه إلى النخبة المسلمة المتعصرنة[13]. ولم يقتصر الديكور في الجدران على لوحات الرسم أو استنساخ الأعمال الغربية بل احتلت كذلك الصورة الفوتوغرافية ابتداءً من الربع الأخير للقرن التاسع عشر مكانة لا بأس بها تقريباً. وفي تلك الحقبة التي تطوّرت فيها تقنية التصوير وبات هذا الفن موضع فخر واعتزاز النخبة من الناس، أضحى ثراء البيت مرتبطاً أيضاً بالصور الفوتوغرافية المعروضة فيه. كانت الصور التي تُمثل البارزين من أصحاب العائلة تعبّر أكثر من أي شيء آخر عن الوضع الاجتماعي سواء التقطها أحد المصورين المحترفين الأجانب أو المحليين الذين استقروا في بيروت أو أحد الهواة. وأظهرت الاعلانات في الصحف عن المواد المستعملة في التصوير الفوتوغرافي بوادر احتراف لهذه المهنة في أوساط البورجوازية الكبيرة دون شك. كما شاع استعمال المرايا الاوروبية لتزيين البيوت ومعها راجت مهنة صانعي الأطر والبراويز. وكان تجار الأطر يعلنون باستمرار عن وصول آخر موديلات الأطر المذهبة. لكن البيروتيين شُغفوا بشكل خاص بعلب الموسيقى، مما أثار دهشة الرّحالة لدى دخولهم إلى بيوت البيروتيين. وأخيراً، جاء فنّ التزيين بالأزهار ليتوّج هذا التفرنج ويحفز تجارة الأزهار المستوردة التي لم تكن معروفة آنذاك.

وإذا كانت التغييرات التي أحدثها التزيين الداخلي المستوحى من أوروبا تتلاءم مع تطور الأذواق الفردية على اختلافها، فإنها شكلت فعلاً ظاهرة اجتماعية تتحكم بهذه المقاربة الجديدة للتنظيم المنزلي الذي تروّج له الصحف جاعلة من التعصرن مسألة ملحّة يقتضي مواكبتها يوماً بيوم. ففي مجلة **المقتطف** التي انتقلت إلى القاهرة لكن ظلت تحررها اقلام بيروتية وتحظى باهتمام شريحة واسعة من مثقفي بيروت، كانت هناك فقرة منتظمة مخصصة للاهتمام بأمور المنزل تسدي إلى القراء والقارئات

النصائح وتشجعهم بشكل خاص على تزيين جدران بيوتهم بلوحات مرسومة أو بنسخ عن أعمال رافاييل، كما تشجعهم على الاستعانة بالاواني المزينة بالأزهار[14]. لكن هذه النصائح والدعوات كانت تلقى أصداء متفاوتة في صفوف القرّاء. بدت بعض الصالونات الخاصة بـ«العرب الأثرياء وكأنها «متاحف رُتبت بذوق رفيع جداً لا تحسده عليه أفخم منازلنا الفرنسية»، هذا ما أشار إليه الدكتور لورتيه Lortet حين كان ماراً ببيروت في السبعينات من القرن التاسع عشر[15]. لكن الغلبة كانت للترف الغربي المزيف، كمأ أشار لذلك الرحالة المتشدد في احكامه غبريال شارم. انتصرت المحاكاة على الاقتباس، وهذا ما يظهره وجود المدافئ التي وُضعت لهدف تزييني بحت وهي مصنوعة من «المرمر الأبيض الباهر» لكن لم تزوّد بالمداخن، كما لاحظ الدكتور بوايية Boyer في «عديد من منازل الأثرياء[16]» عام 1897 . كانت تقنية التدفئة الأكثر شيوعاً هي الموقد لأنه يسمح أيضاً بتحضير القهوة وتلقيم النارجيلة[17].

وقف الموقد في وجه حركة التفرنج، وظلّ صامداً حتى ظهور المدفأة التي تعمل على الغاز في القرن العشرين، ولم يكن وحده في خطّ المواجهة. فهناك عناصر تقليدية أخرى في الأثاث استمرّت، أما لأسباب تتعلق بالكلفة، وإما لأنها تستجيب بشكل أفضل للتقاليد الاجتماعية أو لأنها تعبر عن تشبث بالهوية. من هنا استمرت السجاجيد تزين الجدران أو تكسو الدواوين وخصوصاً في منازل العائلات المسلمة التي لم تكن على احتكاك بأوروبا والأوروبيين[18]. لا بأس، كان تعميم الأثاث الأوروبي وملحقاته أمراً محتماً، وان اختلفت السرعة في اعتماد هذا العنصر من الأثاث أو ذاك. ازداد الطلب على الأثاث الأوروبي وازدهرت المشاغل المحلية التي تصنع الأثاث على الطراز الاوروبي وتشهد لذلك إعلانات تروّج لصانعي أثاث ذاع صيتها في تلك الفترة[19]. وظهرت أيضاً أعمال تجارية ومهن أخرى ذات اهتمام بالترتيب المنزلي مستوحاة من أوروبا كالمزخرفين والمتخصصين بالحدادة وبائعي الزهور وصانعي الزجاج وأطر الصور.

غيّر الأثاث الأوروبي إطار الحياة وأفضى إلى تغيير في الممارسات اليومية والى سلوكيات جديدة في مجال حياة عامة الناس كما في المجال الخاص. والمثال الأبرز على ذلك هو التطور الذي شهدته آداب المائدة مع ظهور غرفة الطعام. وكما إن الطاولة العالية والكراسي لم تكن مستخدمة، كذلك فإن استعمال طقم مائدة السفرة لم يكن معروفاً حتى أواسط القرن التاسع عشر. بالطبع، نجد عند الرّحالة دولارويير Delaroière وصفاً أجراه عام 1836 يتحدث فيه عن «مآدب عشاء أقيمت حول طاولة ووضعت عليها أوان فضية وأقداح ومن حولها الكراسي» وهذه المآدب قدّمها في زغرتا الشيخ بطرس كرم في بيئة ريفية تقريباً لكن هذا الأمر بقي استثناءً لأن الرحّالة نفسه استدرك فقال إن مضيفه كان «العربي الأكثر تفرنجاً الذي تسنت لي مشاهدته في البلاد كلها[20]». وبالمقابل، يصف الانكليزي

جون كارن John Carne عام 1830 مائدة باذخة لدى تاجر «مغربي» ثري في بيروت ولم تظهر فيه إلاّ الملعقة المستخدمة للحساء. أما الأطباق الأخرى فكان يجري تناولها بأصابع اليد مباشرة من الطبق الرئيسي وتختتم بطقس غسيل اليدين[21]. ووجب الانتظار لمدة ربع قرن لكي نرى صحوناً بشكل إفرادي وسكاكين وشوكاً في بعض بيوت الأثرياء في المدينة. واتى أول ذكر موثق لها عام 1859 عبر الانكليزي فارلي حين تحدث عن عشاء جرى إعداده وفق الأسلوب الفرنسي[22]».

ولكن باستثناء هذه الأقلية الصغيرة، كانت غالبية السكان تمتنع عن اعتماد الطاقم الافرادي على مائدة الطعام واستخدام الشوكة التي بقيت عملياً مجهولة، فيما شاع استعمال الملعقة والسكين لتقطيع اللحوم، ولو بشكل جماعي.

كان والد جرجي زيدان يمتلك مطعماً، إلاّ انه اعترض، في انتقاده للتفرنج، على استخدام الشوكة والسكين الإفراديين في الستينات من القرن التاسع عشر، لكنه لم يعترض على استعمال الملعقة[23]. والانتقاد نفسه جاء على لسان الترجمان الذي كان يرافق غبريال شارم عام 1891، والذي عاب على الراهبات أن يشجعن الفتيات ليس فقط امتلاك ثوبين أو ثلاثة، ولكن أيضاً على هذه الطريقة في تناول الطعام مستعملات الصحون والسكاكين والشوك[24]. ومع ذلك تعممت آداب المائدة الأوروبية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وبالامكان التثبت من ذلك نظراً لعدد الاعلانات الواردة في جريدة لسان الحال منذ السنوات الأولى لصدورها. كما نجد فيها إعلاناً لفضيات كريستوفل الفرنسية[25]. وفي الفترة نفسها أبدت جريدة المقتطف اهتماماً زائداً بآداب المائدة ودائماً في فقرتها المتعلقة بالتدبير المنزلي حيث كانت تسدي نصائح ثمينة عن كيفية تصرف الضيوف وأصول تقديم المائدة على الطريقة الأوروبية فيما تتحدث بازدراء عن المائدة التركية[26]. إن مثل هذا الاهتمام الذي تبديه مجلة حديثة أي منخرطة بالتالي في سجالات فكرية شتى، يثبت أن الآداب الجديدة للمائدة لم تكن فقط مظهراً يعبر عن الأبهة الاجتماعية. أما المغزى من استعمال طاقم السفرة الافرادي فالاحتمال بعيد جداً بأن يكون الناس في تلك الفترة أدركوه بشكل واعٍ أي بصفته تكريساً للفردية في مجتمع تحكمه أنواع المنطق الجماعي بدءاً بمفهوم الأسرة الممتدة. لكنّ عناية الكائن الاجتماعي بمظهره وتطوير طريقة عيشه كان بادياً بشكل واضح بصفته رهاناً أدرك خلاله الفرد حاجاته المستجدة بصورة حسية أكثر منها معقلنة. وصالة الطعام، بكراسيها العالية، لم تُدخل فقط مع وجودها في حياة الاهلين آداب مائدة جديدة تماماً، بل غيّرت أيضاً وضعية الجلوس نفسها واقتضت رفع مستوى النوافذ، كما ألغت عادة خلع الحذاء قبل الدخول إلى البيت وجعلتها عادة لا نفع منها[27]. وللحال، أصبحت الحدود بين الخاص والعام أضيق من ذي قبل، ولم يعد البيت فقط ملاذاً لأصحابه يدفع عنهم شرّ الخارج ويجعلهم في أمان داخل جدرانه.

وتماشياً مع تغير آداب المائدة، تنوّعت أصناف الطعام، وكلا الظاهرتين ساهم في انتشارهما اكتشاف العادات الأجنبية وبالتالي أثّرت إحداهما في الأخرى وسرّعتا من تحول الحياة اليومية. ويعود التنوع في أصناف الطعام إلى الاستجابة لحاجات الأوروبيين المقيمين في بيروت. وهكذا، أشار بلونديل عام 1838 إلى إن «الفرنج» استقبلوا بالترحاب خبازاً جاء من مالطا، لأنه بات باستطاعتهم أن يأكلوا خبزاً شبيهاً بخبز أوروبا. وفي فندق باتيستا، أخذوا يقدمون للمسافرين وجبات من الطعام على الطريقة الايطالية. لكن السكان المحليين هم الذين اتخذوا مثل هذه المبادرات حتى لو كان هدفهم في البداية إرضاء الأجانب العابرين. ويذكر فارلي انه منذ عام 1859، كانت الوجبات الأوروبية والخمور المستوردة من فرنسا وقبرص والمصنوعة في جبل لبنان تُقدم خلال وجبات خاصة ومثالاً على ذلك العشاء «على الطريقة الفرنسية» الذي أقيم على شرفه. وهنا أيضاً، سارت الأمور بسرعة نسبياً إذ أوردت الصحف في الربع الأخير من القرن على صفحاتها جملة من الاعلانات عن أطعمة مستودرة: جبنة فرنسية وهولندية، سردين، طون، معكرونة، بسكويت، شوكولا، ملبس، مياه معدنية[28]... ونجد أيضاً في جريدة **لسان الحال** اعلانات عن أصناف لحوم وجومبون أو سلامي وعن كحول وشامبانيا ونبيذ وبيرة. وكانت الاعلانات تتكثف كل سنة لدى اقتراب عيدي الميلاد ورأس السنة أو عيد الفصح، مما يعني إن الزبائن كانوا بمعظمهم من السكان المسيحيين الميسورين. وبالطبع، كانت هذه الأصناف من الأطعمة تعبر عن وضع اجتماعي معين لكنها لم تحلّ مكان المطبخ التقليدي. ونشأ شيئاً فشيئاً مطبخ بورجوازي يجعل الأطباق التقليدية منسجمة مع قياس الصحن التقليدي، مضيفاً إلى لائحة الأطعمة مواد غذائية جديدة لم تُعرف حتى الآن.

نمط حياة انتقالي

أسهمت هذه الممارسات الاجتماعية في تغيير المظهر العام للمدينة وأحدثت تأثيراً أكثر مما أحدثته الهندسة الجديدة في هيكل الأبنية السكنية. بدّل استعمال اللافتات والأعمال التجارية المتخصصة من مظهر المدينة وأضفت الأنماط المستجلبة من الخارج على حياة الحاضرة حيوية وحركة دائمتين. وأحدث عامل انتشار الأخبار عبر الصحف تغييرات جذرية من العادات تجسّد يوماً بعد يوم وكان في تسارع وتيرة الزمن الذي أحدثه التقدم على كل صعيد أن بدا في تلك المرحلة الانتقالية الصدام أو الطلاق حاصلاً بين نمط الحياة الذي كان سائداً وبين متطلبات العهد الذي بدأ بالظهور.

ولا شيء جسّد هذا التحول فعلاً كما جسّدته الثورة على صعيد اللباس التي بدّلت تدريجياً منذ أواسط القرن التاسع عشر مسلك الأفراد وبالتالي المظهر الاجتماعي، وان بقي اللباس التقليدي شائعاً في بيروت لمدة طويلة. انطلقت هذه الثورة من القاهرة واسطنبول متزامنة مع الدعوات

السياسية الكبرى إلى الإصلاح وكأنها عملية تغيير حتميّة. في عام 1843، تلقى الجيش الأمبراطوري بذلات جديدة مستوحاة من زي الجنود البروسيين[29]. وفي العاصمة، اعتمد المسؤولون الكبار، بدءاً بالسلطان شخصياً اللباس الأوروبي[30] المعدّل فقط باعتمار الطربوش الذي اعتبر هو نفسه زينة عصرية بالإضافة إلى كونه شكلاً متطوراً من أشكال العمامة. وباستثناء أصحاب المقامات الدينية، وولاة المقاطعات، جرى التخلي عن العمامة في كل مكان. وبرز ميل في الأوساط الرسمية إلى تسهيل هذه النزعة إلى التقليد التي طالت كل الأوساط المهيأة للتأثيرات الأوروبية أكثر من غيرها. في بيروت، بادر الرجال قبل النساء إلى هجر اللباس التقليدي والاستعاضة عنه بآخر على الطريقة الغربية، لا سيما التجار الأثرياء الذين كانو سباقين لارتداء الزي الأوروبي[31]. حسبما أشار فارلي، وكذلك التراجم الذين كانوا على علاقة دائمة بالأوروبيين. لكن «القواصين»، وهم حرس القناصلة، احتفظوا بالزي الشرقي، وكان هذا الزي يثير الإعجاب في نفوس المصورين. وفي الوقت نفسه، بدأت التأثيرات الآتية من مدارس المرسلين تظهر على جيل الشباب وخصوصاً الفتيات. وقد اشار اميل جنتي Emile Gentil في عام 1855 الى أن الفتيات اللواتي يترددن إلى مدرسة راهبات المحبة كنَّ «لسوء الحظ «يرتدين اللباس داخل المدرسة على الطريقة الاوروبية، لكنهن مضطرات لارتداء اللباس التقليدي عند عودتهن إلى منازلهن[32]. ووجب الانتظار بضع سنوات لكي تبطل تلك العادة. بيد أن تعميم اللباس الأوروبي بين النساء استوجب تجاوز المشكلة التي يطرحها الكشف عن الشعر وأجزاء من الجسد وكانت عادة سترها مشتركة بين المسيحيات والمسلمات على حد سواء[33] نزعت المسيحيات المنتميات إلى الطبقات الميسورة الحجاب بأعداد كبيرة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، ولكن الكثيرات منهن واصلن ارتدائه. ففي عام 1917، جاء في التقرير العثماني الخاص بولاية بيروت إن المرأة المارونية و «العهد قريب لم تكن تخرج إلى الأسواق إلاّ وعلى رأسها منديل[34]». في جميع الأحوال، استمرت عادة تغطية الشعر بزينة ما، بقبعة أو بمنديل لفترة طويلة حتى القرن العشرين، تمشياً مع الزيّ العالمي على أية حال. أما النساء المسلمات فسارت الأمور بالنسبة لهنّ بشكل أبطأ، إذ لم يبدأ الحجاب بالانحسار إلاّ في نهاية العشرينات من القرن المنصرم بالتزامن مع ابتكار ألبسة خيطت على الطريقة الاوروبية.

وعند النساء كما لدى الرجال، استمرّ التعايش بين الألبسة التقليدية والحديثة حتى نهاية القرن التاسع عشر، لا بل وأكثر. هذا ما ذكره غبريال شارم عام 1891[35]. وكذلك أظهرته صور فوتوغرافية عديدة حيث اللباس التقليدي والزي الغربي يمشيان جنباً إلى جنب. لكن سرعان ما حققت الموضة الأوروبية، وخصوصاً الفرنسية، تقدماً حثيثاً بالرغم من المقاومة التي واجهتها، بالتزامن مع صعود البورجوازية التجارية التي كانت على اتصال دائم بآخر المستجدات الأوروبية. كما برزت أيضاً طبقة

وسطى استجابت كلياً لمتطلبات الحياة العصرية الجديدة التي فرضتها عوامل التجارة والثقافة. منذ عام 1878، افتتح محترف «الخياطة الفرنجية»، وبعد عشر سنوات، بلغ عدد خياطي الزي الأوروبي ثمانية وعشرين خياطاً مقابل عشرين خياطاً للزي العربي. ونُشرت في **لسان الحال** و**ثمرات الفنون** إعلانات عن جودة الأقمشة الانكليزية والفرنسية، علماً إنها كانت اكتسحت الأسواق منذ زمن طويل. ويواصل غبريال شارم حديثه بأسلوب ساخر عن «الهندام الأوروبي المزعوم» ثم يضيف بشيء من الفوقية: أن «السذاجة التي يتم بها ارتداؤه تسلّي»[36]. كانت هناك أيضاً البسة جاهزة مستوردة مباشرة من فرنسا كما تظهر الاعلانات، وكان المخزن الباريسي الكبير يعمد إلى إرسال «ألبومه البديع المصور» عبر البريد. وظهرت عبارة «آخر الأزياء المستوردة حديثاً من باريس» تأكيداً صادقاً على استراتيجية الهيئات الاقتصادية التي تصدّر الألبسة الحريرية من مرفأ ليون الفرنسي[37].

ومع السيطرة السريعة للأذواق الأوروبية، ظهرت مراكز جديدة للنشاطات الاجتماعية في نهاية القرن التاسع عشر. كانت دروب النزهات التي تجتازها عربات الخيل، وكانت الحدائق العامة المدفوعة والنوادي وصالات الرقص وقاعات المسرح أي باختصار كل الأشياء التي كانت مجهولة لعقود خلت، توفّر أطراً للقاء غيّرت مفهوم مساحة مكان اللقاء الذي توفره المدينة لابنائها، وجعلت المكان العام الذي كان متماثلاً فيما مضى مع الحي القريب المجاور يمتد ليطال أبعاد المدينة كلها. لكن المساحة الخاصة اتسعت هي أيضاً بفعل النشاطات الجديدة وممارسة أنواع الترفيه التي عززت النزعات الفردية.

وقبل امتداد المدينة وتوسعها، اقتصرت أمكنة اللهو على المقاهي «الذكورية حصراً» وعلى الحمامات الشعبية بمعنى ما. كانت المقاهي موجودة منذ وقت طويل في بيروت، ولكن مع انفتاح المدينة على أوروبا، تغير ديكورها واتخذت وظيفتها الاجتماعية دوراً جديداً. وهكذا، يتحدث الرحالة سولسي Saulcey في عام 1853 عن مقهى كافي ديروب Café d'Europe الذي تميز، بالاضافة الى اسمه لحظت مستوى معيناً من الزبائن، ببيع السجائر وصحيفتين فرنسيتين *La Voix du peuple* و*Le Charivari*[38]. ويضيف الرّحالة قائلاً إن السكان المحليين كانوا يترددون كثيراً على المقهى، مع إن اللافتة كانت موجهة إلى طبقة محدّدة من الزبائن. وبعد سنوات، أشار فارلي إلى وجود طاولات للبيليار في بعض المقاهي[39]. لكن هذا لا يعني إن المقاهي القديمة التقليدية إختفت بل ظلت تستقبل حتى مطلع القرن العشرين – لا بل وأكثر – الحكواتي الذي يتلو إرتجالياً مقاطع من سيرة عنترة أو من حكاية الملك الظاهر بيبرس أعظم سلاطين المماليك وأبرز أبطال الإسلام[40]. هنا أيضاً تسارعت وتيرة المقاهي الأوروبية في الربع الاخير من القرن التاسع عشر، وان بقي الرواد على وفائهم للنموذج الأصلي تقريباً.

وما عزّز انطلاقة المقاهي بشكل خاص هو إنشاء ساحة البرج، فصارت نقطة التقاء جميع الطرق الرئيسية في المدينة، كما ساهم في هذه الانطلاقة إنهاء الواجهة البحرية في ميناء الحصن. واجتذبت هذه الأمكنة سلسلة من النشاطات بفضل تزايد الوجود الأجنبي فيها والفنادق التي تضاعف عددها لتستوعب الأعداد العالية من الأجانب. وتبعاً لدليل «الجمعية»، كانت بيروت تحصي في عام 1889 سبعة عشر مبنى فندقياً موزعة أساساً بين هذين الحيين اللذين بدآ يصبحان من الأحياء المتخصصة، فرسّخت ميناء الحصن أقدامها في المجالات السياحية بفضل فنادقها الوثيرة مثل **بسّول وبلفو** Bellevue، حيث بلغت كلفة المنامة عشرة أو خمسة عشر فرنكاً وبفضل مبانٍ أخرى أكثر تواضعاً كالشقة المفروشة لمدام باسكال حيث وصلت كلفة المنامة لليلة واحدة إلى فرنكين. وكان فندق **كوكب الشرق** القائم على المنحدر الجنوبي للبرج يستوفي التعريفة نفسها ولكن زبائنه كانوا أقل منزلة من سواه[41]. وأياً يكن مستوى الزبائن، فإن الطابع الكوسموبوليتي الذي أضفوه على المكان تعمّم شيئاً فشيئاً وقد عكست المقاهي التي نشأت حول الفنادق والنزل ذلك الطابع بامتياز. صحيح إن المقهى التركي امتاز عن سائر مقاهي ذلك الزمان، ولكن أنواعاً أخرى من المشروب بدأت تلبّي رغبة الزبائن وهي مشروبات فرضتها موجة التفرنج الجارفة. كان دليل بايدكر **Baedeker** السياحي ينصح على سبيل المثال في عام 1893 بارتياد مقهيين يقعان في جوار فندق **بسّول** وهما يقدمان بيرة بافارية بثمانية قروش ثمناً للزجاجة الواحدة وخمسين سنتيماً للكأس. أما طاولات البيليار فهي أول سمة تميز بها المقهى على الطريقة الاوروبية وكان هناك مقهيان أوروبيا الطراز في عام 1889 حسب دليل «الجمعية». لكن المقاهي بشكل عام لم تعد أمكنة تبتكر أو تقدم أنواعاً محددة من التسلية بل أصبحت مكاناً للترفيه عن النفس سواء قصده الفرد أو الجماعة. ولم تكن نادرة رؤية زبائن محليين في المقاهي يجلسون فيها بمفردهم منكبين على قراءة الصحف. وهذه على أية حال عادة حديثة أخرى انتشرت في تلك الفترة.

ولم تحظ المطاعم بالنجاح الذي حظيت به المقاهي. هذا اذا استثنينا الحانات السيئة السمعة الواقعة خارج أسوار المدينة. كان الفندقي باتيستا أول من افتتح مطعماً في المدينة وافتتح السكان المحليون مطاعم أخرى كالياس زيدان، والد الكاتب جرجي زيدان، الذي أنشأ فرناً عام 1860 غير بعيد عن ساحة البرج ثم أدار مطعماً في السنة اللاحقة. لكن المطاعم كانت في الوهلة الأولى تعتبر أمكنة يلتقي فيها معشر السوء، وفقاً لشهادة جرجي زيدان نفسه الذي عمل لسبع سنوات في مطعم والده قبل أن يشرع في دراسة الطب. وفي حديثه عن المقهى يذكر ان الزبائن الأجانب كانوا يترددون على المطعم وحدهم ثم لا يلبث أن ينضمّ اليهم بعض الزبائن الطارئون أو السكارى في المساء. وفي النهار، يقتصر وفود الزبائن على الذين يعملون بعيداً عن أماكن إقامتهم وليست لديهم امكانية للعودة إلى منازلهم

لتناول طعام الغداء. ولكن هؤلاء الزبائن بالذات كانوا قلة. لأن الناس كانوا في أكثر الأحيان يحملون طعام الغداء معهم إلى مراكز عملهم وقلة منهم كانوا يطلبون من صاحب المقهى أن يرسل لهم الغداء مع أحد العاملين لديه إلى منازلهم كسليم سلام على سبيل المثال[?]. ولم تصبح ظاهرة انتشار المطاعم مربحة بعد تزايد عدد الأجانب الزائرين في بيروت. وفي الحالة، بدا المطعم بالنسبة إلى التجار المحليين وكأنه مكان للقاء بالأوروبيين والاجتماع بهم. لكن المطاعم غدت مع نهاية القرن مساحة ترفيه تقصدها العائلات الميسورة لتناول الغداء في أيام الأعياد. وشهدت المطاعم خارج المدينة وخاصة الخانات الشعبية المنتشرة في الهواء الطلق وسط غابات الصنوبر إقبالاً حسب ما أشار الأب رابواسون Raboisson في الثمانينات من القرن التاسع عشر[?].

ووجب انتظار الانتداب الفرنسي لكي يصبح تناول العشاء في المدينة تقليداً متبعاً في الأوساط الاجتماعية الراقية. ولكي يواظب الأثرياء على عادة الخروج مساء لتناول طعام العشاء، في عام ١٨٩٦، فتتح أبناء موسى سرسق أول مقهى ليلي في بيروت. وفي مطلع القرن العشرين، تحولت طقوس الحياة الاجتماعية إلى نسخة طبق الأصل عن تلك الفترة اللاهية من حياة البورجوازية الأوروبية الباريسية التي سبقت الحرب العالمية الأولى ودعيت بـ "لا بل إيبوك" La belle époque. كانت سيدات المجتمع المرموقات يحددن آنذاك يوماً ثابتاً ليستقبلن فيه زوارهن. وتواصلت الاحتفالات ومآدب العشاء العامرة. كما راجت موضة الحفلات في الهواء الطلق كمثل تلك التي كانت تجرى في الحدائق



جان دارك كما تصورها تلاميذ معهد اليسوعيين



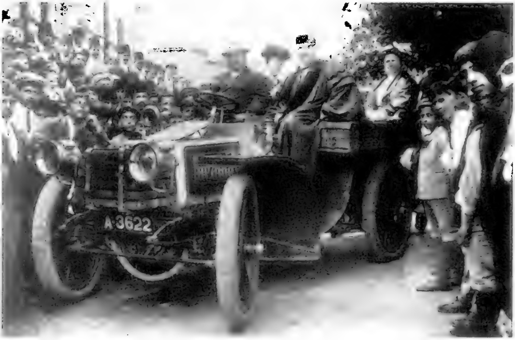
نادي المطالعة.

الفسيحة المحيطة بمنازل أو تلة القنطاري، فتهرع النساء في أبهى زينتهن وملابسهن على مشهد من مئات المدعوين، وهن يتبارين في إبراز مفاتنهنّ وعرض ملابسهنّ في دارات آل بسترس أو الماركيز دو فريج وأيضاً لدى آل تويني الذين كانوا «يقيمون حفلات لا تنسى»[44].

وترافق ذلك مع ظهور حلقات اللهو والمقامرة بالإضافة إلى نواد للمطالعة. وأصبح المسرح تدريجياً مكاناً للترفيه اليومي. وبعد أن أدخل الأخوان نقاش المسرح إلى البلاد، أخذت المدارس الكاثوليكية تشجّع الفنون المسرحية متجاوزة العدائية التقليدية للكنيسة حيال هذا النوع من النشاطات، فقدمت عروضاً مسرحية كثيرة عند نهاية كل عام دراسي، كما انصرف طلاب الأميركان كولدج إلى إتقان هذه الفنون في مطلع القرن العشرين. ففي عام 1903، عُرضت مسرحية «يوليوس قيصر» في الهواء الطلق فوق منصة أُقيمت في كامبوس الكلية السورية الإنجيلية، وتبعتها في عام 1905 مسرحيات مختارة من شكسبير، وعُرضت «هاملت» عام 1906[45]. وفي المدينة أيضاً، أخذ المسرح يثير إعجاب الناس. ومنذ ظهور **ثمرات الفنون** صدر العديد من الاعلانات المسرحية وكتبت المقالات النقدية العديدة. وحقق المسرح نجاحاً ملحوظاً يشهد له اهتمام جمهور المتفرجين ومواظبتهم وان اقتصر الحضور فقط على الطبقات الأكثر يسراً. وجُهزت صالات للعروض المسرحية كتلك التي أقيمت في سوق رعد وهاني. على أية حال، عكس المسرح تغيراً مفاجئاً في بعض العادات فبظهوره تغير الديكور في المقاهي وبدأ حضور الحكواتي ومسرح الظلال الخاص بالأرجواز يتلاشيان تدريجياً.



طقوس النزهة على شاطئ البحر.



الدكتور غراهام، الاستاذ في الكلية السورية الانجيلية، في احدى اولى الاوتومبيلات المستوردة الى بيروت.

هناك ترفيه آخر مستوحى من العادات الاوروبية وهو النزهة. أصبحت الحديقة التي أنشئت خارج المدينة في الحازمية على الطراز الانكليزي ملتقى المتأنقين من الجنسين حسبما أشار غبريال شارم، وقد انشأها متصرف جبل لبنان رستم باشا (1873-1883) وهو ارستقراطي عاش في إيطاليا وانخرط لاحقاً في خدمة الباب العالي. ووصف شارم طريق دمشق التي تؤدي إلى الحديقة مشبهاً إياها بالشانزليزيه والبوا دو بولون[46]. كذلك زهت حديقة الحميدية التي بنتها البلدية في ساحة البرج، ولم يكن الدخول إليها سهلاً ولا مجاناً، وأصبحت ملتقى الطبقة البورجوازية الجديدة التي نشأت في المدينة والتي تسعى إلى توفير مجال يُرضي طموحاتها بالعيش وفق نمط حياة بورجوازية متفرنجة[47]. وكان شاطئ البحر، في اتجاه المنارة، يجتذب أنيقات العائلات الراقية فيتنزهن عليه وهن في كامل زينتهن.

ومع تطور وسائل المواصلات، اضحت ضبية الواقعة على بعد عشرة كيلومترات شمالي بيروت، مكاناً للنزهة يؤمه البيروتيون. وأشار محررو التقرير الخاص بولاية بيروت إلى إن مئات العربات كانت في عام 1917 تنقل المتنزهين للتمتع برؤية شلالات نهر الكلب[48].

وبقيت عربة الجياد صامدة في وجه «الأوتوموبيل» التي بدأت تطل على الساحة. وأول سيارة، جاء بها الفرد سرسق كانت من طراز Panhard et Levassor على شرف زوجته دونا ماريا، وكان يقودها سائق إيطالي. وأطلق الناس على السيارة تسمية «بابور النار» وشيئاً فشيئاً تضاءل فضول الناس لمشاهدة السيارة فيما ازدادت المنافسة بين أنواع السيارات المستوردة. واشترى عمر بيهم بعد آل سرسق أوتوموبيلاً، وكان أول من عبر طريق بيروت - دمشق ناقلاً البنزين المستورد من رومانيا وروسيا في قِرب من الحديد سعتها ثمانية عشر ليتراً[49]. وأصبحت النزهات في الهواء الطلق رائجة أكثر مع إنشاء ميدان سباق الخيل عام 1893. صحيح إن سباق الجياد كان معروفاً في التراث العربي، لكن الاعلان عن افتتاح ميدان سباق الخيل الجديد وضعه في مصاف «ميادين سباق الخيل الأوروبية». ولم يكن هذا نتيجة الصدفة فمشجعو سباقات الخيل انتموا - وينتمون الآن أيضاً - إلى هذه البورجوازية الكبيرة المنفتحة التي أوجدها توسع التجارة الأوروبية.

واكتشفت في الفترة نفسها الرياضة الترفيهية الجديدة للسباحة والاستحمام، ولم تعد مقتصرة فقط على بعض ساكني الشريط الساحلي الضيق وصيادي عين المريسة والمدوّر الذين كانوا على علاقة وثيقة بالبحر واكتشفوا بالفطرة عادة السباحة. أما الآخرون فكانوا يكتفون بالاستحمام بماء البحر وهي عادة طقسية سنوية يحرص عليها الناس بمناسبة أربعاء أيوب في زمن الصوم المسيحي وهو اعتقاد سلفي قديم تتمتع وفقه مياه البحر بالقدرة العجائبية على شفاء الأمراض في هذا اليوم بالذات. إلاّ أن ممارسة رياضة السباحة بدأت تنتشر على نطاق واسع في نهاية القرن

التاسع عشر. في عام 1888، أُشير إلى وجود ثلاث منتجعات حرية تحت صخور المدور شرقاً وعلى ضفاف ميناء الحصن غرباً - ويجب ألا نقارن بينها وبين المسابح الشعبية التي بلغ عددها خمسة. كانت بعض المقاهي في غربي المرفأ، كمقهى الحاج داوود والعاملية أو تلك المنتشرة على صخور الروشة تتيح للراغبين في ارتيادها تمضية أوقات فراغهم بنفقات قليلة وهذه المقاهي كناية عن أكشاش خشبية قائمة على مجموعة اوتاد تقدم لزبائنها المازة المنوعة مع كأس من الخمر غالباً ما تكون من العرق البلدي. هذه المقاهي قائمة فوق كابينات صغيرة منحوتة من الصخر تتيح للمستحمين تبديل ملابسهم، وهي معدة والحالة هذه لاستقبال الرجال الذين يقتصر لباسهم البحري على سروال واسع فضفاض من الكتان[50]. أما النساء فلم يسمح لهن بممارسة السباحة إلاّ مع حلول عهد الانتداب.

وحين تقرّر إدخال مادة الرياضة البدنية في مناهج المؤسسات المدرسية، كانت أوروبا تؤسس الألعاب الأولمبية. وساهم هذا في خلق رياضات منوّعة تجري ممارستها في الهواء الطلق. وانتشرت المؤسسات الكشفية بعد الرواج الذي شهدته في المدارس المسيحية أولاً ثم امتدت الحركة لتشمل المقاصد الإسلامية لاحقاً. وهكذا، تأسس الكشاف المسلم عام 1912 بعد خمس سنوات فقط من تنظيم الحركة الكشفية على يد بادن باول.

وجرت محاكاة أوروبا في كل الميادين وصولاً إلى أسماء العلم وخاصة الفرنسية منها. استخدمت عائلات بورجوازية مسيحية كثيرة كتابة فرنسية مبسطة لاسمائها فيما عائلات أخرى زادتها تعقيداً والهدف مشترك ألا وهو محاكاة الغرب. وهكذا تحول اسم عائلة سرسق إلى سُرسوك Sursock وفرعون الى Pharaon وصار اسم آل فريج «دو فريج»، بعد حصولهم على اللقب البابوي النبيل. لكن التغيير الفعلي طال فعلاً الشهرات فاستبدلت أسماء الأشخاص المسيحيين المحليين بأسماء فرنسية للقديسين الشفعاء: جورج بدلاً من جرجس أو جريس، وماري بدلاً من مريم، وجوزيف بدلاً من يوسف وجان بدلاً من حنا أو يوحنا وبول بدلاً من بولس وبيار بدلاً من بطرس وأنطوان بدلاً من طانيوس أو طنوس وميشال بدلاً من ميخائيل أو نخلة وإيلي بدلاً من الياس. وحتى الأسماء الدنيوية تمّ استبدالها، على سبيل المثال اسم كميل Kamil الذي استبدل بـ Camille. وظهرت أسماء جديدة كلياً على المنطقة مثل اسم أوجيني، كرمى للأمبراطورة الفرنسية، وجوزفين وفيكتوريا وليندا وأليس والفرد وإميل و شارل...

انتصار الطب

لم يقف التغيير عند حدود المظاهر فقط. وكما غيرت الهندسة المعمارية الجديدة العلاقة بالمكان

وأدّت إلى استحداث سلوكيات اجتماعية جديدة تشكل قطيعة مع التقاليد الجماعية كذلك أدّى التقدم التربوي والتعليمي الى التغير في النظرة الى مفهوم الفرد نفسه وأكثر ما تجسد هذا التحول في الخطوات العملاقة التي خطاها الطب الحديث محققاً تقدماً تجاوز ما تمّ تحقيقه في مجال الدراسات الأدبية والتاريخية. وبالإضافة الى التقدم الملموس في ميدان التشخيص والعلاج، أدى انتشار النزعة العلماوية التي تعمل على نشر أو تعميم القيم الصحية وإدراجها في الحياة اليومية إلى إبراز أهمية الطبّ وأثره الهائل على الحياة الاجتماعية فأحيط الأطباء بهالة من الأبهة الرفيعة، الشيء الذي هيأ لأن تصير بيروت من أكثر المجتمعات اهتماما بالطب في العالم.

وحتى منتصف القرن التاسع عشر، كان الطب يُمارس في بيروت وفي باقي مناطق المشرق بصورة إرتجالية. ففي مطلع القرن التاسع عشر أشار الرحّالة الى وجود أطباء أجانب في جبل لبنان[51] لكن كانت الطريقة البدائية في التطبيب هي السائدة، وإن كانت قد تخلّت عن أساليب الطب العربي الذي كان شائعاً في العصر العباسي. وكان المشعوذون والمهتمون بشؤون تجبير الكسور الذين لم يتلقوا أي أعداد حقيقي ما زالوا يمارسون في أكثر الأحيان نشاطاً ملحوظاً. لكن الأمور أخذت تنحو منحى مختلفاً مع الاصلاحات المصرية ونمو التجارة في أوروبا. ففي عام 1838، قام كلوت بك Clot bey بزيارة إلى بيروت بعدما بدأت مدرسة قصر العيني التي أسسها في القاهرة تجتذب طلاباً من كافة المناطق[52]. وفي عام 1839، أشار بلو نديل إلى وجود صيدلية يتولى إدارتها صيدلي متخصص موضحاً إن حوانيت العطارين الأخرى لا تتوافر فيها الشروط المطلوبة[53]. وكان أول طبيب متخصص أقام في بيروت عام 1847 الطبيب الفرنسي الدكتور سوغي Suguet، وفقاً لشهادة الرحّالة دو بارديو[54] Depardieu. وفي تلك السنة، اتخذت الدول العظمى القرار بتعيين أطباء صحة في مناطق شتى من الامبراطورية. وما حفز هذا القرار انتشار وباء الكوليرا الذي تفشى في اوروبا انطلاقاً من مكة في عام 1831. وعلى غرار الدكتور سوغي، الذي بقي في بيروت عاماً كاملاً، أقام أطباء أجانب آخرون في المدينة. كما يمكن إحصاء مرسلين أعدوا للطبابة كالأخ اليسوعي هانز Henze والأميركي كورنيليوس فانديك. ولم تمضِ فترة قصيرة حتى بدأ السكان المحليون يتوجهون إلى اسطنبول أو القاهرة لدراسة الطبّ، فيما قصد بعضهم أوروبا وكان الطبيبان يوسف جلخ وابراهيم نجار هما أول من تخرجا من مدرسة قصر العيني وعادا ليعملا في بيروت. أما ابراهيم نجار فأصبح لاحقاً رئيس قسم الأطباء في الجيش العثماني وتولّى ادارة المستشفى العسكري في بيروت الذي انشئ عام 1851[55]. ونذكر أيضاً الدكتور جون ورتبات، إبن أول أرمني أرتدَّ إلى البروتستانتية الذي درس في لندن والدكتور شاكر الخوري المولود عام 1847 والذي التحق بمدرسة قصر العيني عام 1867، لكن الانعطافة التي شهدتها ممارسة الطب في لبنان انطلقت من الكلية السورية الانجيلية ثم من جامعة القديس يوسف. ففي عام 1871 تخرجت

أول دفعة من الأطباء الذين درسوا في الكلية السورية الانجيلية وبعد خمس عشرة سنة، منحت كلية الطب في جامعة القديس يوسف شهاداتها لأول دفعة من متخرجيها علماً بأن الكلية الطبية باشرت أعمالها منذ عام 1881.

وبفضل هاتين الكليتين، تخرجت مجموعة من الأطباء على دفعات. أما بعض الطلاب الميسورين فكانوا يؤثرون متابعة دراستهم في الخارج* على أن العديد من متخرجي الكلية السورية الانجيلية وجامعة القديس يوسف كانوا يتوجهون إلى أوروبا للتخصّص في أحد الفروع الطبية العامة. وهذا الاختصاص هو ضمانة نجاحهم المهني في مجتمع اكتسب سريعاً تقنيات الممارسة الطبية العصرية التي باتت أمراً ملحاً في كل مجتمع. وبالامكان التثبت من ذلك عبر الاعلانات التي كان الأطباء المقيمون في المدينة يعلنون عنها في الصحف. وكانت الاعلانات تبرز أيضاً نوعية الشهادة المصدق عليها ورقمها، وبطبيعة الحال، الجامعة التي تخرج منها الطبيب. وهذا الاجراء يبعث الطمأنينة في نفوس طالبي العلاج ويثبت إن الطبيب تتوفر لديه الخبرة ويمتلك التقنيات الاوروبية الحديثة[56]. وفي ضوء النتائج التي تترتب على العلاج الذي اتبعه الطبيب، تذيع شهرته، سواء عبر تناقل الزوار الأخبار عن مهارته ونشرها على العلن أو من خلال الرسائل التي يوجهها المرضى في الصحف ويضمنونها عبارات المديح والشكر بعد نيلهم الشفاء[57]. لكن الخدمات الطبية لم تكن حكراً على الطبقات الميسورة، ذلك إن غالبية الأطباء كانوا يحددون مواعيد ثابتة لاستقبال المرضى المعوزين. وسمحت هذه الاستشارات الطبية المجانية، نظرا لغياب البنى العامة التي تهتم باستقبال المرضى، بأن تفيد جميع شرائح السكان من ثمار الطب الحديث. كل ذلك رافقه إجلال للطبيب وتقدير لدوره الاجتماعي مما حمل الناس على النظر إليه وكأنه نصف إله[58].


مستشفى القديس جاورجيوس للروم الارثوذكس.

كان تدريس الطب في الكلية السورية الانجيلية وفي جامعة القديس يوسف يتخلّله إعداد في مجال الصيدلة. وكانت النتيجة إن دليل «الجمعية» أحصى وجود خمسة عشر صيدلياً متخصصاً في المدينة عام

* في النصف الثاني من القرن العشرين، حدث أمر مخالف تماماً لما ذكر أعلاه. فالطلاب الذين لم تكن مواردهم المادية كافية بادروا إلى متابعة دراستهم في الخارج، وفي أوروبا الشرقية غالباً.

1889. كما افتتحت مدرسة للتمريض في 1905 في الكلية السورية الانجيلية. وبموازاة ذلك، شهدت التجهيزات الاستشفائية نمواً مطرداً بعدما كانت معدومة حتى منتصف القرن ثم اقتصرت فقط على المستشفى العسكري المنشأ عام 1853، ثم افتتح مستشفى جوهانيتر Johanitter الذي اسسته أوانس الدياكونيس البروتستانتيات وكان قائماً فوق قطعة أرض منحها فؤاد باشا لفرسان القديس يوحنا البروسيين في العام 1862. ومن بعده أنشئ مستشفى القديس جاورجيوس للروم الارثوذكس عام 1878 بمبادرة محلية صرف. وقد غيّر المستشفى مكانه مرتين ليستقر أخيراً عام 1913 في موقعه الحالي وفي غضون ذلك، انشئت مؤسسات أخرى كالمستشفى الحميدي في حي الصنائع الجديد، ومستشفى القلب الأقدس الذي أنشأته راهبات المحبة وباشر أعماله منذ 1885[59]. وألحق بهذه المؤسسات مستشفى الأمراض العقلية بناه السويسري تيوفيل والد ماير Théophile Waldmier وهو أحد الصاحبيين الذي أتى إلى لبنان ليدير في الأساس مدرسة انكلو ساكسونية في برمانا بتمويل أجنبي ومحلي في الوقت نفسه. وأقيم المستشفى خارج بيروت في المكان الذي يدعى الآن «العصفورية»[60] وافتتح رسمياً في 1902. كانت المدينة تجهل كل شيء عن الحجر الصحي الذي يمارس على المجانين وذوي الأمراض العصبية بالرغم من أن هذا الإجراء كان متبعاً في أمكنة أخرى إبان العهد العثماني كمثل بيمارستان حلب. لكن في بيروت، كان الأمر جديداً تماماً وباتت تسمية «العصفورية» رديفاً لمأوى المجانين، حتى في المعنى المجازي للكلمة.

ولم يستطع التطور الذي شهده الجسم الطبي لا سيما في مجال الطب الداخلي إبعاد الطب التقليدي عن الواجهة إذ ظلّ صامداً، والدليل على صموده الحملات العامة التي أثيرت ضده وضد الممارسات البائدة المستندة إلى الشعوذة على أنواعها. وقد شنت هذه الحملة بمساندة البلدية وبدعم طوعي من الصحف التي كانت تتبنى النزعة العلمية الرائجة مفردة المقالات والأبواب للتحدث عن كيفية تحسين الشروط الطبية ومنجزات الطب الحديث. وصدرت مجلة تدعى **الطبيب** برعاية إبراهيم اليازجي والدكتور جورج بوست من بعده وهو بروفسور أمير كي في الكلية السورية الانجيلية[61]. كما استهدفت الحملات دكاكين العطارين التي تعمل خلافاً للقانون. صحيح إن المسألة انتهت بإقفال الدكاكين وغياب أصحابها عن الساحة لكن دعاة الطبّ التقليدي استطاعوا الصمود لفترة طويلة حتى القرن العشرين، على الأقل في ميدان تجبير الكسور ومعالجة تحريك العظام المرضوضة وأمراض العظام. ولم يحل استمرار هذه الممارسات التقليدية دون تعميم التقنيات الطبية الأوروبية، حتى لو ترافق غالباً اللجوء إلى الطبابة الحديثة مع استخدام الرقى والتعاويذ وأساليب العلاج الديني. فالثقة العمياء بالطبيب القادر القدير لم تَحُلْ دون استخدام الشفاعات الأخرى، لا بل كانت هذه الثقة أحياناً تتحول إلى ما يشبه التحفظ خاصة حين يتوجب على المريض الدخول إلى المستشفى،

وقلما كانت تحاط هذه المؤسسة بالاجلال والتقدير لأنها ترمز إلى تخلّي الأهل عن العناية بمريضهم مما يعرّضهم للعار والذمّة[62]. لكن التحاق الناس بركب الحداثة التي يمثلها الطب لم يكن بمنأى عن التحفظات التي ما زالت تضرب جذورها في معتقدات عامة الناس والنابعة من عالم غابر لم يكن ليندثر بسهولة.

الفرد والجماعة

إن تحول المدينة يعني تحول الرجال والنساء الذين يعيشون فيها أو الذين يفدون إليها فيزيدون من عدد سكانها في كل يوم. وهذا بوسعنا التأكد منه من خلال تنوع الأزياء والسلوكيات الجديدة العامة والخاصة التي كان يمليها عليهم التعصرن. ولم تكن السلوكيات تستجيب فقط لدواعي التغربن في الحياة والمجتمع، لكن يبدو أن احدى السمات الأساسية لهذا التحول السوسيولوجي المفاجئ هي



الطبيب، مجلة شهرية.



الطبيب بعد مرور سبعة عشر عاماً.

المرونة والطواعية التي تميزت بها الحداثة والتي فتحت آفاقاً جديدة للخيارات الشخصية. وعلاوة على ذلك، كان التوسع الجغرافي للمدينة وتدفّق المهاجرين المستمر إليها يتيح، إن لم يكن الغفلية التي توفرها المدن للأفراد، فعلى الأقل ابتكار علاقات معقدة نتيجة هذا الهامش من الحرية الذي توفرّه لهم ولو بشكل متقطع. وكانت بيروت، من بين جميع مدن السلطنة، أول من بادرت إلى تشجيع مسارات الوعي الفردي للسير في ركاب التعصرن بفضل تضاعف عدد المدارس والتشبث بالشعارات التي أطلقتها الثورة الفرنسية وقيم التقدم والعقلنة. ومنذ إعلان قانون المساواة بين جميع الرعايا في المرسوم الامبراطوري عام 1839، ساهم السياق القانوني للتنظيمات في تحفيز مسار الوعي الفردي هذا. على هذا الأساس فإن الحملة المنظمة الهادفة إلى تحديث القوانين إضافة إلى ممارسات المسؤولين والموظفين العثمانيين قد ساهمت في تعزيز النزعة الفردية التي تحتويها التعاليم الاسلامية(63).

لكن تعزيز الثقة بالنفس لدى الأفراد لا يمكن أن يُدرك بطريقة انطباعية ويبدو من المستحيل قياسه بدقة مع إن هذا الأمر يبدو واضحاً إذا ما أعدنا النظر في سلوك العديد من الشخصيات البيروتية على تنوعها في نهاية القرن التاسع عشر. ثمة دلائل تُثبت وجود رغبةٍ غير واعية أحياناً لدى الفرد ولكن لا حدّ لها للتأكيد على استقلاليته. وتتضح هذه النزعة إذا عدنا إلى بعض المقارنات التي جرت خارج الاطر الطائفية وأحياناً ضد رغبة المنظمات الدينية. كانت هذه الرغبة في الاستقلالية الذاتية تتجسد في حالاتها القصوى بإرتداد الارثوذكس والموارنة إلى البروتستناتية أو الانضمام، في مناسبات أقل خطورة إلى رهبانية اليسوعيين المرتبطين بالكرسي الرسولي. وإذا كانت مثل هذه الارتدادات لا تعني إلاّ المسيحيين وحدهم فان مساهمة رجل دين مسلم كالشيخ يوسف الأسير في ترجمة الكتاب المقدس البروتستانتي تكشِف عن المرونة التي تحلت بها روح النهضة وعن قدرتها على إثارة وجوه التشابه التي تدفع بالمرء ليتجاوز الحواجز بين الطوائف. خلقت روح النهضة نفسها إقبالاً شديداً على تعليم الأطفال، وكان ازدياد تفوق الطلب على العرض عالياً لدرجة أغفلت معها المقاييس الطائفية في اختيار المدرسة، على الأقل حتى اللحظة التي صارت لكل الطوائف مؤسساتها الخاصة بها. ويمكن معاينة هذا الاختلاط الطائفي في المدارس الأجنبية لا سيما في الجامعتين الوحيدتين في بيروتز كما ساهم تعدد الخيارات المهنية وتنوعها المتزايد في تحديد مسارات لم تخطها مسبقاً السلالة العائلية أو الطبقة الاجتماعية. وبصورة عامة كانت أشكال التنشئة الاجتماعية التي تفرضها مدينة باتت مفتوحة على التأثيرات الخارجية تشجع إقامة علاقات أفقية بين الناس سواء تعلق الأمر بتجمع تجاري أو لقاءات مهنيةأو مجرد علاقات صداقة.

واستطاعت بيروت أن تجسده بشكل مبهر هذه الانطلاقة للوعي الفردي عام 1887 أبّان القضية التي أثارتها جنازة أحمد فارس الشدياق وهو ماروني ارتد بادئ الأمر إلى البروتستانتية ثم إلى الاسلام.

ذلك أن التسوية التي تمت قبيل الجنازة والتي قضت بإجراء احتفال يضم طوائف مختلفة بعد اختيار مكان «محايد» لمواراة الجثة الثرى - أظهرت إن رجل النهضة فرض وجوده على المجتمع. وهذا ما فعلته المرأة أيضاً والمثال على ذلك جوليا طعمة وهي دمشقية مسيحية اقترنت طوعاً بمسلم أو عنبرة ابنة سليم سلام التي أسفرت عن وجهها مع نهاية العهد العثماني. وفي هذا المجال أيضاً، كان لفكر رجال النهضة وأعمالهم عظيم التأثير في محيطهم. صحيح إن مسألة تحرر المرأة لم يجر تناولها أمام الملأ قبل نشر القاضي المصري قاسم أمين لكتابه الذي يحمل عنوان تحرير المرأة عام 1899، في القاهرة[64]، لكن اشكالية الاعلاء من شأن المرأة المتمحورة حول تعليم الفتيات قد طُرحت في بيروت قبل نصف قرن في محاضرة للبستاني. وجسد البستاني مبادئه فعلاً باقترانه براحيل عطا وهي شابة متعلمة لا بل من أولى الفتيات اللواتي تعلمن في المدينة في مدرسة المرسلين الأميركيين. وهذا ما سيفعله أيضاً ابراهيم اليازجي الأصغر سناً والذي كانت شقيقته وردة أقامت صالوناً أدبياً في سبعينات القرن التاسع عشر. لا شك إن النضال النسائي السياسي الذي دعا إلى منح المرأة حق الاقتراع أو المساواة المهنية لا يزال بعيداً، ففي أوروبا بالذات لم يجر توظيف اليد العاملة النسائية إلاّ مع بداية الحرب العالمية الأولى. ولكن تعليم الفتيات الذي اعتمدته بادئ الأمر مدارس الارساليات والذي سرعان ما جرى تقبله كما يؤكده المبدأ الأساسي لجمعية المقاصد، كان بلا منازع أحد العوامل التي ساهمت في الاندماج الاجتماعي غير المرتبط بتسلسل زمني أو مكاني محدد. لقد ساهم تدريس الفتيات بمنحهنَّ فرصة للوصول إلى مهنة التعليم كما ساهم في توفير الحد الأدنى من الاستقلال الذاتي لهنَّ ومن جهة أخرى فأن نوعية التربية أصبحت المدخل الأساسي لتوفير شروط زواج أفضل على الأقل في أوساط الطبقات الراقية والمتوسطة من المجتمع.

كما شهد الزواج البرجوازي نفسه تحولاً مفاجئاً يتوافق مع تأكيد الارادة الفردية خصوصاً من وجهة النظر الذكورية. وبالرغم من إن اختيار فتاة للزواج خاضع للأعراف والعادات العائلية المتبعة لا سيما في العائلات المتمسكة بروابط النسب إلاّ انه أخلى الساحَة لاعتبارات أخرى ترمي من وراء المصاهرة إلى المحافظة على مستوى سياسي محدّد، وأضحى بإمكان الزواج أن يحصل نتيجة علاقة ثنائية بين الطرفين بعيداً عن تأثيرات الأهل أو المفاهيم الاجتماعية. ثم نزعت الزيجات بين شخصين مثقفين نسبياً للإندراج في إطار الأسرة النووية وهذا النوع من الزيجات سهّلت حدوثه الهندسة الحديثة للمنازل وظهور شقق الإيجار. وكان لا بد للعائلة المحافظة على رابطة النسب التي اختفت أحياناً من الأفق المنزلي، أن تتآلف تدريجاً مع النزعات الشخصية التي هيأ لها إطار الحياة المنفتحة وزاد من اتساعها تضاعف الخيارات التربوية والمهنية، بغض النظر عن التغيرات في أنماط اللباس والزينة.

وإذ كانت العائلة الممتدة قد أخلت الساحة في الحياة اليومية لارتقاء الفرد فهذا لا يعني أنها تخلت

عن التمسّك بسلطتها الفعلية. وربما استمرت الصلات العائلية لوقت طويل في هيكلة الحياة الاجتماعية، وهكذا بدل الكلام عن تعارض ثنائي بين الجماعة والفرد يجب التحدث بالأحرى عن تكيف الجماعة مع تطلعات الفرد. فتاريخ بيروت في القرن التاسع عشر، الحافل مع ذلك بالمغامرات الشخصية يبقى على نطاق واسع مرادفاً لتاريخ العائلات ولا يُقصد فقط «العائلات الكبيرة» التي تذكرها طوعاً سير أهل المدينة. بالطبع كانت العائلات الكبيرة هي الأبرز والأكثر جلاء للعيان إن لجهة مساكنها الفخمة التي تدلّ على نبل أصحابها وان لجهة استمرارية السلالات التي تميزت بروح المبادرة الخلاقة في تلك المرحلة نتيجة إرتباطها بالمصالح الأوروبية في أغلب الأحيان. وفي هذا المجال كان تأثير أوروبا يُمارس بطريقة لا تخلو من التناقض، فإذا كانت محاكاة الغرب تشجع نموّ الفردية، فان ناشطي التوسع الاوروبي ووكلاؤه يختارون العائلات التي يتعاملون معها سواء في إطار المعاملات التجارية أو في العلاقات السياسية. وهكذا هي الحال بالنسبة للوظائف القنصلية التي كانت تمنح لحفنة من التراجم المحظوظين، ويستمر الحال مع أبناء وأحفاد عائلات المثقفين وكأن هذا المنصب ينتقل بالوراثة من جيل الى آخر.



مرشد للسواح في لباس قواص.

وفيما يتعدى هذه السلالات من التجار أو أصحاب المصارف، أظهر تطور الأحياء السكنية المختلفة التي انضمت إلى الحشد العمراني في القرن التاسع عشر، أن انماط التجمع العائلية في جميع الطبقات الاجتماعية كانت تتحكم بالتشكيل الاجتماعي الجديد لبيروت. كما كرست الهجرة الوافدة، وهي المحرك الأساسي للنمو السكاني رسوخ الصلات العائلية على الصعيد الجغرافي، ففي جميع الأحياء السكنية الناشئة إستُملكت المساحات الخالية من قبل تجمعات عائلية وصلت معاً أو تفصل بينها فترات زمنية قصيرة، وكانت كل عائلة فيها تنمو وتتكاثر مع الزمن وتوسع تدريجياً دائرة نفوذها. هذا المنطق العائلي المتحكم بالتوسع الحضري كما يشهد عليه واقع الحال الشعبي وتوزيع الملكية العقارية لا بل سجلات الأحوال الشخصية مارس تأثيره طويلاً أبان القرن العشرين مساهماً بخلق تعارض طويل الأمد بين الأحياء السكنية، وهي المنطقة الخاصة بالجماعة وبين مدينة الأعمال والتسلية وهيً المساحة الخاصة بالفرد.

وتلازمت هذه الشبكة العائلية مع جغرافيا طائفية. لم يكن قطاع الأعمال والادارات في وسط المدينة يتصف بأي لون طائفي معين بل كان يضم رجال أعمال من كل الطوائف والأديان.

أما الأحياء السكنية المحيطة به وهي قرى اجتاحتها ظاهرة التمدن وضواح قديمة اتصلت بالمدينة، فكانت تجعل التجمعات الطائفية تتجاور على شكل مجموعات متقاربة. لا شك إن زمن القطيعة الحاسمة الذي كرسته الحرب في نهاية القرن العشرين بين منطقة شرقية مسيحية حصراً وبين منطقة غربية ذات غالبية مسلمة، لا يزال بعيداً. وإذا كان المسيحيون يستأثرون وحدهم بمنحدرات تلة الأشرفية، فهذا لا يعني انهم اغفلوا أحياءً أخرى اجتذبتهم في المنطقة الغربية وبالتحديد المصيطبة والمزرعة. ونجد أيضاً جزراً صغيرة متداخلة في جزر أُخرى وقلما نجد مجموعة من الأفراد ينتمون إلى طائفة مختلفة عن الطائفة التي في جوارهم المباشر، لكن هذا التشكيل المرقط الذي فرضته ظروف مجيء الناس إلى المدينة لم يتحول إلى ساحة مواجهة حتى لو كان التقسيم الطائفي للمناطق يُغذي بقايا العنف الموجودة في كل شارع وخصوصاً عند حدود قطاع كل طائفة[65].

كانت الطائفة الممثلة أيضاً في الأسرة تحاول احتواء تأثيرات التغربن وتلجم على نحو واسع تأكيد الفرد لنفسه. وهنا أيضاً لا يمكننا التحدث عن تعارض تام فالطوائف هي أيضاً تكيفت مع سعي الفرد إلى استقلاله الذاتي وليس دقيقاً الكلام حين نختزل ردود فعل الطوائف الى مقاومتها كل شكل من أشكال العصرنة. وإذا كانت البنية الأبوية للمجتمع العربي تُعده لتقبل العصبية التي يؤكد عليها إبن خلدون في مقدمته، فان أنواع المنطق الطائفي التي تنعكس في النسيج العمراني لبيروت كانت ابنة زمانها.

ثمة مفارقة يدركها جيداً مؤرخو الحقبة العثمانية وهي إن انضمام الأمبراطورية العثمانية إلى ركب العصرنة أدى إلى احتدام التوتر بين الطوائف. وبفعل تأثير الضغوط المتناقضة التي مارستها الدول

العظمى الأوروبية المهتمة بعقلنة المبادلات الاقتصادية والحريصة في الوقت نفسه على الاحتفاظ بالامتيازات التي ورثتها، عادت التنظيمات، المنطلقة من مبدأ المساواة بين كافة المواطنين في السلطنة، لاحقا إلى تكريس نظام الملل الشهير، أي إلى توسيع صلاحيات هيئات الطوائف غير المسلمة. وقادت هذه الظاهرة الى المزيد من تعقيد المسألة الشرقية خصوصا في الولايات المنفتحة اكثر من غيرها على اختراق الغرب الاقتصادي والسياسي والثقافي. ففي سوريا مثلاً أحدثت العودة إلى نظام الملل ارتباكات زاد من حدّتها تدخل القناصل وتعدّد الانتماءات الدينية. وكان التأثير الغربي يشجع فيها الأقليات المسيحية على إذكاء النزعة النضالية، والغالبية المسلمة على التصلب إزاء ذلك[56].

لم يكن بإمكان مدينة مثل بيروت الهروب من هذا القدر لا سيما أن انطلاقتها تمفصلت حول تطور التجارة الغربية التي جعلت منها بوابة أوروبا إلى الشرق. وعلى خلفية هذه الامور تبدو التحولات التي شهدها جبل لبنان في ظلّ إعادة توزيع السلطة والثروة. اتسعت الانشقاقات الدينية وتعرقلت عملية تحقيق الفرد لذاته بسبب حاجته المساندة الطائفية، وهكذا وفيما رأى انسان الأزمنة الجديد أن قدراته الذاتية تتضاعف، وجد إن ذوبانه في الجماعة هو السبيل الى تأمين مصالحه الذاتية.



سوق الجميل وواجهاته «الباريسية».

الفصل العاشر

الهويات الحائرة

«ثم، قبل أن يُقفل التابوت، إتجه شاب مسيحي، يرتدي ثياباً أنيقة ويعلّق وردة في زر سترته ويضع منديلاً معطراً في جيبه، نحو النعش. ودون أن ينبس بكلمة انحنى فوق وجه الميت وقبّله[1]». يبدو المشهد وكأنه طالع من قصص المافيا وربما كان شبيهاً بها في معنى من المعاني إذ لم تمضِ بضعة أسابيع إلاّ وظهر رجل الوردة في وضح النهار وفي حالة لا تمت بصلة إلى مظهره المسالم وأردى ثلاثة أشخاص قتلى، ثلاثة مسلمين. لقد انتقم للميت. ما هم إن كان الضحايا الثلاثة الجدد بريئين من دم القتيل.

فمن كان ذلك الرجل الذي يستحق مثل هذا الاهتمام بعد موته؟ لم يكن زعيم حرب ولا مسؤولاً سياسياً بل مجرد قبضاي، لكنه أحد القبضايات الأكثر إثارة للرعب في بيروت على مداخل القرن العشرين. لا شك انه من أصل يوناني وهو Costa Paoli أو أسطة بولي بحسب التسمية المحلية وكان معتبراً بطل المسيحيين. وإذا واجه شخص مسيحي يواجه مصاعب مع الحكومة أو مع الجماعات المسلمة كان واثقاً من ان اسطة سيحميه أو سينتقم له. كان اسطة محبوباً من أبناء طائفته ومهاباً من أخصامه المسلمين، كان ينتقل وسط موكب حاشد محاطاً بزمرة من الرجال الذين يحمونه حاملين المسدسات والخناجر من فوق قفطانهم[2]. لكن هذا لم يحُل دون طعنه بالخنجر في ظهره كما تقول السيرة، وكانت جنازته مناسبة فجّرت فيها جماعة المشيعين غضبها المحموم هاتفة بشعارات ضد المسلمين والأتراك وتوعَّد رفاقه القبضايات والموالون له بانتقام سريع وحاسم. هذا قبل أن يأتي الشاب الأنيق حامل المنديل المعطر ليضيف لمسة مهيبة على مسرح الحداد ويبادر لاحقاً إلى تصفية الحساب تبعاً لقوانين الشرف.

ومهما بدت نموذجية ممارسات العنف التي اقترنت بصورة بيروت ولبنان في القرن العشرين فإنَّ الفصل الذي رويناه يكشف عن تحولات أكثر مما يكشف عن ثوابت. ذلك أن العنف في الشارع الذي

اتخذ هذا الشكل بالذات كان ظاهرة جديدة آنذاك، وجديدة أيضاً كانت حدة الضغائن الطائفية خاصة تلك الثقة القتالية التي أظهرها هؤلاء المسيحيون وعبّرت عن حالة نفسية لم تكن موجودة لنصف قرن خلا.

وخلافاً لما يتصور البعض، لم تكن الطائفية حالة سلفية بل كانت ضريبة الحداثة، والأهم من ذلك نجحت الطائفية نتيجة تكيّفها معها أن تجيش شعوراً بدا أكثر حداثة في ظاهره وهو الشعور القومي.

منعطف 1860

وزادت التبعات الناجمة عن أحداث 1860 من حدّة الصراعات المذهبية. صحيح إن المدينة جُنِّبت المواجهات التي أدمت جبل لبنان ثم دمشق، لكنها لم تكن بمنأى عن التشنجات التي اثارتها ولا عن الذيول التي خلّفتها. وكما في كل ارجاء سوريا،كانت التشنجات الطائفية قد بلغت في بيروت ذروتها غداة اشتعال الفتنة وقد أشار أحد الآباء اليسوعيين في معرض وصفه لغضب المسلمين عام 1859 إلى انتشار نبوءة تعلن عن نهاية العهد الاسلامي[3] في تلك السنة. وتزامناً مع أحداث دمشق، أدى العثور على جثة أحد المسلمين إلى تصفية عابر ماروني أمام السراي، لكن وجود البوارج الحربية الاوروبية في المرفأ بالإضافة إلى كتيبة عثمانية عززها وصول الفي جندي، استطاعت أن تحول دون امتداد المجازر[4]. وبدت بيروت تلقائياً وكأنها الملاذ الذي يستطيع أن يلجأ إليه المسيحيون الهاربون من دمشق وقرى الجبل. وتزامنت هذه الزيادة السكانية المفاجئة مع تطورات أخرى وتحديداً الأعمال الجارية على طريق بيروت – دمشق، لتجعل من 1860 أحد المنعطفات الرئيسية في تاريخ المدينة التي أضحت ذاكرتها الجماعية مثقلة منذ ذلك الحين بالضغائن المتصلة بأحداث جرت في أماكن أخرى. وحتى بعد فترة السلم التي سادت في جبل لبنان عملت وفود النازحين باستمرار على إذكاء المشاعر المذهبية والقومية التي كانت تبقي على الحرب الباردة بين الطوائف.

وتمثلت احدى النتائج الأهم لاحداث 1860 في تسريع تغيير التوزيع الطائفي للسكان. لا شك انه في هذا المجال أيضاً علينا الاعتماد على الإنطباعات ويجب التعامل مع الأرقام التي ذكرها المعاصرون لتلك الفترة بحذر يفوق التعامل مع الإحصاءات السكانية العامة. ولكن دلائل كثيرة تُتيح التأكيد على طرحٍ شائع في أوساط عامة الناس قائلٍ بأن السنّة شكلوا غالبية السكان في المدينة حتى بداية عهد الانتداب الفرنسي. ويبدو إن عدد المسيحيين قد ازداد بشكل ملحوظ منذ الحقبة المصرية[5]. وفيما كان المسيحيون في عهد الجزار عند نهاية القرن الثامن عشر يشكلون قلة بحيث كان باستطاعتهم الصلاة

في كنيسة واحدة حسبما روى أحد الرحالة، أشار القنصل غيز في الثلاثينات من القرن التاسع عشر إلى أن السكان المسيحيين في بيروت كانوا يشكّلون الأكثرية على طول الساحل وأن القداديس كانت تقام هنا كما في أوروبا[6]. لا بل إن غيز ذهب به الأمر إلى حد القول إن المسيحيين يشكلون أكثر من نصف السكان الذين قدرهم بخمس عشرة ألف نسمة: سبعة آلاف مسلم وأربعة آلاف ارثوذكسي وألف وخمسمائة ماروني وألف ومئتي روم كاثوليك وثمانمئة درزي وأربعمئة أرمني وسريان كاثوليك ومئتي يهودي وأربعمئة أوروبي[7]. ويؤكد إحصاء عثماني ذكره الرحّالة أوركهارت ما سبق وأورده غيز، مع الايحاء بأن عدد المسلمين لا يفوق كثيراً عدد المسيحيين. وبالاضافة إلى الهجرة الوافدة الاقتصادية التي اجتذبت إلى بيروت المسلمين كما المسيحيين الآتين من داخل سوريا، كانت هناك هجرة «سياسية» دخلت على الخط فجأة لترفع من عدد السكان المسيحيين. وكانت الاضطرابات المنتشرة في جبل لبنان بين الدروز والموارنة بعد عام 1840 العامل الرئيسي لهذه الهجرة. كذلك ساهمت في هذه الزيادة نزاعات أخرى من طبيعة طائفية كتلك المشاحنات التي نشأت بين المسيحيين في حاصبيا الواقعة جنوب البقاع بسبب الارتدادات إلى البروتستنتية، أو بسبب المواجهات عام 1850 في حلب بين المسلمين والمسيحيين[8]. وأخيراً وقعت الحرب الأهلية لعام 1860. وبدأت وفود النازحين تصل إلى بيروت بلا انقطاع لبضعة أشهر.

ومما سهّل على عشرة آلاف لاجىء النزوح الى بيروت في شهر تموز / يوليو سلوكهم طريق دمشق مع أنها لم تكن منجزة بعد. وفي نهاية شهر آب/ أغسطس تضاعف عددهم واستمر وفود النازحين الى ان بلغ عشرة آلاف لاجىء من دمشق خلال شهر واحد من بينهم ثلاثة آلاف في يوم واحد. وبالرغم من الجهود التي بذلتها السلطات العثمانية والقناصلة استمرت حركة النزوح حتى الخريف لا بل واكثر. وفي السنوات اللاحقة في عام 1867 مثلا تواصلت هجرة مسيحيي دمشق الى بيروت وان بشكل اقل كثافة بالطبع[9].

إن نزوح اللاجئين عام 1860 إلى بيروت أحدث في التوزيعة الديموغرافية خللاً جوهرياً ويظهر احصاء لعام 1865 بأن عدد المسلمين، مقارنة مع الأرقام الصادرة عام 1840 قد تضاعف وان عدد المسيحيين إزداد ثلاثة أضعاف وأصبحت النسبة آنذاك ثلث مقابل ثلثين. وترسخ هذا الميل خلال العقود اللاحقة وازداد السكان المسيحيون ثلاثة أضعاف بين 1860 ونهاية القرن. في مطلع القرن العشرين تُظهر مصادر مختلفة غالبية مسيحية فيما شكل إحصاء عثماني ورد في روزنامة 1908 استثناءً صريحاً إذ يتحدث عن تعادل بين الطائفتين ولكنه ميّز بين البيروتيين وبين اللبنانيين وبكلام آخر الأشخاص المسجلين في متصرفية جبل لبنان[10].

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار فقط الهجرة الوافدة السياسية، الناتجة عن النزاعات الطائفية القائمة،

فاننا نجازف حينئذٍ باعتبار بيروت مدينة ذات غالبية مسلمة اجتاحتها فجأة وفود المسيحيين. بل يجدر بالأحرى التحدث عن تركيبة طائفية جديدة حيث يلعب الاحتياط البشري في الجبل دوراً لصالح السكان المسيحيين في بيروت[11]. وليس هذا العامل الوحيد فالاجتياح الذي يجري الحديث عنه، في حال كان صحيحاً، شمل في الوقت نفسه المسيحيين والمسلمين. ثم إن الزيادات الديموغرافية المتصاعدة المتمثلة في نزوح كثيف للمسيحيين كان يقابلها في الوقت نفسه التدفق البطيء ولكنه المستمر للنازحين المسلمين. فالأزمات البلقانية والضغط الذي مارسه السلاف على حدود السلطنة أدى إلى هجرة عدد من العائلات الألبانية كعائلة ارناؤوط أو القوقازية، وكذلك نتجت هجرة المسلمين، التي استمرت عملياً طيلة القرن التاسع عشر عن التطورات الاقتصادية الناشئة في سوريا كلها وأيضاً عن اعادة التنظيم الاداري الذي منح بيروت مكانة مركزية. ويشهد لزيادة السكان المسلمين تضاعف عدد المساجد من ستة في عام 1800 إلى أحد وثلاثين مسجداً في مطلع القرن التاسع عشر. وفي معرض حديثها عن أصولها تؤكد عائلات مسلمة إن استيطانها المدينة يرقى إلى القرن التاسع عشر. وإذا كان انعدام التروما الناتجة عن الرحيل كما هي حال اللاجئين المسيحيين – وهؤلاء الآتين من البلقان – قد أنساهم الحنين لجذورهم، فبامكاننا أن نستنتج إن غالبية هذه العائلات وفدت أيضاً من المناطق الداخلية كما من النواحي الساحلية.

وسمح هذا النزوح البشري المستمر الممتزج بالسكان المسلمين الأصليين في بيروت وبهؤلاء القاطنين في القرى القائمة فوق التلال القريبة والذين استوعبتهم المدينة، بأن ينشأ نوع من التقارب العددي بين الديانتين أدى إلى حال من التوازن الدائم. وعلاوة على ذلك، كان المسلمون في بيروت ينتمون جميعاً إلى الطائفة نفسها؛ إذ كان المسلمون السنة يشكلون الغالبية الساحقة حتى لو كانت هناك بعض العائلات الدرزية التي انضم إليها عدد من أبناء الملة بعد انشاء نظام المتصرفية وحتى ولو بدأ الشيعة يستوطنون المدينة في مطلع القرن التاسع عشر. وبخلاف ذلك كان المسيحيون موزعين على مذاهب عدة. صحيح إن النسبة العددية للمسيحيين والمسلمين تكشف للوهلة الأولى عن تفوق المسيحيين العددي لكن مقاربة طائفية أكثر عمقاً تُبرز الثقل الديموغرافي للطائفة السنية التي تبقى ألأكثر عدداً.

أما الطائفة الارثوذكسية القديمة العهد للغاية فاستطاعت مع ذلك أن تحد من الفارق العددي الذي يفصلها عن السنّة وهذا بفضل هجرة الارثوذكس من دمشق إذ شكلت 23 إلى 29 بالمئة من نسبة السكان ككل وتربعت على الصدارة بين الطوائف المسيحية. ولكن الارثوذكس أنفسهم كانوا على تنافس عددي مع الموارنة الذين بعد أن شكلوا عشر سكان بيروت في الثلاثينات من القرن التاسع عشر، وأقل في السابق، إرتفع عددهم إلى أكثر من الخمس في 1861 والى الربع في نهاية الحقبة العثمانية

عام 1920. هناك طائفتان أخريان احتلتا حيّزاً ديموغرافياً أقلّ عدداً لكنهما على قدر كبير من الأهمية جعلتهما تحتلان مكاناً بارزاً في هذه الجغراسياسة المصغرة وهما: الروم الكاثوليك المعززون أيضاً بالهجرة الوافدة من الداخل السوري وقد منحهم انخراطهم في عالم الأعمال التجارية مركزاً مرموقاً، والدروز الذين يسيطرون على رقعة جغرافية مهمة إلى الجهة الغربية من تلال بيروت. وزادت حفنة من البروتستانت المرتدين حديثاً وبعض الأقليات الأخرى من أرمن وسريان وكاثوليك لاتين من غنى هذه الفسيفساء الطائفية. وكان اليهود الذين يشكلون هم أيضاً أقلية لان عددهم تراوح ما بين واحد وثلاثة بالمئة، يشكلون بوتقة جغرافية واحدة مروراً بحيهم داخل أسوار المدينة وصولاً إلى وادي أبو جميل الذي نما مع انطلاقة المدينة وكان يتضمن بالإضافة إلى الكنيس **مدرسة الأليانس الاسرائيلية** العالمية وأخيراً الأجانب على الرغم من انهم شهدوا تزايداً ملحوظاً منذ الانفتاح التجاري لبيروت، لم يتجاوز عددهم الثلاثة بالمئة أي بنسبة أقل من الاسكندرية أو القاهرة[12].

وبقيت هذه التركيبة المتباينة محكومة مع ذلك بالثقل الديموغرافي للطوائف الثلاث الأساسية. وباختصار، كان عدد السنة يبلغ الثلث تقريباً والأرثوذكس يقاربون هذه النسبة والموارنة بين الخمس أو الربع أي أن موازين القوى بين الطوائف الثلاث شبه متعادلة ولكنّها تحمل في طياتها بذور الشقاق.

حرب الطوائف الباردة

حصلت التغيرات الديموغرافية في ظلّ الأحكام المسبقة القديمة العهد التي واكبت نمو المدينة، مغذّية النزعات الطائفية. وهذه الظاهرة، مع إنها أحدث عهداً مما نعتقد، نُسبت في الغالب إلى الإحساس بالحرمان المتعاظم لدى المسلمين الذين كانوا في السابق جماعة مهيمنة، في مواجهة تأكيد المسيحيين لهويتهم وقد عززها نشوء التنظيمات في ظل الدولة العثمانية والتدخل المستمر للدول العظمى الأوروبية. وكان الحرمان لدى المسلمين حقيقياً فعلاً ولعب دوراً حاسماً في توسيع رقعة المجازر من جبل لبنان إلى دمشق في 1860. ولكن فيما يتعدى أوقات المحن النادرة مع ذلك، كانت الطائفية بوصفها نمطاً للتجييش الاجتماعي ثمرة نضال الأقليات وخاصة حين كانت هذه الأقليات تجهل، عن وعي أو عن غير وعي، لعبة التوازنات المستمرّة عبر الأجيال. وهذه كانت حالة النازحين المسيحيين في بيروت الآتين من الجبل الذين أحدث عددهم المتزايد وسلوكهم تغييراً في العلاقات الاجتماعية. ذلك إن «الخصوصية المتوحشة لابناء الجبال» التي يصفها بروديل Braudel امتزجت بالضغائن الحديثة العهد التي حملها معهم النازحون من قراهم وأورثوها لابنائهم. وهكذا غذوا باستمرار عاملاً داخلياً للانقسام بالرغم من اندماجهم التدريجي ولكن الأكثر بطءاً من الوفود النازحة الأخرى. وفي الواقع لا يمكن إنكار التشنجات الطائفية غداة الحرب الأهلية وتحديداً بعد

وصول اللاجئين من دمشق[13] أو حين إقتيد المسؤولون عن المجازر إلى بيروت ليرسلوا من هناك إلى اسطنبول. وقد حصلت مواجهات لأكثر من مرة محدثة اضطرابات منْتظمة وان كانت مقتصرة على شجارات محدودة الانتشار كما كانت الحال في 1871 و1881 و1888.

لكن المدينة استوعبت أيضاً الانشقاقات، إذ إن التضامن بين الطوائف كان أبعد من أن يؤدي إلى تكتلات متحاربة؛ ففي عام 1860 أحدث وصول اللاجئين إلى بيروت هجرة مؤقتة لأثرياء بيروت المسيحيين باتجاه الاسكندرية أو أزمير أو أثينا[14]. وحين تخفّ حدّة التوتر، كان التضامن الطبقي في الأوساط الأكثر يسراً يأتي ليخفف من تأثير التقوقع الطائفي. وكانت الديناميات المتناقضة في مدينة تزداد تعقداً من الحدة بحيث أن العلاقات بين الطوائف شكلت في نهاية المطاف لوحة شديدة التنّوع وساد الانسجام بشكل شامل بفضل الجهود المشتركة للسلطة العثمانية والقناصل الأوروبين والأوساط التجارية. كما عززت الانطلاقة الاقتصادية ظهور طبقات جديدة تتجاوز الاعتبارات الطائفية إذ عُقدت الروابط بين تجار أو مصرفيين ينتمون إلى أصول دينية مختلفة وظهرت سلوكيات تعايش طوعية استبقت ما يسمى بـ«الحشمة بين الطوائف» التي ميزت لاحقاً فترات السلم الأهلي في لبنان إبان القرن العشرين[15]. وهكذا نجد في لائحة مقدمي الهبات لجمعية المقاصد بعض المسيحيين ومن بينهم أحد السراسقة الذي منذ السنة الأولى لممارسة الجمعية الخيرية الاسلامية لاعمالها قدم هبة كناية عن ثلاثمئة كتاب قواعد[16]. وبالمقابل دعا مطران بيروت للروم الأرثوذكس، حين كان على أهبة السفر أصحاب المقام من طائفته للاحتكام إلى سليم سلام خلال غيابه[17].

لكن هذا لم يُحل دون أن تشكل الحرب الباردة بين الطوائف الشغل الشاغل لأبناء المدينة. ويبدو إنها تفاقمت إلى حد ما في مطلع القرن العشرين لدرجة أن موريس باريس حين كان ماراً ببيروت في 1913 أعرب عن خشيته من عواقب الصدام المذهبي بين أبناء المدينة. وكان العداء الطائفي، ملحوظاً حتى في الأوساط الميسورة، وكان يُفضي لدى عامة الشعب إلى تصفيات حساب وأحياناً إلى اغتيالات. ففي عام 1903 تحول خصام بين مسلمي حي البسطة والروم الارثوذكس في الحي المجاور إلى مواجهات في الشارع سقط فيها عدة أشخاص وكانت نتيجتها هجرة مؤقتة لبضعة آلاف من المسيحيين، وللحال تشكل جيش إرتجالي من أربعة آلاف ماروني مهدّدين بالانقضاض على الأحياء المسلمة في بيروت. وكان هذا شاهداً على مدى الثقة بالنفس التي منحها نظام المتصرفية إلى المسيحيين على اختلاف طوائفهم ونتج عن ذلك أيضاً توتر بين الوالي رشيد بك ومتصرف جبل لبنان مصطفى باشا[18]. ولكن الأزمة لم تتوسع وحُلّت بطريقة سلمية بفضل الجهود التي بذلها الوجهاء المسلمون والأرثوذكس في المدينة لاجراء المصالحة، وأيضاً بفضل الوصول المفاجئ للعمارتين الحربيتين الأميركيتين اللتين أرسلهما على عجل الرئيس تيودور روزفلت Theodore Roosvelt إثر نبأ كاذب

عن اغتيال نائب قنصل الولايات المتحدة[19].

هيبة القبضايات

ولكن، بغض النظر عن إنفلات الأهواء الطائفية هذه، كان الشارع في بيروت يتحوّل تدريجياً إلى ساحة لممارسة شتّى أعمال العنف بحيث بات عبور الشارع محفوفاً بالمخاطر. كما أضحى مسرحاً مميزاً لتقديس الشرف وكان بالتالي مسرحاً للتصرفات الذكورية التي حمّلها تعصرن المدينة بالمعاني، بدل أن يخفف منها. وتحولت المشاجرات إلى أعمال أخذ بالثأر وكانت الهيبة التي تحيط بالقبضايات تجسيداً لثقافة العنف هذه ولاستثماره في امتحان قوى بين الطوائف، وبدا أن هذه الظاهرة نمت على وقع نمو المدينة.

وأشاع القبضايات مبدأ استعمال القوة في الحياة اليومية ونظّموا استعراض الأسلحة ورسخوا في الأذهان الفكرة القائلة بأن أي خصام يحصل بين الأفراد يؤدي إلى تشنّج بإمكانه أن يؤدي إلى مواجهة طائفية. وَسَمَ هؤلاء الأشخاص المتميزون بسلوكهم حقبة من تاريخ المدينة. كانوا يلبسون على طريقة القواصين، حراس القناصلة ويؤدون أحياناً هذه الوظيفة وكانوا يعتنون بشواربهم فيطلقون أطرافها الحادة المسترسلة ويعتمرون طرابيش فوق رؤوسهم، ويرتدون سروالاً فضفاضاً أو قفطانا ويعقدون حول خصورهم جعبة أو جعبتين من الخراطيش ويحملون أسلحة وخناجر وعصا خيزران للدلالة عن قوتهم، أي انهم كانوا يمتلكون كامل العدّة التي يسعى للحصول عليها رجل الشارع. ولكن، خلف المظهر الذكوري المبالغ فيه، كان القبضايات أقرب إلى أن يكونوا نماذج فولكلورية ويجمعون الشر إلى الأريحية التي تحثهم على الدفاع عن الأرملة واليتيم، شرط أن ينتميا للطائفة نفسها. كانوا محاطين بالزمر ويمارسون نفوذاً على الشارع.

لا شك إن الظاهرة مندرجة في التقليد العربي «للأحداث» و«العيارين» الذين كانوا يشكلون ميليشيات تعمل خارج إطار القوى النظامية ويمارسون نفوذهم على الرعاع في المدينة العربية[20]. عندما كانت بيروت ناحية صغيرة لم تكن مساحتها (بضعة هكتارات) ولا ثرواتها تسمح بمثل هذه الممارسات. ولكن مع تطور المرفأ وقطاعات النشاط التي يتطلبها (من عمال وحمالين ووسطاء، الخ)، وتدفق البضائع المهربة عبر الحاجز الاداري لجبل لبنان، كان التعصرن يفتح للإقتصاد غير المشروع آفاقاً واعدة. وأدت زيادة عدد موظفي القنصليات إلى خلق فرص عمل لهؤلاء الذين يمارسون العنف فاستخدم عدة قبضايات كحراس للقناصلة كسعيد سنونو من حي البسطة في قنصلية فرنسا أو محمد العانوتي من المصيطبة في قنصلية بريطانيا العظمى[21] وبفضل ذلك، تمتّع القبضايات بشيء من الحصانة مكّنتهم من تحسين أوضاعهم المادية. لكن الفارق بينهم وبين أمثالهم من الزمر المنتشرة في دمشق أو

حلب كان كبيراً ولم يقتصر فقط على المال السياسي. فقبضايات بيروت المعاصرون كانوا يتميزون أيضاً وخصوصاً بانخراطهم في المشاحنات الطائفية. وهذه دلالة على انقلاب سياسي لا سابقة له، فبيروت هي المدينة الوحيدة في الشرق – أو ربّما الأولى التي يوجد فيها زعماء شوارع مسيحيون، على غرار اسطة بولي ورؤساء عصابة آخرين.

وفي هذا الميدان بالذات كان التماسك الطائفي يتقاطع مع المصالح الطبقية. فحركة تهريب البضائع الناشطة والتجارة غير المشروعة للمهاجرين عبر الحدود الإدارية التي تفصل بيروت عن الجبل، شجعت على قيام تحالفات جانبية بين أفراد هدفهم إثبات وجودهم وتعزيز نفوذهم كما تفعل أي عصابة من الأشرار، وفي ظلّ هذا الواقع كرّس القبضايات فصل الأحياء الطائفية بعضها عن بعض[22]. وهذا الفرز المناطقي الذي أدّى إلى العداء بين الطوائف كان أمراً مسهلاً سيما أن ظاهرة القبضايات، وهي أبعد من أن تقتصر على الطبقة الاجتماعية الدنيا، بدأت تندرج في نظام من الزبائنية تحرص على استمراره السلطة العثمانية بشكل مباشر والوجهاء بشكل غير مباشر[23]. كان القبضاي سيد الشارع وزبون الزعيم الذي يستطيع أن يحرّك لعبة الحمايات السياسية في حال استلزم الأمر ذلك. بيد انه إذا كان بإمكان الوجهاء إنشاء علاقات شراكة أو صداقة مع أبناء الطوائف الأخرى فإن هذه العلاقات كانت تتجه بشكل متزايد الى الانغلاق.

وزن جبل لبنان

وزاد من حدة الخصومات الطائفية الثقل المتعاظم الذي مارسته ولاية الجبل المتمتعة باستقلال ذاتي وحيث التدخل المستمر – والقانوني – للقناصلة والدور السياسي الذي تلعبه الكنيسة المارونية كانا يجسدان الانقلاب في موازين القوى الدهرية[24]. وكان هذا الانقلاب الذي لا يُقاوم من الشدة بحيث أن أصواتاً ارتفعت في إطار المتصرفية تطالب بالحاق بيروت بالجبل، فيما أضحت بيروت آنذاك عاصمة لولاية مترامية الأطراف. كانت هذه المطالبة، التي كانت تضحي أو لا تقيم وزناً بالتركيبة الطائفية للمدينة، تحدياً بحد ذاتها، تحدياً للسكان المسلمين ولسلطة الباب العالي في آن، حتى لو كان صحيحاً إن الفكرة نشأت غداة إعلان نظام المتصرفية وبتأثير من الحاكم العثماني نفسه داوود باشا[25]. عادت الفكرة لتطرح مراراً على بساط البحث ممهّدة لاتساع مساحة الدولة اللبنانية عشية الحرب العالمية الكبرى[26]. وفي الوقت نفسه ظهر ميل آخر يطمح إلى الالتفاف على بيروت والى جعل جونيه البوابة المرفئية لجبل لبنان. وبالرغم من الأرباح التي تدرّها مصلحة الجمارك في بيروت على مالية الامبراطورية، فإن مشروع إقامة مرفأ «لبناني» باتت مطروحة بالحاح منذ مطلع القرن العشرين حتى عهد المتصرف مظفر باشا. وبحجّة أن المسافرين الذين أصلهم من الجبل كانوا يتعرضون للاستغلال

المنهجي لا بل يساء معاملتهم على أرصفة مرفأ بيروت على يد شبكة من الوسطاء والسماسرة النافذين، سمح مظفر باشا عام 1903 بإنشاء خط للسفن التجارية البريطانية لترسو في مرفأ جونيه رغم افتقاره للتجهيزات، ثم أقام إتصالات أخرى في الاتجاه ذاته مع إحدى الشركات البحرية الفرنسية. ولكن الباب العالي تخوف من الأمر خاصة ازاء النفوذ الذي تتمتع به الشركات الفرنسية المهيمنة في شركة مرفأ بيروت، لكن سرعان ما صرف النظر عن هذا القرار[27]. ثم عادت لتطرح مرة أخرى على بساط البحث إثر ثورة 1908، وأخيراً إبّان ازمة 1912، فوافقت اسطنبول على إنشاء مرفأ في جونيه وآخر في النبي يونس [الجية] على ساحل الشوف، بناء على توصيات رفعها تجار دير القمر إلى الباب العالي[28]. لكن انطلاقة الحرب العالمية الكبرى أرجأت هذه المشاريع.

واستقطبت قضايا أخرى التنافس الذي حاولت بعض نخب الجبل أن تواجه به بيروت، فأنشئ «بنك لبنان» في باريس عام 1913، برصيد يبلغ أربعة ملايين فرنك فرنسي، لكنه أثار حفيظة المستثمرين الفرنسيين وتجار بيروت وهذه كانت أيضاً حالة المشروع المتعلق بشركة الترام اللبنانية التي أريد لها أن تصل صيدا ببيروت وأغفل أصحاب المشروع أن يطلبوا من اسطنبول السماح لهم بالمرور عبر بيروت. وهذا «الإغفال» الذي يبدو أن حافزه رهان سياسي وليس منطقاً اقتصادياً بحتاً أدى في النهاية إلى إفلاس الشركة وإحداث قطيعة بينها وبين التجار[29]. أضف إلى ذلك أن الاقتطاع من مداخيل ولاية بيروت لتمويل المتصرفية لم تساعد في تخفيف الخلافات الناجمة عن الظهور المتزامن لكيانين سياسين وإداريين مستقلين.

ومنذ ذلك الحين، تغيرت نوعية العلاقات التي تربط المدينة بالجبل القريب منها. فإنشاء نظام المتصرفية، بحدوده الإدارية - والضرائبية - المعروفة جيداً كرّس القطيعة بين المدينة والجبل وغذى قيام حركة ناشطة لتهريب البضائع ادت إلى انتعاش فئة من الطبقة الدنيا تعمل لمصلحة شبكات القبضايات. وبالطبع، لم يكن هذا الفصل بين المدينة والجبل يعرقل تحرّك الأشخاص، والدليل على ذلك التدفق المستمر للنازحين وأيضاً، في الاتجاه المعاكس، الحركة الموسمية لسكان المدينة باتجاه المصايف الجديدة. وبدأ الجبل، وهو ملجأ سكان المدن عادة أبان انتشار الأوبئة حيث يقصدونه لمناخه الصحي، يتحوّل إلى منتجع سياحي لابناء بيروت في أيام الصيف. وكان معظم البيروتيين يمضون فصل الصيف في قرى الاصطياف الجبلية واقتنى بعضهم مساكن لهم على سفوح الجبال المتوسطة الارتفاع بين بيروت ومدن الجبل.

وهذه العلاقات الطبيعية من حسن الجوار لم تلغ الخصوصيات والخلافات. كان الكثير من النازحين يفضلون إبقاء سجلات نفوسهم في الجبل. وهكذا كانت قوائم مطرانية الروم الارثوذكس التي تحدّد الضرائب المفروضة على رعايا الامبراطورية، تصنّف الجبليين مع الأجانب[30]. وبما أن الجبليين نقلوا

إلى المدينة أفكارهم وآراءهم بالوجود، أخذت تسود في الجبل ايديولوجيا أكثر فأكثر كيانية. سيما إنها تستطيع الآن الاحتكام إلى بنية دولة أولية، فيما المدينة، الملتفتة صوب المتوسط والداخل السوري في آن كانت تظهر إقبالاً على التغيير ومقاومة لهذا التغيير في آن، وهذه الازدواجية في الموقف تنطبق على الولايات العربية في الامبراطورية، وخلّفت وراءها آثاراً تحكمت لاحقاً بقيام الدولة اللبنانية العتيدة، وتجسّدت في المدى المباشر من خلال احتداد التشنجات الطائفية في بيروت كلما لاح في الأفق حلّ قريب للمسألة الشرقية، حتى حققت فكرة القومية العربية تقدماً وأفضت إلى انسجام ظاهري بين النخب.

بين المواطنية والقومية

إن انهيار الامبراطورية العثمانية الوشيك كان عاملاً أساسياً في احتدام الخصومات الطائفية. ليس لأن السلطة العثمانية تضاءل نفوذها هي نفسها في ولاية بيروت، وخاصة في ظل حكم عبد الحميد الثاني. بل لأن أصداء الأزمات التي عصفت بالمقاطعات البلقانية واحتداد المنافسة بين الدول الامبريالية التي جرى التشديد عليها إبان مؤتمر برلين ثم إثر حادثة «فاشودا» Fachoda، زادت من المخاوف والتوقعات. وبالرغم من القمع الذي مارسته الشرطة الحميدية بعد ثورة 1908 واشتداد عود حركة تركيا الفتاة، اشتعلت حمية المطالبين بالحكم الذاتي والنزعات الاستقلالية، لكن من دون أن يصل بهم الأمر إلى حدّ إتهام السلطة العثمانية بأنها المستهدفة.

إن تباشير الوعي القومي العربي تجلت في بيروت عملياً حين كانت فكرة القومية العثمانية وهي ثمرة التنظيمات، تأخذ طريقها إلى الوجود. وخلال فترة زمنية امتدت على ثلاثة أرباع القرن، كان التأرجح بين القوميتين يوقع الناس في حيرة قاتلة. وحتى اندلاع الحرب العالمية الكبرى، كان دعاة الوعي القومي العربي ودعاة المواطنية العثمانية الجديدة يتعايشان معاً ويغذي أحدهما الآخر، وكان من الصعوبة بمكان تحديد غالبية الأطراف التي كانت تعارض النظام القائم سواء في بيروت أم في المدن الأخرى.

ووصلت المعارضة إلى ذروتها في 1880 أو في 1881 مع «قضية المناشير» الشهيرة، وبكلام آخر الدعوات القومية الملصقة على جدران بيروت ودمشق. وأول منشور ألصق في حزيران/ يونيو 1880 كان يتوجه إلى «أبناء سوريا» لكي ينهضوا من حالة السبات الطويلة التي غرقوا فيها وجعلت الأتراك يستعبدونهم. واختتم المنشور ببيت شعر لابراهيم اليازجي وفيه توجه قومي صريح:

تنبهوا واستفيقوا أيها العربُ　　　فقد طمى الخطب حتى غاصت الركبُ

وبعد ستة أشهر عُلّق مُلصق آخر على الجدران يتوجه إلى «أبناء الوطن» وكان يبشّر بنضال شاق

ستخوضه حركة المعارضة. ثم ظهر ملصق ثالث في حزيران 1881 وكان يطالب صراحة بالاستقلال الذي يجب تقاسمه مع «اخوتنا اللبنانيين» وأعلن جملة مطالب واضحة وأقل تطرفاً، وهي إعلان اللغة العربية لغة رسمية للبلاد وإقرار اللامركزية وحصر مهمة المجندين ضمن حدود الولايات العربية[31].

أحدثت قضية المناشير هذه التي تزامنت مع الأزمة البلقانية وفي إطار الحكم الحميدي المطلق بلبلة في السفارات وراح القناصلة يتحدثون عنها في تقاريرهم. فأثارت ضجة في السفارات؛ كان اللغزُ الذي يحيط بكاتبي هذه المناشير لا يني يثير الفضول. وثمة لغز حير لوقت طويل مؤرخي تلك الفترة الذين قدموا طروحات مختلفة ومن بينها الطرح السائد اليوم الذي ينسب مسؤولية هذه المناشير إلى أعضاء جمعية المقاصد الاسلامية الذين شجعهم ربما مدحت باشا وأعطاهم الأمان بصفته حاكماً على سوريا آنذاك. كان الصدر الأعظم السابق المعتبر أباً للدستور العثماني قد أُبعد من العاصمة اسطنبول بعد أن وجه السلطان عبد الحميد ضربة قوية للحركات الاصلاحية عام 1878. ومن جديد نُفي مدحت باشا بعد مروره في دمشق وهذه المرّة بشكل جدي مما يُثبت إن الحكم الحميدي لم يكن يحتمل التراخي ازاء تبلور الهوية السياسية العربية. وبعدما طُرد مدحت باشا حظّرت السلطات نشاط جمعية المقاصد السياسي وأبقت فقط على نشاطها التربوي. ولم يُسمح للجمعية باستعادة نشاطها إلاّ في 1907 بإذن من والي بيروت ولم تستعد نظامها القانوني إلاّ بعد صدور الدستور العثماني عام 1908[32]. ولم تكن قضية المناشير غريبة عن القرار الذي اتخذ بعد بضع سنوات والذي يقضي بتقسيم ولاية سورية من جديد واستحداث ولاية بيروت.

إن مثل هذا التحدي لم يتكرر قبل انقضاء زمن طويل، فالشرطة السرية لعبد الحميد كانت موجودة في كل مكان لدرجة إن غالبية المثقفين والمناضلين الذين كانوا يطمحون إلى التغيير لجأوا إلى المنفى، ولكن لا يمكن القول إن القمع وحده كان سيد الموقف. فاستمرار الامبراطورية التي فقدت آنفاً الكثير من تنوعها الأثني وعدداً من أراضيها في آن جعل الناس يراهنون على الكتلة العربية التي باتت تشكل نصف سكان الامبراطورية. وتزامناً مع المبدأ القائل بوحدة الشعوب الاسلامية المتجسِّد في مشروع إنشاء سكة حديد الحجاز، فقد طوّر السلطان الخليفة «سياسة عربية» مرتكزة على التعاون الوثيق بين السلطنة والمدن العربية مثل بيروت ودمشق وسعى لان يتحالف مع الوجهاء المحليين المسلمين والمسيحيين لا بل استدعى بعضهم ليكونوا في عداد حكومته. والمثال على ذلك الأخوان سليم ونجيب ملحمة وهما ينتميان إلى عائلة مارونية في بيروت وقد انخرطا في عمليات استثمار واسعة النطاق. وقبل أن يصير نجيب ملحمة وزيراً كان رئيس الشرطة السرية المرعبة زمن عبد الحميد[33]. وفي الاتجاه الآخر، كان الخطر الأجنبي يعمّق التضامن العربي العثماني وبشكل خاص في أوساط

النخب المسلمة حتى ولو كان خنق الحريات يثير شعوراً دائماً بعدم الرضى.

وفي جميع الأحوال، كان الحكم الحميدي بالنسبة إلى مثقفي بيروت مرحلة مظلمة وخصوصاً بعد 1881. فإذا وضعنا التربية على حدة، نجد إن الغليان الفكري الذي ميّز بدايات النهضة قد أخمد بسبب نفي عدد كبير من المتعلمين والمناضلين الذي اختاروا المنفى قاصدين وجهتين القاهرة وباريس. ففي مصر التي لم تكن إلاّ صورياً تحت السلطة العثمانية، كان الأسياد الانكليز الجدد سعيدين جداً بعد 1882 بأن يستقبلوا الصحافيين والناشطين السوريين المناوئين لحكم عبد الحميد الاستبدادي، على أمل أن يقيموا بفضلهم توازناً مع المثقفين الذين تجتذبهم فرنسا وتدعمهم ولم يكونوا قلة. على أية حال لقد ولى العهد حين كانت بيروت أيام البساتنة واليازجي والرواد الآخرين تملي على النهضة توجهاتها الكبرى. فالابداع الفكري في جوهره كان يُصنع آنذاك في مكان آخر. وهذا ينطبق أيضاً على حركة الاصلاح المسلمة المتجسدة في باريس في نهاية القرن التاسع عشر مع جمال الدين الافغاني وفي القاهرة مع محمد عبده؛ أو على الكتابات الأولى التي تناولت مسألة العروبة السياسية الصادرة في بداية القرن العشرين ككتابي «أم القرى» و«طبائع الاستبداد» للأديب الحلبي عبد الرحمن الحلبي الكواكبي و«يقظة الأمة العربية» للبناني نجيب عازوري الصادر في باريس عام 1905. لا شك إن الصلة التي يقيمها الكواكبي بين الاصلاح الاسلامي والعروبة تنطلق من فكرة أثارها في بيروت المسيحي ابراهيم اليازجي والقائلة إن الاسلام تراجع عندما خسر العرب قيادته. في غضون ذلك ظهرت نزعة استقلالية مختلفة في جبل لبنان أو على وجه أدق بين أوساط النخب اللبنانية التي نُفيت إلى باريس وأول صيغة لها كانت «مسألة لبنان» (لبولس نجيم) التي تربط استقلال لبنان الموسع باستقلال سوريا[34]. ولكن هذه النزعات الاستقلالية لم يجرِ تداولها في بيروت، هذا في حال وصولها إلى المدينة، إلاّ في إطار السرية. وعلاوة على ذلك لم يؤدِ القمع الذي مارسته السلطات الأمنية الى تحسين العلاقة مع العثمانيين بل ظلّت موضع شك وريبة بسبب المخاطر الأجنبية التي استشعرت بها خصوصاً النخب المسلمة مما أضعف إلى حدٍّ بعيد من نمو الشعور القومي. واستمر التضامن العثماني بعد رحيل عبد الحميد على الأقل لدى العرب. وعندما أعادت ثورة تركيا الفتاة الدستور، كان همها محصوراً بالاصلاح الداخلي فطرحته على بساط البحث. وكان انفتاح الأفق السياسي يشجع على الاعتدال. ولكن فكرة القومية العثمانية لم تُطرح على بساط البحث. وقد أثار الحاق البوسنة والهرسك بالنمسا تعبئة حاشدة في بيروت[35] فانطلقت مظاهرة للمثقفين في ساحة البرج. وعاودت الطروحات التي تضمنتها مناشير 1880–1881 طريقها إلى الظهور بعد سبع عشرة سنة، لكنها حملت في طياتها التأرجح نفسه بين القومية العثمانية والقومية العربية.

وما إن انتشرت أخبار ما يجري في اسطنبول حتى طال الحبور الذي شهدته العاصمة العثمانية الولايات العربية. وأثارت الحرية المستعادة ولكن أيضاً الأمل برؤية الدولة تحقق الاصلاح كما يجب وتبدد الأخطار المحدقة بها من الخارج، غلياناً سياسياً أزاح معه حقبة مظلمة استمرت ثلاثة عقود من الحكم الاستبدادي المطلق. وأبصرت صحف جديدة النور وانشئت الأحزاب وفي الواقع، إنّ الاجراءات الليبرالية الأولى التي اتخذتها الحكومة الجديدة وجدت طريقها إلى التنفيذ وخاصة القانون الخاص بحرية الصحافة وبإنشاء الأحزاب والجمعيات*. وبين عام 1908 و 1914، أبصرت حوالي ستين نشرة إعلامية النور في بيروت فقط[36]. وسرعان ما بدت الثورة الدستورية مصدراً لسوء تفاهم متنام بين العرب والأتراك ضاعفت في حدّته خسارة الأتراك آخر الولايات البلقانية عام 1912 بحيث دخلوا في مواجهة مكشوفة مع امبراطورية مزدوجة القومية. في تلك الأثناء وجدت النخب العربية في نهاية عهد الاستبداد الحميدي فرصة للتعبير عن طموحات القومية وللحصول على مشاركة أكبر في تسيير شؤون الدولة، لكنّ نجم قومية أخرى تركية بالذات، متشددة فوق ذلك، بدأ يلوح في الأفق على يد جماعة الاتحاد والترقي وهي الجناح المتشدد لحركة تركيا الفتاة.

وأمام هذه «الاتحادية»، لم تكن ردة فعل العرب جذرية للوهلة الأولى. كانت هناك شخصيات عربية مسلمة، وأيضاً مسيحية، تشكل جزءاً من جمعية الاتحاد والترقي أمثال سليمان البستاني، نائب بيروت سابقاً ووزير للزراعة عام 1914[37]. صحيح أن النزعة الاستقلالية العربية نشأت في أوساط المنفيين، لكن المنظمات العربية السرية أو شبه السرية آنذاك استمرت في تأرجحها، إبتداءً من باريس مروراً بالقاهرة واسطنبول وصولاً إلى دمشق، بين الاستقلال الكلي والاستقلال الذاتي. والمنظمة الأشهر أي **العربية الفتاة** التي انشئت في باريس عام 1916 قبل أن تنتقل في السنة اللاحقة إلى دمشق، اجتذبت عدة شباب ناشطين في بيروت ومن بينهم عبد الغني العريسي، المحرّر الشاب من صحيفة المفيد[38]. وفي غضون ذلك، جعلت جريدة المنار لصاحبها رشيد رضى الصادرة في القاهرة من نفسها منصة للمعارضة ضد الوحدويين وأفاد حزب اللامركزية الإدارية، الذي كان يضم مثقفين في صفوفه، من الجهود التي بذلها الخديوي عباس حلمي وبريطانيا العظمى ليغذي فكرة الحاق سوريا بمصر في ظل نظام حماية بريطاني. ولكن فكرة الانشقاق عن العرب العثمانيين لم تُعلن عملياً على الملأ، أو على الأقل لم تكن بطريقة جماعية. وبقي السجال السياسي محكوماً بمبدأ اللامركزية الذي تشكلت حوله في نهاية 1912، بداية 1913 حركة الاصلاح البيروتية وأشخاصها البارزون سليم سلام وأحمد مختار بيهم. ولم يذهب أول مؤتمر عربي عقد في باريس في حزيران/ يونيو 1913 أبعد من ذلك بالرغم من سرعة انهيار الامبراطورية العثمانية أو ربما بسببه.

* والمعمول به في لبنان منذ مطلع القرن العشرين.

من بيروت إلى باريس ذهاباً وإياباً

إن المقاطعات التي ظلت تحت الحكم العثماني دخلت في أزمة جديدة متشعبة الوجوه وهي الأخيرة قبل أن تتقاسم الدول الأوروبية ميراث «الرجل المريض».

خلال العام 1912. لم يستطع تشدد الحكومة الوحدوية التي سمّمت العلاقات بين الأتراك والعرب أن يدفع أو يتجنب الأخطار المحدقة من كل صوب: وفيما كانت الحملة الايطالية على ليبيا قد حرمت الامبراطورية من آخر معقل لها في افريقيا، فان الحرب المندلعة في البلقان جعلت أراضيها الأوروبية، المقضومة أصلاً بسبب الأزمة التي نشأت في 1876–1878، أشبه بجلد يتقلص. وبالرغم من البعد الجغرافي، كانت هذه الأخطار ملموسة مباشرة في الولايات العربية. وبعد أن وسّعت قوات



بطاقة سليم سلام بك عضو مجلس المبعوثان العثماني عام 1914.

البحرية الايطالية من ميدان عملياتها في المتوسط الشرقي، هاجمت عدة مرافئ عثمانية وخاصة بيروت التي كانت هدفاً لقصف عنيف في 24 شباط/ فبراير 1912 خلّف وراءه دماراً شاملاً ينذر بنهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة. وفي الواقع أدى استمرار القصف الايطالي وحرب البلقان إلى سريان شائعات كثيرة تحدثت عن امكانية تدخل عسكري وشيك لفرنسا هدفه فرض نظام الحماية على سوريا.

وتخطى مشروع نظام الحماية الفرنسي فعلاً حاجزاً كبيراً عندما أعلمت لندن، عبر مراسلة جرت بين ادوار غراي وبول كامبون، بأن لا مطامح ولا نوايا لها بالتحرك في سوريا وان فرنسا طليقة اليدين هناك. ودافعت عن فكرة نظام الحماية لجنة آسيا الفرنسية التي كان يحييها روبير دوكي، وأيدها أيضاً عدد من المنفيين المسيحيين. وفي بيروت نفسها أغرت الفكرة بعض الوجهاء المسيحيين كذلك. واحدهم نخلة تويني الذي قام بمسعى لاحلال نظام الوصاية الفرنسية لدى قنصلية فرنسا – وكان هو نفسه ترجماناً فيها ويتمتع بحماية خاصة. لا بل أعلم بذلك سليم سلام وكان آنذاك الرجل الأبرز في الطائفة المسلمة. ولكن سليم سلام، كما غالبية أبناء طائفته آثر البقاء وفياً للسلطنة. ولم يلبث أن عبّر، خلال زيارة للقاهرة، عن تحفظه أمام الخديوي حيال فكرة الانضمام إلى مصر. وذلك على أثر انهيار الحكومة الاتحادية في تموز/ يوليو في خضم حرب البلقان واستبدالها بحكومة ليبرالية. وهكذا، عندما أخبر تويني سلام عن مسعاه لدى القنصل كوجيه Couget، تخوّف سلام من هذا المسعى لكنه حرص على عدم توريط تويني مباشرة وأبلغ والي بيروت أدهم بك بما سمعه ملمحاً إلى ضرورة استباق الأمور.

ومنذ انقلاب الحكومة الوحدوية، لم يعد هناك من مجال للرد على مثل هذه التحديات من خلال إجراءات نافذة. وبالتزامن مع قيام الحكومة الليبرالية التي عينته، كان أدهم بك ميالاً للحلول السياسية التي تأخذ بعين الاعتبار تطلعات السكان العرب. وعلى أية حال، كانت الحكومة أوصته بأن يحمل مجلس الولاية على اعتماد برنامج الاصلاحات المطلوبة. ولكن الأوساط الأكثر تقرباً من الليبراليين فضلت اعتماد مسعى أكثر تمثيلاً لآمال الناس، كما أكدّ على ذلك سليم سلام وحليفه أحمد مختار بيهم، في حوار جرى مع الوالي. وهكذا ولدت فكرة جمعية عامة للاصلاح أو جمعية إصلاحية طالبت بخطة عمل تتمحور حول اللامركزية واللجوء إلى مستشارين أوروبيين في كل مقاطعة[39] وقد سبق لسلام أن أعلن نفسه محامياً عنها في مقال صدر في «الاعتماد العثماني» في السنة الفائتة[40]. ولكي يحصل حول هذا المشروع اجماع واسع النطاق، طلب من مختلف مجالس الملة بأن يعين كل منها ممثلي طائفته. وكان منتظراً أن يجتمع اثنان وأربعون مسلماً واثنان وأربعون غير مسلم موزعين بين ستة عشر من الأرثوذكس وعشرة موارنة وستة من الروم الكاثوليك واثنين بروتستانت واثنين من السريان واثنين من اللاتين واثنين من الأرمن الارثوذكس واثنين من الاسرائيليين[41].

فأرسيت قواعد الاصلاح في 12 كانون الثاني/ يناير عام 1913 في مبنى البلدية بحضور خمسة وستين موفداً من أصل الأربعة والثمانين المعنيين. واعتبر هذا الاجتماع الأول تأسيساً لـ«جمعية الاصلاح العام في ولاية بيروت» التي اتخذت لنفسها مديرين هما المسلم سليم سلام والارثوذكسي بترو طراد فيما عُين الماروني أيوب تابت أميناً للسرّ واختارت الجمعية لصياغة برنامجها لجنة تنفيذية مؤلفة من ستة وعشرين عضواً (13 مسلماً و12 مسيحياً ويهودي). وأدى هذا التعادل بين المسلمين والآخرين إلى حملة مناهضة للجمعية أطلقها بعض الوجهاء ذوي النفوذ الأقل تأثيراً والمعروف عنهم قربهم من المجموعات الوحدوية.

وانكبت اللجنة سريعاً على العمل فصاغت بياناً مكتملاً جداً يحدّد بتفاصيل دقيقة عمل السلطات المحلية في إطار اللامركزية ويوضح دور المستشارين والمفتشين الأوروبيين[42]. ويمكن الاستخلاص من التصريحات السابقة، من دون أن يكون هذا واضحاً في المشروع نفسه، بأن هؤلاء الأوروبيين سيكونون من رعايا الدول الناشئة. وبموازاة ذلك، صاغ مجلس الولاية الذي استدعاه الوالي تماثلاً مع تعليمات اسطنبول، مشروعه بالذات. لكن المصلحين اعتبروا هذا النص غير كافٍ فجرى تعديله في الأيام اللاحقة لكي ينسجم مع النص الذي صاغته الجمعية الاصلاحية. لكن الانقلاب الذي أرجع الوحدويين إلى الحكم أعاق الأمور مجدداً. فاستدعي الوالي الليبرالي أدهم بك وخلفه في المنصب أبو بكر حازم بك.

وما كان من الناشطين في الجمعية الاصلاحية البيروتية إلاّ أن يختاروا المواجهة من خلال إرسالهم برقية يوضحون فيها تشبثهم بالشرعية والتزامهم بالسير في ركاب التغيير. وتجسد هذا التحدي إبان وصول حازم بك إلى بيروت في 7 آذار/ مارس. وخلافاً للتقليد المعهود، لم يكن هناك أي وجيه في استقباله على المرفأ. لكن الوالي لم يصب للوهلة الأولى بالاحباط، أو، أنه على أية حال، لم يُرد إظهار امتعاضه. وخلال أول لقاء جمعه بأعيان المجتمع بعد انقضاء خمسة أيام على تسلمه الولاية، بدا متفهماً لكنه ما لبث أن أظهر موقفاً متطلباً. وكان رد الاصلاحيين عبر سلام الذي رفض أن يعينه الوالي في مجلس الولاية في 17 آذار / مارس فيما جرت مقاطعة انتخابات فرعية تهدف إلى ملء مقعدين فارغين في المجلس البلدي. ومع ذلك أرسل الحاكم إلى اسطنبول في 24 آذار/ مارس مشروع الاصلاح الذي اعتمده مجلس الولاية مرفقاً بالتعديلات التي أضيفت إليه، ولكن الاعلان عن حلّ الجمعية الإصلاحية جرى في 8 نيسان / ابريل واتخذ أيضاً القرار بإغلاق نادي الاصلاح الذي افتتحته الجمعية في حي باب ادريس في الشهر السابق. وفي الوقت نفسه، تمت تعبئة المندوبين المحليين لجمعية الاتحاد والترقي لمناهضة مناصري الاصلاح، ومن بينهم القبضاي عبيدو انكدار وهو تاجر أسلحة ومهرّب بضائع حكم عليه غيابياً بالسجن قبل أشهر لمدة أربع سنوات وحُرم من حقوقه المدنية، ولكن الحكومة

شاءت أن تتجاهل قضيته عمداً[43].

وبالرغم من إغلاق نادي الاصلاح، لم تستسلم الجمعية الاصلاحية. ففي 11 ابريل/ نيسان، أقامت الجمعية الاصلاحية اجتماعاً في «كامبوس» الكلية السورية الانجيلية ودعت إلى إضراب عام. وكانت ردة فعل الوالي بأن أوقف ستة من أعيان المدينة ومن بينهم عضوان من الجمعية ثم ثلاثة صحافيين رؤساء تحرير صحف محلية وتمت مصادرة جريدة **الاتحاد العثماني** وجريدة **المفيد** وهي الناطقة بلسان العربية الفتاة[44]. وفي غضون ذلك، أدّى الاضراب الذي دعا إليه الاصلاحيون، بالرغم من محاولات الجنود، إلى إقفال المحال التجارية. وأخيراً أعلنت اسطنبول موافقتها على القيام بتسوية تهدف إلى تحرير الموقوفين مقابل تعليق الإضراب فعلق في 14 ابريل ولم تفتح المحال التجارية إلاّ في اليوم التالي. واستوجب الأمر أيضاً أن يتدخل المسؤولون الكبار في حركة الاصلاح ميدانياً ليحثوا السكان على معاودة أعمالهم[45].

وأحيط هذا التصعيد في المواقف باهتمام سياسي كبير. واستطاع البريطانيون أن يراهنوا على الجهود التي بذلها حزب اللامركزية الاداري الذي تأسس في مصر، للتحالف مع إصلاحيي بيروت. وقد جاء عبد الكريم الخليل من القاهرة يقترح التنسيق بين الحركتين محاولاً اقناع سليم سلام بفضائل الحاق سوريا بمصر في ظل نظام الحماية البريطاني. وإن كان من غير الثابت إن الخليل يعمل عن قصد لمصلحة بريطانيا، فمن الواضح مع ذلك إن السياسة البريطانية سعت لبسط حمايتها على المعارضين. وبعد أن حلّت رسمياً الجمعية الاصلاحية نصح قنصل بريطانيا ناشطي الجمعية بالاجتماع في كامبوس الكلية الأميركية وهي مقاطعة محمية، وهو يتكفل بإعادة السماح للجمعية بممارسة نشاطها وكان الفرنسيون قد أعدوا العدّة لمواجهة الأمور المستجدة. وكان بامكانهم الاعتماد على الدعم المباشر، وان غير المعلن، لقسم كبير من أعضاء الجمعية المسيحيين. وقد قام بعضهم بمسعى لدى القنصل كوجي[46]. لكن وجب عليهم أيضاً أن يأخذوا بعين الاعتبار الرفض المطلق الذي يبديه شركاؤهم المسلمون حيال كل وصاية فرنسية، ويمكن التثبت من ذلك من خلال الكلام المتحفظ الذي أجراه القنصل كوجي للإصلاحيين وخاصة سلام[47]. ولكن هذا لم يحل دون قبول سليم سلام الدعوة لحضور أول مؤتمر عربي في باريس بعد بضعة أسابيع.

وبعد هذه الدعوة الشاملة، عقد مؤتمر باريس الذي ضمّ مناضلين من سوريا بشكل شبه حصري. وما خلا حضور ممثلين عن بلاد ما بين النهرين، ضمّ المؤتمر ثلاث مجموعات سورية كبيرة: جماعة المنفيين في فرنسا وغالبيتهم مسيحيون من جبل لبنان، وجماعة المنفيين في مصر المنتمين إلى حزب اللامركزية الاداري ووفد بيروت المؤلف من أعضاء الجمعية الاصلاحية. وكانت الجمعية الاصلاحية من وجوه عديدة القوة المحركة للمؤتمر الذي تبنت مقرراته وتوصياته الأخيرة المشروع البيروتي للجمعية.

كان عدد الذين مثلوا بيروت ستة، ثلاثة مسلمين سلام وأحمد مختار بيهم وأحمد طبارة صاحب جريدة الاتحاد العثماني، وثلاثة مسيحيين الأرثوذكسي الفرد سرسق والروم الكاثوليك خليل زينية والماروني أيوب ثابت. وصل الوفد الذي انطلق في 26 أيار / مايو إلى باريس في 3 حزيران/ يونيو، أي قبل الموعد المحدّد بشهر تقريباً ليتسنى للوفد المساهمة في التحضير للمؤتمر الذي افتتح أعماله رسمياً في 18 حزيران برئاسة عبد الحميد زهراوي الذي عينته اللجنة المركزية نائباً عن حماه في وقت سابق. أما سليم سلام فمثل وفد بيروت. وفي مدة خمسة أيام، تبنّى المؤتمر في 23 حزيران توصيات ذهبت في اتجاه استمرار العلاقة مع السلطة العثمانية مؤثراً استعمال كلمة استقلال ذاتي مكان استقلال كلي. وتم إبلاغ هذا الموقف في 30 حزيران/ يونيو إلى الحكومتين الفرنسية والعثمانية من خلال وفد غالبيته من البيروتيين.

توجه الوفد برعاية زهراوي يضم أربعة ممثلين عن بيروت، سلام بيهم، طبارة وزينية ومنفيين من جبل لبنان اسكندر عمون والأديب شكري غانم للقاء ستيفان بيشون، وزير الخارجية ليشكره على الضيافة الفرنسية وإعلامه رغبة المؤتمرين في الاحتفاظ بعلاقة وثيقة مع العثمانيين. والتقى الوفد نفسه فيما بعد السفير العثماني، بحضور مستشار السفارة الفرد سرسق الذي كان هو نفسه بيروتياً، تمهيداً لزيارة اسطنبول. لكن قبل مغادرة باريس، أوكلت إلى وفد جديد مهمة إبلاغ موقف المؤتمر مجدداً إلى وزارة الخارجية. وهذه المرة تألف الوفد فقط من البيروتيين سلام وبيهم وثابت وزينية. ولم يمنع ذلك حدوث خلافات بين أعضاء الوفد ومدير الشؤون الشرقية السيد مارجوري Margerie. وبما أنه أعاد التأكيد على الموقف الفرنسي الرئيسي فيما يتعلق بالسيادة العثمانية، أجابه بيهم بأنه ينوي إعلان نتائج المؤتمر على الملأ. وحين خرج الوفد من مبنى وزارة الخارجية أخذ ثابت وزينية على بيهم بشكل عنيف إصراره على موقفه لان هذا من شأنه إزعاج الحكومة الفرنسية. ويقال إن أعضاء الوفد اختصموا فيما بينهم في الشارع[48]، حتى إن سلام ضرب ثابت بعصاه حسب ما تروي إحدى الشائعات المحلية في بيروت[49].

ولم تمنع هذه الخلافات زهراوي من أن يعهد إلى وفد بيروتي حصراً بالذهاب إلى اسطنبول. لكن زينية رفض الذهاب معرباً عن خشيته بأن يعتقل هناك. وتألف الوفد من ثلاثة ممثلين مسلمين من بيروت وفي 23 آب/ أغسطس استقبل السلطان محمد رشاد الذي لم يكن يتمتع بسلطة مطلقة سلام وبيهم وطبارة.وبعد عدة لقاءات مع مسؤولين في الحكومة، وحين عاد الوفد إلى بيروت في 5 أيلول/ سبتمبر جرى له استقبال شعبي عفوي لم يكن منظماً مسبقاً. صحيح إن السلطة الوحدوية لم تقم عملياً بأي تنازل ولكنها على الأقل لجأت إلى التسويف والمماطلة.

خفف اللقاء بالسلطان من تشنج المواقف وجرى تلطيف الأجواء إبان الانتخابات التي جرت في ربيع 1914، عندما بدا إن اسطنبول شجعت ترشح سليم سلام إلى البرلمان العثماني. وانتخب سلام

فعلاً في 9 نيسان / ابريل مع اثنين من رفاقه في قائمة الانتخابات وهما ميشال سرسق وكامل الأسعد نواباً على ولاية بيروت في مواجهة اللائحة التي يتزعمها رياض الصلح. وبموازاة ذلك، نال سلام، بمشاركة جماعة من المستثمرين، رخصة لاستصلاح مستنقعات بحيرة حولا في الجليل، وهنا أيضاً على حساب المجموعة التي يتزعمها رياض الصلح. وإذا كان تلازم هاتين القضيتين من شأنه أن يوحي بصفقة أجريت في السر - كما يحلو لخصوم سلام - أن يشيّعوا باستمرار ويغمزوا من هذه القناة، يبدو إن هذا كان فقط دليلاً على أفضلية منحتها سلطة اسطنبول لرجل حرص حتى النهاية على تمتين العلاقة بالعثمانيين. وعلى أية حال، لم يتنازل النائب الجديد، في خطابه الأول، عن إظهار ولائه للدولة ولا عن مطالبته بالاستقلال العربي الذاتي.

وبالمقابل، كانت السلطة الوحدوية أبعد من أن تكون ربحت المعركة. صحيح إن التوجهات الاستقلالية بقيت على تحفظها في صفوف الرأي العام، لكنها لم تعد فكرة مجرّدة مبهمة. وقد اعطاها طيف الدبلوماسية الفرنسية بعداً عملياً لا سيما بعد أن أكد اتفاق غراي - كامبون عام 1912 المطامح الفرنسية بإقامة وصاية على سوريا. ومنحت إعادة التنظيم القنصلية التي أعقبت ذلك أهمية متعاظمة لمركز بيروت الذي عهد به عما قريب إلى فرنسوا جورج - بيكو. وما إن وصل بيكو إلى بيروت، ضاعف من اتصالاته الميدانية مع القوميين سواء العرب منهم أم اللبنانيين. وبعد انقضاء بضعة أشهر، أغرقت شرارة سارايبفو العالم القديم أي أوروبا في الحرب. وعندما خرجت منها، كانت الامبراطورية العثمانية قد انتهت.

أربعة أعوام من الحرب وعشرة أيام من الاستقلال

ذاقت بيروت مرارة الحرب في فترة سابقة إبان القصف الايطالي في 1912. وأحدث الخراب الذي نتج عنها اختلالاً في النظام الاجتماعي لم تستطع سلطات البلدية والولاية احتواءه. لكن لا يعتبر هذا شيئاً مقارنة مع الدمار الذي أصاب المدينة بعد انطلاقة شرارة الحرب العالمية الأولى. ونتيجة للحصار البحري الذي فرضته البحرية البريطانية ومصادرة المواد الغذائية للجيش الرابع بقيادة جمال باشا واجتياح الجراد للمنطقة، تعرّض المشرق بأسره للمجاعة القاسية.

عانى الجبل بشكل خاص وتعرّض أهله للمجاعة ولم يوفر ذلك سكان بيروت سيما إن أمواجاً جديدة من اللاجئين الجياع وفدت إلى المدينة وساهمت في ازدياد الطلب على الرغيف. ومرّت أسابيع سقط خلالها عشرات الضحايا في اليوم الواحد ووصل العدد أحياناً إلى مئتين[50]. والى ذلك دمرت الأحياء القديمة في الوسط، التي استكمل بناؤها أخيراً في نهاية ربيع 1915 بعد ثلاثين سنة من الانتظار، وكان من المتعذر في ظل استمرار الحرب إزالة الدمار الذي تعرّضت له المدينة. ثم

جاء قصف الطائرات البريطانية ليزيد الدمار تفاقماً. وبشكل عام، لم تعد المدينة توحي، خلال هذه السنوات الرهيبة بأنها النموذج الحيّ للحيوية التي جعلت منها الحاضرة الصاعدة في مطلع القرن العشرين. وزاد القمع السياسي من حدة المأساة الانسانية. بعد فشله على الجبهة، عمد جمال باشا، قائد الجيش الرابع، إلى محاربة القوميين معتقلاً عدداً من المناضلين ومخضعاً إياهم للمحاكمة. ثم أصدرت محكمة عرفية عقدت في عاليه حكماً بالاعدام على عدة أشخاص من المناضلين فأعدموا شنقاً في بيروت ودمشق. وهؤلاء الشهداء الذين يخلد ذكراهم في السادس من أيار في كل سنة في لبنان وسوريا، كان قسم منهم قوميين عرباً والقسم الآخر قوميين لبنانيين. ولم يجرِ الحكم بالاعدام على كل المناضلين. في الواقع، احترمت المحكمة العرفية الشكليات رغم كل شيء وجرى تجريم المتهمين أمام المحكمة استناداً إلى محضر المحادثات التي عقدت بينهم و بين القنصلين كوجي وجورج - بيكو. كان جمال باشا استحصل على محضر من المحادثات مخبأ في القنصلية الفرنسية بفضل خيانة أحد التراجمة وهو فيليب زلزل[51]. وبعد شهر من الاعدامات التي جرت في دمشق وبيروت، أطلق الشريف حسين شرارة الثورة العربية معلناً الجهاد ضد الأتراك. وهكذا صدقت نبوءة الكواكبي واتجه عدة مناضلين من سوريا إلى مكة وجدة.

ولم تنته المأساة إلاّ في 1918. وضعت الحرب أوزارها في أوروبا، وأعطت حملة الجنرال اللنبي على سوريا المدعومة من جيوش الشريف حسين بإمرة الأمير فيصل، ثمارها في 3 اكتوبر/ تشرين الأول دخل فيصل إلى دمشق فيما رحل عنها الحاكم التركي منذ عدة أيام وألف فيها الأمير سعيد الجزائري في 28 سبتمبر/ أيلول، وهو من سلالة عبد القادر، حكومة عربية. أعلم الأمير سعيد بهذا التطور رئيس البلدية في بيروت عمر الداعوق عبر برقية أرسلها له وطلب منه بأن يبادر هو أيضاً إلى إعلان الحكومة العربية. ما أن تلقى الداعوق هذه البرقية مساء 30 سبتمبر/ أيلول حتى ذهب لزيارة سلام بهدف استشارته. واتخذ القرار بارغام الوالي اسماعيل حقي بك على مغادرة المدينة. ثم ذهب سلام للقاء الوالي برفقة أحمد مختار بيهم والفرد سرسق، الدبلوماسي العثماني السابق، وحرس مسلحين أعطيت اليهم الأوامر بإطلاق الرصاص إذا اقتضى الأمر لفتح الطريق[52].

وبعد ليلة من النقاش، غادر آخر حاكم عثماني المدينة في الأول من اكتوبر في 1918 عند السادسة صباحاً، فواكبه إبن سليم سلام حتى حدود المدينة، مخلفاً وراءه مدينة أرهقتها الإدارة العسكرية الطارئة والتوتر الناجم عن أربع سنوات من الحرب والأمراض والجوع. لكن الأخطر في الأمر أن المدينة كانت تتهيأ للانقسام. ففي بيروت كما في دمشق، واجهت النخب المحلية نهاية الهيمنة التركية، هذه بأفكار تدعو إلى الاستقلال العربي، لكن هذا الاستقلال لن يكتب له الانتصار..

عند رحيل الوالي أعلن إنشاء حكومة عربية في بيروت يتزعمها أسمياً عمر الداعوق لكن يحركها



الاحتفال برفع العلم العربي فوق الثكنة العثمانية.

فعلياً سلام الذي ترأس احتفال رفع العلم العربي فوق السراي، في 6 اكتوبر، ثم ذهب بعدها لاستقبال شكري الأيوبي في سهل الشويفات، الذي عينه فيصل حاكماً عاماً لبيروت وجبل لبنان. واستقبل سلام الأيوبي في اليوم التالي في دارته في المصيطبة وطلب منه تعيين صديقه حبيب باشا السعد، رئيس المجلس الإداري المنحل في المتصرفية، حاكماً على جبل لبنان باسم الحكومة العربية. أدّى السعد قسم الولاء لفيصل أبان الاحتفال بتقليده هذا المنصب الذي جرى نهاراً في سراي بعبدا، قبل رفع العلم العربي، وحصل هذا بمعزل عن المخططات الفرنسية أو حسابات المسيحيين في جبل لبنان[53].

وبعد ثلاثة أيام، وبأمر من وزارة البحرية الفرنسية، أحتلت الفرقة البحرية لسوريا مرفأ بيروت، وفي اليوم التالي وصلت أول فصيلة بريطانية بقيادة رئيس الأركان أللنبي يرافقه الكولونيل دوبيباب De Piépape ممثلاً الجيش الفرنسي. ومن 10 اكتوبر / تشرين الأول انتشر «قناصة أفريقيا» فرقة جيش مدعومين ب «فرقة سورية» تحت امرة الفرنسيين في شوارع بيروت بعدما نُقلوا من حيفا بحراً، وهم يلوحون بالعلم الثلاثي الألوان في الهواء وحفنة من المسيحيين تهتف لهم. وفوراً بعد دخولهم إلى بيروت، أمر الفرنسيون ممثل فيصل بالتنحي. أنزلوا العلم العربي واستلموا إدارة السراي[54].

وأخفق الاستقلال العربي.

IV

عاصمة الانتداب



الفصل الحادي عشر

فرنسا في إنجازاتها

في 24 تموز 1921، التهم حريق قاعة «زهرة سورية» في جنوبي ساحة الحميدية القديمة. وفوق أنقاض قاعة المسرح هذه التي احتضنت أول حفلة سينمائية في بيروت، أنشئت الباريزيانا، الكاباريه – المقهى. لا شك إن محاكاة بيروت أوروبا ليس بالأمر الجديد، لكن هذا التغيير في أسماء اللافتات كان يعني الانتقال من عالم إلى آخر. وكل شيء كان يتغير في المدينة، إن لم يكن في العمق فعلى الأقل ظاهرياً، وهذا منذ خريف 1918 أي عندما سهّلت السلطة الفرنسية عودة الحكم العثماني بعد الفاصل «الشريفي» القصير الأمد.

وحول المدينة نفسها، كان كل شيء يتغير أيضاً. ثم إن الوضع الذي نشأ اثر الحرب العالمية الأولى لا سابقة تاريخية له. وللمرة الأولى، منذ أيام الأمبراطورية الرومانية لم تأتِ دولة عظمى لتستوطن الأراضي التي احتلتها. أما تركيا التي نجحت في إنقاذ ما يمكن إنقاذه فأدارت ظهرها للشرق ساعية إلى تنظيم علاقة جديدة بأوروبا. ولم تكن أي قوة جديدة قادرة على أن تملأ الفراغ الذي أحدثته الدولة العثمانية الآفلة، اللهم إلا الإمبراطوريتين الأوروبيتين المجيدتين. وهكذا تحطم مشروع الدولة العربية فوق صخور التنافس الامبريالي. وأنشئت عدة دول فوق الأراضي العربية التي كانت واقعة تحت سلطة العثمانيين، برعاية فرنسا وبريطانيا العظمى.

إن الثورة الجديدة التي حدثت في مجال المواصلات وسّعت الآفاق، وها قد بدأت هذه الآفاق تضيق نتيجة اكتشاف خط جديد تماماً هو ما يسمى بحدود الدول. مما يعني أن نموذج الدولة الوستفالية بالنسبة لمنطقة أدمجت لقرون عدة في هذه الأمبراطورية أو تلك من الامبراطوريات التي تعاقبت على شرقي المتوسط أدّى إلى انقطاع في الاستمرارية الاقليمية والاقتصادية والثقافية التي شكلت المكان. وخاصة عندما لا تستطيع الدول التي نحن في صدد الحديث عنها أن تنسب لنفسها ثقلاً تاريخياً وعندما لا يكون التلاؤم بين مفهومي الدولة والأمة موجوداً أصلاً. أضحت

بيروت عاصمة لدولة سينبذها قسم من أبنائها لوقت طويل فجسدت على أكمل وجه تناقضات هذه المسألة الشرقية الجديدة

تقاسم الامبراطوريات

لم تعش بيروت تحت الحكم العربي لأكثر من أسبوعين. وسرعان ما كانت الغلبة للمنطق الامبريالي. وأخلى الجنرال اللنبي الساحة للفرنسيين منذ الأيام الأولى لأكتوبر 1918. كان جنود البحرية هم أول من دخلوا إلى المدينة. ومنذ وصولهم في 7 اكتوبر، شرعوا في الاعداد لوصول الكولونيل بيبياب المقرر في اليوم التالي. بعد ثلاثة أيام، تجاوب البريطانيون مع رغبة حلفائهم في إنزال العلم العربي عن السراي.

عُين الجنرال هاملين Hamelin قائداً لجيوش فرنسا في المشرق، ونزل في بيروت خلال الشهر نفسه قبل أن يعيّن فرنسوا جورج - بيكو مفوضاً سامياً لفرنسا على فلسطين وسوريا من شهر ابريل/ نيسان 1917. ما أن وصل جورج - بيكو إلى بيروت حتى قام ميدانياً بالاطلاع على موازين القوى الموجودة في الشرق وأبرق عاجلاً إلى باريس قائلاً: «الحل الوحيد – إرسال 20000 جندي إلى سوريا والتوسل للأنكليز بأن يتركوا لنا إدارة البلاد». أما الإنكليز المعنيّون بالأمر فلم يبدوا في الواقع أي تحفظ ولم يعرقلوا الوصول التدريجي للتعزيزات العسكرية طيلة السنة 1919. وأطلق على الكتائب الفرنسية في فلسطين وسوريا اسم أفواج المشرق الفرنسية وتولّى قيادتها الجنرال هاملين[1]. بعد بضعة أشهر أصبح الانتشار العسكري كثيفاً مع أنه كان متواجداً على الصعيد الجغرافي فقط على الساحل وفي جبل لبنان. ها قد أضحى نظام الوصاية الفرنسي حقيقة قبل أن يأخذ شكل الانتداب وقبل أن تشرّعه عصبة الأمم لمصلحة فرنسا ويشمل سوريا ولبنان.

وتماثلاً مع روحية الاتفاق الذي عقد في خضم الحرب بين فرنسوا جورج - بيكو ومارك سايكس، عُهد لفرنسا بقسم كبير من بلاد الشام إثر معاهدة فرساي. لا شك أن الاتفاق لم يراع إطلاقاً طموحات فرنسا للاستئثار بسوريا كلها «من طورس حتى سيناء» كما أصرّ على ذلك الحزب الكولونيالي. لا بل إن مندرجات إتفاقية سايكس – بيكو لم تُنفذ حرفياً. كانت بريطانيا تراقب ما يجري على الأرض بحذر شديد وقد استدركت الأمر كلياً وفرضت على فرنسا أن تخفف من أطماعها. وتبعاً لوعد بلفور أبعدت فلسطين من القسمة كما تقرّر مسبقاً* فخضعت كلياً للسلطة البريطانية التي بدأت تمارس نفوذها بعد انقضاء بضعة أشهر من ذلك التاريخ عبر جيش الجنرال اللنبي. ثم، عندما انتهت الحرب

* كان مقرراً حسب إتفاقية سايكس – بيكو أن تكون هناك منطقة نفوذ فرنسية ومنطقة دولية.



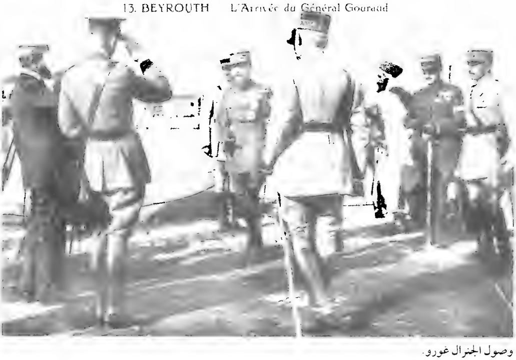
الأمير فيصل في بيروت محاطاً بضباط بريطانيين ووجهاء محليين.

قايضت لندن على الأولويات التي طالب بها كليمنصو لفرنسا في ألمانيا ووافقت على التوقيع على حلّ صارم لمسألة رينانيا مقابل تخلي فرنسا عن الموصل عند الحدود الشمالية - الشرقية لسوريا. ألحقت هذه المنطقة بالعراق حيث سعى البريطانيون إلى إنشاء نظام ملكي فيها وعهدوا إلى الملك فيصل باستلامها عام 1921 بعد طرده من دمشق. وفي السنة التالية اقتطع «المكتب الكولونيالي» Colonial Office الضفة الشرقية للأردن التابعة لفلسطين وولّى على إمارة شرق الأردن هذه ابناً آخر للشريف حسين. وفي غضون ذلك استولت باريس على ما بقي من «سوريا الفرنسية».

ولم تطمع بريطانيا بالحصول على حصة أكثر من التي حصلت عليها. ففي مواجهة حليفين قويين، آثرت بالطبع «التفاهم الودي» التام الحاصل بينها وبين فرنسا على الخصومة مع الهاشميين واكتفت بمنحهم جوائز ترضية. لا بل إنها ساعدت فرنسا على تحقيق طموحاتها في قسم كبير من سوريا أولاً، بسكوتها على انتشار وحدات من الجيش الفرنسي في بيروت بعد أيام قليلة فقط من إعلان الحكومة العربية، وسماحها لفرنسوا جورج - بيكو، الذي عُين مفوضاً سامياً للجمهورية الفرنسية في فلسطين وسوريا، بممارسة سلطته على النخب في جبل لبنان لخلق سياسة أمر واقع هناك. وثانياً ببقائها على الحياد في المواجهة التي حصلت بين الملك فيصل وفرنسا. إذ بعد بداية إتفاق بين الملك فيصل

وكليمنصو، أتاح رحيل «أبي النصر» للحزب الكولونيالي أن يسيطر على الموقف ويفرض، نزولاً عند رغبة الزعماء المسيحيين المطالبين بالاستقلال في جبل لبنان، مقولة حماية الأقليات[2]. كانت لندن، أثناء ذلك، تساهم في إبطال فعالية مبادئ ويلسون وأفشلت بمساعدة باريس مهمة التقصي الدولية التي تحوّلت إلى مبادرة أميركية حصراً كما أفشلت كل التوصيات التي تضمنتها المبادرة.

وبهدف الالتفاف على حق الشعوب في تقرير مصيرها والاستيلاء على البلدان المهزومة، تحالفت لندن وباريس واتفقتا على مبدأ الانتداب. وهو شكل من أشكال الوصاية طوّره الأفريقي الجنوبي السيد سماتس Smuts ويقوم على مبدأ الشرعية الدولية التي ستتجسّد في عصبة الأمم التي كانت قيد التكوين. وهي فكرة كانت تدور في ذهن الرئيس ويلسون. إذ تحدّد المادة الثانية والعشرون من الميثاق التأسيسي لعصبة الأمم المتحدة المبادئ التي تقوم عليها عملية الانتداب وفقاً لمستويات ثلاثة تبدأ بألف وتنتهي بجيم، أي بحسب مستوى النمو الذي وصلت إليه الشعوب المراد انتدابها وبالتالي مستوى التدخل المطلوب من الدولة المنتدبة. فإذا كانت الدولة المنتدبة تنتمي إلى الترتيب (أ) فهذا يعني أنه يُوكل إلى الدولة المنتدبة بأن تتحمل أعباء السير بها إلى الاستقلال المنشود. وكانت شعوب الشرق مصنفة ضمن هذه الفئة بالذات. والأمر بديهي. فخلال الحرب، عُومل الشريف حسين



وصول الجنرال غورو.

كحليف وكان لابنه فيصل كل الحق في أن يعتبر نفسه شريكاً في النصر سيما وانه تقلّد رتبة الجنرال في جيش أللنبي. ثم إن الاستقلال اعتبر أمراً واقعاً بالنسبة إلى دمشق والمدن السورية الأخرى التي حررتها جيوش الأمير فيصل. ولا أحد كان يرى مبرراً في فرض نظام الانتداب، كما أظهرت ذلك لجنة كينغ - كراين عام 1919. فمهمة الاستقصاء التي قام بها الأميركيان وحدهما، بعد رفض الفرنسيين والبريطانيين المشاركة فيها، وصلت إلى هذه النتيجة التي لا التباس فيها. وأظهر التحقيق الذي قاما به في أوساط النخب المختلفة في المشرق أن الأكثرية الساحقة، باستثناء جبل لبنان، ترفض أي انتداب مهما يكن نوعه. وإذا كان لا بدّ من فرض نظام انتداب فالنخب العربية تفضل أن تنتد بهم أميركا دون سواها لكن الشهادة التي أدلت بها لجنة التقصي لن تكون لها أي قيمة إلاّ أمام التاريخ. وعند عودتها، كان ويلسون قد انسحب من مؤتمر السلام. واخذت عصبة الأمم المتحدة التي كان هو في أساس إنشائها، تعمل من دونه. واستطاع شريكا التفاهم الودي أن يفشلا معاً مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها، وأن يتصرفا بحرية ليفرضا القسمة التي اتفقا عليها.

وفي ابريل/ نيسان 1920، شرّعت معاهدة سان ريمو رسمياً الانتداب الفرنسي والبريطاني، لكن السيطرة العسكرية لم تتحقق بعد على الصعيد الميداني بشكل فعلي فالجيوش الفرنسية لم تكن منتشرة إلاّ على الساحل وفي جبل لبنان. وهذا لأن الشرعية التي اكسبها الشعب للأمير فيصل الذي أعلن ملكاً على سوريا في 8 آذار/ مارس 1920، كانت تعيق كل مشروع آخر. لقد قبل الملك فيصل فكرة الانتداب مرغماً ولم يكن على استعداد لمواجهة السلطات الفرنسية حفاظاً على موقعه الذي يستطيع منه ان يحول دون تقسيم سوريا وان يظل مجسدا طموح الشعب الى الأستقلال. واختارت فرنسا استخدام القوة للتخلص من الحاجز الذي يعيق طموحاتها، وذلك بتعيينها مكان الدبلوماسي جورج - بيكو مفوضاً سامياً عسكرياً وهو الجنرال هنري غورو. كان الجنرال غورو من الضباط القدامى الذين عملوا في المغرب خلفاً للضابط ليوتي عام 1916 وهو من أبطال الحرب العالمية التي خسر فيها أحد ذراعيه، لكنه ينتمي إلى الفئة المحافظة في الجيش، وبدا واضحاً انه مدرك لتفاصيل المهمة الموكلة إليه وهو حريص على تنفيذها، وهو لم يتوقف عن السعي لابقاء الملك فيصل خارج سوريا. وفي 24/ تموز يوليو 1920، هزم جيشه في معركة ميسلون غربي دمشق الفرق القليلة العدد التي كان يقودها يوسف العظمة وزير الدفاع في مملكة سوريا العربية، واستشهد فيها العظمة. وباتت طريق دمشق مفتوحة أمام الفرنسيين. وكانت أول بادرة قام بها غورو لدى دخوله التوجه إلى قبر صلاح الدين ليتحداه بعد قرون على وفاته*. وهكذا ولّى الزمن الذي كانت فيه فرنسا تشجع فكرة إنشاء مملكة عربية.

لكن الروحية الصليبية تحكمت أيضاً بأسلوب إعادة تنظيم الأراضي التي انتدبت عليها فرنسا

*يُنسب إلى غورو القول الآتي: «صلاح الدين، ها نحن هنا!».



لتوصلها إلى الاستقلال. وبعد خمسة أسابيع من معركة ميسلون، تصرّف غورو بمنطق «الأقليات» من خلال إرساء مؤسسات جديدة. ففي الأول من سبتمبر/ أيلول 1920، ومن على منصّة مدرّج «قصر البارك» الذي تحوّل إلى مقر المفوض السامي والمعروف منذ ذلك الحين بإسم «قصر الصنوبر»، اعلن رسمياً إنشاء دولة لبنان الكبير الذي ضم إلى جانب متصرفية جبل لبنان المدن الساحلية والأقضية الأربعة التابعة لولاية دمشق والتي تضمّ غالبية مسلمة، وذلك رغماً عن إرادة السكان المقيمين فيها(3).

واستطاع هذا الإجراء الذي تبنّته عصبة الأمم أن يحظى بدعم شريحة من السكان المحليين وعلى وجه أخص الأكليروس وغالبية الوجهاء الموارنة. لكن، لم يؤخذ برأي شخصيات مسيحية عديدة معارضة مخالفة لرأي أغلبية المسيحيين ومن بينهم سعد الله شقيق البطريرك الماروني الياس الحويك الذي كان من أنصار فيصل. ودفعت السياسة الفرنسية بمنطق الأقليات إلى أقصاه بتقسيمها باقي

الأراضي السورية إلى أربعة كيانات: دولة دمشق، دولة حلب، دولة العلويين، دولة الدروز. لم يكن الانتداب الفرنسي الذي يهدف رسمياً إلى مساعدة الشعوب على تحقيق استقلالها يزعج نفسه بإظهار علامات الود للشعب العربي فاتخذ القرار بأن يكون مقرّ المفوض السامي في بيروت وليس في دمشق. وهذا ما صدم الجنرال العتيد جورج كاترو، لأن الانتداب كان يمارس سلطته علناً ضد الداخل السوري ويجازف بأن يثير حقداً متعاظماً منذ أيام ميسلون*، حقداً سينعكس لاحقاً على مستقبل بيروت ولبنان وستظلّ آثاره السلبية تتفاعل لوقت طويل.

إقتضى الأمر إذاً إعادة السلام إلى بلاد الشام ولم يكن الأمر ممكناً دون اللجوء إلى العنف. ففي جبل عامل، في القسم الجنوبي من لبنان الكبير والذي يضم أغلبية شيعية، كانت الحملة العسكرية الفرنسية عنيفة بشكل خاص رافقها تدخل الطيران وتركت آثاراً أليمة في الذاكرة الشعبية. ومن نجود البقاع الذي انضم إلى الأراضي اللبنانية آنذاك، وتحديداً في السهوب الواقعة على الحدود الشرقية للدولة السورية، قام الانتداب بحل عسكري في جوهره لمكافحة اللصوصية التي كان يمارسها رجال البدو الذين أصيبوا بالإرباك الشديد بسبب الترسيمة الجديدة للحدود في مكان كانوا يمارسون فيه نشاطهم منذ زمن بعيد. أما في المدن فكان الوضع أكثر هدوءاً لكنه مهدد بالانفجار في كل لحظة. ولم يكن بوسع هذه السياسة الأحادية الجانب إلاّ أن تثير ردات فعل عنيفة. وإذا كان الانتداب نجح في إرضاء أو تحييد بعض الشخصيات السورية عبر مكافآت، فإن غالبية النخب تبخرت آمالها بالاستقلال العربي الذي طالما تاقت إليه، ولاقت الدعوات الهاشمية الآتية من العراق أو من شرق الأردن آذاناً



قصر الصنوبر يوم كان مصمماً ليكون كازينو.

* وهذا ما تظهره شتيمة شاعت لوقت طويل في أحاديث الدمشقيين: «ولي على غورو».

صاغية. وبعد فترة من الهدوء، خلال السنتين اللتين حكم فيهما الجنرال مكسيم ويغان بصفة مفوض سام أشعلت الإجراءات أو الممارسات الاستفزازية التي صدرت عن خلفه الجنرال موريس ساراي Maurice Sarrail فتيل الأزمة مجدداً، سيما إن ساراي الذي كان جندياً مناهضاً للأكليروس نجح في جعل الطوائف كلها تختصم فيما بينها. وسرعان ما تحول العصيان الذي قاده سلطان باشا الأطرش في جبل الدروز عام 1925 إلى ثورة انتفاضية وطنية، طالت، بالإضافة إلى مدن الداخل، أقساماً واسعة من الأراضي الملحقة بلبنان الكبير. وهذه المرة أيضاً، كان الرّد عسكرياً وقصفت دمشق قصفاً عنيفاً.

لكن صفارة الإنذار لم تصل إلى آذان المسؤولين في فرنسا. وبالرغم من استبدال ساراي بالمدني هنري دو جوفينل Henry de Jouvenel، لم تغير الحكومة الفرنسية سياستها بل كل ما فعله جوفنيل إعلان دستور دولة لبنان الكبير التي اصبحت عام 1926 الجمهورية اللبنانية. وقد بادر خلفاؤه إلى تعليق هذا الدستور كلما بدا لهم أن اللعبة السياسية اللبنانية تخرج عن إطار الولاء الأعمى للسياسة الفرنسية. هذا ما فعله هنري بونسو Henri Ponsot ودميان دو مارتيل Damien de Martel وغبريال بيو Gabriel Puaux ولم يكونوا مخطئين في ذلك: وفي الواقع عارضت قيام الجمهورية اللبنانية شريحة واسعة من السكان كما أظهر ذلك مؤتمر الساحل الذي جمع الشخصيات المسلمة الرئيسية في البلاد. وفي غضون ذلك، كان الانتداب يواصل انتهاج السياسة المستندة إلى منطق الأقليات رافضاً أن يأخذ بعين الاعتبار زخم المشاعر المنادية بالوحدة والاستقلال والتي عبرت عن نفسها آنذاك من خلال الكتلة الوطنية في سوريا، وهي التجمع الذي كان ينظم المعارضة القومية لسلطة الانتداب.

ولم توافق فرنسا على وحدة دولتي دمشق وحلب إلاّ في 1932. وفيما كانت بريطانيا تبدي تساهلاً إزاء طموحات العراقيين منذ عام 1930 بمنحها استقلالا أقل شكلية للمملكة الهاشمية التي سرعان ما انضمت إلى عصبة الأمم، وجب الانتظار حتى 1936 لتعيد فرنسا النظر في سياستها. وبتحريض من وكيل الوزارة في حكومة الجبهة الشعبية، بيار فيينو Pierre Viénot المكلف الاهتمام بأنظمة الوصاية والانتداب في المشرق، بُوشر في إجراء مفاوضات مع الكتلة الوطنية التي يتزعمها جميل مردم بك وسعد الله الجابري. وخلصت المعاهدة الفرنسية - السورية في تلك السنة للاعتراف بحق سوريا في الاستقلال وبوحدتها. أما موضوع لبنان فلم يبحث لأن المعاهدة نصت على اعتراف فرنسا باستقلال سوريا في مقابل عدم مطالبة سوريا بضمّ لبنان. ونال لبنان هو أيضاً معاهدته مع فرنسا ومنحته بموجبها الاستقلال اسمياً، فالاستقلالات بقيت حبراً على ورق، إذ رفض البرلمان الفرنسي، تحت وطأة الضغوط الكولونيالية، إن يصدّق على المعاهدة الفرنسية - السورية[4]. صحيح أن وحدة «سوريا الصغيرة» باتت أمراً متحققاً وأن دمج الدولتين العلوية والدرزية بالكيان السوري لم يجرِ طرحه على بساط البحث، لكن فرنسا ما لبثت إن عادت إلى ممارسة سياستها القمعية إزاء الحركة الوطنية.

لكأن فرنسا كانت مقتنعة منذ بداية هيمنتها بأن مصالحها بالذات كانت مناهضة بشكل جوهري لطموحات غالبية السكان الذين يتوقون إلى الوحدة والاستقلال، لذا، لم تُظهر، والحق يقال، أي اهتمام لاحتواء مثل هذه المطالب مؤثرة أن تفرض نفسها من خلال الضغط وسياسة جعل المؤسسات أمراً واقعاً. من هنا، كانت سياستها تنتمي أكثر إلى نظام الوصاية منه إلى نظام الانتداب تبعاً لما حددته شرعة عصبة الأمم، أي بوصفه وصاية مؤقتة تحظر تدخل الدولة المنتدبة في الشؤون الداخلية[5]. ورغم أن هذه السياسة كانت عقيمة، إلاّ أنها استطاعت أن تبرر نفسها في نظر الحكومات الفرنسية المتعاقبة. وإذا كان صحيحاً أن سياسة فرنسا في المشرق تلحق بها خسائر فادحة أو تكلّفها أثماناً باهظة، أكبر بكثير مما يمكن لفرنسا أن تفوز به بالمقابل، فإن مصالح مالية ضخمة للغاية كانت تسيّر حركة جماعات اللوبي الكولونيالي. وفي جميع الأحوال، لم تكن متطلبات الدول الاستعمارية تُقاس فقط بالمردود المادي. ذلك إن الشبكة الهائلة للمدارس وانتشار اللغة الفرنسية في صفوف النخبة جعلا من الجمهورية الفرنسية الدولة الرائدة في المجال الثقافي على الصعيد العالمي. بدا الحضور الفرنسي في سوريا شرطاً ضرورياً لوضعها الامبريالي. كانت فرنسا بحاجة إلى الانتداب لكي تثبت أمام العالم بأنها قوة عظمى متوسطية وتحمي خطوطها البحرية ثمّ الجوية، باتجاه الهند الصينية[6]. كذلك جاء عهد البترول بوصفه عصب الاقتصاد ليؤكد الضرورة التي تستشعرها فرنسا. ومع إنشاء أنابيب النفط التي تصل كركوك بطرابلس في 1934، أشرفت فرنسا على عملية تصدير النفط العراقي، وكانت هذه ضمانة إضافية للمصالح التي اعترفت بريطانيا بها لفرنسا في بترول الموصل، من خلال الشركة الفرنسية للنفط. والأكثر من هذا، كانت أراضي الامبراطورية برمتها هي المعرضة للخطر. وإذا كانت سوريا تشكل هدفاً بحدّ ذاته للسياسة الفرنسية، فهي كانت أهم بالنسبة إلى ديمومة استعمار فرنسا لأفريقيا الشمالية وتبعاً لفكرة تعود إلى نهاية القرن التاسع عشر ووضعها الحزب الكولونيالي في الصدارة أثناء المفاوضات التي سبقت قسمة الأراضي العثمانية: كان احتلال سوريا التي تعتبر قلب العروبة النابض، يساهم في إضعاف الحركات الاستقلالية في المغرب العربي. وهذا كان السبب في إن فرنسا ألحّت كثيراً على اقتسام سوريا.

وكان لهذه «السياسة الاسلامية» الشاملة وجهها الآخر. إذ لم تكن تسمح بحصول قمع جماعي من شأنه أن يثير ردود فعل في المغرب العربي ولا بموقف تصالحي يمكنه أن يؤدي إلى سابقة تؤدي إلى نوع من الاستقلال يقوّض أركان نظام الامبراطورية الفرنسية. لذا فضلت فرنسا أن تراهن على «الحماية» التقليدية لمسيحيي الشرق ومنها إلى حماية الطوائف المسلمة المنتمية إلى الأقليات، وهذا كان يشكل القاعدة السوسيولوجية الوحيدة لاستمرار هيمنتها. لا شك أن هذه السياسة كانت تؤمن لها تأييد أقلية من السكان لكنها وجدتها ذريعة لتصمّ آذان الحكام الفرنسيين عن المطالب التي تنادي بها الأكثرية الداعية إلى الاستقلال والوحدة. أن تكون النزعة القومية هي التعبير عن مشاعر الناس في

كل مكان، متخطية الطوائف وعازلة الفئات القليلة المتعاطفة مع فرنسا، فهذا لم يغير شيئاً في السياسة الفرنسية، لأن القومية كانت في نظر إدارة الانتداب مجرد بدعة بريطانية أدخلها إلى سوريا عملاء عراقيون أو من شرق الأردن.

وخلال عشرين سنة من الوجود السياسي والعسكري والمؤسساتي في المشرق، لم تسعَ فرنسا إطلاقاً بشكل جدي إلى أن تحظى بتأييد شعبي مكثف ولم تحظ بذلك، إلاّ في الأقليات المسيحية التابعة لروما والموارنة تحديداً. إن الغليان القومي الذي واجهته فرنسا لم ين يتسع في سوريا خاصة أن رفض البرلمان الفرنسي التصديق على المعاهدة الفرنسية – السورية عام 1936 جعلها تفقد بازدياد التأييد الشعبي لها، فيما كان نصف السكان في لبنان على الأقل مصرّاً على رفضه الدولة المنفصلة التي أعلنها الجنرال غورو. ومع ذلك، عند نهاية عهد الانتداب بدا وكأن لبنان الكبير أمرٌ واقع فرنسي في طريقه إلى التكريس الكامل. وفيما كان مؤتمر الساحل يطالب بالرجوع إلى الحضن السوري، كانت المعاهدة الفرنسية – السورية تشكل منعطفاً تاريخياً. فقوميو المدن الساحلية الذين كانوا مرتبطين بالكتلة الوطنية في سوريا خلصوا إلى الاستنتاج بأن المعاهدة كانت تتضمن الاعتراف بالكيان اللبناني وبات لجيل من الشبان الجدد رأي في المسألة. فسليم سلام الذي كان يحيي مؤتمر الساحل رحل عام 1938. وفي الوقت نفسه، كان رياض الصلح (المولود عام 1894) ابن خصمه القديم في العهد العثماني قد وضع حداً لعقدين من التجوال، وعاد بعد تجربة سياسية غنية بدأها لدى فيصل في دمشق ثم في كواليس الكتلة الوطنية السورية ليستقر أخيراً في بيروت[7]. لقد باتت الفرصة سانحة: ففكرة الميثاق الوطني قد اختمرت في ذهن رياض الصلح المؤسس لاستقلال لبنان.

رؤيا الانتداب

في المخيلة الاستعمارية، احتلت بيروت والمشرق – ولا يزالان يحتلان إستناداً إلى التجربة – مكانة حائرة. لم يكن حضور الفرنسيين فيهما كثيفاً بما يكفي لكي يشعروا فعلاً انهم في وطنهم كما في الجزائر. وبغياب المستوطنين، إقتصر التواجد الفرنسي في المشرق على موظفي إدارة الانتداب وعلى حلقة صغيرة من الموفدين من قبل الشركات الفرنسية. وظلَّ عدد الموظفين المدنيين التابعين لسلطة الانتداب ضعيفاً نسبياً، لا يتعدى الخمسمئة شخص، موزعين على كافة الأراضي السورية. وإذا كان واضحاً أن عدد العسكريين كان أكبر، فإن الضباط لم يكونوا يبقون لفترة طويلة بل لسنتين أو ثلاث بشكل عام، وبالتالي لم يستطيعوا أن ينشئوا تراثاً لهم في سوريا مشابهاً لتراث نظام الوصاية في المغرب العربي. ومع أن الكثيرين من موظفين الانتداب، بدءاً بالجنرال غورو نفسه، كانوا ضباطاً قدامى في المغرب، فلا شيء هنا كان بإمكانه أن يقارن بنظام الوصاية الذي ثبت أقدامه هناك وأدّى بالشركات الفرنسية إلى

ترسيخ قواعدها متخطياً العوائق التي يمثلها الشرق على نطاق واسع. كانت الاصلاحات المالية التي اتخذتها حكومة بوانكاريه Poincaré في 1922 قد لجمت سريعاً محاولات السلطة الفرنسية إلى جعل سياسة الانتداب مشابهة لسياستها الاستعمارية في الجزائر.

أما المتطوعون للعمل خارج حدود فرنسا، فكانوا بالأحرى نادرين في بداية عهد الانتداب. فالمناخ لم يكن ملائماً والملاريا لا تزال تصيب السكان، كذلك كانت كلفة المعيشة مرتفعة مقارنة مع مناطق أخرى من العالم الكولونيالي، ووسائل اللهو محدودة حتى في بيروت. لكن العلاوات على الأجر والمكافآت السنوية عوّضت عن هذه السيئات واجتذبت العناصر الجيدة. وعما قريب تحسنت شروط المعيشة واكتسبت بيروت سمعة كمدينة ناشئة مع اتساع الأحياء المعاصرة والتطور الذي شهده توزيع الماء والكهرباء وبناء الفنادق الفخمة وصالات السينما. عندئذ بات بإمكان الموظف الفرنسي أن يجد فيها مستوى حياة قريب من مستوى فرنسا، والامتيازات الكولونيالية علاوة على ذلك[8]. ثم إن الدراسة مؤمنة بشكل تام للأحداث وصولاً إلى الجامعة من خلال مدارس الارساليات المسيحية. وهناك ميزة أخرى وهي سهولة التعامل مع السكان المحليين بفضل وجود نخبة فرانكوفونية مشابهة جداً للأنماط الآتية من أوروبا، خاصة في أوساط الطوائف المسيحية السورية - اللبنانية. وبخلاف أفريقيا الشمالية فإن وجود الطوائف المسيحية على نطاق واسع في سوريا ولبنان اتاح للفرنسيين التواصل مع النساء الشابات في وضح النهار ،في النوادي و المطاعم والمقاهي التي تزايد عددها، وحتى في المسابح[9]. ومع أن الحصول على وظيفة في سوريا، لا يثير أي رغبة في نفس كما يثيرها الحصول على رتبة ضابط في الجزائر والمغرب، إلاّ أنه يعتبر منصباً لا بأس به شرط ألا تطول مدة إقامته إلى أجل غير محدود في بلاد الشام التي يمكن وصفها بأنها أشبه بـ «رينانيا الشرق[10]».

وإذا لم يستطع الانتداب التعاون مع فئة من المستوطنين ولم يسعَ إلى إجتذابهم، إلاّ أنه استطاع



ليرة لبنانية.

الإفادة من بيئة محلية «مولّدة»، إن لم يكن في تعبيرها اللغوي، ففي أية حال في تصرفاتها. ويمكن القول إن هذه البيئة ساهمت في تحويل قسم من سكان البلد الأصليين إلى «خلفاء للمستعمرين البيض» وخصوصاً في لبنان كانت هناك فئة جاهزة لتولّي إدارة البلاد منذ كانت الدولة العثمانية تعاني سكراتها الأخيرة. عندئذٍ أميط اللثام، عشية الحرب العالمية الأولى عن المطالبة بنظام حماية فرنسي. الآن أصبحت فرنسا موجودة بقوتها العسكرية ولم تعد هناك قوّة قادرة على لجم الهوية المسيحية – اللبنانية الخاصة من الإعلان عن نواياها، والبحث عن مبررات تاريخية للهوية ا للبنانية، التي تتبنى نموذج «المدنية» الفرنسية. ولم تجرِ المطالبة بالخصوصية اللبنانية إلاّ لمواجهة المحيط العربي المسلم، سواء تعلّق الأمر باستقلال الجبل حيث تبلورت الهوية اللبنانية الوطنية التي تؤيدها شريحة من السكان الذين يبدو انهم معنيون بهذا الكيان الجديد، أو برفع شعار الهوية الفينيقية التي نادى بها جماعة من أهل الصحافة والأدب اللبنانيين الذين استجابوا لدعوة شارل قرم وميشال شيحا متذرعين بالتاريخ لكي يجعلوا من المطالبة بالوحدة السياسية مع مدن الساحل أمراً مشروعاً. كانت النزعة الفينيقية تعبر عن نفسها باللغة الفرنسية وكانت الايديولوجيا النابعة من الجبل تضرب جذورها تحديداً في علاقة مميزة مع فرنسا «الأم الحنون» التي يدعون إنها موجودة منذ الرسالة المزعومة التي وجهها القديس لويس إلى الموارنة.

وفيما يتعدى التفذلك الايديولوجي، كان هذا التشبث يعبر عن نفسه بطريقة يومية من خلال ممارسات تثير العجب أحياناً وتعبر عن ميل أصحابها لتقليد فرنسا تجلّت في لافتات المخازن واختيار أسماء العلم. فعدا اعتماد الأسماء الفرنسية أو المفرنسة، وهي عادة ترقى آنذاك إلى نصف قرن، ظهرت أسماء جديدة غداة الحرب العالمية: جوفر، جان دارك وفرنسا. لكن التماهي مع نمط الحياة الفرنسية المزعومة وبشكل أدق الباريسية حصل في ذروة انطلاقته مع الطبقات الميسورة التي تختزل «روح بيروت». وكانت الممارسات الاجتماعية للموظفين والضباط الفرنسيين، إبتداءً بالمفوضين الساميين تشجع على مثل هذه التوجهات حتى لو بدا أن المخيلة الكولونيالية تلّمح إلى مسافة ما بين الجمهورية الفرنسية ودولة لبنان، التي كان ينظر إليها وكأنها الأخت الصغيرة التي كانت ضالة فوجدت، وقد عبّر أحد الملصقات الاعلانية في منتصف العشرينات من القرن العشرين عن تلك النظرة حيث نشاهد ماريان، وهي ترمز الى فرنسا، ممسكة بيدها فتاة قويّة عارية ترمز إلى لبنان الجديد في مسيرته نحو التقدم.

إذا كانت الرعاية التي أحاطت بها فرنسا لبنان بديهية فإن الرؤية الفرنسية كانت تذهب أبعد من ذلك. «فالرسالة التمدينية» التي اضطلعت بها فرنسا كانت على مستوى الشرق كله. والاستثمارات الفرنسية التي كانت قائمة حتى قبل الحرب العالمية، ازدادت بشكل ملحوظ في سوريا كلها إبان عهد

الانتداب. قامت فرنسا بإنجازات جبّارة لا جدال فيها في المجال الثقافي لتدعم المقولة القديمة التي تدعيها والتي تستند الى «رسالتها التمدينية». كانت الفرنسية اللغة المرجع للنخب في سوريا كلها، وليس فقط في لبنان. وكانت شبكة المدارس والفنادق والمستشفيات التي انشأتها البعثات الدينية الفرنسية على امتداد المشرق كله لاتني تتسع ويزداد عددها يوماً بعد يوم. وبالإضافة الى المؤسسات الرهبانية الفرنسية أنشئت مدارس تابعة للبعثة العلمانية الفرنسية، وهي جمعية تأسست في العام 1902، وسعت الى نشر قيم الجمهورية الثالثة في الخارج[11]. وتبعاً للنموذج المغربي الذي وطّده الجنرال ليوتي تجسيداً منه «لرسالة فرنسا التمدينية»، حاول المفوضون الساميون أن ينشئوا في سوريا ولبنان مؤسسات ثابتة وتجهيزات عامة يشرفون عليها[12].

كان على سوريا أن تلعب دوراً يتخطى حدودها الجغرافية. فهي بصفتها نقطة وصل بين افريقيا وآسيا، كان عليها أن تساهم في توفير الحماية للخطوط التجارية والتعزيزات الحيوية التي تحتاج إليها امبراطورية استعمارية باتت تفرض سيطرتها على القارتين، من خلال تعزيز استقرار «الدولة الاسلامية» التي كانت فرنسا تطمح إلى أن تكونها. ومن الزاوية الاقتصادية، كانت سوريا تعتبر الرافعة في عملية الانتشار الفرنسي. وهكذا كان الفرنسيون ينظرون إلى المستقبل الاقتصادي للأراضي التي هي تحت إشرافهم من زاويتين، تمّ تحديدهما في بداية الانتداب، وعليهما أن يجعلا من سوريا منطلقاً للتبادل التجاري. محور يسمى محور أو «معبر أرمينيا» ينطلق من الاسكندرون ويصل حلب والموصل وجنوب تركيا وأرمينيا وشمال فارس وصولاً حتى أذربيجان ومعبر آخر يسمى «خطّ الصحراء» وينطلق من بيروت متشعباً عبر سوريا وفلسطين حتى يصل إلى العراق وجنوب بلاد فارس وشبه الجزيرة العربية. وبالرغم من أهمية البترول في الموصل والاهتمام الذي تبديه إدارة الانتداب في حلب في استمرار تدفقه، فإن المحور الثاني مؤهل للعب دور اقتصادي طليعي، خاصة بعد الخيبات المبكرة لفرنسا في كيليكية. وعلاوة على ذلك، كان معبر قلب الصحراء يفيد من القفزة التي حققتها بيروت، باختيارها مقراً لسلطات الانتداب الفرنسي والتي أصبحت عاصمة سوريا تقريبا، وبالتالي لا بدّ أن تكون بيروت نقطة انطلاق أو أداة لتنفيذ «رسالة فرنسا التمدينية».

هذه المكانة المرموقة بلغتها بيروت لسببين أولهما الهزيمة التي مُني بها الملك فيصل وثانيهما الانتصار الذي حققه الجبل بحيث باتت المدينة ملحقة به، لذا وجد قسم كبير من البيروتيين مدينتهم تتحول إلى عاصمة وعلى الرغم من ذلك فلا زالت تساورهم مشاعر متناقضة من الاحساس بالهزيمة وضياع الهوية العربية. وفي الواقع إن عدداً كبيراً منهم رفض أن يستلم بطاقة الهوية الجديدة التي وزعتها سلطات الانتداب وحدّدت له انتماءه الوطني. ولكن، فيما يتعدى الشعور بالغبن الذي كان يحس به تحديداً المسلمون السنّة في لبنان فإن انهيار العالم العثماني القديم أخلّ بالاستقرار لدرجة أن لا

شيء بوسعه أن يضمن عودة التآلف مع الداخل. حتى إن الرؤية الشاملة التي رسمتها إدارة الانتداب لم تكن تعني أن الدور الذي لعبه تجار بيروت منذ عقود مع داخل البلاد يمكنه أن يستمر. فمراقبة الرساميل الفرنسية اتحدت بترسيم الحدود بين البلدان، مما خلق لدى المواطنين شعوراً بالغبن. وإذا كانت شريحة من البورجوازية، المسيحية على وجه خاص، راضية بوظيفتها كمستشارة استعمارية، فإن نقل المصالح الأجنبية لم يلبث أن أثار بعض التشنجات كما أظهر ذلك الإضراب الذي جرى في العام 1931 ضد الشركة البلجيكية - الفرنسية للكهرباء والترامواي التي اتهمت بأنها ترهق كاهل الناس بالأسعار غير المحتملة التي تفرضها.

وكانت الرقابة المشدّدة التي تفرضها سلطة الانتداب بادية للعيان من خلال المورفولوجيا الرسمية لبيروت. أولاً، بدا حجم المدينة المتواضع غير متناسب مع وظيفتها المزدوجة التي اضطلعت بها كعاصمة لدولة لبنان الكبير وكمركز لسلطة الانتداب. ثمّ إن الإدارة التابعة للانتداب قامت بخيار رمزي من خلال اختيارها الثكنة العثمانية الضخمة الواقعة فوق تلة القنطاري مقراً للمفوض السامي ورئيس الأركان. منذ ذلك الحين، أطلق على المبنى اسم السراي الكبير، تمييزاً له عن السراي «الصغير» الموجود في ساحة الحميدية القديمة – التي أصبحت ساحة الشهداء – وكان مخصصاً لدوائر الحكومة اللبنانية. وعدا ذلك، كانت الحامية الفرنسية المؤلفة من القناصة السينغاليين، متمركزة في ثكنات واقعة على أطراف المدينة. وهكذا كان الانتداب يشرف على المدينة ويحيط بها في آن، ولن يلبث أن يطبع عليها بصماته.

الانطلاقة المستعادة

استلمت الإدارة الفرنسية دفة البلاد منذ خريف 1918 وأكبّت في باديء الأمر على مهمة محو آثار الحرب التي كانت مأسوية وفقاً للوصف الذي أجراه الكونت مينيل دو بويسون Mesnil du Buisson عام 1921، وقد مرّت فترة على انتهاء الحرب: «تبدو مدينة بيروت اليوم حفنة خراب، وعما قريب لن تسمح المباني الحديثة لعالم الآثار بأن يتمكن من التعرّف على معالم المدينة القديمة. فالأسوار سبق لها أن اختفت منذ ما قبل الحرب، وكذلك الحصنان القديمان والبرج الرئيسي الموجود في الجهة الجنوبية - الشرقية والمرفأ القديم بدكاكينه الرائعة، وأخيراً المدينة نفسها التي كانت تشكل كتلة متراصة استطاعت الصمود رغم كل شيء. خلال الحرب، شرع الحاكم التركي في تدمير الأحياء القديمة ولم يتردد في أن يرمي خارجاً، ودون تعويض، مئات البؤساء الذين أهلكت القسم الأكبر منهم الأمراض والمجاعة[13]». لا شك أن الوصف مبالغ فيه ويمزج بين عدّة مستويات لا علاقة لأحدها بالآخر. وهكذا يبدو اختفاء الأسوار وكأنه على علاقة بالحرب، مع إنها لم تعد مرئية منذ خمسين سنة



الثكنة العثمانية بعد أن أصبحت السراي الكبير، مقر المفوضية العليا الفرنسية.

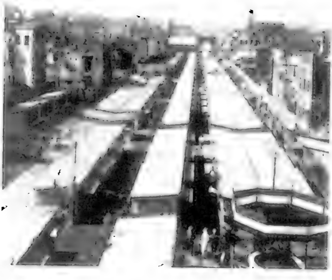


مقر ولاية بيروت الذي اصبح مقر الحكومة اللبنانية أو السراي الصغير.

بعدما فرض المرفأ الجديد منطقه منذ نهاية القرن الماضي. أما بالنسبة «للحكومة التركية»، فإن تدميرها الأحياء القديمة كان استجابة لخطّة عمرانية يرقى عهدها إلى ثلاثين عاماً. وإذا كانت الحكومة لم تستطع في المدينة القديمة أن تنفذ إلاّ مرحلة التدمير للأحياء القديمة، إلا إنها نجحت مع ذلك في إنجاز ميدان السباق والسينما - الكازينو المجاورة له والتي أُعدّت لتكون مقر المفوض السامي لفرنسا في المشرق. لا ضير في ذلك، حين وصل الحلفاء إلى بيروت في تشرين الأول / اكتوبر. كانت أعمال التدمير التي بوشر بها في ابريل/ نيسان 1915 قد امتزجت بآثار القصف – التي يعود بعضها إلى 1912 - لتترك انطباعاً بالخراب وتداعي الأبنية، وهذا الانطباع تزيد فيه ذكرى محن الحرب والمجاعة.

انكبّت الإدارة الفرنسية على معالجة آثار الحرب التي أوقعت العديد من الضحايا البشرية والخسائر المادية الفادحة خلال الحرب العالمية فسارعت الى وضع برنامج انقاذ مباشرة بتوزيع المؤن الغذائية على السكان الذين اختزلوا إلى الثلث بسبب الحرب والمجاعة، وقد بذل الفرنسيون كل ما في وسعهم من نشاط واتخذوا كافة الإجراءات الضرورية لمعالجة الأوضاع الطارئة بالتعاون مع الانكليز الذين هبّوا بدورهم إلى دعم الخطة الإنقاذية. وأنشئت مستوصفات ميدانية بتوجيهات من المفوضية السامية وأدخل عشرة آلاف طفل المستشفيات في بيروت خلال اثني عشر شهراً وتلقى مئة وثمانية وثلاثون ألفاً من البالغين علاجاً طارئاً[14]. واهتم الفرنسيون أيضاً بإطلاق سير الخدمات العامة من جديد، بدءاً بالمرفأ.

ومنذ رفع الحصار البحري، في نهاية كانون الأول/ ديسمبر 1918، أزيلت الألغام، وأستؤجرت تجهيزات من شركة قناة السويس لتأهيل حوض المرفأ وتنظيفه من الأنقاض – التي يعود بعضها إلى



تجهيزات المعرض الدولي في بيروت.

القصف الايطالي عام 1912. عاد المرفأ إلى سابق نشاطه تماماً في 1920. وعلاوة على رفع الحطام وإعادة تأهيل المعدات، عُزز رصيف المرفأ في عرض البحر. وبفضل هذه الأعمال الأولى، حلّ مرفأ بيروت مكان بور سعيد حيث رسا الأسطول الفرنسي خلال الحرب، وأصبح القاعدة الكبيرة لشاطئ المتوسط الشرقي. واستعادت الخطوط المدنية البحرية أعمالها، واستقبلت بيروت عام 1922، 742 سفينة فيما لم تستقبل عام 1919 إلاّ 370 سفينة، مُعيدة إلى المرفأ المكانة التي وصل إليها قبل الحرب.

كذلك كان الاسهام الفرنسي كبيراً في إعادة إرجاع الثقة بالسوق المحلية فأنشئت سوق دولية في 1921 وافتتحت في 30 ابريل/ نيسان واستقبلت 1200 وكيل شركة آتين من عشرة بلدان مع غالبية ملحوظة للوكلاء الفرنسيين. وعرفت هذه السوق نجاحاً ملحوظاً لأن جميع البضائع بيعت ميدانياً. وبهذه المناسبة صدر دليل سياحي، وكان أن عكست هذه الاجراءات إرتياحاً لدى السكان وخففت من النظرة السلبية التي كان ينظر بها السكان إلى سلطة الانتداب.

وفي غضون بضع سنوات، استعادت بيروت جزءاً من اندفاعتها السابقة وعادت لتواكب العصر. وفيما لم يكن هناك سوى نصف دزينة من الأوتوموبيلات أبان الحرب، أُحصي وجود 376 مركبة مزودة بمحرّك في 1921. ودخلت المكننة إلى وسائل التسلية. وافتتحت عدة صالات سينما أعمالها واتخذت جميعها أسماء فرنسية كسينما شي دوفر Le Chef d'œuvre التي افتتحت في ساحة البرج في 1919 وسينما لوكوسموغراف Le Cosmographe، طريق الشام وسينما لوباتي Le Pathé والكريستال، التي كانت تتحول إلى مسرح في بعض المناسبات. وسرعان ما عادت «الحياة الاجتماعية» إلى الأوساط الميسورة. ومنذ عام 1921، بدأ الحديث عن إقامة سهرات باذخة تحييها العائلات الثرية في المدينة، مستوحاة من حفلات الاستقبال التي كان يقيمها الجنرال غورو والتي اجتذبت ما بدأ يسمى الوسط البيروتي الراقي إلى قصر الصنوبر. وأشار الدليل السياحي لعام 1921 إلى وجود عدة مطاعم. فبالاضافة إلى مطعم «كوكب الشرق»، كان هناك في ساحة البرج المطاعم التالية: ,La Tour Eiffel La Paix, Les Alliés, Le Restaurant d'Europe, Le Restaurant de Paris. وعلى واجهة مطعم «ألفونس» حيث كان الدليل يشير إلى انه بإمكاننا رؤية الجنرال غورو يتناول الغذاء[15] وثمة شهادة لاحقة تشير إلى أن المطعم يوصف بـ المطعم – الكاباريه Restaurant – Cabaret المشرقي – الأوروبي[16]. وكان الدليل يرشد الذواقة إلى تناول طبق «الدجاج المسمّن» Chapon fin ويرشد محبي المطبخ الشرقي إلى مطعم العرب في باب ادريس. كانت هناك حفلات تقام أحياناً في مطعم سان جيمس Saint-James وفي فندق بسّول فيما شهد كازينو «تباريس» الذي سُميّ بهذا الاسم، ولا شك تيمناً بالكازينو الشهير في بوينس أيروس، استعراض نجمات أوروبا ضمن الاطار الباذخ الذي أوى سابقاً مقر قنصل انكلترا...

على الاستقالة في سبتمبر 1952. لم يكن عهد الرئيس شمعون إلاّ تأشيراً أولياً لمرحلة النجاح العتيد الذي لن يصل إلى ذروته، إستناداً إلى الأرقام، إلاّ في مطلع السبعينات. ومع ذلك فإن الست سنوات التي حكم خلالها شمعون هي التي بقيت في الذاكرة الجماعية وكأنها الصفحة الأبهى. على الأقل في تاريخ سكان بيروت. وبدلاً من أن تتعثر بداية الازدهار هذه ساهمت الظروف الأقليمية المتضافرة التي تميزت بالاضطراب آنذاك على إظهارها بشكل أفضل. ويجدر القول إن نتائجها على لبنان ذهبت في اتجاهات معاكسة. وإذا آل منطق الحرب الباردة إلى خلق مؤثرات كبيرة في المنطقة في أعقاب إتفاق بغداد وأزمة السويس والوحدة السورية المصرية، انعكست سلباً على الوضع في لبنان وتسبّبت بنشوب الحرب الأهلية القصيرة الأمد في 1958، فإن تسارع الأحداث في الدول المجاورة جعل من لبنان الملجأ الأمين في المنطقة. وأفاد لبنان آنذاك بفضل قانون السرية المصرفية، من توظيفات نقدية هامة وفّرت له ما يحتاج إليه من دعم لاستيعاب نتائج فتنة 1958. لكن الفساد لم يختفِ إطلاقاً ولا أيضاً تركز السلطة الاقتصادية في أيدي شريحة صغيرة من المجتمع. أما التجاوزات التي سببتها محاباة الأقارب والتي ميّزت عهد بشارة الخوري، فتوقفت. وفي أية حال لم يعد احتكار رأس المال التجاري يثير أية فضيحة، لان الأرباح الناتجة عنه توزعت على شريحة واسعة من المنتفعين وساهمت في تنمية الاقتصاد الوطني الذي انعكس إيجاباً على مستوى معيشة الطبقةالوسطى التي كانت في طور تشكلها. لم يترك لاقتصاد السوق وحده بمعالجة الشأن الاقتصادي. واستطاعت الطبقة الوسطى في العاصمة أن تقف على قدميها من جرّاء هذه الانطلاقة.

واستخلص الجنرال فواد شهاب، قائد الجيش، الذي خلف آنذاك شمعون في رئاسة الجمهورية العبرة الاجتماعية من هذه الحرب. وبالتوازي مع إعادة تحديد السياسة الخارجية للبنان لصالح مصر الناصرية ومشاركة متزايدة للنخب المسلمة في الحياة السياسية، اختار شهاب أن يرسخ آليات للإصلاح الداخلي. بدأ عمله باستدعاء بعثة «إرفد» للأبحاث والتنمية التي يديرها الأب لوبريه Lebret فكشفت بعثته عن تمركز السلطة الاقتصادية في نطاق أضيق مما نتصور، إذ إن 4 % من السكان تستأثر بمجمل الدخل القومي. واقترح شهاب عندئذٍ تصحيح ذلك بمبادرة سلمية ترمي في الوقت نفسه إلى بناء مؤسسات تابعة للدولة من شأنها تشجيع إعادة توزيع الثروات وتوجيه النموعبر تهيئة الساحة الداخلية. ومن دون أن تلجأ إلى إجراء صارم شبيه بالأسلوب الذي تعتمده السلطة القمعية في الدول ذات الاقتصاد الموجه، سعت الشهابية، إلى بناء دولة حديثة فعمدت إلى تسيير عجلة الاقتصاد وفقاً لمقتضيات التوجهات الاقتصادية السائدة في البلدان المتقدمة بحيث تضاعفت نفقات القطاع العام بنسبة قريبة من سوريا الاشتراكية، وأنشئت وزارة للتخطيط في 1963 ووضع المصرف المركزي حداً للتجاوزات الموروثة من عهد الانتداب والذي عهد بامتياز إصدار العملة لمؤسسة خاصة رساميلها

من ربعهم في بيروت وقد أقاموا بطريقة عابرة في معسكر الكرنتينا قبل أن يجدوا مأوى بشكل تدريجي وأحياناً طالت بهم الاقامة دون مسكن ثابت[18].

وأياً تكن دقة الأرقام فمما لا شك فيه أن النمو الديموغرافي في بيروت، خلال العقد الأول من الانتداب إزداد باطراد. كانت الهجرة من الأرياف تمد المدينة بالرافد البشري وبدت الزيادة واضحة من خلال امتداد مساحة المدينة وكثافة البناء. وفي نهاية هذا العقد، أعطيت رخص البناء لكل فئات السكان وتجاوزت على نطاق واسع الألف كل سنة 1121 في 1929، 1481 في 1931[19]. وكانت هذه الحيوية البشرية تعطي ثقلاً بشرياً لمدينة هيأها موقعها لتكون عاصمة البلاد وجعلتها التحولات الاقتصادية الاقليمية واجهة المشرق. كما جاءت الانجازات العمرانية الكبيرة التي كانت قيد التنفيذ خلال عهد الانتداب لتطلق على المدينة لقب «الحاضرة» من خلال تحديد المحاور الكبيرة لتطورها اللاحق.

كانت أعمال الانتداب انطلقت في وقت مبكر جداً من تواجدها في المدينة. ومنذ ولاية الجنرال غورو، شُرع في أعمال التجديد وفقاً لخطة عمرانية استطاعت في بضع سنوات أن تحوّل المدينة القديمة الموجودة داخل الأسوار إلى مركز تجاري حديث (راجع الفصل الثاني عشر). وقبل إنهاء هذه الخطة، أحدثت التدابير الأولى انفجاراً عقارياً، كما أشار بفخر المستشار بوبون Poupon، في بيان الاتحاد الاقتصادي في سوريا *Bulletin de l'union économique de Syrie* الذي لعب دوراً كبيراً في تجميل المدينة[20]. وخلال خمس سنوات تضاعف سعر الأراضي وفي بعض الحالات ازداد نسبة ثلاثة أضعاف فيما سمحت رخص البناء العديدة للبلدية بتأمين مداخيل إضافية جوهرية. وخلال العقد الأول من الانتداب، أصبحت بيروت، على أية حال ورشة ضخمة سيما أن الخطة العمرانية المقصودة والانشاءات الخاصة أضيفت إليها أعمال أخرى على نطاق واسع كإنشاء شبكة مجارير واتساع نطاق الانارة العامة وانتاج التيار الكهربائي واستبدال عربات البغال التابعة للبلدية بمعدات ممكننة. والى هذه البنى التحتية أنشئت تجهيزات مدرسية واستشفائية خاصة لكنها متصلة من قريب أو من بعيد بسلطة الانتداب.

وظيفة تربوية راسخة

إذا سلّمنا بالأرقام فإننا لا نجد بالنسبة إلى المدارس والفنادق مؤشرات نمو واضحة كتلك التي نجدها في قطاعات النشاط الأخرى. والسبب بديهي: كانت المدينة مزدهرة بما يكفي في هذين الميدانين منذ القرن السابق. ونظراً للعدد الهام للمؤسسات التربوية والصحية الأجنبية أو المحلية التي باشرت أعمالها آنفاً في جميع الأحياء، لم يجد الانتداب نفسه بحاجة إلى الشروع في عمل خاص في هذا الميدان، خارج استحداث شهادة للدروس الابتدائية وافتتاح دور المعلمين، واعتادت السلطات اللبنانية

بعد الانتداب أن تقتصد في النفقات المتعلقة بالتعليم والاستشفاء[21]. وفي الواقع، بقي التعليم العام والثانوي والعالي غير موجود عملياً في بيروت وفي باقي المناطق اللبنانية خلال فترة الانتداب، فيما بذلت جهود في هذا الاتجاه في الدول السورية الأخرى. لكن، ورغم ذلك ترسخت دعوة بيروت التربوية. وازدادت شبكة المدارس المنتشرة أصلاً من حيث العدد والنوع. على سبيل المثال في 1927، تأسست المدرسة البروتستانتية الفرنسية على يد لويز فيغمان، بمبادرة من سيناتور الزاسي وكان مركزها في المستشفى الألماني القديم. من جهتها، عززت البعثة الفرنسية العلمانية، الموجودة منذ مطلع القرن امكانيات مدرستها في بيروت على استقبال التلامذة بعدما انتقلت عام 1924 إلى بنائها الجديد في طريق الشام.

ولكن عاصمة الانتداب رسخت موقعها كمتروبول اقليمية على الصعيد الجامعي. كانت الجامعتان الموجودتان أساساً، تقدمان خدمات تربوية على مستوى رفيع رغم أنهما تأثرتا بالحرب. وأطلق على الكلية السورية الانجيلية اسم جامعة بيروت الاميركية في 4 شباط 1921: لم تكن هذه الجامعة تستطيع الاعتماد على دعم من سلطات الانتداب. وما زاد وضعها سوءاً في هذا المجال هو إن رئيسها هوارد بلس – إبن مؤسس الجامعة، أخذ عليه بأنه عمل في الكواليس لصالح لجنة كينغ – كراين المنبثقة عن عصبة الأمم وهذه المهمة تتعارض كلياً مع المشروع الكولونيالي الفرنسي. على أية



ليسيه البعثة العلمانية الفرنسية، طريق الشام (تقاطع السوديكو حالياً).

حال، كانت بريطانيا تبذل المساعي الحثيثة لاضفاء الطابع الانكليزي على الشرق الأدنى الواقع تحت هيمنتها وقد عمدت إلى مكننة المواصلات لكي تؤمن لها تأييداً كثيفاً لها وراء الحدود. وبالمقابل كانت جامعة القديس يوسف سفينة القيادة لـ«رسالة» فرنسا «التمدينية» التي تضطلع بها فرنسا وبات من غير الممكن الاعتماد فقط على الحظوة القديمة لفرنسا الوصية المؤتمنة على الشعوب. وهذه الصورة عن فرنسا لم تهتزّ إلاّ في مناسبة واحدة، بعد إعادة افتتاح كلية الطب وإنشاء كلية حقوق في دمشق. فالأب شانتور Chanteur وهو الرئيس الأعلى لليسوعيين، طالب المسؤولين في وزارة الخارجية والجنرال غورو حينئذٍ باقفالهما. والجنرال غورو استجاب لطلبه. لكن القومندان كاترو الذي مثله في دمشق تخطى أوامر رئيسه واستطاع لمرة واحدة أن يشارك في تحديد خيارات الانتداب مقدماً دعمه انشاء الجامعة السورية على يد محمد كرد علي. لكن هذا لا يعني أن الجامعة اليسوعية لم تجد مبرراً لاستمرارها في البيئة التي تولدت بعد انتهاء الحكم العثماني. اذ استطاعت أن تكون في الوقت نفسه مدرسة الكوادر للدولة اللبنانية الفتية والمنجم الذي أعدت فيه النخب الاجتماعية بفضل جامعات الطب والحقوق والهندسة مجتذبة باستمرار طلاباً من فلسطين وسوريا، كما تظهر ذلك لوائح الأجازات المعطاة في الطب والصيدلة وطب الاسنان في الفترة التي امتدت بين الحربين العالميتين[22].

وبدت إعادة افتتاح الجامعة اليسوعية في 1919 وكأنها مرحلة شبه تأسيسية. وإذا كانت كلية الطب موجودة منذ 1881، فإن كليتي الحقوق والهندسة انشئتا في نهاية 1913 لكن لم تتسنَّ لهما المباشرة في أعمالهما قبل الحرب وشهد عام 1919 انطلاقتهما. وبعد سنتين، انضم اليهما فرع طب الاسنان الذي ساهم في تخريج دفعة من الأطباء حققوا انطلاقة سريعة في ميدان اختصاصهم. وكلية الطب لا يقل طلابها عن 250 طالباً. لكن كلية الحقوق، من خلال الالتزامات السياسية التي تقتضيها طبيعة المادة المدرّسة، أصبحت السارية التي رفعت عليها راية التعليم العالي في ظل الانتداب في تلك الحقبة. كانت دراسة الحقوق هي الطريق المثلى للحصول على الوظائف الإدارية وكانت مهنة المحاماة تعتبر وكأنها المرقاة الضرورية لبلوغ العمل السياسي. من هنا جعل انشاء دولة لبنان الكبير كلية الحقوق تضطلع بمهمة أو برسالة ذات فائدة عامة. وكان إنشاء نقابة محامي بيروت الذي ترافق في 1919، مع إحياء كلية الحقوق واستبق دولة لبنان الكبير، يُجسّد ميدانياً الأهمية التي اكتسبتها الكلية. وكما كانت كلية الطب تمنح شهادة دولة تؤمن للطلاب الامتيازات نفسها التي تؤمنها الأجازات الصادرة عن الجامعات الفرنسية، فإن كلية الحقوق كانت تعمل وفقاً لشروط تربط الجامعة الفرنسية - وبالتحديد جامعة ليون - بإدارة اليسوعيين. ولكن، تأكيداً على الدور الذي جرى إعدادها لتلعبه، كانت المواد الدراسية الجامعية في اختصاص اللغة الفرنسية وآدابها قد حددت لتستجيب لحاجات محلية: استبدلت مرحلة السنوات الثلاث التحضيرية لشهادة الليسانس، المؤسسة عام 1920، بدراسات في موضوع

الشرع الاسلامي تعطى بالعربية، وابتداء من 1925 بدراسات في القانون الاداري اللبناني. وأضيفت مواد جديدة لتحضير شهادة الدكتوراه لاحقاً ووضعت قيد التنفيذ فجرت المرافعة الأولى في أطروحة شهادة الدكتوراه عام 1942.

استكمل المشروع الجامعي الفرنسي بإنشاء مستشفى كبير، مستشفى أوتيل ديو L'Hôtel-Dieu de France. يعود المشروع إلى ما قبل الحرب حين اشترى مدير كلية الطب الفرنسية قطعة الأرض الواقعة على المنحنى الجنوبي لتلة الأشرفية ثم اختير المنهدسون المعماريون من بينهم يوسف افتيموس الشهير، وتولّت أمر التنفيذ لجنة آسيا الفرنسية[23]. عندما اندلعت الحرب، كانت مواد البناء تصل لتوها إلى موقع البناء. ومع عودة السلم، لم يعد لدى كلية الطب الفرنسية الوسائل لانجاز مشروع البناء كما يجب. لذا استعانت بمستشفى القديس جاورجيوس للروم الارثوذكس لاعداد طلابها لمدة ثلاث سنوات[24]. وهذا الوضع لم يكن يرضي طموح القيمين على الشأن التربوي ولا يمكنه أن يلقى ارتياحاً لدى سلطات الانتداب. وهكذا قرر غورو أن يخصص مليوني فرنك لميزانية لبنان الكبير من أجل إطلاق المشروع ووضع أول حجر للأساس في 2 أيار/ مايو 1922. وبعد سنة، في 27 أيار 1923، دشن خَلَفُهُ ويغان المبنى الذي انتصب وسط المساحة التي تبلغ ثلاثة هكتارات في منطقة قلّما كانت مأهولة بالسكان آنذاك وبالتالي فهي ملائمة لراحة المرضى. وكانت المفوضية السامية تقدم الاعانات للمستشفى الذي يتسع لمئة سرير والمجهز بأربع غرف عمليات وبأحدث معدات الجراحة. وكان باستطاعة الطلاب الداخلين أن يكملوا إعدادهم عن طريق زيارة عدة أطباء بارعين فرنسيين في كل عام. وكان التنسيق بين مستشفى أوتيل ديو وكلية الطب الفرنسية التي الحق بها المستشفى، يعطي دوراً أكبر للجامعة اليسوعية في المشهد التربوي لبيروت. وبالاضافة إلى إعداد الأطباء، كان لا بدّ لكلية الطب الفرنسية أن تستجيب للحاجات الجديدة لمستشفى أوتيل - ديو في ما يخص العاملين في المستشفى والدفعة الأولى للقابلات القانونيات اللواتي تخرجن عام 1924. ولاحقاً، أضيف إلى المستشفى جناح آخر مع إنشاء قسم التوليد الفرنسي الذي أُنجز في 1938 مقابل الكامبوس، على طريق دمشق حيث عُهد بالحضانة عام 1943 لأول امرأة تخصصت في الطب في بيروت وهي الدكتورة إيلين صافي[25].

ولن يتغير المشهد التربوي الموروث من القرن التاسع عشر بعد التحولات التي جرت في مطلع عهد الانتداب، بل سيظل يطبع لبنان المستقل حتى الستينات من القرن العشرين. وهناك ظاهرتان يمكن أن نردهما إلى مبادرة الدولة اللبنانية أكثر منهما إلى المبادرات الفرنسية وهما استحداث تأسيس شهادة البكالوريا اللبنانية في 1923 وافتتاح الاكاديمية اللبنانية للفنون الجميلة في نهاية الثلاثينات من القرن العشرين وهي مؤسسة خاصة استطاعت أن تعد طلابها في الهندسة المعمارية إعداداً عالي المستوى مهدّت به السبيل لولادة الجامعة اللبنانية العتيدة.

ظل حيفا

ترك نشاط الانتداب انطباعاً أكثر اعتدالاً في المجال الاقتصادي. بيد أن الاقتصاد كان من أهم المبررات التي قُدمت لإنشاء دولة لبنان الكبير. ففي الفترة الانتقالية بين نهاية الحكم العثماني وإعلان الجنرال غورو دولة لبنان الكبير، كان فريق المفكرين المسيحيين المؤيدين لفرنسا أو المتعاطفين معها الذين تبنّوا طروحات المجلة الفينيقية قد أكدوا أن الاستمرار الاقتصادي للبنان مرتبط بعودته الى «حدوده الطبيعية»، ودافعوا عن اقتصاده الموجه نحو الخدمات والتجارة والترانزيت والمصارف والسياحة على غرار النموذج السويسري. أما النتائج فلم تكن تلقائياً مقنعة. ليس لان الجهود غير متوفرة، كما اُتهمت فرنسا عدة مرات. شكلّت بيروت وهي عاصمة السلطة الانتدابية وواجهة «الرسالة التمدينية». نقطة الارتكاز للاقتصاد الفرنسي في المشرق وانكب الانتداب، إضافة إلى الأعمال الانقاذية الطارئة ومن ثم المهمات المتعلقة بتجميل مظهر المدينة وتنظيفها، على تثبيت موقعها من خلال تحسين علاقاتها بباقي دول المنطقة. لكن هذه الجهود كانت تواجه بجهود مماثلة تبذلها بريطانيا لتنافس بها فرنسا في العراق وشرق الاردن وخاصة في فلسطين. زد على ذلك إن التنافس الذي كان يضع الدولة الفرنسية المنتدبة في مواجهة الدولة الانكليزية المنتدبة، كان ملحوظاً بشكل خاص في بيروت سيما مع التحديات التي بدأت ترفعها المدن الفلسطينية في وجه بيروت وتحديداً مرفأ حيفا الجليلي.

أدت هذه المنافسة بين فرنسا وبريطانيا إلى ترسيم الحدود بين الدول. لا بل جرى استباق القسمة الأمبريالية على يد بعض المؤيدين المحليين لهذا المشروع. وهكذا، وفي اللحظة التي كانت فيها المجلة الفينيقية *La Revue Phénicienne* تدعو إلى تشريع الحدود الجديدة لأسباب إقتصادية ظاهرياً، كان أمين مشحور أحد المساهمين فيها يبدي قلقه مسبقاً من المنافسة المحتملة الآتية من حيفا قائلاً: «نتساءل عما إذا كان مرفأ بيروت سيحافظ على ازدهاره السابق أم انه بعد إتمام معاهدة السلام وترسيم الحدود السورية لن يتسنى له أن يكون أكبر مرفأ في سوريا بل فقط أكبر مرفأ في لبنان والبقاع، نظراً للمنافسة التي سيلقاها من حيفا. بإمكان المستقبل أن يخبئ لنا مفاجآت غير سارة[26]». وفي مقالة أخرى يدعو ابراهيم تابت السلطات الفرنسية إلى توسيع المرفأ وتحسين شبكة خطوط الحديد من خلال جعل المدينة وكأنها المحطة النهائية لكل خطوط الداخل والتخلي عن خطط إنماء مرفأ طرابلس بحجة إن بيروت يجب أن تكون مركز نشاط الانتداب الفرنسي في سوريا[27].

وفي إطار المنافسة بين الدولتين العظميين، لم يكن الانتداب الفرنسي متخلفاً عن بريطانيا العظمى. وقد سجل نجاحاً لا جدال فيه في ميدان الاتصالات من خلال استثمارات في خطوط الهاتف والاتصال اللاسلكي. جُهّزت المدينة بخطوط الهاتف، ثم أنشئ مركز إتصالات دولي

مزوّد بخطوط إرسال قوية جداً من خلدة الواقعة في الضاحية الجنوبية الكبيرة لبيروت وبأجهزة استقبال في رأس – بيروت. وكان هذا المركز الذي أطلق عليه اسم **راديو أوريان Radio Orient**، يؤمن الاتصال الفوري بين بيروت وباريس ونيويورك. وللحال تمَّ التخلي عن الأسلاك البريطانية التي تمر عبر مصر وسجّلت فرنسا نقطة ضد حليفتها وغريمتها بريطانيا، لان بيروت أضحت نقطة الاتصالات لكل البلدان في المنطقة ومن بينها تلك التي كانت تحت سيطرة لندن المباشرة أو غير المباشرة. على أية حال، لم يكن البيان الصادر عن الاتحاد الاقتصادي في سوريا، وهو لسان حال الانتداب، بريئاً في تشديده على أن **راديو اوريان** كان يؤمن الاتصال حتى بلاد فارس ويتلقى عدداً مرتفعاً باستمرار من الطلبيات الآتية من فلسطين. وهذا النجاح تخطى حدود التغطية الاعلامية إلى المنفعة المادية. حتى لو سعت المفوضية السامية إلى أن تجعل من بيروت مركز البث الاذاعي الهادف إلى «نشر الفكر الفرنسي المشع عبر الشرق الأوسط كله المتفاني في الوفاء للغتنا والمتنبه جداً لكل تجليات ثقافتنا[28]». فإن العالم الذي خلقته الإذاعة هيمنت عليه **إذاعة القاهرة** التي كانت تغطي في الثلاثينات من القرن العشرين الشرق كله، وأيضاً **إذاعة الشرق الأدنى** وهي محطة عربية انشأها البريطانيون في القدس. وفي هذا العالم حيث قلبت الوسيلة الجديدة للإعلام العادات الاجتماعية رأساً على عقب واندرجت في استراتيجيات القوى السياسية، فإن التقدم الذي أحرزته في هذا المجال دولتان واقعتان تحت السيطرة البريطانية انعكست نتائجه في الميدان الثقافي، مرتع الانتداب المفضّل.

وكان تحسين البنية التحتية للمواصلات قد احتفظ في بيروت، على الأقل في العشرينات من القرن العشرين، بحسنة جغراستراتيجية في ظلّ المنافسة المحتدمة على التجهيزات الفلسطينية. كانت الاستثمارات الفرنسية في خطوط الحديد هامة الشأن منذ ما قبل الانتداب وكانت شبكة خطوط شركة دمشق – حماة وملحقاتها التي تؤمن الاتصال عملياً بين كل مدن الداخل، قد جعلت مرفأ بيروت المتصل بدمشق عبر الخط القديم ذي الاسلاك المسننة ملحقاً بمجمل الأراضي السورية. ولكن، إذا كان هذا الخط، في بداياته ساهم في انتقال الاشخاص والبضائع على حد سواء، فقد هجره المسافرون وبات يقتصر فقط على أعمال الشحن ووجب في النهاية القيام برحلة تستغرق عشر ساعات للوصول إلى دمشق عبر القطار فيما لا تستغرق إلاّ ثلاث ساعات بواسطة السيارة. وهكذا سمحت السيارة بجعل المواصلات متاحة أمام الجميع، لان نظام سيارات التاكسي الجماعية أتاح للمسافرين سلوك هذا الطريق مهما تكن ميزانيتهم. لكن، ليست طريق الشام القديمة وحدها هي التي جُهزت لتصير صالحة لعبور السيارات. كذلك كل مناطق لبنان وسوريا رُبطت تدريجياً بشبكة من الطرقات الأسفلتية التي استلزم شقها أحياناً تنفيذ أعمال هندسية شاقة لا بل فتح أنفاق.

أتى التطور الذي شهدته السيارة وبالتالي النمو الناتج عنها في مجال البنى التحتية ليؤكد الحاجة الملحّة إلى إنشاء المحور «عابر الصحراء» الذي أثبتت عدة مبادرات فردية جهوزيته. وهكذا اجتاز فرنسيس كتانة في 1925، وهو وكيل سيارات من القدس لكنه ساكن بيروت، الصحراء السورية على رأس موكب ووصل دمشق ببغداد قبل أن يتابع رحلته وصولاً إلى إيران عارضاً لدى عبوره وضع ثروته الطائلة في خدمة بلدان عدّة وهذه الثروة جمع القسم الأكبر منها من تجارة السيارات. وفي 1931، ذهب أندريه سيتروان André Citroën أبعد من ذلك بكثير في رحلته الشهيرة التي وصلت إلى الصين. بعد أن نزل في بيروت، كان الأفراد الثلاثون في الطاقم الذي يواكبه ومن بينهم الأب تيار دو شاردان Teilhard de Chardin، قد أخذوا طريق دمشق ثم الصحراء باتجاه تدمر ليسلكوا إحدى أقدم طرق الحرير. وفي غضون ذلك، أنشئ خط منظم لحافلات الباص بين بيروت وبغداد عبر دمشق عام 1927، على يد الأخوين الاوستراليين اللذين اقتادتهما الحرب إلى الشرق الأوسط. وقبل ذلك بسنة، افتتحت إحدى شركات السيارات خطاً آخر لحافلات الباص بين بيروت وحلب مروراً بطرابلس وصولاً إلى خط طورس - اكسبرس ومنه إلى أوروبا.

وهذا الاختزال الجديد للمسافات، عدا عن التطور الضخم الذي أحدثه في مجال المبادلات الاقتصادية، أدخل في أذهان الأفراد مفهوماً جديداً تماماً عن المكان والزمان. وكما كتب البرت حوراني، بات السفر من العراق إلى سوريا الذي كان يستغرق شهراً قبل الحرب العالمية، ينجز آنذاك في اليوم نفسه. وبات بامكان طالب آتٍ من شمال العراق ليلتحق بالجامعة الأميركية في بيروت أن يقوم برحلته براً بدل المرور ببومباي[29]. وهكذا وبالرغم من ظهور الحدود السياسية، كانت مكننة المواصلات البرية تمنح بيروت إمكانية الافادة من خصائصها التربوية والطبية ومن صورتها كمدينة متحركة تحفل بالمواد الاستهلاكية الغربية المصدر، وهذان المجالان كانا يؤمنان لها ميزة تتفوق بهما على غريماتها الصاعدات في فلسطين.

ولم تكن بيروت وحدها التي جنت ثمار التطور في ميدان المواصلات البرية ففي أواخر العشرينات من القرن العشرين، شكّل مشروع إنشاء سكة حديد تصل حيفا ببغداد منافسة حقيقية لخطّ المحور الفرنسي المسمّى «عابر الصحراء» كما شكّل خطراً بوجه أخص على نشاط مرفأ بيروت المنفذ الوحيد على البحر المتوسط لهذا الخطّ. وإذا راجعنا الأمور لوجدنا أن المنافسة الفرنسية - البريطانية إنعكست إيجاباً ولا شكّ على مرفأ بيروت الذي أصبح امتيازه فرنسياً في 1925. ولكن هذا لم يمنع أن تكون المنافسة في المدى المباشر مع مرفأ حيفا قد حصلت بشكل سيء للغاية. ففي مجلة **كورسبوندانس دوريان** *Correspondance d'Orient* تصاعدت أصوات في 1929 تنتحب على الحلم الجميل برؤية بيروت تصبح سريعاً مرفأ الترانزيت لبلاد ما بين النهرين وبلاد فارس وأفغانستان والهند،

هذا الحلم الذي يوشك أن يتلاشى. لا شك أن الأعمال الطارئة في 1919 سمحت بأن يستعيد المرفأ مستوى التجارة الذي توصل إليه قبل الحرب. ثم جرت عام 1926 أعمال جديدة لتوسيع حوضه. لكن المرفأ مع ذلك لم يكن يستطيع أن يستقبل على رصيفه إلاّ البواخر الصغيرة. وهكذا ظلت الأوساط التجارية في بيروت تطلق ناقوس الخطر. وعند نهاية العقد الأول لعهد الانتداب كانت المنطقة الواقعة تحت السيطرة البريطانية تحرز تفوقاً ملحوظاً على الثنائي «الفرنسي» المؤلف من سوريا ولبنان. وكان التطور الاقتصادي لفلسطين يهدد بشكل خاص مستقبل بيروت بصفتها «بوابة الشرق». وعدا عن أن التطور الصناعي كان يحدث بوتيرة أسرع مما هي عليه في لبنان، كانت حيفا ترفع في وجه بيروت نوعين من التحدي، لأنه، بالإضافة إلى مرفئها المتوسع بأطراد، كانت المدينة الجليلية المحطة النهائية لخط أنابيب شركة النفط العراقية التي كانت تنقل النفط الخام من الموصل وكركوك[30].

وظهر تقصير بيروت بعد افتتاح مرفأ حيفا الجديد في اكتوبر/ تشرين الأول 1933، بأحواضه التي تمتد على مساحة 12 ألف هكتار وبتجهيزاته الأكثر حداثة والقادرة على استقبال السفن ذات الحمولة القياسية. كان المرفأ أكبر بمرتين من مرفأ بيروت، وخطره على بيروت أشد وطأة مشروع طريق سكة الحديد إلى بغداد، حتى انه بدا وكأنه «طريق هند ثانية[31]». واتهمت **الكورسبوندانس دوريان** البريطانيين بأنهم يزيدون الوضع تفاقماً بسبب شنّهم حملة اعلامية عنيفة عبر الصحف في العراق يستهدفون فيها المرتبة الرفيعة التي بلغتها بيروت من خلال إيحائهم بأن المحور «العابر للصحراء» والمارّ بدمشق ليس آمناً[32]. وكتب أحد الصحافيين في افتتاحيته بأن «بيروت تحتضر» ملقياً اللوم على اتفاقية سايكس - بيكو لأنها جزأت المنطقة الموّحدة التي كانت بيروت تحتل مكانة مرموقة فيها في مجال التجارة والتبادل. وكانت إحدى نتائج هذه الاتفاقية الكارثية أن بريطانيا العظمى بنت «مرفأ عصرياً» في حيفا لمنافسة بيروت فيما فرنسا لم تحرّك ساكناً[33]».

وبالإضافة إلى الضغوط التي تمارسها حيفا، كان هناك خطر أن يستأثر مرفأ مرسين التركي بحصة بيروت في التجارة المربحة مع العراق وإيران. وللرّد على هذه التحديات، طالبت الأوساط التجارية، اللبنانية كما الفرنسية، بتوسيع الانشاءات المرفئية وتحديثها وهكذا كتب رئيس غرفة التجارة عمر الداعوق الذي شن معركة ضد أنابيب النفط العراقية من أجل حماية خطوط التواصل مع الداخل، متوجهاً إلى المفوض السامي في مطلع 1933 ليطالب فرنسا بالقيام بمبادرة لمعالجة الوضع الناشئ. وأمام الخطر الذي يمثله «المرفأ الكبير الحديث» لحيفا، خاصة مع تبني مشروع السكة الحديدية باتجاه بغداد والجهود التي بذلتها تركيا لتستأثر بالتجارة باتجاه بلاد فارس، فإن انهيار الاقتصاد اللبناني، لا يستطيع، من وجهة نظر عمر الداعوق، بأن يُعالج من خلال بعض المهدئات كبناء المستودعات

الاضافية أو التوقيع على اتفاقيات تجارية من دون مفاعيل. وبسبب عدم اعتبار بيروت مرفأ حراً، طالب رئيس غرفة التجارة بإنشاء منطقة حرة وتخفيض الرسوم الجمركية وبناء خط سكة حديدية بين طرابلس والحدود الفلسطينية.

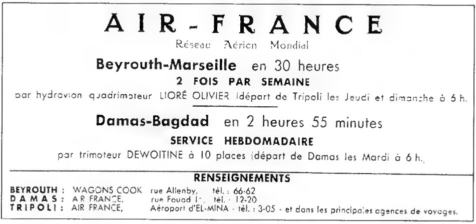
إن مثل هذا التوجه الذي حظي أيضاً بموافقة الهيئات الساهرة على المصالح الفرنسية التي ترعاها شركة مرفأ بيروت، لم يكن يجفل سلطات الانتداب - إلاّ فيما يخص تخفيض التعرفة الجمركية. وبالرغم من إدانة الأوساط التجارية المحلية للجمود المزعوم للانتداب، فان المسائل الاقتصادية كانت تستأثر بالجهد الأكبر من اهتمامات المفوضية العليا، منذ السنوات الأولى لعهد الانتداب. بدا أن المفوضين الساميين هنري بونسو ودميان دو مارتيل، اللذين بقي كل منهما سنين عديدة في مركزه - بخلاف المفوضين العسكريين الثلاثة وهنري دو جوفينيل - يراهنان على الاقتصاد بصفته حلاً للمشاكل السياسية. وأتت النتائج المحلية المترتبة عن أزمة 1929 لتبرز الحاجة لمثل هذه المقاربة للمشاكل. ووصل الأمر ببونسو، في معرض تحليله لأسباب الأزمة، الى حدّ القول إنه يريد أن يكون رغم كل شيء مفوضاً سامياً اقتصاديا. لكن دو مارتيل، الذي استلم زمام الأمور في 1933 أي في حين كانت حيفا ترفع وتيرة التحدي بالشكل الأكثر جدية، هو من استطاع أن يستجيب لتوقعات الأوساط التجارية، من خلال عمله الدؤوب على تنمية البنى التحتية، بدءاً بالمرفأ.

وفي مطلع 1934 افتتحت المنطقة الحرة التي سبق وأن اقترح إنشاءها رئيس غرفة التجارة. أقيمت المنطقة الحرة على مساحة واسعة في حرم المرفأ وأعدت، بالإضافة إلى نشاطات الترانزيت، لتكون صالحة لبعض أشكال الانتاج الصناعي. وبموازة ذلك، أطلقت ورشة لتوسيع المرفأ وبناء حوض ثانٍ شرقي الحوض الأول. وعلاوة على ذلك، تزامنت هذه الاجراءات مع تطور آخر لم يكن يعني بيروت مباشرة لكنه ساهم في الحد من صعود غريمتها، وهو تدشين إنشاء خطين جديدين لأنابيب النفط في طرابلس آتيين من العراق في 14 تموز 1934، وقد أنجزتهما شركة تكساسية باشرت أعمالها منذ سنتين ومن البديهي أن تنعكس نتائج هذا الانجاز سلباً على حيفا وعلى خطوط أنابيبها بالذات لأن خطي الأنابيب كانا يتبعان المسار نفسه على مسافة 240 كيلومتراً، قبل أن يفترقا، إنطلاقاً من محطة الضخ في حديثة، ويسلكا مسارين مختلفين، وإن بنفس المسافة تقريباً: 900 كيلومتر إلى حيفا على خمس محطات ضخ و850 كلم إلى طرابلس مع أربع محطات. وهكذا، بعد سبع سنوات من استخراج النفط في كركوك، استطاعت المناطق الواقعة تحت السيطرة الفرنسية أن تحظى هي أيضاً بحصتها من النفط الخام الآتي من العراق، وان تلبّي فرنسا حاجتها من النفط العراقي. وكانت كلفة نقل النفط إلى مرفأ لو هافر الفرنسي الذي وصلت إليه أول حمولة آتية من طرابلس في 14 آب/ أغسطس، أقل بثلاث مرات

من كلفة النفط المستورد من تكساس أو كاليفورنيا[34].

كما ساهم التطور الاقتصادي الذي انخرطت فيه فرنسا في الثلاثينات من القرن العشرين في إعادة الثقة إلى التجار والأوساط الاقتصادية حتى لو تأخر المرفأ الجديد الذي بنيت عليه الآمال، في ممارسة نشاطه المتوقع، فضخامة الورشة أدت إلى أن يستغرق العمل أربع سنوات ليصبح كل شيء جاهزاً ولم يحتفل بتدشين الانشاءات الجديدة إلاّ في حزيران/ يونيو 1938. وزُوِّد الحوض الثاني الذي تمّ إنشاؤه والبالغة مساحة سطح الماء فيه 8 هكتارات بحاجز يحدّ من سرعة الموج طوله 480 متراً وبأرصفة عمقها 800 متراً، ليستقبل السفن مهما تكن حمولتها، تاركاً لمراكب الساحل الصغيرة مهمة تأمين حاجات الملاحة المحدودة[35]. لكن لم يتسن لبيروت الظروف الملائمة لجني الأرباح التي كانت تتوقعها، لان اشتعال الحرب العالمية الثانية شلّ حركة التجارة. لم ينجح المرفأ حينها في منافسة حيفا لكنه سيكون جاهزاً بعد سنوات ليخلفها. في غضون ذلك، لا شك انه ترتبت على الأعمال هذه نتائج إيجابية على النشاط الاقتصادي للمدينة ومن بينها بناء المطار.

وكما في كل مكان من العالم، بدأت حركة النقل الجوي بالنمو في نهاية العقد الثاني من القرن العشرين. نفذ أول خط تجاري بين مرسيليا وبيروت في 30 آب/ اغسطس عام 1928، وانشئ في السنة التالية خط اسبوعي للبريد الجوي بين المدينتين. لكن الخدمة كانت تؤمن عبر الطائرات المائية. كان الطيارون التابعون لشركة Air Union–lignes d'Orient ومن بينهم الكاتب سانت اكزوبيري Saint–Exupéry يطيرون بسرعة 140 كلم في الساعة وينقلون معهم ثلاثة أو أربعة ركاب مع وزن محدود من الحمولة ثم يحطون في حوض المدور. لكن الرؤية لم تكن مضمونة دائماً. وفي عام 1932 أخفقت طائرة مائية في حطها فتحطمت على الأرصفة وكان هذا أول حادث مأسوي



إعلان للطيران الفرنسي.

يشهده هذا النوع من النقل. ثم انتقل مرفأ الطائرات المائية إلى طرابلس في 1935 وأوشك أن يعرض مستقبل إنشاء مطار في بيروت للخطر سيما إن طبيعة رأس بيروت البحرية تحد من سهولة استخدام المطار. وجاءت أعمال توسيع المرفأ لتحلّ المشكلة. وبغية الحصول على مساحة المليون متر مكعب الضرورية لتجهيز سطح الحوض الجديد، اقتضى الأمر تمهيد كثبان الرمل الموجودة في بئر حسن في جنوبي غربي المدينة. وللحال أمكن تجهيز ثلاثة ميادين أسفلتية للطيران إبتداءً من 1936. واستطاع مطار بئر حسن في كانون الثاني/ يناير 1939 أن يستقبل غبريال بيو وهو أول مفوض سامي وصل بيروت عن طريق الجو. كانت شركة آير فرانس، تؤمن النقل الجوي بانتظام إلى المطار عشية الحرب العالمية الثانية، بالإضافة إلى الشركة المصرية للطيران وشركة اللوت البولونية واحدى الشركات الفلسطينية لاحقاً. كما كان المطار أيضاً مكاناً لرسو طائرات تابعة لخطوط طيران فرنسا - الهند الصينية، فرصوفيا - طهران، برلين - طهران، وأحياناً كانت حركة الاقلاع والهبوط فيه تصل إلى ثلاثين مرة في اليوم[36].

استعادت بيروت، بفضل مطار بئر حسن بعضاً من النفوذ على حيفا لان المطار المدني الذي أنشأه البريطانيون في فلسطين عام 1936 كان واقعاً في مدينة أخرى من فلسطين وهي اللد[*] القريبة من يافا وانشئ مطار آخر في قلندية، في منطقة القدس. ولكن في هذا المجال أيضاً، سبّب اندلاع الحرب العالمية في تجميد الطاقات المترتبة على إدراج بيروت في خارطة الطيران التجاري بفضل الدور الريادي الذي لعبته فرنسا في هذا القطاع الذي يشهد ذروة انطلاقته.

وبالرغم من بعض التأخير، كانت الانجازات التي حققها عهد الانتداب في بيروت أمراً لا جدال فيه. وكان الجهد المبذول في تنمية البنى التحتية ملموساً أكثر من باقي الدول في المشرق وخصوصاً في ميدان المواصلات والاتصالات، ما أعلى من شأن العاصمة بشكل ملموس وأسند إليها دوراً بارزاً في توجيه الشكل الاقتصادي الجديد الذي تكرّس في إطار الجمهورية اللبنانية، حتى لو بقيت يومها في إطار الوحدة مع سوريا. كما ساهمت في الحد من التبعات المترتبة على أزمة تربية دودة القز التي هزّت اقتصاد الجبل وفاقمت منها الازمة الاقتصادية العالمية في 1929. لا شك إن حركة النزوح تواصلت باتجاه الأميركيتين وعلى مسافة اقرب، ظلّت فلسطين تجتذب الكثير من اللبنانيين الباحثين عن فرص عمل جديدة. وإذا كان التطور الصناعي الذي تشهده فلسطين قد بدا للبعض وكأنه خطر يجب تفاديه من خلال حماية جمركية أفضل، كما طالب بذلك على سبيل المثال الموظفون الاداريون في شركة الترابة اللبنانية الذين كانوا في معظمهم فرنسيين إثر تخوفهم من منافسة الترابة الفلسطينية[37]،

* غيّر الاسرائيليون الاسم من اللد إلى لود Lod واستولوا على المطار مطلقين عليه اسم بن غوريون.

فإن التجربة القديمة للاستمرارية الاقليمية داخل بلاد الشام حملت آخرين على الذهاب إلى فلسطين ليجربوا حظهم في النجاح متجاوزين مقولة الحدود الفاصلة. وفي الواقع، بالرغم من الابطاء الذي احدثته الانتفاضة الكبرى عام 1936 في النشاط الاقتصادي، فإن ثروات عديدة لبنانية بدأت تتشكل هناك، وتحديداً الثروة الاسطورية لإميل البستاني.

لكن الأمر الجوهري تمثل ربما في أن المنافسة مع فلسطين والتحدي الذي شكلته حيفا كانا عاملين لالتقاء المصالح الاقتصادية الفرنسية بالمصالح اللبنانية ومن بينها مصالح التجار المسلمين في بيروت، في وقت كانت فيه العلاقات السياسية تتجه بين الفريقين إلى مزيد من التفاقم.

الفصل الثاني عشر

المدينة الفرنسية

ورد في أحد الدلائل السياحية الصادرة عن منشورات Arthaud في 1932 ما يلي:

«إذا نظرت إلى بيروت من البحر لرأيت أمامك لوحة رائعة أشبه بتلك التي تشكلها أشهر مدن المتوسط. تسبح المدينة في المياه التي تداعبها بأمواجها فيما أحياؤها متوزعة فوق التلال. أما وسطها فمزدان بالقبب والمآذن الرائعة التي تعلو المساجد وأجراس الكنائس والصروح المهيبة للمستشفيات والأديرة والجامعات التي تفرض بساطتها الصارمة على المنازل والدارات المبعثرة المحيطة بها مشكِّلة هي أيضاً لوحة مرقطة بألوان وأشكال مختلفة: لون قرميد السطوح الأحمر الممتزج بأبيض وزهري الجدران وأمامها الشرفات ذات الأقواس القوطية الشكل وخلفها الحدائق الخضراء ومجموعات أشجار السرو المسنونة كالرمح. وخلف بيروت يمتد الريف صاعداً حتى سفوح الجبل الأولى... الهواء، لا مثيل لنقائه وانسجام الألوان لا يعكر صفوه أي ضباب... لكن السحر الحقيقي هو أزرق البحر، أزرق خاص واضح وخفيف تخالطه أحياناً بعض بقع الزمرد الشفافة. ما إن تراه تدرك السبب الذي جعل عشتروت تولد من تلك الأمواج[1]».

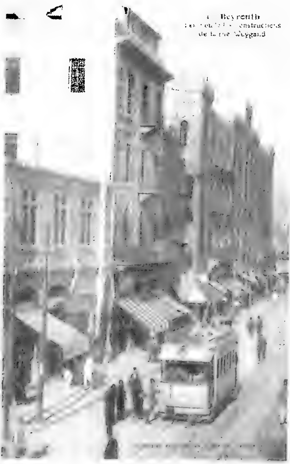
يكاد هذا الوصف الذي يقترحه الدليل، كما على أية حال الملصق الشهير لجوليان لاكاز الذي يحتفي بـ «السياحة في سوريا»* أن يقارب الوصف الذي رسمه رحّالة النصف الثاني للقرن التاسع عشر أبان زيارتهم للشرق. ولكن كاتب النص يستدرك فيقول: «بيروت متغربنة جداً ومن يقصدها عليه ألاّ يبحث عن صورة الشرق التي كانت موجودة فيها قبل خمسين سنة بل يجدها نسخة عن نيس، ولو أكثر تلوناً». بالإضافة إلى هذا، هناك «منتزه الانكليز» وجادة... للفرنسيين على واجهة البحر. لكن، إذا كان صحيحاً أن الطابع المتوسطي للمدينة يمكنه أن يستدعي صور الكوت دازور، فإن مرجعيات هندسية أخرى تحكمت بالتطور العمراني الذي أحدثه عهد الانتداب. فالتشكيل

* انظر غلاف الكتاب.

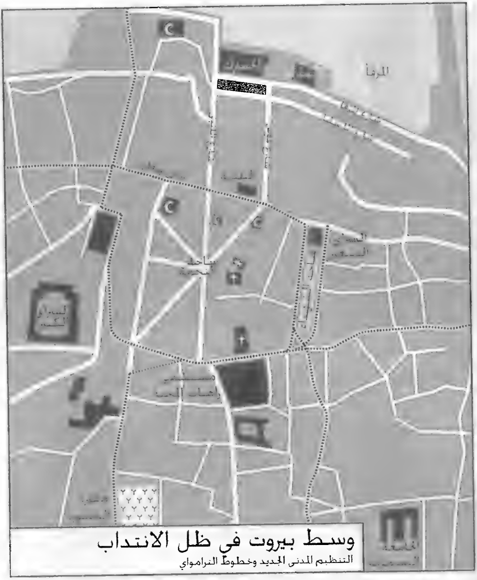
الكولونيالي كان يستلهم رؤية هوسمان التي تهدف إلى انتاج نماذج مطابقة لمدينة باريس في جميع التجمّعات التي سعت فرنسا لتطبيق «مهمتها التحضيرية» فيها. لكن هذه النماذج الباريسية ستغرق عما قريب لا بل ستُشوّه وسط التوسع العمراني والديموغرافي الذي اجتاح المطل كله حيث يتكاثر عدد أبناء المدينة.

الحداثة الكولونيالية

كان التعصرن المديني إحدى الأولويات التي سعت إليها إدارة الانتداب إثر الاجراءات الطارئة المتخذة لدى انتهاء الحرب العالمية الأولى. إذ لم يكن هذا الانطباع المشوش الذي أحدثه الدمار الذي لا طائل تحته في المدينة القديمة عام 1915 يليق بمركز المدينة التي كانت عاصمة الانتداب وواجهته. لا بل إن الدمار الذي لحق بالمدينة آنفاً سهّل إنجاز المشاريع المنوي تنفيذها لأنه رفع الحواجز العقارية التي عرقلت لثلاثين سنة خلت التجديد الضروري في هذا القطاع. وهكذا فان الجادات الثلاث التي ستتمحور من حولها المدينة المنخفضة لن تلبث أن تنجز انطلاقاً من الثغرات التي افتتحتها السلطات العثمانية في موقع سوق التجار والخمائر والحدادين[2]: شريانان حيويان متوازيان يتجهان صعداً من المرفأ على المحور الشمالي - الجنوبي يقطعهما شريان ثالث، على المحور الشرقي - الغربي للشارع الجديد Rue Nouvelle الذي انشئ قديماً، بين ساحة البرج والأسواق المتغربنة في نهاية القرن التاسع عشر. وإذا كانت الخطة قد تمّ إعدادها منذ وقت مضى فهذا لا يعني إن الانتداب لم يترك بصمته عليها وخصوصاً عبر التسمية الرسمية فاتخذ الشارعان الأولان اسمي



شارع ويغان.



وسط بيروت في ظل الانتداب
التنظيم المدني الجديد وخطوط الترامواي

شارع الجنرال أللنبي والثاني المارشال فوش فيما أطلق على الشارع الجديد اسم شارع ويغان لأنه أنجز في عهد المفوض السامي.

وكان لا بدّ لحي أنيق تحف به هذه الشوارع الثلاثة من أن يحتضن المركز الجديد للأعمال التجارية حيث تنتشر المكاتب الحديثة في الأبنية الضخمة المبنية بالحجر الرملي والمزدانة بالزخارف على واجهاتها المغراء[3]. وهذه الأبنية الجديدة حجبت الانظار عن كامل أجزاء القطاع الجنوبي للمدينة الواقعة داخل الأسوار وكذلك قطاع المرفأ بأزقتها وأسواقها ومحترفاتها. وأقامت البلدية بواسطة اعتماد منحته


شارع فوش.


القصر البلدي.

أحد البيوتات الفرنسية مبنيين نموذجيين في شارع فوش تسمح مداخيلهما بالتعويض لأصحاب الحق فيهما - على ألا تدفع التعويضات لأصحابها إلاّ بعد مرور عشرين سنة[4]. وأهم صرح في هذا الحي كان القصر البلدي الذي بني عام 1927 على أنقاض سوق الفشخة القديمة. كان مبنى البلدية على اتصال مباشر بشارعي ويغان وفوش قبالة المسجد العمري وكان يفتقر إلى وجود ساحة أمامه ولم يتميز بأحجام مختلفة فعلاً عن المباني المعاصرة المحيطة به. وإذا كانت ضخامته لا تلفت النظر فإن الأسلوب النيو مغربي الذي منحه إياه المهندس يوسف أفتيموس، وقد أشتهر منذ الحقبة العثمانية ببنائه الساعة ونافورة المياه احتفالاً بيوبيل السلطان عبد الحميد، جعل منه معلماً عمرانياً يرمز إلى تحول المدينة المنخفضة.

وواصل حي الوسط التجاري امتداده في الجهة الأخرى لشارع ويغان من خلال إنشاءات ضخمة. ولم يبقَ من النسيج العمراني القديم، سوى مجموعة من الأكواخ الصغيرة والأقبية التي تأوي القبضايات ومدمني المخدرات وبعض المشعوذين أو السوقة من الناس[5] لقد أخلي المكان لترسيمة متجهة إلى المركز تتسم بالوضوح والتنظيم. ومع إن هناك بعض الدلائل التي تشير إلى إن مثل هذه الترسيمة قد تصورها آنفاً عزمي بك، آخر الولاة العثمانيين، فإن صورة النجمة التي كانت ذات طابع هوسماني بحت بدت وكأنها سمة العمران في عهد الانتداب، وهذه الترسيمة سيجري نسخها في دمشق ولكن على مستوى أكثر اتساعاً في ساحة الأمويين. إلاّ إن الترسيمة لم تنجز. ولكي يجري تنفيذها على ما يرام، اقتضى هدم الكاتدرائيتين الأولى التابعة للروم الارثوذكس والثانية للروم الكاثوليك وكنيسة النورية القديمة ومسجد الأمير منصور عساف. وللحال تمت المحافظة على سلسلة من الأسواق القديمة وأخرى جاهزة لتضم إليها. ولكن، حتى لو اجتذع فرعان منها فإن ساحة النجمة الجديدة كانت ترمز بقوة إلى الطموحات العمرانية لعهد الانتداب. واتخذ امتداد شارع أللنبي، في جنوبي شارع ويغان وأبعد من ساحة النجمة شكلاً يجعله أقرب الى شارع ريفولي متوسطي بأرصفته الواسعة تحت القناطر وأطلق عليه اسم شارع المعرض لأنه كان أحد محطات المعرض الدولي عام 1921 ومما زاد من شأن هذا الحي هو إنشاء مقر البرلمان في الساحة نفسها وقد بُني بأسلوب فخم معاصر للعقدين الأولين من القرن العشرين، بخطوط هندسية بسيطة لكنه مزدان بباب «على الطريقة المملوكية وبواجهة مستوحاة من الهندسة الشرقية القديمة، فيما انتصبت في وسط ساحة النجمة ساعة ارتفاعها 25 متراً في عام 1932 وهي هبة من مهاجر أثرى في المكسيك.

ومع إنشاء قطاع فوش - أللنبي وحي النجمة الجديد، وصل التحول الذي بُوشر به في مطلع عهد عبد الحميد إلى ذروته. ومنذ ذلك الحين، أضفي الطابع الغربي على كل المدينة القديمة داخل الأسوار، فيما كان قلب المدينة النابض لفترة نصف قرن تقريباً يتمثل في المربع الكبير الذي يشمل

ساحة البرج والمثلث الأكثر تواضعاً لساحة عصور. وهذان القطبان لم يستدعيا بحد ذاتهما تغييرات كبيرة. وأضحت ساحة البرج، بشكل خاص، أكثر من أي وقت مضى محطة الطرق الأساسية للمدينة والمكان المركزي للتجمع العمراني مع أنها لم تعد مكاناً للسلطة فالسراي الصغير عند طرفها الشمالي حيث كان يقيم فيما مضى الوالي لم يعد يحتضن دوائر الحكومة اللبنانية ورئاسة الجمهورية، وبدأت السلطة الفعلية تمارس انطلاقاً من السراي الكبير، الثكنة العثمانية القديمة حيث أقام المفوض السامي. وبالرغم من انتقال السلطة هذا، احتفظت الساحة بأهميتها الرمزية التي تجسدت في تسميتها الجديدة. فبعد أن أطلق عليها اسم ساحة الحرية والاتحاد إثر ثورة تركيا الفتاة في 1908، أصبحت ساحة الشهداء تكريماً للمناضلين الذين شنقهم جمال باشا وهذه التسمية فُضلت على تلك التي كان يزمع اعطاؤها للساحة: ساحة باستور. وبهذه الصفة احتضنت الساحة صرحاً عام 1930، يهدف إلى تخليد ذكرى الشهداء، مكرّساً التفاهم القائم بين المسلمين والمسيحيين لكنه أثار جدلاً حوله. كانت المنحوتة التي أنجزها يوسف الحويك تمثل امرأتين تنتحبان الأولى ترتدي حجاباً والثانية دون حجاب وهما تنظر الواحدة إلى الأخرى شابكتين أيديهما وقد بدا الورع نفسه على وجهيهما. وحظيت ساحة الشهداء بخطة تجميل جديدة. كانت الحديقة المتوارثة من الحقبة الحميدية تحتل فقط الجهة الشمالية من الساحة مع كشك الموسيقى الذي اختفى وسياجها العالي - كان الدخول إليها مدفوعا. لكن ورشة التجميل شملت كل الساحة على مساحة 5000 متر مربع، أي ازداد حجمها أضعافاً لأنه انشئت آنذاك سلسلة من ثلاث حدائق على الطراز الفرنسي وكل واحدة منها محفوفة بدرابزين صغير وأرصفة واسعة تجعل منها منتزها. وبالمقابل لم يحدث أي تغيير يذكر في المباني الواقعة على محيط الساحة وكذلك هي الحال



المتحف الوطني على ورقة الخمس ليرات.

بالنسبة لساحة عصور التي اقتصرت فيها عملية التجديد على إلغاء نافورة الماء الحميدية، التي نُقلت إلى حديقة الصنائع، وإنشاء شارع فخرالدين الذي سيصير لاحقاً شارع رياض الصلح.

وتجاوزت الجهود العمرانية التي قام بها الانتداب حدود المدينة القديمة لتشمل محورين على وجه خاص، غرباً وجنوباً، وفي الحالتين شكّل هذااستمرارية بديعة للحقبة العثمانية المتأخرة. غرباً، كان شارع جورج بيكو يجتاز حي وادي أبو جميل اليهودي ويشكل امتداداً لشارع ويغان فيما ازدادت الواجهة البحرية اتساعاً بفضل ردم المدينة القديمة وتشييد حائط دعم بواسطة أنقاض البازيليكا البيزنطية التي أزيلت من الوجود بسبب شق الطريق لشارع أللنبي. وأطلق على الشارع القديم لميناء الحصن اسم جادة الفرنسيين التي ستصبح، بأرصفتها الواسعة وأشجار نخيلها وفنادقها، المنتزه المفضل لعائلات الأعيان البيروتية. وبدا شارع دمشق، الذي ينطلق من جنوب ساحة الشهداء، متردداً بين التوجه الترفيهي في أوله والرسالة التربوية والثقافية التي يضطلع بها ما أن يتجه جنوباً. وبالاضافة إلى الكلية الطبية الفرنسية التي أُلحقت بدار التوليد، ضمّ هذا الشارع أيضاً البعثة العلمانية الفرنسية في 1924 (عند المفترق الذي يطلق عليه اليوم اسم السوديكو) والمعهد الفرنسي لعلم الآثار في الشرق الأدنى، في الحرم الذي سيصبح مقر المدرسة العليا للآداب في نهاية عهد الانتداب. وفي 1931، اختيرت طريق الشام ليقام على جانبها المتحف الوطني الذي موّل عبر الاكتتاب وأنجز فقط سنة 1941، على مسافة مئتي متر من مستشفى أوتيل ديو الذي أنشئ منذ 1923.

واتجهت الأنظار أيضاً إلى قطاعات موجودة على حزام بيروت فأنشئ بولفار النهر في الجهة الشمالية – الشرقية من العاصمة وشارع فؤاد الأول في الجهة الجنوبية الشرقية، بين ساحة المتحف الجديدة وقصر الصنوبر الذي ألحق بكورنيش المزرعة ثم جادة باريس، على امتداد صخور الروشة وصولاً حتى جادة الفرنسيين. وفيما يتعدى هذا الحزام الذي بقي متقطعاً، أولت سلطات الانتداب اهتمامها للجهة الجنوبية الشرقية للمعبر الذي يتصل بطريق دمشق في ضاحية فرن الشباك وفي الجهة الجنوبية – الغربية بطريق المطار في ضاحية بئر حسن. كما أنشأت السلطات العسكرية في جنوبي المزرعة مدرجاً تبلغ مساحته أربعين ألف متر مربع تمّ تدشينه عام 1939 لدواع حربية.

وبموازاة هذه الانجازات التي شملت كافة القطاعات، استدّعى تطور السيارات إصلاحاً جديداً لشبكة الطرقات. وسهّلت عملية مسح الأراضي الجديدة – التي لاقت نجاحاً على مستوى الشرق مما جعل عصبة الأمم تثني سلطة الانتداب على جهودها – توسيع الطرقات التي استوجب أيضاً رصفها أو تحصيبها واستغرق الأمر وقتاً طويلاً خاصة في وسط العاصمة بالرغم من أن شارع أللنبي جرى تزفيته منذ 1927 وبالرغم من أن المحورين الكبيرين لم يلبثا أن جرى تزفيتهما هما أيضاً. كما تواصل العمل في أثناء الحرب العالمية الثانية لأنه جرى بين 1939 و 1943 لحظ تزفيت ورصف 450000 متر

مربع من الطرقات والأرصفة. كما بذلت جهود أخرى لإنشاء حدائق عامة في مختلف الأحياء.

وبشكل عام، منذ منتصف ثلاثينات القرن العشرين بدت بيروت مختلفة عما مضى، حتى لو أوحَتْ المقارنة مع الصور العائدة للحقبة العثمانية المتأخرة باستمرارية ما في تطورها، وإذا استثنيا القطيعة التي أحدثتها الحرب العالمية وتبعاتها، يبدو الحديث عن بيروت «فرنسية» أمراً مبرراً نظراً لتآلف العمران الانتقائي بالتطورات التي شهدتها المكننة.

وضمن هذا المشروع، كانت سلطات الانتداب التي تضم العديد من ضباط المغرب، تستند إلى تجربتها في افريقيا الشمالية حيث حصل تطور عمراني كولونيالي يستمدّ من الارث الفرنسي الذي يستلهم «اسلوب الانشاءات الكبرى والإعمار المتوازن» ويمزج كلاسيكية القرن السابع عشر وأسلوب هوسمان بروحية الفنون التشكيلية بهدف التأكيد على النفوذ الذي تتمتع به السلطة المنتدبة.[7] وفي منطقة تتميّز بتاريخها العريق، كان أسلوب الظافر، كما جرت تسميته أحياناً، بترسيماته الكبيرة وآفاقه وتخطيطات تنظيمه الموقعة بصروح مهيبة يُظهر بالشكل الأمثل بأن صورة فرنسا كانت ماثلة في الأذهان[8].

ومنذ العام 1921، أصبح المعرض الدولي الذي نُظم برعاية الجنرال غورو، مناسبة لإبراز الانجازات الأولى لهذا العمران الكولونيالي، لأنه، إضافة إلى إقامته في ساحة الشهداء، التي أنشئت في عهد العثمانيين وفي ساحة البحرية La Marine خلف السراي الصغير، أقيم أيضاً في شارع أللنبي الذي احتفظ قسمه الشمالي بأرصفته تحت القناطر باسم شارع المعرض. ثم أتت مشاريع التنظيم المدني التي انطلقت في ظل عهد ويغان وصممها المهندسون ديشان Deschamps، وديتري Destrée لتؤكد الخيار الذي أراد أن يجعل من بيروت واجهة متطورة على الطراز الغربي في حين نشأت في المغرب العربي اتجاهات لتطور «عروبي «للعمران الكولونيالي الذي بلغ ذروته إبان المعرض الدولي عام 1931 في باريس. لكن هذه الاتجاهات لم تلقَ إلاّ صدىً ضعيفاً في بيروت وكذلك لم يؤبه للجهد الذي بذلته فرنسا آنذاك للحفاظ على التراث العمراني عن طريق أعمال الترميم التي قامت بها في افريقيا الشمالية كما وفي الهند الصينية، تأكيداً على صورة فرنسا المشرقة، فرنسا المحترمة للتقاليد والحامية لثقافات البلدان التي تستعمرها. يبقى صحيحاً انه بخلاف حلب ودمشق اللتين أفادتا من «هذا الأسلوب المحافظ على التراث[9]» الذي وضع أسسه المهندس ميشال ايكوشار Michel Écochard، لم تكن بيروت تملك الشيء المميز الكثير الذي يستوجب صيانته أو حمايته. لذا، كانت سلطات الانتداب وكذلك أصحاب المشاريع مطلقي الأيدي في الاستجابة لدواعي الحداثة من دون أن يتقيدوا بمبدأ الابقاء على القديم. ونفذ المهندسان المعماريان ديتري وديشان تصميمين للواجهات اختارهما الحاكم العسكري دوازوليه Doizelet ليكونا نموذجين يقتدي بهما البناؤون الذين يتعهدون تنفيذ مشاريع خاصة[10].

ومع ذلك، لم تكن الهندسة المعمارية للمباني الجديدة الخاصة أو العامة التي انبثقت في الوسط التجاري مقيدة بنماذج جاهزة، لكنها بقيت منسجمة مع ما أنشئ سابقاً على «الطراز الأوروبي»، قبل نشوء عهد الانتداب، بهدف استكمال الصورة التي أريد لبيروت أن تظهر بها منذ القرن التاسع عشر وهي صورة المدينة المتوسطية البورجوازية. تآلفت الايحاءات الهندسية الايطالية الطابع والزخارف الباروكية مع تأثيرات كوسموبوليتية أخرى لتلطف من حدة الخطوط الكبيرة للأسلوب الهوسماني، وامتزجت كلها مؤلفة طابعاً مشرقياً بامتياز يميزه ميل لمحاكاة المنشآت السابقة. وهكذا بدت الأجنحة الدائرية المقببة والدرابزينات المشغولة برهافة والأطناف المزججة بنتوءاتها المحفورة والكريتيدات والجبهيات والأعمدة والخرجات وكأنها تعابير جديدة منتمية إلى لغة هندسية خاصة مهما تكن متعددة الدلالات اكثر مما بدت عناصر إضافية[11]. وإذا كانت النشرات السياحية والبطاقات البريدية تسعى إلى إبراز الجمالية التي تنتج عن هذا التآلف، فإن غلبة الحجارة الرملية المغراء غالباً الزهرية وأحياناً تضفي على المنظر العام انسجاماً أكيداً[12].

بلاد في مدينة

في الوقت الذي تواصلت فيه أعمال البناء وأدت إلى الانفجار العمراني الذي شهدته مدينة بيروت بدأت تتوضح الترسيمة الخاصة بها حتى الستينات من القرن العشرين تقريباً. وفي الواقع، وبالرغم من الانجازات الكبيرة للانتداب، لم تتغير مورفولوجيا المدينة بشكل جذري. منذ 1921 ساهمت خطط التقسيمات الإدارية في التصديق على التوسع الذي شهدته المدينة خلال النصف الثاني للقرن التاسع عشر وعلى تحديد شكل المدينة المستلحقة – حتى بقية القرن العشرين موزعة المنشآت التجارية العثمانية على اثني عشر حياً[13]. ولم يكن الشكل الذي اتخذه هذا التوسع الأولي يتأكد بين البحر، لجهتي الشمال والغرب، ونهر بيروت شرقاً ومنطقة الكثبان الرملية جنوباً. وعبثاً حاول أحد أصحاب المشاريع أن يقترح تمهيد الكثبان وبناء مدينة جديدة في الاوزاعي، على غرار هليوبوليس التي بناها البارون أمبان Empain بالقرب من القاهرة لكن المشروع ظل حبراً على ورق[14]. وبقيت جغرافيا المدينة محصورة بين قطاع الأعمال والتجارة المُحدّد المعالم نسبياً والمناطق السكنية الممتدة التي تحتل الحيّز الأكبر من مساحة المدينة. ولم يكن بالامكان العثور في هذه الأحياء الشرقية والغربية والجنوبية على أي مكاتب أو مخازن، بل على حوانيت صغيرة وأحياناً على محترفات نادرة. فالأعمال التجارية والنشاطات الاقتصادية تركزت في وسط المدينة حول بيروت القديمة المربعة.

وقد جردت إعادة التقسيم هذه في عام 1921 المدينة القديمة القائمة داخل الأسوار من تسميتها «بيروت القديمة» التي كانت شائعة في الحقبة العثمانية المتأخرة. ولم تعد مستعملة أيضاً عبارات المدينة

أو القصبة لان التغييرات التي حدثت لم تبقِ نسبياً على النسيج المديني القديم بخلاف ما حصل في افريقيا الشمالية أو في دمشق. ومنذ ذلك الحين، باتت الإشارة إلى المدينة القديمة مقتصرة، على الأقل رسمياً، على وجهها التجاري وهو حي المرفأ[15]. وأكملت أقسام من أحياء الصيفي والباشورة وميناء الحصن بيروت الأعمال وضروب التسلية هذه الذي اعطتها التسمية الشعبية طابعاً توحيدياً من خلال تسميتها بـ«البلد»، وكانت الهكتارات القليلة التي تتألف منها المدينة قادرة على اختصار البلد بأكمله. ولا شك في ذلك سيما أن هذا القطاع، الذي أكمل الانتداب تحديثه وابتدئ به آنفاً حول ساحة الحميدية، أضطلع بعدة وظائف ومهمات: تجارة المفرق والجملة وأمكنة الترفيه والمكاتب والمساكن حتى.

وكان التنوع الوظائفي للبلد مجسَّداً، على المقياس الأدنى من خلال وحدة سكنية خاصة وهي البناية المعدّة للإيجار التي جرى تعميم نموذجها في الأحياء الجديدة من المدينة السفلى. كانت المباني المعدّة للإيجار، التي شُيدت أساساً للمحلات التجارية ومكاتب المحامين وعيادات الأطباء، تحتوي أحياناً على شقق سكنية في طوابقها العليا فيما طوابقها السفلى والأولى مخصصة للأعمال التجارية. وكان هناك في كل مبنى تقريباً قهوجي يقيم غالباً في الدور المنخفض في زاوية تحت الدرج ويوزّع القهوة والليموناضة على الراغبين من عمال المكاتب[16]. ومع أن هذه المباني قليلة الارتفاع بشكل عام، من خمس أو ست طبقات، فإن عرضها المتفاوت كان يتقاطع بصورة حاسمة مع ما أنشئ سابقاً في الموقع، ليس فقط من خلال انتظامها بل أيضاً من خلال الانطباع العمودي الذي تخلقه والذي، بالمقارنة مع الصور القديمة، كان يوحي بأن المدينة المنخفضة ارتفعت فجأة بمبانيها. وقد انتصبت دفعة واحدة.

وإذا نظرت إلى هذه المباني الكبيرة انطلاقاً من الشوارع الجديدة المستقيمة في الوسط التجاري لظننت أنها تتنشق هواءً جديداً. ولكن، خلف هذه الأشكال العمودية الضخمة شبكات من الأزقة احتفظت بشيء من نسيج المدينة السابق. وهذا بادٍ بشكل واضح في منطقة الأسواق بين ساحة النجمة وساحة الشهداء حيث يتلاقى شارع بائعي المجوهرات بأسواق الخضار والأسماك والطيور. ولم يكن هذا المثال الوحيد على ذلك. ففي كثير من القطاعات، كانت «الجزيرة الصغيرة» البيروتية تظهر في الوقت نفسه واجهة حديثة وخلفها منطقة أكثر قدماً حيث الطرقات كانت أقل تنظيماً والأبنية أو المحلات المتلاصقة أقل انتظاماً. وأظهرت الأعمال أيضاً فيها إحياءً للقديم كالمحترفات والمخازن والمستودعات والأحواش وهي مجموعة وحدات سكنية تتوسطها باحة مشتركة[17]. ولم يلبث هذا القطاع اللامنتظم أن اتسع محتلاً تدريجيا سطوح المباني الحديثة حيث ظهرت الأكواخ الصغيرة التي تضم المحترفات وعلب القمار وحتى المساكن الفخمة، هذا بالإضافة إلى المواخير. وكان تاريخ البلد، خلال العقود الثلاثة التي أعقبت الانجازات الكبيرة لعهد الانتداب تاريخ إعادة اجتياح القديم



ساحة النجمة وفي وسطها ساعة العبد ومبنى البرلمان.

للحديث واللامنتظم للمنتظم، على غرار ما حصل في ساحة النجمة والحوض الذي يحيط بساعة العبد، وهي هبة من ثري مهاجر في المكسيك، على بعد ثلاثين متراً من مبنى البرلمان، فقد استعمله لاحقاً الحمالون في سوق النورية القديم ليغسلوا وجوههم ثم، عندما قررت البلدية تجفيفه لوضع حدّ لهذه الظاهرة، تحوّل إلى مكان لتفريغ البضائع[18].

لكن هذا لم يمنع أن يكون المشهد العام، بعد الانخراط في أعمال التخطيط المنظم، مشهداً يُظهر وسط المدينة بأحجامه الصغيرة نسبياً ولكن المهيأ لأن يؤدي كافة الأدوار التي لنا أن نتوقعها من مدينة مرفئية وتجارية كبيرة وعاصمة في الوقت نفسه. ومن هنا، أصبحت بيروت، ولوقت طويل المدينة الوحيدة في المشرق التي تمتلك مساحة متعددة الاستعمالات قادرة على التكيّف مع حاجات التجارة العالمية وتأمين حاجات السكان المحليين وتوفير وسائل الترف والتسلية المستوردة للراغبين وإتاحة فرص اللقاء واللهو على أنواعه وكل ذلك في أجواء من الغفلية النسبية. وحتى بعد وضع مشروع ايكوشار موضع التنفيذ في دمشق وإعادة تنظيم مدينة حلب وانطلاقة حيفا الاقتصادية، احتفظ وسط بيروت بهذه القدرة على الاجتذاب التي جعلت رجال الأعمال والمستهلكين الصغار في آن يقصدون بيروت من سوريا وفلسطين والعراق سعياً وراء المنتوجات الأوروبية.

وأفضل تجسيد لهذا التنوع الوظائفي لبعض المراكز كان ساحة الشهداء التي يمكن القول إنها



الحديقة العامة بعد «فرنستها» في ساحة البرج.

بقيت قلب الوسط التجاري، حتى لو شكلت جغرافياً حدود الناحية الشرقية للبلد. وضاعف توسيع الحديقة العامة في وسط البلد وإنشاء الأرصفة الفسيحة من إبراز المباني العالية والواسعة من حولها التي شُيدت في الحقبة الحميدية. وكانت ساحة الشهداء نقطة إنطلاق الطرق في كل الاتجاهات من خلال ازدياد حركة السيارات فيها، بحيث ينتقل منها يومياً سكان المدن والقرى، في طريقهم إلى أماكن أعمالهم أو إلى المحال التجارية المجاورة أو مكاتب دوائر الحكومة الكائنة في السراي الصغير على الجهة الشمالية. وتمركزت الفنادق والمطاعم وخصوصاً المقاهي على جوانب الساحة التي تحوّلت إلى رقعة انصهار بين المواطنين فشهدت حركة دائمة في النهار كما في الليل مع افتتاح صالات السينما الجديدة وبعض الكاباريهات وخصوصاً حي الدعارة الواقع في أحد الأزقة المؤدية إلى الجانب الشرقي للساحة. وكان الشارع، يا لسخرية الجغرافيا والتسمية، يقع في المكان الذي اتخذه اليسوعيون مقراً سابقاً لهم وأطلق عليه اسم الشاعر العربي الكبير المتنبي*. لكن الاستعمال الشعبي كان يفضل تسمية سوق الشراميط، وإذا توخّى المتحدث اللطف في الكلام يتحول سوق الشراميط إلى «السوق العمومي»

* ليست هناك أية علاقة بين الدال والمدلول ولم ينظم الشاعر الكبير، بخلاف عدد كبير من أترابه في الحقبة العباسية، شعراً إباحياً.

وكانت بيوتات الدعارة مراقبة بانتظام من قبل الإدارة الصحية، ولم تكتفِ بتوفير العلاقة الجنسية المدفوعة الأجر للراغبين، فصالوناتها في الطابق الأرضي كانت غالباً أمكنة لقاء لوجهاء ورجال سياسيين. وكان صالون ماريكا سبيريدون الشهيرة، وهي قوادة اسطورية من أصل إغريقي، رمزاً لمهنة لم تعد معيبة ولن تتحوّل من جديد إلى مهنة محتقرة[19].

كانت ساحة الشهداء تتصل الى الجنوب، بساحة الدباس الصغيرة، وسُميت كذلك عام 1935 إكراماً لأول رئيس جمهورية لبناني كما تتصل بطريق الشام الذي انشئت في آخره مبانٍ للتسلية وصالات سينما. غرباً، كانت الواجهة البورجوازية والحديثة للمدينة تكشف مع ذلك عن بقايا من الماضي. فمن خلال منفذين، في الجنوب وفي الوسط، افتتحت منطقة الأسواق بعد أن حمتها المشاريع الكبيرة التي استهدفت إعادة رسم ساحة النجمة، لا بل زادت هذه الأعمال من كثافتها لان أصحاب المحلات الذي طردوا من محيط ساحة النجمة بسبب عمليات الهدم العثمانية ثمّ لاحقاً الفرنسي التي أجهزت[20] على ما تبقى، عادوا وتجمعوا في منطقة الأسواق التي ضمت سوق الصاغة ومحلات الألبان والأجبان والجزارين وبائعي الفواكه والخضار وأصحاب المهن الحرّة، وتجمعت آنذاك أسواق الجوهرجية والأجبان واللحامين والخضرة والمهن الأخرى التي زادت من حركة ارتياد الساحة. لكن الفوضى ظلت مسيطرة على تلك السوق حتى أتت أحداث 1975 ودمّرتها، وعلى الرغم من ذلك ظلتّ في جزء كبير منه مستترة ولم تكن تشوه وحدة الساحة ولا اتصالها بباقي البلد على طول المحورين الشرقي والغربي. فالمحور الأول، والأقدم، يؤدي إلى ساحة عصور، على طول مبنى اللعازارية عبر الشارع الذي أطلق عليه اسم المير بشير. والمحور الثاني يطل على الشمال الشرقي إلى يسار السراي الصغير ويؤدي عبر شارع ويغان إلى مجمّع فوش - أللنبي وباب ادريس. وهناك، كانت تعرض للبيع بالمفرق المنتوجات الاوروبية في واجهات المخازن المزدانة بالزخارف أو في الأسواق المشيدة في نهاية القرن التاسع عشر: سوق الطويلة وسوق الجميل وسوق الفرنج. وحول مفترق باب ادريس، توجد مخازن الأغذية على الطراز الاوروبي على غرار مباني مسعود[21].

وكان يمكن اعتبار مفترق باب ادريس بمعنى ما وكأنه القطب الرابع للبلد بالإضافة الى الساحات الثلاث، ساحة الشهداء وعصور والنجمة. وبخلاف الساحات الأخرى، لم يجر تنظيمه وفقاً لها بل أعطى الانطباع بأنه يقفل وسط المدينة الجديد، تماماً كما كان الباب الذي منحه اسمه يقفل المدينة القديمة - وإذا كان شارع جورج - بيكو الذي يبدأ من هناك يتصل بشارع ويغان على طول الحي اليهودي، إلاّ إن الطريق كانت أضيق. وكانت الأزقة الضيقة تصل هذا المفترق بساحة عصور جنوباً الواجهة المرفئية القديمة شمالاً. وفي الوقت نفسه، كان الانطباع لدى الناس بكثافة المحلات وزحم

المكان يزيد من الحركة المميزة لوسط المدينة لا سيما أن قطاع الأعمال التجارية يشمل خان انطون بك ومركز المكاتب التجارية وشركات النقل البحري ومكاتب المحامين. وعلى مسافة أبعد، في الجهة الغربية، كان البلد يطل عبر كورنيش بحري صغير على ميناء الحصن وهو حي انتقالي لا هو بالسكني ولا بالتجاري بل سياحي. وترقى الوظيفة السياحية لهذا القسم من الواجهة البحرية إلى ما قبل الانتداب واستطاع ميناء الحصن أن يستعيد وظيفته منذ نهاية الحرب الكبرى. وأضيف إلى فندق بسوّل والمباني الأخرى العائدة للحقبة العثمانية المطعم – الكاباريه ألفونس في 1921، ثم شهدت جادة الفرنسيين بناء فندق السان جورج في طرفها وهو أول فندق فخم في المدينة أنجز في 1930، ثم بُني على مسافة قريبة منه فندق نورماندي.

وبالمقابل، اكتملت صورة المدينة، إضافة إلى هذه المباني الدنيوية، بعدد من الصروح الدينية. لا شك انه جرى الإبقاء على الكنائس الأربع الكبيرة كاتدرائياتا الروم الارثوذكس والروم الكاثوليك، الأولى تعود إلى القرن الثامن عشر والثانية إلى القرن التاسع عشر، لا بل ازداد تألقهما في قلب ساحة النجمة، فيما ارتفع عدد المرتادين للكاتدرائية المارونية ولبازيليكا القديس لويس للكبوشيين، بفضل التغيرات الديموغرافية ومراعاة الممثلين للجمهورية الفرنسية العلمانية، المتشددين في كاثوليكيتهم. ولم تغير أعمال التنظيم العمرانية من المساجد الستة في المدينة، جامع الأمير منذر وجامع المجيدية في شارع فوش وخاصة العمري الكبير الواقع حالياً قبالة مبنى البلدية، عند زاوية شارعي المعرض وويغان. وهذه المساجد أبرز محاسنها أيضاً توسيع شبكة الطرقات. أما النقطة المشتركة بين كل أمكنة العبادة هذه هي أنها لم تكن تشكل نشاطاً راعوياً حقيقياً نظراً لقلة عدد السكان المقيمين هناك بشكل دائم. وكان المؤمنون يرتادونها من المارّة العابرين أو الراغبين في التعرّف إليها أو الذين يقصدونها من مسافات محدّدة للاحتفال بالأعياد. وحده الكنيس شكّل استثناء في الحي اليهودي لوادي أبو جميل الذي أصبح بالأحرى مركزياً مع توسع البلد عبر شارع جورج – بيكو.

«حديد الأشكال وياسمينها»

بالرغم من اتساع البناء في وسط المدينة وتعدد طبقاته، وبالرغم من تنظيمه الهندسي الذي يجسد حقبة كاملة، لم يختصر وسط المدينة وجه بيروت. وهذا ما تظهره المشاهد البانورامية. لا بل كان تمركز القطاع التجاري ونزعته إلى الارتفاع العامودي يذوبان وسط مشهد يبقى ريفياً على نحو واسع. صحيح إن المناطق السكنية تضاعفت مساحتها، إنطلاقاً من الضواحي التي نشأت في القرن التاسع عشر والقرى المعزولة سابقاً على تلال بيروت، كما ازداد عدد سكانها بسبب التدفق الدائم للنازحين، لكن نموها ظل أبعد من أن يمحو هذا الوجه الريفي الذي اتسمت به. بل، على العكس، ظلت هذه

المناطق تضفي على المدينة طابع الحاضرة - الحديقة التي تحيط بها منحدرات مكسية ببقع فسيحة من الإخضرار. وهذا المشهد للمدينة التي يظلّلها الجبل ويحرسها من الخلف هو الذي فتن رواد فن الرسم في لبنان وهم عمر الأنسي ومصطفى فروخ وجورج سير Georges Cyr وآخرون تماماً كما فتن الموقع الرحالة المستشرقين. وبمعنى ما، لم يتغير البانوراما منذ ظهور الأحياء الجديدة في النصف الثاني للقرن المنصرم. وكما يقول شاهد فرنسي: «من الناحية الجمالية، يكمن السحر الرئيسي للمشهد البيروتي في تلك الحقبة، من خلال العدد الملحوظ للدارات الجميلة والكبيرة التي شُيدت في القرن التاسع عشر، الواقعة على المنحدرات الأولى للأحياء المختلفة قبالة الشمال والبحر، المزدانة بقاعة مركزية مفتوحة على الخارج من خلال ثلاث واجهات زجاجية كبيرة قوطية الأقواس[22]».

هذا النموذج المعماري الذي هو مزيج بين النمط الغربي والمسكن التقليدي صمد مسبقاً امام الزحف العمراني. لا بل انه تعمم وانتشر في الأوساط الشعبية واتخذ أشكالاً عدة، تحت تأثير البورجوازية المدينية التي كانت آنذاك في عز توسعها ومولعة بقيم الحداثة الأوروبية. وإذا كنا نرى في الضواحي المباشرة المتصلة أي في الغلغول أو وادي أبو جميل مبانٍ مرتفعة تشهد لها الوثائق المصورة، فإن الاحياء القديمة النبيلة في زقاق البلاط فوق تلة القنطاري في قيراط ورميل، على المنحنى الشمالي لتلة الأشرفية تمكنت من الحفاظ على فسحات واسعة بين المباني والبيوت وعلى مظهرها الميسور الملائم لنمط حياتها الباذخ. وبالرغم من كثافة الأحياء ذات المرتبة المتوسطة من أحياء الصيفي والباشورة القريبة من البلد ونمو رأس بيروت والأشرفية، فإن أشكال المباني لم تتعارض مع هذا الأسلوب[23].

وفي جميع الأحوال، لن يلبث النموذج الأصلي للبيت ذي القناطر الثلاث أن يختفي. لا شك إن المباني المرتفعة التي أتاحتها التقنيات الحديثة في البناء أنشئت على حساب السقوف الحمراء المكسوة بقرميد مرسيليا، لكن الحدائق ظلت قائمة وبنيتها بقيت على حالها بشكل عام. حتى إن تقسيم المبنى إلى شقق واسعة للإيجار، وبالتالي، القطيعة في المماثلة بين البيت والمنزل العائلي لم تطرح على بساط البحث التنظيم الوظائفي القديم[24]. واستمرت القاعة المركزية تنظم الحياة العائلية في هذه المنازل، أو في الشقق التي تؤويها، وتفضي إلى الغرف الأخرى. لكن القاعة المركزية تقسمت، لان غرفة الصالون باتت مستقلة عن غرفة الطعام وعن غرفة الجلوس الأكثر استعمالاً. وعلى الجدران الخارجية المبنية دائماً بالحجر الرملي، وضع طلاء خارجي لستر عيوب البناء وإظهاره بمظهر الحداثة، فأعطى لهذه المنازل لوناً أمغر خاصاً، إلاّ إذا كُسي المنزل بدلاً منه بطلاء أصفر أو زهري أو حتى أبيض. وإذا كان الباطون قد أعلن ظهوره فإنه لم يكن يشوه وحدة المجموعة العمرانية، على الأقل حتى منتصف القرن العشرين. استعمل الباطون مادة من مواد البناء وسمح بتشييد الفيراندا الواسعة. واستخدم أيضاً في تزيين الواجهات حيث النواتئ الكلاسيكية والأكليليات النيو - باروكية يمكن إضافتها بكلفة

أقل[25]، مبرزة الطابع الكلاسيكي الذي وسم هندسة حقبة الانتداب.

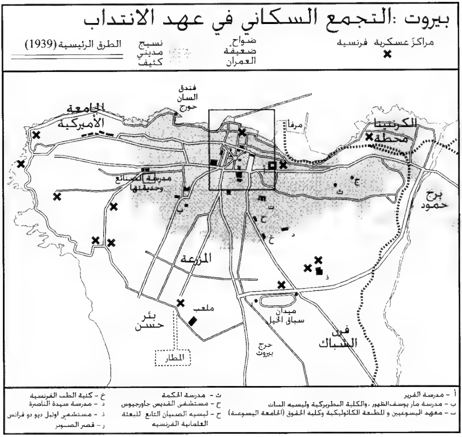
وإن تعميم هذه النماذج الزخرفية المنسوخة عن بيوت الأعيان العائدة إلى زمن أقدم، المستوحاة هي نفسها من مزيج من الأساليب الغربية والمحلية، كان يضفي على غالبية المناطق السكنية مظهر يسر لا بل فخامة. ومع إن هذا النوع من الأبنية بدأ يميل إلى الارتفاع، دون أن يتجاوز مع ذلك الطبقات الأربع، ظلّت سطوحها مكسوة بالقرميد وحدائقها الخاصة فوّاحة برائحة الياسمين والغاردينيا وعابقة بأجواء الهدوء والصفاء بعيداً عن صخب المدينة. وأكثر من الصور والرسوم، فان المقطوعات الشعرية للشاعر الإسكندراني جورج شحادة أفضل شهادة عن هذه الأجواء. وتظهر قصائده الأولى عن هذه المدينة حيث استقر لتوه المنازل «الناعسة خلف ستائرها بأعينها المذهولة كأعين الأسماك» في أصائل الصيف، بشرفاتها «التي تؤرجح غسيلا قمرياً»، وأطنافها «المرتعشة في الماء» وأسيجتها «المشبوكة في حديد الأشكال وياسمينها» فيما «صخب الأشياء يوسع خطاه فوق جدران الحدائق ونوافير الماء تقفز كالقطط في فساتين البرك».

لم يكن منظر بيروت، بمعزل عن «البلد»، يدهش الشعراء فقط بل أيضاً مصممي المدن الأجانب الذين قارنوها مع المدن الجنائنية التي كانت تنشأ آنذاك في أوروبا[26]. وعلاوة على ذلك، لم تكن الحدائق الخاصة حكراً على الأحياء الأكثر يسراً. بل كانت تحيط أيضاً بالمساكن الأكثر تقليدية أو تواضعاً كبيوت المزرعة والمصيطبة أو تلك الواقعة على الجوانب الشرقية والجنوبية للأشرفية. وبالإضافة والى البساتين المثمرة الفسيحة الباقية وأشجار الصبار، في رأس بيروت تحديداً والأراضي البوار التي اكتسحتها النباتات البرية، كانت الحدائق الصغيرة التي أقامتها سلطات الانتداب تساهم في انبثاث الأخضر في المشهد المديني. وهكذا فإن فكرة أحد أصحاب المشاريع بأن يصار إلى تكرار تجربة الجاردن سيتي القاهرية على منطقة الرمل في بيروت الخالية من البناء آنذاك، على حساب بورجوازية المدن الجديدة[27]، لم تظهر عن حصافتها تماماً كفكرة إنشاء هيليوبولس بيروتية في الأوزاعي. ثم إن ازدياد طلب السكان على الأراضي الصالحة للبناء. وكانت الحدائق منتشرة على نطاق واسع بحيث لا يتبادر الا ان يسهل إنشاء المزيد منها في الأراضي المتواجدة بوفرة. ربما لهذا السبب أيضاً لم يلق اقتراح العمراني الفرنسي دانجيه Danger الاهتمام الكافي، وقد أوكلت إليه المهمة في بيروت عام 1932 بتوجيه نمو المدينة تماماً نحو نموذج المدينة الجنائنية[28]. وسيكون التحسر على مشروعه غير مجدٍ لأن الفوضى العمرانية للبنان المستقل أغرقت بيروت في أبنية الباطون. أما في عهد الانتداب فجرى احتواء الضغط الديموغرافي على هوامش المدينة مع إن أبنية الباطون بدأت تنتشر في أرجائها وتلتهم تدريجياً معظم مساحاتها منذ ذلك الحين.

جغرافيا الهويات

اتسعت المدينة تدريجياً وأخذت تجتاح المساحات التي بقيت فارغة داخل الأحياء المختلفة أو بينها. وكان هذا الاتساع يدير غالباً ظهره للبحر غافلاً عن تطور البلد والمرفأ الذي كان ينعش التجمعات المجاورة له، وكأنه يؤكد ما بدا قانوناً سارياً في كثير من مدن المتوسط[29].

شرقاً، بدأت تلة الأشرفية تمتلئ؛ وغطت أحياء الغابة والرميل والمدور منحدراتها الشمالية متصلة بقطاعي الصيفي والجميزة المجاورين لوسط المدينة واللذين شهدت جوانبهما الشرقية والجنوبية ازدياداً في عدد السكان. كذلك شهدت تلة المصيطبة في الغرب كثافة متزايدة وكانت متصلة بالبلد عبر حي الباشورة والغلغول. وبين تلة الأشرفية وتلة المصيطبة، كان القطب السكاني الجاذب الأحدث عهداً في المزرعة يمتد من جهة نحو حي رأس النبي الذي نما على طول طريق الشام، ومن جهة أخرى نحو ضاحية البسطة القديم التي تصله بالباشورة، من خلالها بوسط المدينة. وفي القسم الشمالي الغربي، كان حي القنطاري الميسور يمتد باتجاه الحي الجديد للصنايع ملامساً حي عين المريسة القديم الذي



برز على الساحة بفضل وجود الجامعة الأميركية فيه. وخلف الشارع الفاصل، اتخذ حي رأس بيروت أهمية بالغة وأقام فيه قناصلة مصر والعراق في الثلاثينات من القرن العشرين. لكن الاتساع العمراني تجسد أكثر فأكثر من خلال إنشاء ضواح تحيط بالمدينة على شكل قوس دائرة من النهر شرقاً حتى المدينة المستلحقة جنوباً حيث ضمت القرى القديمة كفرن الشباك والشياح - وبينهما نشأت عين الرمانة، وبرج البراجنة والمريجة متوقفة عند عتبة منطقة الرمول.

وظلّ نمو المدينة مرتبطاً بشكل أساسي بالصورة التي كانت تكونت عنها في الأذهان والمرفأ الأمين الذي تمثله، أكثر من ارتباطه بثروتها بالذات أو بصناعتها. وهكذا جرى دفع الصورة الأساسية التي رسمتها التنظيمات العثمانية للمدينة إلى حدود أبعد، مستبقة، ولو على نطاق أضيق، تشكل الحواضر في العالم الثالث. وفي حاضرة بيروت التي كانت تحرص في آن على انتماءها إلى تعليمات هوسمان وأسلوب الحياة البورجوازية المنغلقة، أخذت تنشأ أشكال أخرى من المساحات العمرانية أقل انسجاماً وتناسقاً ولكن ليس أقل «حداثة». وهناك حيث لم تشتمل بيروت القرن التاسع عشر إلاّ تدريجاً على مجمّعات صغيرة مبعثرة فوق المطل، وحيث تلقت الصدمة الديموغرافية الناتجة عن تدفق النازحين بسبب الحرب الأهلية لـ1860، راحت المدينة في نموها الجديد، الممتزج بالتحولات الجيوسياسية غداة الحرب العالمية الكبرى وتدهور الوضع الاقتصادي في الأرياف، تنتج آنذاك مضاعفات سلبية يصعب التحكم بها. ليس فقط لأن التحضر لم يكن تحديداً نتيجة نمو فريد من نوعه، بل لأنه كان يسير بسرعة أقل من الاندماج الاجتماعي[30]. وكان عدد المواطنين الجدد أكبر من أن تستطيع البوتقة العمرانية احتواءهم كلهم دفعة واحدة من غير أن يصيبها بعض الاختلال. وعلى صعيد الشكل، لم يكن الازدياد الديموغرافي مستوعباً إلا جزئياً عبر امتداد المناطق السكنية القديمة وزيادة نسبة السكان فيها. وقصد قسم من هؤلاء المساحات المدمجة حديثاً مع غيرها وهي مستقلة عن وسط المدينة الذي يشهد كثافة سكانية عالية. أما بالنسبة للأنماط الاجتماعية الجديدة فكان الوافدون الجدد يجلبون معهم عاداتهم وارتكاساتهم الجماعية ويسهبون بالتالي في تصرفاتهم النابعة من أصولهم وجذورهم السابقة معززين منطق التجمعات الطائفية ومرسخين صورة المدينة المركبة العناصر.

وكان الضغط الديموغرافي بارزاً على أطراف بيروت حيث أخذت الضواحي الجديدة تلتهم القرى القديمة. صحيح إن بعض الجزر الصغيرة الهادئة الخضراء كانت لا تزال قائمة في فرن الشباك أو الشياح أو برج البراجنة، لكن الغلبة كانت للمباني ذات المستوى الوضيع التي لا تتميز بأي هندسة خاصة. وباتت المنازل ذات القناطر الثلاث نادرة، ونادرة أيضاً المباني الجديدة الجميلة المكونة من أربعة طوابق المنثورة منذ بعض الوقت في مجموع الأحياء الأخرى. وكان النازحون يحتشدون في بيوت ريفية قديمة جرى تكييفها بسرعة أو ضمن مبانٍ حديثة العهد من الباطون الخالية من شروط الراحة

والأناقة، على طول الشوارع التي قلّما كانت مرصوفة[31]. وكانت هناك أزقّة يعشش فيها الفقر وكانت الأوبئة تنتشر في الضواحي الملحقة بالمدينة. وهكذا هي الحال بالنسبة للأحياء التي لا شبكة طرقات فيها ولا تجهيزات وكانت تستقبل عدداً متزايداً من نازحي الارياف أو من الضواحي المعدمة لينضموا إلى أفواج اللاجئين الأرمن والسريان والأشوريين والأكراد.

وبادرت سلطات الانتداب إلى إقامة مخيم مؤقت للاجئين الأرمن الوافدين بأعداد كبيرة وخلال فترة زمنية قصيرة، في الكرنتينا حول المحجر الصحي القديم. وقد نجح عدد منهم في الخروج من هذا المخيم خلال بضع سنوات وانتشروا في المدينة أو سكنوا في القطاع الآخر المواجه للنهر، في برج حمود حيث نشأت أرمينيا صغرى تمتاز بكثافة بشرية عالية. وكان مخيم الكرنتينا لا يزال آنذاك يضم ثلاثة آلاف لاجئ عندما قضى عليه حريق في 1933[32]. وشهدت منطقة الكرنتينا لاحقاً موجة جديدة من اللاجئين الأكراد هذه المرة. وتجمع أرمن آخرون حول مقر مطرانية الأرمن الكاثوليك في حي الغابة على المنحنى الشمالي – الشرقي للأشرفية، وهذا الحي أكثر تكاملاً لكنه أبعد من أن يكون ميسوراً. مهما تكن قاسية الظروف التى واجهها اللاجئون الأرمن فقد ظلوا مع ذلك أوفر حظا من السريان والأشوريين الآتين من بلاد ما بين النهرين الذين لم يحظوا بالدعم المشابه لسلطات الانتداب بل وجب عليهم أن يحتشدوا غالباً في أماكن ضيقة لا تتسع لهم ولم تسمح لهم ظروفهم المادية أن يسكنوا المنازل



مخيم اللاجئين الأرمن في منطقة الكرنتينا.

أو أن يستضيفهم أحد، فتجمعوا في أماكن غير ملائمة للسكن فوق تلة الأشرفية وبنوا أكواخهم في الأدغال المنتشرة هنا وهناك، وتفرقوا على المنحدر الشرقي للتلة حتى بلغوا منطقة كرم الزيتون وعلى المنحدر الغربي حيث أقاموا في منطقة خالية عرفت لاحقاً باسم حي السريان الذي ظلّت بيوته مبعثرة بطريقة عشوائية حتى نهاية القرن.

وكان من نتيجة انتشار حزام البؤس في ضواحي مدينة بيروت ان عانى أبناؤه من غياب التجهيزات العمرانية والاجتماعية. فغياب الشوارع الأسفلتية وشبكات الصرف الصحي إشارة واضحة إلى تهاون السلطات العامة. ولم تكن تكترث إلاّ لنمو وسط المدينة والمرفأ وتحسين شبكة الطرق المؤدية اليهما. وعلى أية حال فان السلطة الفعلية لم تكن في يدها لتعالج المشاكل التي تعاني منها الضواحي. وظلّت الضواحي الجديدة، بالرغم من اتصالها آنذاك بالتجمع البيروتي، معتبرة خارج حدود العاصمة. وبالرغم من استحداث بلديات تابعة لها، لم تحصل إلاّ على مخصصات متواضعة مخيبة للآمال قياساً للحرمان الذي يلفها و بالتالي الاعتماد على جباية الضرائب المحلية والسبب أن الكثير من سكانها بقيت أسماؤهم مدونة في سجلات القرى الجبلية التي قدموا منها، سيما إن الإعفاءات الضرائبية العائدة إلى الحقبة العثمانية كانت لا تزال قائمة حتى الثلاثينات من القرن العشرين.

صحيح إن الهجرة من الأرياف أحدثت كثافة ديموغرافية مطردة في أحياء ضيقة لا تزال محدودة جغرافياً، إلاّ أن التأثيرات التي نتجت عنها في أنماط الحياة الاجتماعية انعكست عملياً على مجموع المدينة تماماً كما كان توسع بيروت في القرن التاسع عشر منتظماً وفق منطق التجمعات الأحادية اللون. لكن، لم تبلغ الأمور قط منطق التقسيم المتصلب للغاية الذي نشأ في سياق العنف في ثمانينات القرن العشرين. آنذاك، كان التمازج الاجتماعي يميز العديد من الأحياء، كما يثبت ذلك توزيع المخاتير الذين كانوا يعينون في أغلب الأحيان ويؤدون مهمات تتعلق بسجلات الأحوال الشخصية لأبناء المدينة على المستوى المحلي. وفي الواقع أشارت اللائحة التي نظمت وفقاً لاعادة التقسيم الاداري لعام 1921 إلى وجود مسيحي ملحوظ في الأحياء التي جرى تصنيفها على أنها ذات أغلبية «مسلمة» بحيث يصعب تبرير تعيين مخاتير مسيحيين فيها[33]. يبقى أنه، حتى لو لم تكن الأحياء السكنية متجانسة بشكل كامل، إلاّ أنها تميزت كلها مع ذلك بلون طائفي غالب لدرجة أن المراقب الأجنبي يصعب عليه أن يصنفها في إطار أحادي معين[34].

وكان تحديد هوية السكان أسهل عندما يتعلق الأمر بمناطق جغرافية محدّدة، كذلك الخط الذي تمثله ساحة البرج وطريق الشام. كانت الأحياء المسيحية تقع بصورة عامة شرق هذا الخط، أو بالأحرى كانت مجموعة من الأحياء يسكنها المسيحيون حصراً. تميزت في البداية بغلبة للروم الارثوذكس ثم أخذت، شيئاً فشيئاً، تصطبغ بلون ماروني تحت تأثير الهجرة الريفية، لون يشتد سطوعه في ساعات

النهار مع النازحين اليوميين من أهل الجبل النازلين من المتن أو من كسروان ليبيعوا ويشتروا أو ينجزوا بعض المعاملات. وزاد من هذا الطابع المسيحي وجود اللاجئين الأرمن في الكرنتينا أولاً، ثم في القطاع المجاور، ونشوء الضواحي الجنوبية - الشرقية إثر الهجرة الريفية باتجاه المدينة.

إلاّ أن الخطوط الجغرافية ظلت مخادعة. لأنه، إذا كان عدد المسلمين في الأحياء الشرقية محدوداً، فهذا لا يعني أنه لم يكن هناك غير المسلمين في غرب ساحة الشهداء وطريق الشام. وعدا الحي اليهودي الذي صار مركزياً في وادي أبو جميل، تمَّ إحصاء مجمعين كبيرين للروم الارثوذكس في بيئة مختلطة هي المصيطبة، حيث أقام الرائد شارل ديغول، الملحق بقيادة الأركان في جيوش المشرق[35] لمدة سنتين في نهاية العقد الثاني من القرن العشرين – والمزرعة. وكان الاختلاط واضحاً أيضاً، وضمن نسب متفاوتة - في الباشورة ورأس النبي والقنطاري والصنايع وميناء الحصن ورأس بيروت. وكنت تجد هنا وهنالك حضوراً مارونياً جديراً بالاعتبار. وبالمقابل، كان جميع أهل البسطة من المسلمين. وكان هذا الأمر يشكل دليلاً واضحاً على وجود الخطوط الجغرافية الفاصلة.

وسرعان ما حشدت البسطة الاسلام البيروتي في التمثيل الشعبي، في وجهيه السلبي والايجابي، أي في تعارضه مع عصبية مسيحية زاد من حدتها التدفق الديموغرافي لأهل الجبل ورعاية سلطة الانتداب. وفي الواقع، كانت البسطة الحي الذي يسكن فيه مجموعة من عامة الناس وقد حافظت



امتداد البقعة العمرانية.

على طابعها كضاحية قديمة حرفية على طريق صيدا. ومع أن البورجوازية السنية أقامت فيها عدداً من المباني الكبيرة الحديثة العهد[36]، إلاّ أن الحي تميّز بطابعه الذكوري حيث الرجولة تختلط بالبهارج الطائفية ما أن يستفزّها التمايز الجغرافي الديني. كان قبضايات البسطة، في الصراعات التي تحصل مع جماعة القبضايات في الاحياء المختلفة المجاورة للمزرعة والمصيطبة، أو في المساحة المفتوحة لوسط المدينة حيث يصطدمون مع أترابهم في الجميزة وهو الحي ذو الأغلبية المارونية في شرق ساحة الشهداء، يمثلون بشكل واضح وصريح العصبية السنية لدرجة أن صيتهم ذاع وأطلقت عليهم تسمية «زعران». وكان الصدام بين أبناء البسطة والجميزة متكرراً باستمرار في الستينات من القرن العشرين إلى حد انه كان يتحكم بكل المواقف السياسية لابناء المدينة ويشكل مادة دسمة لرجال الصحافة.

وليس المنطق الطائفي وحده مهما كانت واضحة تجلياته، هو الذي تحكم بتوزيع سكان المدينة. فوفقاً لقاعدة سوسيولوجية عامة، كانت إقامة النازحين الريفيين تنبع من رغبة خفية لدى هؤلاء بالتجمع في أمكنة تتيح لهم نقل اسلوب حياتهم القديم إلى المواقع الجديدة التي ينزلون فيها. لذا لم يكن عجيباً أن يسعى هؤلاء النازحون للالتقاء فيما بينهم في الأحياء حيث اختاروا مساكنهم. وكانت هذه حال القطاعات الأقل يسراً فوق منحدرات الأشرفية وفي المحيط الجنوبي الشرقي للمدينة. استوطن موارنة كسروان والشمال مثلا بأعداد وفيرة في حي الغابة، فيما أقام موارنة جزين الآتين من الجنوب على منحدر آخر في الأشرفية (جنوباً) واختار موارنة الشوف ضواحي فرن الشباك والشياح وعين الرمانة. أما شيعة جبل عامل فتوجهوا إلى رأس النبي والنبعة وبرج البراجنة والمريجة. وأضحت هذه المراكز السكنية الأولى إلى حدّ كبير محطّ رحال الموجات البشرية الشيعية الكثيفة في الستينات والسبعينات. وفي كل هذه القطاعات، كانت العادات الاجتماعية التي يحملها النازحون معهم من قراهم تتجلى، ولو على نطاق ضيق، من خلال تجمعات عائلية أو عشائرية أو قروية. وأحياناً، كانت كل القرية تتجمع في الشارع نفسه. وكما حصل في القرن التاسع عشر، أفضى انتقال وحدة جغرافية إلى المدينة بعدما كانت منغلقة إلى حد كبير على نفسها إلى أن تنقل معها رؤيتها للعالم وممارساتها الاجتماعية النابعة من عالمها الريفي. وللحال، بدت الأحياء، وخصوصاً الأقل يسراً في شرقي بيروت، من خلال بنيتها الأنتروبولوجية ومعايير سلوكها وكأنها قرى لا تريد أن تضيع في أجواء الغفلية التي تمنحها المدينة للقادمين إليها ولا ترغب في أن تنصهر في بوتقة المواطنية التي توفرها لها الظروف الجديدة. صحيح أن مثل هذا الأمر لم يكن دافعاً للتفجير بشكل مباشر كما هي حال التمايز الطائفي إلاّ انه كان يؤكد على سمات الهوية.

وكانت بيروت في عهد الانتداب مسرحاً لاعادة التركيب البشري هذه التي هي امتداد للتحولات السوسيولوجية التي شهدها القرن التاسع عشر في نهايته، وترتبت عنها نتائج بالغة الأهمية على المدى

الطويل إذ ستضع الفئات الداعية إلى قيام دولة لبنان المستقل في الواجهة وذلك في عاصمة حدّ من قدرتها على الدمج الامتداد الجغرافي والضغط الديموغرافي وهما ظاهرتان تسارعتا في العشرينات والثلاثينات.

إلاّ أن عاصمة الانتداب، نجحت في أن تفرض مشروعها بصورة مباشرة ولم يكن البؤس وأوكار الوباء قادرة بما فيه الكفاية على تشويه المنظر العام لبيروت الذي تميز بطابعه الريفي والعصري في الوقت نفسه. وكان فائض العالم الريفي على المدينة محجوباً بصور الحداثة وكان وسط المدينة، يستلهم رؤية هوسمان، وتحدوه رغبة جامحة بالعيش على الطريقة الباريسية. وتحول هذا النمط من أسلوب حياة للنخبة البيروتية ليؤسس نمط حياة بيروتي، متكيفاً وان تميز بتبدلات متعاقبة، مع طبقات اجتماعية أكثر فأكثر اتساعاً.

الفصل الثالث عشر

لبنان الكبير و باريس الصغرى

منذ الصفحات الأولى لرواية «ربة القصر اللبناني» حُددت صورة لبنان النموذج. وبين باحة كورسال وكازينو تباريس، لم يكن الضباط الفرنسيون الذين يصورهم بيار بنوا Pierre Benoit في روايته في مطلع العشرينات يشعرون بأنهم في مكان غريب. لم يمضِ زمن طويل على الحرب العالمية الكبرى ولكن المكان أبعد ما يكون عن الدمار الذي أحدثته، بعيدٌ عن كل ما يهز المشرق، في الجهة المقابلة لسهوب الداخل ومدنه بنمط عيشها الصارم، بعيد ايضاً عن بلدات الجبل اللبناني القريبة.

أياً تكن التشنجات التي أثارتها سياسة الانتداب وتجلّت بشكل أوضح في الثلاثينات، فإن الصورة التي رُسمت عن عاصمة لبنان الكبير بقيت موسومة بالخفة التي لا توصف للطبقة الراقيةالتي كانت صالوناتها تضجّ بالرواد المفتونين بأسلوب الحياة الباريسية وتنجح في ممارسة إغراءاتها على الزائرين.

الناس في بيروت في منتهى الأناقة والجميع يتحدثون باللغة الفرنسية: «المجتمع الراقي»، الجو، «الصالونات» لا بل هناك صالونات «أدبية» حيث يُستقبل الأدباء بالترحاب. وباختصار «توفّر حياة المدينة لابنائها أكثر مما يحلمون في تحقيقه»، هكذا كتب الدليل السياحي لعام 1932 الذي تنبأ للمدينة بأن تتحوّل إلى «نيس المشرق(1)». ومع ذلك، لا شك أن المقارنة مع نيس لم تكن تحظى باعجاب مجتمع بيروت الراقي لأنه كان يرغب في أن يطلق على عاصمته لقب سويسرا الشرق أو باريس الصغرى خلف البحار.

وفي بيئة متحضرة يتطور أسلوب العيش فيها باستمرار، كان عبور نجوم الحلبة الباريسية في الشارع يعكس العادات الباريسية المتبعة خصوصاً في الزينة النسائية وديكورات المنازل الثرية. لكن الصورة التي كان المروّجون لهذه الكوميديا الانسانية يتنعمون فيها كانت أيضاً سرابا. فهؤلاء الأشخاص الذين كانوا في الليل يبدون وكأنهم ينتمون إلى العصر الذهبي للبورجوازية، يدركون في النهار صعوبة ابتداع وطن. كان بشارة الخوري الذي خلّدته الصحافة المحلية في زاوية أخبار المجتمع


ألفرد نقاش وبشارة الخوري في حفل تنكري.

يرفل بثيابه النشية وهو يرتدي ثوب القضاة الرومان، خلال حفلة تنكرية أقامتها السيدة هنري بونسو[2]، يحتل أيضاً وخصوصاً، وهو رئيس المجلس النيابي والبطل العتيد للاستقلال، الصفحات السياسية التي تتحدث عن علاقته المتأرجحة بين الايجاب والسلب مع زوج مضيفته، المفوض السامي نفسه.

الغرب زائد الكهرباء

وكما في غالبية مدن العالم، كانت السمة المشتركة للحقبة التطور التقني الهائل الذي سرّع بشكل كبير المواصلات وانتقال الخبر وشجّع خصوصاً على تعميم مفهوم عالمي للمدنية. ونمط الحياة هذا الذي نما في أول عهده بأوروبا ورفدته تأثيرات آتية من أميركا الشمالية، انتشر بسرعة تقريباً في العالم الكولونيالي بواسطة النخب الاجتماعية التي اهتدت إلى طريقها، ثقافياً واقتصاديا، لدى احتكاكها المباشر بالغرب، والتي لم تصل غالباً إلى مراكز النخبة إلاّ بسبب هذا التواصل. ولم تكن بيروت تشكل استثناءً سيما أنها انخرطت في تغربنها منذ أواسط القرن التاسع عشر وانها استوعبت في وقت مبكر للغاية الاختراعات الجديدة للحضارة التقنية منذ التلغراف وحتى الطائرة. وأكثر من كونها مرحلة اكتشاف، كانت فترة ما بين الحربين متسمة باستخدام مكثف ومطّرد لهذه الاختراعات الآتية من الخارج. وهكذا بشأن السينما التي كانت حاضرة جداً في حياة الحاضرة، والراديو التي فرضت نفسها كوسيلة اتصال وترفيه في الثلاثينات أو التلفون الذي، بعد أن كان استعماله مقتصراً على الدوائر، بدأ ينتشر في القطاع الخاص في أواسط العشرينات.

وهنا كما في كل مكان، كان القاسم المشترك للحداثة الذي بات في متناول الجميع هو الكهرباء التي من دونها لم تكن الاختراعات الأخرى قابلة لان تفهم. لا شك إن الشركة الفرنسية - البلجيكية التي تزوّد المدينة بالتيار لم تؤمنه للمدينة كلها مباشرة لكن سرعان ما تمت السيطرة على جنون الكهرباء وأمكن التثبت من ذلك عبر انتشار التحايل والغش في هذا المجال. لا بل أن مراقباً فرنسياً رداً منه على المهندسين الاوروبيين المندهشين أمام المهارة التي صنعت بها الوصلات الكهربائية المزورة - والقابلة للنقل قال: «وتدعون انكم غير قادرين على إعداد مهندسي كهرباء وميكانيك الخ...، لبنانيين متذرعين بأن العرب غير كفوئين في عالم التقنيات[3]!» ولاقت شركة الكهرباء هذه نجاحاً أكبر مع إنشاء شبكة

الترامواي التي كانت تديرها أيضاً ونمت سريعاً لتغزو قلب المدينة مثيرة تصرفات متكررة تتصف هي أيضاً بالتزوير والتحايل وان كانت أقل تعقيداً - «بدل ان يعمد الراكب إلى ختم بطاقته، يدعي بأنه مشترك» وعند الحاجة «والحقيقة غير خافية للمدقّق في البطاقات، يعمد الراكب إلى البحث عن مخرج لنفسه، فيعرض على المدقّق محفظته وفيها ورقة ليرة لبنانية ليستوفي ما يترتب عليه من أجر»[4]. وهناك دلالة أخرى، على أهمية الدور الذي لعبته الكهرباء وهي موجة الاعتراض التي واجهتها الشركة بسبب تعرفتها المرتفعة جداً واتخذت الاعتراضات طابعاً سياسياً معارضاً لفرنسا وبلغت ذروتها في إضراب حدث عام 1931 استغرق ثلاثة اشهر امتنع خلالها البيروتيون عن تسديد الفواتير وقاطعوا الترامواي. ونتج عن هذه المقاطعة الطويلة استحداث ظاهرة التاكسيات الجماعية التي سميت بالتاكسي-السرفيس أو ببساطة السرفيس الذي سبق له أن استخدم لتأمين التواصل بين أحياء المدينة، وبات التاكسي يعمل في قلب المدينة حيث كانت التعرفة التي يدفعها الراكب لا تتجاوز الخمسة قروش[5].

إضافة إلى الكهرباء، كانت السيارة الرمز الآخر لمرحلة التأقلم مع التطور التقني. وفيما لم تكن هناك إلاّ نصف دزينة من السيارات قبل الحرب العالمية وفيما لم تكن الحكومة نفسها تملك إلاّ خمساً منها في 1920، وصل العدد بعد سنة واحدة إلى 376 عربة ذات محرّك. وحين سُلمت الرخص الأولى للقيادة في 1921، ظلّت أرقام السيارات المسجّلة لا تكف عن الارتفاع. وتدريجاً، اختفت عربات الخيل بدءاً بعربات البلدية. وفي غضون سنتين، تزايد عدد السيارات في لبنان بنسبة ثلاثة أضعاف وأحصي في 1928، 5291 سيارة، ثم 10000 سيارة تقريباً في 1932. وكان الارتفاع في نسبة تجديد السيارات معبراً أيضاً. فالسيارات التي تمّ استيرادها عبر مرفأ بيروت في 1931 والتي بلغ عددها 18000 سيارة بينها 9000 سيارة مخصصة للبنان لتحل مكان السيارات التي استخدمت كثيراً أو التي، ببساطة، صارت قديمة العهد[6]. لقد احدثت السيارات ثورة في سلوك أبناء المدينة وفي طريقة عيشهم. وفي كل مساء، كما يصف دليل سياحي في 1932، كان سائقو السيارات يأتون إلى ساحة الشهداء ويدورون حولها عدة مرات في عملية أشبه ما تكون بعرض سياراتهم أمام المشاهدين. وانتشرت موضة السيارة لدرجة أن بعض الناس كانوا يبيعون قطعة أرض يملكونها لكي يشتروا سيارة آخر صرعة[7]. لكن لم يكن ضرورياً الوصول إلى هذا الحد من الشغف لان السيارات الأميركية، خصوصاً، كانت متوفرة بسعر مقبول ويمكن تقسيطها على أربعة عشر شهراً، ما يفسر على الأقل الأفضلية التي كانت تتميز بها شركة ديترويت. كنت تعثر منذ 1923 على 949 سيارة أميركية في البلاد، مقابل 146 سيارة فرنسية و112 ايطالية. وكانت سيارة الفورد، التي ترتفع عن الأرض أكثر من غيرها، قد شهدت رواجاً منقطع النظير ووفرت لوكيلها شارل قرم ثروة طائلة. غير أن مشاغله الشعرية لم تثنِه عن الاسهام في

تعميم استخدام السيارة والترويج للشركة المنتجة. وكانت شهرة فورد على الصعيد الشعبي واسعة لدرجة إن أميركا استطاعت أن تكسب من خلال مبيعاتها في لبنان وسوريا ما يعادل النفقات المترتبة على أبنائها المغتربين على مدى أربعين عاماً[8].

وبعد أن تعممت وسائل النقل وسجّلت السيارة انتصاراً كبيراً في مجال المواصلات وتكيفت شبكة الطرق لتصبح ملائمة لاستخدام السيارة نشطت ظاهرة «الاصطياف» في الجبل. بالطبع، ليست العادة بجديدة، فسكان بيروت الذين أتوا من الجبال كانوا يعودون من جديد إلى قراهم في الصيف طمعاً بمناخها الجيد وهرباً من حرّ المدينة ورطوبتها ودرج أيضاً سكان المدينة الميسورون من الطبقة الراقية على العادة الموسمية قبل الحرب، كما كان يفعل سليم سلام، باللجوء إلى المرتفعات والاحتماء بها من قيظ الصيف. وبفضل سكة الحديد، اكتسبت القرى الواقعة على طريق دمشق كعاليه وصوفر منذ نهاية القرن التاسع عشر شهرة بصفتها مركزي اصطياف. وجاءت السيارة لتكرّس الأمر متيحة الصعود إلى الجبل والنزول إلى بيروت مرات عدة في اليوم. وانطلقت المبادرة من الطبقة الحاكمة لأن المفوض السامي والموظفين التابعين له ولرئيس الأركان كانوا ينتقلون كل صيف إلى عاليه التي تبعد نصف ساعة عن بيروت في تلك الحقبة حين استأجر غورو ثم ويغان وسراي منزل آل بسترس[9]. ولكن الاصطياف تعدّى، بعد أن سهلته ثورة المواصلات، دائرة المجتمع الراقي والمحلي وبات في مستطاع البورجوازية الوسطى والصغيرة، أن تتخطى قيود النفوس التي تحدّد مكان إقامة الأشخاص المصطافين والقيود التي يفرضها سلوك طريق دمشق. وساهم الاصطياف، بصفته ممارسة تتوخى الإفادة من المناخ الجيد المتوفر في الجبال، في نشر نمط الحياة البيروتية، وبالتالي، في تحديث عدة قرى من الجبل حيث افتتحت المطاعم والمقاهي والفنادق، لا بل صالات السينما. وتجسّد انتقال المدينة إلى الريف المتفرنس بشكل كاريكاتوري عندما أعطى أحد الفنادق الواقعة قرب ضهور الشوير في المتن اسمه بوا دو بولوني Bois de Boulogne إلى المنطقة التي تحيط به فصار اسمها بولونيا. وخارج هذا النزوح الصيفي، الذي أفرغ بيروت من معظم سكانها خلال الفصل الجميل، كانت الطرق الجديدة تؤمن أيضاً نزهات أقصر باتجاه مواقع طبيعية كشلالات نهر الكلب الشهيرة منذ بداية القرن أو قمم جبل لبنان المكسوة بالثلوج حيث رياضة التزلج لن تلبث أن تعلن عن ظهورها.

السياحة والكوسموبوليتية

بالإضافة إلى تأثيراتها على الحياة اليومية للناس، كانت تطورات الحضارة التقنية تساهم في التشديد على الطابع الكوسموبوليتي لبيروت – والجبل المجاور. وقبل الثورة التي شهدتها المواصلات الجوية، حفّز تقدم الصناعة المتصلة بالملاحة البحرية الموجة الصاعدة للسياحة التي صارت ممارسة بورجوازية

منتشرة في أوروبا. وإذا كان السفر إلى الشرق قد فقد بعضاً من رومنطيقيته فقد وفّر الراحة لطالبيه بفضل البواخر الجديدة المستخدمة في شبكة خطوط الرحلات البحرية. كانت السياحة الشعبية لا تزال بعيدة المتناول آنذاك لكن محطات الرحلات الحافلة بالمغامرة والملهمة للآثار الأدبية التي خلفها المستشرقون في العصور السابقة باتت نموذجاً يحتذى به. وبيروت التي كانت قديماً محطة مألوفة، مع أنها غير محتومة، للمنقادين وراء خيالاتهم باتت اليوم في رأس قائمة المدن التي يسعى إلى ارتيادها أبناء الطبقة البورجوازية ومركز الدائرة للرحلات البحرية النموذجية في المتوسط.

بالإضافة إلى البواخر الثلاث الكبيرة شامبوليون Champollion ولوتس Lotus وماربيت باشا Mariette Pacha التابعة لشركة النقل البحري التي كان يسافر على متنها الوكلاء الفرنسيون، كانت هناك ست شركات أخرى للملاحة تؤمن المواصلات للمرفأ وهي خديفيال Khedivial وبايرون لاين Byron Line، ولويد تريستينو Lloyd Triestino وفابرلاين Fabre Line، والشركة البحرية والكولونيالية Société maritime et coloniale وسيتمار Sitmar، ومايل لاين Mail line. كانت السفن تنطلق من مرسيليا وتصل إلى بيروت في غضون سبعة أيام عبر نابولي ومسينا وكريت والاسكندرية. وكانت العودة إلى مرسيليا أطول لأنها تستغرق اثني عشر يوماً عبر طريق الشمال التي اعتبرت أكثر سحراً وتمر بالاسكندرون (مع جولة قصيرة في انطاكية) وأزمير والدردنيل واسطنبول وبحر ايجه وبيريوس ونابولي[10].

ومنذ 1919استبق انطلاقةَ السياحة فريقُ الصحافيين اللبنانويين المجتمعين حول **لاريفو فينيسيان**. كان هؤلاء الكتاب المحبون لفرنسا يسعون عبر المقالات العديدة التي نشروها آنذاك إلى الترويج للاقتصاد السياسي العتيد للبلاد ويذكرون بالنموذج السويسري. ومنذ أقل من قرن، كان لا مارتين أول من تحدث عن «سويسرا الشرق»، والمقارنة أخذت طريقها إلى الأذهان لدرجة أن السكان الأصليين تمثلوها، ليس وفقاً لتضمين ايديولوجي الضرورة. كانت العبارة واردة على سبيل المثال في التقرير الذي حرّره موظفان عثمانيان محليان في 1917 - في غمرة الحرب! - يصفان فيه الوضع في ولاية بيروت. وكانت مستخدمة أيضاً، على سبيل التأكيد للتذكير بالسحر الذي تتمتع به قرى الاصطياف في الجبل ذات الارتفاع المتوسط[11]. أما أدباء **الريفو فينيسيان** فكانوا هم أكثر حزماً: من دون أن يستبعدوا نقاط التشابه الأخرى كالموارد المائية في الجبل الملائمة لتطور الصناعة الخفيفة أو المصارف أو التجارة، شددوا أيضاً على السياحة والاصطياف وهي مرافق حيوية قادرة على اجتذاب سكان المدن في سوريا وفلسطين وانطاكيا ومصر وأوروبا ذاتها. كتب أحدهم قائلاً: «إذا لم يكن لدينا رأسمال من المال فلدينا رأسمال من الجمال ورأسمال من المناخ الفريد في العالم. فلنعمل بجهد لكي نبرز هذه الرساميل ونجعلها منتجة. عندئذ سنرى لبنان يشق طريقه بسرعة ليصبح سويسرا الشرق[12]».



قصر بسترس الذي اتخذته قنصلية بريطانيا العظمى مقراً لها ثم صار فيها بعد كازينو التباريس.

وقد خصّص أديب آخر فيما بعد كتاباً نشره في باريس ليشرح فيه كيفية تحويل لبنان إلى «سويسرا الشرق[13]».

ولم تقف سلطات الانتداب مكتوفة الأيدي إزاء هذه الطروحات. منذ 1921 كان المعرض الدولي مناسبة لإصدار «دليل سياحي». وبدأ مكتب وطني للسياحة يعمل أيضاً في بيروت بالتنسيق مع PLM* والنادي السياحي ووكالة كوك لأسرة النوم. وأدى إنشاء لجنة للسياحة والاصطياف في 1923 داخل إدارة الانتداب إلى ترسيخ الفكرة بأن هذا القطاع سيشكل هدفاً للسياسة الرسمية. وفي الواقع، قام الانتداب بحملات اعلانية واسعة للإعلاء من شأن السياحة في الدول التي تقع تحت سيطرته فأفردت صفحات في الصحافة المصرية والفلسطينية لهذا الموضوع ووزعت الكراريس المطوية على وكالات السفر وأصدرت دلائل سياحية صغيرة مرفقة بالصور. وبموازة ذلك، طبعت الـPLM* ملصقات كبيرة زاهية الألوان مستوحاة مما كان يصنع آنفاً منذ مطلع القرن ل «فرنسا الأخرى» الواقعة في افريقيا الشمالية. واحتفل فنانون اشتهروا بوضع الرسوم للكتب والمجلات امثال اندريه فريمون André Frémond و جوليان لاكاز Julien Lacaze أو جوفروا دابو فيل

* الأحرف الأولى للمؤسسة السياحية «باريس، ليون، مرسيليا». وتشير الـM الى البحر المتوسط بمجمله.

بـ«السياحة في سوريا» في مجلة Art Déco من خلال نشرهم صورا ذات Geoffroy d'Aboville
الوان براقة عن بيروت وبعلبك، أو مناظر عن الجبل والمواقع الأثرية في «سوريا ولبنان، بلدي السياحة والاصطياف»[14]. وبالغ الفصاحة كان ذلك الملصق عن سوريا ولبنان حيث في أسفل الظلال الحمراء لمعبد في تدمر جملتها يد الفنان دابو نجد الشعار الآتي: «هواء نقي - أماكن أثرية رائعة - طرقات بديعة - فنادق مريحة». وكان هناك عنوانان كتبا بأحرف اصغر بغية ارشاد الزبائن واعطائهم المزيد من المعلومات. الأول في باريس والثاني في القاهرة وهذا يوضح بشكل جلي من هم الزبائن الذين يقصدهم الوكلاء السياحيون. وكان الجهد المبذول لاستقطاب الزبائن الأوروبيين مرفقاً بالملصقات المرّوجة التي كانت تنشرها الشركات البحرية والأوريان-اكسبرس على نفقتها الخاصة. وحاولت دوائر الانتداب أيضا، من جهتها، أن تستميل هؤلاء الزبائن محرّضة دار النشر Hachette في 1927 لتصدر أول «دليل أزرق» Guide Bleu عن سوريا وفلسطين لأن الدليل القديم بايدكر Baedeker الذي يعود لما قبل الحرب تجاوزته الحركة السياحية منذ زمن بعيد.

وأتى صدور «الدليل الأزرق» في وقته ليدعم الاهتمام بالمشرق، وقد كرّس هذا التوجه حدثان بارزان: معرض فنسان Vincennes الكولونيالي حيث حظي الجناح السوري-اللبناني بنجاح كبير والحدث الثاني هو الرحلة التي جرت بقيادة اندريه سيتروان وسميت بالصفراء لأنها وصلت إلى



فندق السان جورج.

الصين. انطلقت هذه الرحلة من بيروت في 4 نيسان/ ابريل 1931 ووصلت إلى بغداد في 16 منه بعد محطات في دمشق وتدمر. وظهرت سوريا ولبنان على أغلفة المجلات الفرنسية وأثار هذا بالتالي إعجاباً أكيداً لدى الشعب الأوروبي. وتأكد هذا الاعجاب في السنة التالية عندما نشرت إصدارات آرتو في مجموعتها البلدان الجميلة Les Beaux Pays دليلاً جديداً عن لبنان وسوريا أُوكل إلى اندريه جيجر André Geiger تنفيذه. ما من شك أن تقديم الكاتب للبنان ولبيروت خصوصاً وتنبؤه فيما يتعلق بمستقبلها كمركز للسياحة ساهم في اجتذاب زوار أكثر لرؤيتها. كما شُرع في ورشة لبناء فندق كبير على الواجهة البحرية، الشيء الذي أكد وجود رغبة لدى السواح الأجانب في زيارة المنطقة. فمجموع الفنادق الموجودة لم تعد قادرة على استيعاب عدد السياح الهائل ولا على تلبية حاجاتهم المنشودة. وأنجز فندق سان جورج الشهير الذي افتتح في 1934 وبقي لسنوات الفندق الوحيد الفخم في بيروت. كانت المبادرة خاصة لكنها أدرجت رغم ذلك ضمن الرؤية الشاملة لعهد الانتداب. وكان المبنى بإدارة شركة الفنادق الكبيرة للمشرق وهي شركة تابعة لبنك سوريا ولبنان الكبير الذي تشرف عليه هو نفسه رساميل فرنسية. ولكي يروّج لهذا الفندق الضخم الوحيد في بيروت، علقت إدارة الفندق ملصقاً إعلانياً جاء فيه. «عندما تنزل في الفنادق التي تديرها شركة الفنادق الكبيرة للمشرق، تلقى استقبالاً فرنسياً ومطبخاً فرنسياً وتشجع الانجازات الفرنسية في الدول الواقعة تحت سلطة الانتداب[15]».

أصبح السان جورج ببنائه الفسيح المشيّد بالباطون الذي صممه انطون تابت وهو مهندس معماري بيروتي وتلميذ اوغست بيريه Auguste Perret، أحد المعالم الرئيسية في العاصمة والصورة المحورية على بطاقات البريد التي كانت تظهر الواجهة البحرية التي يشرف عليها في أوج ازدهارها. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر 1940، أضيف إليه على الطرف الآخر من الخليج الصغير فندق جديد وهو أوتيل نورماندي وهكذا تكرّست الميزة السياحية لحي ميناء الحصن وبوجه خاص قطاع الزيتونة على طول البحر. وتسارعت الخطوات التنفيذية في مجال التطور الذي انطلق منذ نهاية القرن التاسع عشر، بعد إنشاء جادة الفرنسيين ثم فرض حي الزيتونة نفسه في ثلاثينات القرن المنصرم بصفته الحي الليلي المضيء. افتتح في 1933 المطعم لوكولوس Lucullus وهو مطعم للذواقة كما يشير اسمه. وبعد تدشين السان جورج، كان إنشاء نايت كلوب الكيت كات في المبنى الذي يضم «حلقة الاتحاد الفرنسي» ضمانة لكي يرتاد الحي زبائن الطبقة الراقية حتى آخر ساعات الليل. ثم افتتح ملهى الليدو في جادة الفرنسيين حيث اعدت طبقته السفلى لاقامة المهرجانات البحرية خلال فصل الصيف. ولم يكن ازدهار حركة السياحة يتعزّز فقط من خلال المباني التي انشئت، إذ بفضل التجهيزات الجديدة فتحت آفاق جديدة للمرح كانت مغلقة من قبل، فحانة السان جورج، ولاحقاً حانة النورماندي

أتاحتا على سبيل المثال، تناول الكحول في أي وقت من اليوم، علماً بأن العرف المتبع في الحانات القديمة يحظر تناول الكحول ويعرض أصحابه لتهمة الانحلال الاخلاقي. وقد أطلق السان جورج صرعة جديدة انطلقت إلى غير رجعة وهي تحويل طابقه الأرضي إلى أول مقهى على الرصيف في بيروت: النوفلتي Novelty.

وأعمق أثراً كان التحول الذي أحدثه مسبح السان جورج مع ابتكار إنشاءات بحرية أخرى مشابهة. لم يقتصر هذا التحول على إقامة صلة وثيقة بين أبناء المدينة ومياه البحر بل خفّفا من وتيرة النزوح صيفاً باتجاه قرى الاصطياف وانطلقت من هناك لأول مرة ظاهرة ثياب البحر التي ساهمت في عادة تخفيف اللباس. بت ترى بازدياد نساءً يمارسن رياضة السباحة. لقد تغير السياق الاجماعي ومعه تغيرت التجهيزات فأنشئ لاول مرة مركزان للاستحمام بمواصفات عصرية ونظم الدخول اليهما ببطاقات خاصة وزودا بحجرات خاصة لتبديل الملابس وحمامات ومنصات للغطس ومدربي سباحة، وهما الحمام العسكري عند الحافة القصوى للنتوء البحري وكان مخصصاً لضباط الجيش الفرنسي ومسبح الجامعة الأميركية الواقع تحت الكورنيش بمحاذاة الكامبوس. وعلى الشاطئ الشمالي أقيم مسبح أطلق عليه اسم «الجراند بلو» La Grande Bleue، في أسفل صخور المدور. لكن أنواع الترفيه البحري لم تعرف انطلاقتها الحقيقية إلاّ في أواسط الثلاثينات مع المنشآت في ميناء الحصن والاوزاعي.

بعد افتتاح مسبح السان جورج في 1934 - حيث أشير إلى ظهور أناس عراة وهي حالات نادرة عابرة بدون شك - أنشئ المسبح الفرنسي بالقرب من الفندق وجُهز بحوض للسباحة، وهو الأول من نوعه في بيروت، وهناك كانت تقام الاحتفالات والمسابقات وكان، كما يشير اسمه، يقصده فقط الفرنسيون والأجانب الآخرون، ولم يسمح للبنانيين بالدخول إلاّ في حالات نادرة ومبررة. وكانت هذه أيضاً حال مسبح السان جورج ولكن مسبح عجرم أو أونداين Ondine كان يستقبل الرواد المنتمين حصراً إلى شبان الطبقة المتوسطة في بيروت[16]. ولوحظ التأثير الذي أحدثه السان - جورج على بعد بضعة كيلومترات في الأوزاعي على الساحل الجنوبي خارج الحدود الإدارية للمدينة إذ في السنة التي افتتح فيها فندق السان جورج الفخم، ظهر فندق آخر يحمل اسم «السان» أيضاً لكنه «السان-سيمون» لصاحبه جوزف سمعان، الذي أطلق اسمه على الفندق محولاً إياه إلى الفرنسية مع إضفاء صفة القداسة عليه. لكن التصميم الذي بني فندق السان - سيمون وفقه كان مختلفاً: ترى شاطئاً رملياً مترامي الأطراف ومطعماً - مقهى وبالاضافة إلى ذلك رشاشات ماء وصفين من الكابينات أو الحجيرات الصغيرة لتغيير الملابس وستين بنغالاً خشبياً - أو ما يقال له «شاليه» مما يجعل من المكان منتجعاً ملائماً لتمضية أيام العطلة على بعد عشرة دقائق من وسط المدينة. وبعد أربع

سنوات، ظلت التسميات المقدسة تطلق على المنتجعات البحرية، إذ أنشأ أحد أصحاب المشاريع وهو قريب لجوزف سمعان مسبحاً دُعي السان ميشال تيمناً باسمه أيضاً، وهو امتداد لمسبح السان - سيمون لجهة الجنوب.

والتصق بهذا المسبح، لجهة الشمال، «الكوت دازور»[17] Côte d'Azur كما أسماه المسؤولون السابقون عن «الجراند بلو» بعد أن أزالت أعمال التوسيع في المرفأ مسبحهم القديم. وجاء مسبح «الايدن روك» Eden Rock على الحدود الإدارية لبيروت، ليكمل لاحقاً هذا التشبه بالريفييرا الفرنسية التي لم تكن إنطلاقتها المعاصرة لانطلاقة بيروت غريبة بالطبع عن انتشار موضة الترفيه البحري في أوساط النخب البيروتية بحيث امتدت لتشمل شرائح اجتماعية أوسع. كما ساهمت الصور التي روجت لها السينما، ومن بينها الأفلام السينمائية القصيرة بالإضافة إلى ظهور أولى العطلات المدفوعة في فرنسا عام 1938، في اتساع هذه الظاهرة. إلاّ أن استهلال أسماء المسابح البحرية بعبارة «سان» باتت مألوفة لدرجة أن كلمة «سان» باتت مرادفة لكلمة «مسبح»، وظهرت لاحقاً تسمية «السان بلاش» لتشير إلى المسابح التي يستطيع جميع الناس الدخول إليها مجاناً، لكن هذه المسابح لم تكن مجهزة على ما يرام ولم تراعَ فيها شروط السلامة العامة.

«لا بيك ايبوك»

ليست السياحة وحدها هي التي طبعت بيروت بطابعها الكوسمو بوليتي، فالتقدم التقني الذي بلغته الحضارة ساهم على مستويات مختلفة في نشر نمط حياة عالمي بدءاً بالأوساط الميسورة مروراً بالطبقات الوسطى وصولاً إلى الطبقات الشعبية: وساهم الراديو والسينما بشكل خاص بالإضافة إلى المجلات التي كانت تصدر بانتظام في تعميم صور وسلوكيات انتشرت بسرعة مذهلة حتى كدنا أن ننسى أنها آتية من مكان آخر.

وللكثر من البيروتيين، لم يكن هناك ما يدعى «مكان آخر» فأهل بيروت بحكم موقعهم قادرون أيضاً أن يكونوا في باريس أو في جنيف أو في الاسكندرية. وفي الواقع، غالباً ما كانوا متواجدين في هذه الأماكن مجتمعة. فالتقدم الذي أحرزته وسائل النقل البحري ولاحقاً الجوي لم يكن يسهل فقط مجيء السياح إلى الشرق بل يسهل أيضاً تنقل المشرقيين الذي تسمح لهم امكانياتهم المادية بذلك، عبر المتوسط. كانت مصر، القريبة والأليفة في آن مصدر إغراء دائم بارستقراطيتها الخديوية. وكان النزول فيها أمراً مرغوباً فيه ومستحسناً سيما انه ضمن الجالية السورية اللبنانية الكثيرة العدد، كان لكل لبناني «قريب»، وكان الطلاب الميسورون يقصدونها طمعاً بالزواج بإحدى بنات تلك الجالية. أما السفر إلى فرنسا فكان يعطي الانطباع، أو الوهم، بالانتماء إلى العالم الواسع وسواء كان الهدف من السفر إلى

فرنسا شراء مستحضرات التجميل أو بكل بساطة الإطلاع على آخر مبتكرات الموضة، كانت الرحلة أمراً ضرورياً لابناء الطبقة الميسورة وموضع اعتزاز. وأصبح السفر لمرة واحدة أو أكثر في السنة إلى باريس، تقليداً يتبعه البيارتة الأثرياء. وكان بعضهم يقيمون هناك لفترة طويلة يمضون معظم أوقاتهم بين الصالونات وكازينو انجين Enghien والكوت دازور.

وكانت بعض العائلات النبيلة قد دأبت منذ فترة طويلة على تلك العادة، التي ترقى إلى نهاية القرن التاسع عشر. وكان أبناء تلك العائلات يرون أن من واجبهم السير على خطى آبائهم واستكمال مشاريعهم. وكان نقولا بسترس أحد الأشخاص الأثرياء القادرين على ممارسة هذا الدور فقرر أن يمدّد فترة عزوبيته لبضعة أشهر و ليعيش في باريس حياة شاب ثري وغير مبال. كان يتفخر في مذكراته على سبيل المثال قائلاً انه استقبل في شقته المفروشة الواقعة في أسفل جادة الجراند آرميه Grande Armée «أشهر الوجهاء في أوروبا»[18]. من «الكافي دي لا بي» café de la paix، ملتقى جميع اللبنانيين المقيمين في باريس، إلى صالون سارة برنار، مروراً بزيارات الدوقة دوزيس d'Uzès والخروج لأكثر من مرة بصحبة السيدة كالوست غولبنكيان Calauste Gulbenkian زوجة السيد خمسة في المئة والظهورات الخاطفة لبوني دو كاستلان الجميل Bonni de Castellane، والحب الصاعق لابنة أحد الأثرياء الارجنتينيين وحضور العروض في قاعة الاوبرا في ستوديوهات جوانفيل لو بون Joinville - le Pont... إن هذه الحياة لا بد وأن تكون «مدهشة»[19]، وقد كانت كذلك دون شك بمعنى ما نظراً لطبع بسترس الشاب المحب للملذات والذي ذاع صيته كمتأنق. حسبما يقول اندريه دوفوكيير André de Fouquières وهو حكم الاناقة في باريس أيام عصرها الذهبي كما في سنوات اللهو: «كان صديقي نقولا دو بسترس، الذي هو من أعيان بيروت، متأنقاً حقيقياً»[20]. لكن التدخل الذي يتحدث عنه بسترس في مذكراته للأقرب الكثيرين والقريبات والأعمام والعمات، وكلهم يترددون باستمرار على باريس، يكشف فيه يتعدى الحالة الشعورية الفردية، عن



لوحة زيتية تمثل نقولا سرسق للرسام كيس فان دونغن.



قصر نقولا سرسق: الواجهة.



قصر نقولا سرسق: أحد الصالونات.

أن هذا المجتمع البيروتي الراقي كان يشعر خلال إقامته بباريس وكأنه في بيته. وكان التآلف مع الحياة الباريسية يسمح لبعض أبناء بيروت بمزاولة حياتهم في باريس بعيداً عن النماذج المتبعة كما فعل نقولا سرسق، قريب نقولا بسترس وجاره في الحي في بيروت، الذي أقام علاقات مع الأوساط الفنية وقد رسم الرسام الكبير فان دونغن Kees Van Dongen بورتريه له.

إنها لحالة فريدة في العالم الكولونيالي الفرنسي ذلك التماهي الذي حصل بين النخبة الاجتماعية «المحلية» في بيروت وبين باريس الساحرة مع ما أبدته الصفوة الباريسية وبعض أركانها الذي اختاروا طوعاً أن يكونوا من رواد بيروت من تسامح متعجرف.

لم يكن هذا المجتمع الراقي بحاجة لان يتواجد جسدياً في باريس. فالزينة والأثاث كانت تأتي من العاصمة الفرنسية الى بيروت وغالبية التسميات أيضاً. وكانت الفرنسية اللغة اليومية، إلاّ في حالات التوجه إلى الخدم وليس إلى مدراء الخدم. كانت اللهجة التي يتحدثون بها حادة «يتخللها بعض التنغيم أو التطويل مع رفض أحياناً للثغ بحرف الراء واستخدام المفردات الأعجمية المنتشرة، الشيء الذي يعطيها خصوصية مشرقية موجودة أيضاً لدى فرانكوفونيي القاهرة وحلب، لكن يمكن القول إن فرنسيتهم كانت مهذبة، لا بل متكلفة وبعيدة عن أي لغة تهجين. وكانت محاكاة فرنسا بارزة في طقوس الحياة اليومية وخصوصاً في العادات المتبعة للترفيه. وهذا ما نستطيع الاحاطة به لدى قراءتنا مذكرات نقولا دو بسترس أو مود فرج الله، من عائلة مطران البعلبكية

الأصل – أو الزوايا الخاصة بأخبار المجتمع في الصحف الصادرة آنذاك. لا شك أن الحياة البراقة للذوات الباريسيين كانت تلهم صفوة المجتمع في بيروت حتى لو كانت هذه السنوات المجنونة تنتسب هنا إلى «عصر ذهبي» في غير أوانه أكثر منها للفورة المعاصرة للنموذج الأصلي.

كان حي سرسق المحور الذي تدور الحياة حوله في المجتمع البيروتي الراقي، وكان يقال له فقط «الحي» Le Quartier بالفرنسية، حيث بنت العائلات الارثوذكسية الكبيرة منذ أواسط القرن التاسع عشر دارات فسيحة مستوحاة غالباً من القصور الايطالية، ثم تشكلت مجموعة أشراف أخرى في الجهة المقابلة للمدينة، على تلة القنطاري مجتذبة عائلات مسيحية مارونية أو روم كاثوليك أثرت بفضل إنخراط بيروت في حلقة التجارة الدولية. كانت النزعة إلى التغربن، وقد عزّزها الثراء، تتجسد هنا وهناك باتباع نمط حياة احتفالي لاهٍ منسوخ عن ممارسات الارستقراطية الاوروبية حيث يُستقبل مئات المدعوين بحفاوة في هذه الحفلات اللامعة والسهرات وسط الحدائق المنبسطة على بضعة آلاف من الأمتار المربعة. ثم جاءت الحرب العالمية الأولى لتقطع هذه الاحتفالات - رغم إن جمال باشا شرّف بحضوره السهرات التي كانت تقام في حي سرسق إبان الأشهر الأولى من الحرب – لكنها، أي هذا النوع من الاحتفالات لم تلبث أن عادت إلى سابق عهدها. منذ مطلع العشرينات استعادت «مآدب العشاء الكبيرة «والحفلات في الهواء الطلق سابق عهدها. ومن جديد، عادت النساء الارستقراطيات إلى تحديد أحد الأيام في منتصف الأسبوع لاستقبال الأصدقاء الزائرين. أما الأحد فكان مخصصاً لميدان سباق الخيل الذي صار المكان المفضل حيث يرفل النساء بأبهى وأحدث التسريحات ووسائل الزينة والتبرّج. وعندما يجيء الصيف، تنتقل باريس الصغرى هذه خارج جدران المدينة للاصطياف فوق المرتفعات وبدلاً من كازينو انجيان، يذهبون إلى فندق صوفر الكبير الذي أصبح مكاناً مقصوداً منذ مطلع القرن ولاحقاً كازينو بيسين عاليه الذي افتتح سنة 1930[21].

وجاء الفرنسيون ليضفوا على هذه الحياة «الباريسية» التي استبقت عهد الانتداب، لمسة صدقية. صحيح إن المستعمرة الفرنسية لم تكن مترامية الأطراف ولم يكن بالامكان بالتالي خلق مجتمع يقتصر فقط على المستوطنين، إلاّ أن إدارة الانتداب ضمت أعداداً كبيرة من الضباط «المرحين» بالطبع وموظفين رفيعي الشأن «لامعين» دوماً، واستطاعوا أن يشاركوابحضورهم في حفلات المجتمع الراقي حيث كان هناك أيضاً مديرو المشاريع الفرنسية والفرنسيون العابرون ومن بينهم وجوه معروفة من المجتمع الراقي. والى دارة ليندا سرسق التي كان يقصدها جمال باشا في فترة سابقة تردّد الكثير من الأدباء الفرنسيون. وعدا بيار بنوا الذي أقام عام 1923 في معهد اللعازاريين في عينطورة ليبدأ في كتابة روايته «ربة القصر اللبناني» والذي كان «ينزل غالباً إلى بيروت[22]»، استقبلت الصالونات أيضاً موريس باريس الذي عرف البلاد منذ ما بعد الحرب وعضو الأكاديمية الفرنسية هنري بوردو

Henry Bordeaux الذي أوحت له اقامته برواية «جميلة في ظلال الأرز» وهي رواية طواها النسيان وكانت أحداثها موضوعاً لاحد الأفلام السينمائية.

وصنفت بيروت مركزاً هاماً للعروض المسرحية العالمية «والميوزيك هول» التي شهدت إقبالاً شديداً من أبناء الطبقة الارستقراطية، فسهولة المواصلات وتحسن التجهيزات الخاصة بالترفيه سمحت في الواقع بقدوم باريسيين عديدين. وكانت هناك قاعتان تتنافسان على الصدارة: قاعة أمبير والتياترو الكبير الذي بناه جاك تابت وفقاً لتصميم يوسف افتيموس. ففي 1929، استقبل مسرح الأمبير مثلاً فرقة La porte – Saint Martin التي أدت مسرحيات «سيرانو دي برجيراك و«شانتكلر» و«فرخ النسر» فيما ظهرت الفرقة المسرحية موغادور Compagnie du Mogador والفرقة المصرية على مسرح التياترو الكبير. في السنة التالية، تعاملت ماري بل Marie Bell مع القاعتين على قدم المساواة حيث أتت لتؤدي مسرحية إلى جانب شارل بواييه Charles Boyer، ثم شاهدت أول عرض لفيلمها «الليل لنا» La nuit est à nous في صالة أمبير. وتكرّرت مثل هذه الزيارات خلال ثلاثينات القرن المنصرم واستقبلت بيروت جوزفين بيكر والفير بوبسكو وشارل فانيل وموريس شوفالييه وبعضهم أتى لمرات عدة[23].

لا جدال في أن المشاركة الفرنسية القوية في الحياة الاجتماعية للطبقة الراقية البيروتية، كان العامل الأساسي في تغيير الزمن الاجتماعي في أوساط تلك الفئة التي سحرتها التقاليد الفرنسية. وفي هذا المجال، بادر المفوضون الساميون أنفسهم، باستثناء الجنرال ساراي، إلى إعطاء المثل. ومنذ ولاية غورو، احتضن قصر الصنوبر الاحتفالات الصاخبة التي تلاقى فيها أعيان العائلات الكبيرة[24]. وقبل أن يختار الجنرال القصر مقراً له، كان أقام لفترة وجيزة في أحد المنازل الفخمة في حي السراسقة[25]. ولم يحرم بطل الدردنيل نفسه من المشاركة في الاحتفالات لا بل كان يشرف عليها. وبمبادرة منه اختار بعض أبناء العائلات الراقية وأفراد الجالية الفرنسية آثار هياكل بعلبك ليؤدوا مسرحية من الأدب الفرنسي الكلاسيكي. وهذا الابتكار عاد ليظهر بعد خمس وثلاثين سنة مع ولادة مهرجان بعلبك الدولي[26]. ولاحقاً أضحى الجنرال ويغان نجم اللقاءات الاجتماعية وكذلك هنري دو جوفنيل خلال إقامته القصيرة ثم هنري بونسو ودميان دو مارتيل. وكان ظهور أركان سلطة الانتداب في الأوساط الاجتماعية متكرراً حتى بات من التقاليد الراسخة وبات التقيد بها أشبه بالواجب لدرجة إن عدم احترامها كان يشكل سابقة في الحياة الدبلوماسية. هذا ما حصل مع المفوض السامي بونسو وزوجته. عندما أتت السيدة بونسو إلى بيروت، ألغت من حساباتها أن تقوم بالزيارات المعهودة لسيدات الـ«كارتييه» أي حي السراسقة مما أدّى، ويا للهول، إلى عدم دعوتها مع زوجها إلى حفلة زفاف نقولا دو بسترس وهو أحد الوجوه البارزة في الحي الشهير. وأوكل المفوض السامي لأحد معاونيه مهمة

أن ينقل عتبه إلى عائلة بسترس ورغبته في أن يكون في عداد المدعوين. وهذه دلالة على الأهمية التي كانت توليها سلطات الانتداب لهذا النوع من النشاطات وقد تغيَّب بونسو عن حفل الزفاف بعد أن اقترح على أصحابها تغيير موعد الاحتفال ليتمكن من الحضور. ولكن، عندما سعت السيدة بونسو لتعتذر عن تغيبها وتغيب زوجها، معربة عن امنيتها بزيارة دار آل بسترس، ووجهت بردّة فعل من قبل أهل العريس قضت بأن يتولى مسؤول التشريفات استقبالها[27]. وهذا لم يمنع زوجة المفوض السامي من أن تكون مفتونة بالحياة الاجتماعية مع إيثارها بشكل خاص للحفلات التنكرية التي كانت تقيمها بانتظام[28]. ومن جهتها، كانت السيدة دو مارتيل تحب أيضاً حفلات الاستقبال وتؤثر الفروسية وسباقات الخيل. أما زوجها فكان يستغل هذا الجو الصاخب الذي توفره حياة المجتمع الراقي ليستر علاقته الحميمة بالسيدة المثيرة رايسكا دو كركوف Raïska de Kherkove، زوجة قنصل بلجيكا، ومن ثم سيضطر المفوض السامي للانسحاب من الحياة السياسية في وقت مبكر لان الرسائل التي وجهها إلى عشيقته وقعت بين يدي ضابط فرنسي فأعلم المسؤولين في باريس حالاً بالأمر[29].

إن بريق ذلك «العصر الذهبي» في مطلع القرن العشرين كان بمثابة قناع تستر سلطة الانتداب وجهها به لتحجب عن الناس حقيقتها. وعشية «انتخاب» أول رئيس للجمهورية اللبنانية، راح هنري دو جوفينيل يقلّل من شأن الخصام القائم بين المرشحين المعلنين وهو يخلق ببرودة أعصاب جواً من التشويق يحيط بالخيار الذي اضطلعت به سلطة الانتداب بين ثلاثة «أصدقاء لفرنسا» وهم إميل اده، ميشال تويني وشارل دباس[30]. وقد اختارت سلطة الانتداب شارل دباس لأنه الأكثر اعتدالاً بينهم بمباركة «حزب كاترو[31]» وبدوره كان دميان دو مارتيل يجد ضالته المنشودة في خلق مثل هذه الأجواء. ففي مآدب العشاء التي كان يقيمها المجتمع الراقي، كان يحلو له الحديث عن المنافسة الدائرة بين اميل اده وبشارة الخوري[32]. ولم تكن «مؤامرات البلاط» ذات اتجاه واحد. فأركان سلطة الانتداب، من خلال تورطهم في الحياة الاجتماعية، ساهموا في خلق ظروف ملائمة لنشوء جماعات «لوبي» لصالح ندمائهم. سواء تعلق الأمر بترقيات شخصية غير قانونية أو بالترويج لشخصية سياسية معينة، كان اكتساب ثقة المفوض السامي أو ثقة زوجته أو عشيقته من أنجح الوسائل لبلوغ المآرب. لا شك أن مثل هذه الممارسات لم تميز فقط عهد الانتداب. لكن لبنان في عهد الانتداب كان يملك خصوصية في العالم الكولونيالي الفرنسي. فبخلاف الرباط أو تونس أو سايغون حيث كانت تتوالى المشاهد السياسية المماثلة كثيفة للغاية أمام ناظري المفوض السامي، كانت الأطراف المحرّكة هنا لهذه النشاطات نخبة من أهل البلد تختصرها بيروت وليس نخبة كولونيالية. وللحال كان من شأن هذه المناورات في الادارات السفلى أن تكتسب أبعاداً سياسية خاصة بلبنان فقط بحيث أن بعض أركان المجتمع الراقي كانت صلة الوصل بين طرفين، تربطهم علاقات صداقة لا بل شراكة بأطراف آخرين

من الحياة السياسية الذين لم يكونوا ينتمون إلى حلقة «أصدقاء فرنسا»، ويشكلون في الوقت نفسه نوعاً من الحد الفاصل بين الانتداب من جهة وبين الطرف الآخر من الطبقة السياسية التي ظلت على رفضها للسلطة المنتدبة. وعندما يحين الأوان، لن يتردد العديد منهم من القيام بمبادرة ومناصرة الاستقلال والوقوف في وجه فرنسا التي نالت منها هزيمة 1940.

ما زاد توظيف الحياة الاجتماعية على يد النخبة المحلية وضوحاً للعيان. وما لبث أن انضم الانكليز أيضاً إلى اللعبة. وبعد المرحلة الفيشية (نسبة الى فيشي، عاصمة حكومة الماريشال بيتان) راح الانكليز يتورطون في تنظيم ورعاية حفلات العشاء في المدينة كما كانوا يفعلون في سائر المناطق[33]. وإذا كان الفودفيل لم يختفِ تماماً إلاّ انه أخلى الساحة أيضاً للجغراسياسة. ومهما حاول الانكليز أن يسدلوا الستار على السيطرة الفرنسية فيبقى صحيحا أن سهرات المجتمع الراقي البيروتي لم تتحوّل عن طابعها الباريسي. كان الفرانكوفوني البليغ والمحب القديم لفرنسا الجنرال البريطاني ادوارد سبيرز يشرف على المناورات، الدائرة في الميدان السياسي كما في الصالونات بكفاية عالية. وعلى أية حال، لم يشكل الرفض السياسي للهيمنة الفرنسية قطيعة مع العادات الباريسية. بعد أن نال لبنان استقلاله وعاد السلام إلى أوروبا، كانت مود فرج الله، ملهمة سبيرز بعدما كانت ملهمة الكونت دو مارتيل، سعيدة بالعودة إلى بيروتها الباريسية[34].

انتشار الحداثة

لم يكن «العصر الذهبي»، إبان هذه المرحلة الواقعة في غير أوانها ولكن الباذخة جداً من تاريخ بيروت، يمثل بالطبع الحياة اليومية للبيروتيين كلهم. أولاً لأن المجتمع الراقي الذي كان يشكل إطاراً لذلك «العصر الذهبي» يتحدد من خلال انتمائه الحصري لطبقة معينة، طبقة البورجوازية التجارية والمصرفية. وكانت علاقتها بالمصالح الأجنبية، التي ترقى غالباً إلى الحقبة العثمانية المتأخرة لا تني تتسع منذ اعلان سلطة الانتداب. ثم أن التمايز الطبقي كان مقروناً بالانتساب الطائفي الواضح، أي كان بالموسرين من المسيحيين سواء كانوا روم ارثوذكس أم روم كاثوليك أم موارنة. لا شك إن الغبطة التي كانت تأخذهم بانخراطهم في هذه «الكوميديا الانسانية» نابعة من هذا الشعور المطمئن بأن البلد الذي تنكبّ فرنسا على صياغته ستكون لهم فيه حصة الأسد حتى لو لم يستطيعوا آنذاك أن يديروا دفته. لا شك انه كان بالامكان الوقوع، على الصعيد الفردي، على فوارق دقيقة في المواقف، لا بل على مواقع متباينة لما ذكرناه، وخصوصاً في المرحلة الانتقالية بين نهاية الحرب العالمية الأولى وهزيمة فيصل، أو لاحقاً بعد سقوط حكومة فيشي وانسحاب عملائها من الشرق. وكذلك فإن الانتماء الطائفي لم يقطع الطريق على إقامة علاقات وثيقة فعّالة مع مسلمين من نفس الطبقة الاجتماعية. لكن هذا لم يمنع

«المجتمع الراقي البيروتي» من أن يكون مجتمعاً منغلقاً في برج عاجي.

ومع العقود الأخيرة للأمبراطورية العثمانية، بدأت البورجوازية المسلمة تتأثر سلبا بفعل الإنفتاح على الاقتصاد الاوروبي. ثم جاءت الهيمنة الفرنسية وأدارت الأمور بشكل سيء لدرجة أن غالبية الوجهاء المسلمين في المدينة عقدوا العزم على أن يقلّصوا علاقتهم إلى أقل قدر ممكن مع موظفي الانتداب ودوائره. وقد ساهم في هذا الأمر الفارق الزمني في تحرّر المرأة وتغيير العادات. فبالنسبة لغالبية المسلمات لم تكن إقامة الحفلات في المناسبات الاجتماعية شائعة لديهم، لأنها خاضعة لكثير من القيود. وعدا ارتداء الحجاب، أو على الأقل، المنديل، كان يتوجب عليهن تفادي صحبة الرجال ليلاً إلى دور السينما أثناء الحفلات المخصصة للنساء أو الجلوس في المقصورات خلف الرجال لمشاهدة العروض المسرحية. وهكذا، كانت فرص الاختلاط الطائفي تقتصر على تبادل الزيارات العائلية في الظروف الاستثنائية أو المشاركة في الاحتفالات الاجتماعية الضرورية فقط. وكانت عادات اللباس المتفرنسة بإطراد في هذا الوسط الاجتماعي من المظاهر المشينة بنظر النساء المسلمات على الرغم من إن ضرورة ارتداء الحجاب بدأت تفقد من أهميتها نتيجة ثورة اجتماعية شاملة.

وكانت ثورة نزع الحجاب أحدى السمات الأكثر تمييزاً لفترة ما بين الحربين، ولم تكن حكراً على بيروت بل شملت غالبية دول المشرق وجاءت الدلالة الأقوى من مصر في 1922 عندما نزعت هدى شعراوي، وهي إحدى رائدات تحرّر المرأة حجابها علناً في محطة القاهرة حين دعيت إلى حضور المؤتمر الدولي للمرأة الذي عُقد في روما. صحيح أن هذا الحدث لم يؤت ثماره مباشرة في بيروت لكن المبادرة أطلقت سجالاً عنيفاً غذته الاجراءات المتخذة أيضاً في تركيا أيام مصطفى كمال. ولم تكن المسألة نظرية فقط لان اعتداءات حصلت على النساء اللواتي تجرأن على السفور في الشارع، كما تشهد لذلك اللوحة التي رسمها مصطفى فروخ ويعود تاريخها لعام 1923 وهي تمثل المرأة الطلقة الوجه الضاحكة التي اعتدي عليها أمام عينيه على يد بعض الرجال المتشددين في الحي بتهمة أنها خرقت التقاليد وارتكبت المحظور. وهكذا بدا الاختلاط الطائفي في المدينة سيفاً ذا حدين. فإذا كانت طريقة اللباس المتحررة لدى النساء المسيحيات تمثل آنذاك دعوة ومثالاً للمسلمات، فإن الحقد الذي أثاره انقلاب ميزان القوى الطائفية، المكرّس من قبل سلطة الانتداب، كان يحمل الرجال، وخصوصاً في الأوساط الشعبية على اعتبار أن التحرّر في مجال اللباس خيانة للجماعة ويستوجب قمعه في كافة الظروف باسم هذه الجماعة نفسها. وفي الاتجاه المعاكس، كان الاحتفال الرمزي بالتعايش الطائفي السلمي يكرس، في العرض النموذجي، لهذا الافتراق في الملبس. وقد جسده عام 1930 النحات يوسف الحويّك من خلال نصب الباكيتين الذي جمع فيه بين امرأتين تنتحبان إحداهما محجبة الوجه والأخرى سافرة.

وعلى الرغم من حدّة الصراع تمت الغلبة لدعاة التغيير، وحُظر في أحد الكتب المنشورة في 1928



تمثال الباكيتين ليوسف الحويك وهما تتوحدان في ذكرى الشهداء الذين سقطوا عام **1916**.

ارتداء الحجاب، وقد الّفته شابة مسلمة تدعى نظيرة زين الدين بعنوان السفور والحجاب أرفق بعنوان آخر فرنسي يعلن بوضوح «تحرير المرأة والتجدد الاجتماعي في العالم الاسلامي». وفي هذا المجال لعب غالبية الوجهاء المسلمين في بيروت، من المثقفين والمنجذبين إلى فكرة النهضة والتقدم الاجتماعي دوراً تشجيعياً. هكذا فعل سليم سلام عندما انخرطت ابنته عنبرة بنفسها في المعركة. فعندما عادت إلى بيروت في 1926، وبعد إقامة طويلة في لندن درجت خلالها على عادة الخروج سافرة ،تحينت مناسبة قيامها بمحاضرة عن الفرص المتاحة للمرأة في أوروبا لتظهر على الملأ دون حجاب. وإذا كانت بادرتها أقل استعراضية من بادرة هدى شعراوي، فهي لا تقل عنها تأثيرا. لكن كونها ابنة الوجيه المسلم الأكبر في بيروت، وكان هو شاهداً على الحدث، جعل كلامها أشدّ وقعاً في أذهان السامعين. أما اختها الثانية، التي أشرفت هي نفسها في لندن على تربيتها، فلم تعرف الحجاب. وحين بلغت سن المراهقة في الثلاثينات من القرن المنصرم، كانت تذهب إلى مدرستها، معهد البنات التابع للبعثة العلمانية الفرنسية كل يوم على دراجتها، وهذا تصرف تحرري يصعب تصوره حتى في مدينة عربية في مطلع القرن الواحد والعشرين. والواقع هو أن جيل البنات وليس جيل الأمهات هو الذي سينجز ثورة الحجاب، في وقت

كان فيه نجاح السينما المصرية المؤثر بشكل خاص في الجيل الجديد، يعمم صورة المرأة السافرة المرتدية ثيابها على الطريقة الغربية والحرّة في تعبيرها الجسدي.

وبدأت الحياة الاجتماعية، وهنا أيضاً كان الفضل للبنات أكثر منه للزوجات، تتلون بالاختلاط الطائفي. كان عبد الله بيهم، وهو وجيه مسلم آخر يصطحب ابنته فاطمة إلى الإحتفالات الرسمية، وكانت ابنته أول سيدة مسلمة سنة 1943 تظهر «في المجتمع الراقي[61]» أي بكلام آخر، أول سيدة مسلمة تشارك علناً باحتفالات المجتمع الراقي المسيحي. صحيح أن مفهوم الثنائي من الجنسين لم يكن قد فرض نفسه بعد فيما يتعلق خاصة بالظهور في المناسبات العامة. وتجدر الإشارة في هذا الشأن إلى إن المبادرة كانت تأتي من النساء غالباً بسبب العزلة المفروضة عليهن منذ زمن طويل. كما هي الحال في المجتمعات العربية والاسلامية الأخرى.

وهكذا لم يكن الفارق بين انخراط المسيحيين في الحياة الاجتماعية وبين المسلمين يعني أن كل شيء كان مقبولاً لدى هذا الجزء من المجتمع الذي كان يدعي أن هذه الممارسات هي تقليد أعمى لسنوات اللهو الباريسية التي فرضت نفسها على بيروت. فإلى جانب هذا الانقياد الأعمى ظلت النزعة المحافظة قائمة. وأثار أول انتخاب لملكة جمال لبنان، الذي جرى في باريس عام 1930، على سبيل المثال، ردود فعل عدائية في الأوساط المحافظة، من جميع الطوائف، لكن هذا لم يمنع تكرار هذه المسابقة وإجراءها في بيروت في عام 1935.



مباراة انتخاب ملكة جمال لبنان في ثلاثينات القرن المنصرم

السافرة للرسام مصطفى فروخ.



إذا كانت الأعراف الاجتماعية تتصف بشيء من التفلت البورجوازي، فإن «التربية الصالحة» لم تخل للفرد إلاّ حيزاً صغيراً لتأكيد حريته، فكم بالأحرى إذا تعلق الأمر بالفتيات قبل الزواج. كان خروج الفتيات من البيت محظوراً وخاضعاً لرقابة صارمة واحتراز كبيرين وكان همّ الأهل ينحصر في البحث عن «الزوج الصالح» قبل أي أمر آخر. وقبل الزواج، بالطبع لم تكن العلاقات الجنسية أمراً وارداً إطلاقاً - وهذا المعيار ظلّ قائماً حتى السبعينات من القرن المنصرم. أما الشبان فكانت لديهم دوماً امكانية ارتياد حي المومسات أو السفر إلى باريس والعيش كما يحلو لهم، على غرار نقولا دو بسترس لكن العودة إلى الوطن أمر ملحّ عاجلاً أم آجلاً وعندما يحين موعد العودة، من النادر جداً أن يتمكن أحد من التملص من الالتزامات المفروضة على أبناء الطبقة الارستقراطية الحاكمة. وكانت الزيجات مدبّرة غالباً والمهر يفرض نفسه كأحد الشروط الأساسية لهذا الالتزام. أما في شأن اختيار المهنة فمن الغالب أن يخلف الإبن أباه في إدارة شأن الأسرة أو المصرف أو بيت التجارة. كما كانت الزيجات الجديدة في هذا الوسط المميز امتداداً آنذاك للطقوس الشائعة أيام «العصر الذهبي»، إذ يلي حفل القران



سليم سلام وابناؤه في لندن برفقة الملك فيصل.

العامر ومراسمه الباذخة شهر عسل يدور في باريس تتخلله جولة في الربوع المصرية.

وإذا كانت باريس الصغرى هذه حكراً على النخبة الاجتماعية المسيحية، فهذا لا يعني إن شرائح أخرى من المجتمع لم تنتقل إليها عدوى التغربن تدريجياً. فالنخبة الاجتماعية المقلّدة للحياة الباريسية كانت بدورها مثار تقليد، مع سهولة في التكيف تقريباً وسيكون هذا التمثل لنمط حياة مستوردة احدى أهم ميزات الطبقة الوسطى الصاعدة لا بل عاملاً من عوامل تلاحمها. وكانت هذه الطبقة الوسطى التي انطلقت من المدرسة والجامعة قد انخرطت في إدارة الأعمال وساهمت في النشاطات الاقتصادية. وفيما يتعدى البنية الاجتماعية للبنان المعاصر، كانت هذه الطبقة بمظهرها الغربي أحد العوامل الأشد نفوذاً في عملية التحدي المعتبرة ظاهرة اجتماعية وليس فقط موضة. وكانت شريحتها العليا، أي المتجسدة في المهن الحرة والوظائف الحساسة منفتحة على البورجوازية التجارية والمصرفية وحساسة بشكل خاص تجاه التأثيرات الخارجية وجاهزة لتقاسم المنافع وتبادل القيم مع هؤلاء الذين تختارهم للزواج تحديداً. لكن هذه الطبقة الوسطى الطموحة بقيت في مواجهة مع الشرائح الأقل يسراً منها أي أبناء الطبقة الدنيا من خلال تفاعلها معهم في الحياة المدينية، سواء عبر علاقات الجوار أم وسط الادارة أم الضرورات المهنية أو عن طريق اختلاط الأولاد في المدرسة الواحدة.

ونتيجة هذه المحاكاة، نشأت تطورات حقيقية على صعيد السلوك الفردي. هكذا هي الحال بالنسبة للتحرر النسائي الذي سجل ببطء نقاطاً لصالحه بالرغم من الضغوط المحكمة للياقات الاجتماعية في مجال العادات والزواج. ومنذ 1921، وهو العام الذي سُلمت فيه أولى رخص قيادة السيارات استطاعت المرأة أن تفوز برخصتها أيضاً. وكان التحرّر في الملابس بشكل عام وسفور المسلمات بشكل خاص يسهلان ترك النسوة في أنحاء الحاضرة. ولكن فتح أبواب الجامعات للفتيات هو الذي سرّع عملية التطور الاجتماعي أكثر من أي شيء آخر، كما كانت حال المدرسة في القرن التاسع عشر. في 1924، انشىء بناء جامعي أميركي جديد هدفه فتح المجال أمام الفتيات لمتابعة دراساتهن العليا وهو كلية بيروت للبنات الـBeirut College for Women *. ولم تلبث الجامعة الأميركية في بيروت أن حذت حذوها بافتتاح فرع جديد للطالبات في عام 1927 – بالإضافة إلى مدرسة التمريض القائمة التي بدأت التدريس في عام 1905. وبادرت أيضاً الجامعة اليسوعية التي كانت افتتحت مدرسة للقابلات القانونيات والممرضات في عام 1924 إلى افتتاح فروعها الأخرى للفتيات. وتخرجت في عام 1931 من مدرسة الحقوق في اليسوعية أول طالبتين حائزتين على إجازة في الحقوق وهما بلانش

* ستصير الكلية مختلطة في سبعينات القرن المنصرم تحت اسم جامعة بيروت الأميركية ثم الجامعة اللبنانية الأميركية في تسعينات القرن المنصرم.

عمون، ابنة أحد الوجهاء الموارنة الذي كان عضواً في الوفد الذي مثل جبل لبنان في مؤتمر فرساي، ونينا طراد المتحدرة من عائلة ارثوذكسية نبيلة والزوجة العتيدة للصحافي شارل حلو، الذي سيتولى منصب أول سفير للبنان المستقل في الفاتيكان ومن بعدها منصب رئيس الجمهورية في عام 1964. وبعد ذلك بفترة قصيرة ستتخرج أول امرأة طبيبة من كلية الطب الفرنسية وتمارس مهنة الطب وهي الدكتورة هيلين صافي.

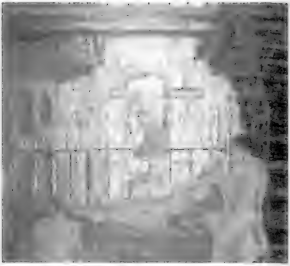
وإذا كان الدخول إلى الجامعات، بمعزل عن مدرسة التمريض، يقتصر خاصة على الأوساط الأكثر يسراً، فإن انخراط النساء في عالم العمل، ولو بشكل خجول، ساهم أيضاً في تحول الممارسات المدينية. ليس لأن عمل النساء أمر جديد تماماً، فالأعمال في المجتمعات الريفية كانت ملقاة على عاتق النساء منذ غابر الأزمنة. ومنذ أواسط القرن التاسع عشر، بدأت النساء إذاً يعملن في كرخانات الحرير حيث تجري تربية دود القز التي كانت عصب الاقتصاد لابناء الجبل. ولكن الأمر لم يمر دون إثارة حفيظات «أخلاقية» تجلت فيما بعد عندما حولت النساء كرخانات الحرير رغماً عنهن إلى بيوت دعارة إثر أزمة الحرير ومن بعدها اندلاع الحرب العالمية[37]. وهكذا تحول معنى الكلمة التركية «كرخانة» من «مقزة» إلى ماخور. وكذلك تمَّ تقريب كلمة «شرمانت» أي فاتنة بالفرنسية إلى «شرموطة». وبعد الازدهار الاقتصادي في العشرينات، ازدهرت المنشآت الصناعية القليلة التي تعمل في البلاد كمحترفات النسيج أو معامل التبغ على أيدي العاملات من النساء. لكن مثل هذه الأعمال النسائية بقيت غير منتشرة على نطاق واسع، على الأقل في المدينة. ومع انخراط الطبقة الوسطى في هذا الميدان كما في القطاعات الأخرى، تطور مفهوم العمل النسائي وفي انتظار أن يثير نموذج نينا طراد، وهي أول إمرأة مارست مهنة المحاماة، المنافسة بين قريناتها، وفي انتظار أن يبدأ فرع الطب باجتذاب الفتيات، منحت الطبقة الوسطى الدنيا العمل النسائي أهمية بدءاً بالمدرسة مروراً بالمعاهد العديدة الخاصة بالبنات حيث كانت النساء يقمن غالباً بمهمة التدريس: كانت هناك دزينة من المعلمات في المدارس الرسمية في البلاد في الثلاثينات، وهذه المدارس لم تكن مختلطة. وهكذا أصبحت الادارات جاهزة أيضاً لاستقبال بواكير الاناث هذه. وما لبثت أولى المختزلات الفرنسيات على الآلة الكاتبة المستخدمات في مختلف الدوائر أن انضمت اليهن موظفات محليات بلغ عددهن 35 فتاة في نهاية فترة الانتداب. وافتتحت المخازن الكبرى ABC التي تمّ تدشينها عام 1934 فرعاً جديداً لها وضاعفت من عدد العاملات البائعات. وبالاضافة إلى مهنة المعلمة والممرضة أو القابلة القانونية، أصبحت مهنة البائعة أحد الوظائف النسائية المفضلة لدى البورجوازية الصغيرة المسيحية، وأيضاً لدى الشرائح الميسورة من الطبقة الوسطى في تجارة بعض الأصناف المترفة. كما ساهمت هذه المهنة في تعميم الاختلاط في الأحياء المركزية في بيروت.

وكان الاغواء الذي يمارسه الغرب بعد أن حفزته النخبة الاجتماعية وعممته الطبقة الوسطى، يشكل إطار حياة يقرب بيروت من المدن البورجوازية المعاصرة. وهذا التقارب الظاهر للعيان في التنظيم المدني كان أيضاً واضحاً في تنظيم الحياة اليومية. كان عمل المكاتب ومواعيد افتتاح الأعمال التجارية يحددان نمط الحياة في البلد عامة وفي العاصمة بصورة أخص. لم يعد وقت الفراغ ميزة من لا عمل لهم بل بات من الممكن استثماره على أكمل وجه. الأحد، السبت بعد الظهر، وقت الاستراحة لتناول طعام الغذاء خلال أيام الأسبوع (ساعتان، وأحياناً ثلاث). وعندما يأتي حر الصيف، كان الدوام الصيفي يحرر غالبية الموظفين في أوقات الظهر، فإما يعودون إلى مراكز اصطيافهم اليومية أو يذهبون للاستحمام في مياه البحر. لكن تحوّل الليل إلى نهار بفضل التطور في ميدان الكهرباء، هو الذي أحدث أكبر تغيير في تنظيم الزمن الاجتماعي. لم يعد الخروج في الليل معتبراً وكأنه مغامرة، إلاّ بالنسبة للنساء الوحيدات. وأصبح المساء المسافة الزمنية المرادفة لوقت الفراغ.

بعد انقضاء ساعات العمل، كان المسرح والسينما يشكلان مصدراً للحيوية في وسط المدينة التي تساهم في إضاءتها اللافتات الجديدة لصالات العرض. وكانت حفلات الموسيقى الكلاسيكية تحتل الحيّز الأكبر من وسائل التسلية. بالإضافة إلى الموسيقى التي تعزف على عدد قليل من الآلات، في فندق أو فندقين بالمدينة، أقامت أوركسترا يرافقها كورس عدة حفلات موسيقية كلاسيكية في السنة



من أولى الطالبات في الجامعة الاميركية في بيروت.



أحد بيوتات الدعارة في بيروت (عبر مخيلة رسام).

منذ 1937 بإدارة الكسي بطرس وهو أحد هواة الموسيقى الكلاسيكية الذي دفعه نجاحه إلى إنشاء الأكاديمية اللبنانية للفنون الجميلة[38]. وإذا كانت الموسيقى الغربية والمسرح الفرنسي يتطلبان مستوى معينا من الثقافة الأجنبية التي حدّت بالطبع من عدد المستعمين، فان نجاح الأغنية العربية اجتذب جمهوراً مختلطاً للغاية واحتلّ مجيء العبقري الشاب للأغنية المصرية عبد الوهاب، صفحة كاملة من الصحيفة عام 1930[39]، كما اجتذبت حفلة لأم كلثوم، «نجمة القاهرة»، في بيسين عاليه، الحشود، فيما امتلأت صالة الكريستال بالحضور الذي أتى ليشاهد الراقصة اللبنانية الأصل (من البقاع) بديعة مصابني التي شرّفت الرقص الشرقي في مصر بفنها الأصيل. وعلى مستوى آخر، جعل فنانو المونولوج فن المسرح شعبياً، وهذا الفن انتشر على حساب التقليد المحلي للحكواتي. لكن، وأكثر من كل هذه الفنون، فرضت السينما، كما في أوروبا، نفسها كوسيلة الترفيه الأساسية، لجميع الطبقات قاطبة، ويمكن التثبت من هذا من خلال عدد الصالات التي شيدت في العشرينات والثلاثينات حيث كان ترتيب الأماكن يعكس تحديداً الهرم الاجتماعي فقسمت السينما إلى صالون (الطابق الأرضي) «وبلكون» (الطابق العلوي)، و «مقصورة». لكن الترفيه لم يعد بحاجة لذريعة العروض أياً يكن نوعها. باتت الحياة الليلية آنذاك عادة تبرر نفسها بنفسها. وأكثر من أي مدينة أخرى، باستثناء القاهرة، أقيمت في بيروت صروح إن لم تكن ليلية فإنها تبلغ في ساعات الليل ذروة نشاطها. أصبحت الحانة باراً مما أسبغ عليها قدراً من الوقار، وسرعان ما أصبحت الكاباريه في متناول الجميع ليتعدى زبائنها المحاربين القدامى في الجيش الفرنسي المرفهين الذين وصفهم بيار بنوا. وحي الدعارة نفسه، وهو المكان الملائم للاختلاط - سواء بين الطبقات الاجتماعية أم بين الطوائف - لم يعد من الأمكنة المحظورة. كانت بيوته الواقعة في مواجهة ساحة الشهداء، المنظمة على الطريقة الأوروبية والخاضعة لرقابة صارمة، مسرحاً للقاءات اجتماعية (ذكورية) منفتحة بحيث إنها فتحت آفاقاً جديدة أمام إقامة علاقات سياسية، حتى أن بعض الشخصيات السياسية البارزة أقامت فيها صالوناً.

وكان التنظيم الجديد للزمن الاجتماعي ملحوظاً أيضاً في النهار، عبر تطور النشاطات الدائرة في الهواء الطلق وركوب، مع فارق زمني بسيط، موجة الرياضة الآتية من وراء المتوسط. والى سباقات الخيل، التي كان يرقى الافتتان بها إلى زمن قديم، والممارسة الحديثة العهد للسباحة، سرعان ما وجدت النشاطات الرياضية التي ظهرت في أوروبا بشكلها المقنن والمنظم في مطلع القرن، لا بل بعد الحرب العالمية الأولى، هواتها في بيروت، فمنذ 1922، أنشئ أول نادٍ رياضي تحت اسم «الاتحاد الرياضي»[40]. وفي السنة التالية، تمّ تأسيس نادي الطيران Aéro – Club في سوريا ولبنان الذي انتظر حتى سنة 1938 ليحصل على أول طائرة تدريب[41]. كما إن وجود الشبان الفرنسيين المدعوين لخدمة العلم ساهم بشكل واضح في انتشار الرياضة، حتى لو كان الذوق المحلي ينتقي بين أنواع الرياضة التي يروّج لها الجنود. فرياضة الرغبي لم تتوصل اطلاقاً إلى إن تحظى بإعجاب الناس، مع إن مباريات عديدة حصلت بين الجنود الفرنسيين والانكليز، تارة في بيروت وطوراً في القدس. أما رياضة التزلج التي أدخلها أحد مستشاري المفوض السامي وأنشأ فرعاً للنادي الألبي Club alpin الفرنسي في بيروت عام 1932 وبنى أول ملجأ في الجبل، فقد احتاجت إلى وقت أطول لتنضم إليها قافلة الهواة الجدد. وعرف النموذج الفرنسي نجاحاً أكبر مع رياضة الدراجات. وقد جرت أول مسابقة في 1934 وتجلّى خلالها أبطال من الأندية الأرمنية. وكما في كل مكان في العالم، كانت الرياضة الأكثر شعبية هي كرة القدم التي سرعان ما لمع فيها نجوم بارزون وحكم محلي بارع هو الصيدلي بيار الجميل، وهو زعيم حزب الكتائب العتيد. وأبصر الاتحاد اللبناني لكرة القدم النور في 1934 وكان يضم عدة نواد، غالبيتها في بيروت وضواحيها[42]. وكانت غالبية الأندية أرمنية إضافة إلى أندية محلية ذات انتماءات طائفية اتخذت لها أسماء فرنسية كفريق رينسانس (النهضة) وفريق الأولمبيك والراسينغ – كلوب التي ساهمت في تسميته الانكليزية أوساط أو مراجع باريسية. ولكن تكلف الاسم في هذا المجال لم يكن ذا طابع نخبوي حصراً ،فكرة القدم مثلها مثل رياضة الدراجات كانتا منذ نشوئهما من الرياضات الشعبية التي انشأتها ومارستها الطبقات الأقل يسراً.

بالفرنسية في النص

صحيح أن تحديث الحياة اليومية بدأ قبل عهد الانتداب، لكن بدا واضحاً انه تحقق بعد ذاك في عالم تطبعه فرنسا بطابعها. وبهذا المعنى، شكل التغربن منذ البداية تفرنساً. بداية حصل مع اللغة. فاستخدام اللغة الفرنسية الذي سبق له أن كان شائعاً في الحقبة العثمانية المتأخرة كان يفيد من إرتباط النظام المدرسي بإدارة الانتداب. وفي الدوائر، بالطبع كانت العربية شائعة الاستعمال بوصفها اللغة الرسمية، لكن إتقان الفرنسية التي حظيت هي أيضاً بصفة اللغة الرسمية، سهلت كثيراً الاجراءات

الرسمية أمام المحاكم المختلطة والمؤلفة من قضاة فرنسيين ومحليين. كانت المرافعات تجري بلغة مونتسكيو[43]. وكانت الهيكلية نفسها للإدارة والجسم القضائي منسوخة عن النموذج الفرنسي، وارتفع شأن مقام المعايير الفرنسية تدريجياً في كل مكان، مع تأسيس النظام المتري مثلاً في 1935[44] او ضريبة المعاينة الميكانيكية للعربات ذات المحرّك.

وكانت المدرسة المحرّك الرئيسي لهذه الفرنسة، واتبعت فيها المواد المدرسة في فرنسا آنذاك ودرج الكلام عن «اسلافنا الغاليين» ولكن من دون النزعة المناهضة للإكليروس التي كانت سائدة في الجمهورية الثالثة، وعندما أنشئت شهادة البكالوريا اللبنانية في 1931، كانت نسخة طبق الأصل عن شهادة البكالوريا الفرنسية (مجزأة إلى قسمين آنذاك). وكان التدريس باللغة الفرنسية في مدارس الرهبانيات الزامياً في كافة المواد باستثناء المواد المتعلقة باللغة العربية وبالأدب العربي، التي كانت تأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية في المناهج التعليمية وكان محظراً على التلامذة الكلام بلغة البلد، حتى في أوقات الاستراحة تحت طائلة تلقي الـ «سينيال» Signal الذي كان يُعتبر بمثابة مأخذ أو عقاب. والغريب أن هذه هي أيضاً كانت حال المدارس التي أدارتها رهبانيات فرنسية في فلسطين



جريدة الاوريان لصاحبها جورج نقاش: فرنكوفونية ومؤيدة لفرنسا.

أيام الانتداب البريطاني. لكن المدارس الأخرى عليها هي أيضاً أن تأخذ بعين الاعتبار الأولوية المعطاة للفرنسية. وحتى الانترناشيونال كولدج التابعة للجامعة الأميركية أنشأت فرعاً لها عرف بـ «الفرع الفرنسي» لان اللغة الفرنسية كانت لغة التدريس. وهذه المقاربة النفعية، الخالية من الشحنة الايديولوجية السائدة في المدارس الدينية المسيحية حظيت بتشجيع العائلات المسلمة الثرية التي اجتذبتها مدارس البعثة العلمانية الفرنسية للأسباب نفسها.

ووطّدت البيئة الاجتماعية اللغة الفرنسية، بغض النظر عن المدرسة والدوائر. كانت الاشارات في المدينة مزدوجة اللغة واللافتات التجارية بالأحرف اللاتينية غالباً وأسماء الشركات التي تديرها فرنسية التعبير. وكانت التسلية والثقافة تعبّران عن نفسيهما بالفرنسية. هذه هي الحال بالنسبة إلى جولات الفرق المسرحية الباريسية ونجوم الميوزيك هول الذين لم يكن نجاحهم يقتصر على زبائن الأحياء الارستوقراطية. ورغم المنافسة الشديدة التي واجهتها الأفلام الفرنسية مع هوليوود والقاهرة في الثلاثينات، إلاّ أنها نجحت مع ذلك في اجتذاب الجمهور. وعلى أية حال، كل ما كان يدور من أفلام في الصالات كان مترجماً على الشاشة إلى الفرنسية ومن بينها الأفلام المصرية. وكانت الفرنسية تحديداً وسيلة للوصول إلى الخبر. وقبل أن يبدأ الفيلم، كانت صالات السينما تعرض أفلاماً قصيرة عن «أخبار الساعة» للثنائي باتيه وغومون بنسختها الأصلية وهذه العادة ستظل شائعة لوقت طويل وحتى حين استبدلت أخبار الساعة الفرنسية بأخبار الساعة اللبنانية، كانت تُعرض باللغة الفرنسية مرفقة بترجمة عربية على الشاشة. أما في الصحافة المكتوبة فلم يكن التفوق للغة الفرنسية، ذلك إن الصحافة العربية في بيروت كان لها تراث عريق. ومع ذلك، ظهرت صحف محلية باللغة الفرنسية كجريدة **لا سيري** *La Syrie* لجورج سمنة **والأوريان** *L'Orient* لغبريال خباز وجورج نقاش ثم **لوجور** *Le Jour* لميشال شيحا، مساهمة بنشاط في السجال العام. وتجاوز قراء الصحافة الباريسية التي تصل بانتظام إلى بيروت دائرة الفرنسيين المغتربين في 1939، كما كان لمجلة ماري-كلير الفرنسية قراؤها. وازداد الإقبال على الصحف والمجلات الفرنسية، فانتشرت مكتبات بيع الصحف والمجلات وأهمها مكتبة الأخوين نوفل التي أثرت أصحابها وأصبحت مكتبة أنطوان، وهي على اسم الأخ الكبير لعائلة نوفل، أحد معالم المدينة. وشجّع هذا الواقع الجديد أصحاب المواهب على الكتابة باللغة الفرنسية، ونشر عدة لبنانيين انتاجهم بالفرنسية مثل الشعراء شارل قرم وهكتور خلاط وإيلي تيان وفؤاد أبي زيد. ومنهم من نشر في باريس نفسها أمثال جاك تابت أو أفلين بسترس التي أقبلت على كتابة الرواية وكانت باكورة أعمالها الروائية «يد الله» La Main d'Allah، التي ظهرت أول طبعة لها في 1926 ضمن منشورات Bossard في باريس وقدّم لها جيروم وجان تارو Jérome et Jean Tharaud، وأيضاً جورج شحاده الذي أثار ديوانه «قصائد» الصادر عن دار GLM، حماسة سان - جون

برس وغيرة بول ايلوار الودّية.

لم يكن ازدهار الفرانكوفونية هذا يعني أن الفرنسية تحولت إلى لغة وطنية يتخاطب بها الجميع. فالأمر أبعد من هذا. إن انتشارها في أوساط الخاصة من الناس جعل منها وسيلة للتمايز الاجتماعي والطائفي على نطاق واسع حتى مطلع القرن الواحد والعشرين. لكن هذا لم يمنع اللغة الفرنسية من أن تحتل مركزاً مرموقاً مشهوداً له من خلال التأثير الذي مارسته على العربية حتى وإن كان معظم أبناء الشعب ما زال بعيداً عن استخدام اللغة الفرنسية. ولم تمارس تأثيرها على العربي المكتوب فحسب، بل ظهرت نزعة منذ أن أُنجزت ترجمة الآثار الكبيرة لعصر النهضة تدعو إلى تمثل التعابير الفرنسية واستيعابها لدرجة أننا نسينا أصلها الفرنسي*. لكن الأهم هو إن لغة التخاطب اليومي اشتملت على عدد كبير من الكلمات الفرنسية التي، كالكلمات الايطالية قبلها، عُدّلت أحياناً وأحياناً أُبقيت على حالتها الأصلية.

فلنبدأ أولاً بعبارة التحية والتهذيب: «بونجور»، «بونسوار» التي يُرد عليها بـ«بونجورين» أو «بونسوارين» و«مرسي كتير» و«موسيو»، «مدام» (المعدلة عربيا بـ«المدام» و«مدامتي»، «مدامتك») «مادوموازيل» (التي يقال لها أحياناً ماموازيل)، وشيري (المستعملة بين النساء وتتقدمها حرف النداء يا، يا شيري) أو باردون (المتحولة أحياناً إلى باردون منك). لا شك أن مثل هذه الاضافات اللغوية كانت عديدة في الميادين حيث يهيمن الاستيراد و/ أو المحاكاة. في الأعمال التجارية، كانت الاتفاقات Contrats تُوقَّع، والـ«الأسورانس» assurance تعايشت مع سوغورتا الايطالية ثم حلّت مكانها. وفرضت نفسها كلمات «بنك» و«شك» ومنها الجمع «بنوكه» و«شكات». وفي تجارة الملابس، هناك كلمات «بوتيك» و «فيترين» و«نوفوتيه» و«شيك» و«لوكس» و«تايور»، كرافات، «بابيون» «جاكيت»، «كولوت»، «سوتيان»، «مايو»، وفي ميدان مجاور للباس: «كوافور»، «ميزان بلي»، «ماكياج»،... وفي مجال التسلية: «سينما» و«بروجكتور» و«بيسين» وللذات الطعام: «غاتو»، «بونبون» «شالومو»، «بلا دو جور»، «مونو» «menu» الذي يحضره الـ«شيف» والذي يقدمه الـ«غارسون». وأيضاً بالنسبة للأثاث المنزلي مع كلمة «فوتوي» Fauteuil و«كانابيه» Canapé التي أصبحت «كنابييه» وعندما يجلس المرء، يمكنه أن يقرأ «الجرنال» بدلاً من «جورنال» متوقفاً عند «المانشيت» و«البورتريه» و«البروفيل» لكن الاقتباس الأشد تعبيراً كان في المجال الميكانيكي: «ترامواي»، «اوتوكار»، «أوتوبيس» «ترين» مع ما يواكبها من كلمات أخرى: «شوفور» أو «ميكانيسيان» و«أوتوموبيل» أو «كاميون» والذي يستخدم هذه الآلات لا يستغني عن اللغة الفرنسية، لأنه يجب الدوس على «الدبرياج» ثم الامساك بـ«الفيتاس»

* على سبيل المثال، عبارة «ذر الرماد في العيون» من أصل فرنسي.

والانتقال من «البروميار» إلى «الدوزيام» ثم «تروازيام» أو «كاتربيم» أو العودة إلى «البومار» التي اعطت الفعل «بومر». وإذا اختل عمل «الديركسيون»، فهناك مجازفة ببعج «الكاروسري» نتيجة «أكسيدان» والوقوع في نزاع مع «البوليس»، أو في ما هو أسوأ: أن تجد نفسك في «أمبولانس» وعند اقتضاء الحاجة، الذهاب إلى «الكاراج» لتصليح «الموتور» و«الشاسي» و«ألأمورتيسور» و«السوسبانسيون» و«الأشكمون» و«جوان الكولاس» و«الفرام» أو بعض «اللاستيك» ولحسن الحظ، تبقى أمامك امكانية الصعود في «تاكسي» أو في ما هو أقل كلفة: «السرفيس»*.

إن مثل هذا الإثراء الدلالي يكشف بذاته عن التعقد المتنامي لحياة المدينة التي اجتاحتها معايير سلوك غربية لا بل عالمية. وهذا النوع من التحضر لم يكن بالطبع حكراً على بيروت وحدها، فقد ظهرت في الحواضر الأخرى من المنطقة تحولات مشابهة، لكن لا توجد مدينة عربية في الشرق الأدنى، باستثناء القاهرة، لامست بتحولاتها إطار الحياة الأوروبية كما لامستها بيروت. ثم إن الأهمية المتعاظمة للمهن الجديدة وتحديداً المهن الحرة وتزايد العاملين فيها أدّت إلى إطالة سلسلة المحاكاة وعمّمت باطراد المعايير الأوروبية. وحادت الطبقة الوسطى، على الأقل في شريحتها المسيحية، عن التسميات المحلية،وهذا ما بدأ يتضح منذ نهاية القرن التاسع عشر حيث كثرت تسميات جوزف وجورج وميشال ومشتقات ماري، هذا ولا ننسى الكلام عن الأسماء الغريبة مثل جوفر Joffre وويغان وجان دارك التي ظهرت في الأوساط الريفية.

وربما فاقت بيروت القاهرة بالامتداد السوسيولوجي للتغربن. يمكنك في القاهرة مثلاً أن تقع على الكثير من المظاهر المحلية التي ظلت شائعة لا سيما في القاهرة القديمة. أما في بيروت فكانت رواسب الماضي يطلق عليها اسم «بلدي» وباتت محصورة فقط بالأحياء التي لم تدمج بحياة المدينة حيث ينتشر أصحاب المهن مثل العتّالين والبائعين المتجولين الذين يجرون عرباتهم وبائعي الكاز والمازوت فوق عرباتهم التي تجرها الأحصنة.

* لا يزال معظم هذه الكلمات مستخدما في مطلع القرن الواحد والعشرين.

الفصل الرابع عشر

بؤرة الاستقلال

شاءت فرنسا أن يكون مكان إعلان لبنان الكبير في الأول من سبتمبر/ أيلول 1920 في مبنى يعكس بشكل نموذجي الهندسة النيو - مغربية، كان أعده الحاكم العثماني القديم ليكون كازينو وصالة سينما. وأمام درج المدخل جمع الجنرال الفرنسي، بطل الحرب، بعض الأعيان احتفالاً بالمناسبة. والغريب في الأمر أن هذا المشهد سيتكرر ولكن مضمونه سيختلف بتأسيس كيان آخر جديد. أما مسرحه، فسيكون هذه المرة وسط بيروت حيث أنشأت فرنسا تطوراً عمرانياً على صورتها. ففي ساحة النجمة، وهي الرمز الواضح للزمن الجديد الذي يخيم عليه ظل باريس، دوّت أصداء هذا التوق إلى مستقبل دون فرنسا، لا بل ضدها. ورافق تغيير الاطار تغيّر مماثل في نمط العمل السياسي. وبدلاً من جماعة الأعيان ورجال الدين الذين أحاطوا بالجنرال غورو، تجمع آنذاك حشد أمام البرلمان يهتف مندّداً بخلفه هيللو Helleu. حشد متعدد التركيب أو ربما شعب التف لأول مرة حول فكرة استقلال تجعله السياسة العالمية ممكناً. فعلى غرار الحركات الأخرى المنادية بإزالة الاستعمار التي تعززت في فترة ما بين الحربين العالميتين، في الهند أو في مصر، كانت نزعة الاستقلال في لبنان تستعير من أوروبا، ولو لبضعة أيام فقط، نموذج تعبئة الجماهير.

ولبنان كما رسمته المخططات الأمبراطورية في الجمهورية الثالثة في فرنسا، أحرز نجاحاً يتعدى ما تصوره بشأنه عرّابوه في الحزب الكولونيالي. ذلك أن اللبنانوية المؤسسة التي شجعها الانتداب في بادئ الأمر بدأت تأخذ شكلاً أكثر تماسكاً. ووجدت نفسها، إذا أرادت فعلاً أن تذهب في منطقها إلى النهاية مكرهة على التخلي عن أمها الحنون. ومهما يكن البلد متفرنساً فهو ليس جزءاً من فرنسا، وانفتاحه على أوروبا لا يمنعه من أن يظل متجذراً في المشرق العربي. وكانت الثقافة الحية التي تشكل فيه وخصوصاً في عاصمته لا تقيم وزناً للخصومات الايديولوجية بشأن الهوية. وقبل أن يسعى الميثاق الوطني لعام 1943 لإنهاء الجدل من خلال صيغة تسوية، عرجاء الطابع متحدثاً عن «وجه عربي للبنان»، كانت بيروت شاهدة على عروبة ثقافية تنذر بانطلاقة جديدة. وقد أدّت هذه الانتفاضة

الشعبية المطالبة بالاستقلال إلى بلورة شعور وطني جامع.

النهضة الثانية

كان الكثير من البيروتيين يعيشون في ظل الانتداب كما يعيش الفرنسيون في عاصمتهم باريس أقله من حيث المظهر. لكن تعميم نمط الحياة الغربية كان أبعد من أن يعني إزالة ثقافة البلد الأصلية. ومهما يكن انتشار اللغة الفرنسية متسماً بالظفر، فلا يتبادرن إلى أذهاننا انه بالامكان أن تكون بديلاً عن اللغة العربية. حتى في الأوساط المسيحية، كانت جميع المدارس الدينية حريصة على عدم تهميش تعليم اللغة العربية التي يجري تدريسها في مؤسسات الارساليات. لا بل كانت مدرسة الحكمة المارونية تفتخر بفصاحة تلاميذها في اللغة العربية[1]. وضمن السجال العام، لم تكن الصحف الصادرة بالفرنسية، رغم حضورها القوي، قادرة على أن تحدّ من غليان الصحافةالعربية في بيروت، هذه الصحافة التي شهدت انطلاقة جديدة بفضل عودة الصحافيين الذين أبعدو عن وطنهم إلى باريس أو القاهرة خلال الحقبة الحميدية وفي ظل حكم تركيا الفتاة.

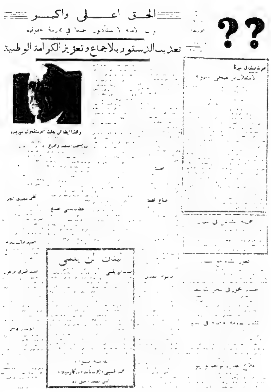
ومنذ 1921، ألهمت الهالة التي أحاطت بالمعرض الدولي المنظم من قبل سلطة الانتداب ميشال زخور فأطلق على جريدته الصادرة مرتين في الأسبوع اسم **المعرض** (وقد صار لاحقاً نائباً ووزيراً). وفي عام 1924، أطلق جبران تويني العائد من مصر جريدته اليومية **الأحرار** التي أرفقت بعد سنتين بنشرة مصورة: **الأحرار المصورة**. وبعد فاصل أمضاه في عمله كوزير للتعليم الرسمي، أنشأ في 1933 جريدة يومية أخرى **النهار** التي أصبحت الجريدة المرجع للبنان المستقل. وفي غضون ذلك ظهرت عناوين جديدة لصحف يومية بمعدّل صحيفة كل عام: **العهد الجديد** التي أسسها في 1925 خير الدين الأحدب وهو أول رئيس وزراء سنّي عتيد، **الشرق** لصاحبها عبد الغني الكعكي في 1926، **الدستور** لصاحبها خليل أبو جودة في 1927، **البيرق** التي أسسها سعيد عقل قبل الحرب العالمية الأولى، وهو أحد شهداء 1916، ثم أعادت العائلة إصدارها في 1928، **النداء** لكاظم الصلح في 1930 التي عرف عنها إنها الناطقة بالمبادئ القومية لنسيبه رياض الصلح، **اللواء** لعلي ناصر الدين في 1930، **المكشوف** وهي نشرة مصورة أسسها الكاتب فؤاد حبيش في 1935، **بيروت** لمحيي الدين نصولي في 1936، **صوت الشعب** لنقولا الشاوي الناطق شبه الرسمي للحزب الشيوعي السوري – اللبناني السري في 1937، **العمل** وهي لسان حال حزب الكتائب، في 1939... إن الحيوية التي تميزت بها هذه الصحافة المناضلة غالباً والمعرّضة بالتالي بسبب هذه الصفة لملاحقات المفوضية السامية، تجلّت على أكمل وجه وأبهى صورة خلال معركة الاستقلال في نوفمبر/ تشرين الثاني 1943 عندما نجح رجال الصحافة المحلية في التصدي لتعليقات الصحف التي كان يصدرها، موفد «فرنسا الحرة» من خلال إصدار


النهار

العدد الأول
من صحيفة النهار.

نشرات سرية لتغطية أخبار سلطة الانتداب تحت عنوان «؟» أو «؟ ؟»[2]. ولكن فيما يتعدى مضمونها السياسي، كانت المختارات المقتطفة منها تشهد على اتساع حركة التجدد هذه في الثقافة العربية وكأنها تمهّد فعلاً لعصر نهضة ثان.

كانت بيروت، كما في ذروة عصر النهضة في القرن التاسع عشر، الموئل الرئيس، إلى جانب القاهرة، لهذه الفورة الملموسة في عالم الكتابة والنشر. فبالاضافة إلى وظيفتها السياسية أثارت الصحافة الأدبية في المقالات الافتتاحية حماسة الشعراء والناشرين لارتياد أبواب جديدة أثرت اللغة العربية. وبعد الانجازات الكبرى التي حققتها النهضة الأولى، اتجه العمل على إعادة إحياء اللغة، في مطلع القرن العشرين، شطر الأميركيتين أو بشكل أخص شطر «نيو إنكلاند» حيث أطلق عدة أدباء شبان آتين من لبنان نظرياتهم الأدبية. والأشهر بينهم أمين الريحاني، وهو أول كاتب عربي نشر بالانكليزية دون أن يتخلى مع ذلك عن عربيته، وجبران خليل جبران الذي كتب هو أيضاً باللغتين العربية والانكليزية. وضمّت «الرابطة القلمية»، التي أنشئت بمبادرة من جبران خليل جبران في نيويورك عام 1921،


؟؟
الحق اعلى واكبر
تعديل الدستور بالاجماع وتعزيز الكرامة الوطنية

جريدة «؟؟» السرية إبّان معركة الاستقلال.

البحّاثة وكاتب القصص القصيرة ميخائيل نعيمة وهو اقرب الناس لجبران والشاعر إيليا أبو ماضي وكلاهما رجع للاقامة في لبنان في الثلاثينات من القرن المنصرم بعد وفاة جبران. وثمة أدباء آخرون هاجروا إلى البرازيل أمثال الإخوة [فوزي وشفيق ورياض] معلوف ورجعوا إلى وطنهم الأم.

ومن بين كل هؤلاء الأدباء، لا شك أن أمين الريحاني يجسد أفضل تجسيد مواقف أدباء المهجر من حركة التجدّد في اللغة العربية. وقد قام، قبل اندلاع الحرب العالمية برحلات طويلة إلى العديد من دول العالم ثم قام بجولة شاملة على معظم البلدان العربية، بدءاً «بشبه الجزيرة العربية» ولم تمنعه فلسفة اللا أدرية التي اعتنقها من عقد صداقة مع الملك العتيد عبد العزيز ابن سعود ثم عاد إلى لبنان ممضياً وقته بين ضيعته الفريكة وأميركا، ثمّ ما لبث أن قام بعدة جولات في أوروبا، مازجاً بين حياة الناسك وجوّاب الآفاق العالمي في آن بالغاً شهرة كبيرة في المشرق العربي. كان الريحاني حتى مماته في 1940 أحد هؤلاء الذين ساهموا في جعل لبنان يلتفت من جديد إلى محيطه الثقافي العربي وينطلق إلى العالم الكبير الأبعد في آن. وبالمقابل، لقي الكتّاب الذين يمثلون «أدب المهجر» بعد رجوعهم إلى الوطن حفاوة بالغة وإقبالاً منقطع النظير على أدبهم المشبع بالروح الوطنية حيث كان أدباء النهضة في بيروت قد

قطعوا شوطاً بعيداً في مسيرة الحداثة منذ نهاية الحرب. وفيما كان الشاعر بشارة الخوري يفوز بلقب «الأخطل الصغير» نظراً لتجديده الكلاسيكي للشعر الحديث وتيمناً بالشاعر القديم الكبير النصراني الأخطل الذي عاش في العصر الأموي، ومن ثمّ حظي بلقب شاعر العصر الأموي، كان الياس أبو شبكة يسمع صوتاً بودليرياً، وكان سعيد عقل الشاب، على منتصف الطريق بين البرناس وبول فاليري، يبث روحاً جديدة في هيكلية الشعر العربي. وبفضل هذا الحشد من الأدباء الذي عزّزه أدباء المهجر، وضعت بيروت الثلاثينات نفسها من جديد على السكة لتستعيد دورها كعاصمة الثقافة العربية الذي منحها إياه سابقاً البساتنة وآل يازجي.

ربما كانت هذه النهضة الثانية، بمعنى ما، أكثر شمولاً من الأولى لأنها لم تعد تقتصر فقط على الأدب المكتوب. وإذا بقي الأدب ملكاً على عرش الحداثة، فإن الطريق الجديدة فتحت أمام نوع جديد من التعبير الفني تجسد في الشغف بالرسم. لا شك أن تجارب مماثلة حصلت في القرن التاسع عشر، وكان لفن البورتريه نصيبه بفضل رواد كداوود القرم فيما أدت حركة انتاج استيراد الأعمال الفنية الأوروبية المعروفة في مجال الديكور الداخلي إلى تنمية أذواق الناس باتجاه الاستمتاع بالمشاهد المرسومة واللوحات الفنية وأيقظت المواهب الكبيرة التي ستتفتح في العقود الأولى من القرن العشرين



الرسم وجمهوره، لوحة داخل لوحة لعمر الأنسي.

وخصوصاً غداة الحرب. وبعد جيل حبيب سرور وخليل صليبي اللذين درسا في باريس، ترسخ التحول الذي شهده فن الرسم في العشرينات. من ممارسة منعزلة أو بالأحرى من شاغل يقوم به هاو، تحول الرسم على اللوحات الصغيرة، من هواية إلى مهنة مستقلة تجتذب عدداً متنامياً من المواهب الفنية في الأوساط المسيحية والمسلمة على حد سواء وقد تمّ تجاوز التحظير الاسلامي للتصوير بمعناه الضيق وأمكننا الكلام آنذاك عن حركة فنية حقيقية متمحورة حول عشرة رسامين أهمهم يوسف الحويك، قيصر الجميل، عمر الانسي، مصطفى فروخ ولاحقاً صليبا الدويهي. لا شك أن ثمة فارقاً هاماً في الرسم وفي الأدب، بين الابداع المعاصر في أوروبا وبين ما بلغته هذه الفنون في بيروت. ففيما كانت السوريالية تُجهز على ما تبقى من التصوير التقليدي، كان فنانو بيروت، مع انهم مروا غالباً بمحترفات باريس أو روما، مصرين على عدم التخلي عن الواقعية في تصوير البورتريهات إلاّ لصالح انطباعية متأخرة وخجولة جداً في التعامل مع المناظر ولوحات الطبيعة الجامدة. لكن لن يتأخر الإبداع الفني المحلي في اللحاق بعجلة الإبداع الأوروبي. فبعد بداياته الكلاسيكية في ثلاثينات القرن العشرين، قصد صليبا الدويهي نيويورك وتخصص في الرسم التجريدي فيما انطلق شفيق عبود إلى فرنسا في أواسط الأربعينات ليلتحق بمدرسة باريس. وفي غضون ذلك شقت الفنون التشكيلية لها طريقاً في بيروت في الحياة الثقافية والاجتماعية إلى درجة إنها استطاعت العثور على نساء يقبلن بالظهور عاريات.

قطب العروبة وعاصمة اللبنانوية

كانت آثار هذه النهضة الجديدة على المدينة مضخمة من خلال تطور الحضارة التقنية. فسهولة الانتقال كانت تجعل من بيروت محطة يرتادها الرسامون السوريون والعراقيون أو الأدباء المصريون الذين ساهموا، هم أيضاً في التجديد. هذه هي حال الشاعر أحمد شوقي الذي أصبح يتردّد إلى لبنان باستمرار والذي كرّس لزحلة، عاصمة البقاع، قصيدة باتت كلاسيكية. وعندما لا يسافر الأدباء فإن انتاجهم الأدبي ينوب عنهم. وكانت فرق مسرحية مصرية تأتي غالباً إلى بيروت لتؤدي مسرحيات مكتوبة مباشرة بالعربية أو مترجمة كمسرحية «فرخ النسر» لادمون روستان التي مثلتها فاطمة رشدي، الملقبة بسارة برنار الشرق، في 1928 على مسرح سينما الأمبير[3]. لكن الفضل يعود أيضاً للراديو في جعل بيروت تجاري محيطها. كان التقدم الذي شهده جهاز الراديو في الشرق الأدنى خلال فترة ما بين الحربين يتجه لصالح مصر وفلسطين. وكان النجاح الذي حظيت به هذه الوسيلة الجديدة يوطّد علاقة يومية مع المتحدثين الآخرين باللغة العربية في البلدان المجاورة. وهكذا بقي جمهور بيروت على صلة بأدباء القاهرة من خلال استماعهم إلى المسرحيات التي تبثها الإذاعة بالإضافة إلى نجوم الأغنية العربية. كانت الأغنية العربية الجديدة، وهي فن شعبي ونبيل في آن، تسجل من خلال اقتران

تكنولوجيا الراديو بإبداع الشعراء المصريين، نجاحاً في بيروت كما في كل البلدان العربية لدرجة إنها حدّت من التغربن الثقافي الناتج عن التأثيرات التي احدثتها محاكاة الغرب في بيروت. وهكذا كانت الحال بالنسبة للسينما المصرية التي سجلت انطلاقتها في نهاية العشرينات مع ستوديوهات مصر التي لاقت نجاحاً كثيفاً وجماهيرياً في الشرق الأدنى لدرجة إنها باتت جزءاً من المشهد المديني في بيروت نظراً لتوافر الصالات المجهزة فيها. وكانت نبرة النشرات الاعلانية الظاهرة في الصحف للترويج لذلك الحدث الكبير آنذاك، أي عن ظهور فيلم جديد، تثبت إن بيروت، إلى كونها على الخط دوماً مع باريس، كانت على علاقة وثيقة مع زمن القاهرة.

ولم يكن انتشار الثروات الثقافية والإبداعية الذي أتاحته التطورات في مجال التكنولوجيا ذا اتجاه واحد. فالانفعال الذي أثارته في العالم العربي وفاة أمين الريحاني، يكشف أن إبداع بيروت يتعدى الحدود الجديدة بين البلدان العربية ويستطيع أن يبعث على الدوام نخب المثقفين في الشرق الأدنى. ونظراً لسهولة المواصلات وسرعة انتشار الأخبار والبضائع، استطاعت الصحف ومعها دور النشر البيروتية أن تحيط نفسها بالأبهة وتجتذب إليها رجال الفكر والأدب. صحيح أن الأدباء المصريين ظلوا على وفائهم لدور نشر القاهرة، ولكن أدباء سوريا كانوا يتجهون بطريقة شبه عفوية إلى ناشري بيروت. وهكذا أصدرت في بيروت قصائد الشاعر عمر أبو ريشه وكتب المفكر قسطنطين زريق، الداعي إلى قومية عربية متعصرنة، وقد تعاطى مهنة التدريس في جامعة بيروت الأميركية بعد أن تلقى فيها دروسه. وفي بيروت، أيضاً نشر الشاعر الدمشقي نزار قباني أول ديوان له كان باكورة أعماله الشعرية الناجحة وبداية الشهرة التي بلغها بإصدار ملايين النسخات من دواوينه.

وتواصل تجذر بيروت في الثقافة العربية متخطياً الحواجز انطلاقاً من النزعة التي رسختها، تحديداً الترسيمة الجديدة للحدود بين البلدان العربية. لم تكن المفارقة إلاّ في الظاهر. صحيح أن الرواج الذي بلغته اللغة الفرنسية بدعم من سلطة الانتداب وانتشار العادات الباريسية بحيث صارت قيمة معيارية كان واسعاً، لكن انبعاث الثقافة من بلد يتخاطب أبناؤه باللغة العربية لا بد وأن يثري ثقافة أهله النابعة من تاريخهم الموروث. لا شك أن الأيديولوجيا المنادية بالخصوصية اللبنانية والتي روّج لها فريق من الصحافيين المتحلقين حول **لاروفي فينيسيان**، كان تأثيرها على المدى البعيد وساهمت إلى حدّ كبير في خلق هذه الحالة من التردد والحيرة في الهوية الوطنية اللبنانية. ومع ذلك لم يكن لدعاة النزعة الفينيقية أي تواجد ملموس على أرض الواقع ولا للخصوصية التي نادى بها أبناء الجبل لأنها هي أيضاً لم تستطيع أن تجد لها إمتداداً ثقافياً مستقلاً.

أمام هذا الواقع، لم تُطرح على بساط البحث مسألة تحديد اللغة الرسمية للدولة الجديدة من قبل الأطراف. فرضت العربية نفسها بشكل عفوي، وجاء دستور 1926 ليصدّق على وضع قائم

بصورة بديهية، وجل ما أمكن المساواة بين العربية والفرنسية مراعاة لسلطة الانتداب. ومع أن النص الدستوري، الذي أقرّ على مرأى ومسمع من المفوض السامي، كُتب في الفرنسية، إلاّ انه نشر وأعلن باللغتين. ولم تلبث الممارسة السياسية أن تجاوزت مسألة ازدواجية اللغة في البلد الواحد. وعندما آن أوان نظم النشيد الوطني اللبناني، بعد إقرار الدستور، كان من البديهي أن تجري المسابقة لاختيار أفضل نص بالعربية. ووقع الخيار على النص الذي نظمه الشاعر رشيد نخله ولحّنه وديع صبرا[4]. وكانت المناقشات في مجلس النواب ومجلس الوزراء تجري أيضاً بالعربية. وكذلك البيانات الرسمية والمراسيم الحكومية، حتى لو كان الحضور الفعلي للمفوض السامي والمحاكم المختلطة يلقي بظل الفرنسية على العمل التشريعي. وبالعربية أيضاً كانت تجري المراسم الاحتفالية الجمهورية سواء تعلق الأمر بحفلات التدشين أو برفع الستار عن نصب الشهداء ليوسف الحويك في 1930[5]. وكانت لحظة عظيمة في حياة لبنان الجديد، عندما كُرِّم جبران خليل جبران في بيروت بعد مماته في 1931 في الفترة الواقعة بين الحربين. كان جبران معروفاً بصفته مفخرة لبلده بالرغم من مناهضته للإكليروس وانتفاضته على لبنان المركنتيلية وقد أقيمت له جنازة مهيبة امتدت على يومين متواليين. و قبل مواراته الثرى في مسقط رأسه بشري في لبنان الشمالي، سُجي جثمانه في الكاتدرائية المارونية لبيروت بعد نقله من الولايات المتحدة ووصوله الى المرفأ حيث استقبله موكب رسمي مهيب. وقريباً من موضع الجنازة، في التياترو الكبير، على بعد ثلاثين متراً من الكاتدرائية جرى احتفال تأبيني احتفلت فيه جمهورية لبنان الكبير، ولأول مرة من دون أوصيائها الفرنسيين بوفاة ذلك الأديب الذي كان علماً من أعلام اللغة العربية قبل كل شيء وكاتباً طارئاً على اللغة الانكليزية[6].

مساحة للتعايش

إن انشاء مجتمع سياسي محلي لم يقتصر فقط على الاحتفالات. وبالرغم من إصرار المفوضية العليا على الاحتفاظ بواقع السلطة على جميع المستويات معلقة الدستور عندما يحلو لها ذلك، استطاعت نخبة سياسية محلية من أن تفرض نفسها تدريجاً، وفقا لرغبات سلطة الانتداب حيناً واحياناً أخرى ضد إرادة الانتداب. حتى أن بعض أولئك الذين اعتقدوا أنهم وجدوا في الدولة الفرنسية حامياً عطوفاً، سرعان ما آل بهم الأمر للاقلاع عن هذه الفكرة. وفي النهاية، لم تستطع غالبية اللبنانيين أن تجد مجالاً للتوافق فيما بينها إلاّ في الاتفاق على معارضة الانتداب. وقد لعبت بيروت دوراً رئيسياً في هذا الاطار. ليس فقط لأنها عاصمة لبنان الكبير - والانتداب - حيث المدينة ساحة يومية للعبة السياسية، بل لأن المجموعة السياسية التي تسلّمت زمام الأمور أثبتت قدرتها على خلق جيل من المواطنين من مختلف الطوائف قادرين أن يتعايشوا فيما بينهم على أكمل وجه.

وبعد زوال الهيمنة العثمانية، أظهرت أقلية من الموارنة تأييدها للبنان الصغير الذي يختزله الجبل عملياً، ورفضها تذويب خصوصيتها الطائفية في محيط أوسع من السكان - وهذا التقوقع من جانب البعض والتنكر للقضية العربية والانتماء العربي عاد ليعبّر عن نفسه في مطلع الحرب الأهلية التي اندلعت في لبنان عام 1975. وثمة أقلية أخرى تمسكت بصلتها بسوريا في ظلّ الأمير فيصل، بالاتفاق مع غالبية المسلمين، لكن مؤتمر السلام ومعركة ميسلون التي فرضت أمراً واقعاً، سرعان ما أبعدا هذا الخيار، ولكن ليس من دون إكراه وتوجب آنذاك على شخصيات تنتمي إلى مختلف الطوائف، ومن بينها شقيق البطريرك الماروني بالذات، أن يتعرضوا للنفي لبضع سنوات بسبب «آرائهم الاتصالية». وبين هاتين الأقليتين، كانت غالبية الوجهاء الموارنة، بزعامة الكنيسة، يؤيدون خيار انشاء لبنان الكبير بحماية فرنسا. وهذا الاتجاه الذي تكرس ميدانياً من خلال قرارات سلطة الانتداب بعد سقوط دمشق، سيحدد تكون المجتمع السياسي اللبناني حيث ستفرض شخصيات نفسها في رأس الهرم بعد أن بدأت عملها السياسي قبل الحرب العالمية في إطار الولاية المستقلة لجبل لبنان.

وانضم العديد من هذه الشخصيات منذ مطلع الانتداب في حزب قصير الحياة سُمي بحزب الترقي. وخلف هذه التسمية الجميلة، كان الأمر يتعلق بتشريع الهيمنة الفرنسية ودعم التوجه الملائم للمسيحيين. وهذا ما جسّده شعار الحزب «لاجل لبنان ومع فرنسا» وبرنامجه المؤلف من ثلاث نقاط: الحفاظ على الاستقلال السياسي للبنان الكبير في ظل الانتداب الفرنسي، حماية «التقاليد الوطنية» والحريات الدينية، إقامة تمثيل انتخابي وفقاً لنظام يجري تحديده، مع اعتبار «الكفاءة» «والجدارة» المعيارين الوحيدين للنظام وبالطبع، كان هذا يعني في سياق القاموس السياسي لتلك الفترة تقليص دور المسلمين الذين «يُفترض» انهم أقل جدارة «وكفاءة». كان الحزب المؤلف حصراً من المسيحيين برئاسة الماركيز البابوي جان دو فريج وبأعضاء مجلس إدارته اميل اده والفرد نقاش وبشارة الخوري وهؤلاء الثلاثة سيكونون الرؤساء العتيدين للجمهورية اللبنانية[7]. ومن هذا الرحم المشترك، لن تلبث أن تتشكل كتلتان كبيرتان معارضتان إحداهما للأخرى: الكتلة الوطنية (لا علاقة لها بتلك التي أنشئت في سوريا تحت الاسم نفسه) والكتلة الدستورية. كانت الأولى بزعامة اميل اده الذي أبقى طيلة حياته على ولائه لفرنسا وعلى فتور شبه معلن حيال المسلمين، دفعه إلى حد اقتراح نقل قسم منهم إلى البلدان العربية الأخرى تجنباً للإخلال بتوازن الغالبية الطائفية للمسيحيين. وبالمقابل أكدت الكتلة الدستورية نفسها تدريجاً بزعامة بشارة الخوري وابن عمه المصرفي والصحافي ميشال شيحا[8]، بصفتها تحمل مشروعاً استقلالياً ثم لاحقاً بصفتها صوتاً للمعارضة وأخيراً كركيزة لبنان المستقل بعد أن متنت علاقتها بالزعامات القومية المسلمة.

استطاع العمل السياسي للوجهاء المسيحيين أن يحصل، على الأقل في بداياته، على مباركة المفوضية

الفرنسية العليا. أما الأمر بالنسبة للمسلمين فكان مختلفاً إذ إن مساهمتهم في هذا المجتمع السياسي الذي هو قيد التكون جاءت متأخرة بعض الشيء. أولاً لأن المسلمين كانوا عموماً معادين لانقسام سوريا وفرض الهيمنة الفرنسية، لذا رفضوا لوقت طويل دولة لبنان الكبير وبالتالي المؤسسات التي ستنبثق عنها فالعديد من المسلمين رفضوا بأن يشاركوا في إحصاء السكان. وعلى رأسهم سليم سلام وعائلته - مما أوجب عليهم إثبات قيودهم للحصول لاحقاً على الجنسية اللبنانية. وثانيا لأنه بسبب معارضتهم للانتداب، وجد المسلمون أنفسهم معرضين لمضايقات الإدارة الفرنسية التي لم تتردد عن اللجوء إلى نبذ المعارضين. ولم ينفع لا التهديد بالنفي ولا بالسجن ولا المضايقات الاقتصادية في دفعهم إلى التخلي عن رفضهم لسلطة الهيمنة الفرنسية المرادفة لانقسام البلدان السورية[9]. لا بل نجحت المعارضة الاسلامية في تنظيم نفسها عن طريق إنشاء دعائم لها تحت اسم «مؤتمر الساحل والاقضية الأربعة» قبل أن توافق الكتلة الوطنية السورية على انفصال الكيان اللبناني المشار إليه في معاهدة 1936، مما فتح الطريق أمام «لبننة» عملها.

لم تكن معارضة المسلمين للانتداب، النابعة من رفضهم لتقسيم المنطقة مقتصرة على الإيديولوجيا بل كانت تتغذى أيضاً من السياسة التي كانت تفرضها فرنسا داخل الحدود اللبنانية الجديدة والتي كان المسلمون يعتبرونها مخلّة بالتوازن ومنحازة أساساً وقطعاً لصالح المسيحيين. ووفقاً لمصطلحات تلك الحقبة، وجد أهل الساحل أن حقوقهم من قبل سلطة الانتداب مجحفة بحقهم بالمقارنة مع أهل الجبل أي المسيحيين الذين يسكنون جبل لبنان ومع المقيمين منهم في بيروت بعد أن غادروا من جبالهم. وكما تشير إحدى جلسات انعقاد مؤتمرات الساحل التي جرت عام 1933، أدّى تفكّك الاقطار السورية إلى ازدياد الأعباء المالية على المؤسسات مما أرهق كاهل الميزانية ولكن، علاوة على ذلك، كانت النفقات موزعة بشكل غير عادل. ففيما كان أهل الساحل يساهمون في أكثر من ثلثي ايرادات الخزينة، كان مثل هذا المبلغ يغطي النفقات المخصصة لجبل لبنان والتي تشمل دفع المستحقات للعمال والموظفين وإنشاء الطرق ومساعدات البلدية والاعانات للمدارس والمستشفيات وتغطية موازنة السياحة[10]. لا شك أن الأرقام الواردة في التقرير دعماً للسجال، قابلة للجدل، ولم يكن بإمكان مساهمة سكان الساحل في الإيرادات أن تصل إلى هذه النسبة إذا لم نضف إليها إسهام جميع البيروتيين سواء كانوا مسيحيين أم مسلمين. ومن ثم، لم يكن تنديد مؤتمرات الساحل بالحصة المفرطة للنفقات المخصصة إلى جبل لبنان يأخذ بعين الاعتبار أو يقيم وزناً للأعمال الآيلة إلى تأهيل البنى التحتية المنفذة في بيروت والتي كان يفيد منها مجتمع البيروتيين مسلمين ومسيحيين، الأصليين منهم والمقيمين حديثاً على حد سواء. لا يمنع مع ذلك من أن يكون الحديث عن اختلال التوازن، فيما يتعدى المبالغة التي تحيط به، مطابقاً للواقع. وقد فاقم منه حصر المراكز الإدارية الرئيسية بالمسيحيين، وهذا ما يؤكد عليه مؤتمر الساحل،

بأنه مخالف للمادة من الدستور التي تقضي بتوزيع عادل للوظائف الرسمية على الطوائف.

ولم يكن الاستنكاف الطويل الذي أبداه المسلمون في لبنان إزاء الالتحاق بالمؤسسات يعني إن العلاقات السياسية مع المسيحيين كانت معدومة. فالعلاقات، وقبل المنعطف السوري عام 1936، كانت موجودة وأعيد تعزيزها وشجعت واقعة أن بيروت عاصمة متعددة الطوائف ممارسة التعايش في الحياة اليومية، بانتظار أن يحين موعد الميثاق الوطني في 1943 الذي كرّسها عقيدة راسخة. واقترنت الحركة الداخلية للحاضرة ذات الدعوة المزدوجة الاقتصادية والسياسية بوضعها السياسي كعاصمة لتضع أهل الساحل في مواجهة دائمة مع أهل الجبل. وهذه التعددية الوظائفية للمدينة حفّزت، فيما يتعدى كونها مجرّد جسر عبور، ما يمكن تسميته «بيرتة» اللبنانيين و«لبننة» البيروتيين في آن، وهما مساران حدّد التقاؤهما المضمون الاجتماعي للميثاق الوطني[11].

ونجح الانتداب، من خلال نشاطه الاقتصادي الذي أراد أن يعزّز دور بيروت بوصفها همزة وصل تجارية ومن خلال عمله التحديثي، إن لم يكن في كسب رضى جميع السكان، فعلى الأقل في استمالة أو استيعاب الطبقة الوسطى المتعددة الطوائف المتنامية من أجل الانضمام المعلن أو غير المعلن لإطار المرجعية نفسها أي الدولة اللبنانية. وفي اتجاه معاكس، كانت الانتقادات التي واجهتها السياسة الاقتصادية لسلطة الانتداب وعجزها عن مواجهة موجة الاستياء في صفوف الرأي العام تخلق جواً من التفاهم بين الطوائف. والتقى المسيحيون والمسلمون، على سبيل المثال في معارضتهم لاحتكار التبغ وتثبيت سعر العملة الوطنية إثر انخفاض قيمة الفرنك والضرائب والتعرفة الجمركية التي اعتبرت منافية لمصلحة البلاد. كما التقوا أيضاً على التنديد بالانحياز الواضح للمفوضية العليا لصالح المشاريع الفرنسية[12]. وفي هذا المجال، لم يكن الأمر يتعلق فقط بتضامن طبقات التجار ومتعهدي المشاريع. ففي



أولى المطالبات بتحرر المرأة يحطن بكوربيث أشبي.

الأوساط الأقل يسراً أيضاً، كانت المعارضة الاقتصادية للانتداب تتجاوز الحدود الطائفية كما أظهرت ذلك مقاطعة الترامواي في 1931. وبهذه المناسبة، تجاوزت الحركة الموضوع الأساسي للمطالب المتجهة ضد الشركة الفرنسية البلجيكية للكهرباء. واتجه الأمر بالطلاب إلى المطالبة بتخفيض ثمن... بطاقات السينما[13]. وأدّت التجاوزات التي قامت بها شركة الكهرباء، وقد أصبحت موضوعاً متكرراً للانتقاد، إلى إعلان إضراب جديد في 1935. من هنا ترسخت ارادة تبلورت باعادة امتلاك المساحة العامة ،التي كانت، في مدينة مختلطة كما هي بيروت، متعددة الطوائف بالضرورة.

وبمعنى من المعاني ساهمت هذه التظاهرات و حركات الاحتجاج في الشارع في تعجيل التلاقي الاسلامي المسيحي الذي ضمّ متظاهرين من كل الطوائف في وسط بيروت أثناء معركة الاستقلال. لكن استخدام المساحة العامة للتعبير عن الآراء تعدى أحياناً التلاقي البسيط بين الطوائف ليصبح شكلاً جديداً للعمل يقتضي تخلياً عن المنطق الطائفي. صحيح أن الممارسة السياسية التي بقيت حكراً على الأعيان ظلت المعيار الذي يشجعه الانتداب، لكن اعتماد معايير الحداثة الاوروبية بدأ يخفف من تجزئة المجتمع. وتجلت هذه الحداثة السياسية في الأوساط الأكثر ثقافة من خلال ظهور المواضيع المستقلة عن الظروف الداخلية، سواء تعلق الأمر باستقبال كوربت آشبي Corbett Ashby، رئيسة الاتحاد النسائي العالمي التي أجرت محاضرة في التياترو الكبير عام 1935[14] أو بتعبئة الانتلجنسيا لمناهضة التدخل الايطالي في أثيوبيا أو تشكيل لجنة لبنانية لدعم المنكوبين في فلسطين المناضلة[15]. وأكثر من أي شيء آخر، كانت الحداثة في مجال السياسة من صنع الأحزاب ذات الرسالة الشعبية التي حاكت أشكال التنظيمات المستوردة من أوروبا كالحزب الشيوعي والحزب السوري القومي الاجتماعي وحزب الكتائب اللبنانية.

السياسة في مرحلة انتقالية

أعلنت الأفكار الاشتراكية دخولها إلى العالم العربي في مطلع القرن العشرين بفضل حفنة من الصحافيين والمثقفين. لكن وجب الانتظار حتى انطلاق ثورة أكتوبر لرؤية الصلة بين هذه الاشتراكية الفكرية الموسومة بمناهضتها للاكليروس وبين الطبقة العاملة التي كانت في أول نموها، تتحقق. فبعد مصر، حيث حظيت الشيوعية ببعض المناصرين منذ 1919 وفلسطين حيث نقل إليها مهاجرون يهود من روسيا الأفكار البولشفية، دخلت الماركسية إلى لبنان في 1924. ففي ذلك الصيف، استحدثت أول نقابة لعمال التبغ في بكفيا، وهي بلدة من بلدات الجبل وكانت باكورة للنشاط النقابي بتأثير من فؤاد شمالي وهو مناضل عمالي اطلع على الفلسفة الماركسية في مصر. وفي اكتوبر/ تشرين الأول من السنة نفسها، أبصر حزب الشعب النور في انطلياس، الضيعة الساحلية بين بكفيا وبيروت، برعاية شمالي

والصحافي يوسف ابراهيم يزبك. بعد أشهر معدودة، كان الأول من أيار مناسبة للإعلان أمام الملأ بوجود هذه الحركة الشيوعية الناشئة، خلال اجتماع كبير اقيم في سينما كريستال في وسط بيروت[16]. وعندما انضم تنظيم أرمني يدعى «شباب سبارتاك» بإدارة أرتين مادويان الذي انشق عن حزب الهنشاك وانضم إلى صفوف حزب الشعب، اتخذ اسماً جديداً وهو الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان. كانت اللجنة المركزية التي تديره مؤلفة تحديداً من شمالي ويزبك ومادويان والياهو تبر Eliahu Teper وهو اشتراكي يهودي جاء من أوديسا الأوكرانية عبر فلسطين. ولم يلبث الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان أن حظي باهتمام موسكو فعمدت، بفضل قاعدة الأممية الثالثة المتبعة في العالم الكولونيالي، إلى إحالة الوصاية عليه إلى الحزب الشيوعي في البلد المستعمر. ومن هنا، أقام، الحزب الشيوعي الفرنسي بدءاً من الثلاثينات، علاقات مميزة مع شيوعيي لبنان وسوريا دامت حتى الثمانينات. وفي غضون ذلك، وسّع الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان قاعدته في مقابل تغيير حصل في قمة الهرم، مع إبعاد شمالي وتهميش يزبك فيما فرض الزعماء الذين سيميزون تاريخ الشيوعية العربية لعدة عقود أنفسهم إلى جانب مادويان: خالد بكداش، سوري من أصل كردي الذي فرض نفسه بصفته القبضة الحديدية للخط الرسمي الموسكوبي ونقولا الشاوي، مناضل مميز استطاع في اللحظة المناسبة أن يتقبل التأقلم مع الاوضاع المستجدة وفرج الله الحلو الذي كان في المرحلة السابقة من دعاة الخصوصية الوطنية والذي أحاطته ظروف وفاته المأسوية تحت التعذيب في 1959 (في سجون الجمهورية العربية المتحدة في دمشق) بهالة شبه مسيحوية.

اصطدم الحزب الشيوعي في لبنان رغم الطابع السري لعمله والنفوذ المتنامي للجبهة الشعبية في فرنسا بعداء المفوضية العليا، إلاّ انه استطاع مع ذلك أن يعزّز حضوره الناشط على الساحة الثقافية ويمارس نفوذاً متعاظماً في ميدان العمل. على الصعيد الفكري، عمل الحزب على التنديد بالطائفية السياسية والتصدي لتدخل الاكليروس في الشؤون الدنيوية بالإضافة إلى تبنّيه استراتيجية مناهضة للفاشية التي اعتبرتها الحركة الشيوعية العالمية على رأس قائمة الاولويات لعملها. وانحاز إلى صفوف المؤيدين لقيام الجمهورية الاسبانية ضد حكم فرانكو، كما انحاز إلى صفوف الثوار في الحبشة وقد تجلى نشاطه خاصة من خلال نضال الكاتب سليم خياطة، عاملاً أيضاً على التنكر للنزعات المناصرة لالمانيا الكثيفة الحضور في أوساط الرأي العام آنذاك. ومن هنا، ساهم الحزب، أكثر من أي تيار سياسي آخر في إنماء الثقافة الديموقراطية في البلاد، خلافاً للمبادئ التي قام عليها تنظيمه بالذات. كما كان من دعاة نشر المبادئ الديموقراطية وشعار العصرنة، من خلال إشرافه على نقابة عمال المطابع، وقيم التقدم والمساواة في الأوساط التي لا تملك إلاّ الوسائل القليلة للتعلم واكتساب المعرفة، خارج إطار الحدود الطائفية. لا شك أن الحزب الشيوعي نشأ وترعرع في الأوساط المسيحية وأسماء البارزين من أعضائه

خير دليل على ذلك أقله في لبنان لأن الحال لم تكن كذلك في سوريا. كانت للأفكار الشيوعية جاذبيتها الحية في الأوساط الارثوذكسية الآهلة بالسكان في بيروت حيث كان الخلط قائماً بين الاتحاد السوفياتي وروسيا المقدسة، خاصة بعد معركة ستالينغراد. لكن الحزب الشيوعي استطاع أيضاً اختراق جدار الطوائف الأخرى، فزعيم النقابات الشيوعية مصطفى العريس وكان يعمل في مهنة الطباعة وينتمي إلى إحدى العائلات السنّية في بيروت. وحظي الحزب الشيوعي، بفضل الحركة النقابية التي يشرف عليها، بما يكفي من التأييد لكي يجني من ثمار الانتصار السوفياتي على الهتلرية. وبدأ الحزب يظهر في ظلال نظام الاستقلال بصفته حزباً جماهيرياً قادراً على فرض قانون عمل تقدمي في 1946[17]، لكن انحيازه إلى موسكو إبان الحرب على فلسطين في 1947-1948 قضى على معظم المكتسبات التي أحرزها.

أما الحزب السوري القومي الاجتماعي، ورغم تناقضه مع الحزب الشيوعي، فكان هو أيضاً أحد العوامل المحرّضة على العصرنة على الرغم من انحرافه نحو النزعة السلطوية. أسس أنطون سعادة الحزب القومي في بيروت عام 1932، وكان أستاذاً للغة الالمانية في الجامعة الأميركية بعد أن أمضى شبابه في البرازيل. دعا الحزب السوري القومي الاجتماعي إلى إعادة توحيد «سوريا الطبيعية» التي شكلت عبر التاريخ أمة بحد ذاتها منذ العصور القديمة وهي مدعوة بالتالي للانبعاث من جديد في إطار دولة قوية. لم تكن فكرة سوريا الطبيعية بجديدة، بل كانت موجودة أيضاً لدى الحزب الكولونيالي في فرنسا قبل الحرب العالمية، على الأقل، إلى أن ضمّنها سعادة، في نسخة منقحة لاحقة (1947) معظم بلدان الهلال الخصيب ومن بينها العراق وقبرص. وكذلك، كانت فكرة الخصوصية السورية المطروحة بوصفها خصوصية غير عربية لا بل مناهضة للعروبة، تعود في أصولها إلى رؤية المستشرق اليسوعي البلجيكي الأب هنري لامنس Henri Lammens، صاحب موجز تاريخي بعنوان «لا سيري»، سعى فيه إلى التشديد على سوريا العريقة في التاريخ التي اعتنقت المسيحية ثم قهرها الاسلام، ملمحاً في الوقت نفسه إلى هذه الركيزة المسيحية لم يعد يُجسدها إلاّ لبنان. وبهذه الصفة المزدوجة، ربما كان لامنس، الذي حظيت أعماله برضى السلطات المنتدبة، هو السبب في نشوء اسطورتين وطنيتين متعارضتين، اسطورة لبنان بوصفه ضرورة تاريخية وأسطورة سوريا الأبدية. إلاّ إن سوريا سعادة كانت مختلفة عن سوريا لامنس من خلال مفهوم بناء ايديولوجي عنصري الطابع يغرف عميقاً في معين الفلسفة القومية الالمانية. كذلك استلهم سعادة من المانيا رمزية حزبه وطقوسه المنسوخة عن نموذج الحزب النازي. وهكذا هي الحال أيضاً بالنسبة لشعار الحزب، زوبعة حمراء على خلفية بيضاء مؤطرة بالسواد تحاكي الحركة الحلزونية للسفاستيكا (شعار ديني هندي) كما بالنسبة للتحية الحزبية بين الرفاق بمد الذراع وعبادة الزعيم وإطلاق شعار «تحيا سوريا» التي يرن صداها

كـ«هايل هتلر»، مع تشديد أقلّ على شخصية الزعيم وتأكيد على التنظيم شبه العسكري الداعي إلى تمجيد القوّة. لكن ما ميز سعادة خصوصاً عن الأب لامنس هو تنديده بالتعصب الديني ودعوته الصريحة إلى العلمنة الشاملة.

عارض الحزب السوري القومي الاجتماعي بشدة التقسيم الذي أجراه الانتداب للمنطقة، وسرعان ما اصطدم بعداء سلطة الانتداب له التي ذهبت إلى حد التنكر لاسمه. كانت سلطات الانتداب تصر على أن تدعوه الحزب الشعبي السوري وكأنها تريد أن تقلل من اعتباره من خلال اسناده إلى الحزب الشعبي الفرنسي الذي أسسه جاك دوريو Jacques Doriot. ومع ذلك، لم يحل القمع الذي مارسه الانتداب على الحزب القومي دون أن يجتذب إلى صفوفه مناصرين كثيرين، في لبنان أكثر منهم في سوريا، رغم اضطراره إلى العمل في جو من السرية التامة. بدأ الحزب يوطد نفوذه في أوساط الروم الارثوذكس والروم الكاثوليك وهما طائفتان لم يترسخ لديهما تماهيهما مع المشروع اللبناني الكبير. ولم يلبث أن أنشأ قواعد له في بعض النواحي المارونية في الجبل، وانضمت إلى صفوفه أعداد كبيرة من المسلمين السنة والشيعة والدروز. كان أعضاؤه ينتمون في الأساس إلى الطبقة الوسطى المدينية أو شبه المدينية وقد كان بمثابة مدرسة لكوادر السياسة اللبنانية من خلال اسهامه تحديداً في نشر «ثقافة مضادة» مناهضة للطائفية. إن كثيراً من الشخصيات التي لعبت لاحقاً دوراً بارزاً في الحياة السياسية أو الثقافية في لبنان المستقل تتلمذوا في مدرسة الحزب لأمد طويل تقريباً قبل أن يدفعهم النظام الحديدي الذي فرض عليهم إلى الابتعاد عنه. وكانت الحرب العاليمة الثانية فرصة ملائمة لانطلاقة الحزب في هذا الخصوص. ليس فقط بسبب النصر الذي حققه الألمان والهزيمة التي لحقت بفرنسا بل أيضاً لأن الحزب، الذي حُرم من زعيمه مؤقتاً، استطاع أن يعيد تنظيم صفوفه. عندما اندلعت الحرب، كان سعادة يقوم بجولة في اوروبا ووجد نفسه عاجزاً عن الرجوع إلى بيروت وتوجب عليه أن يقضي بضع سنوات بين البرازيل والأرجنتين. لذا، لم يستطع لدى رجوعه أن يلجم ما بدا له تراخياً ايديولوجياً في صفوف الحزب وميلاً للانضمام إلى حركة الاستقلال اللبناني. وساهم الحزب القومي إذاً، مع هيئات أخرى في الشارع، في نيل الاستقلال في نوفمبر/ تشرين الثاني 1943 لا بل إن الشهيد الوحيد الذي سقط في هذه المعركة كان ينتمي إلى صفوفه.

وإذا سعى الحزب الشيوعي والحزب القومي الاجتماعي إلى تجاوز الحدود بين الطوائف، فإن حزب الكتائب اللبنانية قد اندرج بشكل واضح في اطار طائفي، فجلّ أفراده ينتمون إلى الطائفة المارونية ومعظمهم من الذين سكنوا المدن حديثاً. وكان تعصرن الحزب لا يقوم على عقيدته بل يرتكز بالأحرى إلى تنظيمه. تأسس حزب الكتائب في 1936، على غرار الحزب السوري القومي الاجتماعي متأثراً بالموجة المتصاعدة للفاشيات الأوروبية. والاسم الذي اختاره الحزب تيمناً بحزب الكتائب

الاسباني يوحي بذلك كما توحي به ظروف إنشائه. لقد وُلدت فكرة الحزب في مخيلة بيار جميل عندما شهد استعراض القوة والتنظيم الصارم الذي تجلّى في افتتاح دورة الألعاب الاولمبية في برلين. كان بيار الجميل الصيدلي المولود في مصر من أبرز رواد الرياضة في لبنان، وأول لبناني يستحصل على إجازة حكم في مباريات كرة القدم. في بداية عهدها، اتجهت الكتائب إلى كونها حركة شبابية، أو بالأحرى حركة تضم في صفوفها شباناً مجدولي العضلات أكثر منها تنظيماً سياسياً مسلحا مزوداً بايديولوجية معلنة. وكان استعراض الكتائب السنوي ببذاتهم الكاكية شبه العسكرية مع لفافات الساق يجعلهم أشبه بالأحزاب الفاشية في اوروبا. مما تسبب دون شك في إبعاد بعض المؤسسين عن الحزب كالصحافيين جورج نقاش، صاحب جريدة الأوريان وشارل حلو، رئيس تحرير جريدة لوجور الذي كان على علاقة وثيقة بميشال شيحا، وبالمقابل، كان نموذج الانضباط الذي تعكسه الكتائب يسحر المسيحيين في الأحياء الشرقية في بيروت كالجميزة أو الرميل حيث تتمركز بورجوازية مدنية صغيرة حديثة العهد انحدرت من قرى الجبل المسيحي.

ربما كان غياب الايديولوجية الفلسفية المتفذلكة في هذا الخصوص عاملاً جاذباً للعنصر المسيحي، سيما إن اللبنانوية الجذرية للكتائب لم تكن تبحث إطلاقاً عن رؤية ثورية تطرحها في هذه الأوساط بل تسعى فقط إلى إنماء حس تنظيمي ما. كانت عقيدة الحزب تختصر بشعائرها «الله، الوطن، العائلة،» وتضمن له رضى الكنيسة والمدافعين عن النزعة الاجتماعية المحافظة. وعلاوة على ذلك، لم تكن تتضمن أي شيء بوسعه تنفير أو استفزاز سلطات الانتداب التي بدأت تتساهل مع استعراضات الكتائب ببذلاتها. لكن، إذا كانت القومية اللبنانية للكتائب وقيم الوسط الاجتماعي الذي ينتمون إليه تدفعهم إلى النظر بعين الرضى إلى الوجود الفرنسي الضامن للبنان الكبير، فان التوجه القومي نفسه لم يكن يستطيع أن يسكت طويلاً على سياسة التدخل المستمر لسلطات الانتداب. وهكذا في كل كبيرة وصغيرة عرف حزب الكتائب تطوراً مماثلاً لتطورالوجهاء المسيحيين في الكتلة الدستورية تجلى بوضوح في أكثر من مناسبة سيما أن هذا التطور كان يعبّر عن ذاته في الشارع. في 1938، جُرح عدة مناضلين كتائبين، ومن بينهم بيار الجميل نفسه، خلال مواجهة مع البوليس والقناصة السنغاليين الذين، بمعنى من المعاني عجلوا في تظاهرات نوفمبر 1943.

ولكن الالتفاف الشعبي الواسع حول حزب الكتائب في أوساط المسيحيين وايديولوجيته المحافظة لم يفسح في المجال أمام كوادر الحزب للمشاركة في صياغة القرار وسط مجتمع سياسي بقي تمثيله حكراً على الوجهاء إلى حدّ كبير. ولن يجري تنظيم تبنيه سياسياً قواعده إلاّ مع مطلع الستينات من القرن العشرين. أما الحزب السوري القومي الاجتماعي والحزب الشيوعي، وبالرغم من تعارضهما الراديكالي، فكانت سمتهما المشتركة أنهما يمثلان قوى تغيير للنظام الاجتماعي لكن آمالهما

كانت ضعيفة في الوصول إلى التمثيل البرلماني المنظم في كنف الانتداب - ولا بعد الاستقلال - لان قوانين الانتخاب التي اعتمدت تشجع على الطائفية والتبعية السياسية. ولم يمنع الأمر هذه التنظيمات التي تمثل قطيعة مع الاشكال التقليدية من أن تنظم نفسها سياسياً وتمارس تأثيراً مباشراً ومستمراً في صفوف عامة الناس على مساحة الوطن حتى وان ظلّ التأثير محدوداً.

كانت إعادة التشكل السياسي في البلاد تتجسد على أفضل ما يكون في بيروت حيث يمتزج القديم بالمعاصر. إذ أصبحت الحاضرة بعد تحولها إلى عاصمة للدولة المكان الملائم لتعايش الأضداد وانصهارها عبر تجربة وطنية امتدت على نحو قرن من الزمن.

نهاية عهد الانتداب

مهّدت الحرب العالمية الأولى لولادة المشرق المعاصر، من خلال تشكله كدول. أما الحرب العالمية الثانية فسترسخ الفوارق القائمة بين هذه الدول. صحيح أنها أسقطت الهيمنة الأمبريالية للدولتين العظميين التي سادت في فترة ما بين الحربين، إلاّ أنها كرّست الحدود التي رسمتها هاتان الدولتان لدول تلك المنطقة وثبتت هذه الحدود مع حلول عهد الاستقلال. كانت القطيعة التي أحدثتها بين تلك الدول أقلّ وقعاً من القطيعة التي أنهت أربعمئة سنة من الحكم العثماني. ولكن رغم هذا كله، بالامكان اعتبار إن صفحة جديدة قد بدأت في تاريخ المنطقة.

حدث أول فعل تغييري بين 1941 و1946 مع انسحاب فرنسا التي لم تكن مهيأة كما يجب للتداعيات التي جاءت بها الحرب. وبعد فشل المعاهدة الفرنسية - السورية تزايد النفور وأدى إلحاق لواء الاسكندرون بتركيا إلى تفاقم الأمور. كان التوتر شديداً لدرجة أن أول خطوة أقدم عليها المفوض السامي عند اندلاع النزاع مع المانيا كانت تعليق الدستور في لبنان وفي سوريا. وسرعان ما واجهت السلطات الفرنسية فشلاً ذريعاً في مواجهة التطورات. فمع هزيمتها في ربيع 1940، لم تعد تستطيع أن تتحلى بالأبهة التي كانت تحيط بها كقوة عظمى. حتى أن الاصدقاء الأكثر تفانياً لفرنسا في لبنان ساورهم الشك بشأنها. وانهارت صورة فرنسا الرادعة أو المطمئنة كقوة انتداب بشكل حاسم أثناء انتفاضة سوريا في أيار 1941 بسبب المعارك بين أنصار حكومة فيشي والفرنسيين الأحرار في وقت كانت الهيمنة البريطانية في أوج عزّها. وكما في أثناء الحرب العالمية الأولى كان الانكليز قد باركوا انتفاضة أيار ليتسنى لهم التدخل في العراق إثر انقلاب قومي مناصر لالمانيا. وقد أتيحت لهم فرصة استغلال الهجوم سياسياً لمصلحتهم.

منذ مطلع الحملة، انتهى الانتداب رسمياً بتحريض من لندن وقد أعلن الجنرال كاترو، الحاكم السابق للهند الصينية، إلغاء الانتداب في خطاب مهيب بعد أن عينته فرنسا الحرة ممثلاً لها في الشرق.



ديغول وكاترو أمام السراي الصغير عام 1941.

وهكذا أصبح السوريون واللبنانيون منذ ذلك الحين «شعوباً سيدة ومستقلة» «بامكانهم إنشاء دول مستقلة أو التوحد ضمن دولة واحدة» وكان إعلانه هذا شكلياً محضاً. وبالرغم من آن بريطانيا أصرّت على تقديم ضمانة كافية لزوال الانتداب فإن الجنرال ديغول الحريص على استمرار الامبراطورية الفرنسية تراجع عن إعلان كاترو وعن كلامه بالذات، وبالتالي أرجئ الغاء الانتداب لكنه، في واقع الحال لم يعد له من وجود فعلي على الأرض. ونشأ حكم ثنائي فرنسي - بريطاني عكس هو نفسه موازين القوى بين الحلفاء. وتولّى البريطانيون المتفوقون عدديا الإشراف على تزويد البلاد بالمؤن - بعد أن فرضوا على الفيشيين العودة إلى فرنسا ومنعوا بذلك تجنيدهم في صفوف فرنسا الحرّة - وعلى الافادة قدر المستطاع من المناورة بعد المماطلة التي أبداها الجنرال ديغول، وذلك لكي تكون لهم الكلمة الفصل في مسألة المطالب الاستقلالية[١٨]. وتوجب على فرنسا عما قريب الإذعان لمطالب الانكليز. والمفارقة هي أن فرنسا انسحبت بادئ الأمر من لبنان رغم أنها تحظى بالدعم المحلي فيه أكثر



الرئيسان رياض الصلح وبشارة الخوري، واضعا الميثاق الوطني وقائدا معركة الاستقلال.

بكثير منه في سوريا. ولكن يبدو أنها لم تلق المساندة اللازمة من أنصارها بعد أن فشلوا في الانتخابات التي أجبرت على خوضها في 1943 مذعنة للضغوط التي تمارسها بريطانيا والولايات المتحدة. وكان زعيما التحالف المطالب بالاستقلال يتصدران السلطة: الماروني بشارة الخوري في رئاسة الجمهورية والسني رياض الصلح في رئاسة الحكومة. وبمبادرة منهما، عدّل البرلمان الجديد الدستور في مطلع نوفمبر/ تشرين الثاني وألغيت منه كل عبارة تأتي على ذكر سلطة الانتداب[19]. كانت الطريقة الخرقاء التي تعامل بها جان هيللو، الذي حلّ مكان كاترو، كفيلة بأن تصنع الباقي. وأثار اعتقال رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة وغالبية الوزراء وتعليق الدستور وحلّ البرلمان تعبئة جماهيرية بدل أن يلجم حركة المعارضة. وكانت بيروت مسرحاً لتظاهرات كبيرة من بينها الموكب الذي ضمّ متظاهرات مسلمات ومسيحيات واتصف برمزية خاصة. وأمام الضغوط البريطانية والأميركية، تحرّك ديغول فأرسل على وجه السرعة الجنرال كاترو لينقذ ما يمكن إنقاذه، فألغى قرارات هيللو وأطلق سراح المعتقلين في 22 تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 1943 ومنذ ذلك الحين تحول هذا

التاريخ إلى عيد الاستقلال الذي يحتفل به اللبنانيون في كل عام.

كانت بيروت في كامل استعدادها وجهوزيتها لمواكبة الحدث الذي كان له صدىً واسع في صفوف الشعب نتيجة المواجهة الحاسمة بين الانتداب والتحالف المطالب بالاستقلال المؤلف من الخوري والصلح الذي جعله تطور موازين القوى بين الحلفاء ممكناً. وكان موكب المتظاهرين الذين اجتاحوا آنذاك وسط المدينة متحدّين الرماة السنغاليين ومطالبين بتحرير الرئيس والوزراء الذين اعتقلهم الموفد العام لفرنسا، يعكس على أكمل وجه صورة ذلك البلد الذي يمرّ في مرحلة انتقالية سرعان ما اجتازها بنجاح واستطاع أن يتجاوز خلافاته الداخلية ولو لمرة واحدة في تاريخه. كنت ترى النساء المحجبات والنساء السافرات، الكتائب المسيحية وأعضاء حزب النجادة المسلم والمناضلين الشيوعيين ومناصرين سوريا الكبرى والطلاب وأنصار الوجهاء التقليديين محاطين بالقبضايات كلهم، كل هؤلاء البيروتيين، جنباً إلى جنب، سواء كانوا من أصل بيروتي أو من الطارئين على المدينة، أظهروا أن بيروت فخورة بأن تصبح عاصمة للبنان والانتداب، لأنها هي التي هيأت أبناءها على اختلاف انتماءاتهم لهذا اليوم المجيد.

V

حاضرة العرب الكوسموبوليتية



الفصل الخامس عشر

سويسرا الشرق

بدا لبنان، بعد عشرين سنة من استقلاله بلداً ناجحاً، بلد العسل واللبن، وبدت بيروت مدينة الترف والشهوات، درّة نادرة في منطقة الشرق الأدنى المضطربة. وبالرغم من الحرب الأهلية القصيرة التي جرت عام 1958، كانت المدينة تنعم ببعض الأزدهار، ولو المخادع، على غرار فينيسيا، فندقها الفخم الذي يزيّن واجهتها على البحر.

منذ افتتاحه في 1961، فرض فندق فينيسيا نفسه كصورة ايقونية للثراء اللبناني خالقاً دوماً في أذهان المعاصرين، ومن بينهم غالبية البيروتيين، صورة للثراء والأبهة التي لا تطال. كان المبنى جميل الهندسة وواجهته المرهفة مخرمة بيضاء كالدانتيل وحجمه جديد تماماً يبلغ عدد طبقاته اثني عشر طبقة وأمامه بركة مستطيلة الشكل. ولكن الديكور الذي صُمم وفقه البار هو الذي كان يدهش النفوس بواجهته العريضة التي يمكن من خلالها مراقبة الحوريات المرتديات البيكيني السابحات في البركة. وكان هذا الديكور يمزج المآثر التقنية المدهشة لتلك الحقبة بسحر كأنه نابعٌ من الأفلام الهوليودية التي كانت، في الفترة نفسها، تحظى باهتمام الحشود الوافدة إلى القاعات الجديدة للسينما في شارع الحمراء. ولن تلبث هوليوود وبديلاتها، على أية حال، أن تضفي شهادة مصداقية على هذا الكنز النفيس وتخلّده من خلال التقنية الجديدة للسينما بالألوان في عدد من أفلام المغامرات الرومانسية. كان لبيروت منذ ذلك الحين مبناها الذي يمثلها مصوراً في البطاقات البريدية البانورامية. كان فندق فينيسيا الفخم يزيد واجهة البحر جلالاً مشرفاً على فندقي السان جورج والنورماندي، ويجسد بغرفه الثلاثمئة الدعوة الكوسموبوليتية لمدينة تبدو فيها الثروة مدخلاً إلى مزيد من الثروة.

لا شيء كان يجسد في أذهان اللبنانين ذلك العصر الذهبي المرادف للذة العيش ونجاح المبادرة الحرة، أفضل من فندق فينيسيا سيما أنه كان ثمرة جهود القطاع الخاص المحلي وليس نتيجة إرادة القوى السياسية، كما حصل في القاهرة مثلاً حيث الهيلتون المعاصر لفينيسيا، بنته الدولة قبل أن توكل



فندق فينيسيا.

إدارته إلى الشركة الفندقية الأميركية. لا شك أن الازدهار اللبناني كان بامكانه أن يعتمد على ايراد الرساميل الأجنبية، العربية تحديداً، التي وفدت إلى ساحة بيروت خاصة بعد اقرار قانون السرية المصرفية. وهكذا، نزلت «سويسرا الشرق» التي حلم بها لامارتين، على غرار أدباء «لا ريڤو فينيسان» عام 1919، منحدرة من مصايف جبل لبنان إلى ساحل بيروت. ثم ما لبث أن ظهر «شارع المصارف» المزدهر المتفرّع من شارع رياض الصلح المشرف على الساحة التي اتخذت اسم الشارع نفسه، ليضاف إلى فندق الأبهة في ترسيخ الصورة التي غذت الهوامات باستمرار في أذهان الناس ومن ثم الحنين لتلك الفترة الذهبية.

كان تاريخ بيروت يستمدّ زخمه منذ ذلك الحين من تاريخ الجمهورية اللبنانية ولكنه لا يقتصر على ذلك فقط. فعاصمة لبنان كانت أيضاً، وربما في الأساس، عاصمة اقليمية كوسموبوليتية. في خضم التشنجات التي خلقتها التسوية غير العادلة لمسألة الشرق الأوسط. وقبل أن تغرق بيروت في معاناتها السياسية والانسانية بسبب إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط السياسية استطاعت أن تسلك بنجاح طريقها نحو الحداثة وسط مظاهر برّاقة، في ظل تلك الأحداث.

للنجاح الاقتصادي الذي بلغه لبنان المستقل دلائل خارجية كثيرة غالباً ما بهرت أنظار السائحين، لحدّ إعمائهم، لا سيما بلغة الأرقام. والدلالة الأبرز هي النمو غير المنقطع خلال ربع قرن إذ بلغ النمو بين 1950 و1974 معدلاً قدره 7% سنوياً يعطي إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الزيادة الديموغرافية نسبة 3 و 4%[1]. وهذا يعني انه بالرغم من بعض الثغرات الواضحة مثل «حزام البؤس» حول بيروت، لم تخلُ استعارة «العصر الذهبي» من وجه حق.

جمهورية التجار في السلطة

ومع ذلك كانت انطلاقة لبنان المستقل سيئة بالرغم من الآفاق الجيدة للبلاد الذي استطلعها تقرير دبلوماسي أمير كي في 1944[2]. بعد أن تلاشت النشوة العارمة التي أحدثتها انتفاضة الاستقلال في نوفمبر 1943 في أجواء البلاد، عادت الصعوبات الاقتصادية الناجمة عن الحرب لتحتل الساحة وإذا أتاح التقنين لبعض رجال الأعمال بأن يحققوا أرباحاً هائلة، فإن عجز الحكومة عن مواجهة النقص في الموارد أثار انتقادات عنيفة، وتحديداً ضد وزير الموارد[3]. إلاّ أن المعركة ضد سلطة الانتداب القديمة امتدت على مدى ثلاث سنوات لاحقة. وقد أدت المناورات الكبيرة للدبلوماسية العربية الداخلية التي كان لبنان منخرطاً فيها بنشاط إلى تفاقم المشاكل الاقتصادية ولم تلبث الأزمة أن تجلت بكل اتساعها بعد الاتفاق على الجلاء النهائي للجيوش الفرنسية في 1946. وكما أشارت جريدة «الحياة» الجديدة، أن المسؤولين أغفلوا دون شك حتى ذلك الحين المسألة الداخلية[4]. وشكل الإضراب الذي نفذته الدوائر الرسمية في تلك السنة أول إنذار[5].

ورغم أن السلطة كانت بعيدة النظر بما يكفي لكي تعتمد إصلاحاً واعداً كقانون العمل، في نهاية حملة قامت بها النقابات الموالية للحزب الشيوعي، إلاّ أنها قلّما بدت متحمسة لقيام إدارة فعالة. وهكذا لم تلبث أن أصبحت مسألة الاصلاح الإداري التي طالبت بها الصحف بالحاح بمساندة بعض السياسيين، مثار جدل دائم في الجمهورية اللبنانية، منذ أن طرحت عام 1944 وحتى انتهاء ولايتي بشارة الخوري[6]، لا بل تعدتهما.

لا شك أن الكفاءات لم تكن موجودة في هذا الميدان بين أوساط الطبقة الحاكمة فرياض الصلح رئيس حكومة الاستقلال، رغم كونه رجلاً سياسياً كبيراً ودبلوماسياً ماهراً ومفاوضاً موهوباً، كان هو نفسه غير ميال كثيراً إلى الشأن الاداري ولم تكن حال حلفائه عبد الحميد كرامي وسعدي المنلا وسامي الصلح بأفضل من حاله[7]. وكان الوزراء، ما خلا حالات استثنائية نادرة، المتخرجون من المدرسة السياسية ذاتها يفتقدون هم أيضاً إلى الخبرة في تدبير الشأن الاداري. أما رئيس الجمهورية، بشارة الخوري فكان مفهوم المصلحة العامة لديه غامضاً ولا ينسجم مع الرؤية التاريخية التي تحركه

ولا مع التزامه، الصادق، بصيانة الوحدة الوطنية. كان منشغلاً بالمناورات السياسية الصغيرة التي تتيح له فرصة البقاء حكماً في الحياة السياسية وتعيد انتخابه لولاية جديدة خلافاً لما نص عليه الدستور. وسرعان ما أذن للمقربين منه، بدءاً بأخيه سليم الملقب بـ«السلطان» بالاستيلاء على زمام الحياة السياسية. كان على بشارة الخوري، أن يترفع عن مصالحه الشخصية كما تمنّى عليه دبلوماسي حين كتب أن الأحوال ستقوده إلى التحقق أن لبنان، «البلد الصغير غير ذي الأهمية، لا يمكن ان يدار في أيامنا هذه بروح عائلية ولصالح أقلية لا وزن لها»[8]، لكنه مع ذلك لم يحرّك ساكناً ليحول دون ان يصير الفساد المستشري ومحاباة الأقارب عامودين لنظام حكمه.

كان الخلط بين العام والخاص مصوناً في إرث الانتداب. فالاقتصاد الكولونيالي ظلّ مهيمناً حتى انتهاء الحرب، ولم يكن الانسحاب السياسي والعسكري لفرنسا ولا التخلي للبنان وسوريا عن إدارة «المصالح المشتركة» قد غيرا بشيء وضع الرساميل الفرنسية التي كانت على صلة وثيقة بالبورجوازية الكبيرة التجارية والمصرفية في بيروت. وهكذا فإن بنك سوريا ولبنان، وريث المصرف العثماني الذي تشرف عليه باريبا Paribas، كان يقوم بدور المصرف المركزي. وكان هذا المصرف الحائز على امتياز إصدار النقد منذ 1939 ومستودع الخزينة العامة - حتى الستينات يشرف على حركة الاعتمادات الآتية من البنوك الأخرى ويضخ إلى فرنسا قسماً كبيراً من أرباح تجار الحرب. وبذريعة إدارة مصرف سوريا ولبنان، كانت للمنشآت الفرنسية الأخرى حصتها من الأرباح بفضل ارتباطها بمشاريع عائلية



ورقة العشرة غروش، احدى أولى الاوراق النقدية الصادرة عن الجمهورية اللبنانية بعد الاستقلال.

بيروتية. كان مصرف الكريدي ليونيه Crédit lyonnais، يشرف على سبيل المثال على مصرف طراد، وكان مصرف صباغ تحت إشراف مصرف الهند الصينية، الذي أوكل إليه شراء الذهب لتغطية النقد اللبناني[9]. وتجلى الحضور الكلي لمصرف سوريا ولبنان والمصارف الفرنسية الأخرى عبر مشاركتها في شركة الدراسات والانجازات الصناعية والزراعية والتجارية. وهذه الشركة التي خلفت المكتب الاقتصادي للحرب كانت تمارس احتكاراً على المبادلات التجارية بين فرنسا من جهة ولبنان وسوريا من جهة أخرى. والأسلوب نفسه اعتمد فيما يخص التأمين لان تغطية حوادث الشركات الحائزة على امتيازات الدولة آلت إلى الاتحاد الوطني الفرنسي الممثل من خلال شركة محلية استعارت اسمه[10]. وهذا يعني انه، بالرغم من سقوط المعاهدة التفضيلية الرسمية التي أرادها الجنرال ديغول وحالت دونها بريطانيا العظمى، يمكن القول إن المصالح الفرنسية بقيت مصانة لم تمس بعد نهاية عهد الانتداب والثابت إن رجالات النظام كانوا يخدمون هذه المصالح المرتبطة بالمصارف وبالشركات الكبيرة سواء كانوا محامين أم اداريين[11].

ولم تقتصر روح الربح والصفقات على تبادل بسيط للخدمات. فعلاقات القربى والزيجات كانت تحث على خلق تماهٍ فعلي بين الأوساط التجارية والطبقة السياسية. حتى أن بعض المسؤولين الكبار، أمثال هنري فرعون، وزير الشؤون الخارجية في 1945 أو حسين العويني، رئيس الحكومة في 1949 كانوا يجمعون مراكزهم في السلطة إلى ادارة الثروات الشخصية الضخمة. أما العويني فقد جمع ثروته الحديثة العهد في المملكة العربية السعودية حيث ارتبط بعلاقة صداقة مع الملك عبد العزيز قبل أن يحوّل هذه الثروة المجموعة خارج الوطن إلى رأسمال سياسيٍ بفضل تحالفه مع المصالح الفرنسية – اللبنانية المهيمنة في بيروت. وكان العويني أحد إداريي بنك صبّاغ الذي أدار فرعه القائم في جدة وشريكاً في الاتحاد الوطني للتأمين وايضاً لشركة الطيران الفرنسية آير فرانس المساهمة في شركة آير ليبان اللبنانية التي استطاعت بفضل علاقاتها الجيدة مع العاهل السعودي أن تحتكر لسنوات الاتصالات الجوية بين بيروت والمملكة[12]. ولكن، بصرف النظر عن العويني، كانت الثروات الموظفة ناتجة عن عقود سابقة. وغالباً ما كانت تعود لعائلات بيروتية ألأصل أو اختارت أن تسكن المدينة؛ وهذه العائلات أثرت بفضل التوسع التجاري لأوروبا كعائلات فرعون وشيحا وفريج. وأخرى جاءت حديثاً لتنضم إلى صفوف البورجوازية الكبيرة البيروتية كآل صحناوي وفتال الذين اجتذبتهم المكانة المحورية التي اكتسبتها المدينة في اقتصاد عهد الانتداب فنقلوا جزءاً من أعمالهم في دمشق إلى بيروت، أو آل كتانة وهم من القدس جعلوا من بيروت قاعدة لامبراطورية عابرة للحدود تصل حتى إيران وتمد شبكاتها إلى الولايات المتحدة.

وتوصلت جمهورية التجارة التي نشأت في الحقبة العثمانية المتأخرة وحمتها سلطة الانتداب إلى تركيز

الثروات الوطنية في أيدي حفنة من العائلات لدرجة أنها تماثلت آنذاك مع الجمهورية اللبنانية المستقلة حديثاً. وتعدّت هذه الظاهرة حدود حماية المصالح الفرنسية بعد نهاية الانتداب. فالتحويلات المالية الآتية من الولايات المتحدة كانت تحتكرها الأوساط نفسها. والقليل جداً من المعاملات التجارية استطاعت أن تفلت في الواقع من هذا «الكونسورتيوم» (مجموعة مصالح مالية واقتصادية) الذي كان بمختلف مكوناته يشرف على حركة المصارف وشركات التأمين وقطاع الخدمات والمنشآت الاجتماعية الرئيسية[13]. وكان أفراد هذه الطبقة كلهم على علاقة وثيقة بالنخبة الحاكمة حتى لو لم يكونوا قاطبة منخرطين مباشرة في العمل السياسي. وهذه العلاقة الوثيقة لم تكن جديدة وان احتلت المرتبة الثانية عندما كانت فرنسا تمسك بزمام الحكم. لكن مع الاستقلال، باتت مكشوفة سيما إن الناس المحيطين برئيس الجمهورية لم يتورعوا عن ارتكاب التجاوزات في وضح النهار ليزيدوا من حصتهم في الربح. وانتهى الأمر بهذه الزمرة المتحلقة حول الرئيس التي استأثرت إضافة إلى السلطة بالتحكّم باقتصاد البلد إلى افتضاح أمرهم أمام الناس وأمام الطبقة التي ينتمون إليها. إن هذا المشهد كان أحد الأسباب التي أدت إلى الثورة البيضاء التي اسفرت عن استقالة الرئيس بشارة الخوري في سبتمبر/ أيلول 1952، لكن الممارسة التي صدرت عن سدة الرئاسة لم تشجع أبداً في معظم الأحيان في إدارة الشأن العام. ثمة مجلة اسبوعية بريطانية ندّدت بانتشار ألعاب القمار على نطاق واسع وتهريب البضائع والاتجار بالمخدرات، مشيرةً في عام 1951 إلى فساد شديد الخطورة لدرجة انه يتسبب في الاساءة إلى ازدهار البلاد[14]. وفي الواقع، إذا كان صحيحاً أن الاقتصاد سجّل نجاحات في تلك السنة لكن لم تُفد منها إلاّ نخب بيروت على وجه أخص[15]. واستقالت الحكومات المتعاقبة عملياً امام هذا الانحطاط، هذا في حال كانت لديها الرغبة في تداركه. دفع هذا الواقع بالصحافي جورج نقاش إلى التحسّر قائلاً عام 1949: «إن كل الصور التي تذكر بتعاسة الأمور التي أفلتت من السيطرة - كالسفينة التائهة في عرض البحر والمبنى المهدم - تنطبق على مصير لبنان الحالي»[16]. وكان صعباً في مثل هذه الظروف أن نأمل ولو قليلاً بسياسة إنماء متماسك. وعندما تلقت الحكومة في 1947 الاقتراح الأول للمساعدة الأميركية، في إطار النقطة الرابعة لمشروع ترومان، بدت حينئذٍ عاجزة مع ذلك على الافادة منها وهذا لعدم قدرتها على صياغة مشاريع تمتاز بهذا القدر من الطموح ووجب الانتظار حتى ديسمبر/ كانون الأول 1951 لكي ينضم لبنان للنقطة الرابعة[17]. إلاّ أن هذا الانفلات في إدارة الشأن العام في البلاد جعل لبنان مع ذلك يحظى بشهادة غير متوقعة تثني على تطور اقتصاده السياسي. لقد خلص رئيس الحكومة البلجيكي السابق بول فان زيلند Paul Van Zeeland، الذي استدعي بصفته خبيراً، للاستنتاج بأنه «من الأفضل للبنان، رغم جهله بالقواعد الكلاسيكية للاقتصاد، أن يواصل الطريق التي سلكها لأن النتائج التي أحرزها حتى الآن تبدو مشجعة».

المعجزة اللبنانية

لا شك أن عبارة فان زيلند تبدو غير كافية لتفسير الازدهار العتيد للبنان. وبالمقابل كانت تعبر عما يكفي من الدهشة لتدفع إلى الايمان بمعجزة جرى الحديث عنها كثيراً فيما بعد. فبالرغم من افتقاره للموارد الطبيعية، كان لا بدّ من إيجاد تفسير ما للإحاطة بجوانب هذه المعجزة اللبنانية، وفقاً للعبارة التي صارت مكرّسة، ولم تمتنع المخيلة الشعبية من أن ترجع بأصلها، وفقاً لما زعمه ميشال شيحا، إلى صورة اللبناني، التاجر الأبدي وريث الفينيقيين. إن صورة اللبناني الشاطر القادر على التأقلم موضع دائم للشعور بالرضى، وقدرته على الأخذ والعطاء وتبادل الخدمات لا ريب فيها لكن يستوجب الأمر ربما مراجعة هذه النظرة الجوهرانية لمفهوم الشطارة اللبنانية والتعديل من نبرة احكامه الجازمة لا سيما إذا ما راقبنا العادات والتقاليد التجارية المتبعة في حلب أو دمشق. ربما كان الأمر يتعلق، والحالة هذه، اذا اردنا الكلام، بطريقة أكثر ركاكة، بمجموعة ممارسات تجارية اختبرت في بيروت منذ منتصف القرن التاسع عشر وساهم فيها عدد لا يستهان به على أية حال من العائلات الوافدة من الداخل السوري. بيد أن مجريات الأمور على الساحة الإقليمية في نهاية الاربعينات كان مختلفاً. إذ تضافرت الظروف بشكل فريد لتُضفي مصداقية على عبارة فان زيلند. وبدأت الحرية الاقتصادية تحصد آنذاك المزيد من النجاح دون أن يُحدث ذلك أضراراً – على المدى القصير على الاقل – والفضل يعود لأحداث جرت خارج جمهورية التجار وأفلت من يدها زمام الأمور: احتلال فلسطين العربية في 1948، القطيعة الجمركية السورية – اللبنانية في عام 1950 وزيادة ايرادات البترول في شبه الجزيرة العربية بدءاً من نهاية الأربعينات.

وكانت القطيعة مع سوريا، من بين كل هذه الأحداث الحدث الذي حدّد بالشكل الأكثر جذرية توجه الاقتصاد اللبناني. وبمعنى من المعاني، يمكن أن نقول إن سيرورة لبنان، وعلى وجه أخص مستقبل بيروت، كان في ذلك الحين سيرورة تحددها سوريا، بطريقة لا إرادية. الخطوة الأولى تم اجتيازها في 1947 على أثر القرار السوري بالتخلي عن المنطقة الحرة من خلال التوقيع على اتفاقات بروتون – وودز Bretton-Woods. والوحدة النقدية التي، تحت أشكال شتى، كانت قائمة بين الساحل والداخل منذ قرون زالت عن الوجود. رغم أن الفارق في التكافؤ الاقتصادي الذي نتج عن ذلك أعطى فجأة الانفصال بين البلدين معنى مادياً ملموساً وظلت الحدود مع ذلك تحت رحمة الاتحاد الجمركي الموروث من الانتداب والذي بقي قائماً بالرغم من المحاولات الرامية إلى إزالته التي ظهرت في أوساط البورجوازية التجارية في بيروت.

كان لبنان مرتهناً في علاقته الاقتصادية لجارته سوريا فيما يختص بنشاطه المرفئي وتزوده بالحبوب، ولم يكن يبدو أنه قادر على اتخاذ القرار من تلقاء نفسه والمجازفة بانفصال كامل. من هنا جرت القطيعة

الجمركية، بعد الانفصال النقدي، بمبادرة من الزعماء السوريين نتيجة خيار سياسي داخلي لصالح اقتصاد تشرف عليه الدولة، لا بل مناصر للاقتصاد الموجه بشكل كامل. وهذا التوجه تحدد منذ نيل البلاد استقلالها عبر خيار يقوم على إنماء الصناعة والزراعة ويقضي إلى اللجوء إلى نظام الحماية. بيد أن سوريا لم تكن تستطيع زيادة التعرفة الجمركية من جانب واحد، ما دام لبنان المحكوم بمنطق تجاري تحديداً يرفضها. وفي الحال دُفعت سوريا أكثر فأكثر للتطلع إلى الاتحاد الجمركي بصفته حاجزاً أمام تطورها، سيما أن القسمة الناتجة عنه بدت لها غير منصفة. وفقاً لاتفاقية تحويل» المصالح المشتركة» التي عقدت مع فرنسا بعد رحيلها من الشرق، فإن 65% من مداخيل الجمارك كانت تذهب إلى سوريا و 44% إلى لبنان. وهذا توزيع لم يكن يعكس معطيات الجغرافيا ولا الديموغرافيا بل فقط حجم الأسواق فقد اشتهر اللبنانيون بأنهم أكبر مستهلكين. والى هذا الاعتراض من جانب الاقتصاد الجمعي، كانت هناك أيضاً حاجات تجار دمشق الذين اعتبروا أن الاتحاد الجمركي انما هو بمثابة ذريعة للاستئثار بالمعاملات التجارية من قبل منافسيهم في بيروت وأحياناً من أصل دمشقي مثل آل فتال وآل صحناوي. وطرأت أحداث أخرى أساءت الى العلاقات وتحديداً بداية أعمال توسيع مرفأ اللاذقية، التي نظرت إليها الأوساط التجارية في بيروت مرتابة[18]. وكان السعر الذي فرضته سوريا ثمناً لحبوبها أكثر ارتفاعاً من القمح المستورد من الولايات المتحدة، والمفاوضات بشأن مرور أنابيب النفط التابعة للتابلاين التي يُفترض أن يسمح بتدفق النفط السعودي بإتجاه المتوسط. وفيما أسرع لبنان ليوقع الاتفاقية مع التابلاين منذ 1946، انتظرت دمشق ثلاث سنوات لكي توافق على التوقيع ولم يتردد اللبنانيون بعد أن نفذ صبرهم عن التلميح إلى الشركة الاميركية بشأن موافقتهم على خط يمر بفلسطين بدل الأراضي السورية[19].

إلاّ أن سوء التفاهم ظلّ تحت السيطرة من خلال العلاقات السياسية والشخصية الوثيقة جداً التي كانت تربط فريقي السلطة، بدءاً بالرئيسين بشارة الخوري وشكري القوتلي. لكن هذا الكابح اختفى مع تنحية زعماء الاستقلال في سوريا، على أثر انقلاب قام به حسني الزعيم في 1949 وتبعته بعد بضعة أشهر محاولتا انقلاب. أراد حسني الزعيم أن يثبت إن حقبة ولت فلجأ لاول مرة في 1949 إلى سلاح اقفال الحدود وكأنه يريد أن يصفي حساباته مع الحكام اللبنانيين. وتكررت هذه الاجراءات الانتقامية بعد بضعة أسابيع فوسعت الشقاق بين البلدين حتى بعد رحيل الزعيم. وانعكس الوضع غير المستقر الذي تعيش فيه سوريا تدهوراً مستمراً للعلاقات مع بيروت التي طلب منها مراراً الاختيار بين وحدة اقتصادية شاملة وانفصال جمركي. وعند انتهاء مدة الإنذار الأخير، أعلنت الحكومة المدنية لخالد العظم بعد تأخر الردّ اللبناني، إنهاء الوحدة الجمركية. أعلن القرار في 15 آذار/ مارس 1950 وتبعته على الفور إجراءات عينية مع إقامة مراكز جمارك على الحدود[20].

وانعكست القطيعة الجمركية أضراراً على لبنان. كانت سوريا المزود الرئيس للبلاد بالمنتوجات الزراعية لا سيما إنها تمثل المعبر الوحيد للبنان مع الداخل العربي منذ إغلاق الحدود الفلسطينية. عندئذٍ، لحقت أضرار فادحة بعدد كبير من التجار كانوا على صلة تقليدية بالاقتصاد السوري متأثرين بالضغوط الجديدة التي تمارس على عملية تبادل البضائع. تلك كانت هي الحال في طرابلس، المدينة الثانية في البلاد حيث كانت الآثار الاقتصادية السلبية الناتجة عن القطيعة تمتزج بالاستياء السياسي لتحث على اللجوء المتكرر إلى إضراب القطاعات التجارية لا بل تدعو إلى القيام بأعمال شغب. ولكن بغض النظر عن القطاعات الصناعية والزراعية، لم تترك الأزمة أثاراً دراماتيكية على سائر القطاعات. على أية حال، لا الأوساط التجارية ولا الطبقة السياسية احتجت في بيروت على ما يحصل. فبالنسبة للمدافعين عن اقتصاد السوق التي لا ضوابط لها، أصبح الحفاظ على العلاقات مع سوريا مكلفاً جداً، وكانت القطيعة تتلاءم مع توقعاتهم[21]. كذلك وجدت الدولة في القطيعة، على غرار التجار، أمراً يلائمها لان مداخيل الجمارك لم تنخفض.وكان ظل قسم لا بأس به من البضائع الواردة إلى سوريا يستمر في المرور عبر مرفأ بيروت. لذا، وبدل أن يتأثر الوضع اللبناني سلباً حصل عكس ذلك بحيث قوي الوضع الاقتصادي وتعزّز. ونلاحظ ذلك في تطور موازين القوى الاقتصادية بين البلدين. ورداً على طلب السلطة السورية الذي يقضي بدفع ثمن الواردات اللبنانية بالعملات الأجنبية لكي يصار لتعويض الفرق في سعر الصرف بين العملتين، لم تتردد بيروت في استيراد القمح من الولايات المتحدة[22]. وكان التضارب بين الخيارين السياسيين للدولتين الجارتين لا يني يزداد، وتحوّل الانفصال النقدي والجمركي مع الوقت إلى قطيعة اقتصادية حقيقية وكانت نتيجتها غير المتوقعة، على الأقل من الجانب السوري، مؤازرة الاستقلال اللبناني[23].

وجاءت الخلافات السورية اللبنانية في اللحظة المناسبة لمصلحة اللبنانيين. فالكارثة التي حلّت بفلسطين قبل سنتين بدأت آثارها تظهر ولم تكن جميعها سلبية بالنسبة إلى لبنان، كما سيتضح لاحقاً. لا شك أن البلاد رأت واجباً عليها أن تستقبل وفود النازحين المعدمين، ما ادّى في البداية إلى إثارة مشكلة في التموين الغذائي. كذلك أثار إغلاق الحدود الفلسطينية اضطراباً مماثلاً في الاقتصاد المحلي في الجنوب حيث لم يعد باستطاعة المزارعين الوصول إلى أسواقهم التقليدية المعهودة في الجليل[24]. وبالمقابل، أفادت بيروت من الرساميل المنقولة الفلسطينية التي تمّ انقاذها، وخاصة من التحايل على تجارة الترانزيت. فنشوء دولة اسرائيل الذي أدى إلى قطع الاستمرارية بين الساحل الفلسطيني والداخل، لم يعتق فقط بيروت من هيمنة حيفا بل سمح لها أيضاً بالحلول مكانها وكان طبيعيا أن ينوب مرفأ بيروت، الذي تؤمه منذ وقت طويل الخطوط البحرية الرئيسية والذي تمّ توسيعه في ظل الانتداب، عن المرافئ الجليلية. وفي الواقع، ما إن انقضت بضع سنوات حتى استأثرت بيروت بمجمل تجارة حيفا.



المطار الجديد الذي جرى تدشينه عام 1951.

وازداد حجم الترانزيت بين 1947 و1955 سبعاً وعشرين مرة، هذا، مع عدم الأخذ بالحسبان البضائع المتجهة إلى سوريا[25]. وبكلام آخر كانت الحصة التي اقتطعت من التجارة الخارجية مع سوريا معوّضاً عنها وأكثر من خلال العلاقات المعقودة مع الاردن والعراق والعربية السعودية.

وقد زاد من انعكاسات حرب فلسطين على لبنان نمو الاقتصاد النفطي في العراق وشبه الجزيرة العربية. ومع إن ايرادات مداخيل النفط كانت محدودة آنذاك، إلاّ أنها جعلت نطاق الحاجات يتسع وخلقت إقبالاً على المواد المستوردة، التي نظراً لفقر التجهيزات المرفئية على شواطئ شبه الجزيرة العربية، ارتدت نتائجها بطبيعة الحال على حركة الترانزيت في مرفأ بيروت. كما أفادت الصناعة اللبنانية، التي قطعت عليها طريق العبور إلى السوق السورية، سيما إنها باتت تستطيع الاستعانة بيد عاملة رخيصة مصدرها اللاجئون الفلسطينيون في المخيمات، ووضعوا في المكان المناسب على مسافة قريبة من مراكز الانتاج[26]. وبفضل هذه المنافذ الجديدة، حزمت الصناعة أمرها على التخلي عن السوق الداخلية لأنها تجد صعوبة في منافسة المنتوجات الأجنبية، واتجهت إلى التصدير[27]. لكن ارتباط لبنان باقتصاد البترول لم يعد فقط نتيجة للتنافس أو للعبة العرض والطلب. وفيما يتعدى التجارة، كان إقفال الحدود مع فلسطين يفرض على المجموعة النفطية أن تُدخل لبنان في نطاق عملها. ولم يعد التنافس بين خطي النفط العراقي ومصافي حيفا وطرابلس قائماً. وبما إن عمل أنابيب النفط التي تصب في حيفا تعطّل، فإن القسم الرئيسي من النفط الخام الآتي من الموصل كان يتدفق آنذاك باتجاه طرابلس. وكذلك، لم يعد لدى شركة التابلاين الخيار بشأن أنابيب نفطها التي يفترض بها إيصال الانتاج السعودي إلى المتوسط بحيث سارعت إلى توقيع المعاهدة مع سوريا، لانشاء مصفاة الزهراني، قرب صيدا.

كان ارتباط لبنان باقتصاد البلدان النفطية ملحوظاً، فبالإضافة إلى حركة المرفأ وتصدير النفط الخام، تجدر الاشارة إلى الدور المتنامي الذي كان يلعبه في مجال النقل الجوي. كانت لبيروت الأسبقية في هذا المجال منذ الثلاثينات. وأصبح الهبوط في بيروت ضرورياً بالنسبة إلى المسافر الاوروبي الذي يريد الذهاب إلى العربية السعودية والى بلدان الخليج. وهذا كان سبباً في ازدهار الشركتين الجويتين اللتين أنشئتا في 1945: شركة طيران الشرق الأوسط، التي أسسها صائب سليم سلام وفوزي الحص ودفعها النجاح الذي أحرزته لأن تعقد إتفاق شراكة في 1949 لمدة خمس سنوات مع شركة بانام التي ساهمت برأسمال الشركة بنسبة 36% وقد ساهمت الشركة العامة للنقل التي أصبحت الخطوط الجوية اللبنانية مع الخطوط الجوية الفرنسية بنسبة ثلث الأسهم، وكانت تابعة لحسين العويني وشركاء آخرين على صلة بالمصالح الفرنسية وهناك شركة ثالثة متخصصة في الشحن وهي Transmediterranean Airways التي انضمت إليها عام 1953 ورابعة هي شركة LIA، وذلك بعد فترة قصيرة. وبما إن النجاح لمرّة واحدة لا يخلق قاعدة عامة سارعت الحكومة اللبنانية عام 1948 إلى تخصيص اعتماد لانشاء مطار جديد بديل عن ميدان بئر حسن الذي انشئ في فترة الانتداب رافقته عمليات هدر كبيرة للمال العام.

بُني «مطار بيروت الدولي» على تلال خلده الرملية، في السهل الساحلي جنوبي العاصمة، ودُشّن في حفل مهيب عام 1951، مع انه كان يعمل بشكل جزئي منذ 1949. وكان بناء المطار يليق بالاسم الذي أعطي له.



إعلان للخطوط الجوية اللبنانية.



دعوة سياحية لزيارة لبنان.

وبالرغم من بعض المحاولات السورية لاقناع الشركات الأجنبية بالعدول عن استخدامه[28]، فرض نفسه تلقائياً كمحطة اقليمية للملاحة الجوية. وكانت الفخامة التي تميزت بها إنشاءاته تزداد أهمية بفضل مهارة الشركات المحلية في إقامة علاقات مميزة مع سلطات البلدان في شبه الجزيرة العربية. وكما إن الخطوط الجوية اللبنانية عرفت كيف تفيد من الصداقة التي تجمع مديرها حسين العويني بملك العربية السعودية، احتكرت شركة طيران الشرق الأوسط لفترة خط بيروت - الكويت بفضل العلاقات التي تجمع سلام بشيوخ الامارات - أول دولة في دول الخليج عرفت ازدهاراً اقتصاديا: انطلقت هذه الشركة بفريق عمل مؤلف من ستين موظفاً ليبلغ عدد موظفيها في 1956 تسعمئة موظف تقريباً[29]. وفي الستينات، ابتلعت الخطوط الجوية اللبنانية لتصبح الشركة الوطنية وتضحي إلى جانب المطار نفسه الذي ظلّ مركز الشرق الأدنى حتى العام 1975 ورمزاً من رموز النجاح اللبناني. وارتبطت المصلحة اللبنانية باقتصاديات شبه الجزيرة العربية، ليس فقط من خلال تدفق الثروات والناس والنفط بل أيضاً من خلال التحويلات المالية التي جعلت من بيروت المركز المالي للعالم العربي حتى غداة أول أزمة نفطية. ففي الأربعينات عندما كانت عائدات النفط تقتصر على مداخيل ممنوحة بشكل شحيح من قبل الشركات الغربية كانت مصارف بيروت ورجال الصيرفة فيها هم السباقين إلى تحويلها إلى ذهب. في 1948، كان ثلاثون بالمئة من الذهب العالمي يمر عبر بيروت باتجاه ملوك ومشايخ الخليج[30]، ثم أصبح النظام أكثر تعقيداً بمقدار ما تعممت قاعدة المناصفة، التي فرضتها فنزويلا في بادئ الأمر، على البلدان العربية المنتجة التي زادت عائداتها بشكل ملحوظ بعد أن أضحت منتظمة خلال الخمسينات بشكل ملحوظ. كان لبنان أساساً مجهزاً جيداً لكي يكون أحد المنتفعين من هذه المنّة السماوية المدفونة في باطن الأرض. وسّع قطاعه المصرفي، المتمرّس منذ نهاية القرن التاسع عشر مساحته بفضل دخول الثروات الفلسطينية ثم الانفصال الاقتصادي عن سوريا حيث أدّى منطق الاقتصاد الموجه المعتمد فيها إلى تهريب الرساميل باتجاه بيروت. واختار القطاع المصرفي أن يعزّز قدرته على الجذب من خلال اعتماد التجارة الحرة وإقرار قانون السرية المصرفية. واعتمد هذا القانون عام 1956 بعد أن كان التداول بشأنه بدأ منذ عام 1953. وهكذا أفادت بيروت منذ ذلك الحين من تدفق دائم للرساميل. وربما أجتذبت مصارف بيروت بين 1956 و1966 ثلثي الفائض النقدي من نفط الخليج[31]. وفي الوقت الذي بلغ فيه نظام الاقتصاد الموجّه ذروته في عدة بلدان عربية، عمدت الأنظمة في هذه البلدان إلى حركة تأميم شاملة، وكان لبنان الليبرالي الوعاء الأقرب لاستيعاب الرساميل الهاربة من نظام التأميم[32]. تلك كانت هي الحال لشريحة واسعة من البورجوازية السورية الكبيرة والمسيحية خصوصاً ثم من العائلات السورية - اللبنانية الآتية من مصر والتي اختارت أن ترتد إلى بيروت، أياً تكن المدينة التي وفدوا منها.

من ازدهار إقتصادي إلى آخر

إذا أعدنا النظر في الانفتاح الاقتصادي للبنان، لظهرت لنا نواقصه البنيانية العائدة في بعض منها - تلك التي لا يمكن تخطيها - لضيق رقعته الجغرافية وخلّوه من المواد الأولية والموارد الطبيعية. وفي بعضها الآخر لنظامه السياسي المكوّن من البورجوازية التجارية الحاكمة المهيمنة على النسيج الاجتماعي. ومع ذلك، لن توجه الانتقادات لاسلوب تحصيل الايرادات إلاّ في وقت متأخر. كانت المعجزة الاقتصادية في نظر المعاصرين مربحة بشكل جلي. ومهما تكن مصادرها الظرفية والخارجية فإن نتائجها الملموسة كانت كافية لتردّ عنها تهمة المعترضين. كان من الأفضل لهم إذاً السعي لجني أكبر فائدة منها على المدى المباشر، وهذا سيكون موضع امتحان للشطارة التي اشتهر بها اللبنانيون، سواء كانوا كذلك بالأصل أم بالتبني، ولو أدى الأمر إلى إغفالهم عوامل الهشاشة المستديمة في البلد.

بدأت الأرباح الناجمة عن المعجزة تظهر جلياً أيام رئاسة كميل شمعون أحد زعماء المعارضة الذين ناهضوا سياسة بشارة الخوري، وقد انتخبه البرلمان إثر الثورة البيضاء التي أرغمت أب الاستقلال



المرفأ في مطلع سبعينات القرن المنصرم.

على الاستقالة في سبتمبر 1952. لم يكن عهد الرئيس شمعون إلاّ تأشيراً أولياً لمرحلة النجاح العتيد الذي لن يصل إلى ذروته، إستناداً إلى الأرقام، إلاّ في مطلع السبعينات. ومع ذلك فإن الست سنوات التي حكم خلالها شمعون هي التي بقيت في الذاكرة الجماعية وكأنها الصفحة الأبهى، على الأقل في تاريخ سكان بيروت. وبدلاً من أن تتعثر بداية الازدهار هذه ساهمت الظروف الأقليمية المتضافرة التي تميزت بالاضطراب آنذاك على إظهارها بشكل أفضل. ويجدر القول إن نتائجها على لبنان ذهبت في اتجاهات معاكسة. وإذا آل منطق الحرب الباردة إلى خلق مؤثرات كبيرة في المنطقة في أعقاب إتفاق بغداد وأزمة السويس والوحدة السورية المصرية، انعكست سلباً على الوضع في لبنان وتسبّبت بنشوب الحرب الأهلية القصيرة الأمد في 1958، فإن تسارع الأحداث في الدول المجاورة جعل من لبنان الملجأ الأمين في المنطقة. وأفاد لبنان آنذاك بفضل قانون السرية المصرفية، من توظيفات نقدية هامة وفّرت له ما يحتاج إليه من دعم لاستيعاب نتائج فتنة 1958. لكن الفساد لم يختفِ إطلاقاً ولا أيضاً تركز السلطة الاقتصادية في أيدي شريحة صغيرة من المجتمع. أما التجاوزات التي سببتها محاباة الأقارب والتي ميّزت عهد بشارة الخوري، فتوقفت. وفي أية حال لم يعد احتكار رأس المال التجاري يثير أية فضيحة، لان الأرباح الناتجة عنه توزعت على شريحة واسعة من المنتفعين وساهمت في تنمية الاقتصاد الوطني الذي انعكس إيجاباً على مستوى معيشة الطبقةالوسطى التي كانت في طور تشكلها. لم يترك لاقتصاد السوق وحده بمعالجة الشأن الاقتصادي. واستطاعت الطبقة الوسطى في العاصمة أن تقف على قدميها من جرّاء هذه الانطلاقة.

واستخلص الجنرال فواد شهاب، قائد الجيش، الذي خلف آنذاك شمعون في رئاسة الجمهورية العبرة الاجتماعية من هذه الحرب. وبالتوازي مع إعادة تحديد السياسة الخارجية للبنان لصالح مصر الناصرية ومشاركة متزايدة للنخب المسلمة في الحياة السياسية، اختار شهاب أن يرسخ آليات للإصلاح الداخلي. بدأ عمله باستدعاء بعثة «إرفد» للأبحاث والتنمية التي يديرها الأب لوبريه Lebret فكشفت بعثته عن تمركز السلطة الاقتصادية في نطاق أضيق مما نتصور، إذ إن 4 % من السكان تستأثر بمجمل الدخل القومي. واقترح شهاب عندئذٍ تصحيح ذلك بمبادرة سلمية ترمي في الوقت نفسه إلى بناء مؤسسات تابعة للدولة من شأنها تشجيع إعادة توزيع الثروات وتوجيه النموعبر تهيئة الساحة الداخلية. ومن دون أن تلجأ إلى إجراء صارم شبيه بالأسلوب الذي تعتمده السلطة القمعية في الدول ذات الاقتصاد الموجه، سعت الشهابية، إلى بناء دولة حديثة فعمدت إلى تسيير عجلة الاقتصاد وفقاً لمقتضيات التوجهات الاقتصادية السائدة في البلدان المتقدمة بحيث تضاعفت نفقات القطاع العام بنسبة قريبة من سوريا الاشتراكية، وأنشئت وزارة للتخطيط في 1963 ووضع المصرف المركزي حداً للتجاوزات الموروثة من عهد الانتداب والذي عهد بامتياز إصدار العملة لمؤسسة خاصة رساميلها

أجنبية في الأساس، هي مصرف سوريا ولبنان. كما أنشأ مؤسسة الضمان الاجتماعي في عام 1964، التي عزّزت نهوض الطبقة الوسطى وإن استوجب الأمر فترة انتظار امتدت حتى 1971 لكي ينجح المسعى في إقرار نظام الضمان الصحي. وبالتزامن مع هذه الانجازات، حظيت المناطق التي يقال لها «ضواحي» وهي ذات غالبية مسلمة، تلك التي ألحقت بالجبل لتشكل لبنان الكبير في 1920، باهتمام خاص. وتجلت هذه الرؤية اللامركزية على نحو رمزي في القرار الذي اتخذ بتجهيز طرابلس بمعرض دولي، المدينة الثانية في البلاد التي تيتمت بعد الانفصال عن سوريا. وللتدليل على أهمية المشروع، أوكل التصميم الهندسي لقصر المعارض للمهندس المعماري أوسكار نيمير Oscar Niemeyer، الذي صمّم «برازيليا». كذلك أوليت بيروت عناية أيضاً فبالاضافة إلى بعض الجهود المبذولة لاعادة تنظيم المدينة من الناحية العمرانية أفادت المدينة تلقائياً من تشييد عدد من المباني التي جعلت مقراً لمؤسسات الدولة كما أعيد تأهيل الأبنية القديمة.

ولم تكن جرعة الاقتصاد الموجه التي أعطاها اللواء فؤاد شهاب للدولة قادرة على كبح جماح جمهورية التجار. استمرت أموال النفط تتدفق إلى مصارف المدينة وكان حجم الترانزيت يستأثر بحركة المرفأ. وبما إن الإصلاح الشهابي لم يمتد ليشمل إعادة تنظيم النظام الضرائبي أو لقرارات استصدار تشريعات جديدة في مجال التجارة، فان الثروات التي جناها التجار والممولون في بيروت بقيت غير منقوصة. ومهما تكن حازمة إرادة الرئيس في دفع البلاد نحو العصرنة، وبالرغم من النمو السريع للطبقة الوسطى، لم تبلغ الأمور حدّ إحداث انقلاب جذري في بنية السلطة الاقتصادية. وهذا ما سنلاحظه في ظل عهد الرئيس شارل حلو (1964-1970) الذي اختير في الأساس من قبل الرئيس شهاب ليكمل الطريق من بعده، لا بل خصوصاً في ظل حكم الرئيس سليمان فرنجية (1970- 1976) الذي تميز بعودة التجارة الحرة التي لا ضوابط لها بالإضافة إلى محاباة الأقارب، وقد بذلت جهود جبارة وجرت محاولات جادة لاصلاح الوضع الاقتصادي لكنها باءت جميعها بالفشل. فالجنوح البوليسي لحكم شهاب، والذي تواصل في عهد شارل حلو، شوّه بشكل جلي صورة تلك التجربة الانمائية والسبب يكمن في أنها لم تأخذ بعين الاعتبار انعكاساتها على الطبقات المتوسطة وجعلت هذا الأمر الاساسي في مرتبة ثانوية. كذلك لم تعمل على تقليص نسبة التفاوت بين الطوائف، ولم تدفع بالتالي عجلة الاصلاح إلى الأمام كما يجب. كما أن الإنذار الذي أطلقه اهتزاز القطاع المصرفي في 1966 و1967، على أثر انهيار بنك انترا، لم يلقَ آذاناً صاغية.

أسس يوسف بيدس بنك أنترا، وأصبح في بضع سنوات أكبر مصرف في بيروت، لا بل في العالم العربي. كان لدى بنك أنترا موجودات في الخارج ومن بينها ممتلكات عقارية في الشانزيليزيه وحصة في المصانع البحرية في لاسيوتا La Ciotat [قرب مارسيليا]. وبمعنى ما، كان هذا البنك تجسيداً

للنجاح اللبناني في الخارج. لكنه، بسبب نموّه المطرّد، أثار الكثير من الانتقادات المبرّرة أحياناً بسبب سوء إدارته، والتي لم تكن خاصة به وحده، وأحياناً أخرى نابعة من تحامل شخصي على بيدس. لكن، أكثر من أي شيء آخر، بدا الدور المركزي الذي لعبه آنذاك بنك أنترا في اقتصاد البلاد هو الذي اهتز، وبالامكان الاحتكام إلى ذلك من خلال تضافر المصالح اللبنانية والعربية والغربية التي تجلت بوضوح إبان الافلاس والأشهر التي أعقبته[33]. ولم تقم السلطات الحكومية بأي بادرة لدعمه، فيما كانت ودائعه وممتلكاته في لبنان والعالم تسمح له بالاستمرار على نحو واسع لو سُويت أزمة السيولة النقدية التي تعرّض لها. وعندما عمدت السلطات إلى إعادة هيكلة القطاع المصرفي من أجل استيعاب هذه الصدمة التي انعكست سلباً على مؤسسات أخرى، اتخذت تدابير صارمة بحق المسؤولين عن أزمة انترا مما شجع حركة الرساميل الأجنبية المتواجدة باطراد في بيروت. وهكذا انتهى إفلاس انترا بخسارة المصارف اللبنانية استقلالها الذاتي، وهذه ضريبة دفعتها بسبب الدور الاقليمي الذي كانت تقوم به منذ خمس عشرة سنة لكنه أيضاً دلالة على هشاشة المعجزة الاقتصادية التي عاشها البلد.

وفيما يتعدى الفعالية التقنية لاجراءات التطهير المتخذة، حدّت التطورات الجديدة الناشئة على الصعيد الاقليمي من انعكاسات الأزمة المصرفية على المجتمع اللبناني. وأول تطور كان اقفال قناة السويس، بين حزيران/ يونيو 1967 وأبريل/ نيسان 1975، شهدت حركة الترانزيت ازدهاراً واسعاً. ضاعف خلالها مرفأ بيروت ومطارها من نشاطهما في تلك السنوات[35]. وكان الازدحام في المرفأ شديداً لدرجة أن تجهيزاته كانت تجد صعوبة في مواصلة أعمالها. أحياناً، كانت سفن الشحن ترغم على الرسو لأسابيع دون أن تستطيع تفريغ بضائعها المتجهة في الأساس إلى العراق أو شبه الجزيرة العربية. أما التطور الثاني وهو إعادة ارتفاع تقييم أسعار النفط في أعقاب حرب 1973. وإذ ذاك، وجدت مصارف بيروت التي واصلت اجتذابها لأموال النفط نفسها في وضع ملائم لتجني الأرباح نتيجة هذه الزيادة. وعرف لبنان، بفضل هذا الازدهار النفطي في عام 1974 عاماً من الازدهار المالي، الأخير في القرن العشرين.

وظهرت نتائج التحولات الاقتصادية والسياسية للبيئة الاقليمية في الأرقام التي عبّرت بشكل واضح عن النمو[36] كما عرف القطاع السياحي انطلاقة لافتة. تضاعفت مداخيله بين 1968 و1974 بنسبة أربعة أضعاف إلى حدّ انه شكّل 10% من إجمالي الناتج الفردي، وهذا في جزء كبير منه بفضل وفود المصطافين السعوديين والكويتيين. وثمة تطور آخر لم يستوفَ حقه آنذاك، أفاد الصناعة التي تعصرنت وتنوعت، بالرغم من افتقارها إلى تشجيع السلطات العامة الوفية لمنطق تجاري بحت، أخفقت محاولة لايجاد تعرفة جمركية من شأنها توفير الحد الأدنى من الحماية الاقتصادية عام 1971 تحت ضغط الاضراب الذي مارسه التجار. كان اسهام الصناعة في إجمالي الناتج القومي يتراوح،

حسب التقديرات ما بين 20 إلى 25% بعد أن كان في الستينات بنسبة 12 إلى 13%. هنا أيضاً أتى التحفيز من بلدان الخليج بعد أن وسّع اثراؤها نطاق حاجاتها و طلبها على سلع التجهيز واتجهت الصادرات، وفقاً لنمو مستقر، نحو هذه الدول التي أصبحت الزبائن المفضلة للبنان.

وكان مذهلاً تأثير الثروات النفطية على الازدهار في المجال العمراني وتصاعد أسعار العقارات، خصوصاً في قرى الاصطياف وفي المناطق الأكثر ارتياداً في بيروت. ولكن، وقبل الاستثمارات الكبيرة الآتية من شبه الجزيرة العربية، كانت دعوة المدينة لأبناء الأقطار المجاورة أمراً لا يخفى على أحد نظراً لاسهام الثروات العربية الأقرب والاقدم في تطوير بعض الأحياء كرأس بيروت الذي اختاره الفلسطينيون بسبب قربه من الجامعة الأميركية[37]، وبدارو، في جنوبي- شرقي المدينة حيث يتواجد أبناء حلب.

ملتقى رجال الأعمال

استأثرت بيروت، في خضم هذه المعجزة الاقتصادية المتكررة باستمرار، بالأرباح، بالرغم من المحاولة الشهابية لاعادة تنظيم البلاد. وعلى الرغم من أن النجاح الذي حققته بيروت لم يشمل سائر المناطق اللبنانية استطاعت بيروت أن تجعل هذا النجاح يثمر ويزدهر. وبفضل الخبرة التي اكتسبتها بيروت بعد قرن من الانفتاح على العالم الخارجي ترسخ دورها كملتقى لرجال الأعمال من خلال مجموعة خدمات غير متوفرة في مكان آخر من المنطقة. شجع تدفق الأموال إليها ازدياد العرض على التملّك والخدمات التي كانت تشير إلى عصرنة المدينة وطابعها الكوسموبوليتي وتوسّعت بالتالي قدرتها على الاجتذاب متصدرة طليعة العالم العربي بحيويتها وديناميتها. كان الناس يأتون إليها ليكتشفوا السلع الجديدة الآتية من العالم الغربي، سواء تعلّق الأمر بالموضة في باريس أم بالسيارات الأميركية والايطالية المصنعة حديثاً أو بالاختراعات التقنية المتزايدة خلال العقود الثلاثة المجيدة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية في أوروبا. بدت الحاضرة التي يحتشد فيها رجال الأعمال والفنانون والمثقفون والسياح وقد اجتذبهم إليها هذا الوجه أو ذاك من وجوهها المتعددة وكأنها نموذج لعالم عربي مصغر يواكب العالم الواسع في حركته وتطوره.

ومنذ الخمسينات، أضحت بيروت مقراً ثابتاً لرجال الأعمال الذين يعملون على المستوى الاقليمي، وقد ساعدها على الاضطلاع بهذا الدور الرائد ما تميزت به من خصوصية ليبرالية ومعاصرة وسط محيط يتبع نظاماً اقتصادياً موجهاً أو استبدادياً. كما انعكس التحول الوظائفي للمدينة في مسارات بعض الأشخاص الاستثنائيين الذين لا ينتمون إلى الحكم الاليغارشي لجمهورية رجال الأعمال ولا إلى المجتمع السياسي لوجهاء المدينة. وبعد حسين العويني الذي ألحق بطبقة النبلاء نتيجة إثرائه المبكر

في العربية السعودية في الثلاثينات والأربعينات، برز إميل بستاني ويوسف بيدس. وُلد اميل بستاني في عائلة من جبل لبنان ودرس في الجامعة الأميركية في بيروت وجمع أول ثروة في فلسطين، ثم، عندما هبطت نعمة اكتشاف النفط على بلدان الخليج واستدعى ذلك ازدياد الطلب على التجهيزات، أضحت الشركة التي أسسها للأشغال العامة C A T امبراطورية فعلية. كانت ثروة البستاني مجموعة من بلدان عدة، لكن البستاني بقي متمركزاً في بيروت. لا بل نجح في الدخول إلى النظام السياسي من خلال انتخابه نائباً وقد احتفظ، مع انه كان مقرباً من كميل شمعون بعلاقات وثيقة مع خصوم شمعون، حتى قيام مصر عبد الناصر[38]. وبدا وكأنه أحد الرجالات الواعدة على الساحة السياسية اللبنانية وأحد المرشحين الجديين لرئاسة الجمهورية. لكن الغموض الذي لفّ موته المأسوي خلال حادث في طائرته الخاصة التي سقطت في البحر عام 1963، أثار الكثير من التساؤلات. وبعد مماته، اختيرت ابنته ميرنا البستاني من قبل طبقة سياسية تهيمن عليها مبادىء الرجولة التقليدية، لتخلفه في النيابة، وهذه علامة واضحة على المرتبة التي بلغها اميل بستاني. انتخبت ميرنا البستاني بالتزكية لعدم وجود منافسين وكانت أول امرأة تدخل البرلمان بعد عشر سنوات انقضت على إقرار قانون حق الاقتراع للمرأة. ووجب الانتظار ثلاثين عاماً تقريباً لنرى نساءً أخريات يجري انتخابهن في مجلس النواب. أما بيدس فكان مساره شبيهاً بمسار إميل بستاني، وقد ابتدأ في فلسطين في ظل عهد الانتداب. ومن هناك، ظهر في عالم بيروت المالي بعد 1948 وأسس مصرف انترا. وعندما حانت لحظة سقوطه، جرى تذكيره بأصله الفلسطيني، وبعد أن كان مفخرة لبنان في أيام العز والثروة، اتهم فجأة بأصله الفلسطيني الغريب بعد انتحاره إثر الأزمة التي ألّمت ببنك أنترا[39]. في غضون ذلك، لم يستطع بيدس قط أن يرمّم علاقته بأركان السلطة التي يرتبط أفرادها بعلاقات تضامنية قديمة. وهكذا بقي بيدس دخيلاً مع أن مصرف أنترا، لم يكن فقط المصرف الأول في العالم العربي بل أيضاً المحرك الأساسي للاقتصاد اللبناني. وربما كان هذا هو السبب في أن السلطات لم تُحرك ساكناً باتجاه معالجة الوضع بل ظلّت على موقفها السلبي نزولاً عند رغبة خصوم بيدس الذين ناصبوه العداء لحظة الانهيار[40].

وفي أعقاب هذه الأزمة الاقتصادية الخطيرة التي قطع دابرها قبل الأوان في ظروف مأسوية، كانت بيروت تضجّ برجال الأعمال الوافدين من الخارج سواء اختاروا الاقامة أم كانوا ضيوفاً يأتون على نحو متقطع. هناك، على سبيل المثال رجال الأعمال الفلسطينيون كعبد الحميد شومان وأخوانه الذين نقلوا إلى بيروت الفرع الرئيسي للبنك العربي الذي تأسس في القدس عام 1930، والذي كان بخلاف بنك انترا، يتخذ موقعاً فيه شيء من الحياد بالنسبة للاقتصاد اللبناني، ولكن هذا لم يمنعه من أن يصبح، بعد إفلاس بيدس، المصرف الأول في العالم العربي وهذا تحديداً بفضل الأموال التي استودعتها منظمة التحرير الفلسطينية في مطلع السبعينات.

أما المتعهدان حسيب صباغ وعبد المحسن قطان اللذان كانا ناشطين في دول الخليج فقد جعلا من بيروت قاعدة لهما، كما فعل آل بوتاجي الآتون من حيفا والمنخرطون في صناعة الأثاث. اما رجال الأعمال السوريون فقد برز منهم جماعة من المسيحيين من آل عبجي من أصل حلبي أسسو بنك الاعتماد اللبناني وآل صحناوي الذين عززوا استيطانهم البيروتي القديم ومنشآتهم بالتعاون مع الشركة العامة البلجيكية. ومن المسلمين البارزين من أصل سوري الوزير السابق نعمان الأزهري، مؤسس «مصرف لبنان والمهجر» الذي بدأ يجتذب الرساميل الوافدة من دمشق وحلب ومن ثم أصبح المصرف المرجع للبورجوازية السنية وبقي، في الثمانينات وحتى نهاية القرن، في طليعة مؤسسات المدينة. وهناك أيضاً رجال الأعمال العراقيون كآل الجلبي الذين غادروا بغداد بعد سقوط النظام الملكي في 1958 وأرتبطوا بعلاقات زواج مع العائلات الشيعية الكبيرة في جنوب لبنان، أو خالد العصيمي الذي انتقل من الشام إلى بيروت وشيّد فيها مبنى المكاتب المهيب «الجفينور» الذي حقق استثماراً عقارياً قياسياً. كذلك ساهم لبنانيون آتون من مدن أخرى في ازدهار الوسط التجاري وتطوير الأعمال البيروتية كآل عودة الذين جعلوا من مركز الصيرفة التابع لهم في صيدا مصرفاً هاماً بمساهمة رساميل كويتية، أو آل دبانة وهم عائلة مسيحية أخرى من صيدا اهتمت باستيراد المواد الزراعية. وبالمقابل اختفت بيوتات المصارف الموجودة في المناطق والتي لم تستطع أن تنقل نشاطها إلى وسط بيروت.

كان هناك من المغانم ما يكفي للإقتسام بين الأسماء الكبيرة التي فرضت نفسها خلال هذه الفترة المزدهرة، وبين الأقلية الحاكمة ذات النفوذ المستمر. أضف إلى ذلك إن الرساميل الوافدة من الخارج ساهمت في إثراء حشد كبير من رجال الأعمال ذوي الفعالية المالية المحددة. أحياناً، كان العديد من المتعهدين المنطلقين من رأسمال معدوم، ينجحون آنذاك في اغتنام حصتهم من «الحلم اللبناني» الذي، لعدم قدرته على استبدال الرافعة الاجتماعية المعطلة غالباً، يتيح للمهرة والمحظوظين فرصة الترقي الاجتماعي الفردي السريع. نتج عن فورة المبادرات الاقتصادية هذه إتمام مروحة الخدمات التي توفرها المدينة حيث لم يبق شيء من الممارسات المعتمدة في رأسمالية الستينات المنتشية غير معروف، بما في ذلك تلك التي لا يمكن الإقرار بها.

بدأت بيروت تظهر بصفتها نقطة تمركز للاقتصاد العالمي. كانت الودائع العائدة لواردات البلدان العربية الأخرى تدخل إلى مصارفها وكان بإمكان رجال الأعمال الأجانب الاكتفاء بالاقامة في أحد فنادقها ليعقدوا اتفاقيات مع رجال أعمال من المملكة العربية السعودية أو الكويت أو العراق. وعندما يأتي رجال الأعمال أو مندوبو الشركات الكبرى من أميركا أو من أوروبا لممارسة أي نشاط في الشرق الأدنى، كانت بيروت حتماً محطتهم الأولية لا بل الوحيدة غالباً.

فسحة للعيش

ليست المصارف أو المرفأ أو المكاتب هي التي جعلت من بيروت قاعدة للعمل وملجأ للرجال الذين جمعوا ثرواتهم في أمكنة أخرى. فأبرز «الخدمات» التي تقدمها بيروت لروادها تطوّر مستوى المعيشة فيها والذي ارتدى أهمية بالغة سواء بالنسبة للمتعهدين الذين كانوا يمضون في معظم أوقاتهم في الظروف المناخية القاسية للبلدان الصحراوية أم بالنسبة للأوروبيين والأميركيين العابرين. لم تكن هنالك مدينة في الشرق الأدنى كله، ولا حتى القاهرة، قادرة على تأمين وسائل راحة مماثلة. لا شك أن مبادرة القطاع العام بقيت جزئية لحد بعيد. فبصرف النظر عن المطار والجهود البطيئة المبذولة في تعزيز البنى التحتية للطرقات والاتصالات، وبصرف النظر أيضاً عن إنشاء كازينو لبنان في 1959 على ساحل المعاملتين الذي أجاز لشركة خاصة حق احتكار العاب الميسر. وبناء مدرسة فندقية هدفها إعداد موظفين ذوي مستوى للعمل في القطاع السياحي ودعم مهرجانات بعلبك في مجال السياحة الثقافية... إذا استثنينا هذه الأمور لوجدنا أن الدولة غالباً ما كانت غائبة. لكن القدرة الابداعية التي تميز بها القطاع الخاص وتراثه العريق في مجال الخدمات نجحا في تلميع الصورة. وبالاضافة إلى سهولة الاتصالات الجوية مع أوروبا من جهة وبلدان الخليج من جهة أخرى، والاتصالات عبر الهاتف والتلكس، التي كانت تعوّض عن النقص الفاضح في الخدمات البريدية، كانت بيروت تقدم عملياً كل ما كان يطمح إليه سائح أجنبي على درجة من اليسر بدءاً بالتجهيزات الفندقية الأكثر فأكثر إتقاناً.

ونتيجة لقوة الإغراء السياحي الذي مارسه فندق السان جورج، شهدت الخمسينات والستينات ظهور فنادق من مستوى أربع نجوم في حيّ مربع عين المريسة نفسه: البالم بيتش والفاندوم والمارتينيز وقدموس وعلى بعد بضع مئات من الأمتار، الريفييرا والكارلتون المطل على صخور الروشة. هذا ولا ننسى الكلام عن فينيسيا صحيح إن الواجهة البحرية احتضنت بامتياز القطاع الفندقي، ولكن الجهة الغربية من المدينة العليا شهدت أيضاً إنشاء بعض الفنادق.إذ قبل أن ينضم فندق فينيسيا الفخم إلى السان جورج والنورمندي على الواجهة البحرية، أنشئ فندق البريستول وجاء ليغني بأبهته وفخامته المنطقة القديمة للكثبان التي لم يصلها العمران بعد. كذلك انبثقت فنادق من مستوى ثلاث نجوم على مسافة غير بعيدة كثيراً من البريستول، كفندق نابوليون المبني عام 1947 وأعقبه «ماربل تاور» و«مايفلاور». وعما قريب سيمهّد نمو شارع الحمراء، في هذا القطاع، لانشاء فنادق أخرى ثلاث نجوم مثل فندق «البلازا» و«كافالييه» ثم فندق أربع نجوم، «الكومودور» – الذي سيكون أثناء الحرب مقراً لعمل مراسلي الصحافة العالمية.

وظلت هذه الاندفاعة محصورة بالجزء الغربي من المدينة. بدا محيط ساحة الشهداء محكوماً برؤية فنادقه القديمة تتحول إلى أكواخ حقيرة. وفي القسم الشرقي من المدينة المحروم من الفنادق، إرتفع



الواجهة البحرية، حي الفنادق الكبرى.

فندق ثلاث نجوم، «الكسندر» الذي سيصبح فيما بعد مصنفاً من درجة رفيعة، وحده على احد منحدرات تلة الأشرفية. ثم بدأ زحف الفنادق يتجه نحو بلدات الجبل القريب، حيث، وبمعزل عن التقليد المتبع في فنادق الاصطياف، أنشأ ورثة اميل البستاني فندق البستان الذي يعمل طيلة أيام السنة في كنف أشجار الصنوبر في بيت مري. على الرغم من كون الزيادة التي طرأت على عدد الأسرّة أمراً لا جدال فيه فقد بقي عددها غير كاف لسدّ حاجة السياحة الجماعية، خصوصاً في نطاق فنادق الثلاث نجوم وفنادق النجمتين شبه المعدومة تقريباً. لكن الفنادق الفخمة اكتسبت من المساحة والنوعية ما يكفي لتساهم، هي أيضاً، بتبرير صورة سويسرا الشرق باستقبالها لرجال الأعمال وزبائن آخرين جدد، مشاركين في المؤتمرات.

وعدا زيارات رجال الأعمال، كانت بيروت جاهزة لاستضافة عائلات لفترة إقامة أطول في ظروف حياتية ملائمة تسمح لاولاد هذه العائلة بتلقي الدراسة اللائقة. كان انتشار شبكة المدارس الخاصة تضمن للمهاجرين إلى لبنان مهما كانت أصولهم بأن يواصل أولادهم الدروس التي يختارونها دون عائق: هناك مدرسة المانية وأخرى للجالية الأميركية أضيفتا «للأنترناشيونال كولدج» التابعة للجامعة الأميركية في بيروت وللمدرسة الايطالية اللتين فتحتا أبوابهما أمام الطلاب منذ وقت طويل،

هذا بصرف النظر عن المدارس الفرنسية التي كانت عديدة جداً ومتجذرة عميقاً في واقع المدينة بحيث إنها شكلت الاطار المرجعي للنظام المدرسي وأحد الدعائم الأشد تعبيراً عن مستوى التعليم في لبنان. وفيما كانت حرب السويس تعلن نهاية الوجود الثقافي الفرنسي في سوريا، وفي مصر بالطبع، اختار لبنان أن يوطد علاقاته بباريس. ظلت البكالوريا الفرنسية تحظى بتشجيع العائلات والمدارس، حتى لو فرض على التلامذة الترشح لامتحانات البكالوريا اللبنانية. وبعض المنشآت كالمعاهد الثلاثة التابعة للبعثة العلمانية الفرنسية أو المدرسة الانجيلية كانت تضم في صفوف اساتذتها عدداً من الأساتذة الذين يشغلون وظيفة غير وظائفهم الأصلية ويتقاضون أجورهم من الحكومة الفرنسية، الأمر الذي عزّز هجرة أصحاب الكفاءة من الفرنسيين والسفراء الفرانكوفونيين إلى هذه المدارس.

وكان الجهاز التعليمي في مدارس المرسلين الكاثوليكيين، اللعازاريين واليسوعيين والمريميين وغيرهم مؤلفاً، في غالبيته، من رجال دين من أصل فرنسي. وتقريباً، في كل مكان كان «فرنسيو المشرق» يظهرون بين الأساتذة وفي الصفوف الابتدائية حتى. لا بل إن الرياضة المدرسية تميزت، على الأقل حتى السبعينات بهذا التقليد الفرنسي، وكان أساتذتها في غالبيتهم من «فرنسيي المشرق» أيضاً وكانت الامتحانات تُجرى في ملعب أرمان دو شايلا الذي انشىء فوق عقار فرنسي وسُمّي على اسم أول سفير للجمهورية الرابعة في لبنان المستقل.

اتجه هذا التعليم المنسجم مع المعايير الغربية في التربية نحو السكان المحليين وساهم فعلاً في ترسيخ الطبقة الوسطى وخفّف من الاحساس بالغربة الذي يشعر به المهاجرون الاوروبيون في لبنان. ولكن، كانت هناك خدمة أخرى يقدمها النظام المدرسي تستجيب لرغبة الطلاب القادمين من البلدان المجاورة في المنطقة، وتعكس أهلية بيروت للانفتاح في جميع الميادين، وليس فقط في مجال الاقتصاد. إذ بفضل إنشاء فروع داخلية للطلاب الوافدين من وراء الحدود، أصبحت المقارنة مع سويسرا مبرّرة في المجال التربوي ومع تطور المواصلات تناقص عدد الطلاب المسجلين في الفروع الداخلية بين صفوف الطلاب اللبنانيين. صحيح أن المدارس الداخلية كانت تسمح للعائلات اللبنانية التي تسكن في الأرياف من توفير تعليم رفيع المستوى لأبنائها يتوافق مع مطامحها السياسية، لكن الأمر الذي كتب لهذه المدارس الاستمرار هو التطور الاجتماعي الاقتصادي الذي طرأ على البلدان المجاورة. وهكذا كانت هناك مدارس ذات اتجاه تعليمي محدّد كمدارس راهبات البيزانسون وسيدة الناصرة ومار يوسف الظهور للفتيان، وهناك مدرسة اليسوعيين التي أنشئت في الستينات على تلال الجمهور للصبيان. وكانت هذه المدارس تضمّ أجنحة خاصة بالطلاب الداخليين تستقبل بانتظام عدداً لا يستهان به من أبناء العائلات الكبيرة في دمشق وحلب، المسلمة والمسيحية على حد سواء والتي لا ترغب في أن يقتصر تعليم أولادهم على اللغة العربية فقط كما هي الحال في المؤسسات التربوية السورية. وكانت

هناك مدارس أخرى نشأت حديثاً بمبادرة محلية مهمتها توفير العلم للتلامذة القادمين من شبه الجزيرة العربية الراغبين في تلقي مختلف مواد التدريس باللغة الانكليزية.

وكان التنوع في الخدمات التربوية ذاته متوفراً على المستوى الجامعي. وكانت الجامعة الأميركية في بيروت وجامعة القديس يوسف اللتان ميزتا كلاهما انطلاقة المدينة في القرن التاسع عشر قد احرزتا قصبة السبق في هذا المضمار وصارتا جزءاً لا يتجزأ من نسيج المدينة، كانت،إلى اعدادهما للنخب المحلية، تصنعان شهرة بيروت الاقليمية. وبفضل الانتشار الواسع للغة الانكليزية في آسيا العربية، فرضت الجامعة الاميركية نفسها مرجعاً في الشرق الأدنى كله. وكان توفر أمكنة السكن الجامعية في الكامبوس أو في حي رأس بيروت المجاور مقروناً بتنوع واسع لمواد التدريس، وهذا بهدف اجتذاب طلاب متنوعين يأتون أحياناً من الهند أو أفغانستان. وبالمقابل، حافظت جامعة القديس يوسف على لبنانيتها أكثر، وعلى طابعها المسيحي، فيما يتعلق بالطلاب الذين تستقبلهم. لكن كلية الحقوق التابعة لها والقسم المختص بالدراسات العربية كانا يستقبلان بانتظام طلاباً سوريين. لم تكن أمكنة إيواء الطلاب متوفرة فيها لكن كان هناك عدد من البيوت في جوارها التي تؤوي الطلاب الآتين من الأرياف ومن الخارج.

وعلى مرّ السنوات، أضيفت إلى الجامعتين التاريخيتين أجنحة جامعية لاستيعاب الطلاب الجدد الوافدين الى العاصمة للتخصص في مختلف فروع المعرفة. أنشئت كلية بيروت للبنات في 1920 وأخذت تستقبل طلاباً من المناطق المجاورة وكانت طالباتها ينتمين إلى الطبقة المسلمة الراقية في بيروت وفي سائر المدن العربية. واحتفظت الكلية بقدرتها على اجتذاب الطلاب حتى بعدما اتبعت نظام التعليم المختلط في السبعينات وأصبحت كلية بيروت الجامعية، وفيما بعد الجامعة الأميركية اللبنانية. أما الأكاديمية اللبنانية للفنون الجميلة فقد أنشئت في نهاية عهد الانتداب وشهدت، من جهتها، تطوراً متنوعاً في فروع الحقوق والعلوم الانسانية وحافظت على طابعها الوطني، وشكلت نواة الجامعة الرسمية للدولة فيما ظلّت أقسام الهندسة الداخلية والفنون التشكيلية مستقلة وانضم إليها فيما بعد فرع كلية الإعلام، وقد احتلت كلية الفنون مركزاً طليعاً في الحركة الفنية اللبنانية لا بل العربية[41]. وتوجهت إلى جامعة هايكزيان الشريحة الأرمنية وامتازت هي أيضاً بطابعها الاقليمي عن طريق اختيار مناهجها التربوية لأنها كانت تستوعب أفواج الطلاب الأرمنيين الآتين من حلب والمدن الأخرى في سوريا. على أن جامعة الروح القدس في الكسليك وهي التجسيد الحي للخصوصية المارونية اللبنانية الخالصة وتقع على أية حال في المنطقة المارونية حصراً من كسروان، ضمّت في عداد المنتسبين إليها بعض الطلاب الاكليريكيين الشبان الآتين من سوريا والعراق ومصر، لا بل من السودان.

واتسع الطابع الوظائفي الاقليمي للجامعات في بيروت ليشمل قطاعاً جماهيرياً أكبر مع إنشاء

جامعة بيروت العربية التي تأسست عام 1959 بمبادرة مصرية أيام عبد الناصر كفرع تابع لجامعة الإسكندرية، والهدف منها خلق توازن ثقافي بينها وبين المؤسسات التابعة للغرب. كانت هذه الجامعة تتوجه في الأصل إلى الشبان المنتمين إلى الطائفة المسلمة. لكنها عادت فانخرطت في الرؤية الإقليمية، فحضور الطلاب لم يكن إلزاميا مما أتاح لها استقبال عدد كبير من الطلاب غير المقيمين في لبنان، سوريين وأردنيين ومصريين حتى، لا يحتاجون للإقامة في بيروت بل يحضرون إليها في فترة الامتحانات النهائية، بحيث كان يجري التلاعب بالإحصاءات التي أوردت نسبة 60% من الطلاب الأجانب في الجامعة. وازداد عدد الطلاب الأجانب من خلال اجتذاب الجامعة الرسمية أي الجامعة اللبنانية لهم وهي التي نمت بشكل أساسي منذ 1950 بالرغم من تردد الطبقة السياسية وإبطائها في تعميم ديموقراطية التعليم العالي. كانت الجامعة اللبنانية تتوجه إلى الشباب الذين هم من أصل ريفي وينتمون إلى الطبقات الأقل يسراً، لكنها استقبلت أيضاً طلاباً من بلدان أخرى، بفضل معادلة البكالوريا اللبنانية بشهادات البكالوريا الأخرى السورية والمصرية.

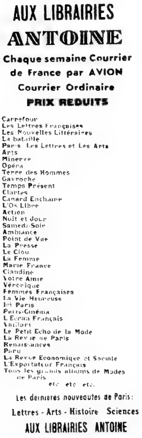
لكن ميزة بيروت الإقليمية تجلّت في الميدان الطبي. ليس لأن عدد الأطباء المتمرسين ازداد بفضل وجود هاتين الكليتين القديمتين في الطب بل لان انفتاح المدينة على الثقافة الغربية كان يسمح لهم بمواكبة كل التطورات التي تحصل في عالم الطب. بعد نيلهم الإجازات، كان معظم الأطباء يغادرون إلى أوروبا الغربية أو إلى أميركا ليكملوا اختصاصهم. وكان آخرون يحصّلون تعليمهم في الخارج. وفي كلا الحالتين، كان الكثيرون يحافظون على علاقاتهم المعقودة خلال سنوات الدراسة مع أساتذتهم ويشاركون بانتظام في مؤتمرات تعقد في الخارج.

من جهة أخرى، كانت الكتب الأدبية المختصة تستورد من الخارج بواسطة المكتبات الشهيرة بمبادرة من الوكلاء المحليين المتعهدين، وكانت الشركات المختصة بالأدوية تنشر لوائح دورية تتجدّد باستمرار عن أسماء الأدوية المستوردة منذ ظهورها في الأسواق الأجنبية. وكانت التجهيزات الطبية توازي بجودتها مستوى التجهيزات المتوفرة في أوروبا. كما ضمت بعض المؤسسات الطبية مئات الأسرّة كمستشفى القديس جاورجيوس للروم الارثوذكس وهو أول مؤسسة مدنية للاستشفاء أنشئت في بيروت وقد تمّ توسيعها في الستينات، ومستشفى جمعية المقاصد الإسلامية ومستشفى القلب الأقدس لراهبات المحبة ومستشفى الجعيتاوي بإدارة الراهبات المارونيات... وازدادت القدرة على استقبال المرضى بفضل العيادات الخاصة للأطباء رزق وبربر وطراد التي نافست بأحجامها أحجام المستشفيات الفعلية. واكتملت اللوحة بإنشاء شبكة مكثفة للمستوصفات.

ومع ذلك، فإن نوعية العلاجات لم تكن مؤمنة لجميع اللبنانيين على حد سواء. وبغياب الخدمات العامة، وكانت عملياً غير متوفرة. كشفت الأمراض حدّة الانقسام الطبقي والاجتماعي. وبالمقابل،

كانت التجهيزات الطبية والاستشفائية في المدينة تطمئن الساكنين من أصل غربي ولم يكونوا مضطرين للعودة إلى وطنهم إلاّ في حالات مرضية نادرة. أما الأجانب الأقربون الآتون من البلدان العربية فكانوا يعتبرون الطب في بيروت متقدماً بشكل ملحوظ بالنسبة لما هو متوفر لديهم. ولم يتردد عدد من السوريين عن المجيء للاستشارة الطبية أو للعلاج في بيروت شجّعتهم على ذلك سرعة التنقل إذ لا تستغرق الرحلة أكثر من ثلاث أو أربع ساعات وهم ليسوا بحاجة لتأشيرة مرور. وبلغت شهرة بيروت في مجال الطبابة حداً أبعد من ذلك. كان الأطباء اللبنانيون يستدعون إلى بلدان شبه الجزيرة العربية التي كانت لا تزال تفتقر إلى التجهيزات الطبية ليعالجوا المرضى الأثرياء مع ضمان إقامتهم على نفقة هؤلاء المرضى. فيما شكلت مستشفيات بيروت وخصوصاً مستشفى الجامعة الأميركية، الملجأ الأخير لهم.

ومهما تكن فعالية البنى التحتية الفندقية والتربوية أو الاستشافئية في بيروت، ومهما يكن محتماً نمو مصارفها وتجارتها، ومهما بدا مبرراً لقب سويسرا الشرق الذي أطلق عليها، فهو قليل بالمقارنة مع ما بدا، بصرف النظر عن كل القرائن، السمة الفريدة لبيروت وهو محيطها البشري الذي كان يولّد انطباعاً في ذهن كل زائر يأتي إليها من الخارج بأن أبواب المدينة مفتوحة أمامه وكأنها أبواب منزله الذي غادره في موطنه الأصيل.



إعلان لمكتبة أنطوان.

الفصل السادس عشر

البيروتيات والبيروتيون

تابعت بيروت عبر التلفزيون تتويج ملكتها (على عرش الجمال). في ذلك المساء، وعلى بعد ألوف الكيلومترات من ضفاف المتوسط، كانت ميامي تنصب اللبنانية جورجينا رزق ملكة جمال الكون للعام 1971. في بلدان أخرى أيضاً، كان لحدث مماثل أن يحتل صدارة الصفحات الأولى لكن سرعان ما تسترعي أمور أخرى اهتمام الصحف. اما هنا، فان التعطش للاعتراف الدولي بأهمية لبنان، كان يضخم أي انجاز يحرزه لبناني خارج الوطن ما جعل من تلك السهرة أكثر من لحظة نشوة، لا بل بدت تجسيداً لحلم لبنان في العالمية، وإن يكن محصوراً في دائرة الخفة المنظمة. لكأن تتويج فتاة من بيروت جاء يكافئ، في أعين مواطنيها، هذا الجهد المديد الذي حدا بهم لعقود خلت إلى العيش على إيقاع الغرب في مختلف الميادين، من أكثرها جدية إلى أسخفها. بدا التكيف مع الحداثة الغربية في ذلك الوقت شبه مكتمل، يشهد له الأداء الاقليمي لاقتصاد تنافسي، وتؤكده تحولات المشهد المديني وقد غزته المباني المؤلفة من طبقات عدة – مع ما ترتب على ذلك من عواقب وخيمة. بيد إن أفضل تجسيد لهذا التكيف كمن في تغيرات الحياة اليومية. باتت حركة التفرنج التي تعود إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر تتعدى اطار الطبقات الميسورة. وصار استيعاب كل جديد وافد من الغرب أسرع من ذي قبل. وإذا كانت بيروت قد اكتشفت المجتمع الاستهلاكي متأخرة بالضرورة عن نموذجه الأميركي الأصلي، إلاّ إنها فعلت ذلك تقريباً بالتزامن مع أوروبا. ولم تلبث الحمى الاستهلاكية أن عظمت المؤهلات الاقتصادية للمدينة فأمدت الصحف بالرساميل بفضل قطاع اعلاني تنامى باطّراد وجعلت من بيروت سوبر ماركت الشرق الأدنى ومتجره الفخم، ما ساهم إلى حد كبير في اجتذاب الزائرين من الجزيرة العربية، بالإضافة إلى روادها من دمشق وعمان.

هكذا كان للنموذج الاستهلاكي البيروتي مظهر مقنع إلى أبعد الحدود. ليس فقط من خلال تنوع السلع التي يقدمها، بل أيضاً من خلال الصدقية التي يمده بها محيطه البشري. كان المترددون على المحال والمشترون والذين يخرجون لغايات استعراضية، يشبهون، إلى حد الالتباس، الصورة التي

تفبركها السينما والمجلات والتلفزيون للرجل المعاصر، وللمرأة أكثر منه. حتى إن احدى النساء التي تتحرك وسط هذه اللوحة العامة كانت قد اختيرت للتو في أميركا نموذجاً عالمياً للجمال النسائي، وصار كل زائر للبنان يحاط علماً بذلك.

نموذج الحداثة للنساء

أبعد من الشعور الوطني العارم بالاعتزاز الذي انتاب معظم اللبنانيين لدى انتخاب ملكتهم، من رئيس الجمهورية إلى سائق التاكسي، كان لهذا التكريس معنى مميز في بيروت بالذات[1]. هكذا فجأة، تلَبّست أجمل فتاة في العالم ملامح بنت الجيران. وبات كل واحد يستطيع رؤيتها بأم عينيه على الشاطئ أو خلال عرض للموضة أو على رصيف المقهى، أو، في أقل تقدير، في الأفلام الدعائية وعلى صفحات أخبار المجتمع في المجلات. بل كان في إمكان كل واحد أن يتعرف عليها، رغم ما اختصت به من مقاييس مثالية وجمال الوجه، في طيف الفتيات الأخريات اللواتي جعلن، على غرارها، من المرأة البيروتية نموذجاً للمرأة العربية المتحررة، ومحركاً لفانتاسمات ذكورية لا تنتهي، وإن ظلت غير قابلة للاختزال في مظهرها الخارجي. على أي حال، لم تتأخر ملكة الكون المحلية في التخلي عن صورتها البراقة لتختبر المأساة حين اقترنت بأبو حسن سلامة، رئيس جهاز الأمن في المقاومة الفلسطينية الذي اغتيل عام 1979 على اثر انفجار سيارة مفخخة من تدبير الموساد الاسرائيلي[2].

لم تكن حال جورجينا رزق المنتقلة من عالم الفتنة و«الغلامور» إلى عالم السياسة الشاق حالاً فريدة. ثمة وجوه نسائية أخرى من المجتمع البيروتي المخملي تشهد لفن العيش البيروتي هذا وقدرته على مجاورة حد النصل، والتماس الخطر مع مجريات السياسة الاقليمية. ويكفي للتأكد من ذلك مشاهدة اللوحة التي رسمها الأدب الرخيص عن بيروت وتحديداً في كتاب «موت في بيروت» من سلسلة «أس آ اس» **SAS**، الموثق جيداً – والزاخر بالمواقف الاحتقارية تجاه النساء. وأسوأ من ذلك الإدانة التي وجهها أحد المعارضين السعوديين، المقيم هو أيضاً في بيروت منفياً، إلى «القحبات اللبنانيات» اللواتي بدون له المرادف البديهي لفساد الأخلاق وانحلالها، وذلك ضمن كلام الصور التي احتواها كتابه في معرض تنديده العنيف بحكم آل سعود وأخلاقياتهم[3]. ولكن، بعيداً عن المسارات الشخصية التي مزجت بين ملذات الحياة الاجتماعية ولعبة الأمم المتكررة أبداً، وبغض النظر عن الأحكام المتسرعة التي تثيرها هذه المسارات، فقد منحت نساء بيروت المدينة أثمن ما يمكن أن تقدمه إلى محيطها، وهو المثال الحي على حداثة تُعاش يومياً، وإن لم يكن الأمر يخلو من المآسي وسوء الفهم.

كانت هناك قيود كثيرة لا تزال تعوق المساواة بين الجنسين سواء في نصوص القانون الأبوية أو في قواعد السلوك القمعية، ولو غير مكتوبة. وباستثناء حفنة من النسوة اللواتي عملن في الطب والمحاماة

والصحافة[4]، ظل الحضور الانثوي في العالم المهني محصوراً في وظائف ثانوية. وفي ما خلا انتخاب ميرنا البستاني بالتوارث في البرلمان، لم تكن النساء قد نجحن في الدخول إلى معترك السياسة اللبنانية. إلا أن الانخراط المتزايد للنساء في صفوف الأحزاب وخاصة اليسارية منها أوحى ببداية تغيير في الأفق[5]. بيد إن الثورة التي كانت تطاول أحوال المرأة في تلك الأثناء حملت طابعاً سياسياً جذرياً رغم كل المعوقات، أو بسببها ربما. ففي هذه المنطقة من العالم حيث حكم على الجنس الآخر بأن يظل ماضي الرجل، على ما كانت تذكّر به قامات السائحات السعوديات والكويتيات المتلفعات بالإزار الأسود تلفعاً كاملاً، مثلت حرية المظهر التي فازت بها اعداد متزايدة من نساء بيروت وفتياتها، وسواء عمداً أو عن غير قصد، عقيدة حياة.

كانت القاهرة قد سبقت بيروت على طريق التحرر النسائي. وشهدت دمشق كما بغداد خطوات متقدمة في هذا الميدان. وتراجع ارتداء الحجاب أمام هجمات الحداثة التي روجت لها مثلاً السينما المصرية، وأيضاً امام القوة الدافعة للفكر القومي العربي المتشبع بالبلاغة الاشتراكية والمنطبع بثورة مصطفى كمال، حتى لو لم يكن يفصح عن ذلك أو يأخذ على عاتقه الارادوية، القمعية إلى حد ما، السائدة في تركيا. وفي بيروت نفسها، كان لا يزال يلاحظ حتى مطلع السبعينات ارتداء الحجاب الذي يخفي الشعر في الأحياء الشعبية المسلمة، وأيضاً المعطف الذي يغطي الجسد كله من الكتفين حتى العرقوبين. وكانت المسيحيات المسنات من الطبقة الوسطى يضعن أحياناً كثيرة المنديل على رؤوسهن. لكن هذا لم يمنع بيروت، بين كل مدن المنطقة العربية، من أن تكون المدينة الوحيدة التي تحتل فيها المرأة ذات المظهر المتفرنج الحيّز الأكبر، وقد ساهم ذلك في تغيير المشهد المديني برمته، فمنذالوهلة الأولى، كان الزائر يشاهد المارات والمارين جنباً إلى جنب، إن لم يكن ضمن مجموعة واحدة، واعداداً من النساء يقدن السيارات يكاد يوازي اعداد الرجال. ومع تراجع الحجاب، خاصة في الأحياء الحديثة، لم تعد هناك إلا علامة فارقة بسيطة تميز، هنا كما في أوروبا، النساء المرتديات التنانير أو الفساتين عن الرجال الذين يرتدون البناطيل أو البدلات.

وحتى هذا التمييز الذي يفرضه اللباس بدأ يضمر مع وفود البنطلون النسائي. لم يجر الأمر من دون مشقة. كان ارتداء النساء البنطلون، مع كل الرمزية التي يستدعيها، يصطدم بمقاومة ذكورية تتستر خلف ضرورة احترام اللياقات الاجتماعية، مثلما حصل في مجتمعات أكثر تقدماً. إلاّ أن الموضة انتصرت في النهاية، وسادت في مدى سنتين أو ثلاث سنوات في أوساط تعدت الطبقات الميسورة التي دخلت من خلالها. والحال، إن البنطلون النسائي بات امراً بديهياً في مطلع السبعينات. وفي الفترة نفسها، ساهم اجتياح الجينز للعالم أجمع، والذي لم يوفر بيروت، بخلاف بلدان أخرى في الشرق الأدنى، في محو الفوارق المتبقية في اللباس بين الجنسين، ولا سيما أن موضة الشعر المسترسل لدى



هجمة الميني-جوب في الستينات.

الشبان التي روجت لها فرقة البيتلز ومن ثم تبنتها موجة الهيبيز، كان تنال هي الأخرى من اللياقات الذكورية.

كذلك، لم يفلح التذرع باللياقات في الحد من النزعة إلى تقصير التنورة: من طول الثوب «كوريج» Courrèges - وقد دخلت التسمية اللغة المحكية - وصولاً إلى الميني جوب وانتهاء بالميكروجوب، ومن دون أن ننسى الشورت الذي يبرز أعلى الفخذين. فأخذ الجلد العاري أو الذي تكسوه فقط جوارب النايلون ومن ثم «الكولان» طريقه إلى الظهور وبجرأة متزايدة، وأصابت عدوى التقشف في القماش ملابس التلميذات في مدارس الراهبات. وحين لم تكن الأزياء المدرسية متماشية مع الموضة السائدة، كانت فتيات كثيرات يعمدن إلى طي حاشية التنورة بطريقة تعلو فوق الركبتين، ما أن يخرجن من المدرسة وقبل العودة إلى منازلهن. وراحت موضة الساق العارية تثير مواقف مضحكة في المجتمع خاصة عندما تضم الجلسة الأم وابنتها معاً: تترصد الأم ابنتها وتشير إليها بنظرة حانقة أو بحركة من الرأس أو بتكشيرة شفتين صغيرة ملمحة إلى أن الفخذين مكشوفتان أكثر مما ينبغي وان من الأفضل أن تطوي الفتاة ساقيها وتعدل في جلستها. بل إن الجرأة في تقصير التنورة أضحت لبضع سنوات معياراً تتخذه عائلات الطبقة الوسطى لتقوّم من خلاله رزانة الفتاة التي انتقاها الإبن خطيبة له، وحافزاً على تبني هذا الاختيار او على التخلي عنه. أما في الشارع، وخاصة في الأحياء المكرسة للعمل والتسلية، فلم يعد هناك أي عائق يحول دون استعراض الجلد العاري، اللهم إلاّ الصدمة المعاكسة التي احدثتها التنورة «الماكسي» وهي أيضاً اختراع الموضة الغربية. وإذا كانت ظاهرة تعرية بعض أجزاء الجسد مثلت عند بعض الفئات الاجتماعية ظاهرة هدامة ومفسدة للأخلاق، فإن تعميمها السريع جعلها تبدو عادية وخفف من وقاحتها المزعومة في نظر سكان المدينة. لكن هذه الظاهرة بقيت بالنسبة للوافدين من الخارج أحد المؤشرات الأكثر وضوحاً إلى التميّز البيروتي الذي لا يمكن تصوره ولا في أي مكان آخر في المنطقة العربية، ولا حتى في القاهرة، كما يمكن تبينه من أفلام السينما المصرية في تلك الفترة، رغم إنها لا تحمل في الأصل حرصاً كبيراً على مثل هذه اللياقات ولعل الأفلام المصرية كانت تيمم أكثر فأكثر نحو لبنان تعقباً لتنورة الميني جوب البيروتية.

لم يكن حضور النساء في المدينة وأزياؤهن كل شيء. كان الاجتماع البيروتي يبرز مقاربة للدنيا آخذة

في الانعطاف. بدأ الاختلاط بين الرجال والنساء يعلن نفسه خاصة في صفوف الشباب. في المدرسة كان الاختلاط مقتصراً على بعض المؤسسات وخاصة البعثة العلمانية الفرنسية، لكنه ما لبث أن طاول النشاطات التي تجري خارج المدرسة وخاصة خلال التمارين على المباريات الرياضية. وفي المدينة، تجلى الاختلاط في موضة الذهاب إلى السينما او المقهى، وإن تكن «بنات العائلات» مضطرات لتحمل حضور مرافق موثوق به، كأخ وإبن عم نيط ظلماً بالسلطة العائلية حتى لو كان أصغر سناً. كانت الضغوط تخفّ في السن الجامعية، ولم يعد التردد إلى الملاهي الليلية أمراً استثنائياً وإن ظل معمولاً به وفق توقيت ساندريللا. وفي أي حال، بدا تطور الاختلاط الشبابي أمراً لا رجعة فيه وحدا بالعائلات لأن تتقبل طوعاً او كرهاً، السلوكيات التي كانت سائدة في المجتمعات الغربية قبل ثورة 1968. وما أن بدأت الثورة الجنسية تشد أوزارها حتى أخذت آثارها تظهر في لبنان، مع تفاوت يكاد ألا يلاحظ في الفئات العليا للطبقة الوسطى. وإن ظل تقديس العذرية ساري المفعول لدى القسم الأكبر من السكان لحوالي خمس عشرة سنة لاحقة[6].

أولوية الاستهلاك

كان التبدل في الذهنيات المتجلي بوضوح في سلوك النساء، ناتجاً من تفاعل المجتمع البيروتي مع محفزات الخارج. لم يعد الأمر متعلقاً، والحالة هذه، برغبة عقلانية في تقليد الغرب.

إن الرغبة في الاقتداء بالمجتمع الباريسي بقيت موجودة، وليس فقط لدى هؤلاء الذين كانوا على «اتصال بما يجري» لكن هذه الرغبة بدت في ذلك الحين وكأنها بديهية، متسلحة بيقين شرعيتها بالذات، بات لإدماج الحداثة الغربية في المجتمع البيروتي تقليد خلفه وآليات توسع نطاقه باطراد، يضاف إلى ذلك ارتكاسات يستدعيها استبطان سلوك آخر، آتٍ من مكان آخر، هو سلوك المستهلك.

وكما في أوروبا، أعلن المجتمع الاستهلاكي ظهوره في بيروت بقوة الأمر الاقع، وسرعان ما أصبح جلياً في المشهد المديني وتحديداً في وسط البلد وفي حي الحمراء الجديد المحفوف بالواجهات والمحتشد باللافتات والاعلانات المضاءة بالنيون. كانت بيروت تملك في الأصل ركيزة تجارية جيدة، هذا صحيح في إزاء محال اوروزدي – باك وهي أول مؤسسة مزودة مصعداً كهربائياً، انتصب بعد ستة عقود سنتر بيبلوس في مواجهة المرفأ بسلالمه الميكانيكية. في غضون ذلك، كانت مؤسسة أ.ب.ث. التي افتتحت في ظل الانتداب في قلب العاصمة قد عرفت نجاحاً كافياً لكي تفتح لها فرعاً جديداً في شارع الحمراء. وسعت مؤسسات أخرى متخصصة في الأثاث والأدوات المنزلية الكهربائية والاضاءة للافادة من مساحة كبرى للعرض لاجتذاب الزبائن الدائمين.

كانت الممارسات الاستهلاكية الجديدة ملحوظة أيضاً خارج المناطق التي يتركز فيها النشاط

الاقتصادي. أصبح البراد وفرن الغاز والغسالة والمولينيكس والجلاية تجهيزات أساسية داخل المنازل، كما أشار اكتظاظ السطوح بهوائيات التلفزيون إلى نجاح المجتمع المشهدي. وإذا كان أول سوبر ماركت قد ظهر فقط في النصف الثاني من الستينات، فإن التجارة في الأحياء أصبحت هي أيضاً متماشية مع ذوق العصر. في الشوارع السكنية المرتبة بدأت محال السمانة تتجاور مع مخازن النوفوتيه ودور الخياطين وصالونات التزيين الفخمة ذات الواجهات المزينة بالملصقات التي استوردها تجار مستحضرات التجميل من الخارج. كما أخذت بعض محال الألبسة النسائية الجاهزة تغير أمكنتها لتستقر في الأحياء السكنية من دون أن تخشى فقدان زبائنها.

اعتق المجتمع الاستهلاكي النساء من المهام المنزلية الشاقة وعزّز بذلك من طاقته في لبنان كما في العالم. والوقت الذي بدأت تكسبه النساء إثر تراجع أعمالهن المنزلية جعل انخراطهن في عالم العمل يبدو معيباً أقل من ذي قبل في نظر الرجال - وزاد تالياً قدرتهن على الشراء. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأكثرية الساحقة من النساء اللواتي لا يعملن واللواتي يملكن الوسائل المادية لاقتناء خادمة دائمة في المنزل، كانت ساعات الفراغ التي أتاحها وجود الأولاد في المدرسة مملوءة باهتمامات توسع من دائرة استهلاكهن، اما بطريقة مباشرة عبر التسكع أمام الواجهات والتمتع بالنظر إليها واما بطريقة غير مباشرة من خلال الإكثار من فرص الخروج من المنزل، وهذا يستدعي، حتى لو كان الأمر منحصراً بين النساء فقط، عناية دائمة بالمظهر، وتالياً تردداً متزايداً على صالات تزيين الشعر أو التجميل من دون أن ننسى الضرورة القاضية بتنويع الملابس. فمع التوسع المديني، انتقل طقس الصبحية السائد بين الجارات والقريبات إلى حيز المدينة الواسع، وصار يتطلب في أحيان كثيرة ركوب السيارة، مما يحول دون ارتداء الملابس على عجل. أما زيارة العصر، التي لا تستند إلى تقليد مماثل، فكانت تتطلب المزيد من الأناقة، حتى لو كان الغرض منها «بارتيتة» ورق اللعب. وإذا جاء المساء كانت الزيارة تعني الزوجين معاً، وليس بالضرورة لتلبية دعوة على عشاء - على الأقل في الطبقة الوسطى - إلاّ إن الخروج مع الزوج كان سبباً إضافياً للاهتمام بالمظهر. وحين كانت السهرة تعني خروجاً إلى الحيز العام، كالذهاب إلى المسرح أو المطعم، فوجب إعلان التعبئة العامة: ملابس فاخرة أو ما يشبهها ومحطة الزامية عند مزين الشعر من أجل «شينيون» أو على الأقل تسريحة سريعة **Coup de peigne**.

وكان الملبس النسائي يجسد أكثر من أي شيء آخر دخول الاستهلاك طور الدمقرطة. صحيح إن الميسورات من النساء بقين يتبضعن في باريس، لكنهن كن يستطعن تلبية حاجاتهن محلياً ومن دون التضحية بالنوعية، سواء من خلال بعض المحال الفاخرة ذات السمعة الثابتة أو باللجوء إلى خياطين وخياطات مرموقين[7]، وكان الرأي في المجتمع الراقي يضع في مقدمتهم الفريد محشي الحلبي الأصل والياس [خوري] «الباريسي»، نسبة إلى تعلمه الصنعة في العاصمة الفرنسية رغم كونه مناضلاً

شيوعياً، فيما كان الخياطون الأكثر تواضعاً ينقلون الموديلات المأخوذة من الصحافة النسائية الدولية. وجاء تقدم الملابس الجاهزة ليسرع الأمور، فلحقت بالمحال الفاخرة العائدة إلى فترة الانتداب كمية من «البوتيكات» القابلة لتلبية الطلبات من كل الفئات. ولم يكن الرجال ولا الأولاد أقل حظاً، إذ تخصصت في الملابس العائدة لهم اعداد متوازية من المحال.

صحيح أن هناك ميلاً دفع بعض المحال إلى تغيير امكنتها والانتقال إلى مناطق سكنية، لكن تركز المحال في الأسواق التي أنشئت في نهاية القرن التاسع عشر قرب السور الغربي القديم ثم لاحقاً في شارع الحمراء، وهو الواجهة الجديدة العصرية لبيروت، زاد الانطباع بأن المدينة أصبحت محكومة بمنطق الاستهلاك المسعور. وكان احتقان السير في هذين القطبين الرئيسيين للتسوق ضمان نجاح وصورة مضخمة لما تتصف به الحياة المدينية من فوضى وصخب. وكانت السيارة بصمة أخرى يطبعها المجتمع الاستهلاكي وسط المشهد المديني. ليس لأن زحمة السير كانت أكبر مما تشهده القاهرة أو دمشق أو بغداد، فالصخب الناتج من أبواق السيارات وصفارات الإنذار المتكررة لرجال الشرطة وهدير المحركات، ذلك كله كان يجعل بيروت عاصمة شبيهة بكل العواصم العربية الأخرى. لكن الشيء الذي كانت تتميز به بيروت عن باقي العواصم حتى الأوروبية منها، هو هذا التنوع الهائل في السيارات. في غياب الصناعة الوطنية، كانت استراتيجيات المستوردين وأسعار قطع الغيار وشهرة الماركات تتحكم بخيار المواطنين. وأكثر من ذلك كله، المركز الاجتماعي المقترن بموديل السيارة. تتصدر لائحة الوجاهة بعض السيارات النادرة كالرولز رويس وبنتلي ثم تليها سيارات الكاديلاك الأكثر عدداً، فيما كانت السيارات الأميركية العملاقة من كل ماركات مصانع ديترويت تمثل الترف العادي رغم انه تم حظر استيراد الفورد بعد حرب 1967 بسبب استثمارات الشركة في اسرائيل، وكانت بعض السيارات الاوروبية موضع تقدير خاص. باستثناء المرسيدس 600 المهيبة التي كانت تجول واحدة أو إثنتان منها في شوارع بيروت على الأكثر، فان سيارات المرسيدس لم تكن محبذة في تلك الفترة إلا لصلابتها ولم تتصدر اللائحة وتصبح مجسدة للمركز الاجتماعي لصاحبها إلا في ما بعد،هذا لاقتران صورتها بسيارة التاكسي الجماعية المخلعة. كانت الفولفو ضمن تشكيلة مشابهة، تفلح في أن تعكس صورة مزدوجة للصلابة والرفاهية في آن واحد. أما السيارات الفرنسية كسيتروان أو بيجو أو رينو أو حتى الفيات الايطالية فكان لها نصيبها هي أيضا من المشهد. وهنا، كما في كل مكان، كانت الفولسفاكن «الكوكسينيل» سيارة الشعب وإن واجهت السيارات الانكليزية الصغيرة من طراز «ميني» وهذا قبل أن تصل السيارات اليابانية وتقلب منطق السوق تماماً.

طاول هذا التنوع المدهش أيضاً محبي سيارات السباق. لم تكن مشاهدة السيارات الايطالية الجميلة في بيروت كفيراري ومازيراتي أو لمبورغيني أمراً استثنائياً. كذلك كانت سيارات لانسيا والفا روميو

والفيات كوبيه تسحر الباب السائقين الشبان الباحثين عن أسعار مقبولة وعن الاثارة الايطالية. وبدأت سيارات ب.ام.ف تخترق السوق قبل أن تصبح في الثمانينات هي المفضلة لرعونة السائقين. كما إن طواعية الميني كوبر وملاءمتها القيادة البهلوانية المتوحشة في الشوارع الضيقة - وخاصة نصف الاستدارة الشهيرة بواسطة كابح اليد - جعلت منها سيارة سباق في متناول الموازنات الأكثر تواضعاً. لكن السيارات الأميركية لم تكن غائبة عن هذه المجموعة: الفورد موستينغ وقد أصبحت أكثر اسطورية بعد مقاطعة 1967 والبونتياك ترانس ام التي كان هديرها الصاخب يوازي ضخامة الأجنحة ويجعلها محببة لدى «الشبيحة» الأكثر غروراً وادعاء. وإذا أضفنا إلى ذلك الدراجات النارية الضخمة كدراجات الكاوزاكي والهوندا، فان شارع الحمراء لم يكن يفتقر إلى شيء ليصبح أيام السبت بعد الظهر معرضاً كبيراً للرياضات الميكانيكية وحلبة تعرض فيها الأحصنة البخارية.

دنيا المجلات

لم تكن النفقات الملازمة للطقوس الاجتماعية الجديدة وقفاً على البورجوازية الكبيرة. وتماثلاً مع القاعدة الأساسية للمجتمع الاستهلاكي، كان العرض يحرك الطلب في جميع الأوساط. وكانت جميع الاسر، وإن كان حجم نفقاتها متناسباً مع مدخولها، توظف جزءاً من موازنتها لشراء الألبسة أو تجديدها أو شراء الأدوات المنزلية أو حيازة أسباب الرفاهية رغد العيش. كان الحجم المتزايد للطبقة الوسطى في بلد وفي مدينة محدودة ديموغرافيتها رغم كل شيء، ملائماً بشكل خاص لرواج المعلومات وتالياً لتطوير سريع لأشكال الموضة. وكان الاعلان المباشر أو غير المباشر يتكفل الباقي.

واتسعت المساحة التي تحتلها الحداثة الاستهلاكية باطراد من خلال التحول المتزامن لوسائل الاعلام. كانت الصحافة العالمية الناطقة باللغة الفرنسية واللغة الانكليزية تشكل جزءاً من العالم اليومي وخاصة في صيغة المجلات التي ازدهرت عقب الحرب العالمية الثانية. كانت الشريحة العليا من الطبقة الوسطى تتابع المجلات الفرنسية والأميركية المصورة والنسائية بعناية وانتباه كبيرين. كان لمجلات **باري ماتش** *Paris-Match* و**آيل** *Elle* و**ماري كلير** *Marie-Claire* قراؤها والمشتركون فيها وكانت معروضة بطريقة روتينية لفضول الجماهير في قاعات الانتظار عند الأطباء وأطباء الأسنان. أما الصحافة المحلية فقد واكبت حركة الاستهلاك المعاصر. كانت الصحف اليومية تولي مكانة كبيرة لاخبار المجتمع وكذلك المجلات المصورة. وقد كرست مجلة «ريفو دو ليبان» التي تأسست في باريس وعادت لتصدر في الوطن حيزاً خاصاً لصور الموضة والحياة الاجتماعية، العالمية والمحلية.

ما لبثت أن تبعتها مجلة أخرى في الخندق نفسه، **ماغازين** *Magazine*، الناطقة بالفرنسية التي تأسست عام 1960، وسعت لتستفيد من الموازنة التي خصصها مالكها للاعلانات وهو مستورد

كبير لمستحضرات التجميل والسلع الفاخرة. وأحرزت الوصفة نجاحاً كبيراً الأمر الذي دفع في ما بعد إلى صدور مجلة فرنكوفونية مختصة بالمنوعات الغنائية، **لو بيروتان**: *Le Beyrouthin* كما صدرت مجلة شهرية للسينما **سيني أوريان** *Ciné-Orient* واكتملت بذلك مجموعة المجلات الناطقة بالفرنسية، وبقيت اللغة الانكليزية أقل نفوذاً بكثير. لكن المجلة الاسبوعية **مونداي مورننغ** *Monday Morning* انضمت في السبعينات إلى الجريدة اليومية **دايلي ستار** *Daily Star* وبدت كأنها معدة لهذا المستقبل الباهر بفضل المزج بين الاهتمامات السياسية وأخبار الحياة الاجتماعية.

كان تطور المجلات العربية المصورة ملحوظاً أيضاً. صدرت مجلة «الصياد» لمؤسسها سعيد فريحة مستلهمة الصحافة المصرية وتضمنت إلى جانب المقالات السياسية صفحات تحفل بالأخبار الاجتماعية وكانت تلك بداية ما سمّاه الاعلانيون المحترفون «الصحافة البانارابـ». وكان لهذه التسمية ما يبررها ليس لأنها عبرت عن موقف ايديولوجي ملتزم قضايا العروبة بل لأنها استهدفت جمهوراً عربياً في بلدان عدة من المنطقة. وتولى صحافيون من مدرسة فريحة إصدار مجلتين اسبوعيتين سياسيتين **الاسبوع العربي** (الأخت التوأم لمجلة **ماغازين**) و**الحوادث**، اللتين راهنتا على صفحات أخبار المجتمع لكي تستميلا الجمهور العربي وتجتذبا الاعلانات. إن النجاح الذي احرزته الوصفة



العرض لاثارة الطلب.

الجديدة للمجلات المصرية دفع سعيد فريحة إلى عدم الاكتفاء بمجلة **الصياد** وجريدة **الأنوار** اليومية فأصدر مجلة للمنوعات الفنية تدعى **الشبكة**. حصرت هذه المجلة اهتمامها بالأحداث الفنية التي تجري في عالم السينما والأغنية العربية وتزعمت الصحافة العربية الفنية وصارت البقرة الحلوب لمجموعة **الصياد**، وما لبثت إن انضمت إليها مجلات متخصصة أخرى. وسعت مجموعة **النهار** وهي في أوج انطلاقها في الستينات وراء التنوع فأطلقت مجلة **الحسناء** وهي مجلة نسائية تطمح إلى تأسيس كتابة مختلفة من دون أن تتخلى، مع ذلك، عن صفحات الموضة والجمال. وظهرت مجلات أخرى متوجهة في غالبيتها إلى الجمهور النسائي واكتمل بذلك العرض الإعلامي في السبعينات.

ارتبط تطور صناعة المجلات بسوق اعلانية هي في طور النمو، وبدا هذا التطور ضامناً سريعاً لعائد الاستثمارات. وتطورت القدرة الاعلانية نفسها بفضل التجليات التي احرزتها تقنيات الطباعة والتي جرى استخدامها في بيروت. وهكذا احدث ظهور الأوفست في الستينات تطوراً واضحاً في الطباعة بأربعة ألوان وجعل استعمال اللون أمراً لا يتضمن مجازفة، على الأقل بالنسبة لاغلفة المجلات والصفحات الاعلانية الثلاث التابعة له. كما جرى حث الابداع الاعلاني من خلال جهود متلاحقة، لا سيما إن اتساع نطاق الصحافة العربية سمح باجتذاب موازنات الشركات الكبيرة المتعددة الجنسية.

وفي ما يتعدى التأثير الذي يحدثه الاعلان المنظم الذي يسعى إليه الزبائن والعائدات التي يؤمنها للصحف والمجلات، كانت الرسالة التي يحملها الاعلان تملك قيمة في ذاتها. القاعدة عالمية، إلاّ أنها ترتدي هنا بعداً اضافياً: فرغم أن المرجع هو الحداثة الاستهلاكية الغربية، فقوة التكرار التي تتضمنها الرسالة الاعلانية تنسي أنها كانت مستوردة. وتبدو عندئذ معايير الترف والراحة والجمال التي تروج لها الصناعة الاعلانية في الأصل كأنها تنتمي إلى البلد نفسه وتأتي وسائل الاعلام التي تظهر عبرها لتصادق عليها لا أكثر. كما كانت صفحات التحرير في المجلات، من خلال تموضعها في الاطار المرجعي نفسه، تعززه هذا الادماج للقيم وتشرّع، بأفضل شكل ممكن، الإقبال اليومي على طقوس الاستهلاك. وحتى حين كانت الصحافة العربية تستهدف قراء موجودين خارج الحدود اللبنانية، فإنها كانت تعمل أيضاً لصالح الدائرة المحلية للاستهلاك، من خلال إيحائها للسائحين المحتملين أن بيروت هي المساحة الكبرى حيث كل شيء متاح.

سينمات العالم

كان عالم المجلات يتقاطع على نحو واسع مع عالم السينما التي شكلت منذ العشرينات احدى النوافذ الرئيسية التي ترى منها بيروت العالم الخارجي. شهدت شبكة الصالات السينمائية، والتي لا مثيل لها في الشرق الأدنى كله، توسعاً مطرداً وكانت تضمن لزائريها أنها لن تفوّت عليهم أي شيء

مهم مما تنتجه هوليوود أو شينيشيتا أو باريس، وكذلك القاهرة بالطبع[8]. وأنشئت منذ الخمسينات صالات عدة في محيط وسط المدينة إلى جوار الصالات القديمة: «كريستال» و«اوبرا» و«امبير» و«روكسي». واعطيت الصالات الجديدة أسماء مقتبسة أيضاً من المتخيل الكوسموبوليتي: متروبول، ريفولي، غومون بالاس، بيغال، راديو سيتي، كابيتول. ولم تنجُ من التسمية الأجنبية إلا صالتان هما سينما دنيا وسينما شهرزاد. لكن ما يميز تلك الصالات فعلاً ليس وفرة عددها بل تصميمها المريح وتجهيزاتها التي كانت تؤمن أفضل ظروف لعرض الأفلام لا سيما أن الأفلام التي تعرض مستوردة بنسختها الأصلية (ومرفقة بالترجمة المزدوجة أي باللغتين الفرنسية والعربية).

كما تمّ تلقائياً استخدام سينما الشاشة العريضة. وامتدت لاحقاً حركة التوسع السينمائي لتشمل منطقة رأس بيروت فصارت مسرحاً مدهشاً لتكاثرها في الستينات وخصوصاً شارع الحمراء الذي سرعان ما غصّ بالصالات وباللافتات المضاءة بالنيون. إذ أنشئت خلال عقد من الزمن دزينة صالات وأعطيت جميعها، باستثناء أول صالة فتحت أبوابها وسميت «الحمراء»، أسماء مأخوذة هي أيضاً من المتخيل الغربي: الدورادو، كوليزيه، بيكاديللي، ستراند، بافيون، كومودور، سارولا (تيمنا باسم زوجة أحد المنتجين السينمائيين الكبار التي كانت تزور بيروت)[9]، اديسون، كليمنصو (اسم الشارع حيث أقيمت الصالة)، أورلي، فرساي، اتوال.



سينما الأمبير تعرض في العام 1965 فيلم هارلو من تمثيل كارول بيكر.



سينما الحمراء (إلى اليمين في العمق) في الشارع الذي يحمل الإسم نفسه.

لفتت المدينة المجهزة على هذا النحو انتباه الموزعين العالميين، ولم يكن نادراً أن تعرض أفلام اميركية قبل وصولها إلى الشاشات الباريسية. وكانت الرقابة على الأفلام أقل تضييقاً منها في البلدان العربية الأخرى، ولم يكن مقص الرقيب يقتطع إلاّ استثنائياً المشاهد التي يشاع إنها جريئة، مع أن هذا الاقتطاع أثار دوما اعتراضات شتى. صحيح أن بعض المشاهد الحساسة حذفت مثلاً من فيلمي «ساتيريكون» لفيلليني و«آخر تانغو في باريس» لبرتولوتشي، لكن الفيلمين عرضا في بيروت وأحرزا نجاحاً شعبياً يستحق الذكر. ثم إن الرقابة لم تحل دون انتشار السينما البورنوغرافية التي نتجت من التحرر الجنسي في أوروبا، وسرعان ما ارتدّت بعض الصالات تماماً إلى أفلام البورنو في مطلع السبعينات، فيما تخصصت صالات هامشية أخرى في الأفلام الهندية أو أفلام الكونغ فو. وهكذا كان يتم إرضاء جميع الأذواق. حتى أن السينما الطليعية، الأوروبية وغيرها، نالت حصتها من العرض بفضل نادي بيروت للسينما. وقد اتخذ مقراً له إحدى الصالات التي كانت تعرض في الوقت المتبقي أفلام ديزني وأفلاماً أميركية أخرى للأطفال.

شكّلت السينما وسيلة للترفيه، أي سلعة استهلاك، لكنها شكّلت أيضاً وسيلة اعلانية غير مباشرة متصلة بالعصر الاستهلاكي. سواء كان الأمر متعلقاً بطراز السيارة أو بموضة الثياب أو بوسائل الترفيه، لا يستطيع المشاهد أن يجد إلهاماً له أفضل مما تقدمه الأفلام وخاصة الهوليوودية منها، حيث



أحد ملصقات سينما – مسرح الكابيتول.

ترتسم صورة الرجل والمرأة المعاصرة بشكلها النموذجي. يكفي أن يعثر المشاهد من حوله على بعض العناصر المادية التي سبق له أن رآها عبر الشاشة، وهذه ما كانت عليه الحال في بيروت، لكي يعتقد بأن عالمه اليومي مطابق لـ«الفتنة» التي يشيعها نجوم السينما. لذا، كانت السينما تمنح الواقع صدقيته وشرعيته بدل أن يعطيها هو الصدقية والشرعية. كانت الشاشة تعكس المدينة نفسها وخصوصاً كما في الأفلام المصرية التي يجرى تصويرها في بيروت أو في الأفلام التي يصورها اللبنانيون على الطريقة المصرية، وإن تجاهلت التحولات العميقة للمجتمع أو أغفلتها.

وجاء انتصار الشاشة الصغيرة ليكون تأثيره أعمق من السينما بكثير فيعظم ويمجّد له ما كان عالم المجلات والاعلانات المرافقة لها يقدمه للمستهلك. بالطبع، لم يكن التلفزيون اختصاصا محلياً وإن كانت بيروت المدينة العربية الأولى التي بادرت لاكتشاف وسيلة الاعلام الجديد. كان التخصص متعلقاً فقط بالبرمجة التي تحركها المنافسة بين شركتين للتوزيع وكلاهما أنشئتا كما يمكن تصوره، بمبادرة فردية فيما أطلق التلفزيون في مصر عام 1960 في إشراف الدولة. كانت «شركة التلفزيون اللبنانية»، وهي الأولى التي أبصرت النور، تجمع رساميل فرنسية، وقد تأثرت إلى حد كبير بتجربة هيئة التلفزيون الفرنسي ORTF وهذه كانت تستقبل متدربين لديها بشكل منتظم أو توفد معاونين إلى بيروت[10]. وكرست للشركة احدى قناتيها للبث باللغة الفرنسية وهي اللغة التي كانت تستعيد المسلسلات المعروضة في باريس بفارق زمني بسيط. أما الشركة الأخرى، أي «تلفزيون لبنان والمشرق»، فكانت تضم شركاء بريطانيين. وقد ظهرت هاتان الحساسيتان ملياً لحظة انتقال التلفزيون



على موعد مع الجواسيس: الإغراء والخيال على الطريقة المصرية.

من الأسود والأبيض إلى البث بالألوان. كانت «شركة التلفزيون اللبنانية» الرائدة وباشرت البث بالألوان عام 1967 عندما اختارت نظام سيكام الفرنسي، انسجاماً منها مع القسم الأكبر من معداتها، فيما اختار «تلفزيون لبنان والمشرق» نظام بال الألماني (المعمول به في بريطانيا) بعد فترة قصيرة - وهذا الأمر لم يجر من دون مشاكل في الارسال كان يتعرض لها هؤلاء الذين يشترون أجهزة تلفزيونية بالألوان. لكن أيا تكن هذه الاختلافات التقنية فان الشركتين التقتا على عرض النوعية نفسها من البرامج التي تتضمن مسلسلات أميركية وأفلاماً هوليوودية أو مصرية، إضافة إلى ما ينتج محلياً من منوعات ومسلسلات درامية أو كوميدية[11].

لكن المفارقة أن الانتاج المحلي كان يبدو متعارضاً مع حداثة الجهاز. كانت المسلسلات الدرامية المؤثرة تصور غالباً بالأزياء القديمة أو سط ديكور من الخيم البدوية أو في قرية نموذجية غيبية (غير موجودة في الواقع). كما كان يتم استدعاء التاريخ العربي الكلاسيكي هو أيضاً. وحتى إذا أريد للحبكة أن تكون معاصرة، يبقى الديكور باهتاً وبعيداً عن الحياة المدينية وايقاعها الجنوني. ثمة مسلسل كتب له العمر الطويل يظهر زوجين من الريف يدعيان تجسيد الحكمة الشعبية ويمضيان الوقت على مر الاسابيع والسنوات في انتقاد العادات الفاسدة. أما البرامج الكوميدية فاتخذت المدينة اطاراً لها، لكنها مدينة خارج الزمن. لم تكن تشاهد في الحلقات الكوميدية التي يؤدي شوشو بطولتها، وهو الفنان الشعبي الكبير الذي يجسد البيروتي الأصيل، أو في تلك التي يحييها الثنائي السوري المؤلف من دريد لحام ونهاد قلعي، إنعكاساً فعلياً للحياة المدينية التي تشهد مكوناتها تحولاً جذرياً. وتوجب الانتظار حتى مطلع السبعينات لتتسنى رؤية مسلسل كوميدي يصور الصدمة التي يتعرض لها أحد الريفيين القادمين من الضيعة إلى بيروت لدى اكتشافه مظاهر الحياة العصرية. وفي

الفترة نفسها، ظهرت بعض التجارب الطموحة سعت بوحي من بول طنوس لأن تقتبس للشاشة أعمالاً ادبية وقد كتب لها النجاح، وخاصة «البؤساء» و«نساء عاشقات»، وهذا الأخير مسلسل مؤلف من حلقات درامية «جريئة» حالت الحرب دون إكمالها. غير أن الدراما بقيت في صورة عامة تقاوم الحياة المدينية.

إذا كان المتخيل التلفزيوني يرفض رؤية هذه المدينة وجهاً لوجه، فإن برامج الألعاب والمنوعات والحلقات عن الموضة والأحداث الثقافية الراهنة كانت تظهر المواطنين، ولو في صورتهم البراقة فقط، إلاّ إن بعض المحاولات جرت عشية الحرب فسعت إلى الخروج بالكاميرا إلى الشارع من أجل تصوير حلقات وثائقية - وقد برع مارون بغدادي في هذا الميدان منذ ذلك الحين - واستطاعت إن تظهر التحولات الجذرية التي يشهدها المجتمع. صحيح إن الانتاج المحلي كان يميل إلى اغفال التناقضات التي يحفل بها الواقع المعاصر، ويسعى إلى إعادة صياغة بلد خيالي، مثالي وغيبي، لكن التلفزيون نجح رغم ذلك في حث جمهور المتفرجين على تغيير نظرتهم إلى العالم المحيط بهم.

لكن الانعكاس الأهم للتلفزيون كان يتمثل في انه وضع في متناول الجميع - بصرياً - النموذج العالموي للانسان المعاصر التي تشيعه المسلسلات الأميركية العديدة بعدما ورثته عن السينما. طوال أيام الأسبوع كان حمام المسلسلات الأميركية يتكرر، في وقت أو آخر من السهرة وخلال بعض أيام الآحاد المكرسة ليوم تلفزيوني طويل حين كان الشبان يمضون أوقاتهم في مشاهدة جميع المسلسلات، الواحد تلو الآخر، بلا هوادة. لا شك أن الحلم الاميركي، كما سعى التلفزيون إلى تصويره، كان يؤثر في كل مجتمعات العالم الماثلة أمامه. وقد ارتدى هذا الحلم معنى إضافياً في المجتمعات التي تشهد مرحلة انتقالية حيث يتم استبطان انماط الاستهلاك، فأتاح المجال لتشريع التحولات التي تمر بها هذه المجتمعات عبر المقارنة التي تجريها مع المرجعية الأساسية التي تنتمي إليها هذه المسلسلات. ومن جهة أخرى كانت الأفلام الدعائية الأجنبية تجعل المتفرج يطمئن إلى أن استهلاك هذا المنتوج أو ذاك يمنحه فرصة التطابق مع مرجعيته الأصلية. وفي المقابل، كانت الإعلانات المحلية التي تتميز بجودتها تساهم هي أيضاً في إضفاء صدقية على الحلم الأميركي واصطباغه بلون محلي.

وأخيراً، بدت تقنية التلفزيون نفسها كأنها تأكيد لصدقية الحداثة. وقبل ظهور الفيديو وانتشار الصور المنقولة عبر الأقمار الاصطناعية، كانت نشرة الأخبار في التلفزيون، لا لشيء إلا لأنها تعرض ما يجري في الطرف الآخر من الكوكب وإن بفارق زمني قد يتجاوز بضع ساعات أو قد يصل إلى يومين، تضمن لنفسها انتشاراً متزايداً يفوق في تأثيره أي صحيفة يومية. ثم إن مشاهدة الوجوه الأليفة للصحافيين المذيعين العاملين في القناتين التلفزيونيتين، وبعضهم كان يعمل لصالح ORTF، وفي ريبورتاجات ومقابلات يجري تصويرها أحياناً في الخارج، كانت تعزز لدى المشاهدين الانطباع

بأن العالم كله صار ممكناً بلوغه بطريقة شخصية. وكما حصل في بلدان عدة، كان النقل المباشر الأول أمراً لا ينسى. والسبب وجيه إذ كان يتعلق بنزول أرمسترونغ والدرين على سطح القمر. صحيح أن موضوعات النقل المباشر التالي كانت أقل مشهدية لكنها ليست أقل إقبالاً من الجماهير: المباراة النهائية لكأس العالم في كرة القدم بين البرازيل وايطاليا في المكسيك والتي لم يشهد لها عالم الكرة مثيلاً او لقاء كلاي وفرايزر. عندئذ كان المشاهد البيروتي متأكداً من انه يصغي إلى الكون. لكن المشهد الذروة الذي لا يضاهى هو عندما شاهد في مناسبة انتخاب ملكة جمال الكون، العالم بأكمله مصغياً إلى بيروت.

الفصل السابع عشر

الليالي الحمراء والأسرّة الصغيرة البيضاء

ثم جاءت عروض الترفيه المتنوعة التي لا مثيل لها في الشرق الأدنى لتتوج انتصار المجتمع الاستهلاكي الذي تجلّى آنفاً في تجارة الألبسة والسيارات. وبالاضافة إلى دور السينما، بدأت المطاعم والمقاهي والملاهي الليلية تتضاعف في الأحياء السياحية الجديدة من بيروت وخارجها أيضاً إذ غزت صناعة الترفيه الساحل والجبل حول المدينة وأصبح نموذج الحياة البيروتية الصاخبة مصدر إغراء غير متوقع للقريب والبعيد.

وبفضل الطقوس الجديدة للاندماج الاجتماعي والتفاعل مع الآخرين وتعزز الطبقة الوسطى، تضاءل الاحساس بالمجازفة أمام المستثمرين في هذا الميدان. وبما أن النجاح يجر النجاح، كانت صناعة الترفيه تستطيع الاعتماد، بالإضافة إلى زبائن محليين ذوي قدرة شرائية عالية، على زبائن أجانب أيضاً. وقد ساعدت قدرة اللبناني على التحدث بثلاث لغات، على الأقل في أوساط الطبقات المتوسطة وبين العاملين في قطاع الخدمات على التواصل مع الزبائن الأغراب عن البلد. أما الأشقاء العرب القادمون من الخليج فزاد شعورهم بالغربة والانبهار في آن معاً أمام هذا البلد العربي القريب منهم جغرافياً والبعيد عنهم بنمط عيشه.

مهما تكن نوعية الخدمات فإن الانسحار الذي خلقه فن العيش هذا – على الأقل لدى هؤلاء الذين كانت تتوفر لديهم الوسائل لتذوقه- نابع بالدرجة الأولى من الاحساس الذي يخامر السائح بأن ما يراه أمامه ليس فقط لوحة جامدة من محترفي الخدمات، بل كائنات من لحم ودم مفعمين بالحيوية يحرّكهم حب للحياة الحلوة التي تميز بها أهل المتوسط ويجمعون بين الكوسموبوليتية والتراث العربي العريق في الضيافة. كان اللبنانيون هم الذين يصيغون فن العيش هذا أو يعطونه نكهته. وكانوا يجتذبون باستمرار الضيوف الأجانب ويأسرونهم بلطفهم لدرجة إن بعضهم اختاروا بيروت مقراً دائماً لهم لأنها توفر لهم كل ما يحتاجون إليه، لا بل كانوا يتمتعون بقدرة على الانصهار لا مثيل لها.

ما لذّ وطاب

لا شيء كان يجسد هذه القدرة التي تحلت بها بيروت على تحقيق رغبات السائح كفن الطعام، الصنيعة الكبرى للتألق البيروتي في مجال الملذات. والخلاصة هنا تتمثل في تعصرن المطبخ المحلي وتعايشه لا بل تفاعله مع التقاليد المطبخية الكبرى وجميعها موجودة في بيروت. فللمطبخ الفرنسي تقاليده المحلية منذ عقود وترتبط نسبة التقيد والوفاء للنموذج الأصلي بنوعية الزبائن المستهدف إرضاؤهم. وكانت للذواقة حصتهم بوجود مطاعم الفنادق الفخمة أو المطاعم الأخرى: مطعم شي جان بيارChez Jean-Pierre الذي انضمَّ إلى مطعم لوكولوس Lucullus القديم الذي انشى في فترة ما بين الحربين. ولكن مشارب الجعة الأقل فخامة كانت تقدم أيضاً «فيليه العجل ستروغونوف» Bœuf Strogonoff، ولفائف العجل على سبيل «الصحن اليومي» Plat du jour المكتوبة بالفرنسية على لوائح الطعام. على أية حال، كانت اللغة الفرنسية هي اللغة المرجع على قائمات الطعام، لا بل اللغة الوحيدة المعتمدة حتى عندما يتعلق الأمر بالثقافات المطبخية الأخرى. أما المطبخ الايطالي فبدأ في القرن التاسع عشر مع باتيستا، أول مطعم في بيروت ثم عاد ليحتل مكانه. في فترة كان المطبخ الايطالي يباشر غزو المدن والاذواق الاوروبية، وكان يمكن تذوقه في بيروت وتحديداً في مطعمي السباغيتريا Spaghetteria ورومانو Romano الواقعين في حي الفنادق المفعم بالحيوية عند واجهة البحر أو في بيلا نابولي Bella Napoli مقابل صخور الروشة. كذلك كانت الحال بالنسبة إلى المطابخ الآسيوية التي كانت آنذاك مجهولة في باقي بلدان العالم فيما كانت ممثلة في بيروت بمطعم هندي وصيني وياباني لاحقاً.

وعندئذٍ، بدأت تظهر أيضاً تباشير الاجتياح الأميركي للطعام. لم تكن مجموعة مطاعم الوجبات السريعة قد بدأت هجومها العالمي، باستثناء «كنتاكي فري تشيكن» التي كان لها فرعها المحلي في بداية السبعينات. وسرعان ما اعتُمد واقتُبس الهوت دوغ والهمبرغر والدجاج المقلي في المقاهي - المطاعم بدءاً بمطعم انكل سام Uncle Sam مقابل بوابة الجامعة الأميركية، ثم في سلسلة من المحلات الصغيرة. وهذه علامة لا تُدحض على التقدم الأميركي: ما خلا المطاعم الفخمة، كانت البطاطا المقلية تتخذ شيئاً فشيئاً الشكل اليانكي french fries الممزوجة «بالكتشاب».

ولكن هذه الكوسموبوليتية لم تؤثر على التراث المطبخي المحلي. وكانت بيروت، فيما يتعلق بالتذوق تمتلك تراثاً عريقاً من أصناف المأكولات بإمكانه أن يحدث قطيعة تامة مع كل ما هو غربي ويجعل الضيوف الآتين من الأمكنة القليلة البعد يقبلون عليه لأنه يحتوي على نقاط ارتكاز قوية تتعلق بالهوية المشتركة. وهنا تكمن إحدى الفضائل الرئيسية لبيروت وهي قدرتها على تكييف الذوق التركي - الجلي في الطعام مع المطبخ العصري. كما أضحت بعض المآكل التي تنتمي إلى المطبخ الكلاسيكي

البورجوازي والتي تستوجب تحضيراً منزلياً شاقاً، في متناول المستهلك دون عناء يُذكر، كورق العنب والكوسى المحمّرة والصيادية التي تُقدم عادة أيام الجمعة والمغربية والملوخية الملوكية، وكل أنواع المآكل التي أدرجت على قوائم الأطعمة. حتى في المطاعم التي تقدم قوائم طعام عالمية.

لكن قدرة البيروتي العجيبة على تلبية أذواق الزبائن أظهرت كل حيويتها في التقديم المنمنم للمازة، أي للمقبلات التي ترافق كأس العرق. وازداد عدد المطاعم المتخصصة في تقديم «كأس العرق» وهذه تسمية بسيطة تخفي وراءها تقليداً عريقاً طويلاً: تُزين الطاولة بكثير من الخضار النيئة والتوابل يضاف إليها مجموعة من الأطباق الصغيرة والسلطات، وقد يصل عددها أحياناً إلى العشرين، ومن ثمّ تُقدم أسياخ اللحمة والكباب، ويتوج كل ذلك، بعد انقضاء ثلاث ساعات إجمالاً، بترتيب آخر ليس أقل غنى عن سابقه وهو تقديم الحلويات والفواكه. التقليد، بحد ذاته، ليس غريباً ولا أيضاً الأطباق المقدمة فالمازة موجودة في جميع المناطق الممتدة من اسطنبول إلى يافا، مع بعض التنويعات الدقيقة التي تعكس اختلاف المشارب واستعداد الزبائن على تناول الكحول أو لا. أما السمة المميزة التي أضافتها بيروت بمساعدة زحلة، وهي المقام الرفيع لزراعة الكرمة وإنتاج العرق في البقاع، فهي لا تتمثل فقط في تقديم الأطباق التي امتاز بها أبناء جبل لبنان المشهورين بشرب العرق بل خصوصاً من إدخال تعديلات على الأطباق تزيدها جمالاً وزينة وأحياناً إضافة مواد خاصة تحدّ أو تزيد من درجة نكهتها كما يجري أحياناً استبدال بعض المواد الداخلة في صناعة الحلويات بمواد أخرى وابتكار أساليب جديدة في صناعة المشتهيات وأصناف الحلويات. ولا ننسى أيضاً التنظيم الداخلي للمطاعم التي لا شيء إلاّ اليسير النادر كان يجعلها تتميز عن المطاعم الأوروبية فالخدم الذين يزينون صدورهم بربطة البابيون وقوائم الطعام المفصّلة باللغتين... كل شيء يجعل من المازة المقدمة في بيروت لحظة اكزوتيكية أكثر سحراً، من غير أن تجافي أصحاب الذوق التقليدي في الطعام[1]. عبثاً حاول البعض نسبة «هذا التنويع السياحي للمطبخ السوري»، لكن التعديل الذي أدخله أبناء بيروت على ألأطعمة الحلبية السورية جعلت هذه الأنواع من الطعام معروفة في العالم تحت اسم «المطبخ اللبناني»، خصوصاً بعد ازدهار المطاعم التي انشأها اللبنانيون المهاجرون في أقطار العالم الأربعة – وهذه التسمية أي «المطبخ اللبناني» سيعتمدها أحياناً أصحاب الفنادق السوريون أنفسهم.

لم تكن المطاعم إلاّ حلقة في تطوير صناعة ملذات الفم والمتع المتصلة بها. من صاحب المطعم إلى الحانة الليلية، مروراً بالبارات والمقاهي، تمتد سلسلة من المهن التي من شأنها إرضاء الأذواق على تنوعها[2]، كمحلات السمانة المرهفة مثل «عزيز» أو «أرلكان» اللذين كانا يبيعان الزبائن كبد الوز والبط المسمّن ورقائق لحم «الغريزون» السويسرية.

وكانت هناك أيضاً الدكاكين التي تبيع الفلافل. ولم تكن الحلويات غائبة عن الساحة، فصانعو

الحلويات الشرقية نجحوا في توريث هذه المهن إلى أحفادهم كمحلات «البحصلي» التي أفادت من نجاح ديلون وبلموندو في فيلم «بورسالينو» لتعيد صناعة العجين بمسحوق الفستق وتقدمها تحت شكل غير تقليدي ولذيذ باسم «بحصلينو». وبالتزامن شكلت الحلويات الأوروبية قدوة للآخرين، من هنا نجاح «باتيسري سويس» و«نورا» الذي أدّى إلى انتشار هذا النوع من الحلويات في جميع الأحياء وبأسماء شهية: Pâte à Choux، Mille feuilles، Mont-Blanc، Eclair حيث كانت تُقدم هذه الحلويات، وأخرى أيضاً مطابقة لموضة باريس مع أنها أحياناً أكثر قشدة. أما المعجنات النمساوية فقد احتاجت إلى مزيد من الوقت لتفرض وجودها. وهذا دون شك بسبب منافسة المنقوشة بالزعتر والكنافة. لذا لم تبدأ المعجنات النمساوية بالانتشار إلاّ في مطلع السبعينات لكن هذا لم يمنعها من أن تُصنع وفق الذوق المحلي، في عودة للأمور إلى نصابها الصحيح* مع صناعة الكرواسان... بالزعتر[3]. وقد استغلّ أصحاب المقاهي الأصناف المشتقة من الحلوى الفرنسية ومن البيتزا النمساوية ليغنوا القائمة التي يقدمونها لزبائنهم.

وشهدت المقاهي تطوراً ملحوظاً زاد من عدد زبائنها. كانت المقاهي التي يؤمها الرجال حصراً معروفة منذ زمن طويل تحت اسم «قهوة الازاز»، وسميت كذلك لأن واجهتها من زجاج ولا يمتاز ديكورها بأي ميزة. كذلك أنشئت مقاهٍ أحدث عهداً في وسط المدينة وبدت كأنها مخصصة للرجال الذين يأتون من هذه المحلّة أو تلك من الأرياف وظهرت مقاهٍ جديدة بدأت النساء ترتادها كمقهى «لا روندا» على تخوم وسط المدينة الذي كان يؤمه الفنانون والمثقفون في الخمسينات ومقهى «الأوتوماتيك» في شارع ويغان و«كوسموس» على المحور ذاته وفي جو أقرب إلى فيينا منه إلى باريس. وبدت الاستراحة وكأنها تشكل جزءاً من مسار التسوق.

وفي الستينات، راجت موضة «فيّا فينيتو» Via Veneto التي مهّدت السبيل لأصحاب المقاهي بأن يستوحوا نموذج المقهى - الرصيف وخصوصاً على الكورنيش البحري المحاذي لصخور الروشة حيث كان مقهى «الدولشي فيتا» الذي يحتضن جميع المبعدين العرب المعارضين لأنظمة الحكم في بلدانهم، وأيضاً في شارع الحمراء البازغ حديثاً حيث افتتح «الهورس شو» في 1959 في الطابق الأرضي لأحد الأبنية الزجاجية وأنشئت قبالته أول سينما في الشارع. كان الهورس شو مقهى أدبياً. ثم انبعثت المقاهي الواحد تلو الآخر، «الكافيه دو باري»، في المبنى ذاته، و«الويمبي» و«المودكا» و«الأكسبرس». وطالت موضة المقهى - الرصيف الحي الجديد في بدارو حيث أنشئ مقهى «مانهاتن» و «بدارو إن»،

* يعود أصل الحلويات النمساوية إلى الحصار الذي ضربه العثمانيون على عاصمة آل هابسبورغ، عندما اكتشف أهالي المدينة الحلويات المصنوعة على شكل هلال (كرواسان) التي تركها المحاصرون في معسكراتهم بعد انسحابهم - كما اكتشفوا أيضاً حبوب البن.

ووصلت حتى مصيف برمانا وهو أحد المرابع الصيفية التي تعد امتداداً لبيروت.

في هذه الديكورات الحديثة، حيث «الكروم» هو المهيمن، كان الزبائن يأتون ليجعلوا أنفسهم تحت أنظار المارّة أكثر مما كان هدفهم الشرب. ولكن هذا لا يمنعهم من تناول الغذاء ولا من تذوق كوب من «الشوكولا مو» أو «البيش ملبا» أو إحتساء «شوكولا ساخنة» أو بيرة مضغوطة أو ببساطة فنجان قهوة لذيذ. وسجلت قهوة «الأسبرسو» الايطالية تقدماً ملحوظاً منذ إدخال الآلة الكهربائية التي تحضّر القهوة المصفاة وأول آلة من هذا النوع اقتناها صاحب قهوة في الشارع في باب ادريس وسط المدينة عام 1958. لاقت هذه القهوة إقبالاً منقطع النظير من قبل الزبائن تشهد له صفوف الناس الطويلة الذين ينتظرون دورهم، وتهافت أصحاب المقاهي في العاصمة على شراء هذه الآلة لإعداد «الاسبرسو» و«الكابوتشينو»[4]. ومع ذلك كان للقهوة التركية زبائنها الدائمون، وهي تُحضر من البن البرازيلي وتقدم عادة إلى الزبائن مع كوب ماء في جميع الأحوال، وكان الإقبال على المقاهي التي تقدم القهوة التركية يضاهي ارتياد الخمارات الذكورية ومقاهي الرصيف على الطريقة الايطالية، وشهدت القهوة البرازيلية تشجيعاً كبيراً شهد له القنصل «غيز» قبل انطلاقة بيروت منذ القرن التاسع عشر واجتذبت العدد الكبير من الهواة إلى مقهى شهير في الضاحية متخصص في تحضيرها وهو «نويفو برازيليا». كذلك ظهر ما يُسمى بالقهوة البيضاء ويجري تناولها بعد العشاء وهي إبتكار بيروتي محض ومصنوعة من الماء الذي يضاف إليه بعض ماء الزهر.

عروض الليل

ميز انتشار المطاعم والمقاهي على الطراز الغربي بيروت عن سائر مدن الشرق الأدنى. وكان المشهد الليلي أيضاً يُظهر فرادة بيروت. ولا شك إنها المدينة العربية التي ينيرها أكبر عدد من أضواء النيون وهي من هذه الزاوية على موعد دائم مع حلول الليل. لا شك إن غالبية الأحياء كان يسودها طمأنينة لا يعكر صفوها شيء، وحيث سكون الليل لا يعكّره إلاّ وشوشة الأحاديث ويقطعه دعاء المؤذن وتعطره نفحات الياسمين. ولولا الهبّات الآتية من البحر والحاملة معها روائحه، لكان الجو مشابهاً تماماً لدمشق. ولكن، ما إن يجتاز بضع مئات من الأمتار حتى نجد أنفسنا وسط مدينة تضج بالملذات. كانت بيروت الليل متمحورة حول قطبين، شارع الحمراء والواجهة البحرية، المغمورة باللافتات المضيئة والتي تضج بالبارات ومحلات الموسيقى فيما محيط ساحة البرج، الأقل ضجيجاً، يوفّر لرواده تسليات أكثر شعبية.

كان قطاع الزيتونة، على الواجهة البحرية في القرن التاسع عشر أحد أولى امتدادات المدينة نحو الغرب وترسّخ حضوره عقب إنشاء جادة الفرنسيين في ظل عهد الانتداب. اما دعوته السياحية



الواجهة البحرية ليلاً.

الملحوظة في نهاية الحقبة العثمانية فقد برزت من خلال إنشاء فندق السان جورج في طرف الخليج في 1933 ثم فندق النورماندي وكذلك «السيركل فرانسي». كان عدد من الكاباريهات تسعى، بعد أن اختارها جنود الاحتياط البريطانيون والاوستراليون خلال الحرب العالمية الثانية، لان تحاكي طقوس الليل الباريسي المقرونة بالملذات الحسية الشرقية. الكاباريه الأشهر كان « الكيت - كات» المنشأ في محلة «السيركل فرانسي» والذي بقي منارة الحياة الليلية في الخمسينات مع الكاباريهات المجاورة له بأسمائها الطموحة: «ليدو»، «أيف» و«إيليفان نوار»: لكن ظاهرة الكاباريه ستخلي الساحة لعلب الليل. أما الواجهة البحرية فقد استمرت في اجتذاب عشاق الليل في الستينات والسبعينات. بدأ بريق قاعات الزيتونة يذوي شيئاً فشيئاً وتحول زبائنها إلى طبقة أقل ثراء. فيما تصاعد نجم بار السان جورج وبار النورماندي واحتفظا بكل تألقهما، مما جعلهما يدخلان في الأسطورة المدينية بصفتهما أمكنة للدوائر السياسية وأوكار التجسس في آن. ولم ينتقل قطب الليل الجاذب إلاّ على بعد مئتي متر غرباً في شارع «فينيقيا» على مسافة أقرب إلى السان جورج وخلف فندق فينيسيا الجديد بصالاته الكبيرة المخصصة للاستقبال وكان البار التابع له في آخر البسين ومطعمه «البان روج» Paon Rouge المطلّ على البحر هو مطعم وعلبة ليل في آن معاً.

في تلك الأثناء بدأ شارع «فينيسيا» انطلاقته مع افتتاح علبة الليل الفخمة Les Caves du Roy، أو بكل بساطة Les Caves، وكانت مكان التقاء المجتمع الراقي البيروتي ونقطة التقاء لزبائنها المشاهير. وقد مرّ فيها مارلون براندو وبريجيت باردو ودايفيد نيفين وغيرهم الكثيرون. أضف إلى

ذلك الملهى الليلي «كريزي هورس» Crazy Horse وبجواره «اللوكي لوك» Lucky Luke اللذين يقدمان عروضاً ليلية. ومع انتشار موضة «اليي يي»، [أي الشبيبة المراهقة في الستينات]، فقد انضم إلى تلك الملاهي ملهى Stéreo Club وهو مرقص اجتذب زبائن أكثر فتوة وافتتح أبوابه منذ فترة ما بعد الظهر، فيما كان الـEpi Club يستقبل أحياناً مغنيين فرنسيين ومن بينهم فنانون كبار مثل كاترين سوفاج، Catherine Sauvage، ويرتاده راقصو التويست والجيرك. كما حفل الحي بالمطاعم كمطعم Grenier des artistes الذي كان مرتادوه يتباهون بكونهم مثقفين متمسكين بنمط الحياة الباريسي مع احتفاظهم بأناقتهم الدائمة[5]. لكن الهوس الانكليزي لم يكن غائباً عن الساحة مع ازدهار المشارب والمقاهي الانكليزية الطراز التي اجتذبت الضيوف الجدد لفنادق الفاندوم والبالم بيتش والمارتينيز وقدموس.

وبعد حي الزيتونة، تكرس تأصل الحياة الليلية في منطقة عين المريسة على الواجهة البحرية غربي بيروت. وعلى خط مستقيم يبلغ طوله خمسماية متر في الأعلى فوق تلة القنطاري أنشئ مرقصان: «الفليبر» Flipper و«الفلاينغ كوكوت» Flying Cocotte حيث كان الزبائن يرقصون أيضاً الجيرك. وكانت حلبة الرقص في «الفلاينغ كوكوت» تعلوها كرة كبيرة ذات أضلاع تمثل ذروة الاتقان في فن الديكور. والى هذين المرقصين، كان هذا الحي السكني يحوي مطعماً نمساوياً وقاعة سينما (كليمنصو) وهو متصل برأس بيروت، القطب الآخر للحياة الليلية. ربما كان ليل رأس بيروت أقل فخامة من ليل شارع فينيسيا ولكنه ليس أقل كوسموبوليتية مع غلبة انكلوساكسونية بسبب قربه من الجامعة الأميركية. لا شك إن قاعات السينما كانت تتقاسم تبعيتها أساليب الحياة على الطراز الفرنسي او الطراز الأنكلوساكسوني - وفقاً لتسمياتها - وكانت القاعة الصغيرة «شي اندريه» Chez André الكامنة في إحدى زوايا المباني لصاحبها الأرمني الوفي لعلاقته بفرنسا، تستقبل شارل أزنافور في كل مرة يصادف فيها مروره في بيروت. لكن الانكلوفونية كانت تتقدم بخطى حثيثة في بيروت. وإذا كان فندق نابوليون الواقع على مسافة قريبة من شارع جان دارك لا يزال صامداً، فكان عليه مواجهة التنافس الذي يلقاه من الفندق المقابل له «مايفلاور» حيث أنشئ المطعم الفخم «ديوك أوف ولنغتون» Duke of Wellington. وفي المربع نفسه افتتح في الطابق الأرضي لفندق ماربل تاورز مطعم ديكنزي الطراز «مستر بيكويك» Mr. Pickwick، وآخر اليزابيتي الطراز «روز اند كراون» Rose and Crown. ولا ننسى أيضاً «أنكل سام» مقابل الجامعة الأميركية. ولا شك أن هذه التسميات تظهر هيمنة اللغة الانكليزية على المكان. كما كانت هناك حانتان ليليتان أكملتا اللوحة في الجهة الأخرى من شارع الحمراء وهما «ألفن تويلف» Eleven Twelve التي تحولت فيما بعد إلى «ناين كلاودس» Nine Clowds و «جاكز هايدواي» Jack's Hideaway.

وليست اللافتات وحدها هي التي أدّت إلى اجتذاب الزبائن ذوي الثقافة الانكلو ساكسونية. ما إن يجتاز الزبون عتبة المشرب أو المقهى الانكليزي تتبادر إلى سمعه الأحاديث باللغة الأنكليزية، بدءاً بالموسيقى الصاخبة لاغاني البوب الأميركية أو البريطانية وأحياناً بعض موسيقى الجاز، أما المشروبات التي كانت تملأ الواجهات وتتداولها أيدي الزبائن فهي من الكحول ذات الماركات الأميركية المشهورة، كـ«البلادي ماري» Bloody Mary و«السكرو درايفر» Screwdriver و«ب – 52» B 52 و«لونغ آيلند» Long Island والكوكتيلات الأخرى التي سيطرت على أجواء الحانة، مكان العرق التقليدي. وبالمقابل، نجحت شركتا البيرة «ألمازة» و«لذيذة» في مواجهة المنافسة بالتعاون مع الماركات الهولندية.

ولم يغب عن الأذهان إطلاقاً ذلك التماثل بين مشارب الجعة اللندنية والمشارب البيروتية حيث تُقدم البيرة مثلجة لان المناخ يسمح بذلك، وحيث لا يجري التقيد بأي وقت رسمي للإقفال يقطع زهو الاحتفال المستمر فيها. وكمن أراد أن يختم هذا الجو بختم البلد الأصلي، سُجِّل وجود كثيف للزبائن الانكلوساكسونيين، لا بل كان هناك انكليز أشتهر منهم طيار بريطاني من شركة طيران الشرق الأوسط يعمل في البار تحت مروحة طائرة. كذلك كان معظم العاملين على بار «ناين كلاودس» وفي المشارب والمقاهي الأخرى من الطالبات البريطانيات اللواتي أتين ليبحثن عن رزقهنَّ في بيروت[6]. في بداية السبعينات، سيأتي دور الشابات الرومانيات. وقد ساهمت هذه الكوسموبوليتية، خاصة في بعدها النسائي، الممتزجة بتحرر في التصرف والعادات المنتشر بين فتيات بيروت خصوصاً، في أن تضفي على شارع الحمراء وعلى رأس بيروت «عنواناً» يتسم بالتفلت الأخلاقي، لا بل أحياناً بالفجور.

إن حي رأس بيروت الذي ازدهر بفضل تمركز الجامعة الأميركية لا يمكن اختزاله بالطبع الى عرين الفجور والدعارة كما شاءت العائلات التقليدية والأسطورة العروبية أن تصوّره. فالمكتبات كانت عديدة بعدد المقاهي وقاعات السينما. ومهما تكن هويته أو صبغته السياحية فهي لم تكن تتعارض مع وظيفته الدائمة كحي سكني وسمته طهرا نية «أنجيليي رأس بيروت» في ظل الانتداب وأضفى عليه أجواء الرفاهية استقرار عائلات عديدة من البرجوازيين الفلسطينيين اللاجئين[7]. وبالإضافة إلى هذه الوظيفة السكنية كان رأس بيروت مركزاً معاصراً للأعمال التجارية، بدءاً من إنشاء أول مبنى من الفولاذ والزجاج في شارع الحمرا، عام 1959، ولم تلبث تجارة الكماليات إن جعلت الشركات الكبيرة تستقرّ في هذا الحي وتتسبب في زيادة قيمة الأبنية والعقارات، ومهما حفل الشارع بالنشاطات النهارية، بقيت مكسوفة في نظر الناس إذا قارنّاها بالحركة الناشطة في الليل التي تتجلى بالسهرات الصاخبة.

أما شارع الحمراء فكان فريداً في العالم العربي بسرعة تحوله وكان نصف سكانه من الأجانب الذين

اجتذبتهم الحداثة إلى بيروت[8]. وبدا أن التسمية التي أطلقت عليه «شارع الحمراء» نابعة من فيض أنوار النيون التي تضيء لافتات المقاهي وقاعات السينما والمشارب والمقاهي بالإضافة إلى المظاهر الأوروبية التي تسم الأمكنة والنساء. لا شك أن قلة من الناس تتذكر بأن الشارع المذكور اقتبس اسمه ليس من اللون الأحمر بل تيمناً ببني الحمرا الفرس الذين كانوا يترددون على بيروت قبل اثني عشر قرناً. والنظرية الأخرى التي تربط التسمية بكثبان الرمل التي زرعت فيها بعد بأشجار الصبير، لا تصمد أمام دلالات اللون الأحمر. أما بالنسبة للأذن العربية، يبدو صحيحاً أن تطن تسمية شارع الحمراء مذكرة بشارع الحمراء في غرناطة. ومن هنا، فالتماثل وارد بينه وبين الأندلس الحافلة في ذهن الإنسان العربي بكل صور الملذات والمتع ونضارة العيش. وهكذا فإن «ليالي شارع الحمراء» يمكن تشبيهها «بالليالي الحمراء اللاهبة» التي توحي للناس بعالم من الشهوات. أحياناً كثيرة كان هذا العالم الصاخب المفعم بالشهوات يتعرض لحملات عنيفة من الصحافة تتحدث عن فضائح وممارسات مخلّة بالآداب العامة ومنافية للحشمة. لكن هذا الانتقاد كان يزيد من شهرة شارع الحمراء ويضاعف عدد رواده في آن، وقد عرض احد الأفلام الذي أخرجه أحد اللبنانيين للموضوع نفسه تحت اسم «قطط شارع الحمراء» في السبعينات.

على أية حال، أدت الهالة التي تحيط بالشارع إلى خلق التماثل بينه وبين كل منطقة رأس بيروت، وألحق به كل القطاع الذي يفصله عن الكامبوس الأميركي نحو الشمال، وأيضاً الطريق الموازية في الجنوب حيث ظهر فندق الكومودور والسينما التي تحمل الاسم نفسه وديسكوتيك «جاكز هايداواي». كما امتدّ شارع الحمراء شيئاً فشيئاً ليشمل الأزقة المزروعة تدريجاً بالبارات كبار «فينوس»، والتي تؤدي إلى الروشة حيث يقع القسم الآخر من الواجهة البحرية الذي بدأ ينمو مع مطاعمه التي تقدم المآكل اللبنانية والتي تطل على البحر بشكل كاشف ومطاعم البيتزا الايطالية كمطعم «بيللا نابولي» و«بوباي» Popeye. وقد شهد هذا القطاع ظاهرة السكن الانفرادي، والبرهان على ذلك هو توفر الشقق الصغيرة المفروشة المجهزة جيداً وأحياناً المترفة التي تتعايش مع ترسيمة المسكن العائلي وتتقاطع معه في آن[9]. كانت تدعى «ستوديو» تحتوي في الوقت نفسه على غرفتين صالحتين لايواء الأجانب وخصوصاً الطلاب الميسورين لجامعة بيروت الأميركية، وأيضاً العازبين الأثرياء من الشباب الذين يريدون القطيعة مع الشرنقة العائلية، وبذلك تصلح لما يُسمى «شقق العازبين». وهذا الدور الذي اضطلعت به هذه الشقق الصغيرة أكثر في ذيوع صيت شارع الحمراء كمكان ملائم لممارسة الجنس[10].

كان التعصرن الباهر لشارع الحمراء والغلامور المتلألأ لشارع فينيسيا يثيران شهوة الزائر، لكنهما لم يكونا في متناول الجميع. وتوجب بالتالي على البيروتيين الذين لا ينتمون إلى الطبقات الميسورة أن



أطلال السوق العمومي.

يرتدوا إلى ساحة الشهداء المهملة كثيراً في الستينات. كانت قاعات السينما لا تزال صامدة فيها قدر الامكان وراحت تتخصص أكثر فأكثر في الأفلام المصرية، لكن فنادقها القديمة تحولت إلى ما يشبه الأكواخ، وكانت محلات السندويش للشاورما والفلافل أكثر عدداً من المقاهي وكان زبائنها الليليين المبعثرين خير دليل على طابعها القديم. صحيح إن أضواء النيون تسطع فوق المباني ولكنها تحمل عناوين بعض الاعلانات وليس اللافتات. لذا بدت المدينة في الليل، بعد زحمة النهار المتوفرة، أشبه بالأحياء المرفئية لمدن الأساكل. وزاد في هذا الانطباع وجود حي البغاء على طول شارع المتنبي الكائن على الجهة الشرقية للساحة.

كان حي البغاء يشار إليه في الصحافة بتعبير مهذب وهو «السوق العمومي». أما التسمية الشعبية فكانت أكثر جلاءً «سوق الشراميط» أو أحياناً يشار إليه بـ «السوق» بكل بساطة. وقد عرف الحي أياماً أفضل في ظل عهد الانتداب وخلال الحرب العالمية الثانية، لكنه احتفظ مع ذلك بمسحة من الجمال حتى نهاية الخمسينات وأهم بيت فيه كان بيت ماريكا سبيريدون وهي قوّادة من أصل يوناني حطت رحالها في بيروت عشية الحرب العالمية. وفي بيت ماريكا كما في بيت بيانكا، كانت المومسات يوفرّن للزبون كل أنواع المتع الجسدية المدفوعة الثمن[11]: منهن البيضاوات والسودوات واليونانيات والسودانيات والمصريات والسوريات وطبعاً اللبنانيات[12]. وكل هذا من دون قيود ترهق كثيراً بنات الهوى. كانت القوادات الودودات واللطيفات كما يُفترض بهن أن يكن، يدركن كيف يكسبن احترام الزبائن ويستطعن الاعتماد على دعم بعض رجال الشرطة الذي يدفع لهم أجرهم لكي يصرفوا الزبائن المزعجين. ولم تكن الرقابة التي تمارسها السلطات متشددة كثيراً، لا بل ظلت استمراراً للرقابة التي

مورست زمن الانتداب وهي تقتصر على إجراء فحص طبي الزامي كل يوم خميس برعاية شرطة الآداب. أما في المسائل الأخرى فكانت القوادات قادرات على تجنب تجاوزات الشرطة بفضل علاقاتهن الجيدة مع الطبقة السياسية. ليس خافياً على أحد أن رئيساً سابقاً للمجلس اعتاد على عقد لقاءاته في صالون ماريكا لان زوجته المتشددة لم تكن تحب أن تستقبل رجالاً كثراً في بيتها، وقد حذا كثيرون حذوه. من جهة أخرى، كان الرجال الذين يرتادون هذا المكان وكأنه بيتهم المفضل، إنما يفعلون ذلك بكل بساطة لممارسة الحب دون مشاكل وأيضاً لتمضية الوقت باحتساء كأس من الخمرة أو اللعب بالورق.

وما لبث أن ولّى عمر الدعارة البريء. فنمو المدينة زاد من قيمة العقارات وتولّى فيه الشأن الاقتصادي مهمة انقاذ الأخلاق. كانت غالبية العقارات الموجودة في شارع المتنبي ملكاً للكنيسة المارونية وبعض عائلات الأعيان. وشاء مالكوها أن يستثمروها بشكل لا تتعارض مع الأخلاق ويدرّ عليهم المزيد من الأرباح. وهكذا، عند نهاية ولاية الرئيس كميل شمعون، أدّت الضغوط السياسية إلى التوقف عن إعطاء رخص جديدة ضرورية لانشاء بيوت الدعارة، وفقاً للنظام الساري المفعول المستوحى من النموذج الفرنسي الذي يعود إلى ما قبل مارت ريشار Marthe Richard [13]. لكن الاجراء الذي اتخذ كان له مفعول سلبي على صعيد النمو العمراني. ثم إن القوادات ونزلاءهن لم يصل بهم الأمر من العجز لينطفئوا بالسرعة التي أرادها لهم البعض. لذا بقي حي البغاء قائماً ولن يوقف نشاطه إلاّ مع اندلاع الحرب الأهلية عام 1975 ولن يُهدم إلاّ في 1983 خلال احدى فترات الهدوء بين جولة عنف وأخرى. في غضون ذلك، فقد الحي زهوه منذ مطلع الستينات، ولم يعد يؤم شارع المتنبي إلا القاصفون المفلسون والبحّارة العابرون والمراهقون المتلهفون إلى وداع عذريتهم كما روى سليم نسيب في كتابه «المتخفي» *Clandestin*، متوقعاً قبل الأوان أفول ساحة الشهداء.

وارتد الزبائن البورجوازيون لبيوت الدعارة على شبكات الدعارة التي تحميها أجهزة بوليسية وقضائية رفيعة المستوى كشبكة دعارة السيدة عفاف التي كانت موضوعاً لفضيحة عارمة في 1959. أو كان البورجوازيون يؤمون الكاباريهات التي كانت في طور النشوء في الزيتونة. وفي هذه الأثناء راجت ظاهرة المومسات، اللواتي دُعين بـ«الأرتيستات» أي النساء المأجورات في الحانات والمراقص ومعظمهن من الأوروبيات. لم تعد الدعارة تكشف عن مكانها بشكل مباشر بل أصبحت مهنة محترفة ولم تعد تقتصر فقط على تجارة الأجساد بل وأضيف إلى دور المومسات مهمة استدراج الزبائن إلى استهلاك أكبر قدر ممكن من الكحول. وأدرك قوّادون مستقلون أن هذا التطور يأتي على حسابهم ورأوا أنفسهم مبعدين عن ضواحي الزيتونة ووجب عليهم الارتداد إلى ساحة النجمة حيث عليهم أن يصطادوا بأنفسهم الزبون. ولكن يبقى صحيحاً أن دعارة الحانات، بإطارها الكوسموبوليتي،

كانت تواكب الوجه الجديد للمدينة أكثر من البيوت القديمة الموروثة من عهد الانتداب.

مرتقى الرياضة

لا شك أن بيروت كانت أبعد من أن تختزلها ظاهرة الفساد التي تعرضت للنقد من قبل البعض وأثنى عليها البعض الآخر. إذ كانت هناك مُتع مجلّلة كثيرة تكمل حملة الخدمات التي توفرها المدينة في مجال مستوى العيش... إن لطف المناخ والبيئة الطبيعية التي كانت لا تزال سليمة نسبياً آنذاك على الساحل شمالاً وجنوباً وفي الجبل المطل... تسمح باستغلال أوقات الفراغ وممارسة الرياضة البدنية في الهواء الطلق.

وبما أن مساحة البلاد صغيرة، أفادت العاصمة من نمو المصايف القريبة منها، رغم إنها زاحمتها في قسم كبير من روادها، ومن انطلاقة النشاطات البحرية وممارسة الرياضة. كما ساهمت بعض الرياضات المجهولة في سائر بلدان الشرق الأدنى في إبراز الطابع المتغربن لبيروت بشكل خاص وللبنان بشكل عام.

وباستثناء المدينة الرياضية الكبيرة التي بُنيت في ضواحي بيروت في ظل عهد كميل شمعون – وأعطيت اسمه – بهدف استضافة الدورة العربية للألعاب الاولمبية عام 1975، كان البلد يعاني نقصاً في التجهيزات وبقيت الرياضة متخلفة بشكل عام. وللحال، اتجهت الأنظار في الأوساط الشعبية إلى ممارسة الألعاب الرياضية الأقل شهرة والتي لا تتطلب وسائل مكلفة كالمصارعة ورفع الأثقال وهما الرياضتان اللتان جعلتا لبنان يفوز بميداليات أولمبية نادرة في هلسنكي أو ميونخ – وبالاضافة إلى رياضة كمال الأجسام. ولم تحظ الملاكمة الحرّة باهتمام عامة الشعب مع أن مغامرة كاسيوس كلاي الذي أصبح فيما بعد محمد علي كلاي أثارت حماسة الناس في لبنان وفي البلدان العربية الأخرى. وشهدت رياضة ركوب الدراجات فترة ركود بعد التألق الذي حققته زمن الانتداب. وانتشرت في المدارس وفي القرى رياضة الكرة الطائرة إلى أن استدركتها كرة السلة وسجلت نجاحاً أكبر من سابقتها. أما رياضة كرة القدم فقد حظيت هنا كما في كل مكان بشعبية عالمية وجعلت الجمهور البيروتي، خلال المبارايات الدولية الكبرى، يبدي حماساً لا يقلّ عن حماس الجمهور في الدول المعنيّة بكرة القدم بفضل الراديو والتلفزيون. على إن عدم تأهيل الملاعب وغياب الاحترافية لم يمنعا من الإقبال الشديد على تلك اللعبة الأمر الذي أدى بفريق النجمة، بطل لبنان ومعبود أنصاره من المسلمين، من أن يهزم في المباراة الودية فريق أرارات القادم من أرمينيا السوفياتية الذي أحرز لقب بطل أوروبا. باستثناء هذه المباراة وزيارة بيليه ملك كرة القدم لبيروت، كانت الحظوظ شبه معدومة في رؤية كرة القدم تتألق من بيروت وكان من المتعذّر أن تبلغ بيروت في عالم الرياضة ما بلغته في صناعة الترفيه ونشر الثقافة.

وعلى هامش الرياضة، حافظت رياضة سباق الخيل على خصوصيتها البيروتية لأنها كانت المدينة الوحيدة في آسيا العربية التي لا تزال تملك ميدان سباق حتى لو تعاظم جمهوره ولم يعد يقتصر على تلك الحلقة من الطبقة الاجتماعية الراقية بنسائها الأنيقات المرتديات القبعات الجميلة بالإضافة إلى أثرياء دمشق. وما خلا مالكي الحظائر، أخذت البورجوازية الكبيرة تهجر ميدان السباق لأنه بدأ يتحول إلى هواية شعبية وبدت ألعاب الكازينو أكثر إغواء من رهانات الخيل. وشهدت المصارعة الحرة، وهي أقرب إلى الميوزيك هول منها إلى الرياضة، تطوراً مماثلاً في فترة زمنية قصيرة. ولم تتردد المصارعة الحرة عن ان تسم نفسها بسمة باريسية، بمناسبة مرور أحد أبطالها في إحدى القاعات الفرنسية، لكنها لم تجتذب الأوساط الأكثر تغرباً إلاّ بشكل عابر بالرغم (أو بسبب) من انتشار التلفزيون والسينما الشعبية. وكانت كل هذه النشاطات تساهم ولا شك في تسارع عملية تعصرن المجتمع اللبناني. هذا لا يمنع، ومن خلال مفارقة نموذجية عن اختيار بيروت للمظاهر البرّاقة من أن تكون الألعاب الرياضية التي لا قاعدة شعبية لها هي التي أبرزت الوضع المميز للمدينة في الشرق الأدنى.

إن مقارنة الصفحات الرياضية في الصحافة الفرانكوفونية، بقرائها الأكثر ثراءً إجمالاً، بالصحف العربية، تبدو في هذا المضمار معبّرة. كانت عناوين الصحافة الصادرة بالفرنسية تهمل ذكر رياضة الكرة على أنواعها وتتجاهل عن عمد الانتصارات اللبنانية النادرة في ألعاب القوى فيما تُعنى عناية كبرى بالألعاب الرياضيةالاقل شأناً التي تمارسها أقلية صغيرة، ليس لان المباريات في هذا المضمار تقارب المستوى العالمي بل لأن الألعاب الرياضية التي يمارسها أصحاب النفوذ ترضي غرور النخبة الاجتماعية باعتبارها حكرٌ عليها وحدها مما يمنحها الشعور بأنها تحتكر لنفسها التغطية الإعلامية في الصحافة المترفة.

كذلك بدت ممارسة التزلج الألبي تأكيداً واضحاً على التفاوت الاجتماعي وفي الوقت نفسه سمة تميز لبنان عن سائر دول المنطقة. فبعد مركز التزلج في الأرز، شمالي البلاد، جُهزت أعالي كسروان والمتن القريبة من بيروت بمدارج وتليسياجات، وبدت قرية فاريا، على نحو خاص، أشبه بنسخة مصغرة عن أجمل احياء العاصمة بشاليهاتها المبنية وفق الطراز السويسري ونُزُلها وحانتها الليلية واعتمادها الأسلوب الفرانكوفوني. وأيضاً كان نخبويا التردد على نادي الغولف بالقرب من مطار بيروت حيث فاق عدد الأجانب الذين من أصل انكلو - ساكسوني عدد المنتسبين المحليين للنادي. ومثله التردد على نادي الفروسية، وهو الميدان الوحيد في البلاد المحصور بأولاد الأثرياء، اما الفروسية في سوريا فقد نمت بعد ذلك بفترة قصيرة ولكن انطلاقاً من نوادي الضباط.

وبالرغم من أن رياضة التنس كانت أكثر انتشاراً، إلاّ أنها هي أيضاً لم تتحول إلى رياضة شعبية. وباستثناء البطل الذي كان جامع كُرات سابق، كان اللاعبون المنخرطون في هذه المباريات وهواتها

من الأوساط الميسورة. لا شك إن التنس، كما في سائر دول العالم، بدأ يشهد إقبالاً جماهيرياً واسعاً وأخذ ينتشر بشكل أوسع بفضل عروض المباريات التي ترعاها الشركات الكبيرة وخصوصاً دورة برمانا التي كان يدعى إليها في كل عام محترفو السلك العالمي ولاعبون من الدرجة الثانية. قدم إلى لبنان في مطلع السبعينات، بطل رولان غاروس العتيد إيلي ناستاز Ilie Nastase. لكن ملاعب التنس، القليلة العدد والموجودة جميعها في الهواء الطلق لم تكن مفتوحة إلا أمام المنتسبين القادرين على دفع قيمة الاشتراك الباهظة، مما حدّ من انطلاقة هذه الرياضة. وكذلك كانت رياضة سباق السيارات الناشئة تعمل وفق المعايير الاجتماعية نفسها. وقبل أن يصير لهذه الرياضة متعهدوها، كانت سباقات الساحل والراليات التي تضاعف عددها في نهاية الستينات توجب أو تفرض على السائقين أن يعمدوا هم أنفسهم إلى تمويل رياضتهم، بدءاً بتحسين أداء السيارة. وكانت التنويعة الثقافية للرالي - بايبر، وهي أحياناً وسيلة للوصول إلى عالم الراليات بكل بساطة، مقتصرة على الفئة الفرانكوفونية التي تسم المجتمع اللبناني الراقي.

وكانت ألعاب القوى تعكس هي أيضاً التمايز الاجتماعي باستثناء السباق البحري الطويل وسباق الجبل حيث غالبية الأبطال الفائزين فيها ينتمون إلى الطبقة الوسطى العليا والى البورجوازية الكبيرة. أما الناديان الرئيسيان في البلاد فكانا تابعين للمدارس التي تديرها الرهبانيات كمدرسة الرهبان المريميين (الشانفيل) ومدرسة سيدة الجمهور اليسوعية التي كان ملعبها أول ملعب يجهز بالترتون (وهي مادة صنعية تفرش في حلبات العاب القوى). وكان العديد من الأجانب، وخصوصاً «فرنسيي المشرق»، يشكلون جزءاً من الهيئة التعليمية لمادة الرياضة، وقد حثّ وجودهم الطبقات العليا من المجتمع، لا سيما في مكوناتها المسيحية، على المضي قدماً في تقليد أوروبا.

لكن التغربن المعلن للرياضة والإقبال الشديد عليها من جانب أبناء بيروت كانت تعكسه أكثر من أي شيء آخر انطلاقة أنواع الرياضة البحرية، كما تعكس الفوارق الاجتماعية التي تكمن خلفه. وهنا، التفاوت الاجتماعي كان واضحاً، فمباريات السباحة البحرية والغطس من أعلى صخور الروشة كانت من اختصاص الطبقة الشعبية في بيروت وعلى وجه أخص، الشبان السُنة القاطنين في الأحياء القريبة من الشاطئ، فيما التزلج المائي وسباق اليخوت والسباحة في البرك كانت حكراً على الأغنياء مع هيمنة غالبية للمسيحيين. ويُستدل على ذلك من أسماء النوادي الرنّانة الموروثة من عهد الانتداب Oiseaux des mers (طيور البحار) الموجود في المسبح الفرنسي Les enfants de Neptune (أبناء نبتون) الذي شمل نشاطه أيضاً كرة السلة. وكذلك بقيت غالبية الأبطال المحليين في رياضة السباحة وفي البولو المائي من العائلات المسيحية الثرية، مع انه سُجل في مطلع السبعينات بداية اختلاط اجتماعي وطائفي. وفي غياب التجهيزات العامة. ظلت الرياضة حكراً على الطبقة الميسورة وباستثناء المدينة

الرياضية التي كانت أحواضها مخصصة للمباريات، فان البرك كانت موجودة في المسابح الخاصة والدخول إليها حكر على المشتركين. وهذا انعكس سلباً على أداء السباحين لان تدربهم كان ينحصر في فصل الصيف. ولم يكن في بيروت إلاّ مسبح مسقوف واحد انشأته الشبكة المحلية لجمعية الشباب المسيحي الاميركية YMCA. كذلك كانت حلقة هواة التزلج المائي وسباق اليخوت محدودة جداً، وكان مركزهما الوحيد نادي السان جورج لليخوت الموجود في مسبح الفندق نفسه. وفي الواقع، كانت الدورات الدولية للتزلج المائي تجري فيه منذ الخمسينات بما فيها بطولة العالم التي احرزها أحد اللبنانيين. لكن هذا التفوق كان يعني في نظر الجمهور حدثاً عالمياً أكثر منه تجلياً رياضياً. وقد وسّع المرفأ السياحي في الكسليك، الذي بُني في إطار سياسة إنماء كسروان وهي المنطقة التي ولد فيها الرئيس فؤاد شهاب، من امكانيات ممارسة هذه الرياضة في الستينات لكنه لم يخلق لها مشجعين في صفوف الجماهير. وفي بادرة تمثل سياسة اللامساواة اللبنانية، منح حق امتياز مساحة المرفأ وبركة السباحة الاولمبية وملاعب التنس والمطعم، أي كل هذه المساحة التي بُنيت من المال العام، للنادي اللبناني للسيارات ونادي السباق اللبناني اللذين يحق لهما استثمار المرفأ لمدة 99 سنة ولم يقبل المتنسبون إليه مدى الحياة إلاّ بأعداد محدودة.

الشاطئ في المدينة

لم تحدّ نخبوية الرياضات البحرية من اتساع الظاهرة الاجتماعية والمدينية المتمثلة في ممارسة السباحة وتقاليد البرونزاج التابعة لها. وترسخت هذه الظاهرة في الفترة الواقعة بين الحربين بشكل لافت بفضل تزايد عدد مراكز الاستحمام. آنذاك جرى ترويض البحر، ليس فقط من قبل ساكني الأحياء القريبة من الشاطئ والطارئين من الأجانب. هنا أيضاً لعبت بيروت على وتر خصوصيتها مقارنة مع البلدان الأخرى في المنطقة. لا شك أن الساحل السوري حول اللاذقية تحف به أجمل الشطآن، لكن غياب التجهيزات لم يكن يسمح باستقبال عدد كبير من المتمتعين بالعطلة الصيفية. أما الاسكندرية فكانت تعيش فترة أفولها، وخليج العقبة، على البحر الأحمر، البعيد جداً عن المراكز السكنية الأردنية لم يكن يجتذب إلاّ شريحة بسيطة من المجتمع المحلي. أضف إلى ذلك أن سكان العواصم في هذه البلدان يتوجب عليهم برمجة عطلتهم تقريباً لكي يستطيعوا الانصراف إلى ممارسة رياضة البحر. أما في بيروت فيكفي ان تجتاز بضعة كيلومترات انطلاقاً من ضواحي المدينة كي تجد شواطئ رملية آمنة. لا بل يمكنك إذا شئت الاستغناء عنها والاكتفاء ببرك السباحة المنشأة على الخلجان في غربي اللسان البحري. وفي معظم الأحيان، يحتاج الأمر إلى بضع دقائق ليس أكثر للانتقال من حي الوسط التجاري إلى المسبح.

وكما في الثلاثينات، استمر مسبح السان جورج الذي أضيف إليه مجمع بحري وشاليهات مسبح السان سيمون خارج جدران المدينة محطّ أنظار الطبقة البيروتية الراقية، على الأقل، حتى ظهور نادي اليخوت ATCL في الكسليك، فيما احتفظت المسابح الأخرى في عين المريسة التي أنشئت حول السان جورج في الفترة نفسها، بروادها ثم الحق بها مسبح «السبورتنغ كلوب» الذي أنشأه أحد المتعهدين الفلسطينيين في كنف صخور الروشة وأضحى المكان المفضل لرواد الشريحة العليا من الطبقة الوسطى ومن المثقفين، ثم «اللونغ بيتش» المجاور له الذي ربما أضفى، ببركه الثلاثة وجوّه العائلي، طابعاً ديمقراطياً على السباحة، وهو الأول من نوعه في البلاد.

كان اللونغ بيتش ملكاً لعائلة سنية في المدينة ويمثل، بالرغم من التحفظات على الدخول وتعريفة الاشتراكات، انفتاحاً على البحر بالنسبة لجمهور من الأجراء المتوسطي الحال المنتمين إلى مختلف الطوائف اللبنانية، كما شكل المدخل الذي عبرت منه الطبقة البورجوازية الوسطى السنية إلى الألعاب الرياضية البحرية. وكذلك، إجتذب مسبح فندق الريفييرا على الطرف الغربي من اللسان البحري زبائن أكثر كوسموبوليتية، كبيسين الكارلتون في الجنوب الذي عوّض عن بعده عن البحر بمنظر بانورامي فريد من نوعه يشرف على الروشة والمسابح الشعبية التي لا تستوفي شروط السلامة العامة في الرملة البيضاء.

والى أقصى الجنوب، بعد فندق الكورال بيتش الذي يحتوي عند أطراف المدينة على مركز سباحة حول بيسينه، تبدأ منطقة الشواطئ الرملية التي وضعت اليد عليها بطريقة غير شرعية انطلاقاً من «الكوت دازور» في البيتش كلوب مروراً بالمسابح الرائدة، السان سيمون والسان ميشال وأكابولكو والريفييرا بيتش، لتحاذي بساتين الموز الساحلية في خلدة.

ولم يكن الأمر مماثلاً في شمال بيروت حيث أعاقت مشاريع توسيع المرفأ استثمار ساحل المتن الذي



السباحة في المدينة: السبورتينغ كلوب بالقرب من صخور الروشة.



مسبح السان سيمون.

ظلّ مغلقاً بوجه المستثمرين. ولم تجد المشاريع السياحية أرضاً لها إلاّ إلى الشمال من مصب نهر الكلب، وعلى مراحل متقطعة. أنشئ «الهوليداي بيتش» عند منفذ النهر و«لاغون» على الواجهة البحرية لجونية ثم «طبرجا بيتش» الذي حظي بشهرة واسعة في جوار الكازينو، وما لبث إن انضمت إليه على مسافة أعلى منه ورشة «الأكوا مارينا» الضخمة. وعلى مسافة أبعد «الكينغ بارجيس» والسانتا تيريزا بلايا، عند مشارف جبيل. تبعد هذه المسابح مسافة نصف ساعة فقط عن العاصمة وأحدثت تطوراً هائلاً في مراكز الاستجمام التي ستساهم، خلال الحرب المقبلة، بإنماء اقتصاد كسروان وبمجزرة على الصعيد البيئي في الوقت نفسه.

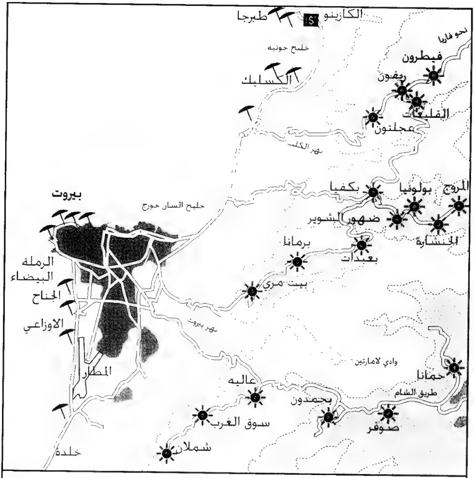
آنذاك، كانت الأضرار البيئية، على ساحل بيروت لا تزال محدودة-وأقل ضرراً بالطبع من التشوه العمراني الذي طرأ على باقي أنحاء المدينة. وفيما يتعدى الآثار السلبية على البيئة، بلغت التعديات وعمليات وضع اليد على شاطئ البحر أقصى حدودها ومعظمها غير شرعية أوسدّت المنافذ على المواطنين المعدمين ومنعتهم من الاستمتاع بالبحر ثم عمد أصحاب المنتجعات البحرية إلى إغراء المواطنين في ارتياد مياه البحر بكل الوسائل الإعلانية المتاحة. لذا، لم يعد أمام الفقراء سوى إرتياد

بلاجات «السان بلاش» أي الذهاب إلى الرملة البيضاء حيث حصلت حالات غرق متكررة ثم انشئ «مسبح شعبي» مؤقت في بداية السبعينات، أما الخيار الآخر المتاح فهو الذهاب إلى شاطئ جونيه المكسو بالحصى. لكن هذه الحشود المتمتعة بالعطلة الصيفية والتي كانت تغزو أيام الآحاد الشواطئ والخلجان غير المحمية وتزرعها بالمظلات ذات الألوان الصارخة، تشهد، بالإضافة إلى زبائن النوادي المقفلة من أبناء الطبقة الميسورة، على الشعبية المتزايدة لرياضة السباحة والمكانة المرموقة التي يمثلها البحر في حياة السكان.

وترافق غزو الساحل بتبدل مفاجئ في السلوكيات الاجتماعية. فخلال فصل الصيف كان الشاطئ يلعب دور المقهى والمطعم سيما وانه كان غير بعيد عن أمكنة العمل. وكان الكثيرون يستفيدون من فترة الاستراحة وقت الغذاء ليقصدوا البحر ويستحموا قليلاً ومن ثمّ يعودوا إلى مكاتبهم. وأكثر عدداً منهم هؤلاء الذين كانوا يغتنمون فرصة قصر يوم العمل من تموز إلى أيلول (نصف نهار) لكي يمضوا فترة بعد الظهر على الشاطئ تحت أشعة الشمس. وانتشرت ظاهرة تتعدى كونها موضة، تعتبر أن بياض البشرة من الأمور غير المستحبة أو تدعو إلى الاستغراب، رافقها انقلاب في المفاهيم الجمالية على الصعيد الاجتماعي من خلال تفضيل اسمرار البشرة بعد أن كان شحوبها أحد معايير الزواج الناضج. وفرضت عادة تمضية فصل الصيف على شاطئ البحر نفسها كظاهرة اجتماعية راسخة. وكان الضغط الذي يمارسه مفهوم الجمالية الجديدة شديداً لدرجة أن الناس كانوا يقصدون البحر ليعرضوا أجسادهم لأشعة الشمس ابتداء من نهاية آذار. ومن المستحسن أن يترافق اسمرار الجسد مع رشاقة وفقاً لمعايير الجمال التي تروّج السينما لها وأيضاً المجلات العالمية. وسرعان ما تبنّى البيروتيون هذه المعايير ونفذوها بحذافيرها. كما توجب على النسوة، نظراً لانتشار البيكيني، مع أن البعض نظر إليه نظرة ارتياب، أن يبادرن طوعاً إلى الخضوع للأنظمة الغذائية الصارمة. ونتج عن هذا تعميم لنموذج الحورية المعاصرة الرشيقة والمثيرة للشهوة في آن، وزاد هذا أيضاً في إبرازالصورة المصقولة لبيروت أضف إلى ذلك أن امكانية الانتقال السريع في المدينة من المكتب أو من أمام واجهات المحلات إلى مراكز الاستحمام برّرت ارتداء ملابس الشاطئ الخفيفة. وترافق الزحف المذهل للميني جوب في نهاية الستينات مع ظهور الشورت. وأظهر التعري الصيفي للجسد النسائي على الشاطئ أو على الطريق إلى البحر، هذه الحرية التي تتمتع بها البيروتيات وتجعل منها أحد الشعائر الأكثر دلالة على التعصرن اليومي الذي رسخت فيه المدينة، عن وعي أو عدم وعي، هويتها الجماعية.

المدينة في الريف

بدا موقع بيروت، بعد أن أبرزت محاسنه طقوس الشاطئ بأفضل صورة ممكنة، محكوماً أكثر من



المسابح ومراكز الاستجمام والإصطياف حوالى عام 1970

مسبح أو مركز إستجمام — مصارف — خطوط إختلاف المستوى

أي وقت مضى، بقربه من البحر والجبل في آن. هذا التقارب الوثيق بين الجبل والبحر ساعد على إطلاق شعار اعتمدته السياحة اللبنانية بدعوة السائحين إلى ممارسة رياضة التزلج الألبي صباحاً والتزلج المائي بعد الظهر. لا شك أن الشعار مبالغ فيه، وإذا أردنا الدقة في الكلام لوجدنا أن هذا التقسيم لأوقات الترفيه هذه ليس ممكناً إلاّ خلال بعض النهارات في آذار ونيسان. لكن اقتران البحر بالجبل لا يصل إلى ذروته إلاّ في أيام الصيف. وبدل أن يؤثر انتشار قرى الاصطياف في الجبل القريب على نمو بيروت، ساهم خلافاً لذلك في إذكاء سحرها. يمكن للزائر إذاً التنعم بطيب المناخ وبالمناظر البانورامية البديعة نهاراً والنزول ليلاً ليرتاد المرابع الليلية في بيروت. أما بالنسبة للبيروتيين أنفسهم،

كانت فترة الصيف تسمح بتوزيع أوقاتهم بين الجبل والبحر. وقد درجت عائلات كثيرة من الطبقة الوسطى على ارتياد الشاطئ في شهري أيار حزيران والجبل خلال أشهر الصيف الثلاثة. أما الآخرون فكانوا يفضلون البقاء لوقت أطول في المدينة وتمضية اسبوعين أو ثلاثة في نزل جبلي، خلال شهر آب في الغالب. كان الدوام المدرسي وعدد ساعات العمل اليومي محددة وفقاً للظروف المناخية في البلاد. لم تكن المدارس تفتح أبوابها إلاّ في تشرين، وتعمل نصف نهار خلال شهر حزيران مفسحة المجال أمام التلامذة للذهاب إلى الشاطئ بعيد الظهيرة. كذلك كان موظفو القطاع العام يعملون نصف نهار على مدار أيام السنة أما موظفو القطاع الخاص فكانوا ينعمون بهذا التوقيت من تموز إلى أيلول، مما يتيح لهم التنعم بوقتهم بعد الظهر سواء على البحر أم في الجبل. ولم تكن هذه الفرصة متاحة للعاملين في المحلات التجارية لكن بعضها لم يتردد في الإقفال لأسبوعين خلال شهر آب. وعلى أية حال، كان قرب الجبل من المدينة يسمح للتجار بسلوك الطريق في بداية العشيات للهروب من رطوبة جوّ بيروت وتمضية الليل في جو منعش. كذلك أتاحت سهولة التنقل للعائلات الجبلية بأن تحدّ من رتابة الأشهر الثلاثة للاصطياف بتخصيص يوم للذهاب إلى الشاطئ.

كانت ظاهرة الاصطياف في هذا الجبل الذي ألهم لا مارتين فيما مضى عبارته الشهيرة عن لبنان «سويسرا الشرق»، تخضع أكثر فأكثر للمنطق المديني. وإذا كان الكثير من سكان المدن الذين تمركزوا فيها من عهد قريب أم بعيد يغتنمون فصل الصيف ليعودوا إلى قراهم، فإن غالبية المصطافين كانوا يفضلون إغفال جذورهم الريفية والتجمع في خمس عشرة قرية قريبة من بيروت بحيث إنها تبدو كضواحٍ لها قابلة للطي والانبساط مثل أكورديون[14] تفتح أبوابها وتقفلها في موعد محدد من كل سنة. كنّت ترى هذا النزوح البشري، في آخر أحد من حزيران أو في اليوم الأول من تموز، يملأ طرقات الجبل بالشاحنات الصغيرة المحملة بالأثاث والأدوات المنزلية. ويتكرر المشهد نفسه على خط الرجعة في آخر أيلول مخلياً بيوم واحد المصايف التي ازدحمت بالناس وضاقت بهم لمدة ثلاثة أشهر. وعدا العائلات الثرية في بيروت المعتادة منذ زمن طويل على الانتقال إلى مقرّها الثاني في الجبل وعدا أمراء شبه الجزيرة العربية الذين زرعوا سفوحها بالفيلات الفخمة، برزت ظاهرة الإيجار الموسمي للبيوت الواسعة وللشقق المتوسطة الحجم في المباني التي لا تتعدى الطبقتين أو الثلاث إلاّ في حالات نادرة. وكان المنطق ذاته يحكم الصناعة السياحية: باستثناء بعض الفنادق كانت النُزُل والمقاهي والمطاعم وقاعات السينما يتولى إدارتها أُناس من المدينة يشرفون على قطاع النشاطات نفسه في بيروت. لذا لم يكن ينقص الحياة في الجبل أي شيء عملياً سوى بعض الكماليات، علماً إن ميلاً إلى عدم الإقامة الثانية في مكان واحد بدأ يظهر في مطلع السبعينات في المصايف الأكثر شهرة.

امتدت خارطة بيروت الكبرى أثناء الصيف على طول محاور الطرقات الأربعة. المحور الأول

الأقدم عهداً تمثله طريق بيروت – دمشق حيث تتألق على طوله صوفر منذ الحقبة العثمانية المتأخرة وتلتحق بها في الأسفل عاليه التي نمت في فترة الانتداب. وبين المنطقتين شهدت بحمدون انطلاقة حول محطة سكك الحديد السابقة واجتذبت، مثل عاليه، خصوصاً، المصطافين الوافدين من شبه الجزيرة العربية. وكذلك سوق الغرب، بجوار عاليه، ازدهر موسم الاصطياف فيها، فيما اجتذبت شملان، التي اشتهرت «بمدرسة الجواسيس» فيها – حيث كان الموظفون الأميركيون والبريطانيون يدرسون العربية – الانتلجنسيا الانغلوفونية التي كبرت حول الجامعة الأميركية. وعلى الجهة الشمالية من الطريق، كانت حمانا تعرض مناظرها البانورامية الرائعة المطلة على الوادي الذي اطلقت عليه التسمية الشعبية اسم وادي لا مارتين. وعلاوة على المناخ وسهولة الانتقال، ساهم الاختلاط الطائفي في كل هذه المنطقة حيث الدروز والمسيحيون يعيشون معاً، في نجاحها السياحي على نطاق واسع. وهكذا تمّ بناء جامع في 1958 للمصطافين السعوديين والكويتيين في قرية بحمدون المسيحية بعد أن دفع بناؤه إلى استقالة المجلس البلدي ثم تمت الموافقة عليه من دون معارضة تذكر. ما من شك في إن وجود المسلمين الكثيف المتمثل أولاً في سكان المنطقة الدروز وثانياً في السائحين العرب قد حث الطبقة السنية المتوسطة، بعد أن راجت موجة الاصطياف في الستينات، على أن تجعل من منطقة عاليه مصيفها المفضل، فيما ميزت غالبية مسيحية ظاهرة للعيان المحاور الثلاثة الأخرى في المتن وكسروان.

على مرّ الزمن، التحق بقطب الاصطياف المحاذي لطريق بيروت – دمشق قطب آخر نما، منذ عهد الانتداب، حول بكفيا وضهور الشوير، باسطاً امتداداته إلى بولونيا والمروج والخنشارة. كانت وفرة اشجار الصنوبر العامل الأساسي في ازدهار هذه المنطقة، ولو راهنت بكفيا وضهور الشوير على مقاهيها ومطاعمهما وقاعات السينما الموجودة فيهما. ولكن المكان الذي جسّد على أكمل وجه انتقال المدينة إلى الريف هو القطب الآخر من الاصطياف الذي كان يضم في منطقة المتن قرى بيت مري وبرمانا وبعبدات. كانت الطريق من بيروت إلى بيت مري تستغرق ربع ساعة كالمسافة بين بيروت وعاليه، ولا تسلكها المركبات او الشاحنات وتتميز بالتالي بقدر أقل من الخطورة. وكان هذا القرب يؤهلها لتصير امتداداً دائماً للمدينة خاصة بعد التأثير الايجابي الذي أحدثه تمركز أسماء كبيرة للمجتمع البيروتي فيها عند منعطف الخمسينات والستينات. أقام فيها كامل مروة مثلا، الصحافي الذائع الصيت في العالم العربي لكونه صاحب جريدة **الحياة**، مسكنه وهو من جنوب لبنان في الأصل. ثم حذا حذوه زميله الذي لا يقل عنه شهرة في جريدة **النهار** غسان تويني الذي شكل مع زوجته الشاعرة ناديا تويني الثنائي الأشهر في بيروت. كذلك أقامت في بيت مري بعض الشخصيات الكويتية الهامة التي فضلت البقاء على مسافة من مواطنيها في بحمدون. ومما رسّخ دعوة بيت مري في التحول إلى ناحية ثرية للعاصمة من دون أن تتخلى عن دورها الرئيسي كمركز اصطياف إنشاء فندق البستان الضخم المعد

ليعمل على مدار السنة. وفي جوارها، كانت بلدة برمانا التي تغطيها أشجار الصنوبر تستأثر بحشد كبير من أبناء المدينة. درجت برمانا على استقبال طلاب داخليين في «برمانا هاي سكول»، المدرسة الانكلوساكسونية والبروتستانتية الطابع، كانوا يأتون غالباً من البلدان العربية الأخرى. مما جعلها مدينة منفتحة. كذلك كبرت هالة البلدة مع إنشاء التقليد السنوي لدورة التنس الدولية التي كانت تقام في كل سنة في ملاعب الهاي سكول. وكانت برمانا أول محلة في الجبل تنتشر فيها مطاعم - خاصة بالمطبخ الفرنسي - على مدار السنة كمطعم تروبادور ومطعمي «غارغوت» و«غارغوتييه» اللذين تميزا باسميهما غير الموفقين. وتنضم إليها في الصيف منشآت أخرى، مقاهي - أرصفة ومطاعم وملهى ليلي متمركزة حول الشارع الرئيسي الطويل الذي يشهد زحمة خانقة كل يوم في فترة بعد الظهر ويصير أشبه بشارع حمراء جديد تحت ظلال أشجار الصنوبر، ثم يستعيد الزائر، على بعد بضعة كيلومترات الطمأنينة الريفية لمنطقة بعبدات.

وأضحى إتصال الجبل بالمدينة، وخاصة في بلدة برمانا قدوة لمنطقة كسروان حيث قام، نتيجة سياسة الانماء التي اعتمدت في ظل حكم فؤاد شهاب، القطب الرابع للاصطياف في منتصف الستينات. فقريتا عجلتون وفيطرون تشكلان إطاراً سكنياً هادئاً على الطريق المؤديةالى فاريا رغم أن الخضار أقل انتشاراً فيهما من المتن، فيما سعت بلدتا ريفون والقليعات الفاصلتان بينهما إلى تقليد نموذج برمانا من خلال انشائهما للمقاهي - الأرصفة والمطاعم على طول الطريق العريضة. لكن، البيئة الاجتماعية في هذه المنطقة ظلت ذات لون طائفي واحد منعها من التحول إلى بوتقة تنصهر فيها مختلف الطوائف البيروتية وبخلاف منطقة عاليه التي ترسخت فيها ظاهرة الاختلاط الدرزي المسيحي أو حتى بخلاف المتن الذي كان أول منبت للأحزاب العلمانية الكبيرة، والتي كان طابعها المسيحي مخففاً قليلاً من خلال التعايش بين الموارنة والروم الارثوذكس والروم الكاثوليك، هذا بالإضافة إلى الجماعة الصغيرة من الانجيليين المجتمعين حول «برمانا هاي سكول» والأقلية الدرزية في بيت مري، كانت مصايف كسروان ذات طابع ماروني، واجتذبت بالتالي العائلات المنتمية إلى الطبقة المتوسطة المارونية التي كان تمركزها في بيروت حديث العهد إجمالاً، وكانت بعض المرجعيات الدينية تقصدها صيفاً عمداً أو عن غير عمد لاعتبارات تتعلق بالهوية الطائفية لأن هذه المرجعيات لا تتيح لها المدينة الافصاح عن ذاتها بسبب القيود التي تستوجبها ضرورة التعايش. لكن معايير معاصرة للسلوك نجحت في أن تفرض نفسها على أساليب العلاقة بين الأجيال والأجناس على الرغم من كل القيود.

وبدل أن يكون الاصطياف مجرد عودة إلى الطبيعة تكرّس انتصار الحياة الريفية،فقد ساهم من خلال تحوّله إلى احتراف في «بيرتة» لبنان. أولاً بالمفهوم الجغرافي، لان هذه المجموعات الكبيرة من «الضواحي المطوية والمنبسطة كالأكورديون» توسع من نطاق التجمع البيروتي فيما يتعدى المنطقة



ملصق لكازينو لبنان

الواقعة على المطل وتحدّ من ظاهرة تضخم الرأس التي تميز الجغرافيا البشرية للبلاد. وكما أن بيروت حجّمت المدن الأخرى، كذلك فإن المصايف البعيدة كإهدن في الشمال أو جزين في الجنوب كانت تبدو شاحبة مقارنة مع ازدهار الضواحي الصيفية للعاصمة. لكن هذه «البيرتة» كانت تعمل أيضاً في إطار رمزي، بمعنى إن الأنماط المستوردة التي تدخل إلى بيروت سرعان ما تنتشر على نطاق واسع في سائر المناطق اللبنانية.

ومن خلال هذين المعنيين الأثنين لكلمة «بيرتة»، يلاحظ أيضا نمو الساحل الشمالي العمراني بدافع من الصناعة السياحية. بدا كازينو لبنان المفتتح في المعاملتين على الجانب الشمالي من خليج جونيه وكأنه امتداد لبيروت. بعد أن مُنح وحصل على الحق الحصري باستثثار ألعاب الميسر على مساحة الوطن، وجهّز «بصالة السفراء» حيث تقام عروض مستوحاة من لاس فيغاس، وأيضاً بمسرح يتميز بأوسع حلبة في البلاد، اجتذب الكازينو في الحال شريحة واسعة من رواد الليل البيروتيين بمقدار ما كانت تتقدم أعمال الأوتوستراد الشمالي. ولم يلبث أن نشأت بعض المطاعم والبارات في الجوار، وخصوصا «لي تزيغان» Les tziganes وهو نادي متحرّر اجتذب الشبان المولعين بالموسيقى[6]. ورسّخ الظهور التدريجي لعدة مراكز استجمام حيوية الحركة. وأكثر فأكثر كانت بيروت خارج بيروت وكأن بيروت جديدة أبصرت النور خارج حدود بيروت العاصمة.

محطة الأثرياء

لم يكن أسلوب العيش المنفتح في بيروت ليحظى بشهادة أفضل من تلك التي تأتيه من الخارج. ولم يتأكد الخيار الكوسموبوليتي، الواضح في جميع الميادين من استعراض اللافتات إلى طريقة اللباس مروراً بالتبني السريع لكل موجات الموسيقى المنتشرة في أوروبا وأميركا، من خلال تصديره خارج الجدران فقط بل أيضاً ظهرت صدقيته عبر الوجود المتزايد للأجانب المقيمين في المدينة والأجانب لم تفتقدهم بيروت منذ بداية انطلاقتها وإن حدّت مرحلة الانتداب من حركة قدومهم إلى بيروت. ولكن

الاختلاط الفعلي لم يبلغ ذروته كما في السنوات الثلاثين التي عقبت الحرب العالمية الثانية وقد ساهم أفول شهرة الاسكندرية في إبراز خصوصية بيروت. ثم إن مناهضة الغرب على الصعيد السياسي التي حفزتها الحرب البادرة في مصر وسوريا والعراق، ارتدت طابعاً من التزمت الأخلاقي قلما يتوافق مع استقبال الزوار الأجانب.

كانت للجالية الأجنبية في بيروت جذور عميقة وأولها «فرنسيو المشرق» الذي تناسلوا منذ عهد ما قبل الانتداب، وهناك أيضاً عائلات من أصل إيطالي وعائلات يونانية باتت عربية نوعاً ما. وعندما وافى عهد التأميمات في الدول العربية، انتقل الفرنسيون والايطاليون من سوريا إلى لبنان. وكان هناك عنصر آخر قديم من عناصر الكوسموبوليتية تجلّى في قدوم الروس البيض منذ عهد مضى وكانوا مصنفين في عداد الفرانكوفونيين. كذلك ساهمت الجامعتان الكبيرتان في تكوين جالية أجنبية عبر اجتذاب الأساتذة الفرنسيين إلى جامعة القديس يوسف والأميركيين والبريطانيين إلى الجامعة الأميركية. وغالباً ما اختار هؤلاء الاساتذة الإقامة الدائمة في بيروت. وأضفى هذا الوجود الأكاديمي على رأس بيروت طابعاً انغلوفونياً. ومن ثم ومع انطلاقة بيروت الاقتصادية، وفد رجال أعمال غربيون وانضموا إلى بعض السلالات الفرنسية الناشطة في عالم التجارة. وكان بين رجال الأعمال الأجانب الجدد مصرفيون وتقنيون يعملون في الفنادق وقطاع النفط وعما قريب في المجال السمعي - البصري.

وحول هذه النواة من المقيمين الدائمين، تشكلت حلقة أكثر اتساعاً من خلال الزوار المنتظمين الذين كانت لهم المدينة محطة ضرورية أو مريحة بكل بساطة. وهذه كانت حال العاملين في شركات الملاحة الجوية. ذلك أن الأهمية التي اضطلع بها مطار بيروت الدولي كنقطة مركزية لكامل الخطوط الدولية تقريباً، كانت تؤمن وجود الأجانب بشكل يومي في الفنادق والبارات، ويرمز هذا الوجود الأجنبي إلى تطور الذهنيات لا سيما أن الطيار ومضيفة الطيران جسدا في تلك الفترة جوهر الغلامور - كما أن السحر الذي كانت تمارسه الطائرة على الجماهير، حث العديد من العائلات على القيام بنزهة إلى المطار التي صارت مع الوقت وسيلة من وسائل الترفيه أيام الآحاد. ثم أن المراسلين الجوالين للصحافة العالمية كانوا يجعلون من بيروت محطة دائمة لهم في الفترة الفاصلة بين كتابة تقريرين عن الشرق الأدنى. صحيح أن وجودهم في بيروت لم يكن من دون انقطاع رسّخ في الأذهان صورة الانفتاح الذي اتسمت بها بيروت حيث كان المراسلون يتمتعون بملذات الحياة الأكثر تحرراً من أي مكان في الشرق الأدنى، وتحديداً في بار فندق السان جورج. كما استطاعوا تبرير وجودهم في بيروت وبالتالي ادخار نفقات السفر المترتبة عنه بحجة انهم متواجدون في أفضل نقطة لتغطية التطورات السياسة الاقليمية وقادرون على نقل الوقائع وإجراء سبق صحفي من هناك أكثر مما لو كانوا في مكان

الحدث نفسه. وعلى نحو مشابه، استطاع عدد من رجال الأعمال الملتزمين انجاز مشاريع في الشرق الأدنى، أن يجمعوا بين اللذة والعمل ويقللوا قدر المستطاع من عدد الأيام المملّة التي يمضونها في البلدان المعنية. وبالمقابل لم يكن الأجانب الغربيون المقيمون في شبه الجزيرة العربية بحاجة إلى أي تبرير من أجل تمضية بضعة أيام في بيروت، على غرار بيتر أوتول الذي جاء ليستريح فيها بعد عناء التصوير بسبب الأحوال المناخية القاسية في الأردن التي أحاطت بفيلم «لورنس العرب». وحذا حذوه الكثير من الناس المجهولين الذين أتوا لتمضية عطلة قصيرة أو ليقطعوا خلال عطلة نهاية أسبوع واحد فترة طويلة من التنسك أمضوها في مناخ صحراوي يزيده التزمت الاجتماعي قساوة.

والى هؤلاء الذين لا يمثلون الصورة الحقة للسائح، دفعت ديموقراطية السياحة في اوروبا بالاجانب إلى لبنان، الأجانب الفعليين، بشكل متقطع. منذ وقت طويل، كان مرفأ بيروت يستقبل، على خط الرحلات البحرية في المتوسط، سواحاً يقومون غالباً بجولة ليوم أو يومين في المواقع الأثرية الأساسية في لبنان، وصولاً حتى بعلبك. أما انصار السفر المنظم الآتون عبر الطائرة فكانوا يستغرقون وقتاً أطول، يستكشفون خلاله المواقع الأثرية ثم يسترسلون في ليل بيروت الصاخب. لكن السياحة الجماعية لم تكن معروفة آنذاك. وباستثناء الرحلات البحرية وبعض الجولات المنظمة، لم يجتذب لبنان السياح الأوروبيين ذوي الدخل المتوسط إلاّ على الطريقة الغربية فالتجهيزات الفندقية لم تكن تعتمد إلاّ على مجموعة قليلة من فنادق الثلاث نجوم. وكانت فنادق النجمتين حول ساحة البرج سيئة للغاية. كذلك ساهم غياب المساحات الممتدة من الرمل على الشطآن، خارج القطاع البحري المخصص للسباحة، في الحد من إقبال السواح الأجانب على لبنان. أضف إلى ذلك أن لبنان أبعد مسافة من اسبانيا واليونان وبالتالي أكثر كلفة على صعيد المواصلات، وغير قادر على استيعاب موجة السياحة الشاطئية التي دفعت بالطبقات الوسطى الأوروبية في الستينات إلى كوستادل سول وجزر بحر ايجه. أما بالنسبة للسياحة الثقافية فوجب الانتظار حتى الثمانينات ليحظى الشرق الأدنى بحصة جوهرية. وإجمالاً، يمكن القول إن السياحة الاوروبية سجلت أرقاماً متواضعة في قطاع السياحة أقل بكثير من الأرقام التي سجلتها الزيارات الطويلة الأمد للسياح الأثرياء الآتين من شبه الجزيرة العربية. بيد أن السائح الغربي المجهول كان يشكل جزءاً من المشهد المدني كما يثبت ذلك تضاعف عدد المحلات حول شارع الحمرا التي تبيع أشياء تذكارية ومنتوجات حرفية. كما ظهر في بيروت أيضاً، لدى انتشار الموجة الهيبية، متسكعون هامشيون. والى كونها محطة لرجال الأعمال، أصبحت بيروت واحة استراحة على طريق كاتماندو لا يمكن الالتفاف حولها، لا سيما أن شهرة الحشيشة الوطنية تجاوزت الحدود. لكن السياحة المترفة هي التي كرست، أكثر من أي شيء آخر، صورة بيروت كمكان لاكيزوتيكية أليفة عصرية ومتألقة بألف بريق وبريق.



الرئيس شمعون وزوجته يحيطان بالملك سعود.

وكانت هذه السياحة المترفة تشكل امتداداً لعادة درجت عليها بيروت أثناء فترة الانتداب عندما بدت وكأنها أحد مراكز «فرنسا الأخرى» على الرغم من انها بعيدة بالنسبة لافريقيا الشمالية. شجعت هذه السياحة شخصيات معروفة في المجتمع الأوروبي الراقي ونجوم عالميين على القيام بجولة فنية. وكان فنانو الميوزيك هول يدرجون المدينة على لائحة الجولات الموضوعة في مفكرتهم واثقين من انهم يجدون فيها مشجعين لهم تحلو معاشرتهم وعلى اتصال وثيق بالحياة الاوروبية الاجتماعية لا بل كانوا، معروفين في باريس حيث عقدوا صداقات حميمة منذ مطلع القرن وفي الفترة الممتدة بين الحربين، صداقات كانت بمثابة ترويج فعلي لبيروت التي بدأت تجتذب بعض أركان الحياة الباريسية. وغداة الحرب العالمية الثانية، أثار المجتمع الراقي البيروتي ضجة من حوله عندما اشترى جورج عريضة وهو أحد مشاهير ذلك المجتمع الشبابي، يخت ادولف هتلر بالمزاد العلني الذي أقامه البريطانيون، وأصطحب اليخت إلى ميناء في محل إقامته



ملصق حفل رقص المبتدئات.

الجديد وفي نيته أن يجعل منه مركباً للرحلات البحرية جاهزاً ليؤجر من قبل بعض الموسرين[16]. لكن المشروع اخفق بسبب كلفة الصيانة التي استوجبها اليخت، مع انه ساهم في الوقت نفسه في الترويج لكليشيه «أثرياء لبنان» وادخالهم إلى عالم المجلات، وإن يكن من الباب الضيق للشهرة. وقد زادت المباريات الدولية للتزلج المائي التي جرى تنظيمها في الخمسينات في السان جورج وشارك فيها الملك حسين، ملك الأردن من تألق بيروت خصوصاً إثر بطولة العالم التي أحرزها أحد اللبنانيين. وكانت الصورة المتحضرة لبيروت وللبنان عموماً تضع في الواجهة الزيارات التي قام بها، في عهد الرئيس شمعون، الملوك الذين يشكلون حدثاً نادراً للمجلات الصحافية العالمية كشاه ايران أو ملك اليونان[17]. وكان للسحر الانكليزي الطابع الذي يتمتع به الرئيس كميل شمعون وزوجته زلفا - وهي جزئياً من أصل بريطاني - دوره في تلميع هذه الصورة. كما ازداد الانطباع بأن لبنان ليس فقط صديق الغرب في حربه الباردة بل الحليف الدائم له[18].

ومع نمو المواصلات الجوية، خصوصاً بعد ظاهرة الطائرات النفاثة المدنية عبّرت الصداقات المعقودة عن نفسها بشكل أفضل بين بيروت وباريس من خلال حركة مكوكية ناشطة بين العاصمتين. في الستينات، لم تكن الرحلة إلى بيروت تستغرق إلاّ أربع ساعات على متن طائرة «كارافيل» أي بزيادة ساعة واحدة على الرحلة بين عواصم دول أوروبا الغربية وأثينا عاصمة اليونان. ما أن يصل الزائر الثري إلى بيروت حتى يبدو له الجو اليفاً، يشعر انه قام برحلة ممتعة دون أن ينسلخ عن محيطه فضلاً عن الفرصة التي سنحت له برؤية عالم جديد لم يقدّر له مسبقاً أن يطلع عليه. ثم يجد نفسه بين مجموعة من الأصدقاء يرحبون به ترحيبهم بالملوك ويدخلونه بيوتهم الفخمة أو يحيط به مدراء الفنادق ويوفرون له الرعاية التامة وتتحلّق حوله الصبايا الانيقات والأسياد بلباسهم الرسمي ويصطحبونه من مطعم فخم إلى آخر حيث يتهافت الذواقة ثم يمضون بقية يومهم في أحد الملاهي الليلية المنشأة حديثاً على الطراز الأوروبي. وفي وقت يرافقونه بجولة على الآثار الرومانية في بعلبك تعقبها سهرة في الكازينو، وكل ذلك في أجواء من الإلفة التي تسودها الحوارات المهذبة جداً بالفرنسية أو بالانكليزية إذا اقتضى الأمر. حينئذٍ بوسعه أن يتخيل نفسه في أحد مصايف أوروبا الرفيعة المستوى. ومن ثم، بين كأس شمبانيا وأخرى، ألا يتبين له من سياق الأحاديث أن اوروبا نفسها ولدت على شاطئ فينيقيا القديم؟ وها قد عادت المياه إلى مجاريها واختارت أوروبا أن تعطي صورة حضارية عن وجهها النسائي بانتخاب ملكة جمال أوروبا على الضفة الشرقية للمتوسط وتحديداً في كازينو لبنان من عام 1959 حتى 1969 من خلال مباراة ساهمت في تشجيع السياحة الوطنية[19] والاعلاء من شأنها وفي إشارة مماثلة جرى في ساحة قصر بيت الدين استضافة حفل الأسرة الصغيرة البيضاء عام 1965[20]. وإذا توخينا الدقة في الكلام لوجدنا أن العاصمة لم تكن إطاراً لهذه اللحظات الكبيرة في أوساط المجتمع البيروتي الراقي،

لكنها أفادت منها بشكل أكيد لان فنادقها هي التي كانت تفتح صدرها للسياح القادمين.

وعلى مستوى أكثر اتقانا، كان الأمر ينطبق على مهرجانات بعلبك التي شكلت بين 1956 و1974 الحدث الثقافي السنوي الأبرز في لبنان وسرعان ما فاقت شهرتها حدود البلاد. آنذاك، ذاع صيت نجاح مهرجانات أفينيون Avignon وإكس Aix ولم تكن قد انتشرت موجة المهرجانات على الشواطئ البروفانسية والايطالية والتونسية من المتوسط العربي. كنت ترى زواراً اوروبيين يتعمدون المجيء إلى بعلبك حيث كان الديكور المهيب لهياكل جوبتير وباخوس يشكل خلفية تتسم بالمهابة والتعظيم. كانت مهرجانات بعلبك تتم برعاية الدولة منذ عهد الرئيس شمعون بالإضافة إلى القطاع الخاص، مستضيفة سنة بعد سنة طائفة من الفنانين الأبرز، من روستروبوفيتش وريشتر إلى آلافيتزجرالد مروراً بنورييف ومارغو فونتين وكاراجان ومرسى كونينغهام ومسرح «لاماما» النيويوركي، ولا ننسى بالطبع جوان بايز وأم كلثوم. وفي برنامجها الأخير عام 1974، ولم يكن أحد يعرف بأنه سيكون الأخير وبأن الأضواء ستنطفئ طويلاً، استقبلت بعلبك عرضاً بمشاركة عالمية مستوحى من «مجنون السا»، بحضور آراغون شخصياً في إطار ديكورات من تصميم اندريه ماسون[21]. على أية حال، لم تكن بعلبك إلاّ إسماً بالوكالة؛ ومهما تكن الهيبة التي تضفيه الآثار الرومانية على المكان، فالمجتمع الذي يهرع للسهر في كنفها هو مجتمع بيروت، والأجانب الذين يؤمونها يسارعون ما أن ينتهي العرض في العودة إلى العاصمة أو بعض قرى الاصطياف في الجبل لتناول طعام العشاء. ذلك إن المنطقة المجاورة للقلعة لم تكن مهيأة لاستقبال الطبقة الاجتماعية الميسورة المدعوة لحضور المهرجانات، إذ لم يكن في مستطاع فندق بلميرا الذي يعود بناؤه إلى مطلع القرن أن يستوعب الفنانين في الليلة التي تسبق أداء العروض لا سيما إذا فاق عددهم ما هو متوقع، فيما ظلّ العرض الذي يقدمه فندق القادري في زحلة والبارك أوتيل في شتورة، على طريق بعلبك، محدوداً. وفي هذا المجال أيضاً، كانت بيروت هي المستفيدة مما يجري خارج أسوارها. وبالرغم من إن فنادقها تبعد مسافة ثلاث ساعات عن بعلبك، إلاّ أنها كانت تتولى استضافة الفنانين والمشاهدين الأجانب في القسم الأكبر من فترة إقامتهم. كذلك كان تكريم ضيوف بعلبك يجري إما في العاصمة وإما في إحدى ضواحيها الصيفية في الجبل من خلال سلسلة من السهرات البراقة يقيمها المجتمع الراقي البيروتي تتخللها مآدب طعام حافلة بالمآكل الشهية.

وبين الشهرة العابرة لملكات أوروبا اللواتي تعاقبن على عرش الجمال وفناني بعلبك الذين بلغوا قمة المجد، ترددت شخصيات أخرى تتمتع بشهرة عالمية إلى فنادق بيروت التي بدت أكثر فأكثر محطة منتظمة للأثرياء. وتركت الزيارات المتكررة لفناني السينما والميوزيك هول انطباعاً لدى أبناء بيروت المحظوظين بأنهم مواكبون لمسيرة الفنانين الذين تلفهم الشهرة. وسار المغنون الفرنسيون الكبار على

نهج من سبقهم من المطربين الكبار منذ زمن الانتداب فواظبوا على زيارة بيروت والبقاء فيها معظم الأحيان أكثر مما تسمح لهم عهود اتفاقاتهم. وعدا جوني هوليداي الذي مُنع من الغناء على المسرح لان وزير الداخلية آنذاك كمال جنبلاط، بحجة المحافظة على الآداب العامة، اتخذ موقفاً متزمتاً قضى بتحظير رقصة التويست، استطاع جميع الفنانين أن ينعموا بإقامة سعيدة في بيروت، ويمكن التثبت من ذلك بمشاهدة الصور التي أخذت لهم وعرضت هنا وهناك في المطاعم والملاهي الليلية أو احتلت أبرز صفحات الألبومات التي ظهرت بعد الحرب وكلها معبرة عن الحنين إلى تلك الفترة. لقد قُدّر لبيروت أن تشاهد بإعجاب جاك بريل وجولييت غريكو وشارل أزنافور (صار ضيفاً دائماً) وجيلبير بيكو وميراي ماتيو وتينوروسي وجورج موستاكي وسرج ريجياني وكاترين سوفاج (كانت نجمة «ابي كلوب» وتأتي إليه سنوياً) وداليدا، التي صارت هي أيضاً ضيفة دائمة والتقت في المدينة العديد من أصدقائها الذين تعود معرفتها بهم إلى أيام الشباب في مصر، وفنانين آخرين ذوي شهرة أقل لكن احتفي بهم كالمشهورين على قدم المساواة. وقد اختار بعض المغنين من أصول لاتينية، الذين اسكرتهم حياة المجتمع الراقي أن يجعلوا من بيروت مكان اقامتهم ولم يعودوا إلى أوروبا إلاّ لتسجيل اسطواناتهم، أمثال بيبينو دو كابري Peppino di Capri ونينو دو مرسيا Nino de Murcia أو جو ديفيريو Joe Diverio، الملقب بـ«إيطالي بيروت».

كذلك جاء ممثلو السينما إلى بيروت بحكم ارتباطاتهم المهنية كدايفيد نيفين وفرانسواز دو رلياك اللذين أتيا لتصوير فيلمهما «حيث يكون الجواسيس» Where the Spies are عام 1965 أو ميراي دارك لتصوير فيلم «الجرادة الكبيرة» La grande Sauterelle لجورج لوتنر عام 1967، أو أيضاً ريتشارد روندتري Richard Roundtree وماكس فون سيدو Max Von Sydow وماري-جوزيه نا Marie-José Nat، الذين جاؤوا لتصوير فيلم «سفارة» Embassy عام 1972، وهو فيلم أستبق الصعوبات الآتية التي ستواجهها السياسة الأميركية في لبنان. لكن روجيه مور الذي تصوره أحد الأفلام التابعة لسلسة جيمس بوند «الرجل ذو المسدس الفضي» على انه جاء إلى بيروت، اضطر للاكتفاء بديكور بديل - لان الوضع السياسي اعتبر غير مستقر عام 1974، ولا يشجع على انتاج الأفلام. وقد أتى نجوم آخرون فقط بغية الترويج لأحد أفلامهم، إلاّ إذا كان أحد اللبنانيين من رجال المجتمع الراقي دعاهم لقضاء العطلة في دياره. ومن بين الذين شهدت بيروت مرورهم مارلون براندو وبريجيت باردو برفقة زوجها آنذاك غونتر ساكس الذي سيرجع لاحقاً مع زوجته الجديدة وعمر الشريف الزحلاوي الأصل وآخرون كثيرون.

لكن بيروت كانت أيضاً وخاصة محطة الموسرين العرب. كان السعوديون يأتون إليها مراراً، حتى خارج الموسم السياحي. وكذلك هي الحال بالنسبة للنجوم المصريين الذين كانوا يأتون لتصوير فيلم

أو لقضاء عطلة سريعة. وحين كانت مصر أيام عبد الناصر تخوض امتحاناً عسيراً مع ملوك وأمراء الدول النفطية الملكية، بدت بيروت المكان الوحيد حيث يمكن للعرب، خارج إطار جامعة الدول العربية، أن يتحدثوا مع إخوانهم العرب.

لم يكن للسياح القادمين إلى بيروت سواء كانوا عرباً أو أوروبيين أم أميركيين فرصة الإطلاع على كل الأمور. كانوا يرحلون عن بيروت وفي أذهانهم صورة مثالية مخادعة لا تنفذ إليها التناقضات الخفية التي تنذر بالانفجار والمخاطر التي لن تلبث أن تنبجس. كان بإمكان المدينة أن تعطي صورة معاكسة للواقع الذي تعيشه. تلك هي المفارقة المذهلة والمعبّرة أصدق تعبير عن بلاد كلفة الرفاهية، رفاهية البعض، فهي باهظة للغاية. فهذه المدينة الشبقة إلى الملذات إلى حد أنها تجعل من اسلوب العيش فناً ومن الجمال هاجس ساكنيها، هذه المدينة ستفقد جمالها الذي تغنوا به لعقود عدة. ولكن لن تفقد سحرها.

الفصل الثامن عشر

رهانات إيكوشار الخاسرة

«تقع بيروت في أحد أجمل المواقع في العالم. وكان في الامكان أن نجعل منها أحدى أجمل مدن العالم لو أننا عملنا بموجب المخطط التوجيهي».

إن لجوء ميشال ايكوشار إلى وضع لو الشرطية مؤشر للتشويه الذي لحق بالمدينة منذ 1955[1]. كان إيكوشار، العالم العمراني الذي تألق في دمشق وكازابلانكا يتكلم انطلاقاً من تجربة طويلة في هذا المضمار. لقد عُهد إليه، في عهد الانتداب، أن يتصور خطة لاعادة تنظيم المدينة، لكن من دون نتيجة إذ لم يُنفذ مشروعه ولا أي شيء آخر. ولم يكن لهذا العهد الثاني من الحداثة من خطّة توجّهه بل ظلّ مستسلماً للفوضى ولمشيئة القدر.

لقرن خلا، استطاعت بيروت الجمع بين الحداثة والانسجام العمراني. وها إن هذا التوازن ينقطع فجأة في أواسط القرن العشرين مثيراً بعض التحذيرات لكن من دون ردود فعل تذكر. وفي معرض انتقادها عما يجري كتبت صحيفة الاوريان في عام 1954: «ما هي بيروت اليوم؟ إنها كومة من الأبنية القائمة بشكل عشوائي»[2]. والأسوأ المستقبل الذي ينتظرها. بعد انقضاء عشر سنوات، تخلى ايكوشار عن التورية في كلامه. وعندما استدعته السلطات اللبنانية وقد انتهى بها الأمر إلى الوعي لخطورة الأمر، أظهر ايكوشار تشاؤمه صراحة: «لا يزال بالامكان انقاذ بيروت لكن يجب المبادرة بالعمل فوراً وإلا أصبح الأمر مستحيلاً في السنوات القليلة المقبلة حتى لو انفقت مئات الملايين». عندئذٍ، اقترح خطته الجديدة دون أوهام يعلّل نفسه بها قائلاً إنها مجرد «خشبة لانقاذ الغريق»[3].

وفي غضون ذلك، أخذت هندسة الستينات تفعل فعلها. بالطبع، حصلت بعض الانجازات المهمة التي لو أخذ كل منها على حدة لجسّد قدرة المهندسين وبراعتهم في التكيف مع الاسمنت والزجاج. لكن، هنا، كما في كل مكان، بنيت هذه العمارات المعدّة للمكاتب ذات الواجهات الزجاجية بشكل سيء، وفي غضون سنوات معدودة ستزداد حالها سوءاً في معظمها. ولكن في مثل هذه الحالة، تقتصر التشوهات على الأحياء التجارية في المدينة. وكانت العمارات السكنية في كل مكان تزيد من تشوّه

المدينة ومعظمها مبانٍ مرتفعة من سبع إلى تسع طبقات، ولاحقاً من اثنتي عشرة إلى ست عشرة طبقة مع فقدان الانسجام بين طراز البناء وواجهاته. وفي غياب التنظيم المدني كانت الفوضى في تشييد الأبنية تحول دون دمج الأحياء السكنية الحديثة بالمدينة.

ولم تعد «سويسرا الشرق» تنطبق على المدينة إلاّ لجهة المصارف والفنادق الكبرى، ولم يعد من «نيس الشرق» إلاّ طريق النزهة على شاطئ البحر ووسائل الترفيه المعدة خصيصاً لأثريائها دون غيرهم. وهكذا بات التنظيم العمراني في بيروت هو المؤشر الأول عن تطور المدينة أو تخلفها. إنها مدينة من مدن العالم الثالث تواجه مرحلة خطيرة من الازدهار العمراني المخيل الذي ينذر بكارثة بيئية واجتماعية وشيكة. ما أبعدنا آنذاك عن هذا التوق إلى التجانس في وظيفة المدينة التي راعته بيروت الأساسية[4]، حين ظنّ ايكو شار أن كل شيء لا يزال ممكناً إصلاحه.

بيروت المتاحة

عندما استدعي ايكوشار في 1943 ليضع خطة لبيروت، لم يكن غريباً عن البلاد إذ كان يعرفها منذ اثني عشر عاماً. كان ايكو شار قد وصل إلى الشرق في 1932 فور حصوله على إجازة في الفنون الجميلة انتدبته دائرة الآثار مؤقتاً في دمشق وأنكب عندئذ على دراسة الهندسة العربية في سوريا مستهلا نشاطه بترميم آثار تدمر وصروح أموية، ومنشغلاً بتفكيك بعض المآذن حجراً حجراً وإعادة تركيبها. بات محط الأنظار عندما صمّم متحف دمشق وتحديداً عندما أدخل إلى إحدى واجهاته باباً أموي الطراز. انسحر ايكوشار ببساطة هذه الهندسة المتوسطية مشبهاً إياها بفن الباوهاوس، ولم يكف عن التجوال في سوريا ولبنان سائراً على قدميه أو راكباً فوق دراجته أو معتلياً متن طائرة. وقاده هذا الولع إلى الاهتمام بتنظيم المدن. أوكلت إليه مهمة انشاء دائرة التنظيم المدني في دولة سوريا فانكب على نفسه واكتسب المزيد من الخبرة خلال عمله نفسه الذي تكلّل بالنجاح[5]. وقبل أن يُستدعى للالتحاق بجنود الاحتياط في فرنسا عشية إعلان الحرب، تسنى له الوقت ليجهز خطة لتوسيع دمشق وإعادة تنظيم الإحياء فيها وتصميم مدخل المدينة المتصل بطريق بيروت[6]. وأبصرت الخطط التي اقترحها النور بعيد نيل سوريا استقلالها وأعطت صورة حقيقية عن نوعية عمله وخبرته. كانت الأحياء الجديدة المبنية في دمشق وفقاً لتصميمه وخصوصاً حي أبو رمانة تقوم على طول الجادات والشوارع المحفوفة بالأشجار وهي مؤلفة من مبانٍ صغيرة مستقلة من أربعة أو خمسة طوابق تطل شرفاتها وساحاتها على حدائق صغيرة. ومع انه لم يساهم في هندسة هذه المباني، ومع إنها لم تتميز بشيء لافت، إلاّ إن التنظيم الداخلي وانسجامها للأحياء مع الموقع يكشف عن حس عمراني وتناسق مع الطبيعة المجاورة قلما نشاهده في حركة العمران العصرية لمدن الشرق الأدنى. ودفعه الهام مماثل، لدى رجوعه إلى لبنان قبيل

عهد الاستقلال لينجز خطته التنظيمية لبيروت.

انطلق ايكوشار في خطته الأولية هذه المتعلقة بتوسيع المدينة من خلال انشاء علاقة توافق بينها وبين موقعها الطبيعي الذي اعتبر لأول مرة وحدة متكاملة بصرف النظر عن الحدود الإدارية والبلدية. وكان المشروع يغطي في الواقع كل المنطقة الممتدة من نهر الموت شمالاً إلى الأوزاعي جنوباً. كان ايكوشار متأثراً بالتطور الذي احرزته الحركة المعاصرة في الهندسة المعمارية في مواجهة كلاسيكية المفاهيم في الفنون الجميلة. لذا أراد أن يتخلى عن الصروح المهيبة والتنظيم المدني الذي يهتم ب «المجموعات الكبيرة» التي وسمت عهد الانتداب. قال متحدثا عن كازابلانكا: «إن التنظيم العام للمدينة الناتج عن المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والديموغرافية التي تعاني منها البلاد في مجموعها، ينطلق من تصور مسبق للمساحات الواجب توسيعها والأحياء المنتظمة داخل شبكة مواصلات متشعبة متصلة بالمرافئ والمطارات. أما دراسة الأحياء فترتكز على تصور معين للمدينة ينطبق على كونها خلية أو وحدة اجتماعية. وهذا المفهوم للحياة يجب أن يشمل جميع المقيمين على حد سواء لانهم تحدوهم الحاجة نفسها للضوء والمساحة والصحة والتربية والعمل»[7]. وانطلاقاً من هذا المنظار، سعى ايكوشار إلى الاعلاء من المنطق الذي يبرز المنظر الطبيعي ويضعه في واجهة الاهتمام. وبعد أن قام بجدولة للمساحات المزروعة والحدائق الموجودة بين التجمعات السكنية، وضع بالتفصيل جملة من الاجراءات التي تؤدي إلى إنقاذ الشواطئ والمساحات الخضراء - يمكن رؤية هذا التصور الذي يضع المنظر في الواجهة من خلال عدة مبانٍ شيدها ايكوشار في لبنان كالمدرسة الانجيلية في 1955 والليسيه الجديدة للبعثة العلمانية الفرنسية في مطلع الستينات.

لم يكن الشاغل البيئي لدى العالم العمراني مجرد بحث عن المتعة البصرية بل يندرج ضمن تقسيم محدد للمدينة إلى اثنتي عشرة منطقة يحدد تمركز الصناعات والأحياء السكنية والمراكز المدينية. وهذا التقسيم يخضع بدوره لرؤية شاملة للوظائف العمرانية التي تجعل تطور المدينة يتمفصل حول شبكة من الطرقات الرئيسية التي تصل العاصمة بداخل البلاد. ولم يكن ايكوشار غافلاً عن دور بيروت التجاري، بل خلافاً لذلك، كان يسعى لتوسيع المرفأ وإنشاء حوض إضافي أكبر اتساعاً واستبدال مطار بئر حسن بمطار جديد.

وبالفعل انشئ المطار الجديد فوق الموقع الذي اقترحه ايكوشار. لكن، فيما يتعلق بباقي الخطط لم ينفذ إلاّ بعضها، وعندما جرى تنفيذها كان ذلك بشكل متقطع كما لو أن هناك إرادة خفية بإفراغها من محتواها. لذا، يعتبر أن عمل ايكوشار ظلّ صورة غير مظهّرة حاسماً في تاريخ العمران البيروتي وانه أخفق في تحقيق الحد الأدنى من النجاح، لأنه حدّد قوانين اللعبة التي لن تلعب أبداً ووضع في الصدارة أولوية القضاء على التشويه الحاصل في صورة المدينة جذرياً وإلاّ ستكون بيروت المستقبل مدينة حقيرة

إلى الأبد، كما إن محاولته الثانية ستبوء بالفشل.

صحيح أن انتقادات وُجهت أحياناً إلى تصورات إيكوشار وأفكاره. لكن هالة من الإجلال والتعظيم لا تزال تحيط بهذا المهندس الذي بذل كل ما بوسعه لتنظيم مدن العالم الثالث ولا سيما في لبنان[8]، كما في سوريا حيث نفذت خططه في حلب ولمرتين على التوالي في دمشق[9]. أما البيئة المهنية – والثقافية – التي أحاطت بإيكوشار في بيروت فلا تُفسّر ذلك إلاّ جزئياً. لم يكن ايكو شار هنا مجرد خبير أجنبي بل زعيم مدرسة بالأحرى يتحلق حوله الزملاء والأنصار وكان بعضهم يشغل أحياناً وظائف عليا، فيما المهندسون السوريون، من جهتهم كانوا يميلون إلى الهجرة على أية حال. هذا الاجلال يفصح عن الشعور بأن مساعيه لاصلاح الوضع بدءاً من العام 1944، كانت فرصاً ضائعة.

أما أن هذه الخطة لاعادة التنظيم المدني لم تُنفذ، فهذا ليس بسبب عيوبها الواقعية أو المتوهمة، بل لان هذا المسعى العمراني يفترض، بسبب من تماسكه، تنظيماً للعقارات وبالتالي استملاكاً للكثير من قطع الأراضي بحيث يحرم أصحابها من حق استثمارها في ظل هذه الشروط.

مدينة لا روادع لها

واجهت الجمهورية، والتي تجلّت بتهاونها الكبير في عهدي الرئيسين بشارة الخوري وكميل شمعون، الكثير من الانتقادات. كانت الأرباح الأولى التي تدرها «المعجزة اللبنانية» بعد وقت قصير من وضع ايكوشار خطته، توحي للكثيرين من أركان النظام بأنهم يستطيعون صرف النظر عن سياسة مدروسة للتنظيم المدني. وهكذا، لم يسمح تداخل المصالح الخاصة بالشؤون العامة بأن تطرح المسألة الجوهرية التي تحدد من خلالها علاقة هذه المصالح بالتنظيم العمراني. كانت فرصة الانماء متاحة وكان الإقبال شديداً على البناء وحين يكون الأمر كذلك [يكون كل شيء على ما يرام...]. أعطيت 350 رخصة بناء في 1945 و 1261 رخصة في 1955 فيما ارتفعت المساحة المستثمرة من 662 هكتاراً إلى 2730 هكتاراً ومن 10.000 م2 إلى أكثر من 600.000 م2[10]. أما البلدية فلم تكن بمنأى عن المضاربين، وكانت في الواقع مجردة من أي سلطة فعلية تسمح لها بالوقوف في وجه التيار. ونظراً لان بيروت عاصمة البلاد، ظلت خاضعة، وفقاً للنموذج الباريسي المتبع في تلك الحقبة بشكل مباشر لوصاية السلطة المركزية التي يمثلها المحافظ. ولنفرض أن المدينة كانت لديها الوسائل التي تتيح لها أن تتدخل فكانت ستنقصها، رغم كل شيء، القدرة على سن القوانين وكانت لا تزال إذاً منوطة بالمبادرات الحكومية الشحيحة للغاية.

ونظراً لعدم وجود الخطة المدروسة، لم يكن أمام البنية العمرانية الجديدة والحالة هذه إلاّ الالتزام

بتقديم طلب رخصة بناء كما كان يحصل من قبل والخضوع للجدولة القديمة للمدينة ولمنطق المضاربة. وكان انتشار المحلات التجارية يتمحور حول المركز التجاري في الأربعينات والخمسينات من القرن الماضي على شكل دوائر نصفية مندفعة نحو المركز. بادئ الأمر، كانت هناك حلقة شبه تجارية تتجمع فيها غالبية النشاطات ذات الطابع العام كالمدارس والمستشفيات، ثم يتبعها من الجهتين أحياء سكنية جديدة تزداد كثافة وتمتد على المساحات الخالية في تلال الأشرفية والمصيطبة ممهدة كثبان الرمل في منطقة الرمل الظريف وساقية الجنزير ومستثمرة الحدائق المزروعة بالبقول في فرن الشباك – المنطقة الواقعة خارج الحدود البلدية – ورأس بيروت الذي شكّل قربه من الجامعة الأميركية عامل جذب للبورجوازية الفلسطينية، وأخيراً مساحات مدمجة حديثاً عند الأطراف وعلى وشك أن تغص بالسكان[11].

بدت الدولة آنذاك مهتمة بتلبية حاجات المدينة التجارية والسياحية مسهلة الدخول الى الوسط التجاري. واستوجبت ورشة المطار الجديد في خلده في نهاية الأربعينات إنشاء الطريق المؤدية إليه. وفي الوقت نفسه، كانت دائرة البلديات والتنظيم المدني، بإشراف من السويسري أرنست إيغلي Ernest Egli، تحضّر عدة مشاريع مستوحاة من اقتراحات ايكوشار وتتعلق بمنافذ طرقات دمشق وطرابلس وصيدا، وكذلك انجاز الكورنيش على الأطراف الذي بوشر به في ظل الانتداب وترسيمة الطريقين المؤديتين إلى وسط المدينة. لكن، كانت هموم أخرى تشغل بال ايغلي كما يظهر ذلك المعرض الذي أقامه عام 1950 وكان محوره «العمران العالمي». لكن الكلمة الفصل كانت للمانعة التي أبداها المضاربون العقاريون وساندتهم فيها بقوة دوائر السلطة والبلدية[12]. ونتج عن المعرض إنشاء «خريطة مفصلة لبيروت» تكتفي باستعادة جزء من شبكة الطرقات المرسومة في خطة ايكوشار. خطوة إضافية، لكنها متأخرة، أنجزت في فترة لا تتعدى السنتين ورافقها قانون يقضي بتقسيم المنطقة البلدية إلى عشر مناطق تحددها المصالح المشتركة لمالكي العقارات وأصحاب الأبنية تبين استثمار الأرض. وإذا كان منطق تقسيم المدينة يظهر ضرورة القيام بخطة مدروسة، إلا أنه أفرغ من محتواه من خلال إبرام القانون الذي شرّع الأبنية القائمة كما شرّع تملك الأراضي الذي بلغ في وسط المدينة نسبة تتراوح بين 70 و100%. وأجيز ارتفاع البناء إلى سبعة طوابق. كذلك، لم يقل أصحاب العقارات كلمتهم الأخيرة. وبعد بضعة أشهر، ذهب البرلمان إلى حدّ تعديل القانون العام للبناء، الساري المفعول منذ 1940، من خلال السماح بإضافة طابقين إلى عدد الطوابق المجاز حتى ذلك الحين[13].

ومع ذلك، كان بإمكان جمهورية التجار، حين يحلو لها ذلك، إن تستند إلى منطق التنظيم التخطيطي المدروس. ويمكن التثبت من ذلك من خلال مشروع إنهاء شارع رياض الصلح حيث تتجمع مراكز المصارف. وجرى تنفيذ هذا المشروع بدءاً من 1952 بفضل قانون الاستملاك الذي يجيز نزع الملكية



الجانب الخلفي لشارع المصارف مقابل الحمامات الرومانية، بعد ترميمه في التسعينات.

الفردية من أجل المنفعة العامة، لقاء بدل عادل متيحاً إنشاء المجموعة العمرانية الوحيدة في وسط المدينة عقب الانتداب وقبل مشروع إعادة الإعمار في نهاية القرن العشرين. استلهم شارع المصارف أسلوباً نيوكلاسيكياً ملطفاً ببعض الاستعارات المأخوذة بنجاح من أسلوب الواجهات النيويوركية – دون أن تحاكي ارتفاعها – وظهر الشارع من خلال هندسته على مستوى الدور الاقتصادي الدولي الذي تلعبه المؤسسات التي تشغله. أنجزت تخطيط تنظيم الشارع شركة خطوط «البان اميريكان» عام 1955، وذلك بفضل جهود المهندسين جورج الرّيس وتيو كنعان – وكلاهما من أصل فلسطيني وقد درسا في لندن. صمّمت قواعد الأعمدة بحيث سمح للأبنية القائمة فوقها بأن تعانق المنحدر العامودي للسراي الكبير، عند زاوية السور القديم[14]، مشيرة بذلك إلى أحد المداخل الرئيسية لوسط المدينة.

ولم ينحصر هم التخطيط التنظيمي في شارع المصارف بل تجلى في أمكنة أخرى لكن المسؤولين لم تكن لديهم رغبة في استمراريته. سعت السلطات العامة للتدخل من أجل تنظيم عدة طرقات قريبة من وسط المدينة، ولم تتردد في هدم الملحقات والمباني القديمة كذلك البيت مثلاً الذي أقام فيه لا مارتين[15]. إلاّ أن هذه البوادر الحسنة بقيت مع ذلك مرحلية، واصطدمت جذرياً، نظرا لعدم اعتمادها خطة مدروسة، بـ«اللوبيات» العقارية. ولم تسع الدولة إلى تعديل اتجاه الممارسة الهندسية عبر توصيات عامة من شأنها تنظيم عادات المجتمع والابقاء على بعض المعالم التاريخية في المدينة. وإذا

استثنينا مطار بيروت لوجدنا إن ولاية الرئيس بشارة الخوري لم تتميز إلاّ بإنشاء قصر الاونيسكو الذي بُني على عجل طبقاً لتصميم فريد طراد، وكان الهدف منه استضافة المؤتمر العام لمنظمة الاونيسكو في عام 1948[16]. وتمثل المشروع الكبير لولاية الرئيس شمعون في المدينة الرياضية التي تقرر انشاؤها استجابة لضرورة الحفاظ على هيبة الدولة في الخارج من خلال استضافة الدورة العربية للرياضة. صحيح أن الأوتوستراد الساحلي باتجاه الشمال خطط له ولكن لم ينفذ منه في العام 1955 إلاّ القسم المؤدي إلى المعاملتين التي ستحتضن فيها بعد كازينو لبنان العتيد. أما في مجال الاهتمامات الفنية، فكل ما فعلته الدولة هو إنها عهدت لنحات ايطالي بإقامة تمثال جديد للشهداء ليحلّ مكان تمثال يوسف الحويك الذي شوهه جزئياً احد المختلين عقلياً، خصوصاً إن ملاحظات عديدة وُجهت لهذا التمثال، ولم يُتخذ القرار بترميمه. كان التمثال الجديد للشهداء منحوتاً وفقاً لأسلوب كلاسيكي فخم، معبّرا أصدق تعبير عن الإباء الوطني، لكنه لم يكتسب معناه الحقيقي إلاّ بعد أن جعلته الشظايا والرصاص التي اخترقته أثناء الحرب أثراً ينتمي لفترة ما بعد الحداثة.

ويعود الفضل في الترويج لأسلوب هندسي يجمع بين ما أضافته الحداثة وخصوصية المدينة العربية المتوسطية إلى المبادرة الفردية أكثر منها إلى الدولة أو البلدية. وقد ساهم أنطون تابت، الذي يعود عمله لفترة عهد الانتداب، في إضفاء طابع عقلاني على إنجازات هندسية عديدة كالمكاتب والكنائس والمنشآت المدرسية. وأولى مهندسون معماريون آخرون ينتمون إلى جيل أحدث عهداً، اهتماماً اوليا ببساطة الأحجام المتمفصلة حول لعبة الفراغ والامتلاء من دون أي زخرفة أخرى سوى الواجهات المعقوفة إلى الداخل وطلي المباني الجديدة بالألوان، خصوصاً الأصفر منها في الأحياء السكنية التي تشهد نمواً متزايدا[17].

وتجدر الإشارة إلى أصداء لفن الباوهاوس في أكثر من مبنى في هذه الأحياء السكنية التي أنشئت في الخمسينات. لا نعرف ما إذا كان هذا التأثير آتياً مباشرة من أوروبا أو انه انتقل بواسطة أمكنة أخرى. ثمة إفتراض يقول إن هذا التأثير أتى عن طريق تركيا حيث كان يعمل أحد الاساتذة الألمان. وبالامكان أخذ هذا الافتراض بعين الاعتبار. وهناك نظرية أخرى تجعل هذا التأثير فلسطيني المنشأ، لكنها تصطدم بأمرين مختلفين يتعمد اغفال تفسيرهما: الأمر الأول بسبب سوء العلاقة بين اللبنانيين والفلسطينيين منذ حرب 1975، والأمر الثاني أكثر إرباكاً أيضاً وهو يعود إلى إقامة وطن لليهود في فلسطين قبل 1948. مثلاً، الحفلة الموسيقية الوحيدة التي أقامتها في بيروت عام 1946 فرقة أوركسترا فلسطينية (والموسيقيون يهود) اختفت تماماً من الذاكرة ولم يعد لها أثر. فهل الظاهرة نفسها تكررت بالنسبة للهندسة؟ الواقع أن حياً وفق أسلوب الباو هاوس قد أنشئ في تل أبيب في الثلاثينات يوم كفّ الاستيطان الصهيوني الحديث العهد والذي يعود إلى عام 1911، عن أن يكون مجرد ضاحية في

يافا. ويكشف الكثير من هذه الأبنية عن تشابه مع تلك التي أنشئت في بيروت في الخمسينات. بالطبع، لا يمكن ردّ السبب إلى آلية ما، لكن يجدر التذكير فقط بأن الحدود، قبل 1948، لم تكن قد أقفلت كلياً في الاتجاهين. أضف إلى ذلك أن غالبية المهندسين الالمان الذين ساهموا في بناء هذا الحي في تل أبيب لم يكونوا صهاينة بل على العكس مناهضين للصهيونية وقد التحق بعضهم بالحزب الشيوعي الفلسطيني الذي كان على اتصال بالحزب الشيوعي السوري اللبناني. ويمكن لنا بالتالي الافتراض أن تبادلاً حصل في وجهات النظر بين المهندسين المناضلين أو رفاق الدرب المنتمين إلى الحزبين[18]. ثم حصلت نكبة 1948 ودفعت إلى بيروت بالمهندسين الفلسطينيين أمثال جورج الريس وتيو كنعان وبهيج المقدسي. وقد أتى كارل شاير Karl Shayer الشريك البولوني لبهيج المقدسي بنفسه إلى بيروت عبر فلسطين. وكان لدى شاير، من جهة أخرى شريك آخر، الألماني فريتزغوتهلف Fritz Gothelf وهو مهندس معماري تأثر بالأسلوب الهندسي لمدرسة الباو هاوس[19]. وأياً تكن جذوره الجغرافية، يشهد هذا التأثير الباوهاوسي على امكانية استنساب اسلوب متناسق حديث بالرغم من غياب الخطة المتكاملة. لكن الأمر أصبح لاحقاً أكثر صعوبة.

وأظهرت بعض الانجازات التي أجريت وفقاً لمبادرات خاصة والمعاصرة للتخطيط التنظيمي في شارع المصارف، ان تشجيع الاستثمار العقاري يمكنه أن يندرج بصفته استمراراً للجهود العمرانية العثمانية ومن بعدها الفرنسية. أنشئ أولاً مبنى اللعازارية وفقاً لهندسة الفرنسي أندريه لوكونت André Leconte في 1953 مكان دير راهبات المحبة عند تقاطع شارع المير بشير وساحة الشهداء. كان المبنى أول نموذج لمركز تجاري بهذا الحجم يضم شققاً للمكاتب ومخازن تجارية منتظمة حول باحة فسيحة رئيسية. استطاع المبنى التلطيف من ضخامة حجمه من خلال هندسته الذاهبة في العرض الخالية من الرتابة وانسياب خطوطه الأفقية المزينة بالحجارة الصفراء. وأقيم في الطرف الآخر من الشارع الموازي لمبنى أل «بان أميريكان» مبنى العسيلي الذي ضمّ سينما الكابيتول، وكان جورج عرمان Georges Araman وجيورجيو ريتشي Giorgio Ricci قد صمماه على شكل باخرة كبيرة يعلوها جناح دائري ذو قبب متساوية. ثم أتى مبنى المكاتب الذي صممه سعيد حجيل بتوجيه من جمعية المقاصد مالكة العقار، ليكمل في عام 1954 الواجهة الشمالية، في مكان السراي الصغير القديم الذي هدم عام 1950 بذريعة إن اعادة هيكلته تتطلب كلفة باهظة. وأدى البناء الجديد إلى سجال حادّ بين أنصار انفتاح الساحة على البحر ومعارضي هذا الانفتاح. إلاّ أن الطراز النيو - واقعي الرصين الذي بُني وفقاً له وواجهته المبنية على الطريقة الأميركية التي تحتلها لافتة سينما ريفولي والملصقات الفارعة للأفلام المصرية، جعلت منه أحد المعالم الأكثر بروزاً في وسط المدينة[20]. وفي الحالات الثلاث، تمّ هذا الإنجاز بفضل توفر قطعة أرض كبيرة المساحة فيما كانت تجزئة الملكيات إلى قطع أرض صغيرة

في باقي المنطقة تؤدي إلى الازدحام والعشوائية. كذلك أفاد مبنى فتال الكبير، في أسفل شارع أللنبي، وهو أيضاً، من اتساع رقعة الأرض التي بُني فوقها.

وبرز النقص في التنظيم الرسمي للعمران من خلال نمو شارع الحمراء بدءاً من نهاية الخمسينات. وإذا كان هذا المركز الجديد العصري سينافس، إبّان العقد المقبل، الوسط التجاري في قلب العاصمة، فإن هذا لم يجرِ وفقاً لأي خطة موضوعة مسبقاً[21]. لا شك أن المدينة بدأت منذ القرن التاسع عشر بالتوسع نحو المسافات الخالية عند غرب اللسان البحري ولا ننسى قدرة الاجتذاب التي مارسها كامبوس الجامعة الأميركية. لكن شارع الحمراء ولد دون أن يُنذر أحداً. وكانت نقطة الانطلاق في عام 1958 حين أنشئ مبنى عصري للمكاتب حيث افتتح في السنة المقبلة في الطابق الأرضي «الهورس شو»، المقهى - الرصيف الذي أصبح ذا شهرة اسطورية. صمّم المبنى المهندسون بهيج المقدسي وكارل شاير وواثق أديب، وكان أول عمارة في بيروت أدخل الزجاج والفولاذ إلى بنيانها. كذلك أنشئ مبنى محاذ له مماثل في البنيان صمّمه جورج الريس محتضناً أول قاعة سينما في شارع الحمراء ومقهى - رصيفاً آخر هو «الكافيه دو باري». ويمثل هؤلاء المهندسون صنفاً نادراً هم وكفلاؤهم لانهم، وبالرغم من عدم وجود خطة تنظيمية مسبقة - اختاروا بأنفسهم أن يقوموا بأعمال عمرانية تتسم بالجدة منسقين بين مستوى سطوح الأبنية واستمرارية الخطوط الأفقية فوق الواجهات[22]. لكن هذه البادرة الناضجة



بيروت في سبعينات القرن العشرين: امتلاء المساحات الفارغة في غربي المدينة، بين البحر والجامعة الأميركية.

لم تشكل نموذجاً يحتذى به ونما شارع الحمراء فيما بعد بطريقة عشوائية. أما الدولة فأكملت مسيرتها مكتفية بتزفيت الطرقات الريفية القديمة في الحي.

ومهما يكن فضلهم، لم يستطع مهندسو تلك الحقبة - ولا الحقبة التالية التعويض بمفردهم عن غياب الدولة ولا عن حسابات الربح التي كانت هاجس أصحاب المشاريع على المدى القصير. ثم أن أصحاب المشاريع كانوا يعتبرون المهندس منفذاً يجدر به الخضوع للمنطق التجاري. هذا، ولم يكن المهندس المعماري ضرورياً حتى، لان القانون ملتبس في هذا الشأن ويسمح بأن يوقع على رخصة البناء مهندس مدني فقط. وكان أصحاب المشاريع، ما إن يتأكدوا من الحصول على موافقة البلدية والسلطات العامة وينالوا الرخصة حتى يغيروا التصاميم التي وضعها لهم في الأصل المهندس المعماري. وكانت نتيجة هذا التهاون أن تكدس العمران في وسط المدينة والأحياء المجاورة بالرغم من المساعي الهادفة للتخطيط التنظيمي، وذلك تزامن مع توسّع سريع الوتيرة.

على طول طرق المواصلات وعلى امتداد الواجهة البحرية، كانت المناطق المدمجة حديثاً عند تخوم المدينة تكتظ بالسكان وتثبت أقدامها تاركة خلفها عشرات آلاف السكان يعيشون في شروط سكن غير ملائمة. وفي نهاية عهد الرئيس شمعون، مولت وكالة التنمية الأميركية بعثة لدراسة الواقع السكاني في لبنان عُهِدَ بها إلى مكتب المهندسين - المستشارين Doxiadis Associés الذي كرّس قسماً كبيراً من الدراسة لبيروت[23]. لكن الحرب الأهلية التي اندلعت في 1958 حالت دون تنفيذ هذا المشروع.

لقد مضى الزمن الذي كانت فيه بيروت مدينة جنائنية في عهد الانتداب وانحسرت تلك الحدائق لتنشأ عليها بقعة عمرانية كثيفة أكثر تراصاً واتساعاً. كانت الأولوية للربح المادي بغض النظر عن أي خطة أخرى، مما جعل طبقات جديدة ترتفع فوق الأبنية القديمة واستغلت الباحات الداخلية لتصير أمكنة سكنية وملئت جميع الفراغات القائمة بين العمارات. ومن حول المركز ساهم غياب السياسة العقارية للدولة والبلديات بمصادرة كل بقعة أرض إضافية يمكن استخدامها لاحقاً لتهوئة المجمعات السكانية المكتظة. ولا يمكن الاعتماد فقط على التهوئة الناتجة عن المساحات الخضراء في الأبنية الريفية المحاطة بمجموعة من الانشاءات الحديثة. لا بل على العكس، ساهمت بقايا الأجزاء الريفية هذه في المشهد المديني بزيادة القطيعة بينها وبين الأجزاء المستحدثة في غياب الواجهات. أضف إلى ذلك إن تصميم شبكة الطرقات لم يلحظ أي توجيهات بشأن إنماء الأحياء السكنية. ولم يكن نادراً أن نرى جادات واسعة تتحول فجأة إلى شوارع ضيقة[24]. وفاقم من إجراءات الاستملاك في سبيل المصلحة العامة، وهذا تقليد في المدينة منذ نهاية القرن التاسع عشر، انعدام الفصل بين العام والخاص المتمثل في كيفية إدارة شؤون الدولة، كما تركت الأعمال التي نُفذت على مراحل انطباعاً بأنها غير منجزة.

عودة إيكوشار

بلغ التشوه العمراني مرحلة متقدمة جداً عندما صممت السلطات العامة على التدخل بشكل أكثر جذرية. حدث ذلك في عهد ولاية الرئيس فؤاد شهاب 1958 - 1962 التي تميزت على الصعيد الوطني بسياسة إنماء ارادوي الطابع هدفت إلى الحدّ من اللامساواة من خلال الاصلاح الإداري وخلق مؤسسات جديدة لتعزيز سلطة الدولة والالتفاف حول البيروقراطية عن طريق إنشاء وزارة التصميم ودوائر مختلفة مستقلة وإنشاء مصرف مركزي والضمان الاجتماعي والقيام بإجراءات خارج العاصمة كإنشاء السوق الشعبية في طرابلس التي عهدت الدولة بتصميمها إلى نيميير Niemeyer وزيادة النفقات العامة لتصل إلى ثلث الناتج القومي أي ما يعادل تقريباً النسبة المخصصة في سوريا مع إن اقتصادها كان موجهاً آنذاك[25]... في معرض سعيه إلى الحد من انعدام التوازن بين العاصمة والضواحي لتندمج الضواحي بشكل أفضل في نسيج الوطن، لم يهمل المشروع الشهابي مع ذلك بيروت. والى جانب المجلس التنفيذي للمشاريع الكبرى الذي جاء ليدعم وزارة الأشغال العامة، عُهد لأحد المجالس الأخرى المستقلة بمتابعة المشاريع في العاصمة. كذلك أفادت بيروت من الروحية التي أطلقتها مجموعة التشريعات الجديدة وأهمها القانون المتعلق بالتنظيم المدني المعتمد عام 1963. للمرة الأولى ينفذ هذا القانون على مجمل البلاد مدخلاً مفاهيم جديدة لم تكن موجودة حتى ذلك الحين كقانون الملكية العقارية والمحافظة على البيئة. وعهدت بمهمات التنظيم المدني إلى دائرة تُعنى بهذا الشأن.

ومن المفارقات الغريبة أن حسنات هذه السياسة تحولت إلى سيئات، ذلك أن إرادة المخططين الصلبة في فرض ايديولوجيتهم التقنية اصطدمت بمصالح أصحاب الأملاك ذوي النفوذ السياسي في العاصمة ببيروت. كانت ملكية بعض الأحياء في وسط المدينة كساحة الشهداء والأسواق تعود إلى أقل من قرن. صحيح إن وسط المدينة تمّ تجديده منذ ثلاثين عاماً في ظل الانتداب، لكن التشوه الذي جرى خلال بضع سنوات كان كافياً لكي تبدو معه المدينة قديمة ولكي يقطع الطريق على القيام بأي محاولة إصلاح[26]. أجل، فات الأوان أيضاً للحد من انتشار المرض الذي بدا وكأنه ينقل عدواه إلى المركز التجاري الجديد في منطقة الحمراء، حيث حُولت الطرقات الريفية القديمة على عجلة إلى طرقات اسفلتية. وللحال، بدأت أعمال التخطيط متجاهلة الوسط التجاري وساعية فقط للحدّ من الأضرار من خلال ترسيمة للمحاور الكبرى للسير وإنشاء ما يشبه الحلقة حول المركز. لئلا تبلغ الفوضى المناطق التي يجتاحها العمران تدريجياً.

وتأكيداً منها على أن وسط المدينة بات خارج دائرة سيطرتها، سعت السلطة لإخراج مؤسساتها تدريجياً من بيروت. بقي البرلمان في مكانه واستمرت رئاسة الحكومة متمركزة في الثكنة العثمانية

القديمة التي تحولت إلى السراي الكبير. لكن رئيس الجمهورية ترك مقر الرئاسة القديم الذي اختاره بشارة الخوري فوق تلة القنطاري وحيث أقام كميل شمعون سابقاً، ليتمركز في منطقة جونيه، وهي المدينة التي ينتمي إليها. ثم وُضعت فكرة بناء مدينة حكومية خارج حدود بيروت الإدارية موضع التنفيذ. كما عُهد إلى مدير شركة دوكسياديس Doxiadis Associés وهو على معرفة سابقة بالبلاد، ليدرس الخطة محدداً موقع المدينة و شكلها. عندئذٍ اقترحت أربعة مواقع وكلها خارج الحدود الإدارية للمدينة بهدف انشاء مجمع ضخم يضم مجمل الوزارات[27]. واقتضى الأمر تدخل ايكوشار الذي بقي على صلة بلبنان، عندئذٍ تمّ تقسيم المدينة الحكومية إلى موقعين أولهما في الحدث جنوب شرقي بيروت وثانيهما في بئر حسن مكان المطار القديم. لكن المشروع توقف فجأة. والمناقصة التي أطلقت عام 1962 على ميدان آخر انتهت بإنشاء مبنى واحد وهو وزارة البريد والبرق والهاتف في بئر حسن. واقتصرت خطة توزيع المباني الرسمية على القصر الجمهوري بحيث تم إنشاء مقر رئاسة الجمهورية فوق تلة بعبدا. أنجز القصر في نهاية الستينات وجعله الرئيس شارل حلو مقراً له في الأشهر الأخيرة من ولايته. وأنشئت بالقرب منه وزارة الدفاع. كما أقيمت مبانٍ لعدة وزارات في الضواحي ولم يلبث أن حاصرها الاجتياح العمراني. حتى أن وزارة الشؤون الخارجية التي تقع في أحد القصور الفخمة لآل بسترس في حي سرسق، همّت بأن تنقل مركزها إلى مكان آخر.

وفي غضون ذلك، استمرت دراسة التجمع السكني في العاصمة التي حفزتها النتائج التي توصلت إليها بعثة إيرفد فيما يتعلق بالنمو الاجتماعي وصاغت من خلاله عبارة «بيروت الكبرى». واقتضى على الخطة التفصيلية المتعلقة بالتنظيم المدني في بيروت الكبرى أن تجسد على أرض الواقع حقيقة هذا الكيان الجديد، وهدفها التخطيط لولادة عاصمة تمتد حتى مشارف جونية شمالاً والناعمة جنوباً محتضنة نصف سكان لبنان. ومن جديد استدعي ايكوشار للمشاركة في تطبيق هذا المشروع الكبير.

منذ انتهت إقامته في المغرب عام 1953 وبالتوازي مع أشغاله في افريقيا، قام ايكوشار بعدة زيارات طويلة الأمد إلى لبنان للإشراف على مشاريع مختلفة بالتعاون مع شركاء محليين كالمدرسة الانجيلية (بمشاركة كلود لو كور Claude le Cœur) وليسيه البعثة العلمانية (مع فايز الأحدب)، وكلاهما في بيروت، ومستشفى القلب الأقدس (بمساعدة هنري إده الذي سيصبح وزيراً لاحقاً) ومدرسة الآباء الأنطونيين (بمشاركة غبريال تابت) في ضواحي بيروت، في منطقة الحازمية – بعبدا ومدرسة الإخوة المريميين في صيدا (بالاشتراك مع أمين البزري، وهو أيضاً سيصير وزيراً فيما بعد) ومدرسة راهبات المحبة في طرابلس. لا بل انه اهتم أيضاً بالتنظيم المدني من خلال عمله على التخطيط لصيدا وجونيه وبيبلوس[28] قبل أن يستدعى للاسهام في مشروع المدينة الحكومية عام 1961. وتجدر الإشارة إلى انه افتتح وكالة في بيروت وقد رأى ايكوشار نصب عينيه، على مر هذه الزيارات، العمل غير المنجز الذي

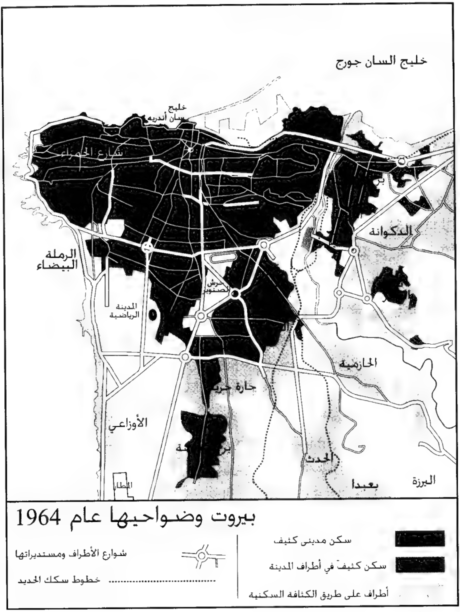
بوشر به عام 1944 ومشهد التوسع العمراني الذي جعل هذا العمل شبه مجهض. «منذ عشرين سنة وأنا أفكر في المشكلة التي تعاني منها بيروت وأعتقد إن الزمان انصفني بالنسبة لنقاط عديدة طرحتها فيها مضى»، هكذا كتب ايكوشار إلى أحد الموظفين الكبار في الدولة اللبنانية ثم أعرب لاحقاً عن السرور الذي سيشعر به فيما لو أدت المساعي الدؤوبة التي يقوم بها لخدمة هذه المدينة إلى نتيجة ما[29]. من هنا نستطيع أن نتبين كم إن هذا المشروع كان غالياً على قلبه. لكن ايكوشار تخلى عن المشاركة في المساعي الرسمية، ثم آل به الأمر للتخلي نهائياً عن المخطط الذي رسمه.

آخذاً بعين الاعتبار الاتساع العمراني وامكانياته المستقبلية، حدّد ايكوشار مساحة تمتد من الشمال إلى الجنوب، بين نهر الكلب ومنطقة الناعمة لتشمل مرتفعات الجبل حتى حدود الأربعمائة وخمسين متراً. لم يكن يفترض بانفجار النواة العمرانية، في نظره، أن يؤدي، تحت تأثير الضغط الديمغرافي إلى إزالة وجه المدينة العمراني. ساعياً إلى الحؤول دون التكاثر غير المضبوط للضواحي من خلال تجميع المناطق السكنية بحيث لا تمتد إلى ما لا نهاية على طول الطرقات[30]، دافع ايكوشار عن فكرة اندماج المدينة مع هذه المناطق الجديدة. ولأجل ذلك، يجب استبدال البنية الأحادية النواة الموروثة منذ الانطلاقة الأولى للمدينة والتي لم تعد تستجيب إلى شروط النمو في الستينات ببنية متعددة الخلايا منتظمة حول ساحات خضراء وأحزمة خضراء تكون بمثابة متنفس للمدينة. وإذا رأى ايكوشار بيروت «مقراً للنظام الاجتماعي»، تاق بشكل خاص إلى تغيير شروط السكن فيها. وبعد أن أحصى في الضواحي 60.000 نسمة متكدسين على مساحة 300 هكتاراً من الأكواخ و 200.000 نسمة يعيشون في ظل ظروف سكنية سيئة تنذر بمخاطر كبرى، سعى لأن يستوعب مشروعه السكني أكبر عدد ممكن من السكان، وهذا ما كان حققه خلال إقامته في المغرب[31].

وجسّد ايكوشار هذه الرؤية المعقدة من خلال سلسلة من الاقتراحات كإزالة مركزية النشاطات المحتشدة حتى الآن في وسط المدينة وإيجاد مدينة جديدة تستوعب القسم الأكبر من النمو الديموغرافي فوق كثبان برج البراجنة وحي السلم في الجنوب الشرقي واستبدال الضواحي المكتظة في منطقة برج حمود وغير المراعية لشروط السلامة العامة بمناطق سكنية مكثفة ملتحقة بالمنشآت الصناعية في الجديدة وجسر الباشا على طول نهر بيروت، بالإضافة إلى حماية التلال المكسوة بالأشجار المشرفة على بيروت وزيتون الشويفات من خلال تصنيفها «مناطق سكنية قليلة الاكتظاظ» حيث يفترض بالمباني أن تخضع لشروط قاسية، وكذلك تصنيف الشواطئ والغابات والمواقع الموجودة في مناطق خالية من البناء[32].

ومرة أخرى، لم تؤخذ إقتراحات ايكوشار إلاّ بالتقتير. كانت الخريطة التفصيلية، كما اعتمدتها الحكومة تفضي بإنشاء منطقة وظيفية تحدّ من اتساع المناطق الصناعية وبعض التجهيزات الرئيسية وبتجميد البناء على طول الشواطئ في بعض المناطق المحمية. وحصل تعديل في القرارات التنظيمية

يسمح بإضافة طابق يسمى «روف» فوق أبنية الخدمات وحول المصاعد على أسطح البنايات، واستبعدت شيئاً فشيئاً فكرة إعادة تنظيم المدينة والحدّ من امتدادها العشوائي. وبدل أن تعطي الاجراءات الإدارية النابعة من إرادة التخطيط هذه شكلاً جديداً للعاصمة، فإنها لم تؤد إلاّ إلى تفاقم الأمور الناجمة عن التهاون. وأخذت الحلقات السكنية تحاصر العاصمة حلقة إثر حلقة محكمة الطوق حول وسط المدينة ومسببة له الاختناق نتيجة سدّ المنافذ عليه من كل جهة. أما المدينة الجديدة التي



بيروت وضواحيها عام 1964

حلم بها ايكوشار فلم تبصر النور قط، بل نشأت مكانها أبنية عشوائية لا يجمع بينها جامع ولا يميزها شكل أو نسق وهي مبانٍ متلاصقة معزولة عن بعضها البعض والمساحات مبهمة ومدينة الصفائح تزداد صلابة مشكلة نواة حزام البؤس المقبل والمعقل العتيد لحزب الله في الثمانينات وبعدها.

ما لم يكتمل

لم يتبقَ من آثار عملية التخطيط التي تميز بها عهد الرئيس فؤاد شهاب والتي صانها من بعده شارل حلو (1964-1970) بوتيرة أخفّ، إلاّ بعض المشاريع والانجازات الكبيرة المتعلقة بشبكة الطرق. وأول هذه الإنجازات المقررة منذ وقت طويل الحدّ من زحمة السير على طريق دمشق من خلال شق طريق مواصلات كبيرة في الجنوب الشرقي عام 1960 أطلق عليها إسم شارع بشارة الخوري الذي يصل مباشرة غابة الصنوبر بساحة الشهداء التي كانت بمثابة نقطة الدائرة حيث تصبّ شبكة الطرق. وكان وصل صخور الروشة بنهر بيروت عبر كورنيش المزرعة وجادة فؤاد الأول ومفترق المتحف وقصر العدل الجديد يشكل نوعاً من حزام صغير. تجدر الإشارة إلى ان هذه الطريق كانت امتداداً للتنظيم التخطيطي الموضوع في عهد الانتداب والذي اقترحه ارنست ايغلي قيد التنفيذ. وفي الجهة الأخرى للمدينة، لم تنجز الطريق التي تصل جادة الفرنسيين بكورنيش المنارة لكن هذا لم يمنعها من تشويه ساحل عين المريسة. أما الإبقاء على مرفأ الصيد الصغير فقد تمّ على حساب الالتفاف حول جسر. كما شُقت طريق مواصلات صغيرة هي كورنيش التلفزيون تصل هذا الحزام الصغير بجوار الحمراء. وبين الكتلتين السكنيتين الكبريين شرقاً وغرباً. امتدت طريقان جانبيتان في الشرق العربي سمحتا بتجنب زحمة المركز التجاري، كما يُفترض. تصل الطريق الأولى أعلى تلة الأشرفية بتلة المصيطبة عبر البسطة وصولاً إلى كورنيش التلفزيون وقد سُميت جادة الاستقلال أومشارف الحي السكني الجديد المترف في شارع فردان. أما الطريق الثانية، التي اتخذت شكل طريق سريعة، فتعبر فوق الخاصرة الشمالية لوسط المدينة، لتجعل الاشرفية على مسافة ثلاث دقائق من الحمراء - هذا إذا لم نأخذ بعين الاعتبار الزحمتين عند طرفي الطريق كما يؤكد على ذلك اسمها «الرينغ» الذي كان إنجازاً للحلقة التي بوشر بإنشائها حول المركز التجاري في السنوات الأولى للاستقلال، ثم سميت فيما بعد بجادة فؤاد شهاب.ووضعت الخطة الأولية لايكوشار التي تعود إلى عام 1944، في خدمة الرؤية الادماجية للنظام الشهابي الذي أخذ عبرة من الحرب الأهلية القصيرة لعام 1958. كان يُفترض بإنشاء جادات الطرق واختراقها الأحياء السكنية أن يخفف التلاحم الداخلي للأحياء التي تتصف بهوية طائفية بارزة ويجعلها تتصل فيما بينها.

كانت المشاكل المتكررة المتعلقة بنزع الملكية تضع العوائق في طريق القرارات التي تتخذها

السلطات العامة، وكذلك الايقاع البطيء المستعاد لنشاط الدوائر بعد نهاية عهد شهاب. وهكذا ساهم التوسع العمراني الذي لم يُلجم قط في التحجيم من نتائج الانجازات التي قامت بها الحكومة، فيما بعض المشاريع لم تبصر النور قط. تلك كانت حال القسم الشمالي لطريق المواصلات الكبيرة التي يفترض بها أن تصل طريق دمشق بالمرفأ والتي أقفلت عند حدود مدرسة الحكمة بسبب معارضة الكنيسة المارونية مالكة الأرض المحيطة بهذا الحي. وانتظر القسم الجنوبي - الشرقي حتى التسعينات كي يُنجز، فيما بقي القسم الداخلي الذي بوشر به في ظل عهد سليمان فرنجية، الواقع بين معهد الحكمة وقصر العدل، غير منجز لحظة اندلاعة الحرب في 1975. كذلك الامر بالنسبة للطريق الأخرى التي يُفترض بها أن تصل طريق صيدا بوسط المدينة، والتي انجزت فقط بعد انتهاء الحرب.

لكن قاسماً مشتركاً كان يجمع بين كل هذه الانجازات وهو التموضع للمركز التجاري حيث يتركز النشاط الاقتصادي. والاستثناء الوحيد هو إنشاء محطة الطرق عند تخوم المرفأ بهدف التخفيف من احتقان السير في ساحة الشهداء. انجزت المحطة عشية الحرب وسميت بجادة شارل الحلو لكن المفارق التي تؤدي اليها لم تكن قد بنيت بعد ولم يتسن الوقت بالتالي لتدشينها. ما أن عاد السلام الى ربوع بيروت، اقتضى الأمر إعادة تأهيلها قبل تشغيلها. لكن ساحة الشهداء لم تعد موجودة آنذاك. كذلك لم تؤد المحاولتان الوحيدتان اللتان تقرر القيام بهما لمعالجة الكثافة العمرانية حول المدينة القديمة داخل الأسوار لأي نتيجة، وبقيت منطقتا كركول الدروز والصيفي مهمشتين لم يبلغهما شق الطرقات الذي جرى إبان الانتداب ولا حمى المضاربات بعد نيل لبنان استقلاله. وقد عهد بإحدى هاتين العمليتين الى نبيل طبارة وريمون داوود وبالأخرى الى عاصم سلام وبيار خوري، وكان المنسق ايكوشار نفسه - لا تزال بعض التصاميم الأولية المدونة بخط يده - لكنهما لن تذهبا أبعد من مرحلة الدراسة التمهيدية[34].

لم يتميز عهدا الرئيسين شهاب وحلو بإنجازات كثيرة في مجال الهندسة المعمارية، على الأقل في بيروت. كانت الأولوية ممنوحة للتنظيم التخطيطي على صعيد الوطن، لكن هذا لا يعني انه لم تكن هناك إنجازات هندسية اتسمت بجمالها في غير مكان كالمباني الحكومية التي شُيدت في الأقاليم الأخرى خارج العاصمة كسراي صيدا الذي صممه عاصم سلام والمجمعات المجاورة لوزارة الدفاع في الضواحي الكبرى لبيروت (التي صممها اندريه فوجنسكي André Wogenscky)، أحد آخر معاوني لوكوربوزييه في Le Corbusier[35]، وموريس هندية وقصر رئاسة الجمهورية (الذي صممته الوكالة السويسرية آدور وجوليار Ador et Julliard)، ولا ننسى الكلام عن بصمة نيميير التي تركها في معرض طرابلس. وفي بيروت، تجدر الإشارة مع ذلك إلى بعض المباني الفخمة، كقصر العدل الذي أنجزه فريد طراد عام 1963 بأسلوب متكلف ساعياً ليعكس الهيبة التي تتمتع

بها السلطة القضائية، ومصرف لبنان المركزي الذي صممته وكالة آدور وجوليار[36] وأنجز في 1964 وتشير خطوطه وأحجامه إلى انه قدس أقداس الجمهورية اللبنانية، وقد بنيت على غراره، ولكن على نحو مصغّر، مصارف أخرى في مدن أخرى من البلاد، ومبنى وزارة السياحة الذي أدخل إليه عاصم سلام تأثيرات ترقى إلى الماضي العربي لكن بلغة معاصرة، مستوحياً أسلوب البناء في بغداد آنذاك. ومبنى شركة الكهرباء، في أعلى المرفأ، الذي صمّمه بيار نعمه وجوزيف نصار وجاك عرقتنجي متأثرين بأسلوب نيميير، وأخيراً بيت المحترف اللبناني، الغاية في الدقة، وقد صممه بيار نعمه عام 1965 بقناطره الحادة المنتصبة بين الأرض والسماء.

ثمة إنجازات أخرى من ثمار المبادرة الخاصة جعلت من تلك الحقبة حقبة ازدهار للمهندسين المعماريين. بعد مبنى الهورس شو وسينما الحمراء، أكد بناء الشركة الجديدة لتلفزيون لبنان الذي صمّمه ويلي صيدناوي عام 1959 على النزعة الهندسية الجديدة القائمة على إدخال الزجاج والفولاذ إلى المباني.



مبنى الشل.

كما كرّس سنتر ستاركو الذي أشرف على تنفيذه فريق عمل سويسري في شارع جورج-بيكو عند أطراف الحي اليهودي، هذا النموذج في الهندسة، وكان مثالاً احتذى به أصحاب المشاريع لبناء مجمعات أخرى في المستقبل تضم مبنيين أو ثلاثة في مركز واحد[37] كمبنى الجفينور. وفي الروشة، في الموقع الذي لا يخلو من الصعوبة، نجح مهندسو الهورس شو الثلاثة وهم مقدسي وشاير وأديب في تصميم مبنى «الشل» (في الصورة) الذي يضم شققاً ومكاتب في آن. كان هذا المبنى يتميز باتساع شرفاته، وبالرغم من ارتفاعه، استطاع الاحتفاظ بشكل مجنح يبرزه سطحه الأشبه بجناح طائرة. وكان فندق الكارلتون في القطاع نفسه المواجه للبحر يشكل نجاحاً عمرانياً آخر للثلاثي الهندسي مقدسي وشاير وأديب، بحدائقه المطلة على الكورنيش. وبالرغم من أن فندق فينيسيا الذي صممه الأميركي ادوارد دوريل ستون وفردينا ند داغر ورودولف الياس، أكثر ضخامة، إلاّ أن مهندسيه نجحوا في التخفيف من ضخامته عبر الزخرفة ذات الطابع الشرقي لشرفاته، هذا بغض النظر عن روعة البار المطل على البيسين. وفي عام 1967 أدخل المهندس الانكليزي أنطوني ايرفينغ إلى المبنى الذي شيده للأميركان لايف على طريق المطار، أسلوب الهندسة المحلية مطعماً بإطار معاصر - وسيشكل ديكوراً لفيلم «سفارة» Embassy، كذلك سيكون أسلوب

بناء الكلية الجديدة للفنون والعلوم التي صممها سمير خير الله في الكامبوس الأميركي أو مسجد غابة الصنوبر حيث استبدل عاصم سلام القبة التقليدية بصدفة عائمة وأعطى المئذنة شكل برج مكشوف. وبلغت النزعة إلى التعصرن الأطراف المحيطة بوسط المدينة، إذ أنشئ بالقرب من مجمّع اللعازارية، عند منفذ شارع بشارة الخوري، مجمّع جديد احتضن سينما راديو سيتي التي بنيت على شكل بيضة، وعند المنفذ الشمالي – الشرقي من ساحة الشهداء صمّم هنري إده في مطلع الستينات مركز بيبلوس التجاري الذي ضم لاحقاً سينما بيبلوس التي تحمل الاسم نفسه.

ويجدر التذكير بمهندسين آخرين مثل بيار خوري وخليل خوري وغريغوار سيروف Grégoire Serof وراوول فرني Raoul Verney وجاك ليجيه – بلير Jacques Liger-Belair الذين قاموا بأعمال جليلة في بيروت وجوارها في الستينات والسبعينات من خلال عدد من الانجازات والمباني السكنية والمدارس والدارات[38]. وحتى المهندس الكبير الفار آلتو Alvar Aalto الذي وسم بطابعه شارع الحمراء من خلال مجمع بنك صباغ (الذي سيصبح فرنسبنك Fransabank) بالاشتراك مع السويسري ألفرد روث Alfred Roth، مدير جامعة زوريخ. ليس إبداع المهندسين مثار جدل ها هنا، لكن إنجازاتهم، مثلها مثل أفكار ايكوشار، ستكون لها في النهاية الشهادة الحية على المستوى الذي يمكن أن تبلغه مدينة بيروت. أعطت المدينة صوراً بالغة السوء بحيث إن هذه الإنجازات احتجبت غالباً وراء جدران أبنية من الاسمنت لا يجمعها شكل ولا يقيدها نظام ولا يستطيع أحد الحدّ من انتشارها مع عودة التهاون الذي بات القاعدة المعتمدة في عهد الرئيس سليمان فرنجية (1970–1976).

أحدثت نهاية العهد الشهابي تراخياً في الجهد التخطيطي، كما أن نهاية عهد خلفه ومكمّل مسيرته شارل الحلو ألغى دور الدولة في الرقابة على حركة البناء. وبالرغم من حضور هنري إده وهو مهندس مجدد ومتعاون قديم مع ايكوشار داخل الحكومة الأولى لعهد فرنجية فإن المسعى العمراني راوح مكانه كما أن إلغاء حدود الارتفاع البالغ 26 متراً في الأحياء السكنية الموروثة من عهد الانتداب، الذي يتيح حرية أكبر للمهندسين، تحوّل بالدرجة الأولى إلى نعمة لأصحاب المشاريع. وأفضى النظام الجديد إلى تدابير جديدة تحدّد فيها سقف الارتفاع بأربعين متراً على أن تستثنى في أحكام قانون المباني التي توصف بأنها «شاهقة الارتفاع». كما أدّى الارتفاع المفاجئ في أسعار النفط إلى تفاقم الأمور من خلال إطلاق ظاهرة المضاربة العقارية، بعد ثلاث سنوات من الركود الاقتصادي. وإذا استمرت مشاريع إنشاء شبكات الطرقات مهما كلف الأمر، فإن» الكتاب الأبيض» الذي أصدرته الإدارة العامة للتنظيم المدني عام 1973، سعياً منها لإظهار عدم رغبتها في التخلي عن دورها بدا وكأنه دليل على فشل المحاولات السابقة.

لكن الاستمرارية الحقيقية والوحيدة تكمن في الواقع من خلال المقاومة التي أبدتها شرائح

المجتمع أمام كل مسعى متماسك للتنظيم المدني. وفيما يتعدى المضاربة التي يقوم بها أصحاب المشاريع وروح الصفقات المسيطر ومجاملة المهندسين المدنيين أو المهندسين المعماريين والاتجار بالنفوذ، كان من الصعب إقناع المواطنين بالتخلي عن تحفظهم حين يتعلق الأمر بتنظيم حياتهم بالذات وتقبل القيود التي تفرضها القوانين أو مصالح الفئات المجاورة لهم. ثم إن إنشاء غرف إضافية من خلال إقفال الشرفات والمقصورات بالزجاج والألمنيوم، كان مؤشراً لانعدام الحس المدني والاستخفاف بالواجهة وبرخصة البناء. وتعذّر قيام هيئة اجتماعية رادعة قادرة على الوقوف في وجه هذا الاحتيال المتكرر أو جميع أنواع «الدهاء» الأخرى التي لجأ إليها متعهدو المشاريع أو السكان لكسب أو لسرقة طابق إضافي بطريقة غير شرعيةاو تحويل موقف ارضي - وكان إلزامياً في المباني الجديدة - إلى مستودع[39]. وهكذا، كانت المساحات الخاصة تجتاح المساحة العامة لا بل تقضي عليها. وشملت هذه الظاهرة الطبقات الاجتماعية كافة بدءاً بالأحياء السكنية الأكثر ثراء وبذخاً وصولاً إلى مدن الصفيح في أحزمة البؤس. وقد ساهم الانفجار السكاني في انتشارها محولاً كل تجمع سكاني إلى سلسلة من المخالفات التي تضيق الخناق على عنق مدينة لا تتنفس أصلاً بشكل طبيعي.

بلاد ضخمة الرأس

شهد التاريخ الاجتماعي للبنان في أواسط القرن العشرين، كما في غالبية بلدان العالم الثالث تزايداً في عدد سكان المدينة. وبلغ عدد سكان الأرياف اللبنانية عام 1950 ثلثي أبناء البلد. وبعد انقضاء عشرين سنة، انقلبت المقاييس وانتقل 62% من سكان الريف إلى مدن الساحل ورفعوا نسبة المقيمين فيها إلى 70% عام 1975[40]، لكن هذا التطور كاد أن يكون محصوراً بمدينة بيروت.

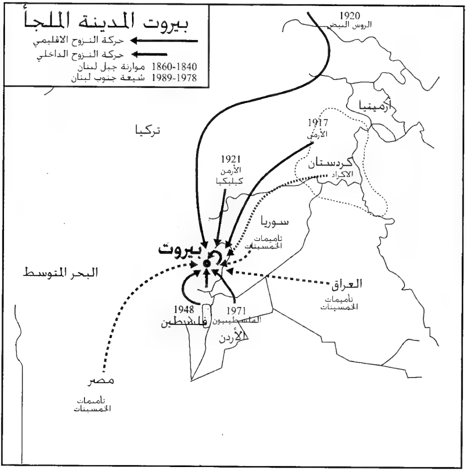
شهدت بيروت إقبالاً شديداً منذ بداية عهد الانتداب إذ بلغ تعداد سكانها 180.000 نسمة، أي ما يقارب ٪22 من مجموع ساكني لبنان عام 1930[41]. وازداد عدد سكانها أيضاً بشكل محسوس في السنوات اللاحقة بنسبة 66% بين 1930 و 1950 حيث بلغ العدد في تلك السنة بالذات 300.000 نسمة. لكن الزيادة السكانية ارتفعت بشكل حاسم إبتداءً من الستينات. وأصبح عدد السكان في 1970 ثلاثة أضعاف عددهم في 1950. وأضحى التجمع السكاني البيروتي الذي ناهز المليون يشكل 42% من سكان البلاد. وأخيراً وصل العدد عام 1975 إلى 1.2مليون نسمة أي نصف عدد سكان البلاد[42]. وخلال قرن ونصف، تضاعف عدد السكان بنسبة مئتي مرة. وإذا احتفظنا بالفرضية التي تقول إن النسبة بلغت 15000 نسمة في نهاية عهد ابراهيم باشا و 1.2مليون نسمة في 1975، فهذا يعني نسبة تصل إلى الضعف في كل عشرين سنة كمعدّل متوسط. ثم تسارعت الوتيرة في عهد الاستقلال ولم يستغرق الأمر أكثر من عشر سنوات لكي نتحقق من أن ال 450.000 نسمة تضاعف

عددهم في عام 1959 وفي غضون ستة عشر سنة سيبلغ عددهم ثلاثة أضعاف[43].

بالطبع، لا تنسجم هذه الزيادة السكانية مع الزيادة الطبيعية للسكان. لا شك إن تحسن شروط الحياة في المدينة حثَّ على النمو، وكان التراجع في وفيات الأطفال يعوض عن النقص في عدد الولادات. لكن، مساهمة التعصرن في الزيادة السكانية حصلت في إطار آخر. كانت المدينة تجتذب إليها السكان باستمرار وذلك منذ الحقبة العثمانية المتأخرة. ودفعت الأوضاع السياسية والاقتصادية في الجبل بموجات جديدة من النازحين بلغت ذروتها مع أحداث 1860، ثم شهدت تنامياً في ظل عهد الانتداب. كما أن تحول بيروت إلى عاصمة لبنان الكبير اجتذب إليها أفواجاً من النازحين الموارنة من الجبل. واستمرّ النزوح حتى نهاية الخمسينات وما بعد وأدت بدايات التنظيم التخطيطي العقاري في عهد الرئيس شهاب إلى خرق عزلة الاقتصاد في القرى المارونية النائية التي ظلت حتى الآن بعيدة عن جاذبية المدينة. لكن الانعكاسات غير المتوقعة المترتبة عن مساعي الدولة ظهرت بشكل خاص في الأوساط الشيعية في البقاع وجنوب لبنان، إذ بدأ النزوح الريفي من هذه المناطق في الأربعينات وتحول إلى ظاهرة أساسية في الستينات[44] ثم بلغت ذروتها عندما دفعت حالة الحرب في الجنوب بموجات اللاجئين الهاربين من القصف الاسرائيلي إلى الضاحية في بيروت. وهكذا تفكك المجتمع الريفي بشكل مأساوي تحت تأثير الاختراق الذي مارسته الرساميل الكبيرة وتصفية النظام الاقطاعي وانهيار الملكيات الزراعية الصغيرة وتداعيات النزاع الاسرائيلي العربي... وتحول لبنان نتيجة هذه العوامل إلى مجتمع عمراني محتشد بكليته حول العاصمة بيروت، فتضخم الرأس على حساب الجسم[45].

لم تقتصر حركة النزوح إلى بيروت على أبناء الريف. فقد توافد النازحون أيضاً من مختلف المقاطعات بما فيها طرابلس وصيدا. لا شك أن مساحة لبنان الصغيرة ضاعفت من عملية الجذب التي مارستها العاصمة كونها مركز الخدمات الإدارية وتجمع النشاطات الاقتصادية والمؤسسات الثقافية الخاصة العاملة في العاصمة[46]. وتشير مقارنة الاحصاءات التي جرت بين 1970 و1975 إلى أن المدن الأخرى لم تشهد تزايداً سكانيا، لا بل شهدت تراجعاً في عدد سكانها. وإذا صرفنا النظر عن طرابلس التي تجاوز عدد سكانها المئة ألف نسمة وعن صيدا وزحلة، بنسبة أقل نجد أن المدن الأخرى لم تكن إلاّ قرى كبيرة حيث وصلت نسبة السكان في كل منها عام 1970 إلى عشرة آلاف نسمة وأقل أحياناً في الجنوب والبقاع. لكأن المرحلة الوسيطة معدومة بين العالم الريفي وعالم المدينة الكبير[47].

كانت بيروت على لائحة المدن الشرق أوسطية الكبرى، تحتل المرتبة الرابعة في الشرق الأوسط بعد طهران والخرطوم وبغداد. أما بيروت فتتقدم كل العواصم الأخرى في الشرق الأدنى إذا ما أردنا أن نعتمد الفرق بين المدينة الرئيسية والمدن الثلاث التي تليها في البلد نفسه[48].



وكانت حركات النزوح الأقدم عهداً التي حصلت عقب الحربين العالميتين ترهق كاهل المدينة: هجرة الأرمن بعد الحرب العالمية الأولى وهجرة الفلسطينيين في 1948. وبين هاتين الموجتين وبعدهما، حصلت نزوحات متفرقة أقل عدداً وأكثر تبعثراً في الزمن: الأكراد، المعدمون غالباً، الذين وفدوا على مراحل من تركيا في الفترة التي امتدت بين الحربين العالميتين، والسريان والأشوريين الآتين من العراق في الفترة نفسها. وساهمت هذه الموجات المنتظمة باستثناء الأكراد والاستيطان الذي نجم عنها في زيادة الولادات بنسبة كبيرة، كما ساهمت في ذلك موجات النازحين من الأرياف. صحيح أن اللاجئين لدوافع اقتصادية من مصر وسوريا كانوا ينتمون للطبقات الميسورة وكانوا أقل عدداً، لكنهم ساهموا أيضاً في التضخم السكاني من خلال تركيز نشاطاتهم الاقتصادية في بيروت.

وستستمر حركة التمركز هذه على المدى الطويل. وفيما استأثر وسط المدينة حتى النهاية بنشاطات قطاع التجارة والخدمات من خلال تضييق الخناق على سكان المدينة، كانت معظم الصناعات متمركزة

في ضواحي بيروت مباشرة حيث انعكست الزيادة السكانية توسعاً قياسياً يبلغ أولى المرتفعات شرقا. ومنذ نهاية السبعينات، لم تعد هناك نقاط يستدل عليها على الحدود البلدية للمدينة. وبالرغم من ذلك، بقيت المساحة التي اجتاحها العمران حتى 1975 محدودة جداً بالنسبة إلى الامتداد الذي ستشهده المدينة لاحقاً. وسجلت كثافة السكان زيادة مماثلة، وبدأت تعمم هندسة المباني المرتفعة إذ تضمنت غالبية المباني التي شُيدت بدءاً من نهاية الستينات سبع أو ثماني طبقات وغالباً أكثر. آنذاك بلغت بعض الضواحي في بيروت معدلاً من أعلى معدلات الكثافة السكانية في العالم، ما زاد التفاوت الطبقي حدة. وازدادت أيضاً البطالة،حتى لو كانت مقنّعة، وهذه ظاهرة منتشرة على حدّ واسع في أكثرية مدن العالم الثالث،واتسعت دائرة القطاعات الملحقة حديثا بالمدينة التي اعتمدت الآلية العمرانية ذاتها واصبحت جزءا لا يتجزأ من المدينة[49].

أما التجسيد الأكثر وضوحاً لاختلال آلية النمو في المدينة فكان «حزام البؤس» المؤلف من الضواحي الملحقة حديثاً بالمدينة والتي تمتاز بأكواخها المسقوفة بالصفائح المعدنية. وبالمقابل، بدأ سكان المدن الميسورون يهربون من الضواحي القديمة التي شهدت هي أيضاً تخمة سكانية، رغبة منهم في الابتعاد عن مناطق العوز باتجاه الجزر السكنية الصغيرة فوق التلال المشرفة على المدينة. ومنذ مطلع الستينات، بات واضحاً أن المدينة قد استوت على كامل حدودها الجغرافية[50]، باستثناء منطقة الرمول حول المطار. كان التوسع العمراني لافتاً ما يكفي لكي يجتذب انتباه بعثة ايرفد التي بعث الرئيس شهاب في طلبها. عندئذٍ تولّد في أذهان المسؤولين مفهوم بيروت الكبرى التي سعت الخطة التوجيهية للإحاطة بها. وكان المقصود بهذه التسمية كل التجمع العمراني الذي تؤلفه المدينة المستلحقة مع الضواحي التي انضمت إليها وصولاً إلى بعض القرى التي تربطها بالعاصمة طرقات ساحلية سريعة. لكن المفهوم ظلّ مبهماً لان الكلام تناول «بيروت أكبر» تشمل الجبل، فيما لبنان بأكمله، المصاب بتضخم رأسه على حساب ضآلة جسمه يمكنه أن يبدو والحالة هذه «بيروت الكبيرة جداً» واليوم أيضاً، يبدو تحديد بيروت الكبرى مثار جدل. وفي حين ذهبت البعثة الفرنسية - اللبنانية التي أوكل إليها إعادة تنظيم المنطقة المدينية لبيروت عام 1983-1984 إلى حد رسم حدودها بين نهر الكلب والدامور صعوداً إلى بعبدا شرقاً، ارتأت دراسات أخرى إلحاق بيبلوس بها شمالاً وعاليه عند أولى المرتفعات الجبلية. لكن هذه التسميات لم تتطابق مع إعادة ترسيم للحدود الإدارية ولا مع صلاحيات البلدية[51] ولا مع خطة شاملة متماسكة ودائمة.

تراجع وسط المدينة

رأينا أن التجمع السكاني وسط المدينة جسّد بشكل لا لبس فيه تضخم الرأس على حساب الجسم

على صعيد البلد ككل. بيد انه تمفصل على المستوى العمراني حول تضخم آخر جعل قلب المدينة متوروماً إلى حدّ الانفجار. ولم يكن انسداد التورم جغرافياً ولا ديموغرافياً بالمعنى الحقيقي للكلمة. إن قلب المدينة أي المدينة القديمة داخل أسوارها التي يحيط بها البحر والمرفأ شمالاً، بالإضافة إلى القطاع نصف الدائري الذي أُلحق بها خلال الحقبة العثمانية المتأخرة، لم تكن تمتد إلاّ على مساحة 130 هكتاراً أو بالأحرى 142 هكتاراً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار المنطقة المجاورة للمرفأ فيما تغطي المدينة في حدودها الادارية مسافة 1700 هكتاراً والتجمعات 8000 هكتار تقريباً[52]. وفي هذه المنطقة بالذات التي سُميت عن جدارة أكثر من أي وقت مضى بـ«البلد». كانت كثافة السكان التي تتراوح بين 176 و192 نسمة في الهكتار، منخفضة عن الكثافة التي تشهدها سائر مناطق بيروت الإدارية حيث كانت النسبة تتجاوز ال 250 في الهكتار. أما قاطنو قلب المدينة فلم يكونوا يشكلون إلاّ جزءاً صغيراً من سكان بيروت: 2.3% فقط. لكن اللوحة تتغير كلياً عندما نأخذ بعين الاعتبار المتواجدين في المدينة خلال النهار. أن بيروتياً واحداً من أصل 42 بيروتياً يسكن في الوسط التجاري لكن واحداً على ثلاثة من التجمع يعمل داخلها[53].

إن تمركز الوظائف في هذه المساحة يُقاس أيضاً بالنسبة لوجهة استخدام الأبنية للتوزيع الوظيفي



وسط المدينة في الستينات: صورة مأخوذة من الجو.



البرج، محطة سيارات ركّاب.

للعمران. فالوحدات السكنية تمثل 3% فقط من رقعة وسط المدينة فيها المراكز الاقتصادية تشكل نسبة 97% منها. وبالرغم من منافسة شارع الحمراء في الستينات لوسط المدينة، فقد ظلّ هذا الأخير الشريان الرئيسي للحياة الاقتصادية مستقطباً بشكل خاص جوهر نشاطات قطاع التجارة والخدمات[54]. كانت هذه النشاطات متعددة مع ذلك ضمن نطاق جغرافي محدد بدقة، وسط طرق مسدودة وأزقة مزدحمة متداخلة تصلها بسائر أنحاء المدينة شرايين هي نفسها محتقنة، حيث المباني السكنية المرتفعة ترقى إلى العشرينات والثلاثينات في معظمها ويعود بعضها الى نهاية القرن التاسع عشر وبعضها الآخر إلى الخمسينات، تتجاور مع المباني الأسواق الأكثر تواضعاً المؤلفة من طبقة واحدة أو طبقتين. وفي كل مكان تقريباً، طوابق ملحقة بالمباني الأساسية، فها هنا باحة مغلقة ومقسمة، وهناك طابق إضافي، مما زاد الانطباع بالتخمة والاختناق.

كان هذا الانطباع بادياً للأعين، والأسماع، ما أن نقترب من البلد، عبر ساحة الشهداء التي يُقال لها أيضاً ساحة البرج وهي نقطة الدائرة، مع أنها كانت تبدو أقدم عهداً من الأبنية القائمة عند أطرافها والملاصقة للمناطق المكتظة. هنا، في وسط المدينة كانت تلتقي محاور الطرقات الرئيسية مما جعل الساحة محطة طرق في الهواء الطلق. كانت هناك، على طول امتدادها الجنوبي باتجاه ساحة دباس


شارع ويغان وعلى جانبيه الأسواق.

وشارع بشارة الخوري، خمسون محطة توقف لسيارات التاكسي الجماعية أو الاوتوبيسات الخاصة. دعيت هذه المواقف «كاراجات» وتفرّد كل منها بتأمين المواصلات لأحد الأحياء أو لإحدى المناطق في البلد أو لهذه المدينة أو تلك من مدن سوريا والأردن والعراق. والى أن افتتحت طريق «الرينغ» أو فؤاد شهاب، كانت الساحة عقدة المواصلات في المدينة والمعبر شبه الاضطراري للتنقل من حي إلى آخر، بقيت كذلك لكل هؤلاء الذين لم تكن لهم سيارة شخصية تحت تصرفهم، ما دامت غالبية خطوط التاكسي تنطلق منها وتعود إليها. ونتجت عن كل هذه السيول الصادرة والواردة، المنتظرة والمتنقلة، زحمة خانقة في النهار حدت من سرعة السيارات لتبلغ 10 كلم في الساعة بحيث بدت محطة الطرق وكأنه محكوم عليها بالتخمة، ما دفع للتفكير في إنشاء محطة أخرى مشرفة على المرفأ طبقاً للأصول الواجبة مؤلفة من ثلاث طبقات للمواقف. وفي غضون ذلك، بذلت مساعٍ حثيثة ظلت غير مجدية، بهدف الحدّ من زحمة السير، بدءاً بحملات تحظير إيقاف السيارات على جوانب الطرقات[55]، لكن هذه المساعي لم تجرِ متابعتها بشكل جدي. كذلك اعتمد الإجراء التالي في السبعينات: يوم تعمل فيه السيارات التي تنتهي أرقام لوحاتها بعدد منفرد يعقبه يوم آخر للسيارات التي تنتهي لوحاتها بعدد مزدوج. صحيح أن الزحمة كانت أخف ليلاً لكن الحيوية لم تغب عن وسط المدينة تغذيها قاعات

السينما والفنادق المشبوهة ومجاورة شارع المتنبي.

على صعيد الشكل، لم تتغير ساحة البرج إلاّ قليلاً منذ أيام التخطيط العثماني وإبان عهد الانتداب بالرغم من استبدال حديقة الحميدية في الوسط بالحدائق المنشأة على الطريقة الفرنسية التي حجبتها ارتال السيارات. شمالاً، كانت بناية سينما ريفولي تقفل الساحة مكان السراي الصغير. وشرقاً كان مبنى الشرطة يحاذي الطريق التي تنفذ من حي الدعارة. غرباً تمتد الأسواق المخصصة للمشاة وجنوباً، شكلت ساحة دباس الصغيرة الحد المشترك مع الأحياء الشرقية في المدينة وطريق الشام. وكان شارع ويغان، في الشمال الغربي، يفضي إلى الأسواق الأكثر عصرية ومن ثمّ إلى شارع المصارف ومنه إلى رأس بيروت، وشارع الأمير بشير الذي ينطلق من ساحة رياض الصلح ليعود إلى نقطة البداية في الجنوب الغربي، عند زاوية مبنى اللعازارية.

أما شارع المصارف، عند الطرف الغربي من البلد فشكل محطة أخرى تغص بفلول القاصدين، وارتدى بالتالي طابعاً أكثر رمزية. وكان المال الذي يجري التداول به هناك شبيهاً بحركة السير التي تشهدها ساحة الشهداء، انه المال في جميع حالاته، المال المتداول داخل نطاق المدينة والمال المحوّل من المدينة إلى سائر الدول ذهاباً وإياباً. صحيح إن واجهات الأبنية هنا أكثر عصرية لكن الكثافة لا تقل إطلاقاً عن سائر الأحياء. وبين شارع المصارف وشارعي فوش وأللنبي ومركز اللعازارية، تمتد مساحات المكاتب الأكثر تنظيماً رغم ضيقها غالباً. وكانت هناك مكاتب أخرى متفرقة في مبانٍ مختلفة للإيجار أنشئت هنا وهنالك وهي في الغالب مجاورة للمستودعات. وإجمالاً كان الرجال المرتدون الياقات البيضاء يصلون إلى 35000 موظف تقريباً وهم لا يشكلون إلاّ جزءاً صغيراً من سكان النهار الذين يؤمون وسط المدينة. وأحصي في عام 1973 بين 180.000 و 270.000 نسمة يفدون إلى وسط المدينة يومياً[56]، وأكثريتهم عبر ساحة الشهداء. أما الفئات الأخرى من الرواد الذين يؤمون وسط المدينة في فترة النهار فكانوا تجار المفرق مع موظفيهم وهم الأكثر عدداً دون شك لأنه تم تقديرهم ب 39000 نسمة أي بنسبة 48% من وظائف البلد، بالإضافة إلى الحرفيين وموظفي الدولة، فضلاً عن العابرين، سواء كان عبورهم يومياً إلى وسط المدينة أم مؤقتاً ليجروا فيها بعض المعاملات الرسمية أو المصرفية أو فقط ليقوموا بعمليات البيع أو الشراء من هذا المتجر أو ذاك من المتاجر المتعددة أو ليبيعوا ما لديهم. وأحصي وجود سبعة آلاف متجر من أحجام مختلفة مساحاتها ضيقة في معظم الحالات بمعدل 35 متر مربع وأحياناً لا تتعدى الخمسة عشر متراً، لا بل وأقل في الأسواق الواقعة خلف الطرقات الرئيسية[57].

لا شك أن اللوحة المؤلفة من الأسواق التي كان يؤمها المشاة متجولين فيما بينها تستدعي مشاعر الحنين لديهم لتلك الفترة منذ دُمر وسط المدينة في 1975، ليس لان طابعها المحلي أو لأن نفحة

المصداقية المنبعثة منها أكثر نفاذاً مما كنا نشاهده أو نشعر به في المدن العربية الأخرى... ففي الواقع، لم تكن أسواق بيروت قديمة جداً ولم تكن المباني فيها ذات الطابق أو الطابقين ترقى إلى أكثر من بضعة عقود مهما بدت قديمة، أي إلى نهاية القرن التاسع عشر على الأكثر. لكن ما يميز أكثر من أي شيء آخر النكهة الخاصة بكل من هذه الأسواق فهو ولا شك اختلاط الأصناف و الحقب والزبائن بالإضافة إلى تبعثرها عبر شبكة طرقات حديثة رغم كل شيء، فيما كانت أسواق طرابلس ودمشق أو المدن الأخرى أكثر قدماً وموجودة ضمن مساحات مخصصة لها محددة المقاييس. أما في وسط المدينة فكان يمكن للمرء العبور من دون حذر في زقاق صغير مليء بالصراخ والألوان إلى الجو الأكثر هدوءاً لمقهى «الاوتوماتيك» وكان الرجال والنساء يتجولون مرتدين الأزياء الأوروبية دون أن يبدو عليهم الارتباك بين سوق الأقمشة التي تباع بالوزن أو المخزن الكبير أ ب ث ABC أو مكتبة أنطوان.

كانت الأسواق مختلفة إحداها عن الأخرى[58]. وكان بالامكان الوصول عبر ساحة البرج إلى سوق الصاغة، الوحيدة التي كانت أبوابها الحديدية تقفل ليلاً باستثناء تلك التي تشرف على الساحة. فمفوضية الشرطة كانت أمامها بالضبط. وفي المحيط نفسه كنت تجد سوق «أبو النصر» الأقل ثراءبالطبع بمتاجرها المتخصصة في بيع السلع الحرفية وأيضاً في المواد الغذائية المعلبة ذات الصلاحية الطويلة الأمد. وكانت هناك سوق النورية، التي تحمل اسم الكنيسة المكرسة لسيدة النور (أي مريم العذراء)، حيث تجد الخضار والأسماك، ثم تؤدي عبر درب موحلة إلى ساحة النجمة. أما سوق سرسق، بخلاف ما يوحي اسمها العائد إلى إحدى عائلات الأشراف في المدينة، فكانت مخصصة لبيع الأقمشة بالذراع. وليس بعيداً عن سوق الأزهار والعطارين، سوق اللحامين. وعندما تصل إلى ساحة النجمة تجد نفسك في محيط يفترض انه أكثر تنظيماً. لكن شارع المعرض، تحت قناطره المنتظمة تراجع عن الكثير من طموحاته لصالح شارع الريفولي حيث محلات السكاكر والمعجنات والسندويشات تتوالى بالإضافة إلى محلات السمانة الأقل تخصصا والملفتة برائحتها. وعندما تتجه جنوباً، ترى أمامك مبنى اللعازارية الحديث الهندسة وقد تحولت باحته الداخلية الواسعة إلى سوق للكتب، فيما كان البرلمان يكاد يحجب شمالي ساحة النجمة سوق البازركان مع محلاتها لبيع الأنسجة وسوق المنجدين والسوق التي كانت مخصصة لصناعة التنك والصفيح بالقرب من ساحة مخصصة لصانعي الأقفال الحدادين وفي الأسفل سوق أياس للأنسجة والألبسة الرخيصة الجاهزة، ثم في محيط شارعي ويغان وفوش سوق الوقية التي تعرض أنسجتها بالوقية إلى جانب الألعاب والمنتجات الأخرى المصنعة بشكل رخيص، وبالقرب منها، سوق الحسبة، حيث تُباع الخضار بالجملة وسوق القبان للحبوب وأخيراً سوق الجوخ. أما غرباً، بين شارع أللنبي والسور القديم، فكنت تجد الأسواق الأكثر بذخاً وثراءً، سوق الفرنج المتخصصة في الفواكه والخضار ذات النوعية الجيدة التي تباع للزبائن الكوسموبوليتين وسوق الجميل التي اوصى

بزيارتها فيما مضى دليل فيتال-غينه Vital-Guinet وسوق الطويلة بواجهاتها التي تعرض الألبسة الجاهزة الفخمة[59].

وتظل اللائحة ناقصة بحيث يجب أن نضيف إليها سوق النجارين في جنوب شرق ساحة الشهداء وسوق المخارط الموجودة في وسط شارع المواخير وسوق الأخشاب وسوق البيض وسوق الفشخة الصغيرة أو ما تبقى منها وبعض الأسواق الأخرى. ولا ننسى أيضاً الحرفيين وصانعي الأحذية وعمال المطابع المتمركزين على الحافة الشرقية للبلد في شارع لبنان والصرافين الكثر الذين يتولون استبدال عملة المسافرين الأجانب بالليرة اللبنانية ويعاونون أيضاً شارع المصارف في توفير السيولة المالية اللازمة التي تحتاج إليها الحركة التجارية.

وبالامكان أيضاً رسم لوحة أخرى لوسط المدينة هذا ورؤيته من منظار الهويات الطائفية وكأنه فسيفساء متناسقة لا بل بوتقة انصهار. فبامكانك أن تجد هناك كل تنوع العالم. هناك السنّة والروم الارثوذكس الذين كانوا يعتبرون أنفسهم ولا يزالون - البيروتيين «الأصليين» وهناك أيضاً جميع الطبقات الاجتماعية. كنت تجد من بين السُنة أصحاب محلات سوق سرسق وأبو النصر وبائعي الخضار والسمك والحبوب بالجملة وكذلك أصحاب محلات المعرض واللحامين ومفرغي البضائع في المرفأ وبائعي الأجواخ في سوق الجوخ وبالاضافة إلى بعض الفلسطينيين الذين هم أنفسهم سُنة - وصانعي الصفيح. وكان الأرثوذكس يتمركزون أيضاً في سوق سرسق وأبو النصر وبينهم الأكثر ثراء أي أصحاب محلات سوق الطويلة في غالبيتها ولا ننسى موظفي المصارف. وكنت تجد أيضاً الأرمن بأعداد وفيرة منهم الجوهرجية وبائعو البسط في سوق سرسق وصانعو الأحذية والصرافون وعمال المطابع والحفارون على الأواني المعدنية والحدادين، ولا ننسى الكلام عن السوق المخصصة لهم والتي تحمل بطبيعة الحال اسم سوق الأرمن. أما الشيعة فكانوا، نظراً لهجرتهم القريبة العهد أقل تمثيلاً بكثير، ومن بينهم بائعو الأقمشة بالوقية بالإضافة إلى عدد من ماسحي الأحذية الآتين من الجنوب. وكان حضور الدروز التجاري أقل فعالية بالرغم من تمركزهم القديم في بيروت وحيازتهم على الكثير من الأملاك في غرب المدينة. وبالمقابل، كان عدد الموارنة لا بأس به وإن كانوا لا يمتازون بأي تخصص محدد، باستثناء النجارة وتجارة الأخشاب. إلا أنهم كانوا حاضرين بقوة في دوائر الدولة. وكان الروم الكاثوليك يحتلون مراكز عليا في المصارف ويعملون في الاستيراد والتصدير، كذلك كانت حال العائلات من الطوائف المسيحية الأخرى التابعة لروما. أما اليهود فشكلوا أقلية قليلة على المستوى الوطني لكنهم شاركوا بفعالية في إحياء المحيط المجاور لحي وادي أبو جميل حيث تتمركز غالبية اليهود حول الكنيس ومدرسة الأليانس الاسرائيلية وعملوا في التجارة على مستويات عدة في أسواق سرسق والطويلة والحلاجين وبائعي الألعاب والصرافين، وهناك أخيراً الأكراد الذين أتوا ليكملوا

الفسيفساء وعملوا في أغلبيتهم في الأعمال الجسدية المضنية، وبدأوا يتمركزون في الحي اليهودي.

وتجسد التنوع الطائفي للبلد من خلال كثرة أمكنة العبادة بالرغم من أن أياً منها لم يُبنَ حديثاً. وكان مشروع بناء جامع جديد كبير للسُنة في ساحة الشهداء أمراً متنازعاً عليه حتى في أوساط الطائفة نفسها ولم يتجسد فعلياً إلاّ في القرن الواحد والعشرين ونظراً للتواجد السكاني القليل في وسط المدينة، تخلّت كل أمكنة العبادة هذه - باستثناء الكنيس اليهودي - عن وظيفتها المذهبية كما كانت الحال في عهد الانتداب، ولم يجرِ التأكيد من قبل السلطات الدينية على تلك الوظيفة. لا نعني بقولنا إنها كانت محتجبة عن الرؤية أو غير مؤهلة للقيام بهذا الدور لكنها انصهرت في الموقع وسكانه وتجاورت جنباً إلى جنب مع أمكنة العبادة التابعة للطوائف الأخرى دون حساسيات ناتجة عن التجاور*. بدا البلد في أغلب الأوقات وكأنه يفلت من الاستقطاب الطائفي. وبصرف النظر عن حادثين أو ثلاثة بدا أيضاً وكأن الحرب الأهلية لعام 1958 لم تنل من مناعته وكذلك الاضطرابات التي ميزت نهاية الستينات. لا بل خلافاً لذلك، كانت التظاهرات الطلابية والحاشدة في السبعينات والتي تحطّ رحالها عادة أمام البرلمان تضاعف القدرة على الانصهار، من جهة أخرى، وعلى صعيد آخر أيضاً، أفضت التعبئة المركنتيلية بالبلد عام 1971 بالاضراب احتجاجاً على التعرفة الجديدة الهادفة إلى الحماية الجمركية.

لا أحد، على أية حال، استطاع الحدس بأن وسط المدينة هذا الذي كان يختزل البلد بكامله سيكون عما قريب من الأهداف السهلة التي ستلتهمها الحرب بسرعة تفوق السرعة التي التهمت بها الأمكنة الأخرى لا بل سيكون الحريق الذي شبَّ فيه بمثابة الانتحار الشامل للوطن. وهكذا، فإن وسط المدينة الذي أرهقته الزحمة وألقيت على كاهله أوزار المدينة، وكان مقراً للظالمين الذين يسحقون أهله تحت وطأة مظالمهم، كما كشف ايكوشار، لم يتبقَ أمامه والحالة هذه إلاّ أن يُساق إلى قدره. إنه محور المدينة الخالد الذي سيستنفد كامل طاقته الباقية في أتون الحرب العبثية.

* المنافسة الدائرة بين الآذان وقرع الأجراس التي يرجّع وسط بيروت صداها اليوم هي من ظواهر ما بعد الحرب.

VI
مدينة المخاطر كلها



الفصل التاسع عشر

على النصل

لم تأت الحربُ بيروت على حين غرّة. صحيح أن وسطها بقي عامة في منأى عن الاشكال المتكررة للفتنة التي عرفتها دولة الشقاق في دولة لبنان المستقل[1]. لكن لا اقتصادها المزدهر ولا حياتها البرّاقة استطاعا أن يحجبا الشعور بأن الحاضرة تسير ومعها البلاد بأكملها على حدّ النصل. وحتى قبل أن يسجل العام 1976 منعطفاً تصاعدياً بطيئاً لكن أكيداً للعنف، كانت بيروت محور كل الاستقطابات التي لا تني تنتجها الحلول الجزئية غير المنجزة للمسألة الشرقية.

لم تكن الحاضرة الكوسموبوليتية للعرب تعيش بمنأى عن أهوائهم أو عن خصوماتهم. ولم تكن عاصمة الجمهورية اللبنانية قادرة على الالتفاف حول التناقضات القائمة في التركيبة الوطنية. وفي الحالتين، لم يكن بإمكانها تجاوز ذلك لان نسيجها الاجتماعي بقي إن لم يكن قابلاً للتفجر بشكل جذري فعلى الأقل مهيأ للتعبير عن العنف السياسي. ولم يكن بإمكان سوسيولوجيتها المتحركة التي تغذيها باستمرار، منذ القرن التاسع عشر، الأهواء الآتية من خارج، سواء الخارج القريب أو البعيد، إلاّ أن تراكم التناقضات الخصوصية لدى النازحين الجدد وتغذّي خصوماتهم ذات المرجعية الطائفية المتوارثة. وما ساعد على الانفجار تجاور هذه الفئات وسط مشهد مديني تنتابه آلاف الصدوع المحسوسة أحياناً، وآخر هذه الصدوع زمنياً كان هذا الخط المتكسر لسطوح الصفيح والجدران العارية لحزام البؤس الذي يزنّر أطراف المدينة حيث يتكوم النازحون الأحدث عهداً والمزارعون الشيعة الآتون من جنوب لبنان والفلسطينيون اللاجئون منذ 1948 وبعض الأكراد أيضاً. في قلب التجمع كانت الصدوع مموهة بشكل أفضل لكنها كانت بالغة التأثير. واكتسب الكثير من الأحياء القديمة شكل مناطق على حدة لا بل بدت كقرى نُقلت بأكملها من مكان آخر وزرعت في المدينة.

فالمدينة الأصلية، هذا فيما لو صحَّ التعبير، لم تكن ضحية كما سعى للإيحاء بذلك تصوّر معين يشجّع البعض على التشبث بالأصول. إن تراث قبضاياتها أجّج ذكورية العنف. وقبل الزوال، كان هؤلاء القبضايات الذين جسدوا لزمن طويل عصبية الطوائف»، على حد تعبير مكسيم رودنسون[2]،

قد أدركوا كيفية التجاوب مع ديناميات التعبئة السياسية المعاصرة في الظاهر، والتكيف مع التحولات المفاجئة التي شهدتها الجغراسياسة الإقليمية وانعكاساتها على مساحة المدينة. لكن بيروت بدت عاجزة عن أداء دورها كبوتقة لانصهار التناقضات. بعد انقضاء الظروف الاستثنائية التي أحاطت بفترة الاستقلال، وبالرغم من السعي لايجاد نمط حياة مشترك، تعطّلت قدرة المدينة على التوفيق بين مختلف النزعات وظلت مكتوفة الأيدي أمام إعادة اللحمة بين الفئات المتناحرة لأنها بقيت دون حدود السياسة والايديولوجيا. وبدل أن تكون امكنة التفاعل هذه مراكز التمدن القادرة على محو الخصوصيات المتنشرة من حولها، فقد ظلت مفترقاً حيث يحتفظ كل فريق بعالمه الخاص به أو يستعيده ما أن يعود الى بيته. ذلك أن انصهار التناقضات في المدينة سيكون من خلال إدامة الحرب.

أرضية للاستقطاب

إن التناقض الواضح والدائم والثابت بين هذه التناقضات جميعاً هو النابع من التعددية الطائفية. شكّل التاريخ المضطرب للمسيحية الشرقية والتاريخ الذي لا يقل عنه تنافراً لشيع الاسلام[3] فسيفساء هشة، منذ وقت طويل، كما نعلم. صحيح أن هذه التعددية لم تميز فقط بيروت أو لبنان من بين بلدان المشرق العربي بل هي موجودة في سوريا والعراق وفلسطين ومصر لكن آثارها ظلت محصورة بفضل وجود غالبية صريحة من المسلمين السنة. باستثناء العراق حيث الشيعة يشكلون الأكثرية التعددية. أما في لبنان فما من طائفة تمثل الأكثرية، وحتى لو أخذنا بعين الاعتبار الانقسام الأكثر بزوراً بين المسيحيين والمسلمين، لوجدنا إن أياً من الكتلتين المفترضتين لا تستطيع أن تدعي لنفسها الغلبة الساحقة قبل الحرب*. وتكررت هذه الظاهرة في بيروت، على الأقل إذا أخذنا بعين الاعتبار السكان القاطنين فيها وليس فقط الهيئة الناخبة المكونة في أساسها من السنة والارثوذكس والأرمن. أضف إلى ذلك التنوع القائم بين أبناء العاصمة وتواجدهم في محيط ضيق جعل أعضاء كل طائفة على احتكاك مباشر مع أبناء الطائفة الأخرى. وكان مفترضاً والحالة هذه أن يخفف تفاعلهم فيما بينهم الخصوصيات التي تجعلهم متنافرين، لكن، وخلافاً لذلك، أذكى هذا التفاعل نرجسية التمايزات.

ومحدودة هي هذه التمايزات، هذا صحيح، فأوجه التشابه بين هذه الجماعات متعددة. وفي جميع أنحاء البلاد واليوم كالبارحة، لا تتقاطع التعددية الطائفية مع التمايزات الاثنية[4]، فيما خلا بعض الحالات الخاصة جداً كحالة الأرمن الذين جاؤوا إلى لبنان في مطلع القرن واندمجوا بشكل لافت في المجتمع اللبناني، إن لم يكن في ثقافة البلاد فعلى الأقل في حلقات الاقتصاد. أما الروس البيض

* في مطلع القرن الواحد والعشرين، تراوحت الاحصاءات الأكثر انتشاراً بعد التحولات التي أحدثتها الحرب وتسببت بهجرة أعداد هائلة من المسيحيين، بين معدلين: 65 الى 35% و60 الى 40% لصالح المسلمين.

وفرنسيي المشرق، وهم قلة في الواقع ولا يشكلون تكتلات سوسيولوجية واضحة المعالم، فقد تلبننوا غالباً وتعربنوا على الصعيد اللغوي - من خلال اكتسابهم، على الأقل، لغة التخاطب. وكذلك الأكراد الذين اندمجوا أخيراً مع عامة الشعب السني. إن الجماعات المنتمية إلى مختلف الطوائف الدينية، سواء كانت محلية أم آتية من مكان آخر، كل الجماعات في هذه الحقبة التاريخية أو تلك، عربية اللغة والثقافة. ورأينا كيف أن عدداً من المسيحيين ومن بينهم الموارنة ساهموا في تجديد اللغة أو الثقافة العربيتين في زمن النهضة، ثم في الفترة الممتدة بين الحربين العالميتين. ليس تنوع اللهجات نابعاً من الانتماء الطائفي بل من الموقع الجغرافي[5]. وعلاوة على ذلك، في بلاد الشام كلها، يرتبط المسلمون والمسيحيون بعلاقة متينة من القربى وحسن الجوار[6]. ومعظم التجمعات المنتشرة على نطاق واسع تمتلك التصورات الرمزية نفسها. ولا تكشف الحياة اليومية عن فوارق أساسية حتى على مستوى التمدنن ولا على مستوى النمط السكني أو التقاليد الخاصة بالطعام أو تكنولوجيا العمل[7]، والمدينة المعاصرة لم تنِ تشدّد على هذه المفارقات.

كما لا يكشف البعد اللاهوتي عن تميز استثنائي. إذا كانت التسميات التي تعتمدها الطوائف الدينية منوطة حتماً بشعائر العبادة التي تنتمي إليها كل من الطوائف[8]، فإن الخلافات بين الاسلام والمسيحية تنتمي إلى الماضي البعيد، إذ لم يعد هناك منذ زمن طويل جدال قائم بشأن طبيعة المسيح أو بشأن حق الإمام علي بخلافة الرسول - وقد استمر الامر كذلك حتى بعد الثورة الايرانية. كما أن مبادئ العقيدة الخاصة بكل طائفة والتي تؤلف القاعدة الأساسية لكل الأديان، قلما هي معروفة في أوساط الجماهير- لا بل انه لا يمكن التعرّف إلى تفاصيلها في بعض الحالات كما لدى الدروز مثلاً إلاّ ببلوغ عمر معين. ثم وان معرفتها ليست ضرورية في الواقع لا سيما أن الانتماء الطائفي الذي يكتسبه المرء منذ الولادة لا يتطلب التزاماً فكرياً عميقاً وتبني العقيدة المتصلة بكل دين تترسخ لدى المرء يوماً بعد يوم. وباستثناء البروتستانت الذين سعوا إلى جعل المسيحيين يرتدون، تبدو النزعة التبشيرية شبه معدومة. لكن المفارقة الكبيرة هي التسامح الظاهر خلال الأزمنة العادية - وحتى في أيام الحرب - حيال ممارسات الشعائر الدينية لدى مختلف الطوائف اللبنانية، لا بل إن التقاليد الشعبية تتخطى أحياناً التسامح نفسه لتظهر ميلاً إلى توافق شامل، فالقديس جاورجيوس مثلاً والمسمى الخضر لدى المسلمين ترجى شفاعته في بيروت - وفلسطين - لدى المسيحيين والمسلمين على حدّ سواء، كما أن الصيادين المسلمين يرجون شفاعة سيدة النورية في الكنيسة الصغيرة الواقعة في سوق الخضرة والسمك التي عرفت بسوق النورية، بين البرج وساحة النجمة[9].

إن التمايز الفعلي بين الطوائف، الذي يتخطى ممارسة الشعائر وكل موضوع انتروبولوجي خاص، كان منوطاً في الأساس - ولا يزال - بمسألة انتماء الفرد الإلزامي إلى جماعة معينة. وبما أن إطار العلاقة

بين الأديان تحدّده الأعراف والتقاليد المتبعة فإن المرء يعتبر نفسه بطبيعة الحال، على مسافة من هؤلاء الذين ينتمون إلى جماعة أخرى. وبهذا المعنى، يمكن أن نصف الطوائف الدينية بأنها قبائل[10]، وان حسن الحوار القائم فيما بينها نابع من العصبية التي تحدث عنها إبن خلدون في مقدمته عن سوسيولوجيا السلالات والعشائر العربية[11]. إن التصنيف الذي يقول بـ«الجماعة الدينية» أو «الجماعة الطائفية» لا يملك إلاّ حصافة جزئية. ربما كان يسمح بتوضيح بعض الرهانات وفحوى خطابات التعبئة، لكنه لا يأخذ بعين الاعتبار آليات التفاعل و/ أو المواجهة. علينا التذكير إذاً بأن كلمة طائفة (وجمعها طوائف) لا تخص الجماعات الدينية في مفهومها الأصلي بل تعني بكل بساطة «تجمع» أو «مجموعة». أضف إلى ذلك أن لهذه الكلمة دلالات إضافية متغيرة لأنها استخدمت في التاريخ العربي للدلالة على أنماط عدة من الجماعات والهيئات والأحزاب السياسية – هذا ما تعنيه عبارة «ملوك الطوائف» أو رؤساء الطائفة» في أندلس القرن الحادي عشر – والشيع الدينية[12]. ونذكر أيضاً أن كلمة «طائفة» في معناها الأخير هذا قد ترجمها الرّحالة والقناصل الأوروبيون حتى مطلع القرن التاسع عشر بكلمة «الأمة»، وهذا الاستخدام سيتم استبداله في الترجمة الفرنسية المعاصرة، ومع ذلك فإليه يعود الفضل في إجراء التماثل بين الجماعات الدينية والبنى الموجودة على أية حال، وبالتالي في التشديد على ضرورة التعاطي الشمولي مع هذا التصنيف من خلال مفهوم يتصف بطابع أكثر شمولية، كما أشار مكسيم رودنسون مستخدماً عبارة «الجماعات فوق الوظيفية التي وصفها جورج غورفيتش Georges Gurvitch [13]، وهذه المهمة فوق الوظيفية تجسدت، داخل كل طائفة، من خلال مؤسسات دينية وتربوية وخيرية وسياسية بشكل سمحت معه لجماعات متلاحمة ومتزاوجة فيما بينها نسبياً بأن تتأقلم مع مفاهيم الحداثة راسمة على الدوام إطاراً لافرادها يسمح لهم بالبقاء على مسافة واحدة من الطوائف الأخرى.

لكن الطائفة ليست وحدة متماسكة متراصة الجانب وتلاحمها لا يخلو من التشنجات والصراعات الداخلية. تلك كانت الحال في الحقبة العثمانية. أما في لبنان المستقل فكان الالتقاء في خضم دولة ذات نموذج قومي يؤثر غالباً «حشمة الطوائف»[14] على إظهار الخصوصية ويشجع بالتالي التقارب الأفقي الظاهر في التحالفات الانتخابية. وكان الطابع المديني، خصوصاً في بيروت المدينة، يساعد ايضاً في إذابة الانتماءات وكانت النزعة إلى علمنة المجتمع مثلها مثل انطلاقة الابداع الفني تعززان تطور الوعي الفردي[15]. وكرّست أسماء العلم هذا التطور من خلال شيوع الأسماء المجردة من أي دلالة دينية أو تاريخية معلنة. ووُلدت أجيال بين 1943 و1975 تحمل أسماء أمين وكمال وكريم وزياد وسامي وسمير ووليد للذكور، وانتصار وندى وساميا ورندى وريما للإناث.

ونتج عن تعقد الحياة المدينية ونفوذ التأثيرات الغربية إلى الثقافة الاجتماعية انخفاض الممارسة الدينية الملموسة في بيروت الذي أضعف، في أوساط النشء الجديد، وظيفة الواسطة التي كانت تقوم

بها الكنائس الرعوية ومساجد الحي بين الطوائف وبينه. ولا ينطبق الأمر على المدرسة لأنها بقيت سنداً عاتيا للهوية الطائفية. وكانت المؤسسات العلمانية الخاصة، أو التي لا صبغة طائفية لها، وهي قليلة العدد، تؤمن العلم لأقلية من الأولاد بالمقارنة مع شبكة المدارس المسيحية الأجنبية أو المحلية وبنسبة أقل مع شبكة مدارس جمعية المقاصد المتجذرة عميقاً في الوسط السني منذ نهاية القرن التاسع عشر، والتي حذا الشيعة حذوها من خلال جمعية العاملية – نسبة إلى جبل عامل في جنوب لبنان، وقد تميزت هذه المنطقة بتراث علمائها من الشيعة. أما فيما يخص المدرسة الرسمية، فلم تكن، بالرغم من طابعها العلماني، تسمح البتة بالاختلاط الطائفي، وهذا لأن مجموع التلامذة الذين يدرسون فيها يخضعون لمنطق جغرافي، ولان غالبية الأحياء في بيروت بقيت نسبياً متجانسة من وجهة النظر الطائفية.

على أية حال، كانت علمنة الحياة اليومية تتوقف عند عتبة القانون. وكان الابقاء على نظام قضائي مستقل عن الطوائف يحفظ تمايزها الواحدة عن الأخرى مشدداً على واقعها السوسيولوجي. وبفضل هذا النظام تمتعت الطوائف، ولا تزال، باستقلالية تامة فيما يخص الأحوال الشخصية. وبهذه الصفة، يمكن اعتبار الطوائف بمثابة أشخاص معنويين يتصفون بحق عام[16]. كان النظام الطائفي الموروث من نظام الملل العثماني[17] الذي طبّق هو نفسه التعاليم القرآنية حيال أهل الكتاب قد كُرس ضمن القانون الأساسي لجبل لبنان الذي صدقت عليه الدول العظمى في القرن التاسع عشر، ثم ظلّ معمولاً به في الدولة اللبنانية الجديدة مع هذا الفارق الرئيسي وهو انه للمرة الأولى امتد ليشمل المسلمين في ظل الحكم العثماني، كانت المؤسسات الدينية المسلمة تابعة مباشرة للدولة. وعلاوة على ذلك، لم تكن هناك امكانية للخروج من الإطار الطائفي متاحة أمام المواطنين الذين يرغبون القيام بهذه الخطوة، لولا الاعتراف بالزيجات المدنية المعقودة في الخارج.

مآزق الطائفية

لم يكن النظام الطائفي يكتفي بتثبيت الحواجز بين الطوائف التي يتكون منها المجتمع بل كان امتدت مفاعيله إلى صلب عمل المؤسسات، من خلال ما اتفق على تسميته «الطائفية السياسية»، ونعني بهذا قاعدة التوازن الطائفي التي تتحكم بتوزيع المهام الحكومية والوظائف العامة، وكذلك تركيبة مجلس النواب. ويعود العمل بهذا التقليد إلى ما قبل تاريخ الدولة اللبنانية، في بيروت والجبل على السواء. في بيروت عبر مجلس الشورى الذي أنشأته الإدارة المصرية في ظل إبراهيم باشا، وفي الجبل عبر نظام القائمقاميتين الذي اقترحه شكيب أفندي (على رأس إحداهما ماروني والأخرى درزي) ثم عبر نظام الحكم الذاتي لجبل لبنان الذي مهّد لقيام المتصرفية وأرفقها بمجلس إدارة مقسّم بشكل طائفي[18]. ثم استعاد نظام الانتداب التوزيع الطائفي للوظائف وأدرجه في المادة 95 من دستور 1926[19] بصفة

مؤقتة وبخفر. وظلّ النظام الطائفي، «هذا الكل غير القابل للقسمة»[20] ساري المفعول لان البديل عنه لم يكن مطروحاً على بساط البحث.

في بيروت، كانت الطائفية السياسية تتجسد فعلياً من خلال تركيبة المجلس البلدي المكون أساساً من السنة والروم الأرثوذكس أو الروم الكاثوليك في الحالات الاستثنائية، يقابله مختار سني لتستوي المعادلة. وكانت هذه التركيبة أشبه بسراب لأن المدينة العاصمة، على غرار باريس – قبل 1977 – لم تكن تتمتع باستقلال ذاتي. فلو كان «بيروتي قح» يتولى منصب المحافظ ويمسك بزمام السلطة المحلية، تجدر الإشارة مع ذلك إلى انه كان دمية في يد السلطة المركزية أي انه كان يمثل، من المنظور الطائفي، السلطة المارونية التي تستمدّ شرعيتها الرمزية من الخارج مهما يكن هذا الخارج قريباً. وكانت الطائفية السياسية التي تمارس على العاصمة، تستوجب كونها عاصمة ممارسة طائفية خاصة بالمدينة متفق عليها مسبقاً. وكانت الاحباطات المحتمة الناتجة عنها بارزة من خلال السخط المزمن الذي ساد العلاقات بين الطوائف على المستوى الوطني، وكانت بيروت مرقبها المفضل لا بل وعاءها، حتى عندما انتقلت رئاسة الجمهورية إلى ضاحيتها الكبرى.

واتخذت الفسيفساء الطائفية البادية للعيان في الحياة الاقتصادية والثقافية للحاضرة في مراكز أعمالها التجارية شكلاً آخر حين ننظر إليها عبر السياسة الوطنية. وفي حين كانت المدينة تمزج أناساً من طوائف مختلفة وتقربهم أفقياً، في وقت لم يكن فيه الانسجام شرطاً دائماً، من دون أن تأخذ بالضرورة «وزن» كل طائفة على حدة بعين الاعتبار، كانت العاصمة بالمقابل تصفهم وفقاً لبنية عمودية أو لنقل هرمية بالأحرى وتبعاً لمنطق الهرمية كانت فسيفساء الطوائف الخمس عشرة المعترف بها رسمياً آنذاك – إحدى عشرة مسيحية وثلاث مسلمة وواحدة يهودية – تضؤل بمقدار ما نقترب من القمة. ففي وسط الهرم الطائفي نجد سبعاً بينها الدروز والروم الارثوذكس والروم الكاثوليك والأرمن الأرثوذكس الذين كانوا ممثلين جميعاً في الحكومات بنسبة اثني عشر وزيراً وأكثر، وكانت لهم حصتهم أيضاً في الوظائف العامة. أما الطوائف الثلاث الباقية أي الموارنة والسنة والشيعة فكانوا في طليعة الهرم. ومنذ العام 1943 وهذه الطوائف الثلاث، التي تشكل الغالبية، تتقاسم وظائف الدولة العليا. أما على صعيد الممارسة فالطائفة التي تتربع على عرش السلطة هي الطائفة المارونية وحدها. وظلت رئاستا الحكومة والمجلس ملحقتين بالرئاسة الأولى. فبالرغم من أن النظام المستمد من دستور 1926 كان ذا طبيعة برلمانية على الصعيد النظري ومستوحى إلى حد كبير، من نظام الجمهورية الثالثة الفرنسية، إلاّ إن الصلاحيات التي اعطيت لرئاسة الجمهورية مستوحاة من نصوص عن الدستور البلجيكي ودستور مصر الملكية[21]، وتضمنّت بالتالي صلاحيات شبه ملكية. أضف إلى ذلك أن نفوذ الموارنة كان ماثلاً في كافة قطاعات الحياة العامة، وكان في حوزتهم الرافعات الأساسية لتسيير دفة

الدولة وتحديداً قيادة الجيش وإدارة المكتب الثاني وإدارة الأمن العام ووزارة الخارجية تضاف إليها رئاسة الجامعة اللبنانية ومنصب حاكم المصرف المركزي، بعدما أنشئت هاتان المؤسستان في الستينات. وهكذا، آل الأمر بالسلطة السياسية العمودية إلى أن تتغلب في الوقت نفسه على أفقية الفسيفساء المدينية وعلى العمودية الثانية التي تشكلها العلاقات المتفاوتة بين الطبقات، التي تتحكم بها. وكانت الرؤية مشوشة تماماً لان حزام البؤس المحيط ببيروت الذي يضمّ بشكل خاص مسلمين من الشيعة بدا نتيجة هيمنة «السلطة المارونية»، بينما واقع الأمر كان نتيجة تضافر عوامل معقدة جداً.

وفي مجتمع لا تتوصل قوى الجاذبية السوسيولوجية لإيقاف حركته وديناميته، كان التوزيع الطائفي للسلطات والوظائف محور الاستقطاب الطائفي المتنامي. ولم تكن البنية الطائفية التي تبرزها تركيبة المجالس النيابية بنسبة 5 إلى 6 لصالح المسيحيين - بصرف النظر عن حصة كل طائفة - تتجسد من خيار عن سابق تصور وتصميم، مهما قال في هذا الشأن دعاة التوافقية. وإذا تسنى للطائفية السياسية أن تظهر، كما كتب ميشال شيحا، وهو المنظّر للميثاق الوطني، بصفتها وسيلة لتأمين التوازن بين «الأقليات» الدينية التي يتألف منها لبنان[22]، إلاّ أنها تعرضت للانتقاد وغالباً ولو بأساليب بلاغية. وقد أشار رياض الصلح إلى عيوبها في البيان الحكومي الصادر في 7 تشرين الأول/ أكتوبر 1943 - الأثر الوحيد المكتوب للميثاق الوطني - مصرحاً بأنه ينحني أمام الضرورة «المؤقتة» للتمثيل المنصف بين مختلف الطوائف وتجدر الإشارة إلى أن الأمر لا يتعلق فقط بإعطاء ضمانة للموارنة، عبر الاعتراف لهم بالاستئثار برئاسة الجمهورية، بل أيضاً بتأمين مشاركة السنة في مصير البلاد ومن خلال منصب رئيس الوزراء تحديداً.

وأخذت الطائفية ترمي بثقلها بشكل مطرد لا سيما أنها تتمفصل حول ممارسة زبائنية معممة تهمّش المجتمع السياسي اللبناني لصالح عدد من عائلات الوجهاء. وليست الزبائنية حكراً على المجتمع اللبناني ولا الرديفة لبنية طائفية بل هي موجودة في مجتمعات عديدة وخاصة في المحيط المتوسطي. ويمكننا العثور في البلدان المجاورة على الشكلين الأساسيين اللذين أرتدتهما في لبنان حيث الزعماء ينتمون إما إلى الملاكين العقاريين الكبار أو إلى شيوخ العشائر الذين يفرضون في الوسط الريفي علاقات ذات نمط إقطاعي أو إلى وجهاء المدينة الذين يتزعمون شبكة القبضايات[23]. ومع ذلك لا يمكننا أن نتجاهل الانعكاسات السلبية للطائفية على شلّ قدرة المؤسسات السياسية والنظام الزبائني الذي يفيد أصلاً من قدرة الطائفية بالذات على المقاومة والاستمرار.

وقد أمّن نفوذ الوجهاء داخل كل طائفة استمراريته من خلال نظام انتخابي خاص اعتمده الانتداب وأبقى عليه لبنان المستقل الذي كان يميل إلى تمثيل الطوائف والدوائر في الوقت نفسه. وكان النظام الانتخابي يمثل، من خلال تنويع اللائحة والتصويت الفردي[24]، حسنة أن يرغم

المرشحين على السعي لايجاد حدّ أدنى من الائتلاف بين الطوائف. ولكن، وفي الوقت نفسه، كان النظام الانتخابي يعيد السلطة المحلية للوجهاء أو للتحالفات التي يقيمها الوجهاء لان اللوائح لا تشكل من دونهم[25]. وللزيادة من التأثير الذي يمارسه الوجهاء والأعيان، كان الاقتراع يجري في مكان قيد الناخبين وهو يتمثل عموماً في مسقط الرأس، حتى حين يتعلق الأمر بالانتخابات البلدية، وفيما كان يحق للمرشحين للانتخابات النيابية ترشيح أنفسهم في الدائرة التي يرغبون ، فإن الناخب، يتوجب عليه، لكي يغير دائرته الانتخابية، القيام بإجراء قانوني مسبق قبل عملية الانتخاب بوقت طويل علماً إن هذا لا يعني بالضرورة الحصول على الموافقة. كما أن مثل هذه الاجراءات كانت شبه معدومة على أية حال. كانت قوانين الانتخاب المتلاحقة تكرس واقع النظام المتحجر الذي يمنع على المواطن ممارسة حياة سياسية تتيح له مواكبة التحولات الاقتصادية والاجتماعية.

وشكل التقسيم الانتخابي في بيروت عام 1960 أفضل نموذج لعجز النظام عن إتاحة الفرصة أمام الشعب للتعبير عن رأيه. وقد احتوى على النقيصتين الأكثر عرقلة للتطور الاقتصادي والسوسيولوجي لابناء الوطن. قُسمت المدينة إلى ثلاث دوائر: دائرة بيروت الأولى (ويمثلها ثلاثة من الأرمن الأرثوذكس وواحد من الأرمن الكاثوليك وواحد أرثوذكس وواحد ماروني وواحد روم كاثوليك وواحد بروتستانت) وبيروت الثانية (واحد سني، واحد شيعي، ومقعد للأقليات أي للطوائف الصغيرة كاللاتين واليهود والسريان) وبيروت الثالثة (4 سنّة وواحد روم ارثوذكس). والنتيجة التي أدى إليها هذا التنويع تشكيل كتلة طائفية، في كل من الدائرتين الكبيرين، مهيأة لاتخاذ مواقف طائفية متصلبة لا سيما وانها تحررت من وزر الكتلة الأخرى: كتلة سنية وكتلة مسيحية حتى لو كان تأثير الكتلة المسيحية مخففاً من خلال التصويت الأرمني الذي يمثله حزب الطاشناق وحده لصالح الخيارات المعتدلة والموالية. وفي الوقت نفسه، ظلّ حجم الدوائر ملائماً لممارسة الأعيان الانتخابية. ذلك كان تحديداً الوضع في دائرة بيروت الثالثة حيث بإمكان الزعيم أن يدفع ناخبيه إلى انتخاب المرشحين الآخرين في لائحته. وعلاوة على ذلك، لم يكن لتقسيم المناصب النيابية إلاّ علاقة نسبية مع التركيبة الحقيقية لسكان بيروت. واضعاً في أولوياته الخضوع لمستوجبات النظام العام الذي على ضوئه يجري تحديد المناصب الانتخابية في مجمل البلاد، كان تقسيم المناصب يدعي انه يعكس الجسم الانتخابي المكون فقط من المواطنين المسجلين في بيروت، أي انه لم يكن مشرّعاً إلاّ بالنسبة لبيروتيين يفترض انهم أصليون أو ينتمون، على ما يبدو لديموغرافيا سابقة للمدينة. وتوجب على النازحين الأحدث عهداً أن يذهبوا للإقتراع في مكان آخر. أما بالنسبة لسكان الضواحي، فإن أصواتهم، وحتى لو كانوا مسجلين في بيروت، يجب أن تنضم إلى أصوات القرى البعيدة التي لا تمثل اهتماماتهم الحقيقية. ونأخذ على سبيل المثال حياً متمدنناً منذ عقود مثل حي فرن الشباك، نجد انه كان

– ولا يزال – مندرجاً ضمن دائرة تصل إلى حدود البقاع في المنقلب الآخر من الجبل . أما الاستثناء الوحيد فكان أرمن برج حمود وهم، في معظمهم، مسجلون في بيروت منذ عهد الانتداب – لكن كان يجري تمثيلهم النيابي بمقعد من مقاعد دائرة المتن الملحقين بها.

وتميز هذا النظام الانتخابي، من بين ميزاته الأخرى بأنه حال عملياً دون وصول الأحزاب الحديثة إلى البرلمان. إلاّ إذا كانت قادرة على حشد جمهورها حول هدف طائفي محدد، كحزب الكتائب الذي استطاع تحقيق ذلك في الأوساط المسيحية، وكانت هذه دعوته الأساسية على أية حال. أما في الوسط السني فظهرت الحركة القديمة لشباب النجّادة عاجزة عن أن تحذو حذو حزب الكتائب وتفرض نفسها على الأعيان. ولم تستطع الحركة الناصرية، بالرغم من التأييد الشعبي الساحق الذي يحظى به الرئيس عبد الناصر في صفوف السنّة، أن تواجه تحالف الزعامات البيروتية السنية لكنها استطاعت الفوز بأحد... المقاعد المسيحية في انتخابات 1972!

وإذا كان الوجهاء المسلمون، والمسيحيون، يجدون مصلحة في تجزئة الجسم النيابي وفقاً لنصوص النظام الانتخابي[26]، فإن تكاثر الكتل النيابية كان لمصلحة متسلم زمام السلطة التنفيذية المتجسدة في رئاسة الجمهورية وليس في رئاسة الحكومة. وأياً تكن شخصية رئيس الوزراء سواء أتى من بيروت أم من طرابلس فإن السلطة كانت في يد الرئيس، وأياً تكن حدّة المناقشات والمساجلات التي تدور في الندوة البرلمانية، فإن مجلس النواب لن يصوت على عدم الثقة بالحكومة. وكان هذا الواقع السياسي المتمثل في نشوء ما يسمى بـ«الزمر»، بدل من أن يعزّز الاستقرار السياسي، أضفى على البلاد، طابع الجمهورية المؤقتة لا سيما أن رئاسة الجمهورية تجسد النفوذ الماروني، ما دفع رجال السياسة المسلمين إلى المطالبة بالمشاركة لأنهم لا يملكون من السلطة إلاّ الفتات. لا بل وأسوأ من ذلك، كان انعدام التوازن الطائفي على مستوى القمة في المؤسسات، والذي تفاقم من جديد في مطلع السبعينات، يثبت للمواطنين المسلمين، بأنه، بالرغم من مرور نصف قرن على إنشاء دولة لبنان الكبير، لا يشعرون بأن هذه الدولة تمثلهم فعلاً.

ولم يؤدِ إبرام الميثاق الوطني ونيل لبنان الاستقلال عام 1943 إلى الغاء الغبن اللاحق بالمسلمين نتيجة كوكبة متعددة من الطوائف أنشأتها فرنسا حول الموارنة ولأجلهم. صحيح أن إرادة العيش المشترك التي عبّرت عنها آنذاك المظاهرات الكبيرة المناهضة لسلطة الانتداب الفرنسية، لا يرقى إليها الشك. ولقد واصلت هذه الارادة تعبيرها عن نفسها في خضم الأزمات اللاحقة. لكن هذا غير كافٍ لضمانة استمرارية الاندماج الوطني. وفيما كان الميثاق الوطني يعبر من خلال مبادئه عن تفاهم إسلامي – مسيحي، وهذا سبب يعزّز دوامه واستمراريته كانت انماط تطبيقية، خلافاً لذلك، تعرقل قيام هوية وطنية مشتركة. كُرّست إذاً الانشقاقات الداخلية من خلال الطائفية المأسسة وعُززت،

إضافة إلى ذلك، بتأثيرات خارجية أو، إذا أردنا الكلام بشكل أدق، برغبة الكتل البرلمانية في إقحام هذه التأثيرات في صلب الواقع اللبناني المتأثر أصلاً بكل ما يجري في محيطه بدافع من طبيعته البنيانية.

الهوية المنقسمة

كانت التداعيات التي نجمت عن سياسة النفوذ الأوروبية والتي تجلت عبر المسألة الشرقية فيما مضى، تواصل تأثيرها على المدى الطويل. وكانت القضية الفلسطينية، وهي إحدى الركائز المعاصرة لسياسة الهيمنة الغربية قد جيشت جميع الدول المستقلة حديثاً أو تكاد وأحدثت إضطراباً عميقاً في المجتمعات العربية إبان الثلاثينات. ثم إهتزت جميع دول المنطقة بين الفينة والأخرى في الخمسينات بسبب المواجهة بين القومية العربية والهيمنة الغربية ولم ينجُ لبنان منها ولا الدول الأخرى. أما تميز لبنان عن الدول الأخرى فقد تمثل في أن الانعكاسات الداخلية للسياسة الاقليمية أحدثت تأثيراً ليس فقط على الخيارات الحكومية بل على التوازن نفسه في البلاد. واتسمت المكونات المختلفة للجسم السياسي، بسبب انعدام التوافق حول الهوية القومية، بأحكام متباينة ومتفاوتة الاتجاهات بخصوص المحيط الاقليمي والدولي، كما تحدد موقف كل من هذه المكونات تبعاً لإطارها المرجعي وتمثل خط الانشقاق الأساسي حول مكانة لبنان في العالم العربي وموقعه بالنسبة للغرب.

لا شك أن أصل هذه التباينات يعود إلى إنشاء الدولة اللبنانية بمبادرة فرنسية لإرضاء الموارنة. وبالرغم من الإسهام البالغ الأهمية للمثقفين الموارنة في النهضة وفي تعزيز النزعة الوطنية العربية - السورية التي كان آل البستاني وآل اليازجي ناشطيها الأوائل، فإن المناخ أو الاتجاه الإيديولوجي للدولة الجديدة اتسم بخصوصية لبنانية واضحة. واستندت الطروحات المختلفة لمثل هذه الايدولوجيا إلى التأكيد على تجذر تاريخي للبنان في الشرق العربي أرسى دعائمه الجبل بمنأى عن سائر بلاد الشام. وضمن هذا المنظار، كانت القراءة الانتقائية للتاريخ تستند إلى مصدرين للشرعية الوطنية الاستمرارية المفترضة لكيان لبناني شبه سيد منذ الإمارة المعنية[27] وقبلها زمنياً بكثير تراث كنسي «وطني» منذ القرن الثامن[28]. ولتدارك اتساع الجبل باتجاه المدينة، تمّ العمل على محور آخر من خلال السعي لايجاد شرعية أكثر اسطورية عبر المطالبة بإرث الحواضر التجارية لفينقيا[29]. وبالمقابل، كان هذا العالم الايديولوجي يتجاهل المرجعيات العروبية التي تشكل إطاراً للمسلمين المندمجين في لبنان الكبير - كي لا نتطرق إلى العروبة الثقافية للموارنة أنفسهم. أما ايديولوجيا العصرنة التي تبثها بيروت وفق إيقاع يومي فكشفت عن عجزها عن التأثير بمعنى أو بآخر، على تطلعات ساكنيها.

لم تكن العلاقة بالغرب أقل إثارة للإشكالية[30]. وبالرغم من رفض الحماية الفرنسية، المثبتة أو المكرسة أو المنصوص عليها في الميثاق الوطني لعام 1943، بقيت صورة فرنسا البهية ماثلة في

الأوساط المارونية، صورة فرنسا الأم الحنون. ويرمز لهذا الارتباط القديم من خلال الاحتفال مرتين في السنة بـ«قداس عن نية فرنسا» : يوم اثنين الفصح في البطريركية المارونية بحضور سفير الجمهورية العلمانية، وفي الخامس عشر من آب أي عيد انتقال السيدة العذراء في المقر الصيفي لمطرانية بيروت بحضور القائم بالأعمال بصفته ضيفاً تقليديا. ومهما بدت هذه المحبة لفرنسا أمراً تخطاه الزمن، إلاّ أنها لا تنبع من حنين ساذج. وفيما يتعدى المرجعيات الدينية، احتفظت العلاقة الموطدة بالغرب بفعالية على صعيد السلطة. وبقيت هذه العلاقة، بعد أن هيأت، عبر السياسة الامبريالية الفرنسية، إنشاء دولة لبنان الكبير، رمزاً للخصوصية اللبنانية بالنسبة للموارنة، كما شكلت في الوقت نفسه تعبيراً عن هيمنتهم ونفوذهم[31]. ونتج عن ذلك أحياناً سلوك للموارنة يجعلهم أشبه بالعنصريين البيض وريفية ثقافية وكلتا الظاهرتين متناقضتان مع التجذر القديم للموارنة. أما الأمر فكان بالطبع مختلفاً بالنسبة للمسلمين الذين لا نبالغ إذا قلنا انهم احتفظوا لوقت طويل بالتروما المزدوجة الناتجة عن انهيار الامبراطورية العثمانية وهزيمة ميسلون وكلاهما من تداعيات التصادم مع الغرب. هنا أيضاً لم تستطع البوتقة البيروتية أن تكون منطلقاً لتجاوز التناقضات بين الأطراف.

إن مسألة «عروبة لبنان» والمسألة الأخرى المتعلقة بها التي تتناول العلاقة مع الغرب شكلتا منذ ذلك الحين جوهر الخلاف على الهوية الوطنية ومحور الرهانات المتصلة بامتحان القوى الداخلية بين المسيحيين والمسلمين، أو بشكل أدق بين الموارنة المسلمين - أثار تقبل العروبة في أوساط الطوائف المسيحية الأخرى تحفظات أقل أو جرى أحياناً دون أي تحفظ. وقد طرح الميثاق الوطني بشكل واضح مسألة أن لبنان «بلد ذو وجه عربي» . تجدر الإشارة أيضاً إلى أن لبنان كان إحدى الدول العربية الخمس التي أسست جامعة الدول العربية لا بل سعى لأن يدفع بميثاق الاسكندرية الذي مهد في اكتوبر/ تشرين الأول 1944 لنشوء المنظمة، بأن يخصص فقرة يعترف بها بالاستقلال اللبناني بشكل خاص. وحاول الميثاق الوطني أن يحسم الثنائية المتصلة بالعلاقة بالغرب من خلال الإقرار بأن لبنان المستقل لا يجدر به أن يكون، بحسب رياض الصلح من على منصة البرلمان، «لا مستقراً للاستعمار ولا ممراً له» لازالة الهواجس السورية. ولن تلبث هشاشة هذه التسويات أن ظهرت بعد وفاة رياض الصلح مسببة المزيد من التساؤلات حول الطابع المؤقت لمؤسسات البلاد.

بناء وطني غير مكتمل

منذ عهد الرئيس بشارة الخوري، استرعت المشاكل البنيانية للمجتمع السياسي اللبناني الانتباه، بالرغم من الدفع الذي أعطاه الميثاق الوطني والحيوية التي ساهمت في لجم المشاعر الطائفية. وحتى نهاية 1946، ساهم الإبطاء في فك الارتباط العسكري الفرنسي في تلاحم الجهاز السياسي. كما استطاعت

العلاقات الجيدة التي أقامها الرئيسان بشارة الخوري ورياض الصلح مع الحكام السوريين ومصر التخفيف من الجدل المبطن حول هوية البلاد. أضف إلى ذلك أن محبي فرنسا الأكثر تفانياً آمثال اميل إده كانوا لا يزالون خارج السلطة. ثم إن انحياز الطبقة السياسية إلى جانب بريطانيا العظمى، سيدة اللعبة في الشرق الأدنى، والصداقة مع الولايات المتحدة التي فرضت نفسها ببطء، لكن بثقة، لم يثيرا أي تحفظ. وبالرغم من التجييش الذي أحدثه في لبنان، كما في غير مكان، التصعيد العسكري في فلسطين، وبالرغم من المرارة التي أثارتها هزيمة الجيوش العربية في 1948، ووصفت بالنكبة، لم يجرِ التحقق من الآثار المدمرة على صعيد البنى في المنطقة التي نتجت عن إنشاء دولة اسرائيل إلا فيما بعد. وجب على لبنان آنذاك أن يتولى تدبير اللاجئين الفلسطينيين على أراضيه، علماً انه أفاد من انكفاء دور حيفا ومن وفود الرساميل والتقنيين الفلسطينيين الذين ساهموا في ازدهار بيروت. ونتجت عن حرب فلسطين حسنة أخرى بالنسبة للطبقات المهيمنة وهي إزاحة شبح القوة الصاعدة المتمثلة في الحزب الشيوعي الذي، بسبب دعمه لخطة تقسيم فلسطين التي فرضتها موسكو في منظمة الأمم المتحدة، تراجع عدد من المتعاطفين معه وبات محظوراً، كذلك أبطل مفعول القوة الأخرى للمعارضة المتمثلة في الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي كان أثار القلق على المستوى القومي. بالرغم من انخراطه العميق في جهاز المراقبة البريطاني، وجراء تسليم الدكتاتور السوري المؤقت حسني الزعيم انطون سعادة زعيم الحزب القومي إلى السلطات في بيروت التي اعدمته رمياً بالرصاص بعد محاكمة سريعة وُجهت إليه التهمة خلالها بالعصيان المسلّح.

ولم يجرِ استغلال الظروف الدولية والاقليمية الملائمة عموماً، بالرغم من النكبة الفلسطينية، والسعي لتعزيز بنية المؤسسات في الدولة الحديثة العهد. وجثم أعيان البلاد بثقلهم على كافة المناصب الحساسة، مما حث الرئيس بشارة الخوري على الاسترسال في ألاعيبه، إذ بدأ يستعد، قبل رحيل الجيوش الفرنسية، لتجديد ولايته التي تنتهي مدتها في 1949، وبدل أن يستفيد من الحلف الذي أقامه مع رياض الصلح ويوطد علاقته به، تخلى عنه بعد سنة من الاستقلال، مستعيناً لاحقاً بعدة رؤساء حكومة قبل أن يعود فيستدعي لمرتين شريكه في 1943 لكن هذه الأولوية التي اكتسبتها رئاسة الجمهورية لم يجرِ تأويلها بعد من منظار امتحان القوى الداخلي بين الطوائف، وهذا، دون شك، لان الرئيس بشارة الخوري وأعوانه الحقوا أذى أكبر في أوساط الوجهاء المسيحيين وتمت محاربتهم لانهم لم يوافقوا على تجديد ولاية رئيس الجمهورية حين عبّر عن رغبته في السعي لولاية ثانية كما اعترضوا على ممارسات الرئيس في محاباة الأقارب. على أن التزوير الذي حصل في الانتخابات النيابية التي أجرتها السلطة في العام 1947 لم يفرّق بين مسلم ومسيحي بل شمل أركان المعارضة لأي طائفة انتموا. وأتاحت السلطة الاعتباطية التي يملكها الرئيس في اختيار رئيس الحكومة ان يحتفظ بقسم من

المؤيدين في صفوف الطائفة السنية، بمن فيهم رياض الصلح نفسه ورغماً عنه. وإزاء مجلس نواب لا وزن له ولا دور، استغل الرئيس بشارة الخوري فرصة الحرب في فلسطين وانخراط الجيش اللبناني فيها ليعدل الدستور ويجدد لولايته قبل انتهائها بسنة.

ولم يكن الظرف الاستثنائي الذي جعل وضع الرئاسة مستقراً يعني إطلاقاً أن سلطة الدولة موطدة دون اضطرابات. والى جانب الألاعيب الصادرة عن أعوان الرئيس بشارة الخوري وممارسات الكونسرتيوم المستخفة بالقانون، أخذ العنف طريقه إلى الظهور. العنف العاصي على القانون، والذي لم تحرك الدولة ساكناً لوقفه حتى لو تحمست الصحف لبعض القضايا الدامية بشكل خاص. العنف العشائري المناهض للدولة بطبيعته والذي كان يوجه النار إلى صدر عناصر الدرك غير المرحب بهم في بعض المناطق. والعنف السياسي كمثل الذي مارسه عام 1951 أنصار شقيق الرئيس بشارة الخوري عندما ألقوا قنبلة على جريدة **البيرق** ثم أعقبت هذا الاعتداء تدابير انتقامية مماثلة ضد منزل المحرض المزعوم. فضلاً عن العنف الطائفي مثل الفتن التي هزت طرابلس بعد إعلان القطيعة الاقتصادية بين لبنان وسوريا والتي اتخذت مساراً طائفياً وحدثت مشاجرات متكررة بين القبضايات في أحياء بيروت. وعند اغتيال الرئيس رياض الصلح في عمان، في تموز 1951، على يد أحد المناضلين في الحزب السوري القومي الاجتماعي – وكان مسيحياً – انتقاماً لإعدام انطون سعادة تمت تصفية حسابات في وتكررت ممارسات قديمة. ما إن انتشر الخبر حتى عمّت موجة من العنف وسط بيروت حيث الزم المحرضون الجميع بالاضراب. لم يقفل بعض المسيحيين مخازنهم بالسرعة اللازمة فتعرضوا للتنكيل وسقط بينهم قتيل أضيف إليه أربعة ضحايا في اليوم التالي. وكذلك حدثت أعمال عنف واسعة جاءت تعبيراً عن الاستياء الذي يشعر به عامة الشعب السني من الوضع الاقتصادي[32]. لكن تفجر العنف هذا كان استثنائياً ووضعت جملة الاستياءات التي أثارتها سياسة الرئيس بشارة الخوري في أوساط الطبقة السياسية الاستقطاب الطائفي في المرتبة الثانوية، متسببة في أحداث عنيفة أخرى دون صبغة طائفية كالاعتداء الذي جرى على جريدة **البيرق** وذكرناه آنفاً. أما التغيرات في جغراسياسة المنطقة فتكفلت بالباقي.

ودخل الشرق الأدنى عملياً مرحلة الحرب الباردة في أيار 1950 بعد «البيان الثلاثي» الذي اقترحت من خلاله الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وفرنسا الإشراف على مبيعات الأسلحة لدول المنطقة وتثبيت خطوط الهدنة مع إسرائيل بدافع الحؤول دون توسع الشيوعية. وبالرغم من التظاهرات الاحتجاجية على هذا البيان في دمشق وفي المدن الأخرى ومن بينها بيروت ممهدة لظهور سياسة الحياد، استمر منطق الحرب الباردة يفرض نفسه على الساحة. وسعت بريطانيا العظمى، التي حصلت من الولايات المتحدة على السماح بتنظيم «الدفاع في الشرق الأدنى» (لمواجهة تهديد سوفياتي

محتمل)، إلى تدعيم ركائز امبراطوريتها في الشرق. ونقلت بريطانيا، التي كانت مدعومة من فرعي العائلة الهاشمية في عمان وبغداد، تأثيرها إلى مصر حيث عاد مصطفى نحاس، الرئيس القديم لحزب الوفد ليتسلم زمام السلطة. وأدت الضغوط لاحقاً إلى نتيجة معاكسة، بحيث رفض نحاس فكرة دمج القوى الدفاعية الاقليمية التي لن تؤدي إلاّ إلى إطالة عمر نظام الوصاية البريطاني، متنكراً للمعاهدة الانكليزية - المصرية عام 1936 التي وقعها بنفسه. عندئذ، كانت بيروت في عداد المدن التي ساندت موقف القاهرة دعماً منها لموقف الشعب المصري الساعي إلى الاستقلال. والى جانب الشارع السني، تظاهر الطلاب القوميون في الجامعة الأميركية، ثم، بعد أن طرد المحرضون على الإضراب من الجامعة، قاموا بإضراب آخر أرغموا إدارة الجامعة على العودة عن قرارها.

ولم يكن الرئيس بشارة الخوري معارضاً لبريطانيا العظمى لكنه كان حليفاً للنحاس ومعادياً للهاشميين ورفض بالتالي الانظمام إلى معاهدة الدفاع المشترك لكنه ظلّ يأمل بالإفادة من التعبئة البريطانية. وخلافاً لذلك، عملت لندن بجهد ولباقة لكي تستغل الاستياء الذي تذكيه سياسته الداخلية. وكبيراً كان الفراغ الذي خلفه غياب الرئيس رياض الصلح وهو المحاور المفضل للعواصم العربية المؤيدة لبريطانيا ولمصر[33]. وبعد بضعة أسابيع من الانقلاب الذي قام به الضباط الأحرار في القاهرة في 23 تموز 1952، أطلقت رصاصة الرحمة، إذ عُرف عن الضباط موقفهم المؤيد لأميركا والمعارض للاتحاد السوفياتي آنذاك. وأفسح انسحاب المظلة البريطانية المجال لاطلاق المعارضة التي انضم إليها علانية تجار بيروت[34]. وشلّت الحركة جزئياً في وسط المدينة بسبب الإضراب الذي قام به التجار، ولم تنجح الاجراءات التي اتخذتها السلطة إلاّ في تعميم الإضراب. عندئذٍ سعى الرئيس بشارة الخوري، كعادته للبحث عن شريك سني جديد بغية تشكيل حكومة، واعتقد انه وجد في صائب سلام إبن سليم سلام ووريثه السياسي الشخص المناسب. لكن الإضراب العام أرغم صائب سلام على الاعتذار، ولم يكن أمام بشارة الخوري خيار آخر سوى الاستقالة بعد أن كلّف الجنرال شهاب، قائد الجيش، ترؤس حكومة انتقالية ريثما يُنتخب خلف له. وكان الخلف كميل شمعون الحليف الكبير للإنكليز.

إرتبط عهد الرئيس شمعون في الذاكرة الجماعية للطبقة الوسطى، وخصوصاً في عنصرها المسيحي، بالازدهار الاقتصادي. ومع ذلك، كان عهده المرحلة التي جسّدت بشكل حاد تداخل المسألة الطائفية مع حساسية البلاد تجاه محيطه. وبالرغم من بعض الجهود المبذولة على صعيد التجهيزات والاصلاح، وقعت المناطق الواقعة في الضواحي وحيث يمثل المسلمون الغالبية الساحقة ضحية للاهمال نتيجة اعتماد مبدأ التهاون الاقتصادي الذي وصل إلى درجة من الحدة يمكن وصفه معها بالرأسمالية المتوحشة، ولو كان مربحاً على المدى القصير. ولم يستطع النجاح النسبي للنظام الليبرالي الاقتصادي

أن يحجب حدّة الانشقاقات، خاصة إبتداءً من اللحظة التي تحوّلت فيها الساحة اللبنانية إلى ساحة للاستقطاب الاقليمي الناشئ بين القومية العربية والسياسة الغربية.

ومع اعتماد مصر مبدأ الحياد بانضمامها إلى دول عدم الانحياز، خرجت القومية العربية من تحت مظلة الوصاية البريطانية. وشهدت سياسة التحالفات انحرافاً غريباً في وجهتها: سقط شعار الحياد الايجابي ورفع شعار القومية العربية ومصر الناصرية. واجتاحت إشكالية الدفاع عن الشرق الأدنى السياسة اللبنانية والسياسات الأخرى في دول المنطقة[35]. وانخرط الرئيس شمعون إلى حد بعيد في هذه المعمعة بصفته حليفاً للملوك الهاشميين وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة لاحقاً، دون أن يحفل بالانعكاسات المترتبة عن مواقفه السياسية على المجتمع اللبناني.

ونتج عن الاستقطاب الاقليمي في سوريا والأردن والعراق حالة مواجهة بين الحكومات والقوى الرئيسية الحية في المجتمع، المجتمع كله. وتغلغل الاستقطاب الاقليمي إلى داخل المجتمع اللبناني، وأثار الخطاب الناصري حماساً أشبه بالحماس الذي حرّك مشاعر أبناء دمشق. لكن هذا الورع والحماس انحصرا فقط في الشارع المسلم. فيما ظلّ المسيحيون، الذين ينتسبون في معظمهم إلى «العالم الحر» ويزعمون انهم متصلون به من خلال انفتاحهم على الغرب واعتمادهم على نظام الاقتصاد الحرّ[36]، وكأنهم غير معنيين بالشعارات الناصرية الداعية إلى التحرر الوطني حتى عندما كانت تستلهم حركات التحرر المعاصرة والمتحدرة من تأثيرات فكرية نابعة من الغرب. تجدر الإشارة إلى أن طروحات عدة سجلت بين هذين الموقعين في أوساط الطبقة السياسية والمثقفين. ومثالاً على ذلك الموقف المفاجئ الذي أعرب عنه جورج النقاش الذي، بالرغم من تعاطفه اللامحدود مع فرنسا، أظهر تطوراً في موقعه وتجاوباً مع الخطاب الناصري. لكن الانشقاق كان واضحاً داخل المجتمع. إذ اعتبر البعض العروبة تهديداً للتوازن الطائفي ورأى فيها البعض الآخر فيها وسيلة تعبئة ضد النفوذ الماروني. ومن هنا أضحى كل نصر تحرزه القومية العربية أو كل خيبة تمنى بها رهاناً داخلياً تشكل الحرب الأهلية أفقه المنظور. لكن هذا لا يعني أن ردود الفعل أو المواقف كانت آلية تحرك بضربة واحدة. كان سامي الصلح الذي عُيّن مراراً رئيساً للحكومة في عهد شمعون، ومن المؤيدين لمواقفه، يسيطر على الشارع السني في بيروت ويلقى تأييداً واسعاً كونه زعيماً محبباً لُقب بالبابا سامي، فيما لم يكن صائب سلام قد توصل آنذاك إلى إعادة تنظيم صفوف الشارع الذي ورثه عن أبيه. لكن الصدمة التي احدثها العدوان الثلاثي أطاحت بالتوازن القائم وأربكت القيادات السنية الموالية للرئيس شمعون. واصل شمعون تحالفه مع الهاشميين الموالين للغرب فيما بلغ إعجاب المسلمين بعبد الناصر حداً لا مثيل له. ولم يلبث أن اتخذ هذا المزيج من التناقضات المحلية والاقليمية منحىً تصعيدياً. كما أن اعتماد شمعون مبدأ ايزنهاور، دون أن يقيم اعتباراً للقيود التي وضعها الميثاق الوطني، حسبما أشارت شهادة أدلى

بها لاحقاً المسؤول المحلي لجهاز الاستخبارات الأميركية، أدّى إلى تدخل أمير كي يومي في السياسة المحلية[37]. وفضلاً عن ذلك أعادت الوحدة السورية - المصرية إحياء المشاعر المؤيدة للوحدة العربية عند غالبية المسلمين، علماً بأن الوحدة العربية آنذاك اعتبرت مناهضة للهاشميين، بالسخرية التاريخ.

وبات هذا المزيج من التناقضات يهدّد بالانفجار الوشيك من خلال الثورات التي سادت الساحة. وتحملت السلطة المسؤولية عندما عمدت عام 1957 إلى تزوير نتائج الانتخابات النيابية، كما اتهم شمعون بالسعي لتمديد ولايته هو أيضاً. لم يصدر عن شمعون، في الواقع، أي موقف ينفي ما نسب إليه من رغبة في التجديد. لذا لم يبق والحالة هذه سوى انتظار الشرارة التي أطلقها اغتيال نسيب المتني، وهو صحافي معارض ومسيحي فضلاً عن ذلك. واتخذت المعارضة الشرسة لعهد شمعون شكل حرب أهلية. ويمكن اعتبارها صورة مصغّرة عن الانتحار العظيم الذي سيحدث في عام 1975 - دون مشاركة الفلسطينيين، طبعاً. انتصبت في الجميزة متاريس الموالين المسيحيين لشمعون الملتفين حول حزب الكتائب، والغريب في الأمر أن اخصامهم التقليديين التحقوا بهم، أنصار الحزب السوري القومي الاجتماعي المناهضين لعبد الناصر والموالين للهاشميين. فيما أدار صائب سلام وأنصاره الانتفاضة من حي المصيطبة.

انفجرت الأزمة إثر اغتيال الصحافي المسيحي المعارض، وقد اتهم أنصار الرئيس شمعون باغتياله. وبالطبع، لم تنحصر الفتنة بمواجهة إسلامية - مسيحية[38]، ولم تستطع أن تطال الأراضي اللبنانية كلها؛ ظلت أحياء كثيرة يتعايش فيها المسيحيون والمسلمون بمنأى عن الحرب. ولم تؤثر الأعمال العدوانية إلاّ في محيط وسط المدينة دون أن تبلغ وسط المدينة نفسه، أي من القنطاري إلى الجميزة، مروراً بالمصيطبة والبسطة والباشورة، منحصرة فقط في المواقع النافذة للسلطة وتحديداً القصر الرئاسي في القنطاري حيث تحصن شمعون مطلقاً النار بنفسه، تقابله في الصف المواجه حصون آل سلام في المصيطبة وآل كرامي في طرابلس والزعيم الدرزي كمال جنبلاط في الشوف، المنطقة التي ينتمي إليها شمعون أصلاً. وقد تحاشى وسط المدينة التجاري الانخراط في اللعبة بشكل كامل باستثناء حالة عابرة أو حالتين. صحيح انه لم يتم اللجوء إلى سلاح المدفعية الثقيلة واقتصر الأمر على قذائف الهاون من العيار الخفيف والبازوكا - بخلاف ما حصل عام 1975. وبالرغم من أن الأزمة تسببت ببضع مئات من القتلى خلال شهرين، إلاّ أنها اتخذت طابع فولكلور دموي أكثر منها صراعاً مميتاً. لكنها كشفت مع ذلك عن مدى المشاكل التي أحاطت بلبنان المستقل ومن بينها المشكلة الأكثر جلاء وهي الطائفية التي يرافقها انعدام الاتفاق حول الهوية الوطنية والخلل الوظائفي في النظام السياسي الذي نجم عنها. بدت الرئاسة الأولى وكأنها النقطة المستهدفة في حرب الطوائف هذه حتى لو استطاعت شخصنة الحكم أن تخفف قليلاً من الاستقطاب الطائفي[39] من خلال وقوف بعض رجال السياسة

المسيحيين في وجه شمعون.

وتمَّ احتواء الحرب الأهلية بعد بضعة أسابيع إثر انزال جنود البحرية الأميركية في بيروت الذي أعقب سقوط النظام الملكي في العراق في تموز 1958. وحمل الاتفاق بين عبد الناصر والموفد الأميركي روبرت مورفي الجنرال فؤاد شهاب إلى سدة الحكم، وهو المتحدر من سلالة الأمراء الشهابيين وقائد الجيش الذي نجح في المحافظة على وحدته.

استخلص الرئيس شهاب العبر من الأزمة التي مرّت بها البلاد ولم يسعَ فقط لاعادة تفعيل الميثاق الوطني، الذي أصيب في ظل عهد شمعون بشرخ كبير يصعب لأمُه. بل اختار أن يبلوره على أوسع نطاق ممكن من خلال انكبابه على إزالة العوامل الأساسية للإنقسام.

على المستوى الإقليمي، اعتمد شهاب سياسة تفاهم مع مصر توافقت مع تأييد شريحة واسعة من السكان للناصرية. كما ساهم التوجه الذي اعتمدته السياسية الخارجية بانحيازها، مع بعض التمايزات إلى جانب مصر، في ضمانة سلامة الأراضي اللبنانية، وهذا ما أوحى به اللقاء الذي جرى، في أحد المواقع الحدودية، بين شهاب وعبد الناصر، وكان آنذاك رئيساً للجمهورية العربية المتحدة المكونة من مصر وسوريا. وحتى بعد حدوث الانفصال بين مصر وسوريا في يونيو/ حزيران 1961، آثر شهاب التعامل مع الجمهورية العربية المتحدة أكثر منها مع سوريا المجاورة. وعندما وجه خالد العظم في دمشق طلباً بإقامة العلاقات الدبلوماسية بين لبنان وسوريا، قابلته بيروت بالرفض. بالمقابل، أبدى عبد الناصر تفهمه حيال خصوصية لبنان ضمن تركيبة «الحرب العربية الباردة» إثر الخلافات الناشئة بين مصر وسوريا والعراق والعربية السعودية[40]. وازدادت وتيرة التنسيق بين الناصرية والشهابية إلى حدّ وصفت معه بـ«سياسة الاحتواء»[41] خصوصاً بعد انتهاء الحرب في الجزائر، وبعدما كفّت فرنسا، التي يرمقها المسيحيون دوماً بعين العطف، عن مجابهتها لعبد الناصر متجهة إلى سياسة عربية جديدة بتأثير من الجنرال ديغول[42].

ووُظفت العلاقات الدبلوماسية في خدمة سياسة داخلية تسعى لإلحاق المسلمين بالدولة وحثهم على المشاركة في تسيير عمل المؤسسات بشكل يتم معه حسم الخلل الأساسي الذي يرقى إلى 1920. ما إن تسلم شهاب مهامه حتى اشرك زعماء انتفاضة 1985 بالحكم أي رشيد كرامي في طرابلس وصائب سلام في بيروت. كما فرض توزيعاً عادلاً للوظائف العامة[43] ساعياً إلى دمج المناطق في الضواحي ذات الغالبية المسلمة. وتجاوز هذا المسعى الأخير إطار الاحتواء البسيط لتبعات الحرب الأهلية ليتخذ شكل الاسهام في تعزيز البناء الوطني[44]. لن تذهب عملية الاندماج إلى نهايتها لكن الرهان الذي قام به الرئيس شهاب كشف عن فعاليته، إذ لقيت الشهابية في مناطق الضواحي تراجعاً عن المقاطعة التي أبداها المسلمون منذ بضعة عقود لحظة إنشاء لبنان الكبير[45]. تمتع شهاب بشعبية حقيقية. وهذا

دليل على انه نجح في أن ينشئ علاقة سليمة بين فئة من الشبان المسلمين والدولة. في بيروت، كان الوضع أكثر التباساً لان صائب سلام، بعد أن رسّخ أقدامه في زعامة الطائفة السنية في أعقاب انتفاضة 1958، لم يلبث أن انفصل عن شهاب وعبد الناصر ليتحالف مع المعسكر الموالي للسعودية لمواجهة التناقضات العربية الداخلية.

وهكذا اقتصر الأمر بالنسبة لشهاب، كما أشار إلى ذلك خلال إطلالاته السياسية النادرة على الجمهور، على الرهان الذي يقام به من أجل بناء مجتمع جديد تتلاشى فيه الفوارق والامتيازات المكتسبة وتتحول الدولة إلى منظم للعلاقات الاجتماعية مكتسبة هامشاً من الاستقلال الذاتي بالنسبة لمصالح بورجوازية الأعمال على المدى القصير. لكن النظام الليبرالي لم يطرح إطلاقاً على بساط البحث ولم يجرِ المسّ بجمهورية التجار التي عرفت هي نفسها أن تلعب اللعبة دون أن تتواجه مع السياسة الرسميَة. وإحدى المحاولات النادرة للإعتراض على ما يجري كان الإضراب الذي قام به المحامون احتجاجاً على الإذن الذي أعطي لجامعة بيروت العربية بتعليم الحقوق. لكن هذه التعبئة التي اتسمت بخلفية مزدوجة وطائفية، لم تبلغ حدّ المواجهة مع السلطة.

جهد المشروع الشهابي إذاً في تسوية مشاكل المجتمع اللبناني من خلال مقاربة إنمائية، لكنه عجز عن صياغة رؤية سياسية جديدة فخلق مشاكل أخرى. وكل ما فعله الاصلاح الانتخابي المعتمد عام 1960 هو انه حافظ على موقع هؤلاء الأعيان الذين كان يحلو لشهاب أن يدعوهم بـ«أكَلة الجبنة» وتجسدت قوة الدولة في هذا المجال فقط بتعزيز الجهاز الأمني. وبعد انقلاب فاشل قام به الحزب السوري القومي الاجتماعي عام 1961، بسط المكتب الثاني للجيش نطاق سلطته كأمر واقع في الحياة العامة وفرض إجراءات صارمة على حرية التعبير والتجمع. إلاّ أن هيمنة العسكريين لم تفسح، كما في دول أخرى من المنطقة، المجال أمام العصرنة، حتى لو كانت سلطوية.

وبدل أن يقضي نظام الرقابة الصارم الذي وطده المكتب الثاني على فعالية عملاء السلطة، ما كان منه إلاّ أن سخّره لمصلحته. وأعلن الحكم نفسه «زعيماً» على شبكات القبضايات في بيروت خاصة أو على عشائر المناطق الحدودية. ولم يسعَ إلى إزاحة الزعماء التقليديين إلاّ بمقدار ما يعارضون خياراته السياسية وحاربهم من خلال دعمه لمارسات زبائنية مماثلة. وهكذا ساند بجهازه الإداري والبوليسي الوجهاء الذين كانوا مناصرين له، على حساب شخصيات جديدة ملتزمة بالمشروع الشهابي. وبما أن هذه الشخصيات لم يكن لديها أتباع، جرى إبعادها عن الانتخابات النيابية في عام 1964 لأنها كادت تزعج حلفاء محليين للسلطة[46]. وبالمقابل، عندما التحق الزعيم المحلي صائب سلام بالمعارضة المسلمة في بيروت حاول النظام الاعلاء من شأن شخصيات الصف الثاني مستعملاً هيبته كـ«شفيع» وسلطته القمعية ما أن تحين المناسبة[47]. وهذا لم يكن كافياً بالطبع لكي تتجدد الطبقة السياسية. وشكل حزب

الكتائب الاستثناء الوحيد في هذا الشأن إذ سعى، بتشجيع من النظام إلى استثارة عداء النخب المارونية التقليدية مباشراً تحوله إلى حزب جماهيري وطارحاً نفسه في قرى الجبل بديلاً للعائلات الكبيرة فشكّل في بيروت إطاراً للبورجوازية المسيحية المتحدرة من أصل ريفي. وفي الحالتين، كانت طموحات الحزب على مستوى القاعدة تتقاطع مع الإشكالية التنموية للنظام[48]، ولكنه كان أيضاً، نظراً لطبيعة المنضوين إليه، موجهاً للأدلجة الجماهيرية والاستقطاب الطائفي. ورأينا ذلك حين ضمَّ المعارضين الموارنة إلى الشهابية عام 1968 وخلال تصاعد موجات التطرف في السبعينات.

لم يكن بإمكان الشهابية أن تتحالف مع أحزاب علمانية، علماً بأن الحزبين الوحيدين الموجودين كانا مستبعدين، كل منهما بسبب خياراته الايديولوجية. كان الحزب السوري القومي الاجتماعي معادياً بشكل عنيف للناصرية وقد أثبت عداءه في سوريا وفي لبنان بحيث لم يتردد عن المشاركة في الحرب الأهلية عام 1958 إلى جانب أخصامه القدامي في حزب الكتائب للدفاع عن حكم شمعون. لكن، بعد إبعاده من إدارة الأزمة، كنَّ الحقد للنظام وسعى للقيام بانقلاب ضد الرئيس فؤاد شهاب في نهاية 1961 ليصير الحزب الذي يضمر له النظام أعظم الكره. أما الحزب الشيوعي فظل فاقداً الشرعية منذ أن ساند الاتحاد السوفياتي في موقفه المؤيد لحظة تقسيم فلسطين عام 1947. لا شك انه نجح في الحفاظ على جهازه كما أشار إلى ذلك تقرير قامت به أجهزة الاستخبارات الأميركية تتناول فيه الشرق الأدنى كله وأوردت فيه إن الشيوعيين اللبنانيين هم الأفضل تنظيماً، متهمة اياهم بالترويج لسياسة موسكو في البلدان المجاورة[49]. وبالرغم من أنه حُكم عليه بالعمل سراً، استطاع الحزب الشيوعي اللبناني في تلك السنة أن ينظم تظاهرة عنيفة احتجاجاً على إقامة مؤتمر الاونيسكو في بيروت. وبالرغم من القمع الذي رافق التظاهرة، ظلّ الحزب قادراً على تجييش حملة تواقيع على بيان أوعزت به موسكو لادانة التسلح النووي[50]. كما استطاع بفضل مجلة الطريق التي أسسها انطون تابت أن يحتفظ بحظوة لدى الانتليجنسيا، وحافظ، إلى ذلك، على نفوذه في بعض النقابات وتحديداً نقابة عمال المطابع ونقابة عمال الفنادق. ولكن الحزب الشيوعي واجه، كغيره من الأحزاب الشيوعية في المشرق العربي، صعوبات متزايدة ترافقت مع تدخل الاتحاد السوفياتي في المنطقة. أظهر دعمه للناصرية بعد مؤتمر باندونغ وحرب السويس وعداءه للوحدة السورية المصرية، وسانده في ذلك الحزب الشيوعي السوري الذي كان متصلاً به بشكل عضوي. ولقد دفع الثمن لقاء مواقفه من خلال رحيل مناضلين كثر فيه واستشهاد الأمين العام للحزب الذي توفي على أثر التعذيب في أحد السجون السورية في زمن الجمهورية العربية المتحدة. ولم يستطع الحزب أن يستفيد في ظل ولاية شهاب لا من مشاركته في الانتفاضة ضد شمعون ولا من خصومته التقليدية للحزب القومي المكروه من النظام. وبالاضافة إلى الرقابة الصارمة التي تمارسها السلطة على الحياة السياسية كلها، كان تحالف لبنان مع مصر حيث

الشيوعيون مضطهدون يقطع عليهم كل أمل للحصول على موقع في السلطة.

ودفع المأزق السياسي البنياني الذي بلغه المسعى الاصلاحي والتنموي للشهابية بالرئيس شهاب إلى عدم الوقوع في فخ التمديد بل آثر اختيار شارل الحلو لخلافته الذي ظلّ وفياً للنهج الشهابي في خطوطه العريضة. وجرى التفاهم على الأمر مع عبد الناصر بشكل خاص بحيث جسّده الرئيس شارل الحلو من خلال قيامه عام 1965 بأول زيارة رسمية يضطلع بها رئيس لبنان إلى القاهرة تمهيداً لجولة قادته إلى باريس ثم إلى الفاتيكان مؤكداً على الأولويات التي تضعها الدبلوماسية اللبنانية نصب عينيها[51]. ونتج عن هذه السياسة بقاء لبنان في وضع مستقر فيما كان جيرانه وقوداً لحرب عربية باردة مزّقت صفوفهم. وحتى، عندما أثارت العودة التدريجية للنزاع الاسرائيلي - العربي إلى واجهة الأحداث المخاوف في بيروت، اتخذ موقعاً معتدلاً ولم يورّطه في محاولة إسقاط المشروع الاسرائيلي الهادف إلى تحويل مجرى مياه نهر الاردن. لكن هذا لم يمنع أبناء بيروت من النزول إلى الشارع احتجاجاً على زيارة الرئيس حبيب بورقيبة، إثر تصريحاته في أريحا - وكانت آنذاك تحت السيادة الأردنية - الداعية إلى حلّ سلمي للصراع مع إسرائيل والتي شكلت، في نظر المتظاهرين، طعناً في سياسة الرئيس المصري. وكان المتظاهرون يطلقون هتافات تندد ببورقيبة وتحيي عبد الناصر ومعه شارل الحلو.

وشهدت السياسة الخارجية استمراراً للنهج الشهابي ذاته، في بداية العهد على الأقل. وبما أن شهاب اختار الحلو خلفاً له، فإن الغالبية البرلمانية نفسها دعمته وأحاطت به كما أحاطت بسلفه من قبل، وخصوصاً الضباط العسكريون الذين كانوا هم الذي يمارسون السلطة الفعلية بفضل المكتب الثاني الكلي الحضور[52]. لكن الشهابية ما لبثت أن فقدت سريعاً من اندفاعتها. وبلغت الجهود المبذولة لعصرنة الدولة حدّها الأدنى بسبب الاخفاق في إصلاح سريع للإدارة والجهاز القضائي، ثم ساءت الحالة الاقتصادية كثيراً مع إفلاس بنك انترا والأزمة المصرفية التي أعقبته وهزّت ساحة بيروت. ثم جاء الانقلاب الجذري في السنة التالية في جغراسياسة المنطقة الذي أحدثته حرب حزيران 1967 ليسبب الخلل في السياسة اللبنانية. وأخيراً، لم تنجح الشهابية في المضي قدماً لتنفيذ خطتها الإصلاحية التي تبقيها بمنأى عن الهزات الخارجية. كذلك بقي البنيان الوطني غير منجز وبقيت هوية البلاد ضبابية في نظر أبنائها. فهؤلاء الذين كانوا يطالبون بالقومية العربية بدأوا يعتادون على فكرة خصوصية لبنان، لكن المعاداة المستمرة التي أظهرها أنصار اللبنانوية المتطرفة حيال العروبة هدّدت بإرجاع كل شيء إلى نقطة الصفر.

جمهورية الآداب العربية

لم تعبّر الجغراسياسة العربية عن نفسها في بيروت من خلال العلاقات الدبلوماسية أو تظاهرات

الشارع فقط. كان لبيروت أيضاً دورها الفاعل على الصعيد الفكري، بالرغم من أن التصورات المتعلقة بالهوية ازدادت تشوشاً. وكانت المدينة، بوصفها عاصمة لجمهورية ذات نمط فريد، ترفض أن تتبنى الموقف العروبي المعلن وتشكل في الوقت نفسه مقراً لجمهورية ذات ثقافة إنسانية ترسم الأفق الذي لا يمكن تجاوزه من قبل دعاة العروبة وتتمسك بموقفها المعتدل نظراً لوضعها المميز.

منذ النهضة ورسالة بيروت الثقافية واضحة. وعلى مرّ الزمن، أطلق رجال الفكر والأدب دعواتهم المتكررة، وتخطى دعاة النهضة عالم الأدباء القليلين الذين يعتاشون من كتاباتهم، ليشمل معظم المحامين والمربين وأهل الصحافة. صحيح أن لبنان لم يبادر كدولة نالت الاستقلال للاهتمام بإنشاء مؤسسات ثقافية، بصرف النظر طبعاً عن قصر الأونيسكو الذي أمكنه استقبال حركات ثقافية شتى... لكن المبادرات الخاصة نجحت في التعويض عن تقصير الدولة في هذا المجال. منذ نهاية الأربعينات، شكلت دار الندوة اللبنانية مختبراً للأفكار بتشجيع من ميشال أسمر. ونشأت «مؤسسة» أخرى لاحقاً من خلال المسرح الغنائي للأخوين عاصي ومنصور الرحباني الذي رفع صوت فيروز مجده عالياً. وكان هذا المسرح أجدى من الكتب المدرسية في رسم صورة للبنان الوطن المعجزة الذي بلغ حدّ الاسطورة. لكن هذا لم يمنع الأخوين رحباني وفيروز من الوفاء لقضية فلسطين ولا من تسجيل عشرات الأغاني في الخمسينات تخليداً لمجد دمشق. والغريب في الأمر أن الرحابنة، بالرغم من وجودهم في بيروت التي تواجه تأثيرات شتى، إن لم نقل كوسموبوليتية، آثروا أن يرسموا، على المسرح صورة لبنان الحلم الذي تجسدّه قرية لبنانية نموذجية مسقطين من حساباتهم كل دور تلعبه المدينة. ووجب الانتظار حتى السبعينات لنرى زياد الرحباني، الإبن الموهوب لفيروز وعاصي، محاولاً التعبير من خلال الأغنية والكوميديا الغنائية عن خلاصة بيروت.

ولم يكن اللبنانيون وحدهم وسط المشهد الثقافي. كان للإنفتاح الاقتصادي رديفه الثقافي مع الفارق بأن الجانب الثقافي تقدم الجانب الاقتصادي في التاريخ الحديث للحاضرة. تخطت النهضة وحركة التجدد في الثلاثينات بلاد الشام لتصل إلى المجتمعات العربية، فيما لم تكن بيروت إلاّ مرفأ لدمشق. ثم جاءت ترقيتها إلى مرتبة الساحة المالية للشرق الأدنى إثر ازدهار مرفئها التجاري ليجعلها تبسط نفوذها حتى شبه الجزيرة العربية مشجعة تمركز شبكات انتاج الثروات الثقافية ونشرها وكان السحر الذي تمارسه من خلال طريقتها في العيش يجتذب إليها الأدباء الذين ما عادوا يكتفون بطبع مؤلفاتهم في دور النشر اللبنانية بل آثروا الاقامة فيها قريباً من الناشرين والقراء وأمكنة اللهو والإلهام التي تحفل بها المدينة. ومن خلال حضورهم، رسموا الحدود الجغرافية الواضحة المعالم لعاصمة الآداب العربية هذه الممتدة بين مبنى اللعازارية في وسط المدينة حيث تتواجد غالبية دور النشر ويحيط بها عدد من أصحاب المكتبات، وبين مقهى دولشي فيتا على صخور الروشة مروراً بالهورس شو في الحمرا

ومبنى جريدة **النهار** الواقع في الشارع نفسه عام 1963 والذي استقبل طوعاً الشعراء في مكاتبه، ولا ننسى بالطبع كامبوس الجامعة الأميركية والمطعمين المواجهين له على الجهة الأخرى من شارع بليس، «الفيصل» و«الأنكل سام» «الذي لم يمنعه اسمه إطلاقاً من أن يكون العرين الذي يحتضن المناهضين للإمبريالية .

وفي الفترة الممتدة بين الحربين، اجتذبت دور النشر البيروتية، التي تتمتع بتراث مطبعي عريق، المخطوطات إليها وتوسعت حركة النشر فيها بشكل ملحوظ إثر الحرب العالمية الثانية. وأول الوافدين لنشر كتبه في بيروت كان بالطبع الشاعر الدمشقي نزار قباني الذي جعل منها مكاناً شبه دائم لإقامته وأسس فيها داراً للنشر على إسمه لطبع آثاره الشعرية التي غلبت عليها موضوعات الحب والغزل قبل أن يتحوّل إلى الشعر الوطني في أعقاب هزيمة حزيران عام 1967. كما نُشرت في بيروت ايضاً دواوين الشعراء العراقيين وتحديداً بدر شاكر السياب وديوانه الأبرز «أنشودة المطر» عام 1960. واحتكرت دار العودة، إبتداءً من أواسط الستينات نشر كل ما له علاقة بالشعر الفلسطيني، واليها بعث محمود درويش من حيفا بأول ديوان له نُشر خارج فلسطين عام 1966. وفي غضون ذلك استقبلت بيروت عام 1959 المخطوطة الثورية «أولاد حارتنا»، الرواية التي لم يستطع نجيب محفوظ نشرها في القاهرة. لكن الظاهرة الفنية الأبرز جاءت على يد شعراء أقل انتشاراً تحلقوا حول مجلة **شعر** التي أنشأها يوسف الخال. وعبّرت هذه المجلة عن حساسيات متنوعة تنوع مسارات الشعراء الذين ساهموا فيها. بالإضافة إلى يوسف الخال، الذي يرقى أصله إلى وادي النصارى في شمالي سوريا، طغى على المجلة حضور أدونيس الآتي من بلاد العلويين بالقرب من اللاذقية وعقيدة سوريا الكبرى. وقد ساهم فيها شاعر سوري ثالث هو محمد الماغوط. سمحت مجلة **شعر** بارتقاء عدة شعراء لبنانيين فيها كشوقي أبو شقرا وخصوصاً الفتى الشاب أنسي الحاج في ديوانه «لن» الذي نشره ولما يبلغ العشرين من عمره في عام 1960 مطلقاً رصاصة الرحمة على ما تبقى من العَروض العربية. وتصدر الإبداع الشعري في هذه المجلة كل الابداعات في الميادين الأخرى مضطلعاً بدور تغيير العالم أو في الحدّ الأدنى، تغيير العالم العربي. وبهذا المعنى، انضم فريق **شعر** إلى الأدباء الأكثر التزاماً الذين نشروا مؤلفاتهم في بيروت. وكانت قيمة الرهانات الأدبية تنصب بمجملها على الثورة الثقافية لتؤول في النهاية إلى المعارضة السياسية.

وكانت لجمهورية الآداب أكاديمية أيضاً. وحققت الجامعة الأميركية في بيروت إنجازات باهرة في هذا الميدان. كانت الجامعة الأميركية، بلا منازع، القطب الأول لبث الثقافة الوطنية في بيروت إبان القرن العشرين. كان العرب يأتون إليها، في ظل الانتداب، من كافة أنحاء الشرق الأدنى، فيما تخصصت جامعة القديس يوسف في انتاج كوادر الجمهورية اللبنانية. كان أنطون سعادة يدرّس

الألمانية في الجامعة الأميركية وفيها أسس حزبه الداعي إلى إقامة سوريا الكبرى وكذلك انطلق منها فريق «العروة الوثقى» الرافع شعار بعث القومية العربية. أما البحث الأبرز الذي تناول جيل الهزيمة الفلسطينية فكان من تأليف أحد أساتذتها وهو «معنى النكبة» للدمشقي قسطنطين زريق. وأدّت نكبة 1948 إلى التحاق عدة أساتذة فلسطينيين بالجامعة الأميركية وكانوا قد درسوا فيها سابقاً، وكذلك طلاب فلسطينين كثر. وكان أحد هؤلاء الطلاب الذين ترددوا إلى كلية الطب هو جورج حبش الذي لم يكف عن استخدام معارفه في هذا المجال ليعتني بأقرانه اللاجئين في المخيمات حول بيروت. وقد أنشأ جورج حبش بمعاونة بعض الأصدقاء من لبنانيين وجنسيات أخرى عام 1952، انطلاقاً من الكامبوس، حركة القوميين العرب التي عبرت عن جوهر الأفكار الناصرية قبل أن يؤول بها الأمر لاحقاً إلى إنشاء «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» و«منظمة العمل الشيوعي في لبنان». ومثلت الجامعة الأميركية طيلة الخمسينات موئلاً للتعبئة القومية العربية وساهمت في دعم الحركات المناهضة لحرب الجزائر والعدوان الثلاثي على قناة السويس، وبشكل خاص، السياسة الأميركية والحرب الباردة. واستمر الأمر على هذا النحو حتى أنشأ طلاب الجامعة الأميركية النادي الثقافي العربي ليكون رديفاً للندوة الوطنية وأقطاب الفرانكوفونية. وبقي الكامبوس الأميركي حتى 1975 وما بعده، أحد الأمكنة في بيروت التي تهب منها عواصف التمرد وفي الوقت نفسه مكان التقاء بين الأفكار الكوسموبوليتية وأسلوب العيش والالتزام القومي المتطرف أحياناً.

وعلى هامش الأدب، ومن دون شفاعة الأكاديمية الأميركية، أغنى وجود عدد من السياسيين المنفيين لوحة بيروت الثقافية. أولاً، لأن المناضلين في تلك الفترة كانوا معنيين بالكتابة، بصرف النظر عن أهميتهم في عالم الأدب. وثانياً لانهم كانوا يعيشون في احتكاك دائم مع أهل القلم، سواء لانهم كانوا يلتقون بهم في المقاهي وإما لانهم يتعمدون الذهاب للتحدث معهم في حلقات النقاش لكي ينشروا خبراً أو يحولوا بعض الأحداث عن مجراها الطبيعي. كانت بيروت أشبه ببرج بابل المصالح العربية المتقاطعة والعاصمة المرتجلة لهيئات سياسية شتى أجبرت على الانتقال من أوطانها بسبب القمع البوليسي الممارس عليها. بدءاً بحزب البعث الذي جعل مؤسساه ميشال عفلق وصلاح بيطار المنفى البيروتي مقراً لهم مرات عدة. بما أن المنفى كان على بعد ساعتين من دمشق، كان يتسنى لهما بسهولة متابعة ما يجري هناك والتأهب دوماً للعودة ما أن تتغير الظروف. وكان بعثيون آخرون يأتون للانضمام اليهم، من سوريا والعراق على حد سواء. فصدام حسين توقف، وهو في طريقه إلى منفاه المصري، لعدة أسابيع في شقة في شارع الحمراء بعد محاولته الفاشلة لاغتيال اللواء عبد الكريم قاسم في بداية الستينات. كذلك شوهد الضابط الشاب حافظ الأسد وهو يقوم بزيارة لصلاح بيطار قبل حدوث الانشقاق في صفوف حزب البعث.

وكان قادة حزب البعث حين لا يضطرهم القمع لمغادرة بلدانهم، يجدون طبيعياً القيام بزيارة إلى بيروت حيث بإمكانهم التواصل فيما بينهم بشكل أفضل واستطلاع ما يجري من أحداث. وكانوا معتادين الذهاب إلى مقهى الدولشي فيتا الذي أصبح مقرهم العام. ولم يكن البعثيون وحدهم في المدينة. وإذا صرفنا النظر عن عملاء أجهزة الاستخبارات على أنواعها الذين اجتذبهم وجود المنفيين في بيروت، كان البعثيون يصادفون أخصامهم في حركة القوميين العرب الذين ضموا إلى صفوفهم بالإضافة إلى الفلسطينيين واللبنانيين، السوريين والعراقيين واليمنيين والكويتيين، وأيضاً مناضلين اشتراكيين أو شيوعيين من كافة البلدان، عراقيين ويمنيين وحفنة من الـ «السعوديين» وكانوا يرفضون إجمالاً الانتساب إلى العائلة المالكة ويفضلون القول انهم من شبه الجزيرة العربية. كذلك حظيت المغرب البعيدة بممثليها في بيروت ولو على نحو متقطع أمثال محمد البصري رفيق بن بركة والصحافي باهي محمد. لا يمكن القول إن جميع المنفيين يتعمدون رؤية بعضهم البعض بل يسعون إلى تفادي ذلك. كان لكل فريق مكانه المفضل ولكن المدينة صغيرة واقتضى الأمر أن يتلاقوا بطبيعة الحال. ومن المؤكد انهم كانوا يتعمدون المجيء الى مكاتب التحرير لا سيما في صحيفة النهار وخصوصاً لدى ميشال أبو جودة كاتب الافتتاحية اللامع في جريدة النهار، الذي كان مكتبه أحياناً أشبه بجامعة الدول العربية. كم من التحالفات عُقدت وفُسخت هناك، كم من المقاربات في وجهات النظر وكم من الألاعيب قد اختبرت؟ لا يمكن الاجابة عن هذه الأسئلة. بالمقابل، لا شك أن تمركز أحزاب وهيئات وتيارات في هكتارات قليلة عزّز السجال بين الأفكار الذي كان مستحيلاً في أمكنة أخرى من البلدان العربية وإجراء المقارنات بين العقائد المتنافرة لا بل المتناقضة. والشاهد على ذلك تطور اليسار اللبناني باتجاه القومية العربية والفرع اللبناني للقومية العربية باتجاه الاشتراكية. وطالت الظاهرة نفسها أوساط الفلسطينيين وكان منطلقها بيروت على الدوام.

ومن بين جميع المنفيين، كان الفلسطينيون والسوريون الأقل شعوراً بالغربة لان الصلات التي تربطهم بالمدينة قديمة جداً، ولولا الظروف السياسية الدراماتيكية التي تسببت بنفيهم، لبدا التردد إلى المدينة من الأمور الأكثر بديهية. لم يشعر هؤلاء المثقفون والمناضلون بأنهم مقتلعون من جذورهم فعلاً . ذلك انهم كانوا يصادفون ناشطين في أرجاء المدينة يشاطرونهم وجهة نظرهم السياسية. ولا ننسى شريحة كبرى من البورجوازية السورية وخصوصاً المسيحية منها انتقلت من سوريا حاملة معها كل ما تملكه. وإذا كان أفرادها يرفضون الخطاب النضالي ويجدون في عدم التجاوب معه أحد أسباب منفاهم بالذات، فإن الصلات العائلية أو علاقات الجوار القديمة ساهمت في التخفيف من الخلافات. أما الأمور بالنسبة للفلسطينيين فاتسمت بسهولة أكبر. لم يكن للعائلات البورجوازية، الفلسطينية، المسيحية والمسلمة على حدّ سواء، التي أقامت في رأس بيروت، من سبب للارتياب من

المناضلين الذين يسعون لاسترجاع الأرض التي يبكيها جميع الفلسطينيين، أغنياء أم فقراء، ولو كانت العقيدة الموجهة لتلك المعركة تندرج في إطار الوحدة القومية العربية الشاملة. لا بل كان المناضلون الفلسطنيون واثقين من أنهم يجدون بالقرب من أبناء بلدهم الأثرياء ليس فقط دعماً معنوياً بل مادياً أيضاً. والى تلك الحقبة يعود هذا الانجذاب الذي شعر به العديد من الفلسطينيين المنتمين إلى البورجوازية الوسطى المثقفة، حيال تطرف جورج حبش.

وحظي الفلسطينيون بامتياز آخر، بالمقارنة مع المنفيين الآخرين من العالم العربي، الا وهو انهم بجوار قاعدة شعبية عليهم استنهاضها. ومع أن مخيمات اللاجئين خضعت للاشراف البوليسي المباشر للدولة اللبنانية، على عكس ما كانت عليه حال مقاهي المثقفين، فهي شكّلت رغم ذلك الأرضية التي تستطيع فيها الأفكار السياسية أن تتجسد أفعالاً. وتمتعت حركة القوميين العرب، بفضل الخدمات الطبية الجلى التي قام بها «الحكيم»، أي كما كان يحلو للفلسطنيين أن يلقبوا الدكتور جورج حبش، باحترام بالغ لوقت طويل. ثم بدأت «فتح»، المنظمة الفلسطينية القحّة التي قامت على أنقاض القومية العربية، تفرض وجودها في أواسط الستينات. تأسست فتح في الكويت عام 1959 على يد حفنة من الشبان الفلسطنيين الذين انهى بعضهم دراسته في القاهرة، وبعضهم الآخر في دمشق. انبثقت «فتح» من عالم بعيد جداً عن أجواء بيروت الفكرية. ولم تلبث أن ظهرت في بيروت. وفيما كان المناضلون في المخيمات يسعون لتجاوز الخلافات السياسية التي تفرّقهم وتوحيد أساليب النضال الفلسطيني، دار آخرون على مكاتب التحرير حاملين نسخاً من جريدة تدعى «فلسطيننا» بكل بساطة. ولم تكن الجريدة تابعة لفتح مباشرة لكنها قلبت شعار القومية العربية مؤكدةً إن تحرير فلسطين يمهّد السبيل لبلوغ الوحدة العربية وليس العكس. ولاحقاً، أخذ هؤلاء المناضلون يوزعون، بالإضافة إلى الصحيفة، المناشير التي حمل بعضها توقيع «العاصفة» وهي الجناح العسكري السري لفتح الذي أعلن في مطلع كانون الثاني/ يناير 1965 تنفيذ أول عملية عسكرية له على الأراضي المحتلة وانطلاقة الصراع المسلّح.

حرب الصحف

الحق يقال إن بيروت كانت المكان الوحيد في العالم العربي حيث يمكن لمثل هذا المنشور أن يُوزّع، وأن يُنشر خصوصاً. وبالرغم من انشغال السلطات اللبنانية الدائم بمراعاة جانب عبد الناصر – وقد أظهرت أجهزتها ردود فعل عنيفة إزاء تحرك «العاصفة» واصفة إياها بأنها إحدى مناورات أجهزة الاستخبارات الأميركية – كانت الصحافة البيروتية المتميزة بتعدديتها تحرص على عدم اسكات أي صوت عربي حتى لو هاجم مصر صراحةً. واتسمت النبرة في التعامل مع السياسة العربية بحرّية

أكبر منها في تغطية الأحداث اللبنانية الراهنة التي سعى المكتب الثاني للإشراف عليها من خلال إثارة الرعب في قلوب رجال الصحافة أو إخضاع مقالاتهم للرقابة المسبقة وهذا ما أطلق عليه في تلك المرحلة صفة «الدكتيلو».

وكلما سعت الانقلابات الحاصلة في غير بلد من البلدان العربية إلى مصادرة الرأي العام وسجن المناضلين الناطقين بلسانه، سعت الصحافة في بيروت إلى اختصار الصحافة العربية كلها. صحيح إن جريدة **كالأهرام** شهدت انتشاراً واسعاً في القاهرة لكنها كانت جريدة شبه رسمية. أما الصحافة في دمشق فانطفأت ببطء، وأتى العديد من رجال الصحافة إلى بيروت أمثال رياض الريس، وريث جريدة **القبس** القومية في عهد الانتداب، أو رفيق خوري وهو مناضل قديم في الحزب الشيوعي السوري وأيضاً العديد من الفلسطينيين كنبيل خوري والروائي غسان كنفاني كما ساهم آخرون في تعزيز دور الصحافة ولا سيما المنفيين منهم بكل توجهاتهم الفكرية على مرّ إقامتهم في بيروت.

ونظراً لتنوع المشاركين فيها وجهوزية جميع الموارد البشرية للمنفيين في مقهى الزاوية، تحولت جمهورية الآداب بفضل الصحافة في بيروت إلى طرف في السياسة العربية الداخلية، لكنه طرف يضطلع بأدوار متعددة وينطق بأصوات متنافرة. ما من مسألة حساسة في العالم العربي إلاّ وعبّرت عن نفسها من خلال الصحافة. ما من عاصمة عربية إلاّ واستخدمتها. وسرعان ما أصبحت تعددية الصحافة في لبنان سلاحاً تستخدمه الأنظمة في المعركة التي تخوضها على كافة جبهات الحرب العربية الباردة. وإذا كان بمقدور بعض الصحف اليومية **كالنهار** و**الحياة** و**الجريدة** و**الأنوار** و**لسان الحال** ان تصمد في حلبة المواجهة، والمجلات **كالصياد** و**الأسبوع العربي** و**الحوادث** أن تتدبر أمرها بنفسها، لم يكن بإمكان الصحف الأخرى ان تكسب رزقها عن طريق الإعلان أو من خلال المبيعات لتقف على قدميها. لذلك اضطرت هذه



الصحافة اللبنانية صاحبة الجلالة ولو مكمومة الفم.

الصحف لضمان انتشارها في البلدان العربية أن تكون مرتهنة لأحد الأنظمة العربية من خلال الحصول على مساعدات مالية مموهة يضمنها قانون السرية المصرفية أو من خلال مقالات أو منشورات تبث في الصفحات الأولى في أجواء من تراشق التهم بين الأنظمة العربية المتصارعة على الأرض اللبنانية .

صحيح أن الحكم في لبنان كان منشغلاً في متابعة أمور السياسة الداخلية لكنه كان يراقب باهتمام بالغ الأموال الموظفة في مجال الصحافة لأنها تعزّز الازدهار الاقتصادي فآثر الصمت وشجّع على تنافر الأصوات. لا بل إن الرئيس شارل الحلو، وهو الصحافي العريق اطمئن إلى سير الأمور في هذا الاتجاه. وذات يوم، في معرض استقباله لأعضاء مجلس نقابة الصحافة أي المالكين الإسميين للصحف الموجودة على الساحة، قال لهم: «أهلاً وسهلاً بكم في لبنان، وطنكم الثاني». وفي نهاية جولة المحادثات إبان انعقاد القمة العربية الأولى في القاهرة عام 1964، أراد أحد رؤساء الوفود أن يطرح على جدول البحث الحرب الاعلانية الدائرة في بيروت فأجابه شارل الحلو بكل ما اتصف به من لين عريكة بأنه كان يهم هو نفسه لطرح هذا الموضوع. لكن، بما أن أحدهم سبقه إلى ذلك، يتوجب عليه إذاً والحالة هذه إسداء نصيحة عملية وهي: أن يعمد رؤساء الدول المجتمعون في القمة إلى إسكات الصحف التي ينكبون على تمويلها بأنفسهم.

لكن لا يمكن القول إن الصحافة في لبنان كانت أداة في يد الأنظمة العربية المتصارعة وان كان صحيحاً أن بعض الناشرين كان يحدوهم هدف تجاري رخيص. لكن شغفاً حقيقياً دفع الأطراف للمشاركة في هذه المشاحنات الكلامية المتكررة يومياً للتعبير عن تأييدها لهذا الاتجاه أو ذاك. لم يكن جميع الناصريين مأجورين ولا كل أخصامهم سواء الليبراليين أو المحافظين منهم كانوا واقعين تحت تأثير الذهب الأسود أو يعملون لمصلحة الاستخبارات الأميركية. لا شك أن أميركا كانت ماثلة في بعض الأذهان وقد أعلنت ظهورها على الساحة في الخمسينات من خلال إصدار مجلة في بيروت تدعى **حوار**، ولم تنجح مع ذلك في كبح جماح القومية العربية الصاعدة. وأنشئ مكتب دراسات وأبحاث تابع لبلدان الخليج وقد جمع لاحقاً الصحافيين الموالين لأميركا، وذاع صيته لدى القوميين العرب بأنه تابع لأجهزة الاستخبارات الأميركية. لكن، يجدر القول إن التناقضات المحمومة المتواجدة داخل حدود بيروت لا تحتاج بالضرورة إلى ممولين.

استطاعت جريدتا **النهار والحياة**، بالرغم من مناهضتهما لسياسة عبد الناصر، وبالرغم من الحنكة التي أبدتاها في إثارة غضبه لدرجة دفعه إلى الردّ عليهما في خطاباته، أن تحتفظا بمصداقيتهما. وفي جريدة **النهار**، استطاع غسان تويني بمرونته أن يلوّن مواقفه الليبرالية المتعاطفة مع أميركا وهو الصحافي الذي حصّل دروسه في جامعة هارفرد. وبالاضافة إلى الصدى الذي كانت تلقاه مقالات الصحافي ميشال أبو جوده في عرضه وتحليله للصراعات العربية، أغنى هيئة التحرير باسهامات القوميين العرب

كالدمشقي رياض الريس أو كلوفيس مقصود ممثل جامعة الدول العربية لاحقاً، كما أفسح المجال للتيارات الشتى كي تعبّر عن نفسها.

أما صديقه وجاره كامل مروة الذي أطلق جريدة **الحياة** عام 1946 من أحد مكاتب جريدة **النهار** بعد ان قدمه له جبران تويني طوعاً، فهو ينتسب باعتزاز للقومية العربية ويلتزم بمبادئها منذ عهد الانتداب. كان مقرّباً فيما مضى من الحاج أمين الحسيني، مفتي القدس وأمضى فترة الحرب العالمية الثانية وهو في المانيا، كانت أمه نصف المانية من دون أن ينخرط في صفوف النازية. ويمكن التثبت من هذا استناداً إلى سلسلة المقالات التي أحضرها معه ومن خلال استعداد البريطانيين وأصدقائهم الهاشميين لكي يخصوه بمعاملة مميزة في الخمسينات. وزّعت **الحياة** آنذاك عشرات النسخ في العراق، ووجد مروة نفسه تلقائياً في طليعة أنصار المعارضة الهاشمية للناصرية الناشئة في مصر. ثم، بعد الثورة العراقية والمصالحة التي أعقبتها بين هاشميي الأردن وعائلة سعود، التحق مروة بمعسكر المحافظين الذي تتزعمهم العربية السعودية بعد انفصالها عن عبد الناصر وصراعها معه في اليمن. لكنه احتفظ ببعض الجسور مع القاهرة. وقد ذهب أحمد سعيد، أحد المسؤولين في إذاعة صوت العرب التابعة لعبد الناصر، إلى حد التأكيد أن دعوة مبدئية وُجهت لمروة قبيل مقتله ليقوم بزيارة مصالحة إلى مصر[52]. لكن هذا التأكيد فُسّر لاحقاً على انه ذريعة أرادها نظام عبد الناصر للتحلل من التبعات المأسوية لقصة مقتل كامل مروة المأساوي حين دخل أحد قبضايات بيروت المتعاطفين مع الحركة الناصرية والناشطين في الشارع السني، إلى مكتب مروة وأرداه قتيلاً دون أن يرف له جفن.

وهكذا استطاعت بيروت الشارع الإلتحاق ببيروت جمهورية الآداب.

الفصل العشرون

نهاية البراءة

كان كل شيء يشير إلى أن حلول العام الجديد سيكون كغيره من الأعوام. وبالرغم من المرارة التي خلفتها حرب 1967 وحال الإحباط التي طرأت على السياسية الداخلية، كانت بيروت تتهيأ للإحتفال بالسنة الجديدة، سنة 1969. حفلت الصحف بإعلانات عن الحفلات والسهرات المنظمة. وقبل ثلاثة أيام من موعد حلول العام الجديد أي في 28 كانون الأول/ ديسمبر 1968، هبّت العاصفة المفاجئة حين أنزلت فرقة كومندوس إسرائيلية في مطار بيروت ودمّرت ثلاث عشرة طائرة تابعة للميدل إيست كانت متوقفة في أرض المطار. لم يشوّه هذا الحدث فرحة العيد لكنه أرّخ لنهاية عصر البراءة.

كان كل شيء يشير إلى أن بيروت عادت إلى سابق عهدها. وسار اقتصادها، طيلة السبع سنوات التي اعقبت هذه الحادثة على وتيرة متسارعة. ظلّ مطار بيروت القاعدة الإقليمية للنقل الجوي، وسطعت الحياة في المدينة بألف بريق. ازدادت طلبات مجتمع الاستهلاك البيروتي تنوعاً. وكان ساكن المدينة، مهما ضؤل فضوله الثقافي، يقف محتاراً أمام هذا الكم الهائل من المعارض والمسرحيات والمحاضرات وصالات السينما التي لا تحصى. أما أثرياء بيروت فلا شيء يؤثر فيهم وكانوا يواصلون ظهورهم في الصالونات والمطاعم الكبيرة وعلب الليل الباذخة، متصرفين وكأن بيروت باريس مصغرة.

ومع ذلك، ومن كل مكان أطلقت صفّارات الإنذار، من الابداع الأدبي والصحافة وتظاهرات الشارع والتجليات المتعاقبة للصراع الاسرائيلي-العربي، وخصوصاً من كتلة الأكواخ القذرة هذه التي تبدو وكأنها من عالم آخر لا يمت بصلة إلى الأحياء الباذخة أو الميسورة وإمتدادات مساكنها المترفة على منحدرات الجبل. عبثاً أظهرت الاحصاءات تناقضاً فاضحاً على مستوى الحياة الاجتماعية، فالآثار الناتجة عن حزام البؤس هذا زادت الشروخ في النفوس أضف اليها التبعات المتناقضة والمستديمة التي أثارتها هزيمة الدول العربية للمرة الثانية على التوالي أمام اسرائيل في حزيران 1967. بعد رحيل

عبدالناصر، ظهرت المقاومة الفلسطينية محرّكاً جديداً للسياسة العربية انطلاقاً من لبنان، ولكن الفارق كان كبيراً، إذ لم يعد الأمر يتعلق بمسألة تأثيرها ونفوذها فقط بل بحضورها البشري أو التنظيمي على الحدود الجنوبية للبلاد وضواحي بيروت ولاحقاً في شوارعها الرئيسية.

وكان التغير الجيوسياسي مناسبة للاستقطاب الطائفي الذي تجلّى بكامل حيويته. كان النظام السياسي يتآكله من الداخل عجزه بالذات، لا سيما أن قوة سياسية أخرى بدأت تصعد إلى مركز الصدارة بعد أن استنهضتها الصدمة الناتجة عن هزيمة 1967. هذه القوة تمثلت في اليسار الذي شهد فترة تحول فجائي واشتدت عزيمته جراء المآزق التي تواجهها المعجزة اللبنانية ورياح التطرف التي هبت من المقاومة الفلسطينية. كما كان الحزب الشيوعي، بعد عقدين من الأفول في طريقه لان يفرض نفسه على الساحة من جديد حزباً جماهيرياً محفزاً بانتشار الفكر الماركسي في العالم والمنافسة الميدانية التي تبديها منظمات جديدة أكثر تطرفاً. وفيما يتعدى الايديولوجيا، كان تحالف اليسار المتعدد آنذاك مع النزعات «الثورجية» للمقاومة الفلسطينية يجري ميدانياً على قدم وساق لان المقاومة الفلسطينية كانت، هي نفسها، على اتصال مباشر بحزام البؤس الذي كانت مخيمات اللاجئين توأماً له.

منطعف 1967

وحده لبنان، من بين الدول العربية الأربع المجاورة لاسرائيل لم يشارك في حرب 1967، لكنه عاش اجواءها إلى حدّ بعيد. طُليت نوافذ المباني وأضواء السيارات، في المناطق الأكثر بعداً عن الحدود مع اسرائيل، باللون الأزرق. صحيح أن المدارس لم تقفل أبوابها، لكن النشاط الاقتصادي توقف صبيحة الخامس من حزيران إلى جانب القلق الذي خيّم على أولياء الجنود. عرفت بيروت فترة من الترقب والانتظار المفعم بالغبطة اللذين شهدتهما مدن سوريا. دوّت الشوارع بهتافات النصر الموهوم التي بثتها إذاعة صوت العرب. وكانت الهزيمة قاسية جداً. ففي مساء التاسع من حزيران، أعلن عبد الناصر هزيمة مصر واستقالته بالذات من منصبه. وفي تلك الليلة، بكت بيروت كما بكت القاهرة. وكما في القاهرة، نزل آلاف وآلاف الناس إلى الشوراع معبّرين عن رفضهم للهزيمة وولائهم لزعيمهم المنهزم مطلقين الهتافات المنددة حتماً بالولايات المتحدة بصفتها المحرّضة الحقيقية على هذه الحرب الخاطفة. أضرمت النار في معمل الكوكاكولا عند مدخل جنوب لبنان بصفتها رمزاً للمنتوجات الأميركية – ولاحقاً، ستوضع شركة فورد على لائحة المصنوعات التي قاطعتها الدول العربية بسبب استثماراتها في اسرائيل. وفي غضون ذلك، استكملت اسرائيل سلسلة انتصاراتها باحتلالها القدس الشرقية والضفة الغربية والجولان في سوريا.

بالمقابل، بقيت الأراضي اللبنانية شبه سليمة – احتُلت أجزاء من بلدات بعض القرى الحدودية.

لكن الوطن لم يسلم من تداعيات تلك الحرب لأنه لم تكن لديه، نظراً لحساسية بنيته تجاه التغيرات الاقليمية، المناعة الكافية للتخلص من تبعات هذه الهزيمة الشاملة. وبعد عقدين من نكبة فلسطين واجهت المجتمعات العربية صدمة جديدة شاملة متجاوزة حدود الدول المشاركة في الأعمال الحربية. تغيّر الواقع الجيوسياسي الذي اعتاده العرب منذ 1956. وبعد أن انغلقت اسرائيل على نفسها بعد حرب السويس وأرجأت إلى أجل غير معلن تنفيذ الطموحات الستراتيجية لبن غوريون، عادت بفضل انتصارها في حرب 1967 وبفضل الدعم الأميركي، مزودة بقاعدة إقليمية واسعة، عاملة باستمرار على جني ثمار انتصارها على البلدان العربية المشرذمة والمصدومة. وانعكست التغيرات التي احدثتها حرب 1967 على علاقات العرب فيما بينهم واتسمت بانكفاء سياسة المواجهة التي طبعت الناصرية لصالح الدول المحافظة وعلى رأسها المملكة العربية السعودية. ومع ذلك لا الهزيمة النكراء ولا الإخلال بالتوازنات الإستراتيجية الذي أحدثته في المنطقة، استطاعا أن يحملا العرب على الاستسلام. شهدت القاهرة والبلدان العربية الأخرى تظاهرات تطالب عبد الناصر بالرجوع عن استقالته وتؤكد رغبة العرب في مواصلة القتال. ثمّ جاءت قمة الخرطوم التي عُقدت على مستوى الحكومات لتعبّر بـ«لاءاتها» الثلاث عن الرفض العفوي للشعوب العربية. ونظراً لعدم توازن القوى على الساحة العربية، لم يستطع احتدام الصراع الاسرائيلي-العربي ان يتجسد ميدانياً قبل إطلاق حرب الاستنزاف على قناة السويس عام 1969.

وفي غضون ذلك، كان هذا الاحباط العام أرضاً صالحة للتعبئة الايديولوجية وظهور الأفكار المتطرفة إلى العلن. لأنه، إذا كانت الجغراسياسة العربية قد شجعت بعد انعطافة 1967، كما تسنى لنا أن نستخلص ذلك لاحقاً، ظهور الأنظمة المحافظة على الساحة ، يبقى أن نشير إلى انه خلال الثلاث أو الأربع سنوات التي أعقبت الهزيمة مباشرة هيمن الخطاب المتطرف المتسلح بالمبادئ المتمركسة المتمحورة حول نقد الأنظمة «البورجوازية الوسطى». في مصر نفسها، أصبح الخطاب الناصري أكثر تطرفاً وراديكالية على صعيد السياسة الداخلية. أما حزب البعث الجديد في سوريا فلم تؤثر خسارة الجولان على توجهاته اليسارية، فيما دشّن حزب البعث الآخر الذي عاد إلى الحكم في العراق عام 1968، عهده الذي سيطول بإطلاق المزايدات في مواقعه المناهضة للغرب التي سيتنكر لها في المستقبل القريب. وانضمت جمهورية ليبيا إلى معسكر الدول الموصوفة بالتقدمية ملوحّة بسلاح النفط وشعبوية العقيد معمر القذافي العالمية. كذلك تجلى التطرف الثوري في انبثاق المقاومة الفلسطينية أكثر منه في عمل الحكومات العربية. وفي ظل الفراغ الذي أحدثته هزيمة الجيوش العربية، قدّمت الفصائل الفلسطينية المقاومة دعماً سياسياً ملموساً لا بل عسكرياً لرفض الهزيمة، وتفعّل، عبر الحماسة المثالية التي تثيرها حرب الشعوب، الأمل بالثأر وإعادة الاعتبار للكرامة العربية. وانتهى الأمر بعبد الناصر،

بعد أن تنكر طويلاً لحركات التحرير التي بدت وكأنها تنافسه على الزعامة إلى إعلان دعمه لها بعد تفويض منظمة فتح والمنظمات الأخرى الإشراف على منظمة التحرير الفلسطينية التي أنشئت بمبادرة من جامعة الدول العربية عام 1964. وفي عام 1969، أصبح ياسر عرفات، أحد مؤسسي فتح، رئيس اللجنة التنفيذية للمنظمة.

من وجهة نظر لبنان المؤسسات ما كان شيء يبشر بالخير في ظل هذه التطورات، اللهم إلاّ اقفال قناة السويس الذي أتاح لبيروت بأن تسترد قسماً من تجارتها. فلا ايديولوجيا الحرب الشعبية ولا التفوق الاستراتيجي لاسرائيل ولا إضعاف سلطة عبد الناصر كان قادراً على حماية التوازنات الداخلية الهشة. فالاستقرار الذي حققته سياسة فؤاد شهاب على الصعيد الخارجي وسياسته التنموية التي واصلها من بعده شارل الحلو بقيا أضعف من أن يواجها مثل هذه التغييرات الفجائية في المنطقة.

أضف إلى ذلك أن زوال التوازن الاقليمي السابق، مهما يكن موضع جدل، كان يشكل قطيعة للتوازن الذي استندت إليه التجربة الشهابية. فالتحالف الدبلوماسي اللبناني مع مصر، الذي كان مصدراً للاستقرار الداخلي ووسيلة لتحييد سوريا المجاورة، لم يعد يتحلى بالفعالية نفسها. وقد أدركت القوى المعادية للناصرية ذلك واستطاعت ان تعيد النظر في توجهاتها المستقبلية على الساحة منذ ذلك الحين. ومنذ حزيران 1967، تبدّلت المفاهيم السائدة على الساحة السياسية. يذكر أحد المراقبين انه رأى كميل شمعون في أروقة المجلس النيابي يخرج بين ليلة وضحاها من عزلته القسرية[1] متحولاً من شخصية منبوذة إلى أحد أقطاب السياسة اللبنانية. وبالتزامن، لم يعد حزب الكتائب، وهو إحدى القوى الرئيسية الداعمة للسياسة الشهابية المرتبطة بسبب دعمها هذا بسياسة التفاهم مع عبد الناصر، مضطراً لإجراء رقابة على رؤيته السلبية للعروبة وإخفاء نهجه القائم على مزيج من الارتداد الطائفي والخيار الايديولوجي[2]. وقبل أن يصبح القتال الفلسطيني رهاناً لبنانياً داخلياً، ارتفعت الوتيرة في نبرة الاستقطاب الطائفي عبر إنشاء كتلة مارونية هي الحلف الثلاثي المؤلف من كميل شمعون وريمون إده، وكان من المعارضين اللدودين للشهابية، وبيار الجميل رئيس حزب الكتائب الذي تخلى عن ولائه للعهد. وعند هذا المستوى من التعبئة السياسية، كان أسلوب المراقبة والتفتيش الذي يمارسه المكتب الثاني يبدي عجزه عن تحييد المعارضة واحتواء الانبعاث السياسي لشمعون الذي تكرّس خلال الانتخابات النيابية عام 1968 بنجاح الحلف في المناطق المسيحية وتحديداً في دائرة بيروت الأولى[3]. ثم تعامل الرئيس حلو بإيجابية مع التغيير الحاصل من خلال إدخاله بعض أخصام شهاب إلى الحكومة، وقد تنفس الصعداء أخيراً لقدرته على اتخاذ مواقف مستقلة عن النهج الشهابي.

لكن السياسة اللبنانية لم تعد قادرة على أن تُختصر بالتحالفات الانتخابية ولا بما يجري في أروقة السلطة. ثم إن النزاع الاسرائيلي-العربي الذي ظلت الساحة اللبنانية بمنأى عن تداعياته منذ هدنة

1949، عاود ظهوره بشكل خجول في بداية الستينات، مع المشاريع الاسرائيلية الهادفة إلى تحويل مجرى مياه نهر الأردن. وجعلت حرب 1967 هذا المشروع يقفز إلى الواجهة ويشكّل مؤشراً لنزاع مباشر. وفي الواقع، لم تعد اسرائيل تعتبر نفسها ملتزمة بالهدنة التي لا تتوافق مع قيامها باحتلال الأراضي الواقعة فوق منحدرات الجولان[4]. وأدى احتلال هذا النجد إلى اتساع «خط المواجهة» اللبنانية – الاسرائيلية مسافة عشرين كيلومتراً. واكتسبت منطقة العرقوب في أسفل الجولان أهمية متزايدة[5]. ففيها بالذات بدأت المقاومة الفلسطينية تتجلى، منذ ما قبل الحرب، وتتحول إلى عامل جديد في سياسة المواجهة العربية مع دولة إسرائيل.

زمن الفدائيين

أعلنت المقاومة الفلسطينية ظهورها في بيروت منذ 1965. وجاء احتلال ما تبقى من فلسطين المنتدبة ليؤكد مجدداً على أهلية وجودها. كما أن انهيار الأنظمة العربية القائمة وجيوشها منحها اندفاعة جديدة. كانت المقاومة الفلسطينية حاضرة في أكثر من بلد نظراً لتشتت الفلسطينيين في المنفى، وقد عملت على استثمار السياسة الاقليمية لوقت طويل. وجسّدت المقاومة، من خلال الأولوية التي اعطتها للكفاح المسلّح، كل مثالية الرفض العربي، بالمعنى الذي منحه مكسيم رودنسون لهذه العبارة[6]. كما جسّدت أيضاً المعركة التي تخوضها شعوب العالم الثالث لمناهضة الغرب الامبريالي. وأفاد الصراع المسلّح كثيراً من وجوده في الأردن وفي لبنان حيث عثر على الأرضية الأكثر ملاءمة لنضاله بفضل وجود عدد كبير من اللاجئين الفلسطينيين بالإضافة إلى الدعم الهائل الذي لقيه من سكان لبنان.

منذ 1948، كان العديد من الفلسطينين اندمجوا في النسيج الاجتماعي للبلاد، وساهموا على غرار يوسف بيدس في نجاحه الاقتصادي. ونال بضعة آلاف منهم، وهم مسيحيون في أغلبيتهم، الجنسية اللبنانية في عهد الرئيس شمعون. كما لعبت وجوه ثقافية كثيرة من أصل فلسطيني دوراً حاسماً في الحياة الفنية أمثال صبري الشريف الذي كان له كبير التأثير في مسرح الأخوين الرحباني ومستقبل فيروز الغنائي، ووديعة الجرار التي ساهمت في تطوير الفولكلور اللبناني الراقص. كذلك أتى الرسام الأرمني بول غيراغوسيان من فلسطين ومعه زميلته جوليانا ساروفيم والملحن حليم الرومي. وأفادت إذاعة لبنان من خبرة المحترفين الفلسطينيين الذين كانوا تمرسوا في إذاعة صوت الشرق في ظل الانتداب البريطاني. وضمّت الهيئة التعليمية في الجامعة الأميركية في بيروت أساتذة فلسطينيين كانوا الأبرز أمثال إحسان عباس ووليد خالدي الذي سعى لانشاء مركز للدراسات الفلسطينية عام 1963 في بيروت، برعاية قسطنطين زريق وادمون رباط وعدد من الشخصيات اللبنانية المنتمية إلى مختلف التيارات والطوائف.

واندمج اللاجئون، بالمعنى الحصري للكلمة، أي هؤلاء الذين اخذتهم منظمة الأونروا على عاتقها، في الاقتصاد اللبناني، لكن بصفتهم يداً عاملة رخيصة. وعلى مرّ السنوات استبدلت الخيم المرتجلة التي أوتهم ردهاً من الزمن، بمبانٍ صلبة. لكن هذه المخيمات، حيث يتجمع القسم الأكبر من اللاجئين بقيت مخيمات أي بكلام آخر أكواخاً حقيرة يعيش أهلها في ظروف مادية بائسة، تحف بضواحي المدينة وتراقبها الشرطة بحزم[7]. كانت هناك ستة مخيمات حول بيروت: شاتيلا وبرج البراجنة وتل الزعتر ومار الياس وضبية. وضمّ المخيمان الأخيران لاجئين مسيحيين. لكن منظمة فتح التي تأسست في الكويت لم تكتسب نفوذها الفعلي إلاّ في المخيمات بالذات سواء في لبنان أو غزة أو الأردن أو سوريا، واتسعت لتشمل أعداداً كبيرة فضلاً عن نواتها الأولية المقتصرة على الناشطين. وفي المخيمات أيضاً، ولدت المقاومة الفلسطينية. وبعد انطلاقة الصراع المسلح التي أشّر لها بيان وُزع في بيروت، عمد اللاجئون في المخيمات إلى تنظيم أنفسهم، وتلقى بعضهم تدريباً سرياً على استعمال السلاح. وحثّ الدعم الشعبي المتزايد الذي لقيته منظمة فتح في المخيمات الفرع الفلسطيني في حركة القوميين العرب بقيادة جورج حبش، على التحول عن الارثوذكسية الناصرية وتبنّي فكرة الكفاح المسلّح. وكانت المنافسة على هذا الصعيد، ملموسة بشكل خاص في مخيمات لبنان لأن مختلف الحساسيات الفلسطينية والعربية عموماً عبّرت عن نفسها انطلاقاً من جمهورية الآداب في بيروت. أضف إلى ذلك أن للبنان حدوداً مع اسرائيل. إن أول عملية مسلحة انطلقت من الضفة الغربية، التي لم تكن احتلت بعد، ثم استخدمت الأراضي اللبنانية لتكون منطلقاً لبعض العمليات العسكرية منذ 1965. وكانت حرية التحرك لدى الفدائيين محصورة في جنوب لبنان وخاضعة لسلطة الجيش الذي أوقف فدائيين لمرات عدة ومن بينهم عرفات نفسه[8].

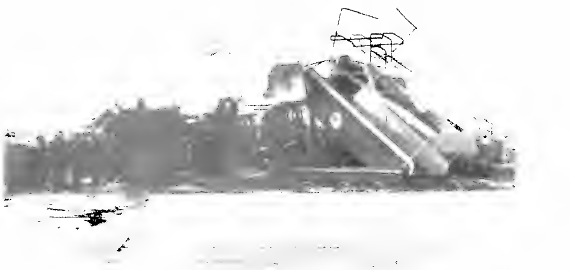
ثم تغيرت الأمور جذرياً بعد هزيمة 1967. وبالرغم من أن احتلال الضفة الغربية غيّر في المعادلات الاقليمية وأعطى الأولوية للجبهة الأردنية، فإن هذا لم يحل دون إطلاق نشاط العمل الفدائي في لبنان. صحيح أن قادة المقاومة استقروا في الأردن، لكنهم كانوا ينشرون بياناتهم انطلاقاً من بيروت. وتعاظمت هالة الفدائيين في المخيمات إزاء زوال نفوذ الحكومات العربية إثر الهزيمة، الأمر الذي دفع اللاجئين إلى الانضمام بأعداد متزايدة إلى منظمات المقاومة مما أضعف الرقابة البوليسية على المخيمات.

وبلغت فتح، في لبنان والأردن على حد سواء، مقاماً خولها أن تتحول إلى حركة تحرر قومية. وفي الجنوب، شجعت طبيعة الأرض التي لا تنطوي على أية حواجز طبيعية المقاتلين الفلسطينيين على القيام بعمليات[9] فبعد أن شهد العام 1967 عمليتين فقط للمقاتلين الفلسطينيين، جرت 29 عملية عام 1968 و 150 عام 1969[10]. وبدءاً من خريف 1968، تمّ الانتقال من عمليات التسلل المحدودة

للفدائيين إلى إقامة قواعد حقيقية في منطقة العرقوب التي كانت تضاريسها الوعرة ملائمة لحرب العصابات لا سيما أن قربها من الحدود السورية سمح لها بتزويد الفدائيين مباشرة بالامدادات عبر ما أسماه الصحافيون الغربيون التسمية المألوفة آنذاك «فتح لاند» مقارنة لها مع أدغال ثوار فيتنام[11]. وبالرغم من عدم وجود سكان فلسطينيين كما في الأردن، أمنت قرى المنطقة وهي في غالبيتها من المسلمين البيئة الانسانية الملائمة لشبكات الفدائيين ولانتشارهم. كان سكان جنوب لبنان يتعاطفون مع نشاط الفدائيين المؤتمنين على استعادة الحقوق العربية المسلوبة وهذا الشعور يشاركهم فيه العالم العربي كله وفاءً للعلاقات التاريخية التي يعود عهدها إلى ما قبل إقامة الحدود وإغلاقها في هذا «الجليل المنقسم»[12]. لا بل وأكثر من ذلك كان مزارعو الجنوب خاضعين حتى ذلك الحين لسلطة الجيش وعائلات الملاكين الكبار ذوي النفوذ الاقطاعي. لذا استقبل الناس الفدائيين وكأنهم محررون. ودخل الفدائيون إلى قرية الخيام الحدودية التي كانت أولى القرى التي استقبلتهم عام 1968 ونظموا مع أبنائها تظاهرة حاشدة وانطلقوا إلى مقر ضباط المكتب الثاني فاحتلوه وطردوهم منه[13].

وما حصل في الجنوب سيكون مطابقاً لما سيحصل على المستوى الوطني وتحديداً في العاصمة. ففيما يتعدى المنطقة الحدودية، كانت أقسام من المجتمع اللبناني ترى نفسها متعاطفة مع حركة النضال الفلسطينية وتظهر لها دعماً تلقائياً. التحق عدد من الشبان اللبنانيين ، كالكثير من العرب، بمنظمات الفدائيين في الأردن. وعندما نُقلت جثة خليل الجمل أول شهيد لبناني للمقاومة الفلسطينية من عمان ليوارى الثرى، وقف حوالي خمسين ألف نسمة لتشييعه على طول طريق الشام وصولاً حتى بيروت. وفي هذا الحشد، سار مناضلون من أحزاب اليسار والقومية العربية جنباً إلى جنب، لكن الأغلبية لم تكن تنتمي إلى حزب معين. وكانت لائحة الشخصيات السياسية التي شاركت في الجنازة تشير إلى أن دعم مقولة الكفاح المسلّح لم تكن لها صبغة سياسية معينة، ولو كانت لها صبغة طائفية أي مسلمة. رئس مفتي الجمهورية الصلاة عن روح الشهيد في حضور رئيس الوزراء عبد الله اليافي. لم تكن البادرة التي يقوم بها هذا الأخير عاطفية بل كانت تعني اعترافاً بحق المقاومة في حمل السلاح داخل المخيمات وشنّ هجمات مسلحة إنطلاقاً من أرض لبنان.

لكن، لا يمكن لمثل هذا الدعم أن يكون شاملاً في مجتمع متعدد الميول والأهواء. وكانت المواقف أكثر تناقضاً منها مما كانت عليه عشية الحرب الأهلية في 1958. وأمام ظهور أحد العوامل «الخارجية» لكن المنخرطة بشكل وثيق في المجتمع اللبناني، تضافرت الارتدادات الطائفية والمخاوف الطبقية رفضاً للوجود الفلسطيني المسلّح في صفوف البورجوازية المسيحية الصغيرة والوسطى. لكن وضمن الجو الذي أشاعته هزيمة 1967 في لبنان والعالم العربي، كان من المتعذّر الاعتراض على مبدأ الكفاح المسلّح ضد العدو. صحيح أن وجود المقاومة على الأراضي اللبنانية أثار بعض الخصومات السياسية، إلاّ أن



مطار بيروت عقب غارة 28 ديسمبر 1968.

رفض الفلسطينيين ومعاداتهم اعتمدت أشكالا دموية ملتوية تنذر بعواقب وخيمة. درجت العدة على إطلاق كلمة «غريب» و«غرباء»، أي «دخلاء» على الأجانب العرب. أما الاوروبي أو الأميركي فكان يقال لهما أجنبي أو أجنب. استعملت كلمة «غريب» في بعض الصحف البيروتية في سياق حملة صحافية شنت على عمليات واسعة لشراء أراض قام بها أثرياء من بلدان شبه الجزيرة العربية، لكن الكلمة سرعان ما انحرفت عن معناها لترتد في مطلع 1968 على الفلسطينيين أنفسهم والعمال السوريين[14]. وكانت هذه الظاهرة تجسد بامتياز عقلية عنصرية تبحر عكس التيار في مجتمع منفتح على محيطه وشديد الاستجابة للتأثيرات الخارجية، وستستمر لاحقا عبر أخطر الابتزازات التي مارستها الحرب. كما تجسد هذا الرفض للمقاومة الفلسطينية من خلال مواقف سياسية عبر الحلف الثلاثي الذي أنشئ اساسا لمناهضة الانحراف البوليسي للشهابية ثم أكدّ انتماءه الماروني إبان حملته الانتخابية، بحيث أن السيدة العذراء أقحمت في الحملة فسرت شائعة مفادها أن تمثال العذراء تحرك على قاعدته في حريصا ليحمي كميل شمعون.

لكن النجاح الانتخابي للحلف الثلاثي زاد من نشط المقاومة الفلسطينية بعد أن خسر المكتب الثاني معركة حسمة على المستوى الوطني فلم يعد بمقدوره احتواء تمركز المقاتلين الفلسطينيين في الجنوب أو في المخيمات ولا عرقلة الحملة التي شنتها شخصيات سياسية عدة أعادت الاعتبار إلى الشهابية، للتخفيف من القيود المفروضة على الفلسطينيين. لا بل إن عبد الله اليافي رئيس الحكومة أعرب عن تأييده للقضية الفلسطينية وواجه بسبب ذلك انتقادات عدة صادرة عن سياسيين مسيحيين. وأضحى

الحضور الفلسطيني – المسلّح رهاناً داخلياً لبنانياً وواصلت الإدارة الفلسطينية حصر اهتمامها على الجبهة الاسرائيلية – الأردنية حيث توافد، منذ معركة الكرامة في آذار، المتطوعون العرب للانضمام إلى صفوفها. في لبنان، كان الفدائيون والمتعاطفون معهم من اللبنانيين يتحركون بحرية على الأرض رافعين شعار المقاومة الشعبية ويقوي من عزيمتهم الدعم الذي يلقونه في دمشق. بدت عمان أكثر فأكثر وكأنها هانوي الصراع الاسرائيلي-العربي فيما تواكب بيروت كل ما يحصل فيها . في تلك الأثناء تضاعفت أعداد الفلسطينيين المسلحين وتكثفت عملياتهم وراحوا يصدرون البيانات التي تعلن فيها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، أي المنظمة التي انبعثت عن حركة القوميين العرب بقيادة جورج حبش، مسؤوليتها عن اختطاف الطائرات. فما كان من اسرائيل إلاّ أن شنت غارة على مطار بيروت والأسطول المدني اللبناني قبل حلول العام الجديد لترد على ما ورد في أحد هذه البيانات.

وسدّدت الغارة الاسرائيلية على مطار بيروت ضربة قاسية لسلطة الدولة وهيبة الجيش الذي بقي على الحياد ولم يحرّك ساكناً . بعد اسبوعين، أرغمت حكومة اليافي على الاستقالة. وسرعان ما تمّ التأكد إن معالجة الأمور باتت فوق طاقة المسؤولين. وتقاطع السجال بالنسبة للوجود الفلسطيني بشكل لا يرقى إليه الشك مع الانقسام الطائفي . عُين رشيد كرامي خلفاً لليافي، وكان أبرز وجوه الشهابية ورجل دولة بعيد النظر، فدعا لتوه البرلمان إلى الاعتراف بحق الفلسطينيين في النضال من أجل تحرير وطنهم. أما ميدانياً فكانت الأحداث تتجاوز سلطة الدولة من كل الجهات وليس فقط جنوباً. ففي بيروت، ولاحقاً في طرابلس، حدثت الفصول الأكثر حسماً بالنسبة لتلك الحقبة. وانفجرت الأزمة صراحة في 23 نيسان/ ابريل 1969 عقب قمع الجيش لتظاهرة ضمت مناضلين من اليسار وعامة الشعب في الشارع السني من أجل دعم المقاومة وللحال أظهرت ردود الفعل التي أثارها هذا التدخل ان الجيش، بالرغم من فرض حالة الطوارئ ومنع التجول، لم يستطع أن يواجه الفلسطينيين فعلاً دون خطر إشعال حرب أهلية تهدّد وحدته. وتضاعفت أعمال العنف بين الجنود اللبنانيين والمقاتلين التابعين للفصائل الفلسطينية الذين كانوا لبنانيين في أغلبيتهم. وفي غضون ذلك، أعلنت المخيمات الفلسطينية العصيان وسلّمت زمام أمورها لقيادة المقاومة الشعبية. كان اللاجئون، وقد شملتهم الحمى الثورية التي أثارتها انطلاقة الفدائيين في كل مكان، متلهفين لاستعادة حريتهم السياسية المكبوتة منذ وقت طويل. فقاموا بتحركات داخل المخيمات خلافاً لتوجهات قياداتهم ولم تعد المياه إلى مجاريها إلاّ بعد انتهاء الانتفاضة[15]. وفي تشرين الأول، بلغت حمى العصيان مدينة طرابلس القديمة: إقتحم مناضلون ينتمون إلى الحركة الناصرية قلعة الصليبيين حيث يتمركز الجيش. في ذلك الوقت مارست سوريا ضغطاً اقتصاديا فأقفلت الحدود وأوقفت حركة الترانزيت، لكن الأمر الأخطر من كل ذلك تمثل في عجز الحكومة . تعطّل دور الحكومة لمدة تسعة أشهر باعتكاف

رئيسها رشيد كرامي، الذي عُين لتشكيل حكومة جديدة بعد الاستقالة الأولى لحكومته، ورفض اللجوء إلى عمل عسكري حاسم ضد المقاومة وطالب أولاً بأول أن يصار إلى اتفاق وطني حول الموضوع الفلسطيني[16].

وأمام خطر حدوث شرخ لا يلتئم في صفوف السكان، قرّر الرئيس الحلو والجيش إجراء مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية التي كان يترأسها ياسر عرفات برعاية عبد الناصر. وكان اتفاق القاهرة في 3 نوفمبر/ تشرين الثاني 1969 الذي أبرم بين عرفات والجنرال اميل البستاني قائد الجيش اللبناني. صدّق البرلمان على اتفاق القاهرة الذي شرّع بشكل لا يرقى إليه شك الوجود الفلسطيني المسلّح. واعترف لبنان صراحة بحق الفلسطينيين بممارسة الكفاح المسلّح انطلاقاً من أراضيه. كان الاتفاق يحظر عليهم حمل السلاح في المنطقة الساحلية في جنوب لبنان ويحصر تواجدهم في المنطقة الوسطى من الحدود مع منحهم حرية واسعة للتحرك في العرقوب الذي شكّل المنطقة الجغرافية الأساسية لنشاطهم العسكري ونصّ الاتفاق على نوع من حصانة سياسية لمخيمات اللاجئين تكرست بعد ثلاثة أشهر من خلال إجراءات تنفيذية استبعدت رسمياً السلطة اللبنانية عن المخيمات وأبقت على سلطة كاملة لمنظمة التحرير الفلسطينية[17].

بدت الأزمة وكأنها وجدت حلولاً لها. عُيّن كمال جنبلاط زعيم الطائفة الدرزية واليسار، وزيراً للداخلية. سعى جنبلاط إلى تجنب تكرار ما حصل من خلال استخدامه الرصيد الذي يملكه لدى المقاومة لكي يضع حدوداً لها ويمنعها من القيام بتجاوزات خارج المناطق التي حددها إتفاق القاهرة، كما وضع قيوداً على المواكب الجنائزية محظراً إطلاق الرصاص وارتداء البزّات العسكرية في المدينة واشترط ابتعاد المراكز العسكرية مسافة كيلو متر على الأقل عن التجمعات السكنية. وأظهرت منظمة التحرير الفلسطينية تعاونها من خلال القيادة العامة للكفاح المسلّح الفلسطيني التي أُنشئت منذ ربيع 1969 وأضحت عملياً شرطة عسكرية. لكن، وبالرغم من محاولات حصر أمكنة التمركز والتنسيق بين الجيش وقيادة الكفاح المسلح والانتشار الفلسطيني الواسع، كان يحدّ من امكانيات الدولة على ممارسة الرقابة. وبالتزامن، ترك اتفاق القاهرة، الذي كرّس الانقسام الوطني، شعوراً بالخيبة والغبن في نفوس هؤلاء الذين لم يقبلوا به سبيلاً وحيداً سواء انتموا إلى صفوف الجيش أم إلى الأوساط المسيحية. وسرعان ما تجسدت هذه النقمة في 6 آذار 1970 عندما هاجم أنصار من الكتائب في الكحالة موكباً فلسطينياً. وخلال الاشتباكات التي أعقبت ذلك في ضواحي بيروت، اختطف حاجز فلسطيني بشير الجميل، إبن زعيم حزب الكتائب الذي كان حزبياً ناشطاً إلى حدّ كبير، واعتقل لبضع ساعات[18]. وأدّى التنسيق بين الجيش ومنظمة التحرير الفلسطينية للحؤول دون توسع المعارك. وبدا اتفاق القاهرة ساري المفعول. لم تحصل في الواقع مواجهات جديدة في السنوات الثلاث التي

تلت. وبالمقابل، استقبلت بيروت المؤتمر العالمي للمسيحيين من أجل فلسطين عام 1970، وكان ذلك مناسبة ناجحة لاشاعة أجواء توافقية. لكن أخصام الوجود الفلسطيني على أرض لبنان، بدلاً من أن يتخلوا عن اسلحتهم ويتركوها جانباً، انكبوا على تدريب ميلشياتهم بمعزل عن الأحداث الراهنة.

العاصمة المستحيلة لمنظمة التحرير الفلسطينية

ومما عزّز إزالة التشنج الظاهرة في العلاقات بين الدولة اللبنانية والمقاومة الفلسطينية، على المدى القصير، تضافر أحداث ثلاثة طرأت خلال فترة لا تتعدى الأسابيع بين آب وأيلول 1970. الحدث الأول هو تغير السلطة في لبنان على صعيد الرئاسة والحدث الثاني طرد المقاومة الفلسطينية من عمان عقب مواجهات دامية مع الجيش الأردني والثالث وفاة عبد الناصر. لكن هذه الأحداث الثلاثة ترتبت عنها، على المدى المتوسط، تبعات كانت الأكثر إخلالاً بالتوازنات الداخلية في لبنان.

فائزاً بمنصب رئيس الجمهورية بأغلبية صوت واحد خلال جلسة مدوّية للبرلمان بث مباشرة على التلفزيون في 17 آب 1970، حسم سليمان فرنجية الأمر نهائياً مع النهج الشهابي. كان فرنجية نموذجاً للزعيم الريفي التقليدي وذاع صيته فيما مضى من خلال تصفية حسابات مع خصومه المحليين أوقعت ثلاثين قتيلاً داخل احدى الكنائس. ومع أنه سليل عائلة منفتحة تقليدياً على العروبة وميّالة لاقامة علاقات فضلى مع سوريا؛ ومع انه شغل منصباً وزارياً في ظلّ ولاية شارل الحلو، لقي فرنجية، المرشح المعتدل، هكذا كان يصوّر نفسه، دعم شمعون والحلف - وصائب سلام، وكمال جنبلاط في السر. أطلق الرصاص ابتهاجاً بانتخابه في الجبل والأحياء المسيحية من بيروت واعتبر انتخابه نهاية لدكتاتورية المكتب الثاني ومدخلاً إلى رئاسة قوية تصلح النفوذ الماروني بعد تراجعه السنة الفائتة. ما إن استقرّ في قصره الجديد في بعبدا، بادر إلى تفكيك جهاز المكتب الثاني الذي فقد الكثير من قدراته في مراقبة الشارع[19]. بالمقابل، لم يقم بشيء، على المدى المباشر، ضد المقاومة الفلسطينية. بما انه كان حليفاً لصائب سلام، عيّنه رئيساً للوزراء، وكان راغباً بشكل جلي في أن يبدأ ولايته، ككل الذين سبقوه من خلال مسعى توافقي. أما إدارة منظمة التحرير الفلسطينية فلم تكن تملك أية نوايا سيئة حيال الرئيس الجديد. فضلاً عن ذلك، كانت المنظمة منشغلة بلملمة جروحها في أعقاب مجزرة أيلول الأسود الأردني المشؤوم. وكانت السياسة العربية، بعد وفاة عبد الناصر في 28 أيلول أي بعد خمسة أيام من تسلم فرنجية مهامه، تراجع حساباتها وتتجنّب القيام بأعمال مستعجلة.

وسرعان ما تبين أن غياب عبد الناصر يكرّس النتائج الجيوسياسية لهزيمة 1967، وتحديداً من خلال عرقلة إعادة بناء الجيش المصري، المنخرط مع اسرائيل في حرب استنزاف على قناة السويس. وأرجئ الهجوم الذي كان يستهدف استعادة سيناء والمبرمج في ربيع 1971[20]، بسبب إعادة النظر

في السياسة المصرية الداخلية كما الخارجية من قبل الرئيس أنور السادات الذي اختار أن ينهي تحالفه مع الاتحاد السوفياتي بطرد خبرائه العسكريين. وفي سوريا، انتقل الجنرال حافظ الأسد من موقع وزارة الدفاع إلى الرئاسة عقب انقلاب أكتوبر/ تشرين الأول عام 1970، وكان النظام الجديد الذي أرسى قواعده يشجع على سياسة الاعتدال وضرورة إعادة العلاقات مع الغرب. وكانت بداية التحرر الاقتصادي خير دليل على ذلك.وفي العراق، كان نظام أحمد حسن البكر وصدام حسين يسير على منوال النظام السوري دون التخلي مع ذلك عن عنترياته المعهودة. أما الملك حسين، الذي انعتق من العقبة التي كانت وضعتها في طريقه منظمة التحرير وعاد ليصبح طرفاً في المعادلة السياسية العربية، فقد حصّن موقعه متأهباً لاستعادة الضفة الغربية في حال سعت الولايات المتحدة لايجاد حل سلمي للنزاع الاسرائيلي-العربي. وأمام هذه التطورات ولا سيما التطور الأخير، سعت منظمة التحرير قبل كل شيء لإبقاء شعلة القومية الفلسطينية مضاءة في تلك المرحلة الحاسمة من عبورها الجديد للصحراء. فبعد طردها نهائياً من الأردن في تموز 1971 واقفال الجبهة السورية أمام العمل الفدائي عقب القرار الذي اتخذه حافظ الأسد، لم يعد أمامها من إمكانية للتحرك إلاّ من لبنان الذي أصبح منذ ذلك الحين المكان الوحيد الذي تستطيع المقاومة الفلسطينية أن تمارس فيه نشاطها المسلح.

بعد إبعادهم من الأردن، جاء المقاتلون ليتمركزوا في مخيمات لبنان وخصوصاً حول بيروت، متسللين عبر الحدود السورية التي بقيت مفتوحة وكانوا أحياناً يأتون برفقة عائلاتهم فزادوا من حجم اللاجئين غير المدونين، أي انهم لم يكونوا مسجلين في قوائم الأونروا - حتى لو كانت الاحصاءات التي قام بها لاحقاً بحاثة - لبنانيون - تثبت أن حركة النزوح هذه باتجاه لبنان لم تكن بالحجم الذي أعطي لها. وفيما بلغ عدد اللاجئين، قبل اتفاقية القاهرة، وفقاً للإحصاءات اللبنانية الرسمية حوالي 223000 نسمة (وقد أحصت الأونروا 166 ألفاً منهم)، عاد ليرتفع إلى 260.000 في 1972 والى 289000 في 1975، ويعود سبب هذه الزيادة إلى النمو الديموغرافي الضخم الذي قُدّر بنسبة 3.6%[21]. كانت الإحصاءات تشير إذاً إلى نسبة أقل مما أشيع عنها، وقد زاد تمركز الفلسطينيين في مخيماتهم والأماكن المجاورة لها من حجمهم الحقيقي بالنسبة لاخصامهم كما بالنسبة لحلفائهم، وربما لزعمائهم بالذات «تلك كانت الحال في بيروت حيث شكلوا 16% من عدد السكان المقيمين في بداية السبعينات مقابل 10% على مستوى الوطن ككل[22]. والواقع أن الوجود الفلسطيني كانت له أبعاد سياسية أكثر منها ديموغرافية، لان جميع بنى قيادة المقاومة والهيئات المختلفة للفدائيين تمركزت في لبنان. صحيح أن المقر الرسمي لمنظمة التحرير كان في دمشق، وصحيح أن ياسر عرفات أمضى وقتاً طويلاً في القاهرة، لكن بيروت كانت بمثابة العاصمة السياسية للفلسطينيين. ثم إن تخطي المقاومة الاطار الذي حددته إتفاقية القاهرة زاد من الشعور بالاحتقان في صفوف الجيش اللبناني، ولدى

الفئات المناهضة للعروبة في المجتمع اللبناني أما الباقي فتكفلت به السياسة الاسرائيلية.

ومنذ العمليات الأولى التي قام بها الفدائيون عام 1965، عمدت اسرائيل للرد عليها من خلال إجراءات انتقامية. وكما تدخلت ضد الأردن وسوريا، شنّت الوحدات الاسرائيلية غارة ضد قريتين لبنانيتن بالقرب من الحدود. لكن وتيرة الاعتداءات الاسرائيلية تضاعفت غداة حرب 1967 في لبنان والأردن. وباتت كلمة الرد بالمثل على العمليات العسكرية مخادعة، لان الاعتداءات التي قامت بها إسرائيل تكررت بشدة وكانت من التفاوت في العدد مع عمليات الفدائيين بحيث لم تعد إجراءات انتقامية بل اعتداءات يومية مستمرة. «ارتكبت اسرائيل أكثر من 3000 انتهاكاً للأراضي اللبنانية بين 1968 و 1974، وفقاً لاحصاءات الجيش اللبناني أي بمعدل 1.4 اعتداءً في اليوم[23]، وتسببت في مقتل 800 لبناني وفلسطيني[24] معظمهم من ضحايا القصف الجويّ. وأصبحت الأجواء اللبنانية نظراً لعدم وجود وسائل دفاع جوية، أرض صيد محروسة للطيران الاسرائيلي الذي كان يحلو له أن يؤكد وجوده من خلال خرقه جدار الصوت حتى لو لم تكن ثمة أهداف أرضية مباشرة يغير عليها. وازداد عدد الاعتداءات الاسرائيلية باطراد. بلغ معدّل انتهاكاتها اليومية للأراضي اللبنانية سبع مرات يومياً بين 1974 و1975، ولم تقتصر على المنطقة الحدودية. والمثال على ذلك الغارة التي شنتها على مطار بيروت في نهاية 1968. ولم يكن بمقدور ردود الفعل الدولية إلاّ أن تردع الاعتداءات الاسرائيلية لفترة قصيرة من الزمن – ومن بين هذه الردود الحظر الذي مارسته فرنسا على بيع الأسلحة لاسرائيل بقرار من الجنرال ديغول[25]. وعمدت أجهزة الاستخبارات الاسرائيلية أيضاً إلى استهداف شخصيات فلسطينية – فكرية أكثر منها سياسية. وتمثل الفصل الأول في اغتيال الكاتب والصحافي غسان كنفاني عام 1972، الناطق بلسان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الذي جرى تفخيخ سيارته أمام منزله في ضواحي بيروت. ثم أحدثت حملة من الرسائل المفخخة عدداً من الجرحى وكانت جروحهم خطرة ومن بينهم مدير مركز الأبحاث الفلسطينية أنيس الصايغ ومسؤول آخر عن الأخبار في الجبهة الشعبية بسام أبو شريف. وأخيراً، في 10 نيسان / ابريل 1973، عاود الجيش الاسرائيلي غاراته التي كان يشنها عام 1968 على بيروت ولكن متسللاً هذه المرة إلى قلب المدينة: أتت فرقة كومندوس من البحر برفقة عملاء مدسوسين لتغتال في حي فردان السكني اثنين من الزعماء التاريخيين لفتح أبو يوسف النجار وكمال عدوان وأيضاً الناطق بلسان منظمة التحرير الفلسطينية، الشاعر كمال ناصر. وشهدت جنازتهم أكبر تظاهرة سياسية شهدها تاريخ لبنان : نزلت حشود من الناس قُدّرت بـ 250.000 نسمة أي ما يقارب عشر السكان المقيمين في أنحاء البلاد لتشييع جثث الفلسطينيين الثلاثة حتى مقبرة الشهداء الاسلامية في حرج الصنوبر حيث ووريت الثرى جميعاً، مع أن كمال ناصر كان مسيحياً.

بَيد أن التكتيك الاسرائيلي نجح في الوصول إلى مآربه. عاد الاحتكاك بين الدولة اللبنانية والمقاومة

الفلسطينية ليعوم على السطح وكذلك الاحتكاك بين اللبنانيين أنفسهم. بعد ثلاثة أسابيع، أي في بداية شهر أيار، تعرضت بيروت مرة جديدة لمواجهات دامية . ولم يُبدِ الجيش آنذاك، كما فعل أثناء الغارة الاسرائيلية على المطار، أي مسعى للدفاع رغم أن الغارة الاسرائيلية طالت قلب العاصمة. وهذه السلبية من قبل الجيش كانت موضع جدال محتدم. بما أن صائب سلام لم ينجح في إقالة قائد الجيش، تصدّى بعنف للرئيس فرنجية، حليفه القديم، ثم قدّم استقالة حكومته. لم يشأ فرنجية اللجوء إلى رشيد كرامي، وهو الشخصية الأخرى السنية المرموقة في البلاد، فما كان منه إلاّ أن عين نائباً حليفاً لرشيد كرامي لكنه كان معتبراً سياسياً من الدرجة الثانية. وأمام صيحات الاستنكار الصادرة عن السُنة، كان لا بدّ لأمين الحافظ من السعي إلى تشكيل حكومة تضم وزراء لا يمثلون إلى حد بعيد الطبقة السياسية، ما زاد السجال احتداماً. وفي غضون ذلك، حصلت سلسلة من الاحتكاكات بين الجيش والفصائل الفلسطينية الناقمة على الجيش منذ العدوان على شارع فردان. وكان توقيف فلسطينيين مسلحين داخل المطار واختطاف جنديين لبنانيين الفتيلة التي أشعلت الانفجار. وأظهر الهجوم الذي شنّه الجيش آنذاك عنفاً لم يظهره عام 1969.وبدا اللجوء إلى الطيران لقصف المخيمات حول بيروت وكأنه رغبة في تصفية الوجود الفلسطيني المسلح، كما حدث في الأردن – وبدأ الكلام عن أيار أسود. وكان لا بدّ لفرنجية أن يتوقف عند هذا الحدّ بسبب الضغوط التي واجهها: معارضة الدول العربية وتحديداً مصر وسوريا اللتين كانتا تستعدان لحرب أكتوبر. وحملت مصر الأمين العام لجامعة الدول العربية، محمود رياض، على التدخل وأقفلت سوريا حدودها كما في عام 1969. لكن المواجهة الأقوى أتت من الداخل وكانت متصلة بالتناقضات اللبنانية الداخلية.

واجهت حكومة أمين الحافظ، الضعيفة أصلاً، الانتقادات منذ تأليفها. لم تكن قد مثلت أمام البرلمان. وبدل أن تعمل الحكومة على إدارة الأزمة، صارت هي أحد مكوناتها. إذ رأى السُنة ان هذه الحكومة التي تمثل الأطراف اللبنانية والتي يتزعمها رجل مطعون بصفته التمثيلية ولم يسبق له أن تولّى رئاسة الحكومة، إنما هي رمز لخلل كبير في توازن الحكم يفيد منه الموارنة وأضحى رحيل أمين الحافظ منذ ذلك الحين الشرط الأساسي لحلّ الأزمة التي تتداخل فيها التناقضات اللبنانية – الفلسطينية وأيضاً التناقضات الطائفية للبنانيين فيما بينهم. وما كان من الرئيس فرنجية إلا أن أذعن أمام الضغوط، لا سيما أن الحملة التي شنها الجيش، بالرغم من نجاحها الأولي، راوحت مكانها. لكن فرنجية الذي لم يُرد فقدان ماء الوجه من خلال تعيينه سلام أو كرامي، التفت نحو شخصية سنية لا غبار عليها وهي تقي الدين الصلح، إبن أخ رياض الصلح وأحد صانعي الميثاق الوطني. عملت الحكومة الجديدة إرضاء منها للجميع على إشراك أكبر عدد ممكن من الوزراء في الحكومة بشكل لا سابقة له في لبنان. وبدل أن تتسبب الأزمة في تصفية منظمة التحرير الفلسطينية أو تحد من استقلاليتها، آلت إلى عكس

ذلك. وأدى الاتفاق الذي جرى في فندق ملكارت بعد انتهاء امتحان القوى هذا إلى الزيادة من فعالية إتفاقية القاهرة.

ومثلما كانت أزمة 1969 أزمة وطنية، كذلك كشفت أزمة 1973 عن مشكلة بنيوية في منتهى الحدة. لا تكمن المسألة في أن قسماً من المجتمع اللبناني أبدى تضامنه الوثيق مع المقاومة الفلسطينية فيما افتخر القسم الآخر بالمواجهة معها. بل في أنه تسنى لنا أن نشهد ميدانياً ممارسات كانت تنذر بتلاشي سلطة الدولة. فخلال المعارك التي حصلت بين الجيش اللبناني والمقاومة الفلسطينية، شوهد ميليشياويون كتائب في بعض الشوارع في الأحياء المسيحية وعلى السطوح. كان مثل هذا الانتشار المسيحي للكتائب يفترض خلال فترة منع التجول اذناً من الجيش. لكن بدا أن الجيش أوكل بطريقة شبه رسمية إلى ميليشيات الكتائب تنظيم الدفاع في الأحياء الشرقية من بيروت[26]. وفي الجهة الأخرى



تظاهرات تأييد لفلسطين واحتجاج على أميركا والأنظمة العربية.

من العاصمة، شوهد قبضايات جدد ينتمون إلى الحركة الناصرية وهم ينصبون المتاريس لحماية الأحياء المسلمة القريبة من المخيمات، منعاً لتدخل الجيش[27]. كما شارك مناضلون يساريون في المواجهات إلى جانب المقاتلين الفلسطينيين. والأخطر من هذا كله أن انقسام الطبقة السياسية حول مسألة الوجود الفلسطيني المسلح اقترن، خلال الأزمة، بتناقضات متصلة مباشرة بمسألة السلطة نفسها. وهكذا، وفيما كانت منظمة التحرير الفلسطينية تستعيد حرية تحركها وتستفيد بشكل كامل من التأييد الذي تلاقيه في بيروت، كانت التناقضات التي يثيرها وجودها توضع على نار حامية.

ولم تعد هذه التناقضات مقتصرة على المواجهة التقليدية بين المسلمين والمسيحيين. كان الوجهاء من الجهتين يتصارعون فيما بينهم على تنظيم أمور الحكم فيما قوى المعارضة الجذرية التي تغذيها كافة أطراف اليسار تطرح على بساط البحث النظام السياسي برمته. واقتضى الأمر أن يؤخذ النشاط المتنامي الذي يمارسه اليسار بعين الاعتبار لا سيما انه اكتسب دفعاً جديداً بفضل الجمع بين مقولة الاشتراكية وطروحات القومية العربية مضافاً اليهما الأغواء الثوري الذي تمارسه المقاومة الفلسطينية وتشكل رافعة له.

بؤرة اليسار العربي

سبقت ولادة حلف جديد لليسار في لبنان ظهور المقاومة الفلسطينية. منذ العام 1915، تكونت جبهة تضم أحزاباً وقوى وشخصيات وطنية وتقدمية. لم يرتدِ الحدث في مداه المباشر إلاّ مغزى محدوداً. وبعد عشر سنوات، شكلت هذه الجبهة أحد الأطراف المقاتلة المعلنة في الحرب تحت اسم الحركة الوطنية، وعلى رأسها كمال جنبلاط الذي تزعمها في 1965 كما في 1975. وكانت التحولات التي شهدتها شخصية كمال جنبلاط المعقدة مرآة تعكس التحول المفاجئ لليسار بامتياز، وربما تحول لبنان.

كان كمال جنبلاط جزءاً لا يتجزأ من النظام. وكان يتحدّر من عائلة درزية قديمة من أصل كردي لها حضور متجذّر في الجبل منذ القرن السابع عشر على الأقل. لم تلعب عائلة جنبلاط الدور الأول في حكم الجبل، لكنها جسّدت قوة المقاومة لدى الطائفة الدرزية في مواجهة تغيير التوازنات الديموغرافية والسياسية لصالح الموارنة. وقد طالتها الاجراءات الانتقامية التي قام بها العثمانيون عقب مجازر 1860، بشكل مباشر، الأمر الذي غذى لديها شعوراً بالضغينة تجاه الموارنة. وهذا الشعور كان مترسخاً لدى كمال جنبلاط وتشهد عليه مذكراته المنشورة بعد مماته[28]. ثم أن تاريخ كمال جنبلاط الشخصي، كان موسوماً بالمأساة التي تعرّض لها في وقت مبكر، إذ اغتيل والده وهو لما يزل طفلاً. تابع دروسه كتلميذ داخلي عند الآباء اللعازاريين في مدرسة عينطورة، وأشرف على «فترة

الوصاية»، قبل تسلمه زعامة العائلة، أحد أنسبائه المقرّبين إلى جانب والدته نظيرة جنبلاط الذين اتسمت خياراتهما السياسية بالاعتدال. على أية حال، كانت الست نظيرة ترتدي دوماً الحجاب في ظهورها العلني، ولم تنخرط في صفوف الفئات المعارضة لسلطة الانتداب الفرنسي، بالرغم من ثورة جبل الدروز في سوريا. كما آثرت التحالف مع اميل إده لمواجهة الكتلة الدستورية التي يتزعمها بشارة الخوري. وعندما دنت الساعة أخيراً لتسلم كمال جنبلاط مهماته بعد فوزه في الانتخابات النيابية، كان ذلك عام 1943 على اللائحة المعارضة لجبهة الاستقلال بزعامة اميل إده. ما أفسح المجال لزعيم آخر لاحدى العائلات الدرزية الكبيرة هو المير مجيد ارسلان، ليتجلى في معركة الاستقلال.

وخلافاً لإده وحلفائه من الموارنة، كان كمال جنبلاط أحد الزعماء التقليديين لطائفته بحكم الواقع، ما ضمن له المشاركة السريعة في الحكم. عُيّن وزيراً عام 1946 ولما يبلغ الثلاثين من عمره. وعندئذٍ بدأت حياته كزعيم تقليدي وكمعارض، لأنه، وبالتوازي مع الدور الذي ورثه، ارتدّ إلى الاشتراكية بعد انتماء قصير الأمد إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي بزعامة انطون سعاده. في نهاية الأربعينات، أسس الحزب الاشتراكي التقدمي بالاشتراك مع عدة شخصيات مسيحية ومسلمة من بينها الشيخ المجدّد عبد الله العلايلي، إلاّ إن جنبلاط بقي مناهضاً للشيوعية. وأطلق على التجمع المعارض الذي ناهض سياسة الرئيس بشارة الخوري في 1951 اسم الجبهة الاشتراكية الوطنية. لكن جنبلاط ساهم في إسقاط النظام بصفته زعيماً درزياً أكثر منه زعيماً حزبياً. وعندما أصبح شمعون رئيساً، لم يلبث أن انفصل جنبلاط عنه لأسباب انتخابية بالدرجة الأولى، فالرجلان كانا ينتميان إلى المنطقة نفسها، ومن ثم لأسباب سياسية. كان جنبلاط منجذباً إلى الثقافة الهندوسية ومتأثراً بأفكار نهرو ومنحازاً إلى حياديته ما جعله مقرّباً من القومية العربية التي كان عبد الناصر رمزاً لها. وفي عام 1958، كان جنبلاط أحد أقطاب المعارضة الرئيسيين لشمعون، وكان مناصروه ناشطين إبان الحرب الأهلية. وحصد غلّة خياره السياسي في ظل ولاية شهاب لأنه أصبح أحد الأعمدة الرئيسية، إلى جانب حزب الكتائب، للسياسة الانمائية للنظام. وفي عام 1956، بعد أشهر قليلة من رحيل شهاب عن الحكم، أتاحت الظروف لهذه الشخصية التي يصعب تصنيفها، الجامعة بين التزهد والزعامة الاقطاعية أن تقود من جديد جبهة اليسار.

وبالاضافة إلى الحزب التقدمي الاشتراكي، كانت الجبهة تضم الفرع اللبناني لحركة القوميين العرب والحزب الشيوعي اللبناني، الذي كان لا يزال نشاطه سرياً، والبعث الذي لم يكن مرخصاً له وشخصيات عديدة لا تنتسب إلى أحزاب. وما خلا جنبلاط، كانت كل هذه الفئات تعمل من خارج السلطة ولم تكن هناك من نتيجة يمكن توقعها منها على المدى المباشر، لكن الحسنة هي انه أُتيح لقطاعات من الرأي العام لم تُمثل على الصعيد المؤسساتي، ولأحزاب شبه سرية أن تفيد من رصيد

جنبلاط. وأعطى هذا التحالف بين القومية العربية والمثل الاشتراكية في آن تماسكاً لحركة تجاوزت قاعدتها المؤلفة من مناضلين ينتمون إلى تيارات شتى[29]، بمن فيهم جنبلاط نفسه.

وتمثل هذا التحالف في انضمام الحزب الشيوعي وهو الحزب الأقدم في لبنان، إلى الجبهة وأعطاها بُعدها الحقيقي. لم يتنكر الحزب الشيوعي اللبناني، طيلة تاريخه، للمسألة القومية ودفعته صلاته بالحزب الشيوعي السوري الذي شكل معه لمدة طويلة حزباً واحداً للتطلع أبعد من حدود لبنان. كما أن ذكرى الجرح العميق الذي أصابه بسبب موقفه القديم من المسألة الفلسطينية جعله يعي أهمية فكرة القومية العربية بالنسبة للرأي العام. لكنه ظلّ على ايثاره للمعايير الطبقية وتجنّب الوقوع في فخّ الطائفية التي اصطبغت بها القومية العربية، وظلّ على مسافة فاصلة بينه وبين الحركات المنتسبة إلى تيارات القومية العربية. ولم يمنعه هذا الموقف من المساهمة بانتظام في النضال الذي تخوضه التيارات العروبية[30]. ذلك إن انضمامه إلى تكتل تطبعه القومية العربية بطابعها يمثل منعطفاً كبيراً يتخطى بمغزاه حدود لبنان. وحين اختار الحزب الشيوعي المصري الذوبان في الوحدة الاشتراكية العربية (الحزب الوحيد الممثل في السلطة)، كان بمثابة سابقة استغلها الحزب الشيوعي اللبناني ليقدم على تحالف ممكن مع القومية يبقي على خصوصية الشيوعيين ويسمح لهم بأن يلعبوا دور الرافعة في المسألة القومية والاجتماعية في آن.

ومنحت حرب 1967 هامشاً للمناورة أوسع من ذي قبل. صحيح إن الجبهة المكونة من الأحزاب المختلفة اضطرت إلى تجميد نشاطها بسبب الخلافات التي نشأت بين أطرافها إثر الهزيمة، لكن مسألة الجمع بين الاشتراكية والعروبة ظلّت بمنأى عن أي خلاف. وإذا كانت الهزيمة اضعفت الحركات الناصرية والأنظمة القومية الأخرى، إلاّ إن المعارضة التي أثارتها استلهمت العروبة مشددة على نبرة أكثر حدّة في مناهضة الامبريالية. وأكدّ الحزب الشيوعي اللبناني على الانعطافة التي خاضها عام 1965 من خلال تبنيه رسمياً، مع ما كلّفه ذلك من انشقاق في صفوفه، إشكالية حركة التحرر القومية العربية إبان مؤتمره الثاني الذي عُقد بطريقة شبه سرية في بيروت عام 1968. وتكرّس خطه الجديد في 1972 خلال المؤتمر الثالث وهو أول مؤتمر يعقده الحزب علانية وفيه جهد أحد ألمع مفكريه، مهدي عامل، أن يعطيه أساساً نظرياً مستلهماً فكر المفكر الماركسي الفرنسي لويس التوسر Althusser [31].

وبموازاة هذا التحول المفاجئ للشيوعيين، وفي الاتجاه المعاكس، إن امكن القول، كان أنصار القومية العربية يتبنون بوضوح المعايير الماركسية واللينينية. وانطبق هذا فعلاً على حركة القوميين العرب. ففيما أصبح جناحها الفلسطيني الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين عام 1967، كان جناحها اللبناني، بقيادة محسن ابراهيم، يتخذ لنفسه اسم منظمة العمل الشيوعي في لبنان[32]. كذلك أنشأ البعثيون القدامى من ناحيتهم، بعد أن تبنوا الفكر الماركسي، حركة لبنان الاشتراكي بقيادة وضاح

شرارة وفواز طرابلسي ضمّت عدداً من المفكرين الذين جمعتهم مواقف نقدية واحدة من الحزب الشيوعي[33]. وتُوج التحول الماركسي لهذين التيارين القوميين عام 1971 باتحاد منظمة الاشتراكيين اللبنانيين وحركة لبنان الاشتراكي لتؤلفا منظمة العمل الشيوعي في لبنان. ولم يطل هذا التطور المزدوج الهيئات السياسية التي تنتسب أصلاً إلى الماركسية أو القومية العربية بل عبّرت جماعات يسارية صغرى أيضاً عن الجمع بين هذين التاثيرين بنبرة أكثر تطرفاً. ثم جاءت أحداث أيار 68 لتلهم مجدداً هذه الحركات وخاصة في الوسط الطلابي وتمنحه اندفاعة جديدة علماً إن توجه اليسار الاوروبي المتطرف كان مناهضاً للامبريالية.

ولا شيء كان يعبّر بشكل أفضل عن تحول اليسار من الانقلاب الايديولوجي الذي شهده الحزب القومي السوري الاجتماعي. فبالرغم من هيكليته شبه الفاشية واستبداديته التي تجعله يتموضع على يمين الشطرنج السياسي، شكّل هذا الحزب دوماً قوة مناهضة للنظام القائم. وقد اجتذب بفكره العلماني على مرّ السنوات الكثير من المفكرين المعارضين للبنى الطائفية ومن بينهم من أصبحوا، بعد انضمام قصير إلى صفوف الحزب، وجوهاً بارزة شاركت في الحكم كجنبلاط نفسه أو غسان تويني. كما اجتذب الحزب بمعارضته الدائمة للمشروع الصهيوني شباناً فلسطينيين، مسيحيين في أغلبهم، بعد نكبة 1948، مشكلاً بذلك نقطة التقاء أخرى مع الحركة القومية العربية. لكنه في الوقت نفسه لم يلبث أن اصطدم بهذه الحركة بسبب ايديولوجيته بالذات، كان سعادة ينكر عروبة سوريا الطبيعية، ولم يمنعه هذا من التحالف مع الهاشميين في الخمسينات. كما كان عداؤه العضوي للناصرية يضعه في موقع الخلاف مع الخلاصة الايديولوجية الجديدة التي نشأت في بيروت في أواسط الستينات. لكنه، وإثر هزيمة 1968، لن ينفتح فقط على القومية العربية بل سيسمح لنفسه بان ينهل من موارد المبادئ الماركسية. وفي عام 1973، تكرس هذا التغيير على مستوى قادته مترافقاً مع انشقاق شجعه ظهور المقاومة الفلسطينية على الساحة. وانضم العديد من الفلسطينيين إلى الحزب وشكلوا جزءاً في القاعدة المناضلة، وكان هذا الانضمام المكثف والتزامه القديم بمحاربة الصهيونية يحثانه على تبني الراديكالية الجوهرية التي تتسلح بها هذه القوة الصاعدة.

من جهة أخرى، أثر ظهور المقاومة الفلسطينية في الساحة اللبنانية على الأحزاب الأخرى، علماً بأن التحالف بين قوى اليسار جرى في مرحلة سابقة. وكما حدث في كافة البلدان العربية، كانت الأوساط التقدمية مدعوة تلقائياً بعد هزيمة 1967 للتضامن مع القوة الوحيدة التي بدت قادرة على خلافة الناصرية. في لبنان، كانت المقاومة حاضرة ميدانياً وكان بامكان التضامن معها أن يترجم عسكرياً على الساحة إذ بدت لمزارعي الجنوب المحرومين وللأوساط المعارضة في بيروت وكأنها التجسد الجديد للعروبة والشعلة التي تستنهض القوى الثورية الناشئة. وهكذا، لم تكن الخلاصة بين الخطاب الماركسي

والخطاب القومي أمراً نظرياً في لبنان بل كانت تعبر عن نفسها تلقائياً من خلال ما بثته في الأوساط الطلابية مروّجة لايديولوجيا اشتراكية علمانية وعروبية تضطلع ببعد ثوري تدعمه المقاومة[34]. وفيما يتعدى الايديولوجيا، تجسدت فعالية هذا التحالف من خلال الانعكاسات التي أحدثتها أزمة 1969 في التنظيمات: أصبح الحزب الشيوعي اللبناني وجناحا حزب البعث (الموالي لسوريا والموالي للعراق) والحزب القومي السوري الاجتماعي أحزاباً مشروعة بعد الترخيص لهما من قبل جنبلاط الذي عُين وزيراً للداخلية في الحكومة المشكّلة بعد عقد اتفاقية القاهرة. ثم إن هم اليسار بالدفاع عن المقاومة عام 1973 أعاد إحياء جبهة الأحزاب الوطنية والتقدمية التي انضم إليها هذه المرة الحزب القومي.

لم يقتصر الأمر بين الكيانين المستقلين، اليسار اللبناني من جهة والمقاومة الفلسطينية من جهة أخرى على مجرد تحالف مرحلي بل كان تحول إلى جبهة موحّدة. إذ انضم مناضلون لبنانيون وعرب إلى التنظيمات الفلسطينية ومن بينها فتح. وجرى تقليص النفوذ الذي تتمتع به المنظمات الفلسطينية ولا سيما نفوذ منظمة التحرير الفلسطينية من خلال إبراز الصورة الطليعية لحركة التحرر القومية العربية التي ارتبطت بالمقاومة وتبنتها معظم الكوادر. وكانت فئة اليسار في فتح تضم مناصرين عرباً أكثر من الفلسطينيين أنفسهم. كما وكانت كتيبتها الطلابية مؤلفة من الشبان اللبنانيين أفيما سعى مناضلون لبنانيون آخرون إلى تعبئة المزارعين في مناطق لا يتواجد فيها الفلسطينيون كمنطقة عكار، في أقصى شمالي البلاد. وفي بيروت وطرابلس وصيدا، استعادت فتح الوصاية على عدة تنظيمات ناصرية بقيت يتيمة بسبب المنحى الجديد الذي اتخذته السياسة المصرية[35].

وكان التلاحم اللبناني – الفلسطيني متجسداً من خلال منظمة العمل الشيوعي في لبنان. بدت هذه المنظمة، دون أن تتخلى عن خصوصية المجتمع اللبناني وعن فهم هذا المجتمع على ضوء فكر ماركسي متجدد، وكأنها ميدان التفاعل بامتياز بين اللبنانوية والعروبة. وكان رئيسها محسن ابراهيم مقرّباً من عبد الناصر في الفترة التي كان فيها أحد قادة حركة القوميين العرب. أضحى آنذاك شخصاً يلقى الاهتمام من كافة القادة الفلسطينيين ومن جنبلاط على حد سواء. واشتركت منظمة العمل الشيوعي المنبثقة في جزء منها من حركة القوميين العرب في إصدار مجلتها الأسبوعية «الحرية» لفترة طويلة مع هيئة تحرير فلسطينية متحدرة من الأصل نفسه وهي الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين بقيادة نايف حواتمه، الآتي هو نفسه من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وحذا الحزب القومي السوري الاجتماعي حذو سائر الأحزاب فالعديد من مناضليه انخرطوا في الفئات الأكثر راديكالية في المقاومة الفلسطينية من دون أن يتخلوا مع ذلك عن انتمائهم الايديولوجي أو الحزبي. وفي الطليعة، وعلى رأس اليسار، كان جنبلاط نفسه يضاعف من قدرته على المناورة السياسية. إلى جانب كونه الزعيم التقليدي للدروز، والمحاور الذي لا يمكن تخطيه في صميم المجتمع اللبناني، ازداد نفوذه عربياً ودولياً على حد

سواء. وهكذا، حين اجتمعت أحزاب من كافة أنحاء العالم العربي في بيروت 1972 لاعلان ولادة الجبهة العربية لدعم الثورة الفلسطينية، انتخب جنبلاط، تلقائياً، أميناً عاماً لها[36]. وفي السنة نفسها نال جائزة لينين، وهذا تكريم نادر قلما تحظى به شخصية غير شيوعية.

وجد اليسار نفسه إذاً أقوى من أي وقت مضى، وبات بإمكانه أن يلجأ إلى التظاهر دون تحظير رسمي. واحتفل الحزب الشيوعي في اكتوبر 1974 بذكرى مرور خمسين سنة على تأسيسه بكثير من الثقة والاعتزاز بالنفس ومرةً كل سنتين، كان اليسار يهيمن على اتحاد طلاب الجامعة اللبنانية واتحاد الكتّاب. وكان تمركزه في وسط العاصمة الذي أتاح له مواكبة التطورات المتسارعة يبعث الأمل في أوساط العمال والفلاحين ولدى هؤلاء الموجودين في المنطقة الفاصلة عن حزام البؤس الذين تركتهم المعجزة اللبنانية لمصيرهم. وبذلك استطاع الخطاب الثوري أن يعبّر عن نفسه بطريقة يومية يحفزه التفاعل اللبناني – الفلسطيني.

على هامش المعجزة

عبثاً حاولت الأحداث السياسية التي تعاقبت بسرعة أن تعيد تشكيل التوازنات الداخلية. ذلك إن تداعيات الحرب لم تشغل بال جمهورية التجار. والسبب واضح: إذا كان ثمة ميدان لم تشكل حرب 1967 بالنسبة له منعطفاً دراماتيكياً فهو الاقتصاد. وعندما تسببت الحرب اقفال قناة السويس، انعكست إيجاباً على حركة الترانزيت. وبدت بوادر عصر البترول تبشر بالخير العميم. وعزّز تأميم النفط العراقي عام 1972 وارتفاع سعر النفط الخام في السنة اللاحقة، في أعقاب حرب اكتوبر، من القدرة الشرائية وازدياد الطلب على البترول في البلدان التي لا زالت تفتقر لكل شيء. وكان التجار وعمال الترانزيت والصناعيون اللبنانيون جاهزين كعادتهم لسدّ حاجات السوق. وأفادت جمهورية التجار من وجود منظمة التحرير الفلسطينية نفسه. أولاً، من خلال خلق مؤسسات في جميع الميادين ومن خلال ضمانها لاعالة عائلات الكوادر التابعة لها. ومما يترتب عن ذلك ضخ أموال في السوق لدفع مستحقات المقاتلين وإطعام أولادهم. ثم إن المال الذي كان يرد من الخليج والدول الأخرى إلى الفلسطينيين كان يمر عبر بعض المصارف في بيروت.

وبالرغم من مساوئ النظام، بقيت مقولة المعجزة اللبنانية صامدة. وشهد المرفأ الذي يربط الغرب بالعراق والعربية السعودية زحمة لا مثيل لها. كما تجاوز القطاع المصرفي الذي تشرف عليه رساميل أجنبية على نطاق واسع أزمة بنك أنترا. وبدا وكأن الصناعة أيضاً في أحسن حالاتها وظلت تساهم بنسبة الربع في الدخل القومي. وشهدت جميع الأحياء، وخصوصاً المركز الجديد للأعمال التجارية حول شارع الحمراء ارتفاعاً لا مثيل له في أسعار العقارات لا مثيل له ومضاربة جنونية. وتضاعفت



فندق الهوليداي-إن عام 1974.

الورش وخصوصاً تلك المتعلقة بالمباني السكنية المترفة ومراكز الأعمال التجارية.

وكانت انطلاقة السياحة واعدة بما فيه الكفاية لتجتذب إلى بيروت فروع شركات فندقية أميركية بالاشتراك مع رساميل عربية. وأفتتح فندق الهوليداي إن عام 1974 وكان يشرف على فندقي السان جورج وفينيسيا الشهيرين. وشغل الناس كافة بمطعمه البانورامي الذي يدور وقاعة السينما الموجودة فيه الأكثر ترفاً في المدينة، فيما بدأ فندق الهيلتون على مسافة مئات الأمتار منه ينتصب بهيكله الضخم فوق النورماندي.

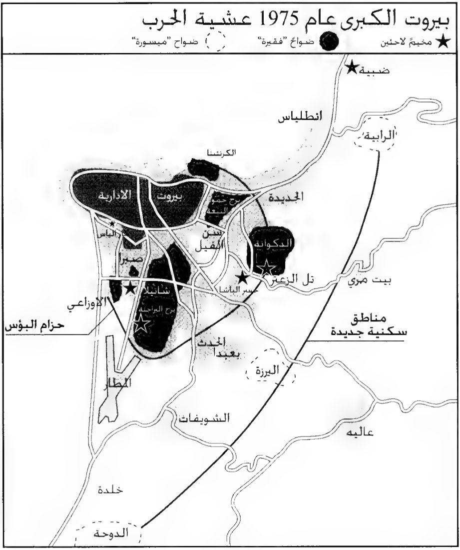
ولكن اللبنانيين لم ينالوا حصتهم جميعاً من الازدهار الاقتصادي. فالتضخم والمضاربة العقارية زادا من حجم التفاوت الاجتماعي. ومع ذلك، بدأت إعادة توزيع الثروات تعطي نتائجها الباهرة[37] ولوحظ منذ 1960 تزايد عدد الطبقة الوسطى وارتفاع نسبة الدخل الفردي. وردمت الهوة بين المدينة وسائر المناطق الريفية بفضل الأموال التي انفقت على المشاريع التنموية خلال العهد الشهابي بالإضافة إلى أموال المهاجرين. وشهدت المناطق الريفية إرتفاعاً واضحاً في مستوى العيش خلال الستينات بلغ نسبة 44% في جنوب لبنان و40% في الشمال و15.6% في البقاع.

وكانت الاحصاءات تكشف إذاً عن تقدم حثيث حتى لو نظرنا إليها من منظار طائفي. وظلّ

الاشراف على المشاريع الاقتصادية في كافة القطاعات في أيدي رجال الأعمال المسيحيين الذي توارثوا هذا الدور جيلاً عن جيل[38]. وأظهر ارتفاع مستوى العيش في الضواحي ذات الغالبية المسلمة بأن شهاب كان محقاً حين راهن على السياسة الانمائية من أجل تعزيز الوحدة الوطنية. كما أكد التوزيع الطائفي للوظائف التي تتطلب مستوى علمياً عالياً (كالمحامين والأطباء والمهندسين والموظفين الكبار) الميل إلى تضييق الهوة بين الطوائف. وبدا أن هذا التطور سيتعزز مع مرور الوقت، ويمكن التثبت من ذلك من خلال التركيبة الطائفية للطلاب الجامعيين الذين أضحوا متعادلين عملياً. صحيح أن الطلاب المسلمين كانوا لا يزالون يشكلون أقلية في جامعة القديس يوسف (20%) لكنهم قاربوا النصف في الجامعة الأميركية. أما الجامعة اللبنانية التي تطورت تدريجياً منذ 1950 فكانت تضم 60% من الطلاب المسلمين[39]، علماً بأنهم اختاروا الفروع النظرية التي لا تستجيب لحاجات المجتمع.

يبقى أن تضييق الهوة بين الفئات الاجتماعية لم يعطِ ثماره على المدى المنظور، ذلك أن الحيوية الاجتماعية التي تُدرك من خلال المراقبة الحسية لا يسهل قياسها، لا سيما أن التحولات الايجابية الاقتصادية المفاجئة أحدثت انقلاباً في التنظيم التقليدي للمجتمع[40]. وسجلت بداية ولاية فرنجية عودة إلى سياسة الحرية الاقتصادية عرقلت آليات التصحيح الداخلي التي أصبحت أقل فعالية من حركة الهجرة في تقريب النسب الطائفية[41]. لكن التناقضات التي طبعت الحياة اليومية وكانت ملموسة في بيروت بشكل خاص، أدت إلى تضخيم الظاهرة. وبين الترف الباذخ المتباهي للبورجوازية المترفة والبؤس المدقع للمحرومين، بقيت بيروت موئل التفاوت الاجتماعي الذي تحدث عنه ايكوشار منذداً. ولم تستطع الثروات الهائلة لبعض المسلمين أن تمحو صورة الانشقاق الطائفي الذي تقاطع مع الانقسام الاجتماعي، ورسخته جغرافيا البلاد البشرية نظراً لتمركز الثروات في جبل لبنان المسيحي الذي يرقى نموه إلى عهد قديم وفي بعض القطاعات التابعة للتجمع البيروتي والمتوسعة يوماً بعد يوم. وهنا، في بيروت، أكثر من أي مكان آخر، سقطت مقولة المعجزة اللبنانية الفذّة. بلغ عدد سكان بيروت في مطلع السبعينات مليون نسمة، أي إن لبنانياً على ثلاثة كان يسكن فيها. لا شك إن النموذج البيروتي مع ما ينطوي عليه من إغراءات شكل جاذباً كبيراً للسكان. لكن غالبية الوافدين الجدد لم تكن لديهم الوسائل للتمتّع بهذه الاغراءات المتعدّدة وظلوا يعيشون على هامش المجتمع البيروتي الذي سلخهم من عالمهم في الريف لا سيما القادمين من الجنوب هرباً من الاعتداءات الاسرائيلية المتكررة على جنوب لبنان.

ولم تكن ضواحي بيروت التي يقطن فيها ما يقارب 400 ألف نسمة[42] متجانسة. إذ ظهرت حديثاً في الضواحي المحيطة ببيروت مساكن مترفة في منطقة اليرزة مثلاً على مشارف بعبدا أو في الرابية فوق انطلياس. وتجاورت هذه القصور مع قرى قديمة متمدنة غالبيتها من الطبقة التي تنتمي إلى بورجوازية



صغيرة مسيحية. وتميزت الضواحي القديمة بوجود فئة متجانسة من السكان في الجنوب الشرقي كفرن الشباك والشياح – في قسمه المسمى عين الرمانة – أو سن الفيل. وشيدت مبانٍ جديدة إجمالاً في الستينات من بضع طبقات مؤلفة من عدة شقق تسكن فيها عائلات الموظفين والأجراء. لم تكن هذه الضواحي بائسة لكنها مع ذلك لم تكن تتمتع بالقدر الكافي من الرفاهية. وكانت كثافة السكان فيها مرتفعة نسبياً 42 شخصاً في الهكتار في فرن الشباك و 84 في سن الفيل[43]. لكن، إلى جانب هذه الضواحي تمركز القسم الغالب من السكان في نوعين آخرين في الضواحي أولاً في الأحياء الفقيرة المدمجة حديثاً بالمدينة وثانياً في الأكواخ المسقوفة بصفائح التنك، ومن بينها يجب إحصاء مخيمات اللاجئين الفلسطينيين ومن

هذا التكدس العشوائي، تشكل ما سمي لاحقاً بحزام البؤس المحيط بالعاصمة.

وإزاء الازدهار اللبناني هذا، ازداد عدد سكان حزام البؤس في النصف الثاني من الستينات. وكان حزام البؤس يمتد من الكرنتينا، عند منفذ نهر بيروت، حيث تمركزت أولى دفعات اللاجئين الأرمن ومن ثم الأكراد وعرب البقاع، وصولاً حتى منطقة الرمول على تخوم المطار؛ وفي منطقة الأكواخ البائسة، بما فيها المخيمات، حيث لم يكن عدد اللبنانيين يمثل الا اكثر بقليل من العشر. أما الباقي أي ألـ87.3% فكان مؤلفاً من الأجانب الذين يشكل الفلسطينيون غالبيتهم، ويتوزع الباقون على السوريين وأكراد تركيا[44]. وكانت غالبية السكان في الأحياء المشابهة للنبعة وبرج البراجنة من اللبنانيين الشيعة ومن أصل جنوبي خصوصاً. ولم تكن المساكن الأكثر تنظيماً فيها ولا المباني المؤلفة أحياناً من عدة طوابق مؤشراً إلى إن مستوى المعيشة يفوق الضواحي الأخرى أو المخيمات. كانت شبكات المجارير مجتزأة وشبكة المياه عشوائية كما كان عدد هوائيات التلفزيونات الكثيف يكشف عن تجاوز القواعد المعتمدة في الحصول على التيار الكهربائي نتيجة تشييد الأبنية غير المرخصة، لكن الهاتف بقي عملياً غير موجود.

وكانت هناك مناطق أخرى كثيرة من المساكن المؤقتة في بيروت الإدارية كتلك الموجودة في حي السريان وكرم الزيتون في الأشرفية أو في وطى المصيطبة. كانت هذه الأحياء مقحمة عشوائياً داخل الحدود الجغرافية لاحياء الطبقة الوسطى التي لم تكن راغبة في التوسيع أو في زيادة عدد سكانها. أما حزام البؤس فكان، خلافاً لذلك، يزداد كثافة ولا يوقف امتداده إلا سفوح الجبل أو الحواجز الجغرافية الأخرى التي لا يمكن تخطيها كنهر بيروت أو حرم مطار بيروت. وكان بالامكان ملاحظة اتساع الحزام في الضاحية الأرمنية في برج حمود التي كانت ملاصقة لمنطقة النبعة المجاورة لها. وكانت هذه الحلقة النصف دائرية تزداد كثافة بأطراد ويصل ازدحام السكان فيها إلى أعداد لم تعرفها المدينة من قبل. وبلغت كثافة الكتلة التي تؤلفها منطقتا برج حمود والنبعة إلى 518 نسمة في الهكتار[45].

وفيما يتعدى نوعية السكن وشروط الحياة، كانت الصبغة الطائفية هي التي تمنح حزام البؤس امتداده السوسيولوجي وخصوصاً الصبغة المسلمة، باستثناء أرمن برج حمود. أضف إلى ذلك ان نسبة متنامية من هؤلاء السكان وفدت من جنوب لبنان بسبب تعرّضها اليومي لآثار الصراع الاسرائيلي-العربي. لذا، كانت الأرضية مهيأة لتمركز أحزاب اليسار التي أعطت للصراع الاجتماعي بعداً تحررياً قومياً عربيا.

وكانت الامتدادات السكنية تتوسع باتجاه المخيمات الفلسطينية، ما يسهل الاتصال المباشر باللاجئين الذين تحولوا إلى مقاتلين يضمّنون في خطابهم الثوري التزامهم بقضايا جيرانهم المحرومين.

والى المخزون البشري الذي كان يؤمنه حزام البؤس لليسار، والى الاستقلال الذاتي الذي اكتسبته

الحركات الفلسطينية وفصائلها المسلحة في لبنان، استطاع اليسار، بفضل التعبئة الجماهيرية التي حشدها أن ينتزع الاعتراف به كطرف أساسي في الحياة السياسية اللبنانية والعربية في آن وعزّز الحضور الفلسطيني هذا التطور لكن لم يكن سببه. وفيما يتعدى المسار الايديولوجي الذي قاد كل من أحزاب المعارضة إلى تقريب وجهات النظر لدعم المقاومة، بدا اليسار مواكباً لحال الغليان الذي اجتاح المجتمع اللبناني تحت تأثير العصرنة. وكان ذلك يتجسد في بيروت تباعاً وكل يوم يحمل معه تجلياً جديداً، يوم يتظاهر فيه الطلاب ويوم يضرب فيه المعلمون ويوم تعرض فيه مسرحية وكل يوم توجّه الصحافة النقد. لكن، لا التحولات المجتمعية ولا الايديولوجيات المعارضة استطاعت أن تثني النظام السياسي المنهك عن مساره. وهكذا ستكون الغلبة للقوى الجديدة التي طغت على كل ما عداها.

الفصل الحادي والعشرين

بيروت يا بيروت

درجت بيروت على أن تكون ديكوراً للأفلام. لكن شيئاً ما تغير ودعاها لتلعب دور الأبطال أو الأبطال المضادين. ذاك هو الدور الذي خصّها به مارون بغدادي في الفيلم الذي قدّمه في نهاية تخرجه من المعهد العالي للدراسات السينمائية في باريس. صُور الفيلم «بيروت يا بيروت» عام 1974، من دون ميزانية كبيرة بالاشتراك مع الممثل المصري الكبير عزت العلايلي. موضوع الفيلم نقد يوجهه شاب يناهز الخامسة والعشرين من العمر إلى مدينته العاجزة عن تفهّم هواجس أبناء جيله السياسية والفكرية والثقافية والفنية والوجودية والجنسية، والمفتوحة رغم ذلك على جميع الاحتمالات. انه فيلم الوداع، شهادة استثنائية عن اللحظة التي سبقت السقوط. «بيروت يا بيروت» يصور مدينة أخرى مختلفة عن تلك التي طالعناها من خلال العديد من الأفلام المصرية العاطفية أو الأفلام البوليسية الطويلة الأوروبية والأميركية. ولنا أن نلمح فيه منذ ذلك الحين هذا المزيج من التشنج والخفة اللذين سيكشف عنهما لاحقاً، في زمن الحرب، المخرج الألماني فولكر شلوندورف Volker Schlöndorff في فيلمه «المزوّر» والمخرج الجزائري فاروق بلوفة في فيلمه «نهلا». وهذا قبل أن يرسم مارون بغدادي نفسه لوحة عن بيروت تتميز بقدر أكبر من العبثية في فيلمه الروائي الثاني «حروب صغيرة» عام 1982. لكن العنف يوم صُوّر «بيروت يا بيروت» لم يكن قد كشف عن نفسه بعد. صحيح أن مارون بغدادي استشعر نهاية قريبة للمدينة ولكن همه الأساسي في الفيلم كان التعبير عن طموحات جيل يسعى إلى التغيير ويتبنى، كالمخرج، جميع طروحات اليسار.

لم يكن مارون بغدادي يغالي في تصويره المختلف لبيروت. اتخذت بيروت في فيلمه، بالرغم من كونها قلعة الاستهلاك والليبرالية الاقتصادية، هيئة مدينة يسارية، على الأقل في مظهرها الخارجي. وكانت التظاهرات والمسرحيات والإضرابات ومعارض الرسم تعطي الانطباع بأن الهواء نفسه بات ثورياً. وفي كلية الآداب العليا، كان أبناء المعجزة اللبنانية والطبقة المسيحية الفرانكوفونية يحتسون الشمبانيا احتفالاً بالنصر النهائي للماريشال الفيتنامي جياب.

وجب على صراع الطبقات أن يُمحى ويحتجب لصالح الصراع الطائفي، فالتاريخ يعيد نفسه، كما في القرن التاسع عشر، حين لم تسفر ثورة طانيوس شاهين عن شيء. عبثاً استرعت هذه الثورة انتباه كارل ماركس، فكل ما فعلته هو انها مهدّت لاندلاع الحرب الأهلية بين الدروز والموارنة في الجبل. قرن مضى على هذه الأحداث وبدا المشهد الطائفي معه للبنان، الذي توسّعت حدوده، أكثر تبايناً، وبدت مسارات الانحراف أكثر تعدداً. كما أن المقاومة الفلسطينية، من خلال وجودها على الساحة اللبنانية، بلورت رؤية للعالم معادية للإمبريالية بشكل جذري، داعية إلى قيام «فيتنام وفيتناميين وعدة فييتنامات»، لكنها خلقت في الوقت نفسه تناقضات أخرى ارتدادية إلى أبعد الحدود بين المسيحيين والمسلمين. أشارت الأحداث الراهنة إلى شرخ عميق يلوح في الأفق لا بل ينذر بحرب أهلية وشيكة. حتى لو لم تكن الأمور معلنة بوضوح، بدا بليغاً جداً التداول الذي شهدته، قبل أشهر قليلة من اندلاع الحرب، كلمة «قبرصة» التي راجت بعيد تقسيم جزيرة قبرص المجاورة بعد اجتياح الأتراك لها صيف 1974.

لم يلجم هذا العيش تحت فوّهة البركان حماسة هؤلاء الذين عارضوا حالة الجمود القائمة ولا اندفاع هؤلاء الذين ينوون الحفاظ عليها مهما كلّف الأمر ولا عدم مبالاة أهل بيروت الغارقين في الثروة والملذات. وإذا تمعنا في قراءة الصحف الصادرة في تلك الفترة لرأينا أن البلاد والمدينة تحدوهما رغبة عارمة في السير في جميع الاتجاهات في آن.

مستثمراً من جميع القوى الاقتصادية والاجتماعية والايديولوجية التي كانت تخضعه لها انطلاقة بيروت، بدا لبنان، بعد مرور ثلاثة عقود على استقلاله، بلداً يخوض غمار معركة تغييرات شاملة تتعدّى حدود نظامه الضيقة. ومنذ أواسط الستينات، أشارت دلائل كثيرة، رغم صعوبة الاستدلال عليها مباشرة، عن هذا السعي لايجاد أنماط جديدة للتعبير وعن مسار لتجديد المجال السياسي - لكنه بقي عقيماً. ثمة ظاهرة عصية على الوصف تقريباً تتحكم بصورة هذه الدينامية الجديدة وتعبّر عنها أكثر من الوقائع الملموسة وهي هذه الشهية المتنامية باطراد للسياسة، وقد أضاء عليها فيلم «بيروت يا بيروت»، والتي وسمت بطابعها قطاعات شتى من الحياة الاجتماعية، بدءاً بالمجال الثقافي.

فورة ثقافية

من بين آلاف المسارات الفنية، يبدو مسار روجيه عسّاف الأبلغ تعبيراً عما جرى في المجال الثقافي. روجيه عساف هو أحد أكبر وجوه المسرح في لبنان ولا يزال في أوج عطائه مع إطلالة القرن الواحد والعشرين. متحدراً من عائلة مسيحية متغربنة تنتمي إلى الطبقة الوسطى - مثل مارون بغدادي الأصغر سناً منه - ومن أم فرنسية، كاد لا يعرف التحدث بالعربية في شبابه. وكان يؤدي أدواره بالفرنسية

في بداية عمله كممثل في أواسط الستينات، سواء في إطار النشاطات المسرحية للشبيبة الطلابية الكاثوليكية أم في التلفزيون لاحقاً. ولم تكد تمرّ بضع سنوات حتى صار اسمه على ألسنة الناس عام 1968، عندما أخرج مسرحية مجدلون التي كتب نصها هنري حاماتي، أحد مثقفي الحزب السوري القومي الاجتماعي، وقامت بلعب دور البطولة فيها نضال الأشقر، إبنة أسد الأشقر أبرز زعماء الحزب نفسه. منعت قوى الأمن المسرحية بالقوة في المساء الأول لعرضها لأنها تندد بالموقف السلبي الذي اتخذته الدول حيال ما يجري في الجنوب وتدعوها لدعم المقاومة الفلسطينية. فما كان من الفرقة إلاّ إن انتقلت مع جمهورها إلى مقهى الهورس شو حيث قدمت «مجدلون» وسط المشاركة العفوية للحضور، وبقي هذا المشهد إحدى اللحظات الأكثر تأثيراً في ذاكرة بيروت الثقافية. من بعدها، سعى روجيه عساف لإقناع الممثل الكوميدي الكبير شوشو أن يلعب تحت إشرافه دور البطولة في مسرحية «آخ يا بلدنا»، وهي مسرحية تتسم بنبرات شعبوية. ولاحقاً، إعتنق روجيه عساف الإسلام وفُتن بالثورة الايرانية فجعل من نفسه المدافع الشرس عن المزارعين الشيعة في جنوب لبنان. ثم استلهم الرؤية المسرحية المبدعة التي وسمت مسرح آريان منوشكين Théâtre du soleil، ليستعيد بعد الحرب نفساً مدينياً لكن مع الابقاء على وفائه الدائم لقضايا المحرومين.

وفي تتبعنا لمسار روجيه عساف والمبدعين الآخرين أبناء جيله، نرى أن اللحظة الفصل لانجلاء الأمور كانت الهزيمة العربية عام 1967. عندئذ اجتاح النزاع الاسرائيلي - العربي المشهد الثقافي وأعاد إحياء المشاعر المكبوتة إلى العلن. حتى ذلك الحين، كانت بيروت جمهورية الآداب العربية تمثل جزءاً من المشهد البيروتي الثقافي فباتت بدءاً من تلك اللحظة، لحظة وعي الهزيمة، تمثله على أكمل وجه. كانت الحياة الثقافية في بيروت، وهي حياة لم يغب عنها البعد السياسي، تتلاءم بامتياز مع موجة التساؤلات العارمة التي أثارتها الهزيمة. وبفضل عزيمة جانين ربيز، التي لم تحل أصولها البورجوازية دون حملها لقب جانين الحمراء، استضافت دار الفن، بالإضافة إلى معارض الرسم الكبرى، ندوات احتدّت فيها السجالات وعبّرت جلياً عن سيطرة اليسار على المشهد الثقافي. لم تكن الانتليجنسيا وحدها المعنية بالتغيير الحاصل، بل كان الجمهور يتابع أيضاً ما يجري. والدليل على ذلك تطور المسرح في اتجاه مضمون سياسي معلن اجتذب إليه فنانين شعبيين[1]. آنذاك، اقتبس جلال خوري، رفيق درب الحزب الشيوعي - ووالده كان الخياط الشيوعي المشهور للطبقة البيروتية الراقية - مسرحية ارتورو أوي Arturo Ui من ضمن رؤية تنطبق على النزاع الاسرائيلي-العربي. ثم حقق نجاحاً لافتاً في مسرحيته التي أعادت إحياء شخصية جحا الشعبية للتنديد بما يجري في جنوب لبنان. أما مسرح ريمون جبارة، الذي آثر العبثية، فأجاب عن الأسئلة الكبرى المطروحة آنذاك دون أن يتوسل الخطاب السياسي المباشر.

ولم تكن جمهورية الآداب بمنأى عن التداعيات . أثار نشر كتاب الفيلسوف السوري صادق جلال العظم «نقد الفكر الديني» في بيروت فضيحة، وهو أحد الكتب الذي يطرح على بساط البحث المسائل الجوهرية في الثقافة العربية. صودر الكتاب بإيعاز من المراجع الدينية. ولم تنجح التعبئة التي أعقبت هذا الإجراء في رفع الحظر عن الكتاب لكنها أرغمت على الأقل الرقابة السياسية على التراجع. والدليل على ذلك استمرار الأعمال الجسورة في المسرح والنشاط المحموم لدور النشر. فبالرغم من سابقة صادق جلال العظم، كان جوهر السجالات الجارية في العالم العربي ينعكس في إصدارات الناشرين في بيروت التي اتسمت بصبغة يسارية واضحة، الأمر الذي صنع شهرة دور النشر الناشئة كدار الطليعة التي يملكها البعثي بشير الداعوق ودار إبن خلدون بإدارة محمد كشلي، وهو عضو قديم في حركة القوميين العرب وانضمّ لفترة وجيزة إلى منظمة العمل الشيوعي في لبنان. أما دار الفارابي فكانت تابعة للحزب الشيوعي اللبناني وحاولت انطلاقاً من خطّها الماركسي التقليدي منافسة الدور الأخرى. ونجحت في جعل نشاط الحزب يمتد إلى خارج الحدود اللبنانية. وانضم إلى دور النشر هذه المعهد العربي للدراسات والنشر بإدارة المؤرخ الفلسطيني عبد الوهاب الكيالي. وفي غضون ذلك، كان مركز الدراسات الفلسطينية التابع لمنظمة التحرير ومعهد الدراسات الفلسطينية، وهو مؤسسة مستقلة أطلق سجالات حادّة من خلال ترجمات نُقلت عن العبرية ومنشورات تضع في أولوياتها معالجة تطور إسرائيل والصراع الإسرائيلي-العربي. وفي كلتا المؤسستين، كان البحاثة اللبنانيون والفلسطينيون يعملان معاً لدرجة انه لم يعد بالمستطاع التمييز بينهم. ولاحقاً اجتذب المعهد العربي للإنماء الذي تموّله ليبيا بحاثة لبنانيين آخرين من بينهم وضاح شرارة وأحمد بيضون وهما قطبان عتيدان من أقطاب المشهد الثقافي والفكري، لكن لن يتسنى الوقت لهذا المعهد بالشروع في أعماله قبل اندلاع شرارة الحرب. كما سعت سلسلة من المجلات إلى تقديم أجوبة على الأسئلة الكبرى التي أعقبت هزيمة 1967، وتحديداً مجلة **الطريق** وهي الناطقة بلسان الحزب الشيوعي و**دراسات عربية** و**الفكر العربي المعاصر** و**مواقف** برعاية الشاعر أدونيس بعد تركه مجلة **شعر**، حيث الإبداع الأدبي يسير جنباً إلى جنب مع الهموم الفلسفية.

أضحت بيروت مركزاً للنشر العربي بحيث اجتذبت إليها معظم الأدباء والفنانين. لا شك أن مقهى الدولشي فيتا فقد بريقه. فعندما تسلّم حزب البعث السلطة في دمشق وبغداد، لم تعد بيروت مركز الجاذبية للحزب كما كانت حين أقام فيها ميشال عفلق لمدة طويلة. صحيح أن البعثيين المتمردين في صفوف الحزب قصدوا بيروت كلاجئين سياسيين لكن وحشية النظامين اللذين استلما الحكم وقدرة أجهزتهما الاستخبارية على التدخل في لبنان دفعتا المنفيين إلى العمل في الخفاء. ويشكل اختطاف الصحافي الشهير في جريدة **النهار** ميشال أبو جودة، الذي غالباً ما كان ينتقد النظام السوري،

دليلاً ساطعاً على قدرة التدخل هذه التي تمتع بها الموالون لحزب البعث أو الذين يعملون لمصلحته. لكن القدرة على المواجهة التي تمتعت بها المقاومة الفلسطينية عوّضت إلى حد كبير عن الفراغ الذي خلقه حزب البعث فضمت الى صفوفها ، في بيروت وفي المؤسسات التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية في معظم الأحيان، مفكرين ومناضلين وافدين من تونس والمغرب والسودان والعراق ومصر. ولا يمكن إغفال الحديث عن الفلسطينيين أنفسهم، من أمثال محمود درويش الذي غادر حيفا عبر طريق موسكو - وكان إلى ذلك الحين عضواً في الحزب الشيوعي الاسرائيلي. لم تتعدَ إقامته في القاهرة بضعة أشهر، ثم أتى ليقيم في بيروت عام 1972 حيث أمضى عشر سنوات تجاوز خلالها لقب شاعر المقاومة ليصبح أحد أهم الأصوات الشعرية في نهاية أواخر القرن المنصرم بعد أن أتاحت له الإقامة في بيروت ان يتشبع بجوها التوفيقي المذهل كما تدلّ عليه آثاره المطبوعة في بيروت ولاحقاً في باريس.

غدت صحافة بيروت صورة مصغّرة عن عالم مصغّر ومهيأة سلفاً لمواكبة الأحداث والمتغيرات. ولم تحل الهدنة الاسرائيلية العربية غير المعلنة من تمويل الحكومات العربية لصحافة بيروت لا بل زادت منه بسبب إزدهار عصر النفط. لكن المهاترات السياسية المستمرة أفسحت المجال، على الأقل، في ارتفاع وتيرة الأصوات المشككة للراديكالية المتطرفة. صحيح إن الخلافات لم تُمحَ كلها لكن تعاطف الناس مع الجماعات اليسارية طغى على جميع العناوين . وفي عام 1972، استطاع طلال سلمان، بفضل تمويل ليبي أن يطلق جريدة **السفير** التي أرادت أن تكون «جريدة لبنان في الوطن العربي وجريدة الوطن العربي في لبنان»، وقد تمرّست في مكاتبها نخبة من أفضل صحافيي العرب. ثم برزت صحيفة **المحرّر** وصحيفة **بيروت** المواليتان للعراق وصحيفة **النداء** الناطقة الرسمية بلسان الحزب الشيوعي اللبناني لتكمل صورة الصحافة الناطقة باسم اليسار اللبناني. ولكن، كان يمكن التعرّف على هذه النزعة في صحف أخرى من بينها جريدة **النهار** التي أصبحت العنوان المهيمن في مجال الصحافة وسجّلت، بصورة دائمة الأرقام القياسية في قائمة المبيعات. تمحورت كل التناقضات على الساحة اللبنانية في مبناها القائم في شارع الحمراء. وظلّ مكتب ميشال أبو جودة، الذي غالباً ما تحوّل إلى محجّة للقادة الفلسطينيين بعد أن كان محطّ رجال البعثيين، فيما كان مكتب غسان تويني الذي يعلوه بثلاث طبقات نقطة التقاء رجال الحكم حيث تصنع الحكومات وتُحل، ومورد أهل الفكر. وكانت مكاتب تحرير هذه الجريدة الليبرالية، في الطبقتين الثانية والثالثة مرتعاً لمناضلي اليسار ومن بينهم الصحافي الشاب أمين معلوف الذي تولّى الإشراف على الصفحة الاقتصادية. أما **ملحق النهار الثقافي** الذي أطلق عام 1976 برعاية أنسي الحاج فكان منبراً للإبداع الشعري و «هايد بارك» المعارضة السياسية والفكرية.

وشاركت الصحافة الفرانكوفونية في هذه الفورة الفكرية. وبهمة جورج نقاش العابر من فكر **باريس** Barrès إلى الفكر اليساري، عبّرت جريدة **الأوريان** عن تعاطفها مع الثقافة الفرنسية من

خلال الصفحات الأدبية التي أشرف عليها جورج شحادة ردحاً من الزمن، وعن روحية المعارضة التي جسّدها سمير فرنجية إبن أخ الرئيس العتيد، الذي أطلق عليه لقب «البيك الأحمر» بسبب نضاله في الحزب الشيوعي، ثم على هوامش هذا الحزب. أما جريدة **لو جور**، التي أطلقها عام 1965 مناهضون للشهابية وعلى رأسهم غسان تويني بدعم مالي من بعض رجال الأعمال فلم تستجب كثيراً لمصالحهم. ففي ظلّ إدارة جان شويري وادوار صعب، مراسل جريدة **لوموند**، تميزت الجريدة بأسلوب مفعم بالشباب وروحية ليبرالية – فوضوية ذهبت غالباً بعكس اتجاه مموليها الرئيسين. وفيما تألق فيها مروان حمادة، شقيق الشاعرة ناديا تويني والوزير العتيد المقرّب من الحزب التقدمي الاشتراكي بزعامة جنبلاط،كان الملحق الصادر عنها *Un Jour des jeunes*، يجسّد تطلعات جيل تأثر بانتفاضة أيار 68 لشباب فرنسا وكذلك بتجربة حركة التحرر العربية الراديكالية إثر هزيمة 1967. ودُمجت الصحيفتان في جريدة واحدة عام 1971 تحت عنوان *L'Orient Le Jour* فجمعت المواهب الأدبية والمعارضة البيروتية الراقية تحت سقف واحد.

الطلاب في الشارع

يشهد المسار الذي سلكته جريدة **لوريان لو جور** كما يشهد مسار روجيه عساف على أهمية المنعطف الذي عرفه لبنان في نهاية الستينات اثر تداعيات هزيمة 1967 بالأضافة إلى انطلاقة الثورة الطلابية في فرنسا عام 1968. وانعكست آثار هذا التلاقي بين الظاهرتين – وقد دفع بالبعض للقول انه إذا جمع 67 مع 68 فإنك تحصل على 69 أي على اتفاقية القاهرة – بشكل ملموس في أوساط طلاب الجامعات وبعض المدارس. واجتاحت تأثيرات أيار 68، بفعل ثقافة جيل الشباب في المجتمع اللبناني، النخب الفكرية الفرانكوفونية وقسماً كبيراً من أبناء العائلات الراقية. ومنذ بدء العام الدراسي 1968–1969، تشكلت لجنة عمل في ليسيه البعثة العلمانية حيث كان عدد من المتعاونين الفرنسيين يعملون للتنسيق والتعاون بين الحركات الطلابية الفرنسية واللبنانية وكذلك، في المعهد العالي للآداب الذي أسسه غبريال بونور Gabriel Bounoure، تولى أعمال التنسيق في تلك الحقبة ميشال كورفان Michel Corvin وهو أستاذ أدب متخصص في الدراسات المسرحية، وقد تركزت تلك الحركة الراديكالية في صفوف الشبان المنتمين إلى الطبقات الميسورة. وتلاقت هذه الراديكالية مع حركة الرفض التي أطلقها طلاب الجامعة الأميركية بالإضافة إلى الأفواج الكبيرة لطلاب الجامعة اللبنانية التابعة للدولة مما مهّد السبيل لنشوء حركة طلابية واسعة النطاق بين 1968 و 1975[2].

وبالرغم من القمع الاستنسابي الذي مارسته الشرطة، تضاعفت الاضرابات والتظاهرات بشكل يومي في بعض الحقبات. وضمت المواكب المتجهة إلى قصر الاونيسكو حيث مقر وزارة التربية أو إلى

ساحة النجمة أمام البرلمان، عشرات الآلاف من الشباب ومن بينهم أولاد العديد من الوزراء والنواب وأوشك إبن شقيق رئيس الجمهورية وإبن شقيق رئيس الوزراء ، لأكثر من مرة، أن يمضيا ليلتهما في مركز الشرطة . وفي ما يتعدى الشباب الميسور، شملت حركة الاعتراض الطلاب من جميع الأوساط وكافة الجامعات لا بل تعدتها إلى المؤسسات الخاصة التي يرتادها أبناء الطبقة الوسطى كليسيه البعثة العلمانية الفرنسية أو مؤسسات البورجوازية الكبيرة مثل الانترناشيونال كولدج في الجامعة الأميركية، لتصل أخيراً إلى المدارس الرسمية. وبالاضافة إلى الرهانات السياسية والايديولوجية، ظلّت الساحة السياسية مفتوحة على كلّ الاحتمالات.

وكان البعد الاجتماعي للحركة الطلابية ملموساً بشكل خاص في الجامعة اللبنانية حيث كان الطلاب ينتمون إلى الطبقات الشعبية والوسطى وحيث تبرز مشاكل الاندماج الاجتماعي بسبب انعدام فرص العمل أمام الخريجين من الجامعة اللبنانية الأمر الذي أبقى الطلاب في حال من التعبئة الشاملة[3]. وفي الواقع، لم تكن المواد النظرية التي يتهافت عليها طلاب الجامعة اللبنانية تفتح لهم آفاقاً وظيفية أبعد من التعليم أو الحصول على الوظائف المتواضعة. أما الاختصاص الوحيد الذي يعد بفرص عمل مشجعة فهو الحقوق. لكن الانتساب إلى فرع الحقوق شهد إقبالاً ملحوظاً أضحى معه التأهيل للسلك القضائي أمراً غير ذي جدوى بسبب الاضطرابات الاجتماعية والسياسية التي طرأت.

وهكذا، شكل افتتاح كليتي هندسة وطب تابعتين للدولة مطلباً دائماً للحركة الطلابية. لكن السلطة لم تستجب لهذا المطلب. وكان من المتعذر على الطلاب الذين نالوا شهادات في الطب من الاتحاد السوفياتي بفضل المنح التي كان الحزب الشيوعي يوزعها، من ممارسة المهنة قبل نجاحهم في امتحان خاص يسمى الكولوكيوم، خلافاً لهؤلاء الذين يحملون شهادات من فرنسا أو الولايات المتحدة.

وكشف النظام بوضوح انه عاجز عن استيعاب ما يحصل. سعى غسان تويني، بعد أن عُين وزيراً للتربية في أول حكومة شُكلت في عهد فرنجية إلى استيعاب حركة المعارضين فنزل إلى الشارع وتحاور مع المتظاهرين، لكن مسعاه لم يكلّل بالنجاح لأنه لم يحظَ بدعم رئيس الجمهورية، وعندما لوّح بالاستقالة من منصبه تعبيراً عن غضبه واستيائه من توليه منصب الوزارة ، جاء دور الطلاب ليتضامنوا معه من خلال تظاهرات جديدة. ثم تولى منصب وزارةالتربية وزراء آخرون من بينهم المهندس هنرى إده الذي أقاله فرنجية عام 1973 – وهي المرّة الوحيدة التي يُقال فيها وزير في تاريخ الجمهورية اللبنانية كله.

ولم تخفف المشاكل الخاصة بالتربية وتحديداً تلك المتعلقة بالجامعة اللبنانية من الطابع السياسي البارز

للمعارضة الطلابية[4]. كانت الحركة الطلابية، التي تشكل حلقة الوصل بين سجالات الانتليجنسيا والصراعات الاجتماعية، تعزّز التسييس المتنامي للنضالات النقابية في أوساط الطبقة العاملة وأيضاً في الفئات الوسطى. تدفق الطلاب إلى الشوارع على أثر القمع الدامي لتظاهرة قام بها مزارعو الجنوب وكذلك أثناء إضراب لعمال مصنع غندور. ومن هذا الفصل الأخير الذي أوقع قتلى، استوحى بول مطر، وهو مغنٍ ملتزم، أغنية بالفرنسية تدعو المستمعين إلى تجنب أكل الشوكولا لأنه ملوث بدم الأبرياء، وكان وقع هذه الأغنية إيجابياً في صفوف زملائه الشبان الفرانكوفونيين المعارضين في المعهد العالي للآداب. وما حفز التعبئة الطلابية قربها من مراكز المقاومة الفلسطينية. استبقت المظاهرات التي انطلقت مع حلول العام 1968 السجال السياسي الرسمي ووضعت في الواجهة مسألة المكانة التي يحتلها لبنان في الصراع الاسرائيلي العربي ودعم الكفاح الفلسطيني المسلّح[5]. انتظم الطلاب تحت هذا الشعار وواصلوا تحركهم بانتظام لمطالبة السلطة بانتهاج سياسة دفاعية عن جنوب لبنان ضد الهجمات الاسرائيلية وإعلان مناهضة السلطة للمخططات الاميركية لا سيما في أوساط طلاب الجامعة الأميركية.

بالطبع، لم تكن منظمات اليسار تختصر وحدها المشهد الطلابي وبالمقابل، كان خطابهم يؤثر في كل الأحزاب الناشئة في الوسط الطلابي ومن بينها حزب الكتائب. وإذا كانت سجلات الأحداث لا تزال تحتفظ بذكرى مدوّية شهر خلالها بشير الجميل مسدسه في وجه طلاب كلية الآداب، فإن فرع شؤون الطلاب الكتائبيين الذي أشرف عليه كريم بقرادوني وميشال سماحة، وهما وزيران عتيدان في فترة ما بعد الحرب – كان أقل جنوحاً نحو اليمين من سائر أقسام الحزب. كان هذا القسم ميالاً للحوار والانفتاح على العروبة ويتلاقى طوعاً مع أحزاب اليسار على العديد من المسائل وتحديداً فيما يخص المطالب المتعلقة بالجامعة اللبنانية. وبين الكتائب واليسار، كانت هناك حركة الوعي التي وُلدت في أحضان الجامعة اللبنانية واجتذبت إليها عدداً متنامياً من الشبان المسيحيين الآتين إجمالاً من الأرياف والمقاطعات، متسلحة قبل كل شيء بخطاب علماني ذي مضمون اجتماعي طاغ.

اصطدمت الشهابية، في ظلّ نظام شارل حلو، بمنطقة مسدودة. وتعاظمت حال المراوحة في ظل عهد فرنجية الذي كشف فجأة عن عجزه عن اللحاق بالديناميات التي تتجاذب المجتمع اللبناني وتطويعها في هذا الظرف الدقيق. لا شك إن فرنجية أرسى في مطلع عهده «حكومة من الشباب» لا تتجاوز أعمار أعضائها الأربعين برئاسة صائب سلام. كما حافظ على المؤسسات المدنية التي أنشأها الرئيسان شهاب وحلو[6] التي واصلت تطورها وفقاً للخطط المرسومة لها آنفاً، كتوفير الدواء للأمراض المستعصية الذي أقرّ سنة 1971 والذي كان امتداداً لمؤسسة الضمان الاجتماعي عام 1964. وبعد أن تلاشت حالة الغبطة الأولى بعد مضي الشهور الأولى لوجوده في الحكم. كان واضحاً مع ذلك

أن الدولة لم يكن يحكمها منطق حازم متسلح بالعصرنة. لا بل خلافاً لذلك، رفض فرنجية تقديم الدعم لوزرائه المجددين، لغسان تويني أولاً والدكتور إميل بيطار الذي كان ينوي إصلاح سياسة الدواء والياس سابا الذي حاول إيجاد تعرفة جمركية تشجع الصناعة، وأخيراً هنري إده الذي أقيل في أجواء مشحونة للغاية. ومنذ نهاية «حكومة الشباب»، بعد سنة من تشكيلها، أعاد فرنجية إحياء الزبائنية ومحاباة الأقارب - حتى انه عين ابنه وزيراً وأطلق سياسة التهاون الاقتصادي المتحرّرة من كل قيد، ولم يبدُ عليه انه مهتم بتقديم أجوبة على الأسئلة الجوهرية التي تُطرح باستمرار منذ الاستقلال والتي جعلتها التطورات الاجتماعية أكثر إلحاحاً.

ولم تكن التشكيلات الحكومية ممثلة للأطراف الاجتماعية الجديدة، باستثناء «حكومة الشباب» التي لم تعمّر طويلاً. والحق يُقال، كانت حالة الجمود السياسي القائمة يجسّدها وجود فرنجية نفسه على سدّة الحكم. وفيما كانت تقود بيروت بوصفها عاصمة الثقافة حركة الإبداع في العالم العربي وتضج أنديتها بألف سجال وسجال، كان لبنان محكوماً من الرئيس الأكثر خشونة في تاريخه. وكانت الرسوم الكاريكاتورية تصوره مرتدياً ثياب فلاح حاملاً بندقية الصيد في كتفه وكأنها تريد أن تشير إلى سخرية القدر التي جعلت منه حاكماً على بيروت المدينة الراقية على حد قول البرت حوراني[7].

لكن الأمر لا يتعلق فقط بشخص الرئيس. بدا النظام كله عاجزاً عن إحراز أي تقدم في عام 1972 - قادت الانتخابات التشريعية إلى البرلمان فريق الزعماء والوجهاء التقليديين. ومع ذلك، كانت هناك بعض الإشارات القوية التي تشير بأن صفحة سياسية جديدة قد فتحت. في طرابلس تفوق المرشح البعثي على رشيد كرامي من حيث عدد الأصوات التي نالها. وفي دائرة بيروت الثالثة كشفت النتيجة بشكل جلي عن ازمة ثقةيواجهها النظام .صحيح ان صائب سلام استطاع أن يؤمن النجاح لاثنين من حلفائه في القائمة الانتخابية، لكن حليفه الارثوذكسي انهزم أمام منافسه في التنظيم الشعبي الناصري نجاح واكيم الذي لا يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره. وأظهرت النتائج الانتخابية إن الناخبين السنة في الدائرة اقترعوا إفرادياً لصالح وجهاء طائفتهم فيما اقترعوا بشكل مركز للشخصية التي تمثل المعارضة في الطائفة الأخرى. وما خلا هاتين الحالتين وبعض الشخصيات الأخرى المنتمية إلى اليسار المعتدل والذي انتخبوا في أغلبيتهم بفضل شبكات التحالف التقليدية التي أقامها جنبلاط؛ وما خلا نواب حزب الكتائب الموجودين على الجهة الأخرى من المشهد السياسي - وكلهم لا يشكلون إلاّ 15% من مجمل نواب البرلمان - فإن مجلس النواب الجديد ظل على غرار المجلس السابق، عاجزاً عن مواجهة التطورات الاجتماعية المستجدة على الساحة اللبنانية. وكان عقم النظام الانتخابي بديهياً، لا لشيء، إلاّ أقله بسبب التفاوت بين التمدنن المتنامي للسكان منذ عقدين من الزمن وبين إلزام المواطنين الاقتراع في دوائر النفوس التابعين لها وليس في مركز إقامتهم أي في المكان الحقيقي لعملهم ومحيطهم

الاجتماعي أي في المكان الذي يمارسون فيه عملهم الفعلي ونشاطهم الاجتماعي حيث تتبلور هويتهم الحقيقية[8].

وفي السنة التالية أثبتت أزمة 1973 عجز النظام الكلي.

تناحر الطوائف

شرّعت أزمة 1973 مسألة تقاسم السلطة بين وجهاء الطوائف[9]. وبالرغم من فترة الهدوء التي سادت العلاقات اللبنانية – الفلسطينية، كانت المسألة لا تزال مطروحة، فوقوف المسلمين اللبنانيين إلى جانب المقاومة الفلسطينية عزّز موقعها التفاوضي مع الدولة. ومن ثمار هذا التحالف انه ضاعف من قدرة المسلمين على المواجهة وألقى الضوء على مدى الغبن الذي كان يتذمر منه وجهاؤهم. وأصبح آنذاك كل أمر مطروح مثاراً للنعرات والحساسيات. فأتفه الأمور المتعلقة بآداب الرسميات والبروتوكول، إذا ما أخلّ بها وان بالحدّ الأدنى باتت تعتبر انتهاكاً لكرامة الطائفة المسلمة. لكن، تجدر الإشارة إلى أن الوجهاء الذين اشتكوا من الغبن اللاحق بطائفتهم لم يكونوا في الحقيقة يولون إلاّ اهتماماً شكلياً بالمظالم التي يعاني منها القسم الأكبر من ناخبيهم[10]. ولم يكونوا يطمحون على مستوى قاعدتهم السياسية إلاّ إلى إعادة التفاوض بشأن تقاسم السلطة حيث تجسّد نفوذ الموارنة بتمسكهم بمنصب رئاسة الجمهورية.

كان الرئيس، في نظر الأعيان المسلمين، يتصرف وكأنه في نظام رئاسي فيما كان دستورياً غير مسؤول، وبالتالي غير قابل للعزل. بالمقابل، كانوا يعتبرون ان المشاركة التي يطالبون بها بإمكانها إصلاح الطابع البرلماني للنظام، ويُفترض على رئيس الوزراء الذي يختاره النواب وليس رئيس الدولة أن يكون مسؤولاً عن السلطة التنفيذية. والمشاركة تعني أيضاً المناصفة بين المسيحيين والمسلمين في البرلمان بدلاً من نسبة ستة إلى خمسة المعمول بها. كما يجدر الاهتمام بالجانب العسكري من المشاركة فالجيش يجب إصلاحه ويفترض به أن يكون جيشاً همه المحافظة على أرض الوطن ودرء الهجمات التي تقوم بها اسرائيل، ويجب إنشاء قيادة عسكرية متعددة الطوائف للجيش بدلاً من أن يضطلع بها قائد الجيش الماروني وحده. ولم يضع الأعيان المسلمون، إبان حملتهم المعتدلة في النهاية، الميثاق الوطني موضع شك، لا بل استندوا إليه. لكن حملتهم اصطدمت بالرفض القاطع الذي أظهره فرنجية ومعظم رجال السياسة المسيحيين*.

وكان لانتشار المقاومة الفلسطينية على أرض الجنوب تأثير مباشر على أوساط الشيعة لا سيما إن إدراكهم للخلل القائم في النظام الاجتماعي كان أكثر حدّة بكثير. صحيح أن رئاسة المجلس

* في عام 1989، استعاد اتفاق الطائف معظم هذه النقاط (باستثناء ما يتعلق بقيادة الجيش) وأدرجت عام 1990 في الدستور.

كانت من نصيبهم لكن تركيز اهتمامهم على منصب الرئاسة فاق اهتمام أبناء الطائفة السنية التي ينتمي إليها رئيس الوزراء. ثم إن الطائفة الشيعية اعتبرت نفسها ممثلة بشكل سيء في جهاز الدولة وتحديداً على صعيد الوظائف العامة، علماً إنها باتت الطائفة الأكثر عدداً في البلاد، حسبما تؤكد الوقائع. هذا صحيح ، لكنه مبالغ فيه إلى حد بعيد. بيد أن الرهان تعدى مسألة توزيع السلطات. على أية حال، لم يكن الوجهاء هم الذين يتحركون للمطالبة بنزع الغبن عن الطائفة الشيعية فهم أيضاً كان يُنظر اليهم بصفتهم حلفاء «الحكم الماروني». وكان المحرّك الأكبر الإمام موسى الصدر، رئيس المجلس الأعلى للطائفة الشيعية الذي اعتمد خطاباً جديداً كان يطالب فيه بالعدالة الاجتماعية ويعارض في الوقت نفسه زعماء الطائفة التقليديين الذين اتهموا بأنهم عقبة في طريق ازدهار الطائفة. وفي الإطار نفسه، بدا هذا التجييش أكثر راديكالية لان الإمام كان على اتصال مباشر بجماهير المحرومين.

وسعى الإمام الصدر إلى تنظيم الطائفة الشيعية، وشجّعه في ذلك بدايةً المكتب الثاني في الستينات. وكان هم المكتب الثاني آنذاك الوقوف في وجه الزعماء المناهضين للشهابيةمن الطائفة الشيعية وتوجيه الطبقة العمالية الشيعية المستقلة، المنتشرة باطراد في ضواحي بيروت، في قنوات الاعتدال[11].

ولم يلبث أن اتسم خطاب الامام الصدر ومعه نشاطه بالتصلب في المواقف نتيجة سلسلة من العوامل تضافرت في بداية السبعينات، ومن بينها احتدام الصراعات الاجتماعية والاستقطاب الطائفي وتفكك سلطة الدولة في جنوب لبنان والدمار الذي شهدته هذه المنطقة على يد الجيش الاسرائيلي، بالإضافة إلى هجمة اليسار الماركسي. لم يتردد الإمام بين 1973 و1974 في إحياء تجمعات شعبية واسعة ضمت عشرات الآلاف من الأشخاص المسلمين في أغلبيتهم. وخلال هذه التجمعات كان يُحتفل علانية بحمل السلاح الذي اعتبر «زينة الرجال» . ولكن الاستعمال المتكرر لكلمة «محرومين» أضفى على الإمام هالة ثورية، وقد قام بمبادرات رمزية كمثل مشاركته في محاضرات أقيمت في زمن الصوم في إحدى كنائس بيروت فذاع صيته على انه رجل حوار وانفتاح. لكن طائفته ظلّت متمسكة بضرورة إعادة صياغة المشاركة الطائفية من خلال إدخال نخب شيعية جديدة في النظام.

أدى تمركز المقاومة الفلسطينية إلى إحياء منطق آخر، اكثر راديكالية في الأوساط الشيعية. وفي ما يتعدى الهدف الذي كان يطمح إليه زعماء الطوائف المسلمة والمتعلق بإعادة التوازن إلى الوضع المؤسساتي القائم، كان اليسار يجد أيضاً في الدعم الذي تقدمه المقاومة الفلسطينية حافزاً يدفعهم لمناقشة الزعماء التقليديين والمنطق الطائفي للإمام الصدر في آن. صحيح أن اليسار ترفّع عن الممارسات الطائفية من خلال إعادة طرح الطائفية السياسية على جدول البحث لا بل إعادة طرح

السلطة برمتها، لكنه كان يتورط، رغما عنه في لعبة الصراع الدائر بين الطوائف. فمن خلال التعبئة التي كان شعارها الدفاع عن المقاومة الفلسطينية وتحت ستار التحرر القومي، استقامت المعادلة التي تجمع المسلمين المطالبين بالمشاركة بالفئات اليسارية المعارضة لنظام الحكم القائم . وعلاوة على ذلك حصل التباس في مفهوم «الجماهير الشعبية» إذ بدأ يسقط من حسابه أن عدداً من المسيحيين يشكل أيضاً جزءاً من هذه الجماهير.

ولم يكن الإمام الصدر بمنأى عن تأثير الإشكالية الاجتماعية التي يتمحور حولها اليسار، بالرغم من مناهضته الدؤوبة للشيوعية التي عبّر عنها مرات عدة[12]. وبدورها طغت مقولة «المحرومين» التي استفاض فيها الإمام الصدر على خطاب اليسار نفسه. وانتشرت صيغ وتعابير مغلوطة تروج مقولة إن الشيعة يؤلفون «الطائفة المحرومة» لا بل الطائفة – الطبقة وقد احتلّ هذا الرأي الهجين المنسوب إلى منظمة العمل الشيوعي اللبناني الكثيرمن المساحة في أعمدة الصحف اللبنانية واستعمل ضمن سياقات صحفية بالرغم من انه غير مُدرج في أي نص يتعلق ببرنامج لحزب فهو لم يعتمد كمفهوم قط ولم يكتسب أية قيمة نظرية[13]. ومع ذلك كان الأثر الذي مارسته مدمّراً. ومن خلال هذه الانزلاقات، آل الأمر باليسار ركوب موجة الانقسام الطائفي. ونتيجة لهذه التطورات، ثبت للحزب الشيوعي اللبناني والحزب السوري القومي الاجتماعي أن قاعدة المناصرين في حزبيهما تشهد إقبالاً ملحوظاً من لون طائفي واحد على حساب الانتماءات القديمة في الوسط المسيحي. وعلى رأس التحالف اليساري، كانت هناك شخصية كمال جنبلاط الذي، بالرغم من رؤيته الاصلاحية، طرح نفسه كناطق بلسان الطوائف المسلمة وليس فقط الدرزية، وكان موقفه هذا يزيد من التماهي الحاصل.

إلاّ أن الميل إلى التجدد السياسي، الجلي في أوساط الحركة الطلابية وفي المجال السياسي، أفضى، من الناحية العملية، إلى إعادة انبعاث للمرجعيات الطائفية. وباستثناء هؤلاء الملتزمين بأفكارهم حتى النهاية، ظلّ الانتماء الطائفي يحدد الهوية سواء اللبنانوية أم العروبية وطالت الظاهرة أوساط الشباب[14]. وأظهر بعض اليساريين تنبهاً للأمر وبينهم الكاتب المسرحي جلال خوري، ففي مسرحية «الرفيق سجعان» يُصوّر قرية مسيحية حيث الولاء السياسي سواء كان لموسكو أو لواشنطن ناتج عن خصومات محلية. وعلى مستوى البلاد، كانت الخيارات الايديولوجية تعبّر عن ذاتها عن طريق تجييش الأجراس ضد المآذن، والعكس هو الصحيح.

وشهدت الحياة السياسية استقطاباً طائفياً ملحوظاً على الصعيد اليومي[15]، حتى لو تابعت بيروت تجلياتها في الاقتصاد والثقافة وأنواع الترفيه. بالطبع، لا يمكن اعتبار جميع المسيحيين والمسلمين في حالة مواجهة. فبالرغم من التشنجات في العلاقات بين فرنجية والوجهاء السنة، ظلّت التشكيلات

الحكومية تعبيراً عن أزمة التعايش الحاصلة على مستوى البلد. وبعد ان وصلت حكومة الرئيس تقي الدين الصلح الموسعة إلى طريق مسدودة، تشكل فريق وزاري جديد برئاسة أحد أقربائه، النائب رشيد الصلح الذي عُرف عنه تقربه من جنبلاط. ضمّت حكومته ممثلين لمختلف الكتل النيابية ومن بينها حزب الكتائب. وبالرغم من ذلك، كانت الأمور المطروحة في العمق تدور في فلك الأزمة. إذ عاد الخلاف الحاد حول عروبة لبنان يطرح نفسه. وأسقط من الحساب أن الحكومة التي تولت إخراج البلاد من الحرب الأهلية عام 1958 والتي كان بيار الجميل في عدادها قد أكدت بشكل لا يقبل التأويل الهوية العربية. باتت الانتماءات الطائفية واضحة كانت أم مموهة تسيطر على كل السجالات، محفّزة من جهة حمى التغيير ومتمسكة من جهة أخرى بالثوابت الايديولوجية والسياسية. وما عادت مسألة الوجود الفلسطيني المستثمرة في الصراعات اللبنانية تُطرح في إطار جدلي مع أن الوضع الإقليمي شهد آنذاك تغيراً كان بإمكانه أن يمهّد أو يسهل تصوراً ما لإزالة التشنج السياسي والطائفي القائم.

صعود التطرف

أثبت امتحان القوى الذي جرى في أيار 1973 أن حالة انقسام المجتمع والطبقة السياسية لا تسمح بتحجيم المقاومة الفلسطينية ولا بتصفيتها من دون تعريض البلاد لأخطار جسيمة. في الظاهر بدا وكأن الجميع استخلص العبر من الأحداث السابقة. وأشارت بعض الدلائل إلى أن صفحة جديدة فُتحت مع افتتاح حوار رسمي بين حزب الكتائب ومنظمة التحرير. كما أظهر فرنجية تضامناً مع سوريا خلال حرب تشرين عام 1973، ما سمح له بالتقارب مع نظام الرئيس حافظ الأسد. لا بل جرى تعيين فرنجية أثناء قمة الرباط ليمثل كافة رؤساء الدول العربية في منظمة الأمم المتحدة خلال الدورة الخاصة التي عقدتها الجمعية العمومية للبحث في شؤون المسألة الفلسطينية في نوفمبر/ تشرين الثاني 1974، وحيث كان على عرفات أن يعلن ظهوره لاول مرة أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة. ضمّ الوفد ، الذي رافق فرنجية ، كميل شمعون وشارل حلو بصفتهما رئيسين أسبقين بالإضافة إلى رؤساء الحكومة ورؤساء المجلس السابقين بغية شمول التمثيل كافة الفئات اللبنانية المعبّرة عن وحدة البلاد في دفاعها عن القضية العربية. كانت التطورات التي يشهدها الوضع الاقليمي إثر حرب اكتوبر من شأنها أن تخفف ظاهرياً من هذا التشنج. وبدا الاعتدال سيد الموقف في جميع العواصم العربية كما أظهرت ذلك قمة الرباط. تضاعف نفوذ العربية السعودية، وهي الحليفة لاميركا، بعد قرار وقف تصدير النفط والثروات التي تدفقت عليها نتيجة تثبيت أسعار النفط الخام. أما الولايات المتحدة، وبالرغم من تضامنها مع اسرائيل خلال الحرب، فإنها انشأت علاقات قوية مع القاهرة وكذلك

مع دمشق. قام ريشارد نيكسون بجولة ناجحة في الشرق الأدنى في ربيع 1974، قبل أسابيع قليلة من إستقالته. وبدا أن حلاً سلمياً لازمة الشرق الأوسط بدأ يلوح في الأفق وقد انضمت إليه منظمة التحرير من خلال اعلانها برنامجاً انتقالياً تتنازل فيه عن هدفها الرامي إلى تحرير كامل لفلسطين، لصالح دولة في الضفة الغربية وقطاع غزة.

لكن التخلي عن خيار القوة لصالح الحلول الدبلوماسية كان مخادعاً. وفيما بدا العرب راغبين في حل سلمي للأزمة، كانت الولايات المتحدة تقوم آنذاك بدور الحكم ولا تسعى إلاّ إلى احتواء الصراع وفقاً لاولوياتها بالذات، واضعة في الصدارة منطق إدارة الأزمة بدل السعي الجدي إلى حلّ النزاع سلمياً[16]. بَيدَ أن المساحة اللبنانية بدت في مكان والحسابات الاميركية في مكان آخر. وبالرغم من اعتماد المقاومة الفلسطينية موقفاً براغماتياً دبلوماسياً، شكل وجودها في لبنان اخلالاً بالنظام ليس فقط من خلال عمليات الكومندوس التي نشطت عبر الحدود ولكن أيضاً وبشكل خاص عبر الاهتمام الدولي الذي حظيت به منظمة التحرير الفلسطينية إنطلاقاً من بيروت. لم تكن اسرائيل تشك في ذلك إطلاقاً ولم تسعَ بسبب من ذلك إلى التخفيف من عملياتها العسكرية في الأراضي اللبنانية، بل على العكس، استخدمت طيرانها لقصف المخيمات المنتشرة في بيروت وطرابلس في نوفمبر عام 1974، فيما كانت مواقف عرفات وفرنجية في منظمة الأمم المتحدة، المتزامنة عملياً مع تلك الاعتداءات، تشهد لخيار السلم الذي ارتضى به العرب باعتماد سياسة معتدلة. ولم تنقضِ أسابيع على دورة الأمم المتحدة حتى قامت اسرائيل باجتياح قرية كفرشوبا في منطقة العرقوب وكادت أن تزيلها من الوجود.

كان لبنان الحلقة الأضعف في المنطقة ونظراً لهذا الأمر، لم يستطع لبنان أن يقطف ثمار تسوية النزاع الاسرائيلي-العربي بل ازدادت حدّة الصراع الدائر على أرضه خلافاً لذلك وتجمعت على أرضه كل العوامل المؤدية إلى الاخلال بالاستقرار والتي ينوي المنطق الأميركي لادارة الأزمة أن يبعدها عن سائر دول المنطقة ويحصرها داخل الحدود اللبنانية. في لبنان، وفي لبنان فقط، كان بامكان النزاع الاسرائيلي-العربي أن يعبّر عن نفسه ويتجسّد على الأراضي ويرفع الشعارات المناهضة للنظام الأميركي. وظلت المقاومة الفلسطينية توجه المحورين، محور الصراع مع اسرائيل ومحاربة السياسة الأميركية. وبالرغم من قبولها سابقاً بمبدأ الحل السلمي للأزمة عبر التفاوض، يبقى أنها بدافع من تكوينها الأساسي قادرة أن تعتمد الأساليب الثورية بسبب الدعم الجماهيري الذي تحظى عليه من شرائح واسعة من الفئات الشعبية التي تشجعها على اتخاذ مواقف متصلبة.

لم تفقد مسألة الوجود الفلسطيني إذاً شيئاً من حدّتها في السجالات اللبنانية. بل خلافاً لذلك،

اشتدت الحملة التي شنتها الأطراف المسيحية حول مقولة انتهاك السيادة والتجاوزات الفلسطينية. في مطلع عام 1975 اتخذت هذه الحملة انعطافة أكثر حدة عندما قدّم بيار الجميل مذكرة مدوّية يندد فيها بتخلي الدولة عن سلطتها ويطلب فيها بالاتفاق مع شمعون، إجراء استفتاء حول المسألة. لكن، ميدانياً أصبحت مرحلة الجدل جزءاً من الماضي وأخلت المكان لمرحلة التعبئة الشعبية. بدأت تشكل ميليشيات متصلة بالأحزاب المسيحية وتتدرب على استعمال الأسلحة بفضل الدعم الذي حظيت به من القطاعات النافذة في الجيش، على أعلى مستوى لقيادة الأركان وأجهزة الاستخبارات. وبدا أن أخصام الوجود الفلسطيني قاموا بتحليل دقيق لتبعات أزمة أيار 1973. وإذا كان الجيش عاجزاً لأسباب داخلية وخارجية معاً عن فرض نفسه على منظمة التحرير الفلسطينية فإن هناك وسائل أخرى متوفرة.

كانت الأسلحة متوفرة منذ وقت طويل في لبنان كما أظهر ذلك الرصاص الذي أُطلق إبتهاجاً بانتخاب فرنجية عام 1970 لساعات عدة متواصلة في الجبل وفي جميع الأحياء المسيحية في بيروت. لم تكن ظاهرة الميليشيات جديدة تماماً في الأوساط المسيحية، إذ اتسمت الكتائب منذ تأسيسها عام 1936 ببنية شبه عسكرية. وشكّلت ذكرى الاحتفال بحزب الكتائب مناسبة سنوية للقيام بعرض في البذات العسكرية في شوارع بيروت. وكانت هذه القوى المنخرطة بانتظام في المشاحنات مع الشيوعيين أو القوميين السوريين تتشارك بقوة في المواجهات التي جرت عام 1958. كما كان لحزب الطاشناق الأرمني جناح شبه عسكري. ولكن، منذ نهاية الستينات وظاهرة العنف تتخذ أشكالاً متعددة. بعد ظهور المقاومة الفلسطينية على الساحة اللبنانية، حصلت تدريبات عسكرية في صفوف مناضلي حزب الكتائب أكثر تعقيداً وتطوراً[17]. في عام 1973 بلغت ميليشياهم حداً كافياً من التماسك لكي تتمركز في الشوارع لا بل لتضطلع بمسؤولية الدفاع عن الأحياء المسيحية. كذلك حصلت تدريبات في حزب الوطنيين الأحرار لشمعون عرفت بميليشيا «النمور» ، وكانت لرئيس الجمهورية ميليشياته في منطقة زغرتا حيث تقديس السلاح عادة ترقى إلى عهد بعيد. وكان الإقبال على اقتناء السلاح يلاحظ في بيروت نفسها حيث تنامى اهتمام السكان المسيحيين بشراء قطع السلاح الحربي الفردي وخصوصاً الكلاشينكوف الذي كان يُختصر بـ «الكلاشين» كما درجت اللهجة المحلية على تسميته وكان يُشرى في معظم الأحيان من المخيمات الفلسطينية!

بعد 1973، بات كل شيء معلناً، ولم يعد بالامكان اللجوء إلى الذرائع، فقد اعتمدت قيادة الجيش بإيعاز من فرنجية نفسه، سياسة شبه رسمية تفسح المجال أمام الميلشيات المسيحية التزود المنتظم بالأسلحة وتمنحها تسهيلات لتدربها. وكان النظام يغض الطرف أيضاً عن الأعمال التي يقوم بها صغار الضباط، ومن بينهم الجنرال العتيد ميشال عون الذي كان ينشط لإنشاء

ميليشيا جديدة أطلق عليها اسم «التنظيم» وضمّت أعضاء من البورجوازية الوسطى الميسورة. بات التدرب ضمن الميليشيات يسبق الالتحاق بالحزب التابع لها – هذا في حال كانت تابعة لأحد الأحزاب. ولم تعد دورات التدريب العسكري تقتصر فقط على المنتسبين إلى الأحزاب التي تنظمها. بات وجود ميليشيا بحد ذاته وسيلة للتعبئة وكأن الشعارات الايديولوجية لم تعد مهمة. تجاوزت ظاهرة الميليشيات على أية حال الانقسامات الحزبية التقليدية وبدت وكأنها معيار التصرف السياسي بالنسبة لوسط مسيحي هاجسه الوحيد «الدفاع عن السيادة». لا شك أن فئات من السكان المسيحيين ظلوا بمنأى عن هذه الظواهر. وكانت هناك عدة شخصيات تتميز بسلوكها السياسي عن شمعون والجميل، كريمون اده، أحد أقطاب التحالف الثلاثي القديم، رغم انه كان متحفظاً جداً حيال العمل الفلسطيني، فهو لم يوافق على اتفاق القاهرة وطالب مراراً ولسنوات بتحييد الحدود مع اسرائيل من خلال نشر قوات حفظ السلام الدولية على الحدود مع اسرائيل. لكن ذلك لم يستطع الحؤول دون تشكل ميليشيا من قبل بعض أنصاره التقليديين في منطقة الدكوانة بجوار مخيم تل الزعتر.

بات التعبير عن السيادة يتم بإحكام الحصار على المخيمات الفلسطينية التي أقامت حواجز عسكرية حول مراكز تواجدها واخضعت السكان لعمليات تفتيش دقيقة شعر معها المواطن اللبناني بأنه غريب في وطنه. لكن، بالنسبة للأكثرية، كانت السيادة رمز الهوية الوطنية / الطائفية التي يجب الدفاع عنها كما تتجسد من خلال بنية السلطة[18]. من هنا الدور المركزي الذي لعبه حزب الكتائب منذ عقود ظناً منه بأنه البديل عن الدولة أو الاحتياط الاستراتيجي لها[19]. وكان حصول النزاعات الناتجة عن التجاور وانتشار المسلحين الفلسطينيين المبالغ فيه حول المخيمات يساعد على ترويج مقولة «السيادة المنتقصة» وقد عبّر عن نفسه في تموز 1974 من خلال احتكاك مسلح افتعله بعض المفترين وما كان منه إلاّ أن تحول إلى مواجهات مسلحة بين ميليشياويين ينتمون إلى حزب الكتائب وفلسطينيين في منطقة الدكوانة.

لم تكن الأحزاب المسيحية وحدها التي تسلحت. فاليسار أيضاً عمد إلى السلاح ولو في مرحلة لاحقة، وتشهد على ذلك حالة عدم التحضر للمواجهة التي أظهرها أنصاره في ربيع 1975. صحيح أن العديد من اللبنانيين التحقوا مباشرة بحركات فلسطينية وتدربوا نتيجة لذلك على استعمال الأسلحة، لكن الأحزاب لم تنخرط في هذه الطريق إلاّ بعد أزمة أيار 1973. وآنذاك، دفع التحالف الذي نشأ بين اليسار والمقاومة الفلسطينية، بمنظمة التحرير الفلسطينية إلى توفير تدريب عسكري للأحزاب اللبنانية المتحالفة معها وتزويدها ببعض الأسلحة. وفيما اتخذ تطور الميليشيات في أوساط المسيحيين شعاراً له «الدفاع عن السيادة»، كان الشعار المحفز لدى اليسار «الدفاع عن الثورة الفلسطينية وعروبة

لبنان». لا شك أن اليسار كان، خلف هذه الشعارات يبحث عن شيء آخر بالرغم من أن فكرة استلام السلطة بقوة السلاح لم تُطرح قط ولم تخطر على بال أحد من قبل. وكان جنبلاط بوصفه أحد أركان السلطة ومن دعاة تطوير النظام السياسي في الوقت نفسه، قد اعتبر الوجود الفلسطيني ورقة يفاوض بها شركاءه/ أخصامه في الطبقة السياسية أكثر منها رافعة تدفعه إلى واجهة السلطة: أي انه أراد بالمقابل حداً أدنى من الاصلاحات الاجتماعية الاقتصادية وتعديلاً في بنية النظام من خلال مشاركة أوسع للمسلمين، وذلك لأن الحلفاء الطبيعيين لمنظمة التحرير الفلسطينية سيكونون قادرين والحالة هذه على حمل المنظمة على القبول بتفسير جدي وحاسم لاتفاق القاهرة، كما وُفق هو نفسه إلى ذلك خلال تسلمه وزارة الداخلية عام 1970[20].

وكانت أحزاب أخرى كالحزب الشيوعي ومنظمة العمل الشيوعي تحديداً، تتبنّى هذا الخيار المعتدل في العمق، وكان هذان الحزبان مقربين جداً من جنبلاط. ومع ذلك، لم يستطع هذا الخيار السيطرة على التطورات الحاصلة ميدانياً فتدفق الأسلحة ولغة التحدّي السائدة أفشلا كل المحاولات المبذولة وأخليا الساحة للمواجهة العسكرية . اتجهت فصائل صغيرة متجذرة في الطبقة العمالية المستغلة إلى العمل المباشر. وقامت منظمة ثورية اشتراكية لبنانية عام 1974 بمحاولة سطو على بنك أوف أميركا Bank of America الواقع في وسط بيروت متخذة بعض موظفي المصرف رهائن. كما ظهرت مجموعة صغيرة أخرى في بيروت ودمشق في ربيع 1975 بعد اندلاع الحرب تطلق على نفسها اسم المنظمة الشيوعية العربية. وأدى تدخل بعض الدول العربية إلى إذكاء نار المزايدات. واستعادت الحركة الناصرية وحدتها بعد أن كانت مفككة، لتركب موجة العنف المسلّح. أما نظام المراقبة الزبائني المزدهر في الستينات فكان متعطلاً منذ وفاة عبد الناصر والمكتب الثاني الشهابي مشرذماً[21]. وارتبط القبضايات الجدد الذين ظهروا على الساحة آنذاك بـ«أولياء أمر » من الخارج، من سوريا والعراق وليبيا وخصوصاً المنظمات الفلسطينية[22]. وولّد تماهي اليسار مع المسلمين شعوراً بالرضى في الأوساط اليسارية فتح الباب واسعاً أمام استعادة دور القبضايات إن لم نقل العصابات[23]. ولكن، بدل أن تحدّ هذه الفوضى من التعبئة الطائفية في صفوف أركان السلطة، فقد دفعت رجال الحكم السنة إلى مسايرة لغة الشارع مع انهم لم يكونوا يمسكون بزمامه.

ووُظفت المخاطر الناتجة عن انتشار السلاح والاستقطاب الطائفي بطريقة دراماتيكية في نهاية شهر شباط الذي يمكن اعتباره مقدمة الحرب الآتية[24] وهي التي بدأت في صيدا ثم انتقلت الى بيروت. ففيما كان معروف سعد، وهو نائب صيدا السابق وأحد أبرز القيادات الناصرية، يسير على رأس تظاهرة صغيرة قام بها الصيادون احتجاجاً على إنشاء شركة كبيرة للصيد البحري، أصابته رصاصة أطلقها أحد الجنود وقتلته. وما زاد الأمر تفاقماً هو أن الشائعات التي سرت في الأوساط

الشعبية أخذت تتحدث عن ارتباط شمعون بالشركة الجديدة التي تنوي احتكار صيد الأسماك. علماً أن معروف سعد هو الذي قاد حركة العصيان في مدينته عام 1958 ضد شمعون. وتحولت حركات الاستياء والاحتجاج العارمة التي أثارتها هذه الحادثة إلى مواجهات بين الناصريين واليسار بدعم من الهيئات الفلسطينية من جهة وبين الجيش من جهة أخرى. وفيما كان معروف سعد يحتضر فوق سريره في مستشفى الجامعة الأميركية، تواصلت التعبئة في الشارع، وفي الاتجاهين المعاكسين. لم يكن جنبلاط راغباً في التصعيد وحاول انقاذ الحكومة لكن أحزاب اليسار انتشرت بكثافة في شوارع بيروت وفي غير مكان. أما الأحزاب المسيحية فردّت على خروج الجيش من صيدا من خلال استعراض كبير لقوتها تأييداً له. استدعي الشعب المسيحي في لبنان للقيام بتظاهرة وطنية في بيروت، وتقدم التظاهرة رجال الشرطة فوق دراجاتهم، وانضم إلى الموكب الذي جال الأحياء المسيحية في بيروت طلاب حزب الكتائب وحزب الوطنيين الأحرار الناشطين عادة يواكبهم مراهقون فتيان وصبايا بثياب المدرسة اصطحبوا في باصات مدرسية بأعداد كثيفة من قراهم في الجبل بمباركة الراهبات والأساتذة.

وهكذا، اكتملت جميع العناصر كل منها على حدة لتتلاقى في بيروت وتكتمل صورة المواجهة المحتمة تدريجاً. واستعرض زياد الرحباني، الإبن المبدع والطفل المعجزة لفيروز وعاصي الرحباني عام 1974 التفاعل الناجم عن تصادم هذه العناصر في مسرحيته الغنائية «نزل السرور» حيث يظهر أحد الجائعين المنادين بالثورة في نزل عائلي اجتمعت فيه شخصيات متباينة للغاية. فالمدينة المختلطة اجتذبت الأضداد وكانت عاجزة عن صهرها في بوتقة واحدة. اتسعت الهوة بين التحضر والمواطنية، بين السعي إلى التمايز الفردي والانكفاء إلى الشرنقة الطائفية، إزداد التعارض بين الانفتاح الاقتصادي والثقافي وبين الديناميات التعبوية التي استدعتها الارتكاسات الدفينة، والمفارقة التي أثارتها عملية الانطواء على الهويات «ما دون القومية» في صميم عاصمة القضية العربية.

عاصمة الألم

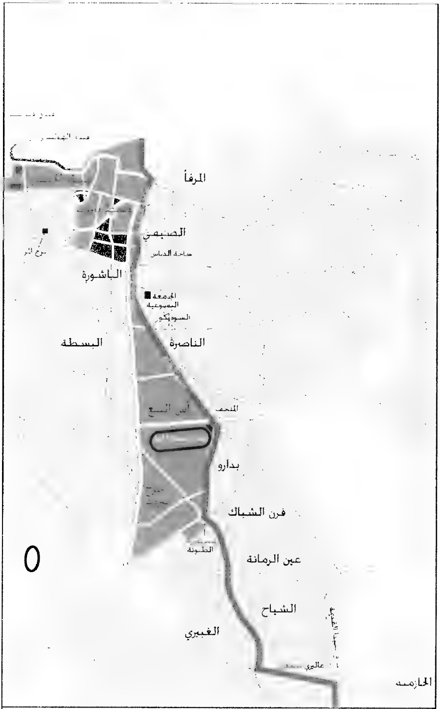
بعد المواجهة التي جرت في صيدا، اندلعت الشرارة يوم الأحد في 13 نيسان 1975 وكانت انطلاقتها في عين الرمانة، الضاحية المسيحية الشعبية، حيث كان بيار الجميل يشارك في تدشين إحدى الكنائس. وفجأة، سُمعت طلقات رصاص وسقط أحد حراس بيار الجميل قتيلاً. وصودف مرور باص يقل فلسطينيين كانوا عائدين من احتفال تكريمي في مخيم تل الزعتر، إلى مخيم شاتيلا، فوقعوا في كمين سقط فيه 27 قتيلاً في صفوفهم. وللحال، بدأت المواجهات بين عين الرمانة

والشياح، الضاحية المواجهة والمكتظة بساكني حزام البؤس. وبدأ الظهور المسلح يجتاح جميع الأحياء وتدريجاً.

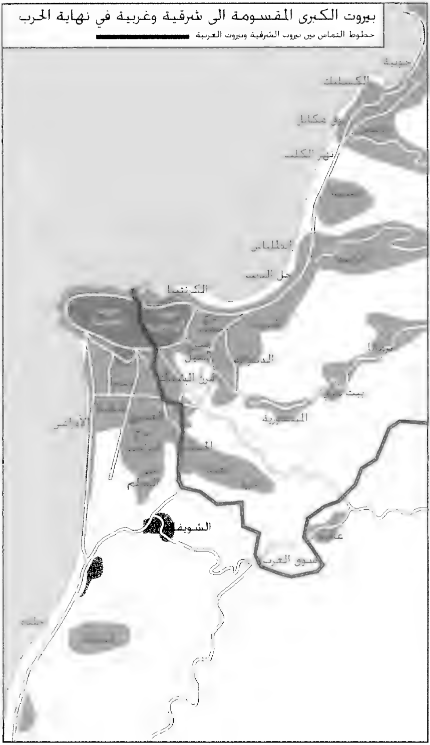
وعشية الثالث عشر من ابريل/ نيسان، دخل لبنان في دوامة الحرب . بدأت الحرب على شكل جولات ثم اتسعت رقعة الأشتباكات في الثاني من أيار (اي الجولة الثانية) حتى بلغت طريق دمشق وخلقت هناك ما يسمى خط تماس. في البداية، لم يشأ اللبنانيون الكلام إلاّ عن الأحداث ولم يشرعوا في استعمال كلمة «حرب» إلاّ مطلع الخريف. ولكن، خلف استعمال التورية هذه، كانت الحرب قد اندلعت في بيروت منذ الربيع وبدت المدينة مستسلمة لها بلذة مشؤومة. اتسعت المعارك تدريجاً لكن عسكرة المجتمع أوحت دفعة واحدة باتساع حالة الحرب. لم تمتدّ المواجهات إلى خارج حدود المدينة ولم يكن السكان مجرد شهود على المواجهات الدائرة أو ضحايا لها، ولم تفرض الأجهزة الحربية نفسها على الساحة البيروتية رغماً عن إرادة السكان. بدأت المواجهة بين سكان الأحياء المجاورة وامتدت لتشمل كل أحياء العاصمة، بدأت التعبئة النفسية للحرب قبل أن تكتمل التعبئة المسلحة، وتم الانتقال من الاستقطاب الطائفي إلى المواجهة. أصبح الحي المجاور فجأة أرضاً محظورة بحيث لا يمكن الدخول إليه من دون التعرض للخطف أو القتل وبات الآخر يشكل خطراً ملموسا. نشطت الأعمال الحربية الرئيسية في كافة أرجاء المدينة وتبادل الطرفان قذائف المدفعية وانتشر القناصة على سطوح الأبنية العالية ومن أماكنهم المحصّنة راحوا يزرعون الموت في الشوارع المواجهة. كل ذلك مهّد لنشوء خط تماس واضح بين «هم» و«نحن». وبالرغم من أن الجغرافيا الطائفية للمدينة كانت غير مكتملة فقد بقي العديد من الأحياء متجانساً، الأمر الذي ساهم في التباعد الذي أخذ يفصل شيئاً فشيئاً بين بيروت الشرقية وبيروت الغربية.

وكل ما فعلته فترة الهدوء في الصيف بعد «جولة» ثالثة هو أنها جيشت النفوس أكثر، وكانت الحكومة المصغرة التي شكلت لاطلاق الحوار الوطني برئاسة رشيد كرامي وضمّت كميل شمعون بصفته وزيراً فوق العادة، غير قادرة على التفاهم. وبعدها انتقلت المعارك إلى محيط مدينة زحلة ثم اشتعلت الجبهة بين زغرتا وطرابلس – المدينتين التابعتين لرئيس الجمهورية ورئيس الحكومة ثم رسّخت الحرب أقدامها في بيروت. في 17/ أيلول/ سبتمبر، أضرمت النار في الأسواق القديمة غربي ساحة الشهداء. وبعد شهر طالت الحرب منطقة الفنادق الكبرى المواجهة للبحر.

في بداية شهر ديسمبر/ كانون الأول، دخل وسط المدينة دوامة الحرب بعدما كان يؤمل عقب كل فترة هدوء فاصلة بين جولات العنف استعادة الحياة الطبيعية: أثبتت إحدى الحملات التأديبية التي أوقعت عشرات القتلى بين صفوف المسلمين – وبعض المسيحيين الذين سقطوا خطأ – أن وسط المدينة لم يعد بإمكانه أن يكون مكاناً للقاء بين اللبنانيين. وخلف المقاتلين، بدأ النهابون يعدون أنفسهم



خط التماس خلال الحرب


بيروت الكبرى المقسومة الى شرقية وغربية في نهاية الحرب
خطوط التماس بين بيروت الشرقية وبيروت الغربية
جونية
الكسليك
نهر الكلب
الكرنتينا
المنصورية
الأوزاعي
سوق الغرب

للعمل المنظم. وأحياناً كان يتبادل المقاتلون والنهابون الأدوار. جرى تجريد المصرفين البنك البريطاني British Bank والبنكو دي روما Banco di Roma من جميع محتوياتها وتعرض المرفأ لعملية سطو منظمة[26]. إزداد النزاع تعقيداً وتحوّل البلد إلى ساحة حرب شاملة. في أول حزيران/ يونيو 1976 دخل الجيش السوري إلى لبنان لمواجهة حلفائه القدامى في اليسار والمقاومة الفلسطينية. وقبل ذلك التاريخ، أوقفت الهجومات على مواقع الميليشيات المسيحية التي استطاعت أن تحظى بدعم سوريا واسرائيل معاً وأحكم الحصار على مخيم تل الزعتر الذي سقط في غضون شهرين وسقط معه آلاف القتلى. من جهة أخرى، أدّت المصالحة التي جرت بين دمشق والقاهرة في الخريف إلى تشريع الوجود السوري عبر قوات الردع العربية إثر القرار الذي اتخذته جامعة الدول العربية، ومن بين المهام التي اضطلعت بها دعم جهود الرئيس الجديد الياس سركيس لاعادة الوضع إلى طبيعته.

لكن الحرب لم تنته. ترك اغتيال كمال جنبلاط، الذي جرى ربما بأمر من الرئيس حافظ الأسد، اليسار يتيماً، بالرغم من تولّي إبنه وليد قيادة الحزب التقدمي الاشتراكي. الأمر الذي زاد من حدّة التناقضات الطائفية فيما بعد. وعلى المدى المباشر، أدى إضعاف اليسار إلى توفير هامش أكبر للتدخل السوري في مراقبة البلاد وزاد في الوقت نفسه من تورّط منظمة التحرير الفلسطينية في الشؤون اللبنانية. في غضون ذلك، أتاحت المحاولات لإعادة الهدوء إلى بيروت القيام بوضع مشروع لإعادة إعمار وسطها المدمّر لكن سرعان ما انتقلت الحرب فوراً إلى الجنوب حيث استطاعت اسرائيل إقامة شريط أمني داخل الأرض اللبنانية يشمل ثلاث مناطق تشرف عليها الميليشيات المسيحية. وبعد زيارة السادات لاسرائيل في نوفمبر 1977، تمكنت اسرائيل أن تتصرف بحرية وتبادر للقيام بأول اجتياح واسع في مارس/ آذار 1978 تعدّى حدود «حزام الأمان» الذي يمسك به حلفاؤها المحليون مما أدى إلى تمركز قوات الطوارئ الدولية في الجنوب التي سرعان ما اضطرها إلى تولي مهام أمنية وأحياناً تلقي الضربات. في غضون ذلك، أدّى التغيير في الجغراسياسة الاقليمية إلى قطع التحالف القائم بين سوريا والأحزاب المسيحية. كما ادّى التشنج الملحوظ في بيروت الشرقية منذ خريف 1987 إلى حدوث مواجهات عنيفة طيلة أشهر الصيف الثلاثة. وعُرف هذا الفصل من الحرب بـ «معركة الاشرفية». وبالرغم من المبادرة إلى تسوية جديدة، بقي وسط المدينة الذي تأثر بهذه المعركة «جبهة تقليدية» حتى 1982. ولم تمنع العودة الجزئية إلى الوضع الطبيعي من تفاقم الانشقاقات ووطّدت الأحزاب المسيحية بزعامة بشير الجميل صلاتها بالحكومة اليمينية في اسرائيل التي يترأسها مناحيم بيغن. وصل التحالف إلى ذروته أولاً في ربيع 1981 خلال معركة زحلة وأزمة قواعد صواريخ سام السورية المضادة للطائرات المنتشرة في البقاع التي استتبعها التدخل الدبلوماسي للولايات المتحدة، وثانياً خلال الغارات الجوية على أحياء بيروت، وأخيراً في حزيران 1982، إبان الاجتياح الاسرائيلي

الأكبر للبنان.

وخلال بضعة أيام، تحول الاجتياح الذي بدأ في 6 حزيران بقيادة آريال شارون وزير الدفاع الاسرائيلي إلى حصار منظم لبيروت الغربية. وخلال ثلاثة أشهر تعرّض هذا القسم من المدينة الذي احتشد فيه المقاتلون الفلسطينيون ومقاتلو اليسار إلى قصف مركز على المدينة جواً وأرضاً وبحراً. سيطر الطيران الاسرائيلي سيطرة تامة على الجو وأخذ يصول ويجول في طلعات استعراضية مع فارق وحيد هو أن هذه الطلعات تسببت في وفاة الآلاف. وذات يوم دُمّر مبنى في منطقة الصنائع بثانية واحدة اثر القاء «قنبلة فراغية» والسبب أن الاسرائيليين ظنوا أن عرفات موجود فيه. لكن، بصرف النظر عن هذا القصف وعن محاولة اختراق عبر المطار، اصطدم الجيش الاسرائيلي بمقاومة شرسة. وأخيراً فرضت الولايات المتحدة حلاً سياسياً فأرسلت قواتها البحرية لتنضم إلى جنود الفيالق الفرنسية والمشاة الايطاليين لحماية الجلاء المنظم للقادة الفلسطنيين وغالبية المقاتلين من بيروت. وفي غضون ذلك، أتاح وجود جيش الاحتلال الاسرائيلي تأمين النصاب لانعقاد مجلس النواب تمهيداً لانتخاب بشير الجميل رئيساً لجمهورية لبنان.

لم يتسنَ للقائد العسكري المسيحي الوقت لكي يرتدي الزي الرسمي حتى لو ضمّن خطابه العديد من الألفاظ المعسولة. بعد ثلاثة أسابيع من انتخابه وقبل عشرة أيام من حلول الموعد لتسلمه مهامه، تسببت محاولة اعتداء على مقر الحزب في مقتله ومقتل الكثير من رجاله. وللحال أفاد الجيش الاسرائيلي من الفرصة لكي يحكم الحصار على بيروت الغربية ويصادر الأسلحة الثقيلة ويؤمن رحيل القوى المتعددة الجنسيات. وتلقائياً، تشكّلت مقاومة جديدة في صفوف الأحزاب والحركات. وفيما كان جورج حاوي الأمين العام للحزب الشيوعي ومحسن إبراهيم الأمين العام لمنظمة العمل الشيوعي يطلقان النداء لتشكيل جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية، كان بعض انصارهم بالاشتراك مع أنصار الحزب القومي وبعض الفدائيين الفلسطينيين الذين بقوا في لبنان، ينفذون عمليات عسكرية ضد الجيش الاسرائيلي. وخلال نزهة كان يقوم بها ثلاثة جنود في شارع الحمراء وخلال جلوسهم على رصيف أحد المقاهي، أطلق مناضل في الحزب القومي السوري الرصاص عليهم وأرداهم قتلى.

كانت بيروت أول عاصمة عربية تقع تحت الاحتلال الاسرائيلي، وانطلقت حركة المقاومة الشعبية التي أسفرت في ظرف ثلاث سنوات، عن انسحاب الجيش الاسرائيلي من كافة الأراضي اللبنانية المحتلة وتحديداً من مدن صيدا وصور والنبطية. لكن، للأسف، حصلت في شهر أيلول 1982 أفظع مجزرة بشرية جماعية هي مجزرة صبرا وشاتيلا حيث قُتل أكثر من ألف مدني فلسطيني ولبناني على يد مقاتلين في ميليشيا القوات اللبنانية بمباركة الجيش الاسرائيلي .

وأعادت هذه المجزرة التي أثارت ردود فعل عالمية القوى المتعددة الجنسيات إلى بيروت للقيام

بمهمتين: حماية السكان الفلسطينيين المدنيين من جهة وتقديم الدعم لأمين الجميل الرئيس الجديد، الأخ الأكبر لبشير الجميل الذي جرى انتخابه بشبه إجماع نتيجة الانفعال الذي أثاره مقتل أخيه. وبما انه كان أكثر اعتدالاً في مواقفه من أخيه المتوفى، أو ربما بسبب من ذلك، لم يستطع أمين الجميل أن يتفاهم مع القوات اللبنانية ولا أن يرغم إسرائيل على الانسحاب دون تقديم تنازلات تمسّ السيادة. وظهرت التناقضات الطائفية من جديد وعادت معها الحرب الأهلية عبر الشوف بين القوات اللبنانية ودروز وليد جنبلاط. واستعدت سوريا التي عززت تسلحها بفضل الاتحاد السوفياتي أيام اندروبوف، للضغط من جديد، فيما أدى الخلاف بين إيران والولايات المتحدة إلى القيام بعملية انتحارية ضد السفارة الأميركية تبعتها عمليتان انتحاريتان متزامنتان ضد معسكر المارينز ومقر دراكار للجنود الفرنسيين. ووسط هذه الأجواء، عادت الحرب إلى بيروت في خريف 1983. وعادت من جديد البيروتان، بيروت الشرقية وبيروت الغربية وبينهما خط التماس نفسه ووسط المدينة المدمّر نفسه حتى عام 1990 موعد انتهاء ما سميّ «حرب التحرير» التي أعلنها الجنرال ميشال عون ضد الجيش السوري.

لم تتغير جغرافيا بيروت بل ظلّ الترقّب سيد الموقف. أخذت بيروت الغربية، التي تشكل القسم الغالب من المدينة الإدارية تبهت إبتداءً من الثمانينات بالمقارنة مع بيروت الشرقية التي واصلت امتدادها المتزايد على الشاطئ الشمالي لتطال مرتفعات الجبل. وفي البيروتين، طالت المعارك جميع الأحياء بالتناوب أو بالتزامن. لكن الشاهد الأكبر على طول الحرب كان الميدان المقلق لوسط المدينة. وبعد كل فترة هدوء، أصبح وسط المدينة المكان الذي يجسد الرفض لاستعادة السلام.

وعندما كانت الحياة تسعى أحياناً لاستعادة مجراها في الأمكنة الأخرى، كانت «الجبهات التقليدية» تأتي للإستقرار فيها بطريقة آلية لتمنع عودة الحياة إلى طبيعتها. نجا شارع المصارف المهجور من الدمار بإرادة خفّية من أصحاب المال والنفوذ من جميع الطوائف. وانتقلت إلى بعض الأنحاء مجموعات من حزام البؤس التي شرّدتها الحرب. أما وسط المدينة الواقع بين ساحة الشهداء وساحة النجمة وشارع فوش وشارع أللنبي وسوق الطويلة، فصار مسرحاً للكلاب الشاردة الباحثة عن قوتها. ونمت الأشجار والنباتات البرية التي لم يقف بوجهها شيء من قلب ركام الأبنية لتعلن موت المدينة. وكانت الهياكل المتفحمة لفندقي فينيسيا والسان جورج تحرس وسط العاصمة الكوسموبوليتية للشرق التي لم تعد إلا عاصمة الألم.



آثار الحرب في وسط بيروت (1990).



تمثال الشهداء المنخور بالرصاص وشظايا القذائف.



آثار الحرب في وسط بيروت (1990).



آثار الحرب في وسط بيروت (1990).



بناية بركات، من تصميم المهندس يوسف افتيموس على خطوط التماس القديمة، طريق الشام.

خاتمة

بيروت بين الحاضر والماضي

فجأة، ذات يوم من خريف 1990، توقف الكلام عن بيروت وعن لبنان. لقد ملّ متتبعو الصحافة المرئية والمكتوبة والمشاهدون في جميع أنحاء العالم من صور العنف الدائر وأخباره التي كانت تصلهم تباعاً طيلة خمس عشرة سنة، لكنهم لم يعرفوا ان الحرب انتهت. وبدءاً من أواسط التسعينات عاد الكلام عن الحرب. لكن هذه المرة في صفحات الكتب. منذ ذلك الحين أخذت المقالات المكتوبة عن حرب لبنان تجتذب السياح. وظهرت دلائل سياحية تتحدث عن بلاد جديدة بأن تزار بعد أن عادت إلى سابق عهدها.

إن السائح الذي ينزل في بيروت مطلع القرن الواحد والعشرين، يتولّد لديه انطباع بأن المدينة نهضت فعلياً من كبوتها. يرى، منذ نزوله على أرض المطار، إنشاءات عصرية مماثلة لكل المدن الكبيرة في العالم. رُدم البحر لتمهيد الساحات المحيطة بالمطار واستبدلت محطة الطائرات القديمة بمنشآت جديدة قادرة على استقبال ستة ملايين مسافر في السنة. ما أن يخرج الزائر من حرم المطار حتى يجد نفسه على اوتوستراد عريض يقلّه في ظرف سبع دقائق إلى المدينة من دون أن يصدمه مشهد الأكواخ المنتشرة في ضاحية المدينة. ولو عرف بيروت من قبل لاحتاج إلى بعض الوقت لكي يهتدي إلى سبيله، لكنه سرعان ما يستسلم للمدينة. وفي حال لم يكن يعرف الأمكنة إطلاقاً، فسيدهشه ما سيراه بعد كل ما سمعه.

صورة مخادعة

يختار الزائر أيا من الفنادق يختاره من أجل الإقامة، منذ انتهاء التسعينات من القرن المنصرم. أعاد فندق فينيسيا فتح أبوابه بواجهته المخرّمة التي جرى ترميمها مطابقة للنموذج القديم الأصلي، وأضيفت إليه منشآت جديدة، لكن من دون البار الشهير الذي كان مواجهاً للبيسين. سبقه إلى الظهور فندقا فاندوم والريفييرا وأصبح المارتينيز نموذجاً آخر لفندق هوليداي إن. وانبثق هوليداي إن آخر

في وسط المركز التجاري المترف في شارع فردان. أما البريستول الواقع في أعلى شارع الحمراء والذي لم تلحق به الحرب أضراراً تذكر، فأعيد تجديده. وافتتح الكومودور مجدداً ليستقبل المراسلين الصحفيين تحت لافتة الميرديان. وجُعل أوتيل الكسندر في الأشرفية، الذي توافد إليه المراسلون في الثمانينات، أكثر عصرية. وعلى مسافة ثلاثمائة متر لجهة الغرب، وعلى أعلى نقطة من بيروت، شُيد أوتيل غبريال. وفي عام 2002 دُشن فندق الموفينبيك Mövenpick وهو نموذج من إنجازات الأمير الوليد بن طلال، حفيد الملك عبد العزيز والرئيس رياض الصلح. في الجهة المقابلة للتجمع، في سن الفيل، بنى متعهد إماراتي فندقاً مهيباً يدعى «متروبوليتان» وشَيد أحد الأثرياء العراقيين فندق الرويال في ضبيه على طريق جونيه. أما الهيلتون الذي دُمر هيكله غير المنجز بعد أن اجتاز فترة الحرب كلها فسيعاد بناؤه لاحقاً على القسم التابع للواجهة البحرية أي في الحي الذي يبدو عليه انه سيصير الأكثر ثراء في بيروت. لكن الهوليداي-إن الأصلي، الفندق الذي شهد معارك 1975 و1976، ظلّ كما تركته الحرب، هيكلاً خراباً مع انه حُجب عن نزلاء فندق فينيسيا بواسطة ملصق عملاق وُضع على عجل قُبيل افتتاح القمة العربية في بيروت في آذار 2002. أما هؤلاء الذين كان يحدوهم الحنين لبار السان-جورج أو لبانوراما الكارلتون، فرضخوا للأمر الواقع: لم يُرمم السان جورج نتيجة خلاف بين مالكه ورئيس الحكومة، وحده البيسين بقي يستقبل المستحمين، أما الكارلتون فانهار بعد صموده المعاند في المراحل الأكثر سواداً. بإمكان الزائرين أن يتعزوا مع ذلك من خلال اختيار فندق ألبرجو Albergo لاقامتهم وهو من مجموعة روليه إي شاتو Relais et Châteaux، التي أثارت غرفه المميزة إعجاب بعض الصحافيين الواسعي الاطلاع. وثمة فنادق أخرى، خارج المدينة بإمكانها إجتذاب الزوار: كفندق البستان في بيت مري وفندق برنتانيا Printania في برمانا والمير أمين في بيت الدين والسنتشري بارك Century Park والريجنسي Regency في جونيه. وللزوار الأقل يسراً، هناك عدد من فنادق الثلاث نجوم التي أعيد تجديدها وهي منتشرة بوفرة في منطقة الحمراء.

وبعد أن يطمئن الزائر إلى أن الاقامة طابت له، بوسعه أن يتجول في المدينة دون حرج. فالطرقات نظيفة نسبياً منذ ما قبل 1975، لا سيما بعد أن تولت شركة خاصة مسألة جمع النفايات. لكن هذه الخصخصة طرحت من جديد على بساط البحث والتجوّل في المدينة مباح للجميع لا يعكر صفوه إلاّ التساهل في تطبيق قوانين السير، وغياب التنظيم الذي أشاعته سنوات من الفوضى.

والأمر ينطبق على السير داخل أحياء العاصمة. وقد جرى توسيع منافذ الخروج من بيروت باستثناء مخرج الشمال وجرى تحسين شبكة الطرقات حتى لو ظلّت الأرصفة غير منجزة أو ظلت بعض الطرقات متموجة بسبب سوء نوعية الاسفلت. بإمكان السائح الوصول دون صعوبة إلى الأماكن السياحية الهامة كبعلبك وبيبلوس وبيت الدين ومصايف المتن وتلك التي أعيد بناؤها على



كاتدرائية القديس جاورجيوس للروم الأرثوذكس بعد ترميمها.

طريق دمشق وأيضاً المسابح الجديدة التي تطورت في جنوب العاصمة وشمالها. فبالاضافة إلى مسابح الفنادق في بيروت ومراكز الاستحمام التي شوهت شاطئ جونيه، أعيد إنشاء المسابح الرملية على قواعد عصرية وهي موازية بتجهيزاتها لمسابح سان سيمون وسان ميشال القديمة التي لا يزال بعض اللاجئين يحتلونها وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من الضاحية الجنوبية.

أما فيما يخص أنواع الترفيه فلا يعرف السائح، مثله مثل إبن البلد من أين يبدأ. استبدلت صالات السينما القديمة المدمّرة وسط العاصمة وتلك التي بهت بريقها في شارع الحمراء بـ multiplex في شارع فردان وطريق الشام – على خطوط التماس في الحرب – وفرن الشباك. واذا اراد الزائر تناول الطعام لراى ان المطاعم، التي انتقلت إلى جونيه والجبل، عادت إلى بيروت وهي تقدم كل أصناف المأكولات العالمية، و راجت موضة السوشي، كما في كل مكان. أما الليل فيبدو في بيروت أكثر غنى.

وعادت بيروت من جديد مدينة الحانات وعلب الليل. خلال السنوات الأخيرة من الحرب، والسنوات الأولى من فترة ما بعد الحرب، وحدها صمدت «البلونوت» في بيروت الغربية وبيروت سيلر Beirut Cellar وكلوزوري Closerie في بيروت الشرقية. وفجأة انبثق مطعمان أو ثلاثة على مستوى رفيع كمطاعم لو رابليه Le Rabelais وآل دنتي Al Dente والميجانا، وذاع صيت مكانين يقصدهما قسم من شبيبة ما بعد الحرب وعشاق الليل في العاصمة: الـ«ب زيرو ديزويت» B018





الواجهة البحرية بعد أعمال الردم (صورة جوية).

الواقع في منطقة صناعية في الضواحي وبابيلون Babylone في أحد الأحياء المدمرة على بعد خمسين متراً من خط التماس. أنشئ الـ B018 في الكرنتينا في وهدة من الأرض على غرار المقبرة الجماعية المجاورة، وقد صممه المهندس برنار خوري الذي أراد لهندسته أن تعيد إلى الذاكرة زمن الحرب. وصار Babylone مضرب مثل في الحي الواقع فيه وتحديداً على طول شارع مونو الموازي لخط التماس وشبه المهجور. وشارع مونو هذا، الذي أطلق عليه اسم الأب اليسوعي مؤسس جامعة القديس يوسف القريبة، مألوف من قبل الزائر الأجنبي، ولسبب بديهي، فهو يضم عشرات الحانات والمطاعم على طول مساحته البالغة أربعمئة متر وتتصل بها بضع طرقات غير نافذة وقد نال شارع مونو الذي تقصده جموع الطلاب والمراهقين شهرة في العالم العربي توازي شهرة شارع الحمراء قبل الحرب. لا بل إن جميع المقالات في الصحف العالمية التي تذكر بيروت تسلّط الضوء على هذه الأمكنة التي تضجّ بالحياة في ليل بيروت. وربما كان السائح يرغب أيضاً في إنفاق ماله في الكازينو الذي أعيد تجديده ولا يزال في موقعه الأساسي على طرف خليج جونيه أو في بارات المعاملتين التي تحفل بالفتيات المأجورات الأوكرانيات والرومانيات. وعلى أية حال، لن يفوّت عليه فرصة النزول في شارع مونو حتى نهايته ليصل بعده إلى وسط المدينة الذي اتخذ منذ مطلع القرن العشرين شكل أرض محاصرة مباحة كلياً للترف وأنواع الترفيه.

وفي الليل كما في النهار، يجتذب وسط المدينة الجديد والقديم في آن انتباه الزوار وتحديداً المساحة التي حظيت باهتمام عهد الانتداب. ساحة النجمة وشارع المعرض وشارعي أللنبي وفوش والأزقة التي تصل فيما بينها. أما ساحة النجمة فتحولت إلى منطقة دائمة للمشاة باستثناء بعض سيارات النواب التي تدخلها. وعاد البرلمان إلى مبناه الذي هُجر منه لمدة خمس عشرة سنة وفُرض باتجاهه حظر السير. وأصبحت ساحة النجمة والشارع الكبير ذو الأعمدة التي تزينه، المكان المفضل للمتنزهين. في أيام العطل، يصبح محيط ساعة العبد التي أعيدت إلى مكانها الأصلي ساحة لعب يلهو فيها الأطفال وحيث تتدافع الدراجات الصغيرة والرولرز والعربات. وانتشرت في الشوارع المجاورة في كل مكان المقاهي والمطاعم. وعندما افتتح مقهى كاسبر وغامبيني Casper and Gambini's في شارع المعرض مشرفاً في الجهة الأخرى من الرصيف على الآثار الرومانية، بدت خطة الإعمار وكأنها قادرة على كسب الرهان. وتبعه افتتاح مقهى بلاس دي ليتوال Place de L'Etoile مقابل البرلمان وبقي الوضع على حاله لفترة سنة ثم انطلقت الموضة. وفي فترة سنتين، انبثق أكثر من مئة مقهى ومطعم ومشرب في هذا المحيط الذي كان فيما مضى القلب النابض للمدينة والذي يبدو انه سيعود قلبها النابض. ومنذ أن أرفدت أحداث الحادي عشر من سبتمبر إلى السياحة اللبنانية زبائنها السعوديين وأبناء البلدان الخليجية الأخرى، بدت الشوارع المخصصة للمشاة في وسط المدينة في مساءات الصيف الأكثر



واجهة البرلمان بعد ترميمه.

ازدحاماً في المدينة بالاضافة الى شارع مونو بالطبع.

وهكذا فان السياح، مثلهم مثل أبناء البلد، يحتفلون بإعادة إنبعاث بيروت. ذلك أن إعادة الإعمار في وسط المدينة أو ما أنجز منها حتى الآن تحظى برضى الجميع. على الصعيد الهندسي، يبدو النجاح أمراً لا جدال فيه. وهذا النجاح نفسه عودة ظافرة للهندسة القديمة التي بدت لوهلة وكأنها مهددة بالزوال، لا بل إن الواجهات المرممة للأبنية الحجرية، والتي كانت الخطة الأولى لإعادة الإعمار ستقضي عليها، هي التي جعلت المنظر وكأنه بطاقة بريدية. والفضل يعود بالطبع لسوليدير الشركة العقارية المسؤولة عن إعادة الإعمار. لا شك أن معاييرها متفوقة على كل ما يجري في البلاد وخاصة فيما يتعلق بالتماسك العمراني. وقبل أن تحظى المشاريع برخصة البناء، كان عليها أن تحظى على موافقة الشركة. مما يعني في الوقت نفسه التوافق مع الخطة التوجيهية واحترام المعايير التقنية وأيضاً الاندماج الملائم في الموقع. وحتى لو بدت بعض المجموعات المبنية حديثاً وكأنها نسخة مقلدة عن الأصلية، فإن الانطباع الذي يتولد من رؤيتها يبعث في النفس شعوراً إيجابياً مع ذلك.

ولو نظرنا عن كثب، لتغير الانطباع. تبدو المدينة منهكة كما البلاد برمتها. وتركت عملية النهوض بها، حتى لو كانت ملموسة، الكثير من القضايا معلّقة وقدمت الكثير من الأجوبة المتسرعة. إن الرخاء الذي يتمتع به أثرياؤها بعيد عن الازدهار الذي كان نسبياً بحد ذاته، ووسم فترة ما قبل الحرب.

ولا تشبه بيروت صورتها إلاّ في الظاهر، إذ لم تستطع المدينة الناهضة أن تعود حاضرة النهضة التي كانتها. ومهما بدا كبيراً نجاح وسط المدينة ومهما بدا أمراً غير قابل للجدل، فهو لغاية الآن ليس إلا صورة مخادعة. صورة مخادعة لم تكتمل ولن تكتمل في أفضل الحالات قبل العام 2015 أي بعد ربع



تجمع سلمي في ساحة النجمة.

قرن من انتهاء الحرب.

لا شك ان المغامرة التي أقدمت عليها شركة سوليدير والتي تهدف إلى إعمار وسط المدينة ليست السبب الوحيد للمأزق الذي أوقعت فيه بيروت نفسها، ما خلا بعض الشوارع ، لكنها كانت حاسمة في حقبة ما بعد الحرب اللبنانية.

الانطلاق من الصفر

إن المنظر العام لوسط المدينة، اليوم، لا يشبه عملياً بشيء التصاميم الأولية التي قُدمت عام 1991 برعاية الرئيس رفيق الحريري. فهذه التصاميم مختلفة كلياً عن مورفولوجيا البلد في فترة ما قبل الحرب وأيضاً عن الخريطتين السابقتين اللتين اعتمدتا خلال فترتي الهدوء الطويلتين في 1977-1978 وفي 1983 فالخطة الأولى سعى إلى إعتمادها على عجل أمين البزري وهو معاون قديم لإيكو شار ووزير الأشغال العامة في عهد الرئيس الياس سركيس. تقضي الخطة، وهي من تصميم المحترف الباريسي للإعمار ، بإنشاء شركة عقارية لمعالجة المشكلة التي طرحتها وفرة الملاكين أصحاب الحق . وبما أن الحرب استؤنفت من جديد خلال صيف 1978، بقيت الخطة مجمدة. أما الخطة الثانية فاندرجت في الإطار الأوسع للترسيمة المفصلة لمنطقة بيروت العاصمة التي أعدّها فريق عمل فرنسي-لبناني

بالتعاون مع مؤسسة التنظيم المدني والعمران في منطقة «إيل دو فرانس» Ile-de-France. وقد شُرع فيها في بداية عهد الرئيس أمين الجميل ولم تنجز إلاّ في 1986 عندما استعادت الأعمال الحربية مجراها من جديد.

لكن رفيق الحريري، رجل الأعمال الشهير في العربية السعودية في السبعينات والذي كسب ثقة الملك فهد لدرجة انه أعطي الامتياز النادر بمنحه الجنسية السعودية، استبق الجميع. ومع انه من أبناء مدينة صيدا فقد أظهر اهتماماً ببيروت غداة الحصار الاسرائيلي في صيف 1982. وموَّل آنذاك عمليات ردم الشوارع قبل أن يشرف على ترميم شارع المعرض. في هذه الأثناء اطلع على الخطة التي تحضرها البعثة الفرنسية-اللبنانية . وكانت هذه الخطة جاهزة آنفاً عندما انتهت الحرب في اكتوبر/ تشرين الأول. 1990. لكن الحريري سيعود ليستبق الأمور من جديد. وبما انه كان مقرّباً من العاهل السعودي فقد أسهم في إنجاح إتفاق الطائف الذي عقد في المنتجع الصيفي للأسرة المالكة في منطقة الحجاز السعودية، وهناك اتفق النواب اللبنانيون على بروتوكول للخروج من الحرب. ما إن انتهت المواجهات والاشتباكات حتى أوكل، بصفة شخصية، إلى شركة «دار الهندسة» إعداد تصميم توجيهي وعُهد إلى هنري إده الوزير السابق في عهد فرنجية والمعاون السابق لايكوشار بأن يقوم به. لكن وجهة نظر الحريري طغت على الخطة في الكثير من جوانبها.

عرضت هذه الخطة على الجمهور عام 1991 وتميزت بضخامتها فتضمنت أبراجاً ومركزاً للتجارة العالمية وجزيرة اصطناعية في خليج سان أندريه ومجمعات بحرية وطرقات محفوفة بالأشجار تسمح بالانتقال السريع. وشملت التصاميم وسط المدينة المسمّى «ساحة البرج» قلب العاصمة النابض ثم رمز الانقسام لاحقاً، الذي سيتحول إلى جادة «أوسع من الشانزيليزيه» تؤدي إلى ساحة على شاطئ البحر وفقاً لطلب الحريري، أي تشبه باختصار دالاس- على - المتوسط لا تربطها أي علاقة بالمدينة السابقة ولا بالمدينة المجاورة. وما فاقم الوضع هو أن هذا المشروع الفرعوني يتطلب ليس فقط ردم الانقاض وإزالتها تمهيداً لبناء المدينة الجديدة بل أيضاً تدمير عدة أحياء صمدت في وجه الحرب.

وُصفَ الحريري بأنه رجل جديد أو ربما قدّم نفسه على انه كذلك. واشتهر عنه - وربما عن ظلم - بأنه لا يملك ذاكرة. كما اشتهر بأنه خبير في حقل الإعمار وتصميم المباني العامة وتنظيم المدن والمباني الحكومية في الحواضر الجديدة في الصحراء السعودية. طموحه لا يحد كثروته وتحدوه الرغبة في أن يترك بصماته على كل مشروع يقوم به. يجد لذة مريبة، على ما يبدو، في التباهي واحتقار المعارضة كيفما أتت لان كل شيء بالنسبة له، مادة تُشرى، الصمت كما الضمائر. لا شك بأن شخصية متعهد المشروع نفسه أذكت السجال الدائر لا سيما أن الحريري يتجاوز صفة القائم بمشروع شخصي الذي يطرح إشكالية بحد ذاته ليعلن نفسه مسؤولاً عن مشروع عام فارضاً قناعاته على الحكومة التي ترأسها في

خريف 1992، مستغلاً وجوده على رأس الحكومة لخصخصة كل القطاعات المنتجة في الوطن.

وفي غضون ذلك، أتاحت ندوتان جرى تنظيمهما، الأولى في MIT* في بوسطن والثانية في معهد العالم العربي في باريس، أول تبادل لوجهات النظر بين مؤيدي المشروع ومعارضيه. في بيروت، كان التعبير عن الاحتجاج على المشروع أكثر صعوبة لان الحكم المسبق الذي اتخذه أرباب الصحافة كان مشجعاً للحريري ولم يتعرّض المشروع إلا لبعض الانتقادات الهامشية. ومع ذلك، فإن حلقة المعارضين، وإن لم تستطع أن تتوسّع، إلاّ أنها تمكنت من تعهد السجال الدائر حيث تجلى خصوصاً المهندسون عاصم سلام الذي قام ببعض الانجازات الجميلة انطلاقاً من الستينات وجاد تابت المهندس الذي صمّم فندق السان - جورج وعدة مبانٍ أخرى صارت رمزاً لبيروت قبل الحرب، وشابان أنهيا دراستهما في الولايات المتحدة هما هاشم سركيس وأسامة قباني اللذان بدوا ناشطين على هذا الصعيد. يُضاف اليهم الاقتصادي جورج قرم وعالم الاجتماع نبيل بيهم والروائي الياس خوري رئيس التحرير الجديد للملحق الثقافي للنهار، الملحق الذي أصبح المنصة الرئيسية للمعارضة فيما آثرت الجريدة - الأم البقاء على الحياد.

وتصاعدت وتيرة الانتقادات الموجهة للمشروع، مرة أولى عندما مهّد العمال محيط ساحة الشهداء في 1992 وما بقي من حي الدعارة القديم ، الذي شهد اول مرحلة هدم له عام1989خلال احدى فترات الهدوء ، وكذلك المباني المجاورة في الجهة الشرقية من الساحة ومن بينها المبنى القديم للشرطة وهو تحفة في الهندسة العثمانية التي كان يمكن ترميمها كلياً. وعلى الجهة الغربية، لم يبقَ إلاّ مبنيان. أما الجهة الجنوبية من الساحة فاختفت بكل بساطة، لم تهدم المباني فقط بل امحت حدود الساحة لتشرف على شبكة الطرقات المتجهة صعداً تمهيداً لتحويلها إلى جادة. وأخيراً، في الجهة الشمالية، هُدم مبنى سينما الريفولي الذي كان يحجب المنظر المطل على البحر بعد ان كان حارساً للساحة وعنوانا لكل بطاقات البريد. هُدم بحجة أنه يحول دون رؤية المنتجع البحري الموجود في الخطة الطامحة إلى خلق شانزيليزيه جديدة.

لكأن مبنى سينما الريفولي أراد أن يضفي طابعاً رومنطيقياً مصغراً على عالم بيروت القديم فصمد ثلاث مرات قبل أن ينجح خبراء التفجير في إذالته. لا شك أن المقاومة التي أبداها الرمز أمام مفجّريه حثت معارضي المشروع على المطالبة بدمه. بالمقارنة أثار تدمير الأسواق وحي الباشورة، الذي كان بالامكان إنقاذه، ضجة أقل إلى أن تعززت حملة المعارضة من جديد عندما اجتاحت الجرافات وادي أبو جميل، الحي اليهودي القديم الذي، بالرغم من قدمه وازدحامه باللاجئين القادمين من الجنوب،

* معهد ماساشوستس للدراسات التكنولوجية.

كشف عن كنوز هندسية وتماسك عمراني جميل. وفي هذه القضية، بدا أن الأمر الطاغي لا يتعلق بالرغبة في هدم القديم لبناء الجديد بل بالرغبة من التخلص من المنازل المصادرة عنوة التي أصبحت أشبه بهبة سياسية أو بامتيازات سياسية. فالتعويضات التي مُنحت للمالكين الوهميين لكن «الممثلين» جيداً من قبل حركة أمل وحزب الله، وصلت إلى حدّ بحيث أطلق على وادي أبو جميل اسم وادي الذهب. أما مالكو الحقوق الفعليون فقدمت لهم تعويضات أقل في مجمل أنحاء وسط المدينة .

وكانت فكرة إيجاد الشركة العقارية مبررة نظراً لتفتّت بنية الملكية العقارية في وسط المدينة فهناك الأوقاف والملكيات الصغيرة التي كثر عدد وراثها إلى ما لا نهاية. والذي يزيد الأمر تعقيداً هو عدد المالكين عن طريق وضع اليد، إن هذا الوضع سهّل عملية تنفيذ المشروع وإن احتاج الأمر إلى معالجة دقيقة عبر إنشاء سلسلة من الشركات العقارية حيث الملكية مجزأة ولكن، ولم تنطبق القاعدة على وسط المدينة كله الذي تحوّل إلى ما يشبه الحصانة السياسية. على أية حال، إن إنشاء شركة عقارية وحيدة سيجري تفسيره على انه نوع من الاستملاك، سيما وان غياب الآليات المالية أو المصرفية التي تساعد على إعادة الإعمار، يحول دون أن يفكر معظم مالكي الحقوق في إقامة دعاوى الاستئناف التي يتيحها لهم القانون أمام الهيئات القضائية، ثم إن تقييم الحقوق العقارية أو الايجارية تمهيداً للتعويض (من خلال توزيع أسهم سوليدير) ستنجم عنه اعتراضات كثيرة متجاوزة إطار السجال المنطقي باتجاه الموقف السياسي.

يشير اتساع مشروع إعادة الاعمار، في شكله الأولي، إلى طموح متعهده لان يصنع من منطقة بيروت التجارية مركزاً للأعمال أبعاده شرق أوسطية. وفي الواقع، يبدو بديهياً أن حاجات لبنان بالذات لن تكفي لاثارة طلب متناسب مع العرض الذي تقتضيه الخطة لمساحات المكاتب، والذي يجب والحالة هذه الاعتماد على تمركز عدة شركات أجنبية قررت أن تجعل من لبنان مقراً عاماً إقليمياً. يبدو مثل هذا الرهان متفائلاً بغياب كل دراسة عن احتياجات السوق مهما يكن قليلاً الوثوق بها. وخارج الدراسة التي أوكلها رفيق الحريري لدار الهندسة والتي تعهدت أن تمولها بكتيل Bechtel، الشركة الأميركية العملاقة للمباني والأشغال العامة، التي رفعت لها شعارًا عنوانه: «لبنان 2000»، لم يجرِ اقتراح أي خطة مسبقة. ومن دون تنبوء مستقبلي للطلب، بدا المشروع خاضعاً ببساطة لمنطق زيادة العرض إلى حدّه الأقصى على أمل، ولا شيء غير الأمل، بأن يعقب العرض طلب متزايد حين تتوفر الظروف الملائمة.

لكن الغاية من المشروع تبقى قابلة للجدل حتى لو نجح هذا المنطق . لن يني التضخم الذي سيشهده وسط المدينة من انتاج المزيد من النظام المركزي الذي جسّده تضخم الرأس البيروتي قبل الحرب على حساب جسم الوطن، لا سيما أن مشروع الحريري، لم يكن يندرج، خلافاً، لخطة 1986،

في أي خطة تنظيمية للبلاد ولا في خطة تنظيمية للعاصمة.

ونتيجة لتهديم الأحياء القديمة المركزية وزوال الأراضي العقارية وارتفاع الضريبة على حركة العمران والاستثمار عن طريق الشركات الأجنبية الكبيرة، فإن الحكم على النسيج العمراني بالزوال سيبرز في السجال القائم الذي يؤكد أن إعادة إعمار بيروت القديمة يجري على حساب أبناء بيروت. أظهرت دفعة أولى من الحجج أن ضيق المحورين الشرقي والغربي داخل وسط المدينة لصالح المحورين الجنوبي - الشمالي سيجعل صعباً إصلاح الدور القديم الذي اضطلعت به منطقة وسط المدينة كمكان اختلاط بين الطوائف سيما وان تحويل ساحة الشهداء، وهي مكان التلاقي بامتياز، إلى قسم من الطريق الذي يخترق المحور الجنوبي-الشمالي، يبدو وكأنه معد لإقامة حدود دائمة بين الأحياء السكنية المسلمة والمسيحية. ثم إن المدينة الجديدة تبدو وكأن عليها أن تبنى بمعزل عن أطرافها الدائمين الذين حيّدتهم الحرب أو أقتلعتهم من جذورهم. وكمثل المهن المدينية الصغيرة المرشحة للزوال، حلّ السكان الميسورون لا بل الأثرياء المنتمون إلى البورجوازيين الكبار والمهاجرين الأجانب مكان الطبقات الاجتماعية التي سكنت وسط المدينة وظلّت فيها طيلة السنوات الأولى من الحرب: كبقايا العائلات القديمة التي لازمت مساكنها الموروثة العتيقة والبورجوازية الوسطى والصغيرة التي سكنت المدينة منذ زمن طويل والتجار الصغار والحرفيين الذي يحصلون على ثمرة عملهم في ملكهم الخاص، ولا ننسى السكان الرواد الكوسموبوليتين الذين يجتذبهم المرفأ وتؤويهم النزل واللوكندات. أي باختصار كل ما كان يجعل من الوسط القديم نسخة مصغرة عن البلاد لا بل عن الحوض الشرقي للبحر المتوسط. إن المعالم التي أزيلت حوّلت وسط المدينة الجديد إلى جزيرة خالية من العقلانية ومفصولة عن سائر العاصمة.

يعبر مشروع الحريري عن رغبة دفينة بالانطلاق من الصفر ويحاول أن يضفي على المدينة وجهاً آخر يخالف المورفولوجيا المعروفة للمدينة لأهداف اقتصادية بحتة ناتجة عن الاستثمار الخارجي. يرتدي مشروع الحريري طابع مشروع مدينة جديدة لا تربطها بأصلها القديم أية علاقة، أي بكلام آخر مدينة بدون ذاكرة. إنها قطيعة مع الذاكرة الهندسية أولاً، ذاكرة بيروت العثمانية والفرنسية التي تهيمن عليها الحجارة الرملية وألوان الطبيعة الخضراء حتى لو شحبت ألوانها أو دكنت بفعل سنوات الإهمال والتلوث. مع الذاكرة الاجتماعية من خلال إفراغ المتخيل المركب للمدينة، المتخيل الشعبي أو الشعبوي حتى وأيضاً متخيل جمهورية الآداب التي تميزب بها بيروت منذ الخمسينات. مع المتخيل الوطني قيد التكون والذي كان سيتخطى ربما المتخيلات الطائفية. والى ذلك نضيف ذاكرة القطيعة أي الحرب. ونظراً لكونه مساحة دائمة للمواجهة، يستدعي وسط المدينة تذكير الناس بمرحلة ما قبل الحرب الأهلية كما يتذكر المريض الزمن الذي كان يتمتع فيه بصحة جيدة. حتى يأخذوا العبر ويتجنبوا

الوقوع في المحظور مرة جديدة.

فائض القيمة المعماري

لحسن الحظ، لن يُعتمد منطق «اللوح المصقول» حتى النهاية، بالرغم من اعتماد البرلمان الخريطة التفصيلية منذ العام 1991 والموافقة على إنشاء الشركة العقارية. لا شك أن السجال تفاقم. وفي ظل غياب أهداف اقتصادية واضحة، قُدمت تفسيرات عدة لدوافع الحريري. فالبعض رأى فيه مشروعاً للمضاربة فقط واعتبره البعض الآخر رغبة في أسلمة العاصمة أو تمهيداً، عبر الخيار السياسي، لتطبيع العلاقات بين اسرائيل والدول العربية. وهنا تجاوزت التنديدات حلقات المتخصصين لتقفز إلى دائرة السجال السياسي. لكن الصحافة التي تعرض للهجمات التي يشنها رجال السياسة بقيت متحفظة بالنسبة للإنتقادات التي وجهها المهندسون المعماريون ومن بينهم واضع الخطة نفسه المهندس هنري اده الذي تخاصم في النهاية مع موكله. وتأكيداً للإستياء الذي أبداه المهندسون، انتُخب عاصم سلام وهو الوجه الأساسي المعارض لمشروع سوليدير رئيساً لنقابة المهندسين عام 1996 متفوقاً على المرشح الذي يدعمه الحريري.

وأدت هذه الانتقادات إلى تغير أساسي. وسيكون العامل الاقتصادي أكثر حسماً وسيحمل سوليدير، بعد إنشائها الرسمي عام 1994 وتسلم ناصر شماع إدارتها، على الحدّ من طموحات الحريري الأولية. للوهلة الأولى أظهرت عملية حساب أجريت للمساحات التي يُفترض بناؤها أن الشركة لن تجني شيئاً من هدم المباني التي يرقى عهدها إلى 1920 و1930 في شارعي أللنبي وفوش وانه من الأفضل ترميمها. وأدى هذا التأخير غير المتوقع في وتيرة العمل إلى إعادة نظر متأنية. ثم إن أعمال التنقيب الملحة التي اقتنع متعهدو مشروع سوليدير بضرورة إجرائها عقب مداولات مستفيضة واكبتها جهود مبذولة من منظمة الأونيسكوأرجأت في الواقع البدء بأعمال البناء لثلاثة أشهر على ألأقل.

الواقع هو أن هذه الفرصة أتاحت في جميع الأحوال لسوليدير بأن تكتشف مدى علاقة المشروع الذي تقوم به بالشأن الثقافي. وفيما كانت نتائج الترميم التي بوشر بها في قطاع فوش – أللنبي تدفع سوليدير للإهتمام بفائض القيمة الذي يمكن أن تنتجه الهندسة التقليدية المعتمدة فقط على الحجر ما أن تجري عصرنة تنظيمها الداخلي، كانت أعمال الحفريات تكشف عن أثار قديمة عُرضت لوقت طويل أمام الرأي العام مما رسّخ الفكرة بالحفاظ على السور الفينيقي الذي تمخضت عنه التنقيبات في هندسة الأسواق العتيدة وكذلك بالمبادرة إلى القيام بمشروع «حديقة السماح» بالقرب من آثار الطريق الرومانية بين ثلاثة أنصاب دينية أحدث عهداً. حتى «الشانزيليزيه» التي تصورها الحريري يمكن العدول عنها بسبب هذا الطوطم التاريخي الجديد لان آثار التل والخاصرة الجنوبية للبرج منذورة لأن

تضاف وتبقى إلاّ إذا أنشئت الجادة الموازية لهذا المكان. آنذاك، شرعت سوليدير بترويج صورتها الجديدة وفقاً لفكرة الاستمرارية التاريخية بدل القطيعة التي أعلنتها بترويج الخريطة التفصيلية الأولى. وسيكون شعارها التجاري «مدينة عريقة للمستقبل» الذي صممه المبدعون البيروتيون في وكالة Saatchi et Saatchi وتسلحت به الشركة عندما تأسست رسمياً عام 1994. ولكي تروج الشركة لانجازاتها، أنشئ سوق البرغوث في المنطقة المرممة. وبالروحية نفسها، اظهرت الشركة انفتاحاً على المنتقدين. وانضم أسامة قباني أحد الشبان المعارضين للمشروع الأولي إلى فريق العمل. ومن بين المهام التي قام بها هي انه كان صلة الوصل اللاشكلية مع عاصم سلام خصوصاً بعد وصول هذا الأخير إلى منصب رئاسة نقابة المهندسين. كذلك ستستدعي الشركة لاحقاً جاد تابت بصفة مستشار في الخطة التنظيمية للأسواق – من دون أن يعمد إلى تنفيذ إقتراحاته مع انه تمت الموافقة عليها.

ومنذ ذلك الحين، تُركت المشاريع الفرعونية في البدايات وجرى التخلي عن الجزيرة الاصطناعية – بعد أن اكتشف ان الأمان فيها مهدد بسبب وجود هوّة تحت البحر، وأستبدلت بعملية ردم للبحر رغم الارتفاع الشديد في كلفتها فأفادت منه سوليدير لكي توسع ساحة الردم. كما تمّ التخلي عن فكرة إنشاء مركز تجاري عالمي وعن الأبراج التي اعتبرت باهظة الكلفة وألغيت من محيط وسط المدينة القديم. وما عدا برج المرّ الشهير الذي كان أحد المعالم الأكثر رمزية للحرب والمعد لإعادة بنائه استبعدت فكرة إنشاء ناطحات السحاب إلى حدود الردم البحري ولذا أرجئ تشييدها إلى مرحلة لاحقة. من جهة أخرى، أرجئ الحديث عن الطريق السريعة وعن الممرات، داخل محيط سوليدير. لكن ساحة الشهداء ظلت مرشحة لتصبح جادة مفتوحة على البحر.

وسيكون هذا التحول حاسماً في انخفاض حدّة السجال. لكن الزمن هو الذي حسم الجدل القائم. ما ان أنجزت أعمال البنى التحتية عام 1998 حتى افتتح وسط المدينة أمام عامة الناس. وكانت مشاركة الناس في إعادة تأهيل الوسط التجاري شكلاً من أشكال السياحة الداخلية نصفها عفوي ونصفها بإيعاز من سوليدير التي درجت على تنظيم أحداث موسمية لكي تعوّد النفوس على ارتياد تلك الأمكنة. وستزداد الأهمية التي لعبها عامل الوقت مع توطيد سلطة الرئيس الجديد إميل لحود الذي انطلق في حملة مناهضة للحريري وسعى منذ 1999 لوضع العصي في دواليب سوليدير. وكان أحد أول قرارات وزير المالية الجديد، جورج قرم وقف الاعتمادات التي كانت تخصصها وزارة المال في محيط سوليدير وفي الانشاءات الأخرى التابعة للدولة. وحُكم على وسط المدينة منذ ذلك الحين بأن يبقى مساحة غامضة فبدت سوليدير وكأنها الشر الضروري الذي كرسه الوقت.

وأدى الإبطاء من نشاط سوليدير إلى انتكاسة عنيفة لمجريات أعمالها ثم إلى صرف موظفيها، ما حوّل وسط المدينة تدريجاً إلى فسحة للنزهة والتسلية. وبطيئة كانت أيضاً عودة تموضع الأعمال

التجارية إذ بقيت مباني المكاتب فارغة في أغلبيتها والأشغال في ورشة الأسواق مجمّدة . في بداية العام 2000، شهدت حركة الأعمال التجارية والمطاعم التي تمركزت في امكنة مغايرة لتلك التي خططت لها سوليدير، تسارعاً. وظلت نسبة شغل الطوابق غير الأرضية متدنية جداً.

جزيرة الترف الصغيرة

إن إرتفاع عدد المشاة على الأرصفة في منطقة سوليدير لا يعفي أصحاب ورشة الإعمار من المسؤولية. لم يبق في أذهان الناس من الخطة الأولية للإعمار إلاّ جريمة هدم الأسواق العائدة إلى القرن التاسع عشر، مع انه كان بالامكان إصلاحها، ولم يُبن شيء مكانها بالرغم من اعتماد خطة خاصة بها أعاد مراجعة نسختها الأخيرة المهندس رافاييل مونيو Rafael Moneo، وبحي الباشورة الذي مُهّدت مساحته للتحول إلى عدة مواقف للسيارات ريثما ينشأ المركز التجاري الذي قيل انه سيُستدعى من أجله جان نوفيل Jean Nouvel، وأيضاً بحي وادي أبو جميل حيث يزعم بعض المقربين من شركة سوليدير بأنه سيعاد بناء منازل مشابهة لتلك التي هدمت، يا لسخرية القدر القاسية! لكن أخطر ما يحدث للمدينة ما آلت إليه حال ساحة الشهداء التي غاب عنها تمثالها الشهير بالرغم من أنه جرى ترميمه منذ وقت طويل، وبقي مكانه فارغاً إلاّ من مبنيين تشغل أحدهما شركة تأمين والثاني المخزن الكبير «فيرجين» الذي يدلّ التردد عليه إلى مدى عقم الأمكنة المجاورة. وفي الطرف الشمالي المواجه لسينما الريفولي القديمة، بنت النهار مبناها الجديد، من دون أن يحذو أحد حذوها.

وبدل أن تعود ساحة البرج كما كانت عليه سابقاً صلة الوصل بين أبناء المدينة، تبدو ساحته المفرغة دوماً وكأنها في انقطاع عن الاستمرارية البشرية الموجودة في باقي المدينة وتسهم في جعل» البلد» أشبه ببلدة وان تكن مترفة. هذا الانطباع بالترف المنفصل عن جواره يزيد منه إنجاز المجموعة السكنية الكبيرة التي أطلق عليها «قرية الصيفي» وهنا، في الموقع القديم لحي النجارين، بنيت جزيرة صغيرة باذخة تحوي بعض الدارات التي تحاكي هندستها ما جرى هدمه. وبالاضافة إلى ذلك زوّدت بنظام أمان ذاتي وقاعات انتظار لسائقي السيارات. كما يزيد قطاع أللنبي - فوش حيث تمركزت تجارة السلع النفيسة الانطباع بهذه القطيعة مع الجوار. لا شك إن إنشاء مقر الأمم المتحدة على تخوم ساحة رياض الصلح يجتذب بانتظام المتظاهرين الذين يأتون للتعبير عن احتجاجهم على الحرب في العراق أو الهجمات التي تشنها اسرائيل على الأراضي الفلسطينية المستقلة ذاتياً. كذلك أخذت الفئات الشعبية تؤم مربع المشاة حول ساحة النجمة بعد أن بدا وكأنه يقفل حدوده أمام الناس الأقل يسراً. لكن تمركز صناعة الترفيه وسهرات مواسم الصيف ومجاورة تجارة الترف تجعل من هذا الشارع قبلة أنظار السياح الأثرياء الوافدين من شبه الجزيرة العربية .



نحو ساحة النجمة.

إن تكثيف الجهود المبذولة في سبيل إعادة اعمار وسط المدينة كشف، عبر منطق مضاد، الاهمال الذي تغرق فيه الأحياء الأخرى في بيروت وضواحيها بما فيها تلك التي دمّرتها الحرب كطريق الشام أو خط الجبهة بين الشياح وعين الرمانة. بدت التعويضات والاعانات العامة في هذا المجال بطيئة ودون الحدّ الأدنى مبقية على آثار الحرب ظاهرة. كان عظيماً ذلك التشويه الهندسي الجديد الذي أصاب الأبنية وهذا الهدم العشوائي للكثير من المنازل التي رأى فيها جورج شحاده الحديد المطرّز بالياسمين. وبالرغم من تطور الحس العمراني بين المواطنين، فإن الجمهورية الثانية في لبنان بدت متقاعسة مثلها مثل الجمهورية الأولى. جرى تصنيف للمنازل القديمة ثم صرف النظر عن هذا وسمح لأصحاب الأبنية بهدمها في فترة لاحقة. أما المنازل الأخرى فقد أبقي عليها بهدف استخدامها لغايات هندسية فقط كالمطاعم. ومنازل أخرى كثيرة بقيت تنتظر حكم الاستئناف. كما لم تظهر الدولة اهتماماً بالحد من انهيار المباني التي لا تتمتع بمواصفات عصرية أو فنية. أخذ بعض المالكين على عاتقهم تلقائياً بعد انتهاء الحرب، البدء بأعمال التجصيص والدهان الأبيض وكأنهم يريدون إبعاد شر السنوات السوداء غافلين عن أهمية الألوان المغراء والزهرية التي نصحت باعتمادها جمعية خاصة تعنى بالأمور الفنية في مجال الهندسة المعمارية. وفي إطار التهاون الرسمي هذا، شوهت الهندسة المعاصرة الأمكنة باعتمادها «أسلوباً وطنياً» مدعياً بالرغم من مساعي المهندسين الشبان لتلافي نتائجه. وتبدو المحاولة الأكبر تجديداً تلك التي قام بها برنار خوري، أحد المهندسين القلائل الذين اقترحوا تأملاً حقيقياً في معنى الحرب ورمزيتها وجغرافيتها من خلال تصميمه للمقبرة الجماعية B018 المخصصة لضحايا الحرب المجهولين أو لبرج الحراسة الذي يضم مطعماً، على خط التماس.

وفي ما يتعدى التشويه الهندسي، أعطيت الأولوية لوسط المدينة فترجمت على الأرض تضخماً جديداً لبيروت بسبب انعدام وجود خطة تنظيمية للبلاد فالضواحي - الأكورديون، تميل إلى الانغلاق

على نفسها، وجونيه المزدهرة خلال الحرب أصبحت تدريجياً مدينة – منامة اذ تبقى المدينة التي خطط لها التصاميم خلال الحرب على ساحل ضبية، المهندس ريكاردو بوفيل Ricardo Bofill، علامة استفهام كبيرة على جبين البلاد. أدت الأعمال الهائلة لردم البحر إلى قيام مجمع بحري فخم، لكنه يفتقر إلى المساحات الخضراء. أما مشروع لينور Linord الذي يفترض به أن يتيح معالجة المنفذ الشمالي لبيروت من خلال عمليات ردم حول مستودع نفايات برج حمود، فبقي دون تنفيذ. وفي الاتجاه الآخر، أثار حزام البؤس المتجمع في الضاحية الجنوبية، معقل حزب الله، تضخماً جديداً على مداخل بيروت وتصعب معالجته فإلى جانب أزمة المال العام تصطدم كل خطة يقترحها مشروع إليسار بحواجز سياسية.

فرصة ما بعد الحرب الضائعة

بعد أن انقضت ثلاث سنوات أو أربع، لم تتوقف الخزينة العامة ولا المواطن العادي عن الشعور بالخيبة من جراء الشلل الحاصل في موازنة الدولة بسبب الأزمة الاقتصادية المتفاقمة نتيجة عدم توفّر المال اللازم لإنفاقه على أعمال البنى التحتية التي تستدعيها عملية إنهاض البلاد من كبوتها بعد الحرب. في الواقع تفاقمت الأزمة منذ عام 1985–1986 – وحتى اليوم وتركت المعالجات الاقتصادية انطباعاً لدى المواطن بأن الدولة تحاول التصدي لآثار الحرب السلبية، واتخذت شكل انخفاض رهيب في قيمة العملة الوطنية وتأقلم المجتمع مع ذلك على حساب دولرة الاقتصاد. وعلى الرغم من توقف الأعمال الحربية فان الدولة لم تستطع احتواء تدني سعر صرف الليرة ولا استيعاب التضخم الحاصل. سقطت أول حكومة بعد الحرب برئاسة عمر كرامي بفعل سلسلة من الاضطرابات في بيروت . وبعد حكومة انتقالية أوكلت رئاستها إلى رشيد الصلح ومررت صفقة الانتخابات النيابية، استدعي الحريري ليترأس الحكومة في خريف 1992 فانكب تلقائياً على تنظيم مقرّ أمكنة رئاسة الحكومة قبل تشكيل الحكومة نفسها، مفترضاً انه قادر على المراهنة على عامل الوقت، ومفضلاً أن يعد الناس بربيع مزدهر لن يأتي في أوانه في الموعد المحدد ولا بعده. وفي غضون ذلك، أعاد تعيينه لرئاسة الحكومة، ثقة الناس به وإيمانهم بقدرته على الحد من تدهور الليرة. ربط دفاعه عن العملة اللبنانية بالدفاع عن أبهته بالذات، ساعياً لإعادة الاعتبار لها بحيث انخفض سعر الدولار من الفي ليرة إلى ألف وخمسمئة. سعى إلى تثبيت سعر صرف الليرة مهما كلّف الأمر حتى لو بدا محتملاً استنفاذ احتياط مصرف لبنان والزيادة من تفاقم دين الدولة حيال المصارف من خلال إصدار سندات خزينة بفائدة مرتفعة جداً.

ولم تصل المساعدات التي وعدت بها الدول العربية الثرية مرات عدة إلاّ بالتقتير، وتضخم الدين نتيجة الورش الكبيرة الهادفة إلى إعادة إعمار البنى التحتية – التي خضعت هي نفسها لجشع وابتزاز

أطراف اللعبة السياسية في لبنان والسوريين على حد سواء. منذ 1996، استطاعت الخزينة أن تظل واقفة على قدميها بفضل المساعدات الخارجية والضرائب المرتفعة. وللحال، تركت الأزمة آثارها السلبية على حياة المواطنين اليومية. وعلى الرغم من أزمة السيولة النقدية فإن المشاريع العمرانية لم تتوقف ولم يتوقف عمل المقاولين.

اما التطورات المجهولة على الصعيد الإقليمي فانعكست باستمرار على الوضع في لبنان، ولم تتوقف عن زرع الشك في النفوس. في تموز 1993 شنّت حكومة اسحاق رابين في اسرائيل غارة جوية على جنوب لبنان، دمّرت البنى التحتية التي كانت لا تزال سليمة. وبعد اغتيال رابين، قامت اسرائيل بحملة قصف جديدة عنيفة في نيسان/ أبريل 1996، مسبّبة في تهجير السكان الجنوبيين باتجاه بيروت. وشكلت عودة اليمين إلى السلطة في اسرائيل، بعد شهر من ذلك التاريخ، استبعاداً لكل حلّ قائم على التفاوض في الشرق الأوسط، فيما بدأت المقاومة بقيادة حزب الله وحده ضد الاحتلال الاسرائيلي لجزء من الجنوب، بالاتفاق مع سوريا، تفعل فعلها. ولاحقاً، أغار الطيران الاسرائيلي لمرتين على ضواحي بيروت وقصف محطات الكهرباء في حزيران/ يونيو 1999 وشباط/ فبراير 2000. لكن الانسحاب الاسرائيلي عام 2000 لم يضع حداً حاسماً للشكوك بخصوص نوايا اسرائيل. في آب 2003، اخترقت طائرات اسرائيلية جدار الصوت على ارتفاع منخفض فوق بيروت مسببة برحيل بعض السياح عن لبنان.

وعلى صعيد السياسة الداخلية، لا يستطيع السياسيون الموجودون في الحكم أن يدعوا لأنفسهم شرعية حقيقية مكتفين بدعم سوريا لهم غافلين عن الحاجات الضرورية التي تقتضيها المصالحة الوطنية ومسقطين من حسابهم مقتضيات العمل الوطني المشترك. وللحال، أخذت الممارسات الطائفية إلى الظهور أكثر من أي مرحلة بلغتها في زمن السلم. وبعد الانتخابات المعلّبة سلفاً في صيف 1992 والتي جرت، بتفاصيلها الدقيقة، بإدارة الحاكم السوري المقيم في عنجر في البقاع، ساد شعور من الاحباط بين المسيحيين وأيقنوا انهم يعاملون معاملة المنهزم في الحرب الأهلية. بالإضافة إلى نفي الجنرال عون، تعرّض سمير جعجع للإعتقال التعسفي وهو زعيم الميليشيا المسيحية في القوات اللبنانية، فازدات الأمور تفاقماً، لا سيما أن سمير جعجع كان زعيم الحرب الوحيد الذي اعتقل فيما بقي الآخرون يحتلون المناصب الوزارية أو يشغلون المراكز الرئيسية في البلاد.

أما النتيجة الاقتصادية المترتبة عن ذلك فكانت أن القسم الأكبر من الرساميل الاغترابية المسيحية لن يعاد توظيفها في الوطن.

وشهدت الحياة اليومية انعدام المسؤولية نفسه الموجود في الحياة السياسية. وفيما بدت فترة ما بعد الحرب مسالمة أكثر مما توقع الآخرون، وفيما لم تشهد إلاّ القليل من المشاحنات أو اللجوء إلى العنف في

الشارع، يواصل رجال الشرطة والجنود ظهورهم وهم يحملون أسلحتهم الفردية، حتى لو كان الأمر يتعلق بحفلة روك. تضاعفت تجاوزات الشرطة وانتهاكات حقوق الإنسان فيما يتعلق بالجنح وجرائم الحق العام، وفيما يتعلق أيضاً بالجرائم السياسية. والأخطر من ذلك كان ربما ذلك الشعور بأن بعض العناصر المدنية والعسكرية المرتبطين بأجهزة السلطة هم فوق القانون ويحتقرون المواطنين صراحة. والدليل على ذلك ما نشهده يومياً بهذه المواكب الحافلة التي ترافق المسؤولين وتصرفات حراسهم الشخصيين. كذلك نشهده من خلال الاتجار بالنفوذ والابتزاز والزبائنية التي تحولت بفعل العادات المكتسبة في الحرب إلى ممارسة مافياوية منظمة.

إن اقتران ممارسات زعماء الحرب بميل الحريري الواضح لاخضاع أي كان للإبتزاز المالي سواء كان صحافياً أم سياسياً وعجرفة أجهزة الاستخبارات التي يتضاعف عددها باطراد ولجوء رجالها إلى الدسائس وحبك المؤامرات.. كل ذلك لا يحصل من دون أن يؤدي إلى الإخلال بالنظام العام: يسهل كسب المال عن طريق الابتزاز كما يسهل جمعه لحديثي النعمة وتجار الحرب أو المسؤولين عن الميليشيات الذين يشكلون ما أسماه دومينيك شوفالييه «نبلاء الأمبراطورية». وإذا اقتضت الحاجة، يأتي الضوء الأخضر من الحاكم السوري في عنجر أو في دمشق. فبوجود ثلاثين ألف من جنودها في لبنان وبوجود جحافل مخابراتها الذين يملكون واجهة على الشارع في كل انحاء لبنان بما في ذلك بيروت، ولا تحتاج سوريا على أية حال لإعالتهم لانهم يعتاشون من لبنان. بوجود كل هذه المعطيات، توطد سوريا رمز البعث الحقيقي الأمن في لبنان من خلال نظام وصاية أكثر منه احتلالاً، نظام وصاية مافيوي – على جانبي الحدود مع لبنان.

ولم يغير مجيء العماد إميل لحود خلفاً للرئيس الياس الهراوي شيئاً في مجريات الأحداث إلاّ في بعض التوازنات الداخلية لهذا النظام. إن خطاب القسم الذي ألقاه الرئيس لحود يشبه خطاب الراهب الواعظ سافونارولا Savonarola لكن لا الفساد توقف ولا محاباة الأقارب. وتحول الاصلاح الإداري إلى تطهير موجه حصراً ضد الحريري الذي أقصي عن رئاسة الحكومة ثم عاد إليها بعد فوزه الساحق في انتخابات 2000 في بيروت. وخلال هذه الانتخابات، رشح الرئيس ابنه الذي فاز بمقعد نيابي عن دائرة المتن، ثم عيّن صهره وزيراً للداخلية – خلفاً لأبيه – وأخاه رئيساً لمحكمة التمييز. وفي غضون ذلك، تطارد شبكة أجهزة استخبارات منظمة رجال الصحافة وتمارس الابتزاز والتهديد على آخرين وتتدخل في شؤون المواطنين الخاصة مواصلة إدارتها للزبائنية وللعلاقات بين الشركاء في الحكم.

وأمام هذه الكارثة الاخلاقية التي شهدتها فترة ما بعد الحرب، وقبل كونها كارثة اقتصادية، يظهر ما تبقى من المجتمع المدني مقاومة صلبة للضغوط التي تمارس عليه. في البداية، أبدت المنظمات الأهلية



الغران تياتر أو التياترو الكبير.

تماسكاً صلباً ووقفت نقابة المحامين في وجه الانتهاكات التي تمارسها دولة القانون وتضاعفت ردات الفعل. وبالرغم من هذه النزعة الريفية التي اجتاحت المدينة خلال الأعوام الأخيرة من الحرب، أعاد مسرح بيروت فتح أبوابه بفضل إدارته الجديدة عام 1992 وظل يقاوم الظروف صامداً لست سنوات بعد أن شهد عروض مسرحيات هامة كعروض الفرق التونسية بإدارة فاضل الجعيبي وتوفيق الجبالي ومسرحية «الخادمتان» للكاتب الفرنسي جان جينيه التي أخرجها العراقي جواد الأسدي وعودة روجيه عساف إلى أحضان دراماتورجيا كلاسيكية لكن خلاقة دوما، ولا ننسى إحياء الذكرى الخمسين لنكبة فلسطين المثيرة للبلبلة - والسبب دعوة بضعة يهود عرب إليها - وإطلاق حملة دعم لتنظيم الانتخابات البلدية. أما مسرح المدينة الواقع في سينما كليمنصو القديمة، فانطلق من جهته من نقطة الصفر، بفضل لباقة وكياسة الممثلة الكبيرة نضال الأشقر. وقد عرضت فيه المسرحيتان الأخيرتان للكاتب السوري سعد الله ونوّس وعدة حفلات موسيقية ذات مستوى رفيع. لكن مسرح بيروت ومسرح المدينة سيلهثان تعباً إثر البحث عن ممولين. ومع أن أحد مصارف الحريري قدّم الدعم لمسرح المدينة، إلا انه حُكم عليه مع ذلك بالعمل وفق إيقاع بطيء. وفي غضون ذلك، تواصل الجامعات إعداد الممثلين بوفرة لكن لن يلبثوا أن يدركوا أن عليهم الاكتفاء بالظهور في مسلسلات تنتجها مختلف التلفزيونات العربية. بَيْدَ أن الابداع الروائي يبدو أكثر انتظاماً مع أن النتائج التي ترتبت عن هذا الفن

الأدبي أقل مشهدية وتأثيراً. ويظهر أن النتيجة الايجابية للحرب هي إنتاجها جيلاً كبيراً من الروائيين فرضوا أنفسهم نخبة لما تنتجه الرواية العربية المعاصرة. وإذا كان بعضهم يقيم في باريس أو في لندن، وإذا كان جبور الدويهي يقيم في بلدته فإن الروائيين الآخرين أمثال الياس خوري وحسن داوود ورشيد الضعيف ومحمد أبو سمرا وربيع جابر يقيمون في بيروت.

كذلك يواصل أدباء من بلدان عربية أخرى نشر كتبهم من بيروت التي ظلت محتفظة بهذا الدور طيلة الحرب، حتى لو ظهر في لندن وتونس والرباط والخليج ناشطون آخرون في مضمار النشر، والمفارقة هي أنه مع عودة السلم، بدأ النشر في لبنان يتعرّض لمعاناة حقيقية. وبدأت فترة من الرقابة الصارمة على رجال القلم لم تشهدها البلاد منذ سابقة صادق جلال العظم عام 1969، إذ تدخلت الرقابة مراراً بطلب من السلطات الدينية السنية تارة لحظر الديوان الايروسي لعبده وازن «حديقة الحواس» وتارة أخرى لمنع كتب المفكر الليبي صادق النهيوم على أساس إنها معادية للتقاليد. وثمة حاجز آخر في وجه النشر هو انه يجب العمل بالمراسلة. فالمثقفون العرب الذين ظلوا في بيروت إلى حين رحيل منظمة التحرير الفلسطينية في 1982 أبطأوا في الرجوع إليها. على أية حال، لم يُرحب بهم فيما السواح من البلدان العربية الثرية لا يحتاجون إلى تأشيرة دخول أو أيضاً هؤلاء الوافدون من أوروبا الغربية أو أميركا الشمالية. أما المثقفون من البلدان العربية المنتجة للثقافة فيحتاجون إلى تاشيرة دخول ، ما عدا المثقفين السوريين، لكن أجهزة المخابرات السورية كانت تمارس عليهم رقابة مشددة ، والأمر ينطبق على نطاق واسع على المفكرين الفلسطينيين. لكن أدوارد سعيد، المواطن الأميركي، أتى مع ذلك عام 1969 لإجرء محاضرة مدوّية في الجامعة الأميركية بدت للكثيرين وكأنها مصالحة بين إدارة الجامعة الأميركية في رأس بيروت وفلسطين. وسيعود مرات عدة، من أجل مصالحة كبرى بين بيروت الثقافية وفلسطين. وبانتظار محمود درويش الذي لن تتحقق عودته للمرة الأولى إلاّ في عام 1999 إلى الصالة المحتشدة بالجمهور حتى التخمة في قصر الأونيسكو. وقام بجولته على المناطق اللبنانية الأخرى، ثم برحلة ثالثة خلال الحصار الذي فُرض على عرفات في رام الله وعندئذٍ غصّت مدرجات المدينة الرياضية بالحاضرين.

أعاد رجوع لبنان إلى الساحة الدبلوماسية، ولو شكلياً، مع انعقاد القمة العربية في مارس 2002 اللحمة بين الأوساط الثقافية العربية وبيروت. ولكن، وبالرغم من ذلك، لم يُصلح أمر جمهورية الآداب العربية، لأن ما ينقصها هو الأطر المحلية. فالصحافة اللبنانية تعرّضت للكسوف. وإذا أصبحت جريدة **الحياة** سعودية منذ إعادة ظهورها في لندن عام 1988 وإذا آل الأمر بها إلى نقل قسم كبير من مكاتب تحريرها إلى بيروت، فإنها تتمنع شكلياً عن تغطية الأحداث السياسية المحلية. فصحف بيروت مكمومة الأفواه تتجنّب الخوض في الموضوعات الحساسة وتستجيب لكل التعليمات. وستكون هناك

بعض المساعي المجددة من جانب جريدة **النهار** التي أعادت إصدار **الملحق** وعهدت به إلى الياس خوري ذي الاتجاه اليساري، والى الشاعر عقل العويط، مفسحة المجال لظهور أقلام جديدة، أو من جانب جريدة **السفير** حيث يواصل جوزف سماحة، أحد ألمع الصحافيين العرب والأكثر إبداعاً، اتخاذ المواقف المثيرة للجدل. لكن النتائج والتأثيرات تبقى محدودة. فهذه الكتابة المسالمة تدريجياً تبعد عنها قراءها المحتملين الذين يجدون صعوبة في كشف الأفكار العسيرة الفهم التي تنسب إلى مصادر مطلعة والمليئة بالكلمات المبهمة التي يُصاغ من خلالها الخبر. ثم إن انتشار الصحف في بيروت لا يتجاوز الانتشار الذي حققته جريدة **النهار** في 1975. وليست الصحافة الفرنكوفونية أفضل حالاً. ففيما شكلت عودة المهاجرين حديثاً من فرنسا وكندا وافريقيا الفرنكوفونية فرصة مناسبة لإحياء اللغة الفرنسية، نجد أن النزعة الريفية تواصل فرض سيطرتها. فالصحافيون الشباب الذين لا يتجاوزن العقد الثالث من عمرهم المتحلقون حول **الأوريان اكسبرس** يحاولون عبثاً أن يثبتوا أن فريقاً مؤلفاً في جوهره من الناشئين قادر على إعادة إحياء الصحافة باللغة الفرنسية من خلال مصالحتها مع المجتمع اللبناني والثقافة العربية. وقد فضل محرّكو السوق الإعلانية الترويج لفرانكوفونية سطحية ودعم مجلات تُعتبر كاتالوغاً للسهرات الاجتماعية وتولي حيّزاً صغيراً للجانب التحريري ومساحة طاغية للترويج الإعلاني دون أن تكلّف نفسها اخفاء مقاصدها الحقيقية. وهذا الأسلوب ساري المفعول وسط هذا الفراغ السياسي. لا بل سيكون هذا النوع من الصحافة نموذجاً يحتذى للصحافة العربية التي تصدر حديثاً إلى الأردن والكويت.

ولم ينتظر التلفزيون طويلاً للسير في هذا الاتجاه، بالرغم من الحسنات التي تمنحها للبلاد وفرة المحطات بعد انتهاء الحرب والانتقال السريع لقناتين من هذه القنوات أي المؤسسة اللبنانية للإرسال وتلفزيون المستقبل للبث إلى الدول العربية عبر الأقمار الاصطناعية. وسرعان ما ظهر أثرالمحطات اللبنانية في جمهور أبناء اليمن والكويت، لكن فقط من خلال برامج المنوعات التي يبثها والملابس المثيرة التي ترتديها الضيفات النجمات. وعندما تسجل إحدى الحلقات الثقافية انطلاقة مميزة أو حلقة سياسية من مستوى رفيع فيستمر عرضها لمدة شهرين وتفرض نفسها، بصفتها محطة لبنانية، على أنها الأهم بين برامج «التوك شو»، حينئذٍ يصار سريعاً إلى كبح جماحها نظراً للضغوطات التي تمارس عليها. وستكون نتيجة هذه الرقابة انطلاقة القنوات الأخرى وهي قناة الـ MBC السعودية التي تبث من لندن وقناة الأوربيت Orbit السعودية أيضاً من القاهرة ثم قناة الجزيرة القطرية، ولاحقاً ظهرت قناتاً أبو ظبي والعربية في دبي اللتان تفرضان وجودهما في المشهد السمعي-البصري العربي بصفتهما وسائل إعلام سياسية ومنفتحة على السجالات والحوارات، والفضل يعود في انطلاقتها للصحافيين والمنتجين والتقنيين الذين تمرسوا في قنوات بيروت التلفزيونية.

وعندما أدركت المؤسسة اللبنانية للإرسال ذلك، كان الاستثمار أصبح أكثر كلفة من المرحلة السابقة، ووجب عليها بدورها أن تجعل لها شريكاً سعودياً، وان كان لا يضمن لها النجاح مسبقاً.

وتصر بعض الأقلام وبعض الأصوات هنا وهنالك من دون أن تملك الكثير من الوسائل على مواصلة ما تقوم به. وعندما تحرك بعض المثقفين في القاهرة دفاعاً عن روجيه غارودي المتهم برفض حصول المحرقة النازية بادرت جريدة **النهار** وملحقها و**السفير** و**الحياة** في صفحاتها التي تحرر في بيروت إلى التنديد بهذه التحركات المؤدية لقضية غير محقة.

كما هبّ أيضاً الصحافيون احتجاجاً على جنوح النظام في لبنان إلى نظام بوليسي على الطريقة السورية، وعلى نظام الوصاية الذي تفرضه دمشق. وقد تنبه هؤلاء الذين يعتقدون انهم يبشرون في الصحراء إلى انهم أصابوا الهدف نظراً لما استتبع مقالاتهم من إجراءات انتقامية وتجييش للمثقفين – لا للصحافيين الذين دجنوا في أغلبيتهم. لكن الإشارة الأخطر تأتي من سوريا، سوريا الأخرى. ففي عام 2001، وخلال «ربيع دمشق»، وقّع مثقفون سوريون على عريضة دعم لصحافي لبناني مضطهد. لم نشهد مثيلاً للأمر منذ أقصى ما تعيه ذاكرة البيروتيين أو الدمشقيين.

أية مدينة لأي دور؟

بين الضغط الذي تمارسه الأزمة الاقتصادية وصمت المعارضين تقف بيروت الثقافة مكتوفة الأيدي حيال ذلك وتشهد بأم عينها دورها كمنبر حرّ يتلاشى. لا يبدو دورها الأكاديمي أفضل حالاً من ذلك. وإذا كانت الجامعات قد استعادت مستواها والتزمت باتفاقات شراكة مع المؤسسات الأجنبية، تُركت الجامعة اللبنانية لتسبح مع التيار وكأنه يضحى بها عمداً لصالح الطائفية والمركنتيلية وكلاهما انتعشا واتحدا ليمهدا ولادة أكثر من ثلاث دزينات من المؤسسات التي منحت على عجل «لقب» الجامعة. فما الذي بقي إذاً من بيروت؟ هل بقي دورها كمكان للترفيه واقتناص الملذات؟ في صيدا، التي تقع على مسافة ربع ساعة من بيروت، يحول الضغط الذي تمارسه الحركات الأصولية دون إجراء حفلات المغنين الشعبية. وفي طرابلس، حاكمت الحركة الإسلامية السنية تلفزيون المستقبل علناً بالرغم من انه ملك رئيس الوزراء المنتمي إلى الطائفة السنية نفسها بسبب برنامج عصري يشكل نسخة عربية عن البوب ستار Pop Star. ونظراً للرضى الذي يرمق به النظام ومعه سوريا هذه القومية العربية المتحجرة والمتحولة إلى جوهرانية همها مناهضة الغرب أو نظراً لمباركتهما هذه القومية الإسلامية، لنا أن نتساءل هل أن الأصولية بعيدة فعلاً عن بيروت.

وحين يصبح وسط المدينة بدوره منفذاً لسياح الخليج، من المحتمل أن تكون جمهورية التجّار قادرة على استدراك الأمور. لكن هذه الجمهورية نفسها فريسة الشكل الذي ينتهبها وتتساءل عن الدور

الذي يمكن أن تلعبه المدينة. يشهد القطاع السياحي في بيروت تدخلاً متزايداً للمشاريع الممولة من الخليج دون وسطاء لبنانيين، مشاريع تتعلق بفنادق وإيجار سيارات ومحلات عطور... وما أثار الشك خصوصاً ظهور دبي عاصمة لصناعات الاتصال ومحطة جوهرية ومركزاً للسياحة الليبرالية المتحررة - في بارات الفنادق. إنها صورة للإنفتاح الذي تعرفه جمهورية التجار جيداً ولم يخفِ الأمير الوريث للإمارة محمد بن راشد، متعهد هذا المشروع الانمائي، انه هو نفسه اتخذ بيروت نموذجاً ليحتذي به. لكن الأمر الأشد إثارة للقلق هو أن دبي حيث يعمل عشرات الآلاف من اللبنانيين قد شهدت مرحلة صعودها، ليس حين كانت بيروت تعيش كسوف الحرب بل فقط في النصف الثاني من التسعينات عندما تعرّض لبنان لانتكاس حظّه وحظ عاصمته.

لكن، بالعودة إلى التاريخ، وفي ما يتعدى الحدث التاريخي الذي تمخض عن إنجازات حققها ابراهيم باشا في بيروت، استعادت المدينة دورها من خلال اجتياح الاقتصاد العالمي المتوسط باتجاه الشرق، عبر المحور الكولونيالي وهو ركيزة التبادل غير المتكافئ الذي ربط مرفأها بدمشق. دام المحور، ليس من دون صعوبات في ظل نظام الانتداب، بالرغم من خلق حدود عبر بلاد الشام والمنافسة الفرنسية - البريطانية التي رافقت ذلك. اقتضى الأمر بعدئذ أن يشقى الآخرون، أن تشقى حيفا ويشقى الفلسطينيون وتشقى البورجوازية السورية. واقتضى الأمر بروز حاجة الآخرين ولا سيما بلدان النفط لتجعل من بيروت العاصمة الكوسموبوليتية للعرب وسويسرا الشرق الأدنى. كل من أراد الذهاب جواً من أوروبا إلى شبه الجزيرة العربية عليه أن ينزل في بيروت وكان يتقبل هذا الواقع بكل طيبة خاطر. أما اليوم، فصارت الخطوط مباشرة بين أوروبا والخليج، وإذا أردنا القيام بأسكلة ففي دبي ومنها نصل إلى الشرق الأقصى. أما بالنسبة للمصارف فالأمر سهل. لا حاجة للأسكلة ولا للمناوبات،فالثروات النفطية بات باستطاعتها أن تستغني عن مصارف بيروت خلال الحرب.

بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، استطاعت جمهورية التجار أن تبتسم من جديد أمام هذا الشقاء الجديد الذي يستشعره البعض. وابتسمت دون شك لرؤيتها السياح الخليجيين يذرعون وسط المدينة والمصايف. لكنها تعرف أنها عانت بضراوة وانها ليست بمنأى عن الشقاء. ربما حان الوقت لان تنتظر بيروت ازدهارها من استعادة البعض سعادتهم لاشقاءهم أي أن يسعد الجميع في لبنان بالديمقراطية وألاّ تقتصر فقط على بعض الأحياء وان ينعم الفلسطينيون بالسلام. فهذان الشرطان بوسعهما أن يؤمنا لها سوقاً اقليمية كبيرة، وهذا وحده باستطاعته اعطاؤها نفساً جديداً والسماح لها أخيراً بأن تكون ملء وجودها فيقال عنها، كانت ولم تزل .

بيروت آب/ أغسطس 2003



الهوامش

تمهيد

عيون الروح

1. Élisée Reclus, l'*Homme et la Terre*, t. 2, Paris, Librairie universelle, 1905, p. 43.
2. Miles Copeland, *The Game of Nations*
3. Jonathan Randal, *La Guerre de mille ans*, Paris, Grasset, 1984.
4. Ahmad Beydoun, *Identité confessionnelle et temps social chez les historiens libanais contemporains*, Publications de l'Université Libanaise, Beyrouth, 1984. Voir aussi Kamal Salibi, *Une maison pour plusieurs demeures*, Beyrouth, Naufal, 1988.

القسم الأول

بيروت قبل بيروت

الفصل الأول: حبيبة البحر وأم الشرائع

1. Nina Jidéjian, *Beyrouth à travers les âges*, Beyrouth, Librairie orientale, 1993, pp. 19-20.
2. Louis Dubertret, *Géologie du site de Beyrouth*, Beyrouth, 1945, p. 50
3. Roger Saydah, «The Prehistory of Beirut», in *Beirut Crossroads of Cultures*, Salwa Nassar Foundation for Lebanese Studies, Beyrouth, Librairie du Liban, p. 10.
4. Jidéjian, *op. cit.*, p. 24.
5. *Ibid.*, pp. 24 et 26.
6. *Ibid.*, pp. 25-67.
7. مي عبود ابي عقل: **وسط بيروت بين الأكتشافات والجرافات**، بيروت 1999، ص 64-68.
8. Reclus, *op. cit.*, p. 21.
9. *Ibid.*, pp. 43-44.
10. René Mouterde s.j., *Regards sur Beyrouth, phénicienne, hellenistique et romaine*,

Beyrouth. Imprimerie catholique, 1966 (initialement paru in *Mélanges de l'Université Saint-Joseph*, XL, 1964), p. 9.

Ibid. .11

Maurice Sartre, *L'Orient romain: Provinces et sociétés provinciales en Méditerranée orientale d'Auguste aux Sévères (31 avant J.-C.-235 arpès J.-C.)*, Paris, Seuil («L'Univers historique»), 1991. p. 310. .12

Maurice Sartre, *D'Alexandre à Zénobie. Histoire du Levant antique, IVe siècle av J.-C.- IIIe siècle ap. J.-C.*, Paris, Fayard, 2001, p. 288. .13

Jidéjian, *op. cit.*, p. 12. .14

Mouterde, *op. cit.*, pp. 10-11. .15

Cité in Mouterde, *op. cit.*, p. 11, et Jidéjian, *op. cit.*, p. 104. .16

17. .لويس شيخو: **بيروت تاريخها وآثارها**، بيروت، دار المشرق، الطبعة الثالثة 1933 (الطبعة الأولى 1926).

Mouterde, *op. cit.*, p. 13. .18

19. المرجع نفسه.

20. المرجع نفسه، ص 14.

Jidéjian, *op. cit.*, p. 46. .21

22. المرجع نفسه.

23. مي عبود أبي عقل، المرجع المذكور، ص 65-69 وص 99-100.

24. المرجع نفسه، ص 65 وص 99-100 .

Helen Sader, «Ancient Beirut: Urban Growth in the Light of Recent Excavations», in Peter Rowe et Hashim Sarkis (ed.), *Projecting Beirut. Episodes in the Construction and the Reconstruction of a Modern City*, Munich-London-New York, Prestel Verlag, 1998, p. 30. .25

26. مي عبود أبي عقل، المرجع المذكور، ص 70.

Sartre, *D'Alexandre à Zénobie*, *op. cit.*, p. 43 n. .27

28. المرجع نفسه، ص 40.

Muller, *Numismatique d'Alexandre*, p. 310 .29 مذكور في شيخو، المرجع المذكور، ص 31.

30. لويس شيخو، المرجع المذكور، ص 32.

Mouterde, *op. cit.*, pp. 24-25. .31

Sartre, *D'Alexandre à Zénobie*, *op. cit.*, p. 147. .32

Sartre, *L'Orient romain*, p. 338 n. .33

Jules Rouvier, «Une métropole phénicienne oubliée, Laodicée métropole de Canaan», *al-Machreq*, 1re année, 1898, pp. 17-20; P. Roussel dans le *Bulletin de correspondance hellénique*, 1911, pp. 446-535 إنظر شيخو، المرجع المذكور، ص 32. .34

Sartre, *D'Alexandre à Zénobie*, *op. cit.*, p. 147 .35

Mouterde, *op. cit.*, 16-21. .36

37. Sartre, *D'Alexandre à Zénobie*, *op. cit.*, p. 432
38. Strabon, XVI, 18-20.
39. Mouterde, *op. cit.*, p. 22
40. Sartre, *L'Orient romain*, *op. cit.*, p. 338.
41. Strabon, XVI, 2, 19.
42. Sartre, *L'Orient romain*, *op. cit.*, p. 338.
43. Pline, *Histoire naturelle*, V, 17; cf. Mouterde, *op. cit.*, p. 23
44. Sartre, *L'Orient romain*, *op. cit.*, pp. 71 nº 316, 338.
45. Sartre, *D'Alexandre à Zénobie*, *op. cit.*, p. 646.
46. Sartre, *L'Orient romain*, *op. cit.*, p. 337.
47. Mouterde, *op. cit.*, p. 25.
48. *Ibid.*
49. Sartre, *D'Alexandre à Zénobie*, *op. cit.*, pp. 678-679. Voir aussi Sader, art. cité, p. 33.
50. مي عبود أبي عقل، المصدر المذكور، ص 117.
51. Jidéjian, *op. cit.*, p. 90.
52. جريدة **النهار**، 17 و29 يناير/ كانون الثاني 2001.
53. Mouterde, *op. cit.*, pp. 26-27.
54. Sader, art. cité, p. 34.
55. *Ibid.*
56. Sartre, *L'Orient romain*, *op. cit.*, p. 322.
57. *Ibid.* p. 323
58. Flavius Josèphe, *La Guerre des Juifs*, XXI, 11.
59. *Ibid.*
60. Sartre, *L'Orient romain*, *op. cit.*, p. 158.
61. Flavius Josèphe, VII, 5; Mouterde, *op. cit.*, p. 27; Sartre, *L'Orient romain*, *op. cit.*, p. 351.
62. Sartre, *D'Alexandre à Zénobie*, *op. cit.*, p. 548
63. الأب لويس شيخو، المصدر المذكور، ص 38.
64. Sartre, *L'Orient romain*, *op. cit.*, p. 346.
65. Sartre, *D'Alexandre à Zénobie*, *op. cit.*, p. 686.
66. Sartre, *L'Orient romain*, *op. cit.*, p. 344.
67. لويس شيخو، المصدر المذكور، ص 37.
68. المصدر السابق، ص 52-53 و Mouterde, *op.cit.*, pp. 33-34.
69. Sartre, *L'Orient romain*, *op. cit.*, p. 78.
70. *Ibid,* p. 122.

71. Sartre, *D'Alexandre à Zénobie*, *op. cit.*, p. 706.
72. Sartre, *L'Orient romain*, *op. cit.*, p. 350.
73. Sartre, *D'Alexandre à Zénobie*, *op. cit.*, p. 894.
74. Sartre, *L'Orient romain*. *op. cit.*, p. 490.
75. *Ibid.*, p. 491 et 494; id., *D'Alexandre à Zénobie*, *op. cit.*, p. 898.
76. المشرق، 11، 1908، ص 31، و81-89. Jidéjian, *op. cit.*, p. 44.
77. صالح بن يحيى، **تاريخ بيروت**، تحقيق الاب فرنسيس هورس اليسوعي وكمال الصليبي، بيروت، دار المشرق، 1969 ص 17. إنظر ايضاً Fr. Suriano, *Il Trattato di Terra Santa*, 154, 162 المذكور في شيخو، ص 43 و117.
78. Houda Kassatly, *Si proche, si extrême, Rituels en sursis du Liban et de Syrie*, Beyrouth, Layali, 1998.
79. لويس شيخو، المصدر المذكور، ص 43.
80. Sartre, *D'Alexandre à Zénobie*, *op. cit.*, p. 951.
81. Paul Collinet, *Histoire de l'École de droit de Beyrouth*, Paris, Sirey, 1925, pp. 28-29.
82. Mouterde, *op. cit.*, p. 34.
83. لويس شيخو، المصدر المذكور، ص 57.
84. المرجع نفسه، ص 41.
85. شيخو، المرجع نفسه، ص 42.
86. صالح بن يحيى، المرجع المذكور، ص 17.
87. Collinet, *op. cit.*, p. 17.
88. Sartre, *D'Alexandre à Zénobie*, *op. cit.*, p. 876.
89. *Ibid.* Cf. aussi Collinet, *op. cit.*, 20-21.
90. Paul Huvelin, «Leçon inaugurale (14 novembre 1913)»، المنشورة في مطلع *Mélanges à la Mémoire de Paul Huvelin*, livre du 25e anniversaire de l'École française de droit de Beyrouth, Paris, Sirey, 1938.
91. Collinet, *op.cit.* 16-18.
92. *Ibid,* p. 45.
93. *Ibid,* p. 31.
94. *Ibid,* p. 36.
95. Vie de Sévère, cité in Mouterde, *op. cit.*, p. 39.
96. Collinet, *op. cit.*, pp. 126-129, 139.
97. *Ibid,* p. 149.
98. *Ibid,* p. 53.
99. Jidéjian, *op. cit.*, p. 144.
100. Collinet, *op. cit.*, p. 5.
101. لويس شيخو، المصدر المذكور، ص 46.

102. René Mouterde، المشرق 22، 1924، 195-200.
103. Sartre, *D'Alexandre à Zénobie*, *op. cit.*, p. 951.
104. Collinet, *op. cit.*, p. 36.
105. *Ibid*, p. 53.
106. Nonnos, XLI, fi 5 et XLII.
107. صالح بن يحيى، المصدر المذكور، ص 12-11. راجع أيضاً لويس شيخو في المصدر المذكور، ص 50.
108. Sartre, *D'Alexandre à Zénobie*, *op.cit.*, pp. 795-797; شيخو، المصدر المذكور، ص 50.
109. Jidéjian, *op. cit.*, pp. 150-151.
110. Cité in Collinet, pp. 56-57.
111. Cité in Jidéjian, *op. cit.*, p. 14.
112. *Ibid*, p. 150.
113. Sader, art. cité, p. 34.

الفصل الثاني: من الرباط إلى الأسكلة

1. صالح بين يحيى، المصدر المذكور، ص 23.
2. لويس شيخو، المصدر المذكور، ص 69.
3. *Encyclopédie de l'Islam*, article «al-Awza'î».
4. صالح بن يحيى، المصدر المذكور، ص 23-24.
5. *E.I.*, article «al-Awza'î».
6. Cité in Jidédjian, *op. cit.*, p. 168.
7. شيخو، المصدر المذكور، ص 72.
8. Cité in Jidédjian, *op. cit.*, p. 172.
9. شيخو، المصدر المذكور، ص 76.
10. Jidéjian, *op. cit.*, p. 172.
11. صالح بن يحيى، المصدر المذكور، ص 43-44.
12. المرجع نفسه، ص 58.
13. Jidédian, *op. cit.*, p. 178
14. صالح بن يحيى، المصدر المذكور، ص 52-53.
15. المرجع نفسه، ص 58.
16. *E. I.*, article «Bahriyya». Voir aussi David Ayalon, *Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom. A challenge to a Medieval Society*, London, 1956. pp. 102-103.
17. صالح بن يحيى، المصدر المذكور، ص 59.
18. المرجع نفسه.
19. شيخو، المصدر المذكور، ص 105.
20. André Raymond, «Les provinces arabes (XVI[e] siècle-XVIII[e] siècle)», in Robert Mantran, *l'Empire ottoman*, Paris, Fayard, 1989, pp. 341-420.

21. Antoine Abdel-Nour, *Introduction à l'histoire urbaine de la Syrie ottomane (XVI[e] siècle - XVIII[e] siècle)*, Beyrouth, Publications de l'Université libanaise, 1982.
22. André Raymond, «Les provinces arabes», in Mantran, *op. cit.*, pp. 370-372.
23. Dominique Chevallier, *La Société du mont Liban à l'époque de la Révolution industrielle en Europe*, Paris, Geuthner, 1971, pp. 3-15.
24. Chevallier, *La Société du mont Liban*, *op. cit.*, pp. 82-85.
25. شيخو، المصدر المذكور، ص 111.
26. المرجع نفسه، ص 116-117.
27. Abdul. Karim Rafeq, *The Province of Damascus, 1723-1783*, Beyrouth, Khayat's, 1970, pp. 76 et 179.
28. شيخو، المصدر المذكور، ص 112.
29. Chevalier Laurent d'Arvieux, *Mémoires I*, Paris, 1735.
30. Abdel-Karim Rafeq, *op. cit.*, p. 179.
31. انطوان عبد النور: **تجارة صيدا مع الغرب**، منشورات الجامعة اللبنانية، 1973.
32. Robert Mantran, «les débuts de la question d'Orient (1774-1839)», in Mantran, *op. cit.*, pp. 421-425.
33. Rafeq, *op. cit.*, pp. 293-294.
34. *Ibid.,* p. 299.
35. *Ibid.,* p. 300-302.
36. مذكور في François Charles-Roux, *Les Echelles de Syrie et de Palestine*, Paris, 1928, p. 106n.
37. *Ibid.,* p 106, 212.
38. Rafeq, *op. cit.*, p. 312.
39. *Ibid.,* p. 315.
40. Houda Kassatly, *Beiteddine, silences et lumières*, Beyrouth, Layali, 2001.

القسم الثاني

أسكلة مختلفة

الفصل الثالث: التحول الكبير

1. Volney, *Voyage en Égypte et en Syrie*, édité par Jean Gaulmier, Paris, Mouton, 1959, p. 290.
2. Albert Hourani, *Histoire des peuples arabes*, Paris, Seuil, coll. «Points», 1992, p. 346.

3. Dominique Chevallier, «Signes de Beyrouth en 1834», *Bulletin d'études orientales*, XXV, 1972, repris in Chevallier, *Ville et travail en Syrie*, Paris, Maisonneuve et Larose, 1982.

4. Hourani, *Histoire*, *op. cit.*, p. 356.

5. Henry Guys, *Beyrout et le Liban, Relation d'un séjour de plusieurs années dans ce pays*, Paris, 1850 (reprint Beyrouth, Dar Lahd Khater, 1985), volume I, p. 13n.

6. Henry Laurens, *Le Royaume impossible. La France et la genèse du monde arabe*, Paris, Armand Colin, 1990, pp. 37-42.

7. Paul Dumont, «La période des Tanzimât (1839-1878)», in Mantran, *op. cit.*, p. 501.

8. Dominique Chevallier, *La Société du mont Liban*, *op. cit.*, pp. 243-272.

9. Leila Tarazi Fawaz, *A Occasion for war, Civil Conflit in Lebanon and Damascus in 1860*, London, I.B. Tauris, 1994.

10. René Mouterde s.j., «Une ville remplit son site: Beyrouth», *Méditerranée*, vol. IV, n° 3, 1963, pp. 37-39.

11. Alexander Schölch, «Le développement économique de la Palestine, 1856-1882», *Revue d'études palestiniennes*, n° 10, hiver 1984, pp. 93-113.

12. *Ibid.*

13. Chevallier, «Signes de Beyrouth», loc. Cit.

14. لطيفة محمد سالم: الحكم المصري في الشام، القاهرة، منشورات مدبولي، الطبعة الثانية، 1990، ص 17-22.

15. شيخو، المصدر المذكور، ص 133.

16. Chevallier, *La Société du mont Liban*, *op. cit.*, pp. 90-105.

17. لطيفة سالم، المصدر المذكور، ص 41.

18. المرجع نفسه، ص 83..

19. Chevallier, *La Société du mont Liban*, *op. cit.*, pp. 49-62.

20. Henry Laurens, *Le Royaume impossible*, *op. cit.*, pp. 122-123.

21. Fawaz Traboulsi, «Le pas de deux de l'émir Abdel-Kader et de Youssef bey Karam», *L'Orient-Express*, n° 11, octobre 1996.

22. Laurens, *Le Royaume impossible*, *op. cit.*, pp. 148-149.

23. Engin Akarli, *the Long Peace. Ottoman Lebanon, 1861-1920*, London, I.B. Tauris, 1993, pp. 39, 60-61 et 184.

24. Hourani, «Ideologies of the Mountain, Ideologies of the City», in Roger Owen, *Essays on the crisis in Lebanon*, London, Ithaca Press, 1976.

الفصل الرابع: زمن إبراهيم باشا

1. Gérard de Nerval, *Voyage en Orient*, Paris, 1875, t. I, pp. 327-330.

2. Dominique Chevallier, «Signes de Beyrouth en 1834», art. cité, et «Les villes arabes depuis le XIX[e] siècle: structures, visions, transformations», *Revue des travaux de l'Académie des sciences morales et politiques*, 1972, premier semestre, tous deux repris in Chevallier, *Ville et travail en Syrie*, respectivement pp. 20 à 23 et 29-30.

3. Edouard Blondel, *Deux ans en Syrie et en Palestine*, Paris, 1840, p. 11.

4. Leila Tarazi Fawaz, *Merchants and Migrants in Nineteenth-Century Beirut*, Cambridge et London, Harvard University Press, 1983, p. 12.

5. Photographie de Jean-Baptiste Carlier (*circa* 1875), reproduite in Fouad Debbas, *Des photographes à Beyrouth*, 1840-1918, Paris, Marval, 2001, p. 60.

6. Blondel, *op. cit.*, pp. 13-14.

7. M. Michaud et M. Poujoulat, *Correspondance d'Orient, 1830-1831*, Paris, 1835, t. VI, p. 124.

8. Blondel, *op. cit.*, pp. 11-12.

9. Fawaz, *op. cit.*, p. 12.

10. Debbas, *Des photographes*, *op. cit.*, p. 5.

11. May Davie, «Beyrouth et ses faubourgs (1840-1940)», *Les cahiers du Cermoc* n° 15, Beyrouth, 1996, pp. 23-29.

12. Chevallier, *La Société du mont Liban*, *op. cit.*, p. 41.

13. انظر Fawaz, *op. cit.*, pp. 28-32.

14. Léon de Laborde, *Voyage de la Syrie*, Paris, 1837, p. 37.

15. Michaud et Poujoulat, *Correspondance d'Orient, 1830-1831*, Paris, 1835, t. VI, p. 123.

16. J.L. Burckhardt, *Travels in Syria and the Holy Land,* London, 1822, p. 182.

17. Chevallier, «Signes de Beyrouth», art. cité, p. 9.

18. انظر Davie, «Beyrouth et ses faubourgs», loc. cit.

19. لطيفة سالم، **الحكم المصري في الشام**، المصدر المذكور، ص 71-74.

20. المرجع نفسه، ص 225.

21. المرجع نفسه، ص 73.

22. المرجع نفسه، ص 40.

23. المرجع نفسه، ص 80.

24. Moshe Ma'oz, *Ottoman Reform in Syria and Palestine, 1840-1861*, Oxford, 1968, pp. 90-91.

25. لطيفة سالم، المصدر المذكور، ص 82.

26. المرجع نفسه، ص 82.

27. المرجع نفسه، ص 67.

28. M. Sabry, *L'Empire égyptien sous Mohamed Ali et la question* d'Orient, Paris,

1930, p. 346; Chevallier, «Signes de Beyrouth», p. 19 n.

29. أسد رستم: «إدارة الشام، روحها وهيكلها وآثارها» مقالة في **ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا، 1848-1949**، منشورات الجمعية الملكية للدراسات التاريخية في مصر، أعيد نشره في القاهرة دار مدبولي، 1990، ص 121.

30. لطيفة سالم، المصدر المذكور، ص 83.

31. المرجع نفسه.

32. Blondel, *op. cit.*, p. 14.

33. Debbas, Des photographes, *op. cit.*, p. 13.

34. Davie, «Beyrouth et ses faubourgs», p. 34.

35. Fawaz, *op. cit.*, p. 32.

36. Blondel, *op. cit.*, p. 14.

37. Frédéric Goupil-Fesquet, in *Excursions daguerriennes*, Paris, 1842, cité in Debbas, *Des photographes*, p. 6.

38. أسد رستم، المقالة المذكورة آنفاً: **إدارة الشام**، ص 112.

39. Guys, *op. cit.*, I, p. 32-33.

40. Baron d'Armagnac, *Nézib et Beyrouth, Souvenirs d'Orient de 1833 à 1841*, Paris, 1844, pp. 126-127, cité in Debbas, *Des photographes, op. cit.,* p. 7.

41. لطيفة سالم، المصدر المذكور، ص 212.

42. Fawaz, *op. cit.*, p. 34.

43. Debbas, *Des photographes*, *op. cit.*, p. 7.

44. Guys, *op. cit.*, I, p. 11.

45. المرجع ذاته، ص 143.

46. Davie, «Beyrouth et ses faubourgs», p. 34.

47. رسالة من الأب الرئيس بول ريكادونا إلى الأب جان روثان، الرئيس العام في 1836/6/22 مذكورة في Sami Kuri, *Une histoire du Liban par les archives des jésuites*, I, p. 200.

48. Lettre du P. Roothan au P. Planchet, 19 mars 1838, citée *in* Kuri, *ibid.*, I, p. 243.

49. Chevallier, «Signes de Beyrouth», p. 15 et 18n.

50. Fawaz, *op. cit.*, p. 26.

51. لطيفة سالم، المصدر المذكور، ص 223.

52. المرجع نفسه، ص 213.

53. Fawaz, *op. cit.*, p. 34.

54. لطيفة سالم، المصدر المذكور، ص 215.

55. أسد رستم في مقالته «**إدارة الشام**»، ص 123-124.

56. Guys, *op. cit.*, I, p.8.

57. Fawaz, *op. cit.*, p. 34.

58. *Ibid.*, p. 33

59. مذكور في Debbas, *Des photographes*, *op. cit.*, p. 7.

Fawaz, p. 32. .60

الفصل الخامس: طرق الشام

Guys, *op. cit.*, I, chap. III, notamment pp. 11 et 21. .1
Debbas, *Des photographes*, *op. cit.*, p. 27. مذكور في .2
Debbas, *Beyrouth notre mémoire*, Paris, éditions Henri Berger, 3e édition, مذكور في .3
1994, p. 19.
Kuri, *op. cit.*, I, p. 335. .4
Lettre du P. Jean-François Baddour au P. Pierre Beckx, 3 septembre 1953, in Kuri, .5
op. cit., III, p. 117.
Chevallier, *La Société du mont Liban*, *op. cit.*, p. 268n, et 185-186 .6
Fawaz, *op. cit.*, p. 26. .7
Ibid., p. 61. .8
Debbas, *Des photographes*. *op. cit.*, p. 8. .9
Fawaz, *op. cit.*, p. 61. .10
Lettre du P. Raymond Estève au P. Jean Roothan, juin 1850, in Kuri, *op. cit.*, III, .11
p. 60.
Chevallier, «Lyon et la Syrie en 1919», in Chevallier, *Ville et travail en* مذكور في .12
Syrie, *op. cit.*, p. 43.
Fawaz, *op. cit.*, p. 61. .13
ibid., p. 26 .14
P. Baddour au P. Beckx, in Kuri, *loc. cit.* .15
Kuri, *ibid.*, III, p. 113 .16
Fawaz, *op. cit.*, p. 34. .17
ibid., p. 36-37. .18
ibid., p. 34. .19
Debbas, *Beyrouth*, *op. cit.*, p. 47. مذكور في .20
21. المرجع نفسه ص 21.
22. المرجع نفسه، ص31.
23. شيخو، المصدر المذكور، ص 136-137.
Debbas, *Des photographes*. *op. cit.*, p. 9 .24
Fawaz, *op. cit.*, pp. 33-35. .25
Debbas, *Beyrouth*, *op. cit.*, p. 31. .26
Fawaz, *op. cit.* p. 68. .27
Chevallier, «Lyon et la Syrie», art. cité المرجع المذكور، انظر ايضاً .28
Fawaz, *op. cit.*, p. 68, Voir aussi Paul Dumont, «La période des Tanzimat», in .29

Mantran, *op. cit.*, p. 496.

30. Fawaz, *op. cit.*, p. 69.

31. المرجع نفسه.

32. Butrus Abu-Manneh, «The Establishment and Dismantling of the Province of Syria, 1865-1888», in John Spagnolo (ed.), *Problems of the Middle East in Historical Perspective: Essays in Honor of Albert Hourani*, Oxford University Press, 1992.

33. May Davie, *Beyrouth 1825-1875, un siècle et demi d'urbanisme*, Beyrouth, Ordre des ingénieurs et des architectes, 2001, p. 43.

34. شيخو، المصدر المذكور، ص 160.

35. Davie, *Beyrouth 1825-1875*, *op. cit.*, p. 42.

36. Fawaz, *op. cit.*, pp. 61.

37. Davie, *Beyrouth 1825-1875*, *op. cit.*, p. 61.

38. Fawaz, *op. cit.*, pp. 71-72.

39. *Ibid.*, p. 72, et Debbas, *Beyrouth*, *op. cit.*, p. 28.

40. Debbas, *Beyrouth*, *op. cit.*, p. 34.

41. Fawaz, *op. cit.*, p. 72.

42. Debbas, *Beyrouth*, *op. cit.*, p. 36.

43. Chevallier, «Lyon et la Syrie», article cité.

44. انظر Jacques Thobie, *Intérêts et impérialisme français dans l'Empire ottoman*, Paris, Imprimerie nationale-Publications de la Sorbonne, 1977.

45. Fawaz, *op. cit.*, pp. 70-71.

46. شيخو، المصدر المذكور، ص 159.

47. Fawaz, *op. cit.*, p. 72.

48. *Ibidem.*

49. *Ibid.*, pp. 61-62.

50. *Ibid.*

51. Paul Dumont, «La période des Tanzimat (1839-1878)», in Mantran, *Histoire de l'Empire ottoman*, *op. cit.*, p. 494.

52. Fawaz, *op. cit.*, pp. 62-63.

53. المرجع نفسه، ص 63.

54. المرجع نفسه، ص 63-64.

55. Dumont, «La période des Tanzimat», in Mantran, *op. cit.*, p. 487.

56. Badr el-Hage, *Des photographes à Damas*, Paris, Marval, 2001.

57. Georgeon, «Le dernier sursaut», in Mantran, *op. cit.*, p. 551.

58. Chevallier, *La Société du mont Liban*, *op. cit.*, p. 292.

59. Dumont, «La période des Tanzimat», in Mantran, *op. cit.*, pp. 487 et 490.

Chevallier, *La Société du mont Liban*, *op. cit.*, p. 292. .60

Fawaz, *op. cit.*, p. 32. .61

62. رفيق التميمي ومحمد بهجت: **ولاية بيروت**، جدول التصويبات، الجزء الأول، ص 8.

Fawaz, *op. cit.*, p. 86. .63

Ibidem, pp. 91-94 .64

Ibid, p. 96 .65

الفصل السادس: واجهة الحداثة العثمانية

Debbas, *Des photographes*, *op. cit.*, respectivement pp. 112-113 et 124-125. .1

Chevallier, *La Société du mont Liban*, *op. cit.*, pp. 291-292. .2

Jens Hansen, «Your Beirut is on my desk», Ottomanizing Beirut under Sultan Ab- .3
dul. Hamid II (1876-1909), in Rowe & Sarkis, *Projecting Beirut*, *op. cit.*, p. 53.

Ibid., p. 51 .4

Dumont, «La période des Tanzimat», in Mantran, *op. cit.*, p. 490-493. .5

Hansen, art. cité, p. 44. .6

Davie, *Beyrouth 1825-1975*, *op. cit.*, p. 41. .7

Debbas, *Des photographes*, *op. cit.*, p. 13. .8

Dumont, «La période des Tanzimat», in Mantran, *op. cit.*, p. 490-493 .9

Davie, *Beyrouth 1825-1975*. *op. cit.*, p. 42. .10

Davie,«Beyrouth et ses faubourg», p. 45.. .11

Ibid. .12

Fawaz, *op. cit.*, p. 102. .13

E.I., article «Baladiyya». .14

15. شيخو، المصدر المذكور، ص 142-143.

Davie, *Beyrouth 1825-1975*, *op. cit.*, p. 51. .16

Ibid., p. 52 .17

Georgeon, «Le dernier sursaut», in Mantran, *op. cit.*, p. 553. .18

Davie, *Beyrouth 1825-1975*, *op. cit.*, p. 53. .19

Ibid., p. 54. .20

Hasen, art. cité, p. 60. .21

Davie, *Beyrouth 1825-1975*, *op. cit.*, pp. 53-55. .22

Debbas, *Des photographes*, *op. cit.*, p. 13. .23

Davie, *Beyrouth 1825-1975*, *op. cit.*, p. 58 et 59. Voir Hansen, art. cité, pp. 59-60. .24

Jansen, art. cité, p. 60. .25

Debbas, *Beyrouth*, *op. cit.*, p. 46. مذكور في .26

Debbas, *Beyrouth*, *op. cit.*, p. 34. .27

28. Davie, *Beyrouth 1825-1975*,op cit., p. 60.

29. Hansen, art.cité, p.45

30. *Ibid.*, p. 54.

31. راجع Kuri, *op. cit., II*, p. 113

32. Davie, «Beyrouth et ses faubourg», p. 61.

33. راجع Kuri, *op. cit., II*, p. 113.

34. *Ibid.*

35. Davie, «Beyrouth et ses faubourgs», p. 62.

36. *Ibid.*, p. 61.

37. Claire Paget, *Murs et Plafonds peints. Liban XIX^e^ siècle*, Beyrouth, Editions Terre du Liban, 1998.

38. Houda Kassatly, *De pierres et de couleurs. Vie et mort des maisons du vieux Beyrouth*, Beyrouth, Layali, 1998.

39. شيخو، المصدر المذكور، ص 160.

40. Debbas, *Beyrouth, op. cit.*, p. 66.

41. التميمي وبهجت، **ولاية بيروت** المصدر المذكور، القسم الأول، ص 81.

42. المرجع نفسه، القسم الأول، ص 64.

القسم الثالث

عصر النهضة

الفصل السابع: الثورة الثقافية

1. Guys, *op. cit.*, I, p. 14.

2. David Urquhart, *the Lebanon (Mount Souria): a history and a Diary*, London, 1860, III, p. 178-181.

3. أحمد فارس الشدياق، **الساق على الساق**.

4. Fawaz Traboulsi, «Ahmad Farès al-Chidyaq, de la modernité en tant que femme», *l'Orient-Express*, n° 5, avril 1996.

5. طه الولي: **بيروت في التاريخ والحضارة والعمران**، دار العلم للملايين، 1993، ص 293-294.

6. راجع Bernard Lewis, *Le langage polique de l'Islam*, Paris, 1988, p. 99; Albert Hourani, *Arabic Thought at the Liberal Age, 1789-1939*, Oxford, 1970, p. 69 et s.; et Henry Laurens, l'*Orient arabe, Arabisme et islamisme de 1798 à 1945*, Paris, Armand Colin, 1993, pp. 75-77.

7. Hourani, *Arabic thought*, *op. cit.*, pp. 99 et s.

8. Louis Bazin, «La vie intellectuelle et culturelle de l'Empire ottoman», in Mantran, *op. cit.*, pp. 716-724.

9. طه الولي: بيروت في التاريخ، المصدر المذكور، ص 295-296 .

10. Dumont, «La période des Tanzimat», in Mantran, *op. cit.*, p. 480.

11. Kuri, *op. cit., I*, p. 525; II, p. 202.

12. **الفجر الصادق لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت. أعمال السنة الأولى**، مطبعة ثمرات الفنون، 1279 (1879م)، ص 4.

13. المرجع نفسه، ص 5.

14. المرجع نفسه، ص 7.

15. Hisham Nashabi, «Shayk 'Abd al-Qadir al-Quabbani and Thamarat al funun», in Marwan Buheiry (ed.), *Intellectual Life in the Arab East, 1890-1939*, American University of Beirut, 1981.

16. Laurens, *L'Orient arabe*, *op. cit.*, pp. 98-99.

17. Georgeon, «Le dernier sursaut», in Mantran, *op. cit.*, p. 535.

18. Chevallier, «Lyon et la Syrie», in *Ville et travail en Syrie*, *op. cit.*, p. 47.

19. Dumont, «La période des Tanzimat», in Mantran, *op. cit.*, p. 480-481.

20. Georgeon, «Le dernier sursaut», in Mantran, *op. cit.*, p. 541.

الفصل الثامن: بين روما وبوسطن

1. راجع عن المبشرين الأميريكيين في بيروت، A.L. Tibawi, «The Genesis and Early History of the Syrian Protestant College», *The Middle East Journal*, part I, vol 21, winter 1967, n° 1; part 2, vol. 1, spring 1967, n° 2.

2. A.L. Tibawi, *American Interests in Syria, 1800-1901. A Study of Educational, Literary and Religious Work*, Oxford, Clarendon Press, 1966, p. 27.

3. وداع يونس كين لأحبابه في فلسطين وسوريا، مذكور في Tibawi, *ibid.*

4. Toufic Touma, *Paysans et institutions féodales chez les druzes et les maronites du Liban du XVIII^e^ siècle à 1914*, Beyrouth, Publications de l'Université Libanaise, 1972, II, p. 550.

5. Robert Khoury, *La Médecine au Liban. De la Phénicie à nos jours*, éditions ABCD, s.d., p. 169.

6. *Ibid.*, p. 110

7. *Ibid.*, p. 100

8. *Ibid.*, p. 114.

9. *Ibid.*, p. 116.

10. المرجع نفسه وراجع أيضاً شفيق جحا في **داروين وأزمة 1882 بالدائرة الطبية وأول ثورة طلابية في العالم العربي بالكلية السورية الانجيلية**، بيروت، 1991.

11. المقتطف، المجلد التاسع (84-85) ص 468-472 وص 633.

12. Kuri, *op. cit.*, I, p. 221.

13. المرجع نفسه، القسم الأول، ص.ص 335، 525، 528.

14. Lettre du P. Benoit Planchet au P. Jean Roothan, supérieur général, Beyrouth, 8 Septembre 1842 (Kuri, I, p. 357).

15. Réponse du P. Jean Roothan, supérieur général, au P. Planchet, supérieur, Rome, 3 août (I, p. 397).

16. Planchet à Roothan, 8 Septembre 1842, lettre citée (I, pp. 357- 359, 369).

17. Lettre du P. Jean Roothan, supérieur général, au P. Louis Maillard, provincial de Lyon, Rome, 31 octobre 1843 (I,p. 409).

18. Lettre des membres de la Société catholique à la Société asiatique de Paris, Beyrouth, 16 octobre 1849 (III, p. 53).

19. Lettres du P. Benoît Planchet au P. Jean Roothan, Beyrouth, 26 novembre 1846 et 26 septembre 1847 (III, pp. 25 et 36).

20. Kuri, III, p. 83 n.

21. Rapport du P. François Badour au P. Joseph de Jocas sur l'état de la mission de. Syrie pendant les trois dernières années, Beyrouth, 12 décembre 1855 (III, p. 139).

22. Lettre du P. Raymond Estève au P. Beckx, Beyrouth, 17 février 1859 (III, p. 219).

23. Kuri, I, pp. 525n-526n.

24. Lettre du P. François Gautrelet au P. Pierre Beckx, Beyrouth, 31 janvier 1869 (III, p. 292).

25. Badour à Beckx, lettre citée (III, p. 118). Voir aussi Rapport du P. Billotet au P. Jean Roothan, Beyrouth, 4 janvier 1851 (III, p. 73), Lettre du P. Raymond Estève au P. Jean Roothan, Ghazir, 9 févier/Bikfaya, 4 mars 1851 (III, pp. 78. 77) et Rapport du P. Louis. X. Abougit au président du Conseil central de l'Œuvre de propagation de la foi à Lyon, Bikfaya, 8 septembre 1851 (III, pp. 91. 92).

26. Kuri, III, pp. 410 et 423.

27. Lettre du P. Edouard Billoted au P. Jean Roothan, Beyrouth, 1 mars 1853 (III, p. 110) et Lettre du P. Jean. Francois Badour au P. Pierre Beckx (III, p. 119).

28. Lettre du P. Philippe Cuche au P. Pierre Beckx, Beyrouth, 19 juin 1856 (III, pp. 154- 156) et Lettre du P. Louis. Xavier Abougit au P. Pierre Beckx, Collège Saint. Joseph de Ghazir (Mont. Liban), 22 mars 1860 (III, pp. 247. 248). Voir aussi du frère Antoine Talon, Renseignements sur la fondation de tout ce qui regarde l'imprimerie S.J. à Beyrouth (III, pp. 425 à 429) et du même développements de l'Imprimerie catholique (III, pp. 429-432).

29. Réponse du P. Pierre Beckx au P. Amboise Monnot, Rome, 18 janvier 1870 (III, p. 355).

30. Lettre du P. Amboise Monnot au consul général de France, Beyrouth, 2 janvier 1871, et lettre du P. Amboise Monnot au P. Sébastien Gaillard, prov., Beyrouth, fête de Saint-Sébastien 20 jJanvier 1871 (III, pp. 389 et 391).

31. Lettre du P. Amboise Monnot au P. Pierre Beckx, Beyrouth, 29 juin 1870 (III, p. 377).

32. M. Julien, *La Nouvelle Mission de la Compagnie de Jésus en Syrie, 1831-1895*, Tours, 1895, cité in Khoury, *op. cit.*, p. 133.

33. Lettre du P. Louis Cauti au P.Pierre Beckx, Beyrouth, s.d. (III, p. 108).

34. Lettre du P. Amboise Monnot au P. Pierre Beckx, Beyrouth, 29 mai 1870 (III, p. 374).

35. Observations du P. Rubillon sur le projet de collège à Beyrouth, 1873 (III, pp. 408 à 411).

36. *Ibid.* (III, p. 409).

37. Chevallier, «Lyon et la Syrie», in *Ville et travail*, *op. cit.* p. 47.

38. R. Khoury, *op. cit.*, pp. 186-187.

39. *Ibid.* p. 146.

40. في *Mélanges à la mémoire de Paul Huvelin, livre du 25e anniversaire de l'Ecole française de droit de Beyrouth*, Paris, Syrie, 1938.

41. Chevallier, *loc. cit.*

42. *Ibid.*, p. 71n

43. M. Barrès, *Une enquête au pays du Levant*, Paris, 1923, I, p. 32.

44. R. Khoury, *op. cit.*, pp. 163-174.

الفصل التاسع: العالم أفقاً

1. حسّان حلاّق: **بيروت المحروسة في العهد العثماني**، بيروت، الدار الجامعية، 1978، ص 253-252، راجع طه الولي، **بيروت في التاريخ**، المصدر المذكور، ص 282.

2. Kamal Salibi, «Beirut under the Young Turks as depicted in the political memoirs of Salim 'Ali Salam», in Jacques Berque et Dominique Chevallier, *Les Arabes par leurs archives (XVIe-XXe siècles),* Editions du CNRS, 1976

راجع عنبرة سلام الخالدي: **جولة في الذكريات بين لبنان وفلسطين**، دار النهار، 1978، مقدمة كمال الصليبي.

3. راجع شهادة ابنهما نديم دمشقية في **محطات في حياتي الدبلوماسية**، بيروت، دار النهار، 1995، ص 17-20. راجع أيضاً عنبرة سلام الخالدي، المصدر المذكور، ص 66-72 و Jaques Berque, *Les Arabes d'hier à demain*, Paris, Seuil, 1960, p. 163.

4. عنبرة سلام، المصدر المذكور ص 37-38.

5. **مذكرات سليم علي سلام**، تحقيق وتعليق حسّان حلاق، بيروت، الدار الجمعية، 1981، خارج الترقيم.

6. Fawaz, *op. cit.*, pp. 91- 92.
7. المصدر ذاته، ص 93.
8. Gabriel Charmes, *Voyage en Syrie, impressions et souvenirs*, Paris, 1891, p. 135.
9. Blondel, *op. cit.*, p. 91
10. المرجع ذاته، ص 17-18.
11. Lewis Farley, *Two years in Syria*, London, 1858, pp. 29-30.
12. Nada Sehnaoui, *l'Occidentalisation de la vie quotidienne à Beyrouth, 1860-1914*, Beyrouth, Dar an-Nahar, 2002, p. 119.
13. المرجع ذاته، ص 120.
14. المرجع ذاته، ص 121.
15. Dr Louis Lortet, *La Syrie d'aujourd'hui, voyage dans la Phénicie, le Liban et la Judée, 1865-1880*, Paris, 1984, p. 73.
16. Dr Boyer, *Conditions hygiéniques actuelles de Beyrouth et de ses environs immédiats*, Lyon, 1897, p. 26.
17. Sehnaoui, *op. cit.*, p. 126.
18. المرجع ذاته، ص 127.
19. المرجع ذاته، ص 121.
20. Delaroière, *Voyage en Orient*, cité in Sehnaoui, *ibid.*, p. 130.
21. John Carne, *Syria and the Holy Land*, cité in *ibid.*, p. 128..
22. Farley, *op. cit.*, pp. 200-202.
23. Sehnaoui, *op. cit.*, p. 129.
24. Charmes, *op. cit.*, p. 203.
25. Sehnaoui, *op. cit.*, p. 131..
26. المرجع ذاته، ص 133.
27. المرجع ذاته، ص 136.
28. المرجع ذاته، ص 135.
29. Mantran, «Les débuts de la question d'Orient», in Mantran, *op. cit.*, p. 454.
30. Dumont, «La période des Tanzimat», in Mantran, *op. cit.*, p. 460.
31. Farley, *op. cit.*, pp. 29-30.
32. مذكور في Sehnaoui, *op. cit.*, p. 153.
33. Guys, *op. cit.*, pp. 83-84.
34. التميمي وبهجت: **ولاية بيروت**، المصدر المذكور، الجزء الأول، ص 21.
35. Charmes, *op. cit.*, p. 240.
36. المرجع ذاته.
37. Sehnaoui, *op. cit.*, pp. 154 et 158n.
38. Farley, *op. cit.*, p. 28.

40. عنبرة سلام الخالدي، المصدر المذكور، ص 25.

Marwan Buheiry, «The rise of the City of Beirut», in Lawrence I. Conrad (ed.), .41
The formation and perception of the Modern Arab World, studies by Marwan R. Buheiry, The Darwin Press, Princeton, 1993.

42. عنبرة سلام الخالدي، المصدر المذكور، ص 25.

Abbé Raboisson, *En Orient, récits et notes*, Paris, 1887, p. 312. .43

Nicolas de Bustros, *Je me souviens*, Beyrouth, Librairie Antoine, 1983, p. 16. .44

Marwan Buheiry, «Notes on the beginnings of the English Open. Air-Theater at .45
the SPC an Its Social Context», in Lawrence I. Conrad, *op. cit.*

Charmes, *op. cit.*, pp. 137. 138. .46

Sehnaoui, *op. cit.*, p. 174. .47

48. التميمي وبهجت، المصدر المذكور، الجزء الثاني، ص.ص 141-142.

Joseph Chami, *Le Mémorial du Liban*. Vol. 1: *Du Mont-Liban à l'Indépendance*, .49
1816-1943, Beyrouth, 2002, p. 32.

Bassem El-Jisr, «Les plages de Beyrouth: privatisation et communautarisation .50
d'espaces publics», in Nabil Beyhum (dir.), *Reconstruire Beyrouth. Les paris du possible*, Lyon, Maison de l'Orient, 1991, p. 76.

Khoury, *op. cit.*, p. 79. .51

52. المرجع ذاته، ص 81-83.

Blondel, *op. cit.*, p. 47. .53

Sehnaoui, *op. cit.*, p. 61. .54

Khoury, *op. cit.*, pp. 84-85 et 219. .55

Sehnaoui, *op. cit.*, pp. 68. .56

57. المرجع ذاته، ص 74.

58. المرجع ذاته، ص 69-70.

Khoury, *op. cit.*, pp. 106, 186-187, 193. .59

60. المرجع ذاته، ص 62.

Buheiry, «The rise of the City of Beirut», *loc. cit.* .61

Sehnaoui, *op. cit.*, p. 74. .62

Nawaf Salam, «L'émergence de la notion de citoyenneté en pays d'islam», in .63
Salam, *La condition Libanaise*, Beyrouth, Dar an-Nahar, 1998, pp. 124 et s.

64. قاسم أمين، تحرير المرأة، القاهرة 1899.

Michael Johnson, *Class and Client in Sunni Muslim Community and the Lebanese* .65
State, 1840-1985, London, Ithaca Press, 1986, p. 19.

Chevallier, *La Société du mont Liban, op. cit.*, pp. 272 et 294-296. .66

الفصل العاشر: الهويات الحائرة

1. Edward Atiyah, *An Arab Tells his Story, A Study in Loyalties*, London, 1946, pp. 11-12.
2. المرجع ذاته.
3. Lettre du P. Billotet à son frère, l'abbé Billotet, curé à Rozey, Franche-Comté, Beyrouth, 27 Juin 1959, in Kuri, *op. cit.*, III, p. 225.
4. H.H. Jessup, *Fifty-Three Years in Syria*, New York.
5. Fawaz, *op. cit.*, p. 19.
6. Guys, *Esquisse de l'état polique et commercial de la Syrie*, Paris, 1862.
7. *Ibid.*, p. 8-9.
8. Fawaz, *op. cit.*, pp. 48 et 55-56.
9. المرجع ذاته، ص 60.
10. المرجع ذاته، ص 49-50.
11. Chevallier, *La Société du mont Liban, op. cit.*, p. 291.
12. Fawaz. *op. cit.*, p. 51.
13. المرجع ذاته، ص 113.
14. المرجع ذاته، ص 60.
15. Ahmad Beydoun, *Identité confessionelle et temps social*, *op. cit.*
16. **الفجر الصادق**، ص 34.
17. عنبرة سلام، المصدر المذكور، ص 15.
18. Hansen, art. cité, p. 55
19. Johnson, *op. cit.*, p. 19.
20. *E.I.*, article «ahdâth» (C. Cahen).
21. Johnson, *op. cit.*, p. 20.
22. Fawaz, *op. cit.*, pp. 113-116.
23. Johnson, *op. cit.*, p. 22.
24. Akarli, *op. cit.*, pp. 163-183.
25. المرجع ذاته، ص 40.
26. Marwan Buheiry, «Bulos Nujaym and the Gand-Liban Idéal, 1908-1919» in Buheiry, *Intellectual Life..., op. cit.*, p. 62.
27. المرجع ذاته، ص 65-66.
28. *Ibid.*, p. 79; Thobie, *op. cit.*, pp. 379-384.
29. Thobie, *ibid.*, pp. 330.
30. انظر May Davie, *Atlas historique des orthodoxies de Beyrouth et du Mont-Liban*, 1999, Publications de l'Université de Balamand.
31. Laurens, *l'Orient arabe, op. cit.*, pp. 98-99.

32. Salibi, «Beirut under the Young Turks», p. 202.
33. Hansen, art. cité, pp. 47-48.
34. Boulos Noujaym alias Paul Jouplain, *La Question du Liban*, Paris, 1908.
35. Hansen, art. cité, p. 63.
36. Rashid Khalidi, «'Abd al-Ghani al-'Uraisi and al-Mufid. The Press and Arab Nationalism before 1914», in Buheiry, *op. cit.*, p. 39.
37. Hasan Kayali, *Arabs and Young Turks. Ottomanism and Islamism in the Ottoman Empire, 1908-1918*, Berkeley, University of California Press, 1997, pp. 40-44, 74, 176.
38. Khalidi, art. cité, p. 44.
39. فواز سعدون: **الحركة الإصلاحية في بيروت في أواخر العصر العثماني**، بيروت، دار النهار، 1994، ص 26-27.
40. **الإتحاد العثماني**، 22 يناير/ كانون الثاني 1912، مذكور في سعدون، المصدر المذكور، ص.ص 28-29.
41. المصدر المذكور، ص.ص 30-31 و34-35.
42. المصدر المذكور، ص 39-46.
43. Johnson, *op. cit.*, p. 21.
44. Khalidi, art. cité, p. 44.
45. سعدون، المصدر المذكور، ص 106.
46. **مذكرات سليم علي سلام**، المصدر المذكور، ص.ص 244-245 (الملاحق).
47. راجع Adel Ismail, *Le Liban. Documents diplomatiques et consulaires. Les sources françaises*, Beyrouth, vol 20, 106-107.
48. سعدون، المصدر المذكور، ص 116-117.
49. Johnson, *op. cit.*, p. 64.
50. Khoury, *op. cit.*, pp. 237-250.
51. Gérard Khoury, *La France et l'Orient arabe. Naissance du Liban moderne, 1914-1920*, Paris, Armand Colin, 1993, p. 67.
52. **مذكرات سليم علي سلام**، المصدر المذكور، ص.ص 48-49.
53. المرجع نفسه، ص 49.
54. Gérard Khoury, *op. cit.*, pp. 103 et s.

القسم الرابع

عاصمة الانتداب

الفصل الحادي عشر: فرنسا في انجازاتها

1. Pierre Fournié et Jean-Louis Riccioli, *La France et le Proche-Orient, 1916-1946*.

Une chronique photographique de la présence française en Syrie et au Liban, en Palestine, au Hedjaz et en Cilicie, Paris, Casterman, s.d., pp. 58-59.

2. Khoury, *op. cit.*, passim.

3. Khoury, *op. cit.*, p. 397. voir aussi Meir Zamir, *the Formation of Modern Lebanon*, Ithaca, Cornell University Press, 1988.

4. Charles. André Julien, «Léon Blum et les pays d'outre-mer», *in Léon Blum, chef du gouvernement, 1936-1937*, Paris, Fondation nationale des sciences politiques, 1967, pp. 337-390.

5. André Raymond, «La Syrie du royaume arabe à l'indépendance», in *la Syrie d'aujourd'hui*. Paris, Editions du CNRS, 1980.

6. Chevallier, «Lyon et la Syrie», in *Ville et travail*, *op. cit.*, p. 73.

7. Khaled Ziyadé, «Riad al-Solh, l'enfant des villes, l'homme des mutations», *l'Orient-Express*, n° 1, novembre 1995.

8. Fournié et Riccioli, *op. cit.*, p. 265.

9. المرجع ذاته.

10. المرجع ذاته، ص 192.

11. Elisabeth Jacquet, «La Mission laïque française en Syrie, 1925-1939», mémoire de maîtrise en histoire, Paris EV, 1987.

12. راجع, Howard M. Sachar, *Europe Leaves the Middle East 1936-1954*, New York, Alfred A. Knopf, 1972, pp. 5. 11.

13. Du Mesnil du Buisson, «Beyrout el-Quadimé», *Bulletin de la Société historique de l'Orne*, juillet-octobre 1921, tome XL.

14. Fournié et Riccioli, *op. cit.*, p. 97.

15. Chami, *op. cit.*, p. 81.

16. Rondot, «Beyrouth 1930», in Beyhum, *Reconstruire Beyrouth*, *op. cit.*, p. 71.

17. الياس وجرجي جدعون، دليل سوريا، 1923 و 1929.

18. Davie, «Beyrouth et ses faubourgs», art. cité, p. 86.

19. Marwan Buheiry, «Beirut's Role in the Political Economy of the French Mandate», Papers on Lebanon, Centre for Lebanese Studies, Oxford, s.d.p. 11.

20. Poupon, «La modernisation de Beyrouth», *Bulletin de l'Union éconocique de Syrie*, vol. VII, 1928, pp. 23. 29 et VIII, 1929, PP. 18. 22, cité in Buheiry, *ibid.*

21. Rondot, art. cité, p. 73.

22. R. Khoury, *op. cit.*

23. المرجع ذاته، ص 194.

24. المرجع ذاته، ص 193.

25. المرجع ذاته، ص 195.

26. *Revue phénicienne*, juillet 1919.
27. *Revue phénicienne*, décembre 1919.
28. «Le centre de T.S.F. de Beyrouth», BUES, vol. 9, 1930, pp. 10-11.
29. Hourani, *Histoire*, *op. cit.* p. 447.
30. May Seikaly *Haifa, Transformation of an Arab Society, 1918-1939*, London, I.B. Tauris, 2002, pp. 62-63, 68-69, 74.
31. المعرض، 1935/2/6 مذكور في Buheiry, p. 14.
32. مذكور في Buheiry, p. 13.
33. العاصفة، 1934/4/15 مذكور في Buheiry, *ibid.*
34. Chami, *op. cit.*, pp. 154-155.
35. Fournié et Riccioli, *op. cit.*, 172.
36. Chami, *op. cit.*, pp. 209-210.
37. Fournié et Riccioli, *op. cit.*, p. 155.

الفصل الثاني عشر : المدينة الفرنسية

1. André Geiger, *Le Liban et la Syrie*, Paris, Arthaud, 1932, coll. «Les Beaux Pays», cité in Joseph Chami, *op. cit.*, pp. 129-136.
2. Jade Tabet, «La ville imparfaite: le concept de centralité urbaine dans les projets d'aménagement et de reconstruction de Beyrouth», in Beyhum, *Reconstruire Beyrouth*, *op. cit.*, p. 88. Largement repris in Jade Tabet, «Beyrouth», Collection «Portrait de ville», supplément à *Archiscopie*, n° 17, Institut français d'architecture, 2001. Voir aussi Davie, *Beyrouth 1825-1875*, *op. cit.*, p. 73, «Beyrouth et ses faubourgs», art. cité p. 71.
3. Tabet, «La ville imparfaite», art. cité, p. 92.
4. Davie, «Beyrouth et ses faubourgs», art. cité, p. 87n.
5. Rondot, «Beyrouth 1930», art. cité p. 71
6. Fournié et Riccioli, *op. cit.*, p. 169.
7. François Béguin, *Arabisances: décor architectural et tracé urbain en Afrique du Nord, 1830-1950*, Dunod, Paris, 1983, cité in Tabet, «La ville imparfaite», p. 88.
8. Tabet, *ibid.*
9. المرجع ذاته، ص 89.
10. Davie, *Beyrouth 1825-1975*, *op. cit.*, p. 76.
11. Tabet, «La ville imparfaite», art. cité, p. 89.
12. لرؤية ذلك، مراجعة صور هدى قساطلي في كتابها *De pierres et de couleurs. Vie et mort des maisons du vieux Beyrouth*, *op. cit.*
13. لسان الحال، 1921/2/26 مذكور في Davie, «Beyrouth et ses faubourgs», art, cité, p. 89n.

14. Davie, *Beyrouth 1825-1975*, *op. cit.*, p. 89.

15. Davie, «Beyrouth et ses faubourgs», art. cité, p. 89.

16. Tabet, «La ville imparfaite», art. cité, p. 90.

17. *Ibid.*, p. 91.

18. Chami, *op. cit.*, p. 123.

19. غسان تويني وفارس ساسين: **البرج، ساحة الحرية وبوابة المشرق**، دار النهار، 2000، ص 116-122.

20. Davie, «Beyrouth et ses faubourgs», art. cité, p. 88.

21. Rondot, «Beyrouth 1930», art. cité, p. 71.

22. المرجع ذاته، ص 74.

23. Davie, «Beyrouth et ses faubourgs», art. cité, p. 92. انظر صور هدى قساطلي Houda Kassatly, *De pierres et de couleurs*, *op. cit.*

24. المرجع ذاته، ص 91.

25. Tabet, «La ville imparfaite», art. cité p. 92. انظر صور هدى قساطلي Houda Kassatly, *De pierres et de couleurs*, *op. cit.*

26. Tabet, «La ville imparfaite», art. cité, pp. 91-92.

27. Davie, «Beyrouth et ses faubourgs», art. cité, p. 91n.

28. Tabet, «La ville imparfaite», art. cité p. 91.

29. المرجع ذاته.

30. Davie, «Beyrouth et ses faubourgs», p. 90.

31. المرجع ذاته، ص 91.

32. Fournié et Riccioli, *op. cit.*, p. 185.

33. **لسان الحال**، 1921/2/23 مذكور في Davie, «Beyrouth et ses faubourgs», art. cité, p. 90.

34. Rondot, «Beyrouth 1930», art. cité, p. 73.

35. المرجع ذاته.

36. المرجع ذاته.

الفصل الثالث عشر: لبنان الكبير وباريس الصغرى

1. André Geiger, *Le Liban et la Syrie*, Paris, Arthaud, 1932, coll. «Les beaux Pays», cité in Joseph Chami, *op. cit.*, pp. 129-136.

2. Chami, *ibid.*, p. 127.

3. Rondot, «Beyrouth 1930», art. cité p. 74..

4. المرجع ذاته.

5. المرجع ذاته.

6. Chami, *op. cit.*, p. 207.

7. Geiger, *La Syrie et le Liban*, in Chami, *ibid.*, p. 131.

8. Chami, *ibid.*, p. 207.

9. Nicolas de Bustros, *Je me souviens*, *op. cit.*, p. 37 et Fournié et Riccioli, *op. cit.*, p. 145.

10. Fournié et Riccioli, *ibid.*

11. التميمي وبهجت، **ولاية بيروت**، المجلد الثاني: القسم الشمالي، المصدر المذكور، ص 10.

12. Fouad al-Khoury, «L'industrie hôtelière au Liban», *Revue phénicienne*, août 1919. Voir aussi Albert Naccache, «L'industrie de la villégiature au Liban», *Revue phénicienne*, décembre 1919.

13. Jacques Tabet, *Pour faire du Liban la Suisse du Levant*, Paris, 1924, cité in Buheiry, «Beirut's Role», art. cité p. 6.

14. Abderrahman Slaoui, *l'Affiche orientaliste*, Casablanca, Malika éditions, 1997. Voir aussi le portfolio *Excursions en Orient, 24 reproductions d'affiches de tourisme et de voyage*, Beyrouth, éditions Layali, 2002.

15. Fournié et Riccioli, *op. cit.*, p. 149.

16. Jisr, «Les plages de Beyrouth», art. cité p. 76.

17. *Ibid.*, p. 77 et Chami, *op. cit.*, p. 219.

18. Bustros, *op. cit.*, pp. 26-27.

19. *Ibid.*, pp. 27-34.

20. André de Fouquières, *Cinquante ans de panache*, Paris, p. 405, cité in préface à Bustros, *ibid.*, p. 9.

21. Chami, *op. cit.*, p. 128.

22. Nicolas de Bustros, *Je me souviens*, p. 26.

23. Chami, *op. cit.*, p. 128.

24. المرجع ذاته، ص 126.

25. Bustros, *op. cit.*, p. 122.

26. *Baalbeck, les riches heures du Festival*, Beyrouth, Dar an-Nahar, 1994.

27. Bustros, *op. cit.*, pp. 49-50.

28. Chami, *op. cit.*, p. 127.

29. Bustros, *op. cit.*, pp. 65-66 et 81-82.

30. المرجع ذاته، ص 43.

31. Fournié et Riccioli, *op. cit.*, p. 122.

32. Bustros, *op. cit.*, p. 65.

33. Maud Fargeallah, *Visages d'une époque*, Paris, Cariscript, 1989, pp. 91-104.

34. المرجع ذاته، ص 178-179.

35. Chami, *op. cit.*, p. 128.

36. المرجع ذاته، ص 126.

37. Fawaz Traboulsi, «Un amour de soie», l'*Orient-Express*, n° 6, mai 1996.
38. Denise Ammoun, *Alexis Boustros, Alba le défi culturel*, Beyrouth, 2002.
39. ساسين وسلام: **القرن في صور**، دار النهار، 2000، ص 93.
40. Chami, *op. cit.*, p. 217.
41. المرجع ذاته، ص 90.
42. المرجع ذاته، ص 217-220.
43. Pharès Zoghbi, *A livres ouverts, une vie de souvenirs*, Beyrouth, Dar an-Nahar, 1998, pp. 80-81.
44. Chami, *op. cit.*, p. 149.

الفصل الرابع عشر: بؤرة الاستقلال

1. Pharès Zoghbi, *À livres ouverts*, *op. cit.*, p. 41-49.
2. أعداد الصحف مصورة في غسان تويني، **كتاب الاستقلال بالوثائق والصور**، دار النهار، 1997.
3. ساسين وسلام، **القرن...**، ص 87 .
4. Chami, *op. cit.*, 106. 108.
5. المرجع ذاته، ص 124.
6. المرجع ذاته، ص 124-125.
7. Buheiri, *«Beirut's Role»*, art. cité, p. 15.
8. Michel Chiha, *Politique intérieure*, Beyrouth, éditions du Trident, 1964. (ميشال شيحا، **في السياسة الداخلية**، ترجمة أحمد بيضون، دار النهار، 2004).
9. Johnson, *op. cit.*, pp. 22-26.
10. Buheiri, *«Beirut's Role»*, art. cité, pp. 15-19.
11. المرجع ذاته، ص 20.
12. المرجع ذاته، ص 21.
13. Chami, *op. cit.*, p. 138-139.
14. ساسين وسلام، المرجع المذكور، ص 109.
15. المرجع ذاته ص 113.
16. المرجع ذاته، ص 77.
17. Jacques Couland, *Le Mouvement syndical au Liban, 1919-1946*, Paris, Editions sociales, 1970.
18. Howard M. Sachar, *Europe Leaves the Middle East, 1936-1954*, New York, Albert Knopf, 1972, pp. 194-217 et 282-334; Georges Catroux, *Dans la bataille de la Méditerranée: Egypte, Levant, Afrique du Nord, 1940-1944*, Paris, 1947, notamment pp. 272 et s.
19. Eyal Zisser, *Lebanon, the challenge of Independence*, London, I.B. Tauris, 2000,

pp. 68-82.

20. Salibi, *The Modern History of Lebanon*, *op. cit.*, pp. 151 a 191; Rabbath, *La formation historique du Liban constitutionnel et politique*, Beyrouth, 1986 (2e édition), Publications de l'Université Libanaise, pp. 455 à 493.

القسم الخامس

حاضرة العرب الكوسموبوليتية

الفصل الخامس عشر: سويسرا الشرق

1. André Chaib, «The Export Performance of a Small, open, Developping Economy: the Lebanese experience, 1951-74», thèse de PhD, University of Michigan, 1979, cité par Roger Owen, «The Economic History of Lebanon, 1943-1974: its Salients Features», in Halim Barakat (ed.), *Toward a Viable Lebanon*, Washington, 1988, p. 33.
2. Zisser, *Lebanon, the Challenge of Independence*, *op. cit.*, p. 209.
3. Zisser, *op. cit.*, p. 113.
4. الحياة، عدد 25 آذار/ مارس 1946.
5. Zisser, *op. cit.*, p. 121.
6. المرجع ذاته، ص 116، 121، 123.
7. المرجع ذاته، ص 112-119.
8. مذكور في Zisser, *ibid.*, p. 144.
9. Traboulsi, «Identités et solidarités croisées dans les conflits du Liban contemporain», thèse de doctorat en Histoire, Université de Paris. VIII, p. 267.
10. المرجع ذاته، ص 267-268.
11. المرجع ذاته.
12. المرجع ذاته .
13. المرجع ذاته، ص 278-297.
14. *The Economist*, 28 avril 1951, cité in Zisser, *op. cit.*, p. 199.
15. المرجع ذاته، ص 229.
16. *L'Orient*, 10 mars 1949
17. Zisser, *op. cit.*, p. 210.
18. المرجع ذاته، ص 171.
19. المرجع ذاته، ص 172.
20. المرجع ذاته، ص 173.

21. Carolyn Gates, «The Merchant Republic of Lebanon, Rise of an open Economy», Oxford, Centre for Lebanese Studies, 1989.
22. Traboulsi, *op. cit.*, pp. 269-270.
23. Zisser, *op. cit.*, p. 174.
24. المرجع ذاته، ص 159.
25. Traboulsi, *op. cit.*, p. 271.
26. المرجع ذاته، ص 273.
27. المرجع ذاته.
28. Chami, *Le Mémorial du Liban. Tome 2: Le Mandat de Béchara el Khoury*, Beyrouth, 2002, p. 429.
29. Traboulsi, *op. cit.*, p. 271.
30. المرجع ذاته، ص 270.
31. المرجع ذاته.
32. راجع Claude Dubar et Salim Nasr, *Les Classes sociales au Liban*, Paris, Presses de la Fondation nationale des sciences politiques, 1976, p. 71.
33. Kamal Salibi, *Crossroads to Civil War, Lebanon 1958-1976,* New York Caravan Books, 1976, pp. 29-30; Voir aussi Rabbath, *La Formation historique*, *op. cit.*, p. 573; et Traboulsi, *op. cit.*, p. 401.
34. Clement Henry Moore, «Le système bancaire Libanais. Les substituts financiers d'un ordre politique», *Maghreb-Machrek*, n° 99, janvier-février-mars 1983; Dubar et Nasr, *op. cit.*, p. 70.
35. Boutros Labaki, «L'évolution du rôle économique de l'agglomération de Beyrouth, 1960-1977», in Dominique Chevallier (éd.), *L'espace social de la ville arabe*, Paris, Maisonneuve et Larose, 1979, pp. 215-244.
36. Owen, «The Economic History», art cité, p. 35-37.
37. Samir Khalaf et Per Kongstad, *Hamra of Beirut. A Case of Rapid Urbanization*, Leyde, Brill, 1973, pp. 31-33, 111-113.
38. شهادة أحمد سعيد، احد مسؤولي «صوت العرب»، الإذاعة القاهرية، في حديث خاص مع المؤلف.
39. Salibi, *Crossroads to Civil War*, *op. cit.*
40. المرجع ذاته.
41. Denise Ammoun, *Alexis Boutros, Le Défi culturel*, *op. cit.*

الفصل السادس عشر: البيروتيات والبيروتيون

1. Asma Freiha et Viviane Ghanem, *Les Libanais et la vie au Liban de l'indépendence à la guerre, 1943-1975*, Beyrouth, Dar Assayad, 1992, p. 523.
2. Michel Bar-Zohar, *Le Prince rouge*, Paris, 1980.

3. ناصر السعيد: **تاريخ آل سعود**، بيروت، 1978، الصور خارج الترقيم.

4. Freiha et Ghanem, *op. cit.*, pp. 497-515.

5. «Quand la politique faisait rêver», dossier de *L'Orient-Express*, n° 14, janvier 1997.

6. Claude Eddé, «Fragments expurgés des carnets d'une jeune fille pas très rangée», in «Ah ! qu'il était joli le Liban de papa», dossier de *L'Orient-Express*, n° 14, janvier 1997.

7. Freiha et Ghanem, *op. cit.*, p. 518.

8. المرجع ذاته، ص 416-417.

9. محمد سويد، **يا فؤادي**، دار النهار، 1994.

10. Jean-Claude Boulos, *La Télé, quelle histoire*!, Beyrouth, FMA, 1996.

11. Freiha et Ghanem, *op. cit.*, p. 233.

الفصل السابع عشر: الليالي الحمراء والأسرّة الصغيرة البيضاء

1. Farouk Mardam-Bey, *La Cuisine de Zyriab*, Actes Sud, 1999.

2. Freiha et Ghanem, *op. cit.*, p. 414.

3. Melhem Chaoul, contribution au colloque «The Lebanese System: A Critical Re-assessment», Fondation Michel Chiha et Center for Behavioral Studies, 18-19 mai 2001.

4. راجع شوقي الدويهي، **المقاهي الشعبية في بيروت**، دار النهار، 2005.

5. Omar Boustany, «Berytian Graffitis», in «Ah! Qu'il était joli...», dossier de l'*Orient-Express*, art. cité

6. المرجع ذاته.

7. Khalaf et Kongstad, *op. cit.*, pp. 31, 33,110-111.

8. المرجع ذاته، ص 4 و 78.

9. المرجع ذاته، ص 48، 97-98 و 103 و 134.

10. المرجع ذاته، ص 127.

11. Omar Boustany, «Les dames du temps jadis», in «Ah ! qu'il était joli...», dossier de l'*Orient-Express*, art. cité.

12. شهادة مثبتة لـ Max-Pol Fouchet، تويني وساسين، **البرج...**، ص125.

13. Omar Boustany, «Les dames du temps jadis», article cité.

14. André Bourgey, «La guerre et ses conséquences géographiques au Liban», *Annales de géographie*, XCIV[e] année, n° 521, janvier. février 1985.

15. Omar Boustany, «Berytian Graffitis», article cité.

16. Freiha et Ghanem, pp. 408-409.

17. Chami, *Le Mémorial du Liban. Tome 3: Le mandat de Camille Chamoun, 1952-*

1958, Beyrouth, 2002, pp. 276-277 et 301.

18. المرجع ذاته، ص 258-259.

19. Freiha et Ghanem, *op. cit.*, p. 523.

20. المرجع ذاته، ص 531.

21. *Baalbeck, les riches heures du Festival, op. cit.*

الفصل الثامن عشر: رهانات ايكوشار الخاسرة

1. مذكور في Chami, *Le Mandat de Camille Chamoun, op. cit.*, pp. 160-161.

2. L'*Orient,* 24 octobre 1954.

3. Chami, *Le Mandat de Camille Chamoun, op. cit.*, p. 161.

4. Jade Tabet, «La ville imparfaite», in Beyhum, *Reconstruire Beyrouth, op. cit.*, pp. 93-95; voir aussi *Dictionnaire des architectes*, Paris, Encyclopaedia Universalis et Albin Michel, 1999, article «Écochard» (Michel Terrasse).

5. Tabet, art. cit., p. 93. Cf. Aussi Marlène Ghorayeb, «The Work and Influence of Michel Écochard in Lebanon», in Rowe & Sarkis, *Projecting Beirut, op. cit.*, p. 107.

6. Samir Abdulac «Damas: les années Écochard (1932-1982)», *Les Cahiers de la Recherche architecturale*, n° 10. 11, avril 1982.

7. Michel Écochard, *Casablanca, le roman d'une ville*, Paris, 1955.

8. Abdulac, art. cité, p. 42.

9. Marlène Ghorayeb, art. cité, p. 119.

10. Khalaf et Kongstad, *op. cit.*, p. 17.

11. Tabet, art. cité, p. 97.

12. Jade Tabet, «Beyrouth», Portrait de ville, Institut français d'architecture, supplément à *Archiscopie*, n° 17, 2001, p. 22.

13. المرجع ذاته، ص 23.

14. المرجع ذاته، ص 25.

15. Chami, *Le Mandat de Camille Chamoun, op. cit.*

16. Jade Tabet, «From colonial Style to Reginal Revivialism: Modern Architecture in Lebanan and the Problem of Cultural Identity», in Rowe & Sarkis, *op. cit.*, p. 88.

17. J. Tabet, «Beyrouth», *op. cit.*, pp. 24-25.

18. حديث مع جاد تابت.

19. J. Tabet, «From Colonial Style», art. cité, pp. 90-90.

20. J. Tabet, «Beyrouth», *op. cit.*, pp. 24-25.

21. Khalaf et Sarkis, *op. cit.*, pp. 21 et 22.

22. المرجع ذاته، ص 26-27.

23. Hashim Sarkis, *Circa 1958, Le Liban à travers les photos et les plans de Constantinos Doxiadis*, Beyrouth, Dar an-Nahar, 2003.

24. J. Tabet, «La ville imparfaite», art. cité, p. 97.

25. Michael Hudson, *The Precarious Republic. Political Modernization in Lebanon*, Boulder, Westview Encore Edition, 1985 (reprint de la première edition, 1968), p. 312.

26. Georges Riachi, «The city of Beirut, its Origin and Evolution», in *The New Metropolis in the Arab World*, Monroe Berger, New York, 1963.

27. Tabet, «La ville imparfaite», art. cité. p. 101.

28. *Dictionnaire des architectes*, *op. cit*.

29. مذكور في Tabet, «Beyrouth», *op. cit.*, p. 30.

30. Présentation du Schéma Directeur d'aménagement de Beyrouth et de sa banlieue par M. Ecochard (1963), cité in Tabet, «La ville imparfaite», art. cité, p. 102.

31. Tabet, «Beyrouth», *op. cit.*, p. 31.

32. Tabet, «La ville imparfaite», art. cité, p. 102.

33. Tabet, «Beyrouth», *op. cit.*, p. 23.

34. المرجع ذاته، ص 32.

35. J. Tabet, «From colonial Style...», art. cité, p. 97.

36. المرجع ذاته.

37. Helmut Ruppert, «Beyrouth, ville d'Orient marquée par l'Occident», traduit de l'allemand et présent par Eric Verdeil, Beyrouth, Les Cahiers du CERMOC, n° 21, 1999 (thèse de doctorat publiée initialement en 1969 par la Société franconienne de géographie à Erlangen), pp. 92-93.

38. Tabet, «From Colonial Style...», art. cité p. 100.

39. Tabet, «La ville imparfaite», art. cité, p. 104.

40. André Bourgey, «La guerre et ses conséquences géographiques au Liban», *Annales de géographie*, XCIV[e] année, n° 521, janvier-février 1985.

41. Albert Hourani, «Visions of Lebanon», in Halim Barakat (ed), *Toward A Viable Lebanon*, Center for Contemporary Arab Studies, Georgetown University, Croom Helm, 1988, p. 5.

42. André Bourgey, «La guerre et ses conséquences», art. cité.

43. المرجع ذاته.

44. Beyhum, «Espaces éclatés, espaces dominés. Etude de la recomposition des espaces publics centraux de Beyrouth de 1975 à 1990», thèse de doctorat à l'Université de Lyon III, 1995, p. 114.

45. Tabet, «La ville imparfaite», art. cité. p. 105.

46. Hourani, *loc. cit*.

47. Youssef Courbage et Philippe Fargues, *La Situation démographique au Liban*, Beyrouth, Publications de l'Université libanaise, 1974.

48. راجع Nabil Beyhum, «Espaces éclatés», *op. cit.*, p. 116.

49. Tabet, «La ville imparfaite», art. cit., p. 105.

50. Pierre Marthelot, «Une ville remplit son site: Beyrouth», *Méditerranée*, vol. 4, n° 3, 1963, pp. 37-55.

51. «Grand Beyrouth, trop grand Beyrouth», dossier de *l'Orient-Express*, n° 4, avril 1996.

52. Beyhum, «Espaces éclatés», *op. cit.*, p. 120.

53. المرجع ذاته، ص 121.

54. Catherine Paix, «La portée spatiale des activités tertiaires de commandement au Liban», *Revue Tiers Monde*, 1975, t. XVI, n° 61; André Bourgey, «l'évolution du centre de Beyrouth de 1960 à 1977», in Chevallier, *L'Espace social de la ville arabe*, *op. cit.*, pp. 244-278; et Chadia Sinno, «Evolution des structures urbaines du centre-ville de Beyrouth», mémoire de DESS en urbanisme, Université de Paris VIII, 1985-1986.

55. Chami, *Le Mandat de Camille Chamoun*, *op. cit.*, p. 135.

56. Beyhum, «Espaces éclatés», *op. cit.*, p. 121.

57. المرجع ذاته، ص113.

58. Ruppert, *op. cit.*, pp. 67-80.

59. المرجع ذاته، ص111-112.

القسم السادس

مدينة المخاطر كلها

الفصل التاسع عشر: على النصل

1. Elizabeth Picard, *Liban, Etat de discorde. Des fondations aux guerres fratricides*, Paris, Flammarion, 1988.

2. Maxime Rodinson, «La dimension religieuse du conflit libanais ou qu'est-ce qu'une communauté religieuse libanaise», actes du colloque de l'IFRI (mais 1986), *Liban: perspectives et réalités*, Paris, 1987, p. 73, repris in Maxime Rodinson, *L'Islam: politique et croyance*, Paris, Fayard, 1993.

3. Kamal Salibi, *A house of Many Mansions. The History of Lebanon Reconsidered*, London, I.B. Tauris, 1988, passim.

4. Nawaf Salam, «Les communautés religieuses au Liban», *Social Compass*, Vol, XXXV, n° 4, 1988, pp. 455-464, repris in *La Condition libanaise, op. cit.*

5. *E.I.*, article «dialectes orientaux» (H. Fleisch); et Samia Naim Sanbar, *Le Parler arabe de Ras-Beyrouth*, Paris, Geuthner, 1985.

6. راجع Chevallier, *La Société du mont Liban, op. cit.*, pp. 66 à 79 راجع ايضا Robert Cresswell, «Parenté et propriété foncière dans la montagne libanaise», *Etudes rurales*, n° 40, oct. déc. 1970.

7. راجع Chevallier, *La Société du mont Liban, op. cit.*, pp. 150-156.

8. Traboulsi, *op. cit.*, pp. 7-8.

9. Beyhum, «Espaces éclatés», *op. cit.*, p. 111.

10. Kamal Salibi, *op. cit.*, p. 55.

11. Salam, «Les communautés religieuses», art. cité

12. Rodinson, *loc. cit.*; cf. aussi Chevallier, *La Société du mont Liban, op. cit* p. XI.

13. Rodinson, *loc. cit.*

14. Ahmad Beydoun, *Identité confessionnelle et temps social chez les historiens Libanais contemporains*, Beyrouth, publications de l'Université libanaise, 1984.

15. Salam, «De l'individu», in *La Condition libanaise, op. cit.*

16. Edmond Rabbath, *La Formation historique, op. cit.*, p. 65, p. 138.

17. Benjamin Braude et Bernard Lewis, *Christians and Jews in the Ottoman Empire. The Functionning of a Plural Society*, New York, 1982.

18. Akarli, *op. cit.*, pp. 148-149.

19. راجع Edmond Rabbath, *La Constitution Libanaise: origines, textes et commentaires*, Beyrouth, Publications de l'université libanaise, 1982, pp. 517-518.

20. Rabbath, *La formation historique, op. cit.*, p. 616.

21. Nawaf Salam, «The Institution of the Presidency in Lebanon», in Nadim Shehadi et Bridget Harney (ed.), *Politics and the Economy in Lebanon,* Oxford, Center for Lebanese Studies, 1989, p. 69.

22. Michel Chiha, «Philosophie du confessionnalisme au Liban», in *Politique intérieure*, Beyrouth, Editions du Trident, 1964, pp. 303-306.

23. Albert Hourani, «Ideologies of the Mountain and the city», in Roger Owen (ed), *Essays on the Crisis in Lebanon*, London, Ithaca Press, 1976, p. 35.

24. Ahmad Beydoun, *Identité confessionnelle et temps social, op. cit.*, p. 520; cf. aussi Kamal Salibi, *House*, *op. cit.*, pp. 126-127.

25. Michael Hudson, *The precarious Republic*, *op. cit.*, p. 214.

26. المرجع ذاته، ص 232.

27. Ahmad Beydoun, *Identité confessionnelle et temps social*, *op. cit.*, p. 520; cf. aussi

Kamal Salibi, *House*, *op. cit.*, pp. 126-127.

28. Salibi, *ibid.*, pp. 87 à 107.

29. Hourani, «Idéologies», art. cité, p. 39; et Salibi, *House*, *op. cit.*, pp. 167 à 181.

30. انظر Chevallier, *La Société du mont Liban*, *op. cit.*, p. 291.

31. وضاح شرارة: **السلم الأهلي البارد، لبنان المجتمع والدولة 1964-1967**، بيروت، 1980، ص 390.

32. Zisser, *op. cit.*, p. 202.

33. الحياة، عدد 15 يوليو/ تموز 1952.

34. Rabbath, *La formation historique*, *op. cit.*, p. 560; Hudson, *op. cit.*, p. 96.

35. راجع Irene Gendzier, «The Declassified Lebanon, 1948-1958», in Barakat (ed.), *Toward a Viable Lebanon*, *op. cit.*, pp. 178-179.

36. Chevallier, *La Société du mont Liban*, p. 24.

37. W.C. Eveland, *Ropes of Sand. America's Failure in the Middle East*, London & New York, W. N. Norton, 1980, notamment pp. 252 et 266.

38. Nawaf Salam, «L'Insurrection de 1958 au Liban», thèse de doctorat en Histoire, Université de Paris-Sorbonne, 1979.

39. Hudson, *op. cit.*, p. 290; Traboulsi, *op. cit.*, p. 374.

40. Malcolm Kerr, *The Arab Cold War, Gamal 'Abd al-Nasir and his Rivals: 1958-1970*, New York, Oxford University Press, 1971.

41. Rabbath, *La Formation historique*, *op. cit.*, p. 581.

42. انظر Samir Kassir et Farouk Mardam-Bey, *Itinéraires de Paris à Jérusalem. La France et le conflit israélo-arabe*, t. 2: *1958-1991*, Paris, Les livres de la Revue d'études palestiniennes, 1993, pp. 35-43.

43. Rabbath, *La Formation historique*, *op. cit.*, p. 570.

44. وضاح شرارة: **السلم الأهلي البارد**، المصدر المذكور، ص 60-61.

45. المرجع نفسه، ص 443.

46. المرجع نفسه، ص 87.

47. Johnson, *op. cit.*, pp. 142-143.

48. شرارة، المصدر المذكور، ص49; (Frank Stoakes, «The Supervigilantes: the Lebanese Kataeb Party as a Builder, Surrogate and Defender of the State», *Middle Easterm Studies*, vol. 11, n° 3, October 1975; et *Traboulsi*, *op. cit.*, p. 390).

49. Zisser, *op. cit.*, p. 215.

50. المرجع نفسه، ص.216.

51. راجع Charles Hélou, *Mémoires, 1946-1965*, s.l., 1984, pp. 105-130.

52. حديث مع المؤلف.

الفصل العشرون : نهاية البراءة

1. Benassar (pseudonyme de Béchara Menassa, haut fonctionnaire de la Chambre des députés), *Anatomie d'une guerre et d'une occupation*, Paris, Galilée, 1978, p. 45.
2. شرارة، المصدر المذكور، ص 457.
3. Wade R. Goria, *Sovereignty and Leadership in Lebanon, 1943-1976*, London, Ithaca Press, 1985, pp. 89-90.
4. Frederic C. Hof, *Galilee Divided. The Israel-Lebanon Frontier, 1916-1984*, Boulder et London, Westview Press, 1985, pp. 66-67.
5. المرجع نفسه، ص 86.
6. Maxime Rodinson, *Israel et le refus arabe. 75 ans d'histoire*, Paris, Le Seuil, 1968, notamment p. 218.
7. Rosemary Sayigh, *Palestinians: From Peasants to Revolutionaries*, London, Zed Press, 1979, pp. 130-136.
8. Alan Hart, *Arafat, Terrorist or Peacemaker*, London, Sidgwick and Jackson, 1984, pp. 214-215.
9. Hof, *op. cit.*, pp. 46-47 et 74.
10. Bard O'Neill, *Armed Stuggle in Palestine: A Political-Military Analysis*, Boulder, Westview Press, 1978, p. 242.
11. Xavier Baron, *Les Palestiniens, un peuple*, Paris, Le Sycomore, 1984 (nouvelle édition), pp. 189, et Hof, *op. cit.*, p. 72.
12. Hof, *op. cit.*, pp. 17-21, et Rashid Khalidi, *Under Siege: PLO decisionmaking during the 1982 War*, New York, Columbia University Press, 1986, p. 21.
13. Traboulsi, *op. cit.*, p. 410.
14. وضاح شرارة، المصدر المذكور، ص 742 (هـ) وفواز طرابلسي، المصدر المذكور، ص 398.
15. R. Sayigh, *op. cit.*, pp. 156-171; voir aussi Rex Brynen, *Sanctuary and Survival. The PLO in Lebanon*, Boulder, Westview Press, 1990, p. 52.
16. Baron, *op. cit.*, pp. 193 et s.
17. Baron, *op. cit.*, pp. 198 et 201-202.
18. *Ibid.*, p. 202; et Brynen, *op. cit.* pp. 58-59 .
19. Goria, *op. cit.*, pp. 126-127.
20. Mahmoud Riad, «Au cœur du Conflit», entretien à la *Revue d'études palestiniennes*, n° 19, printemps 1986.
21. Georges Kossaifi, Contribution à l'étude démographique de la population palestinienne, thèse de doctorat, 2 vol., Université de Paris. I, 1976; et Salma Husseini, Redistribution de la population du Liban pendant la guerre civile (1975-1988), thèse de doctorat, EHESS, Paris, 1992; voir aussi son article «Les mouvements de population

palestinienne pendant la guerre civile libanaise», *Revue d'études palestiniennes*, n° 50 (hiver 1994), p. 112.

22. راجع Bourgey, «La guerre et ses conséquences», art. cité.

23. Fiches du monde arabe, Beyrouth, n° 933.

24. Michael Hudson, «The Palestinian Factor in the Lebanese Civil War», *Middle East Journal*, Vol. 32, n° 3 (Summer 1978), p. 263.

25. Kassir et Mardam-Bey, *op. cit.*, t. 2 pp. 68-69.

26. Stoakes, «The Supervigilantes», art. cité.

27. Johnson, *op. cit.*, p. 83.

28. Kamal Joumblatt, *Pour le Liban*, avec la collaboration de Philippe Lapousterle, Paris, Stock, 1977. Cf. aussi Nawaf Salam, «Lecture dans le miroir des Mémoires», in *Mythe et politique au Liban*, Beyrouth, FMA, 1984.

29. Hudson, *op. cit.*, p. 178 à 200.

30. وضاح شرارة، المصدر المذكور، ص 634.

31. مهدي عامل (حسن حمدان): **مقدمات نظرية لدراسة آثار الفكر الاشتراكي في حركة التحرر الوطني العربية**، بيروت، دار الفارابي المجلد الثاني، 1972.

32. **لماذا منظمة الاشتراكيين اللبنانيين؟** (نص لمحسن ابراهيم)، بيروت 1970.

33. **العمل الاشتراكي وتناقضات الوضع اللبناني**، بيروت 1969، نُشر حاملاً توقيع: «اشتراكيون لبنانيون» أما محرراه فهما وضاح شرارة وفواز طرابلسي.

34. Halim Barakat, «Social Factors Influencing Attitudes of University Sudents in Lebanon Towards the Palestinian Resistance Movement», *Journal of Palestine Studies*, n° 1, 1971.

35. Brynen, *op. cit.*, p. 66.

36. Baron, *op. cit.*, p. 303.

37. Boutros Labaki, «Rapports de force intercommunautaires et genèse des conflits internes au Liban», Consortium européen de recherches poliques, Fribourg, 1983 (atelier Violence and Conflict in Divided Societies).

38. Johnson, *op. cit.*, p. 33.

39. Labaki, *ibid.*

40. Dubar et Nasr, *op. cit.*, p. 276.

41. Traboulsi, *op. cit.*, p. 425.

42. Beyhum, «Espaces éclatés», *op. cit.*, p. 124; cf. aussi Fouad Khuri, *From Village to Suburb. Order and change in Greater Beirut*, 1975, Chicago University Press.

43. Beyhum, «Espaces éclatés», *op. cit.*, p. 125.

44. Bourgey, «La guerre et ses conséquences», art. cit.

45. Beyhum, «Espaces éclatés», *op. cit.*, p. 125.

الفصل الواحد والعشرون: بيروت يا بيروت

1. Ghassan Salamé, *Le Théâtre politique au Liban*, Beyrouth, Publications du Centre culturel universitaire, Dar al-Machreq Editeurs, 1975.
2. راجع اطروحة (قيد الاعداد) Agnès Favier, «Générations politiques au Liban», Université d'Aix-Marseille 3.
3. راجع Dubar et Nasr, *op. cit.*, p. 328.
4. Halim Barakat, «Social Factors Influencing Attitudes of University students in Lebanon Towards the Palestinian Résistance Movement», *Journal of Palestine Studies*, n° 1, 1971; voir aussi J. Jabra et N. Jabbara, «Political Culture and the Rural. Urban Dichotomy in Lebanon», *Political Science Review* (Jaipur), vol. 19, n° 3, juillet. septembre 1980 (نتائج استطلاع اجري عام 1969 مع عيّنة من التلاميذ).
5. وضاح شرارة، المصدر المذكور، ص 767.
6. Traboulsi, *op. cit.*, p. 767.
7. Hourani, «Ideologies», in R. Owen (ed), *Essays on the Crisis in Lebanon*, *op. cit.* p. 40.
8. Traboulsi, *op. cit.*, p. 444.
9. Goria, *op. cit.*, pp. 142-146.
10. Walid Khalidi, *Conflict and Violence in Lebanon, Confrontation in the Middle East*, Harvard Center for International Affairs, 1979, p. 73.
11. Johnson, *op. cit.*, p. 149.
12. Fouad Ajami, *The Vanished Imam. Musa al-Sadr and the Shia of Lebanon*, Cornell University Press, 1986, pp. 48-49.
13. Traboulsi, *op. cit.*, pp. 17-18 et 28-30.
14. راجع Jabra et Jabbara, «Political Culture», art. cité.
15. Goria, *op. cit.*, pp. 157-172.
16. Philippe Rondot, *Le Proche-Orient à la recherche de la paix, 1973-1982*, Paris, PUF, 1982, p. 68.
17. جوزيف أبو خليل، قصة الموارنة في الحرب، بيروت 1990، ص 17-18 و27.
18. Kassir, *La Guerre du Liban, op. cit.*, pp. 76-79.
19. Stoakes, «The Supervigilantes», art. cit.; voir aussi Karim Pakradouni, *La Paix manquée. Le mandat d'Elias Sarkis*, Beyrouth, Editions FMA, 1983, p. 100; انظر ايضاً جوزف أبو خليل، المصدر المذكور، ص 18.
20. راجع Traboulsi, *op. cit.*, p. 454.
21. راجع Johnson, *op. cit.*, p. 180.

22. Ibid., p. 178 و W. Khalidi, p. 99.
23. راجع Johnson, *op. cit.*, p. 182.
24. Kassir, *La Guerre du Liban, op. cit.*, pp. 95-102.
25. *Ibid.*, passim.
26. حول الحرب بين 1975 و1982 راجع Kassir, *La guerre du Liban*, *op. cit.*

المصادر والمراجع

الوثائق: الأخبار والرحلات والمذكرات

- صالح بن يحيى: **تاريخ بيروت**، بيروت، دار المشرق، 1969.
- رفيق التميمي وبهجت محمد: **ولاية بيروت**، بيروت 1917، طبعة جديدة، دار لحد خاطر، 1979.
- الياس وجرجي جدعون: **دليل سوريا**، بيروت، 1923 و1929.
- نديم دمشقية: **محطات في حياتي الدبلوماسية**، بيروت ، دار النهار، 1995.
- جرجي زيدان: **مذكرات بيروت**، دار الكتاب الجديد، 1968.
- عنبرة سلام الخالدي: **جولة في الذكريات بين لبنان وفلسطين**، دار النهار، 1978، مقدمة كمال الصليبي.
- **مذكرات سليم علي سلام**، تحقيق وتعليق حسّان حلاق، بيروت الدار الجامعية، 1981.
- أحمد فارس الشدياق، **الساق على الساق في ما هو الفارياق.**
- **الفجر الصادق لجمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت**، أعمال السنة الأولى، مطبعة ثمرات الفنون، 1297 هـ (1879م).
- جوناس كينغ: **وداع يونس كين إلى أحبابه في فلسطين وسوريا (5 ابريل/ نيسان 1825).**

- Armagnac, Baron d', *Nézib et Beyrouth, souvenirs d'Orient de 1833 à 1841*, Paris, 1844.
- Arvieux, chevalier Laurent d', *Mémoires*, Paris, 1735.
- Atiyah, Edward, *an Arab Tells his Story. A study in Loyalties*, London, 1946.
- Barrès, Maurice, *Une enquête au pays du Levant*, Paris, Plon, 1923.
- Blondel, Edouard, *Deux ans en Syrie et en Palestine*, Paris, 1840.
- Boulos, Jean-Claude, *La télé, quelle histoire*! Beyrouth, FMA, 1996.
- Boyer, *Conditions hygiéniques actuelles de Beyrouth et de ses environs immédiats*, Lyon, 1897.
- Burckhardt, J.L., *Travels in Syria and the Holy Land*, London, 1822.
- Bustros, Nicolas de, *Je me souviens*, Beyrouth, Librairie Antoine, 1983.
- Carne, John, *Syria, The Holy Land, Asia Minor*, Illustrations of William Bartlett, London, 1936, 3 volumes.
- Catroux, Georges, *Dans la bataille de la Méditerranée: Egypte, Levant, Afrique du Nord, 1940-1944*, Paris, 1947.
- Charmes, Gabriel, *Voyage en Syrie, impressions et souvenirs*, Paris, Calmann-Lévy, 1891.

- Delaroière, *Voyage en Orient*, 1836.

- Fargeallah, Maud, *Visages d'une époque*, Paris, Cariscript, 1989.

- Farley, Lewis, *Two years in Syria*, London, 1858.

- Geiger, André, *Le Liban et la Syrie*, Paris, Arthaud, coll. «Les beaux Pays», 1932.

- Guys, Henri, *Beyrouth et le Liban, Relation d'un séjour de plusieurs années dans ce pays*, Paris, 1850 (reprint Beyrouth, Dar Lahd Khater, 1985).

- Guys Henri, *Esquisse de l'état politique et commercial de la Syrie*, Paris, 1862.

- H.H. Jessup, *Fifty-Three Years in Syria*, New York, 1910.

- Hélou, Charles, *Mémoires, 1946-1965*, s.l., 1984.

- Ismail, Adel, *Le Liban. Documents diplomatiques et consulaires. Les sources françaises*. Beyrouth, vol. 20.

- Kuri, Sami, s.j., *Une histoire du Liban à travers les archives des Jésuites*, I. 1816-1842; II. 1846-1862, III. 1863-1973, Beyrouth, Dar al-Machreq, 1985, 1991 et 1996.

- Laborde, Léon de, *Voyage de la Syrie*, Paris, 1837.

- Lortet, Louis, *La Syrie d'aujourd'hui, voyage dans la Phénicie, le Liban et la Judée, 1865-1880*, Paris, 1984.

- Michaud, M. et Poujoulat, M., *Correspondance d'Orient, 1830-1831*, Paris, 1853.

- Nerval, Gérard de, *Voyage en Orient*, Paris, 1875.

- Raboisson, abbé, *Récit et notes en Palestine et en Syrie, par l'Egypte et le Sinai*, Paris, 1886.

- Randal, Jonathan, *La Guerre de mille ans*, Paris, Grasset, 1984.

- Tabet, Jacques, *Pour faire du Liban la Suisse du Levant*, Paris, 1924.

- Urquhart, David, *The Lebanon (Mount Souria): a History and a Diary*, London, 1860, III, pp. 178-181..

- Volney, *Voyage en Egypte et en Syrie*, édité par Jean Gaulmier, Paris, Mouton, 1959.

- Zoghbi, Pharès, *A livres ouverts, une vie de souvenirs*, Beyrouth, Dar an-Nahar, 1998.

مجموعات صور وكتب بالوثائق والصور

– غسان تويني مع فارس ساسين ونواف سلام: **كتاب الاستقلال بالصور والوثائق**، بيروت، دار النهار، 1997.

– غسان تويني وفارس ساسين: **البرج، ساحة الحرية وبوابة المشرق**، بيروت، دار النهار، 2001.

– فارس ساسين ونواف سلام: **لبنان القرن في صور**، بيروت، دار النهار، 2000.

– طه الولي: **بيروت في التاريخ والحضارة والعمران**، دار العلم للملايين، 1993.

- Baalbeck, *Les riches heures du Festival*, Beyrouth, Dar an-Nahar, 1994.

- Chami, Joseph, *Le Mémorial du Liban*. Vol 1: *Du Mont-Liban à l'Indépendance, 1861-1943*, Beyrouth, 2002.

- Chami, Joseph, *Le Mémorial du Liban*. Tome 2: *Le Mandat Béchara el Khoury*, Beyrouth, 2002.

- Chami, Joseph, *Le Mémorial du Liban*. Tome 3: *Le Mandat Camille Chamoun, 1952-1958*, Beyrouth, 2002.

- Debbas, Fouad, *Beyrouth notre mémoire*, Paris, éditions Henri Berger, 3e édition, 1994.

- Debbas, Fouad, *Des photographes à Beyrouth, 1840-1918*, Paris, Marval, 2001.

- Fani, Michel, *L'Atelier de Beyrouth: Liban 1848-1914*, Paris, éditions de l'Escalier, 1996.

- Fournié, Pierre, et Riccioli, Jean-Louis, *La France et le Proche-Orient, 1916-1946*. Une chronique photographique de la présence française en Syrie et au Liban, en Palestine, au Hedjaz et en Cilicie, Paris, Casterman, s.d.

- Freiha, Asma et Ghanem, Viviane *Les Libanais et la vie au Liban de l'Indépendance à la guerre, 1943-1975*, Beyrouth, Dar Assayad, 1992.

- el-Hage, Badr, *Des photographes à Damas*, Paris, Marval, 2001.

- Jidéjian, Nina, *Beyrouth à travers les âges*, Beyrouth, Librairie orientale, 1993.

- Kassatly, Houda, *Beiteddine, silences et lumières*, Beyrouth, Layali, 2001.

- Kassatly, Houda, *De pierres et de couleurs. Vie et mort des maisons du vieux Beyrouth,* Beyrouth, Layali, 1998.

- Kassatly, Houda, *Si proche, si extrême. Rituels en sursis du Liban et de Syrie*, Beyrouth, Layali, 1998.

- Paget, Claire, *Murs et plafonds peints. Liban, XIXe siècle en images*, Beyrouth, Éditions Terre du Liban, 2000.

- Sarkis, Hashim, *Circa 1958. Le Liban à travers les photos et les plans de Constantinos Doxiadis*, Beyrouth, Dar an-Nahar, 2003.

- Slaoui, Abderrahman, *L'Afiche orientaliste*, Casablanca, Malika éditions, 1997.

- *Excursions en Orient. 24 reproductions d'affiches de tourisme et de voyage*, Beyrouth, Layali, 2002.

الدراسات والابحاث

- شفيق جحا: **داروين وأزمة 1882 بالدائرة الطبية وأول ثورة طلابية في العالم العربي بالكلية السورية الانجيلية**، بيروت، 1991.
- حسّان حلاق: **بيروت المحروسة في العهد العثماني**، بيروت، الدار الجامعية.
- أسد رستم: «إدارة الشام، روحها وهيكلها وآثارها»، مقالة في **ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا، 1848-1949**، منشورات الجمعية الملكية للدراسات التاريخية في مصر، طبعة جديدة، القاهرة، دار مدبولي، 1990.
- لطيفة محمد سالم: **الحكم المصري في الشام**، القاهرة، دار مدبولي، الطبعة الثانية، 1990.
- فواز سعدون: **الحركة الإصلاحية في بيروت وفي أواخر العصر العثماني**، بيروت، دار النهار، ص 26-27.
- محمد سويد: **يا فؤادي**، بيروت، دار النهار 1994.
- وضاح شرارة: **السلم الأهلي البارد، لبنان، المجتمع والدولة، 1964-1967**، بيروت، 1980.
- لويس شيخو: **بيروت، تاريخها وآثارها**، بيروت، دار المشرق، الطبعة الثالثة، 1993 (الطبعة الأولى 1926)
- أنطوان عبد النور: **تجارة صيدا مع الغرب**، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية.
- مي عبود أبي عقل: **وسط بيروت بين الاكتشافات والجرافات**، بيروت، 1999.

- Abdel-Nour, Antoine, *Introduction à l'histoire urbaine de la Syrie ottomane (XVIe siècle-XVIIIe siècle)*, Beyrouth, Publications de l'Université libanaise, 1982.

- Ajami, Fouad, *The Vanished Imam. Musa al-Sadr and the Shia of Lebanon*, Cornell University Press, 1986.

- Akarli, Engin, *The Long Peace. Ottoman Lebanon, 1861-1920*, London, I.B. Tauris, 1993.

- Ammoun, Denise, *Alexis Boutros, Alba le défi culturel*, Beyrouth, 2002.

- Ayalon, David, *Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom. A Challenge to a Medival Society*, London, 1956.

- Barakat, Halim (ed.) *Toward a Viable Lebanon*, Center for Contemporary Arab Studies, Georgetown University, Croom Helm, 1988.

- Baron, Xavier, *Les Palestiniens, un peuple*, Paris, Le Sycomore, 1984 (nouvelle édition).

- *Beirut Crossroads of Cultures*, Salwa Nassar Foundation for Lebanese Studies, Beyrouth, Librairie du Liban.

- Berque, Jacques, *Les Arabes d'hier à demain*, Paris, Seuil, 1960.

- Beydoun, Ahmad, *Identité confessionnelle et temps social chez les historiens libanais contemporains*, Beyrouth, Publications de l'Université Libanaise, 1984.

- Beyhum, Nabil (dir.), *Reconstruire Beyrouth. Les paris du possible*, Lyon,

Maison de l'Orient, 1991.

- Beyhum, Nabil, «Espaces éclatés, espaces dominés. Etude de la recomposition des espaces publics centraux de Beyrouth de 1975 à 1990», thèse de doctorat à l'université de Lyon III, 1995.

- Braude, Benjamin et Lewis, Bernard, *Christians and Jews in the Ottoman Empire. The Functionning of a Plural Society*, New York, 1982.

- Brynen, Rex, *Sancturay and Survival. The PLO in Lebanon*, Boulder, Westview Press, 1990.

- Buheiry, Marwan (ed.), *Intellectual Life in the Arab East, 1890-1939*, Center for Arab and Middle East Studies, American University of Beirut, 1981.

- Buheiry, Marwan, «Beirut's Role in the Political Economy of the French Mandate», Oxford, Papers on Lebanon, Centre for Lebanese Studies, s.d.

- Chaib, André, «The Export Performance of a Small, Open, Developping Economy: The Lebanese experience, 1951-74», thèse de PhD, University of Michigan, 1979.

- Charles. Roux, François, *Les Echelles de Syrie et de Palestine*, Paris, 1928.

- Chevallier, Dominique (dir.), *L'Espace social de la ville arabe*, Paris, Maisonneuve et Larose, 1979.

- Chevallier, Dominique, *La Société du mont Liban à l'époque de la Révolution industrielle en Europe*, Paris, Geuthner, 1971.

- Chevallier, Dominique, *Ville et travail en Syrie*, Paris, Maisonneuve et Larose, 1982.

- Collinet, Paul, *Histoire de l'École de droit de Beyrouth*, Paris, Sirey, 1925.

- Conrad, Lawrence I. (ed.), *The Formation and Perception of the Modern Arab World, studies by Marwan R. Buheiry*, Princeton, The Darwin Press, 1993.

- Couland, Jacques, *Le Mouvement syndical au Liban*, 1919-1946, Paris, Editions sociales, 1970.

- Courbage, Youssef, et Fargues, Philippe, *La situation démographique au Liban*, Beyrouth, Publications de l'Université libanaise, 1974.

- Davie, May, «Beyrouth et ses faubourgs (1840-1940)», *Les cahiers du Cermoc*, n° 15, Beyrouth, 1996.

- Davie, May, *Atlas historique des orthodoxes de Beyrouth et du Mont-Liban*, Publications de l'Université de Balamand, 1999.

- Davie, May, *Beyrouth 1825-1975, un siècle et demi d'urbanisme*, Beyrouth, Ordre des Ingénieurs et des architectes, 2001.

- Dubar, Claude, et Nasr, Salim, *Les Classes sociales au Liban*, Paris, Presses

de la Fondation nationale des sciences politiques, 1976.
- Dubertret, Louis, *Géologie du site de Beyrouth*, Beyrouth, 1945.
- *Encyclopédie de l'Islam*, Leyde, Brill (s.d.).
- Fani, Michel, *Dictionnaire de la peinture au Liban*, Paris, éditions de l'Escalier, 1998.
- Gates, Carolyn, «The Merchant Republic of Lebanon, Rise of an Open Economy», Oxford, Centre for Lebanese Studies, 1989.
- Goria, Wade R., *Sovereignty and Leadership in Lebanon, 1943-1976,* London, Ithaca Press, 1985.
- Hof, Frederic C., *Galilee Divided. The Israel-Lebanon Frontier, 1916-1984*, Boulder et London, Westview Press, 1985.
- Hourani, Albert, «Ideologies of the Mountain, Ideologies of the City», in Roger Owen, *Essays on the Crisis in Lebanon*, London, Ithaca Press, 1976.
- Hourani, Albert, *Arabic Thought at the Liberal Age, 1789-1939*, Oxford, 1970.
- Hourani, Albert, *Histoire des peuples arabes*, Paris, Seuil, coll. «Points», 1992.
- Hudson, Michael, *The precarious Republic. Political Modernization in Lebanon,* Boulder, Westview Encore Edition, 1985 (first edition, 1968).
Husseini, Salma, «Redistribution de la population du Liban pendant la guerre civile (1975-1988)», thèse de doctorat, EHESS, Paris, 1992; أنظر أيضاً مقالتها «Les mouvements de population palestinienne pendant la guerre civile Libanaise», *Revue d'études palestiniennes*, n° 50, (hiver 1994).
- Jacquet, Elisabeth, «La Mission laïque française en Syrie, 1925-1939», mémoire de maîtrise en histoire, Paris IV, 1987.
- Johnson, Michael, *Class and Client in Sunni Beirut, The sunni Muslim Community and the Lebanese State, 1840-1985*, London, Ithaca Press, 1986.
- Kassir, Samir, et Mardam-Bey, Farouk, *Itinéraires de Paris à Jérusalem. La France et le conflit israélo-arabe, t. 2: 1958-1991*, Paris, Les Livres de la Revue d'études palestiniennes, 1993.
- Kassir, Samir, *La Guerre du Liban. De la dissension régionale au conflit régional (1975-1982),* Paris, Karthala/Cermoc, 2000 (2e édition).
- Kayali, Hasan, *Arabs and Young Turks. Ottomanism, Arabism and Islamism in the Ottoman Empire, 1908-1918*, Berkeley, University of California Press, 1997.
- Kerr, Malcolm, *The Arab Cold* War, *Gamal 'Abd al-Nasir and his Rivals:*

1958-1970, New York, Oxford University Press, 1971.

- Khalaf, Samir et Kongstad, Per, *Hamra of Beirut. A Case of Rapid Urbanization*, Leyde, Brill, 1973.

- Khalidi, Rashid, *Under Siege: PLO Decisionmaking During the 1982 War*, New York, Columbia University Press, 1986.

- Khalidi, Walid, *Conflict and Violence in Lebanon, Confrontation in the Middle East*, Harvard Center for International Affairs, 1979.

- Khoury, Gérard, *La France et l'Orient arabe. Naissance du Liban moderne, 1914-1920*, Paris, Armand Colin, 1993.

- Khoury, Robert, *La Médecine au Liban. De la Phénicie à nos jours*, Beyrouth, Les Editions ABCD, s.d.

- Khuri, Fouad, *From Village to Suburb. Order and Change in Greater Beirut,* Chicago University Press, 1975.

- Kossaifi, Georges, «Contribution à l'étude démographique de la population palestinienne», thèse de doctorat, 2 tomes, université de Paris I, 1976.

- Laurens, Henry, *L'Orient arabe. Arabisme et islamisme de 1798 à 1945*, Paris, Armand colin, 1993.

- Laurens, Henry, *Le Royaume impossible. La France et la genèse du monde arabe*, Paris, Armand Colin, 1990.

- Lewis, Bernard, *Le Langage politique de l'Islam*, Paris, 1988.

- Ma'oz, Moshe, *Ottoman Reform in Syria and Palestine*, 1840-1861, Oxford, 1968.

- Makdissi, Ussama, *The Culture of Sectarianism. Community, History and Violence in Nineteenth-Century Ottoman Lebanon*, Berkeley, University of California Press, 2000.

- Mantran, Robert (dir.), *L'Empire ottoman*, Paris, Fayard, 1989.

- *Mélanges à la mémoire de Paul Huvelin, livre du 25^e^ anniversaire de l'école française de droit de Beyrouth*, Paris, Syrie, 1938.

- Mouterde, René s.j., *Regards sur Beyrouth, phénicienne, hellénistique et romaine,* Beyrouth, Imprimerie catholique, 1966 (initialement paru in *Mélanges de l'Université Saint-Joseph*, XL, 1964).

- Naïm-Sanbar, Samia, *Le Parler arabe de Ras-Beyrouth*, Paris, Geuthner, 1985.

- O'Neill, Bard, *Armed Stuggle in Palestine: A Political. Military Analysis*, Boulder, Westview Press, 1978.

- Picard, Elizabeth, *Liban, État de discorde. Des fondations aux guerres frat-*

ricides, Paris, Flammarion, 1988.

- Rabbath, Edmond, *La Constitution Libanaise: origines, textes et commentaires*, Beyrouth, Publications de L'Université Libanaise, 1982.

- Rabbath, Edmond, *La Formation historique du Liban Consitutionnel et politique*, Beyrouth, 1986 (2e édition), Publications de l'Université Libanaise.

- Rafeq, Abdul-Karim, *The Province of Damascus, 1723-1783*, Beyrouth, Khayat's, 1970.

- Reclus, Elisée, *L'Homme et la Terre*, t.2, Paris, Librairie universelle, 1905.

- Rodinson, Maxime, *L'Islam: politique et croyance*, Paris, Fayard, 1993.

- Rodinson, Maxime, *Israël et le refus arabe. 75 ans d'histoire*, Paris, Le seuil, 1968.

- Rondot, Philippe, *Le Proche. Orient à la recherche de la paix, 1973-1982*, Paris, PUF, 1982.

- Rowe, Peter, et Sarkis, Hashim (ed.), *Projecting Beirut. Episodes in the Construction and the Reconstruction of a Modern City*, Munich-London-New York, Prestel Verlag, 1998.

- Ruppert, Helmut, «Beyrouth, une ville d'Orient marquée par l'Occident», traduit de l'allemand et présenté par Eric Verdeil, Beyrouth, *Les Cahiers du Cermoc*, n° 21, (thèse de doctorat publiée initialement en 1969 par la Société franconienne de géographie à Erlangen).

- Sabry, M., *l'Empire égyptien sous Mohamed Ali et la question d'Orient*, Paris 1930.

- Salam, Nawaf, «L'Insurrection de 1958 au Liban», thèse de doctorat en histoire, université de Paris-IV-Sorbonne, 1979.

- Salam, Nawaf, *La Condition Libanaise*, Beyrouth, Dar an-Nahar, 1998.

- Salam, Nawaf, *Mythe et politique au Liban*, Beyrouth, FMA, 1984.

- Salamé, Ghassan, *Le Théâtre politique au Liban*, Beyrouth, Publications du Centre culturel universitaire, Dar al-Machreq Editeurs, 1975.

- Salibi, Kamal, *Crossroads to Civil War, Lebanon 1958-1976*, New York, Caravan Books, 1976.

- Salibi, Kamal, *Une maison pour plusieurs demeures*, Beyrouth, Naufal, 1988.

- Sartre, Maurice, *D'Alexandre à Zénobie. Histoire du levant antique, IVe siècle av. J.-C-IIIe siècle ap. J.-C.*, Paris, Fayard, 2001.

- Sartre, Maurice, *L'Orient romain: Provinces et sociétés provinciales en Méditerranée orientale d'Auguste aux Sévères (31 avant J.-C-235 après J.-C),*

Paris Seuil, coll. «L'Univers historique», 1991.

- Sayigh, Rosemary, *Palestinians: From Peasants to Revolutionaries*, London, Zed Press, 1979.

- Sehnaoui, Nada, *L'Occidentalisation de la vie quotidienne à Beyrouth, 1860-1914*, Beyrouth, Dar an-Nahar, 2002.

- Shehadi, Nadim, et Harney, Bridget (ed.), *Politics and the Economy in Lebanon*, Oxford, Center for Lebanese Studies, 1989.

- Sinno, Chadia, «Evolution des structures urbaines du centre-ville de Beyrouth», mémoire de DESS en urbanisme, université de Paris VIII, 1985-1986.

- Tabet, Jade, «Beyrouth», Collection «Portrait de ville», supplément à *Archiscopie*, n° 17, Institut français d'architecture, 2001.

- Tabet, Jade, «Beyrouth», Portrait de ville, Institut français d'architecture, supplément à *Archiscopie*, n° 17, 2001, p. 22.

- Tarazi Fawaz, Leila, *An Occasion for war, Civil Conflit in Lebanon and Damascus in 1860*, London, I.B. Tauris, 1994.

- Tarazi Fawaz, Leila, *Merchants and Migrants in Nineteenth-Century Beirut*, Cambridge and London, Harvard University Press, 1983.

- Thobie, Jacques, *Intérêts et impérialisme français dans l'Empire ottoman*, Paris, Imprimerie nationale, Publications de la Sorbonne, 1977.

- Tibawi, Abdul-Latif, *American Interests in Syria, 1800-1901. A Study of Educational, Literary and Religious Work*, Oxford, Clarendon Press, 1966.

- Touma, Toufic, *Paysans et institutions féodales chez les druzes et les maronites du Liban du XVII^e siècle à 1914*, Beyrouth, Publications de l'Université libanaise, 1972.

- Traboulsi, Fawaz, «Identités et solidarités croisées dans les conflits du Liban contemporain», thèse de doctorat en histoire, université de Paris-VIII, p. 267.

- Zamir, Meir, *The Formation of Modern Lebanon*, Ithaca, Cornell University Press, 1988.

- Zisser, Eyal, *Lebanon, the Challenge of Independence*, London, I.B. Tauris, 2000.

المقالات

- Abdulac, Samir, «Damas: les années Ecochard (1932-1982)», *Les Cahiers de la Recherche architecturale*, n° 10-11, avril 1982.

- Abu-Manneh, B., «The Establishment and Dismantling of the Province of Syria, 1865-1888», in J. Spagnolo (ed.), *Problems of the Middle East in Historical Perspective: Essays in Honour of Albert Hourani*, Oxford University Press, 1992.

- Al-Khoury, Fouad, «L'industrie hôtelière au Liban», *Revue phénicienne*, août 1919.

- Barakat, Halim, «Social Factors Influencing Attitudes of University Students in Lebanon Towards the Palestinian Résistance Movement», *Journal of Palestine Studies*, n° 1, 1971.

- Bourgey, André, «La guerre et ses conséquences géographiques au Liban», *Annales de géographie*, XCIV[e] année, n° 521, janvier. février 1985.

- Boustany, Omar, «Berytian Graffitis», in «Ah! qu'il était joli le Liban de papa», dossier de *L'Orient-Express*, n° 14, janvier 1997.

- Boustany, Omar, «Les dames du temps jadis», in «Ah! qu'il était joli…», *L'Orient-Express*, revue citée.

- Cresswell, Robert, «Parenté et propriété foncière dans la montagne libanaise», *Etudes rurales*, n° 40, oct.-déc. 1970.

- Du Mesnil du Buisson, «Beyrout el-Quadimé», *Bulletin de la Société historique de l'Orne*, Juillet-Octobre 1921, tome XL.

- Eddé, Claude, «Fragments expurgés des carnets d'une jeune fille pas très rangée», in «Ah! qu'il était joli…», dossier de *L'Orient-Express*, revue citée.

- «Grand Beyrouth, trop grand Beyrouth», dossier de *L'Orient-Express*, n° 4, avril 1996.

- Hudson, Michael, «The Palestinian Factor in the Lebanese Civil War», *Middle East Journal*, vol 32, n° 3, (été 1978).

- Jabra, j., et Jabbara, N., «Political Culture and the Rural. Urban Dichotomy in Lebanon», *Political Science Review* (Jaipur), vol. 19, n° 3, juillet-septembre 1980.

- Julien, Charles-André, «Léon Blum et les pays d'Outre-mer», in *Léon Blum, chef du gouvernement, 1936-1937*, Paris, Fondation nationale des sciences politiques, 1967.

- Labaki, Boutros, «Rapports de force intercommunautaires et genèse des conflits internes au Liban», Consortium européen de recherches poliques, Fribourg, 1983 (atelier Violence and Conflict in Divided Societies).

- Marthelot, Pierre, «Une ville remplit son site: Beyrouth», *Méditerranée*, vol 4, n° 3, 1963.

- Moore, Clement Henry, «Le système bancaire libanais. Les substituts financiers d'un ordre politique», *Maghreb-Machrek*, n° 99, janvier-février-mars 1983.

- Naccache, Albert, «L'industrie de la villégiature au Liban», *Revue phénicienne*, décembre 1919.

- Paix, Catherine, «La portée spatiale des activités tertiaires de commandement au Liban», *Revue Tiers-Monde*, 1975, t. XVI, n° 61.

- Poupon, «La modernisation de Beyrouth», *Bulletin de L'Union économique de Syrie*, vol. VII, 1928, pp. 23-29 et VIII, 1929.

- «Quand la politique faisait rêver», dossier de *L'Orient-Express*, n° 1, novembre 1995.

- Raymond, André, «La Syrie du royaume arabe à l'indépendance», in *la Syrie d'aujourd'hui*, Paris, Editions du CNRS, 1980.

- Riad, Mahmoud, «Au cœur du conflit», entretien à la *Revue d'études palestiniennes*, n° 19, printemps 1986.

- Rouvier, Jules, «Une métropole phénicienne oubliée, Laodicée métropole de Canaan», *al-Machreq*, 1er année, 1898.

- Salibi, Kamal, «Beirut under the Young Turks as depicted in the political memoirs of Salim 'Ali Salam», in Jacques Berque et Dominique Chevallier, *Les Arabes par leurs archives (XVI^{e}-XX^{e} siècles),* Editions du CNRS, 1976.

- Scholch, Alexander, «Le développement économique de la Palestine, 1856-1882», *Revue d'études palestiniennes*, n° 10, hiver 1984, pp. 93-113.

- Stoakes, Frank, «The Supervigilantes: The Lebanese Kataeb Party as a Builder, Surrogate and Defender of the State», *Middle Eastern Studies*, vol. 11, n° 3, octobre 1975.

- Tibawi, A.L., «The Genesis and Early History of the Syrian Protestant College», *The Middle East Journal*, Part I, vol 21, winter 1967, n° 1, part 2, vol. 1, spring 1967, n° 2.

- Traboulsi, Fawaz, «Ahmad Farès al-Chidyaq, de la modernité en tant que femme», L'*Orient-Express*, n° 5, avril 1996.

- Traboulsi, Fawaz, «Le pas de deux de l'émir Abdel-Kader et de Youssef Bey Karam», *L'Orient-Express*, n° 11, octobre 1996.

- Traboulsi, Fawaz, «Un amour de soie», *L'Orient-Express*, n° 6, mai 1996.

- Ziadé, Khaled, «Riad al-Solh, l'enfant des villes l'homme des mutations», *L'Orient-Express*, n° 1, novembre 1995.

فهرس الوثائق المصورة

فهرس اصحاب الوثائق المصورة

تتطابق الارقام المشار اليها في هذا الفهرس مع ارقام فهرس الوثائق المصورة (جميع الحقوق محفوظة).

- جوزيف شامي: *le Mémorial du Liban*: 52، 73، 75، 84، 86، 88، 89، 90، 91، 106، 123، 132. - خرائط *Geosystems*، بيروت، ميونيخ: 3، 142، 147. - خزانة الوثائق المصورة، وزارة السياحة، بيروت: 1، 144. - زيتية عمر الأنسي: 99. - صور سعيد عبودي: 137، 138. - صور سامي عيّاد: 131. - صور هدى قساطلي: 119، 140، 145، 146. - صور ميساء قصير: 2، 4، 5، 6، 7، 8، 11، 12، 13، 14، 125. - صور سليمان قصير: 141. - غسان تويني وفارس ساسين، **البرج ساحة الحرية وبوابة المشرق**: 18، 45، 94، 100، 133. - مجموعة متحف سرسق: 87. - مجموعة فؤاد دباس: 19، 23، 35، 38، 39، 55، 82، 85. - مجموعة هاني فروخ: 41، 92. - مجموعة بدر الحاج: 66، 107، 108. - مجموعة نواف سلام: 11، 15، 16، 17، 20، 21، 22، 24، 25، 26، 27، 28، 29، 30، 31، 32، 33، 34، 36، 37، 40، 48، 50، 53، 56، 57، 59، 62، 64، 65، 68، 69، 71، 72، 74، 76، 77، 78، 80، 81، 83، 93، 101، 117. - مجموعة ليلى صحناوي زياده: 46، 47، 49، 60، 61. - محفوظات مطرانية بيروت للروم الارثوذكس: 9. - المحفوظات ا لوطنية، بيروت: 43. - محفوظات الاوريان اكسبرس: 42، 95، 103، 104، 109، 110، 112، 114، 115، 118، 120، 121، 126، 127، 128، 129، 130، 134، 135، 143. - محفوظات الأوريان لو-جور: 96، 113، 116، 122، 124. - محفوظات النهار: 98 - فارس ساسين ونواف سلام، **لبنان القرن في صور**: 44، 58، 67، 98، 102، 130.

لائحة الخرائط

فهرس الأعلام

* فهرسا الأعلام والأماكن من إعداد الآنسة حياة القرى.

—خ—

– ش –

– ص –

- غ -

- ف -

– ل –

- م -

فهرس الأماكن

– ص –

– ض –

- ط -

- ع -

- غ -

- ف -

- ق -

- ي -

إذا نظرت إلى بيروت من البحر ترى أمامك لوحة رائعة أشبه ما تكون بتلك التي تشكلها أشهر مدن المتوسط. إذ تسبح المدينة في المياه التي تداعبها بأمواجها وتنتشر أحياؤها فوق التلال. أما وسطها فمزدان بالقبب والمآذن الرائعة التي تعلو المساجد وبأجراس الكنائس والصروح المهيبة من مستشفيات وأديرة وجامعات تفرض بساطتها الصارمة على المنازل والدور المبعثرة المحيطة بها التي تشكل هي أيضاً لوحة مرقطة بألوان وأشكال مختلفة: لون قرميد السطوح الأحمر الممتزج بأبيض الجدران ووردّيها وأمامها الشرفات ذات الأقواس القوطية وخلفها الحدائق الخضراء وأشجار السرو المنتصبة كالرماح. وخلف بيروت يمتد الريف صاعداً حتى سفوح الجبل الأولى ... الهواء لا مثيل لنقائه، وانسجام الألوان لا يعكر صفوه أي ضباب ... لكن السحر الحقيقي يكمن في أزرق البحر، أزرق خاص واضح وخفيف تخالطه أحياناً بعض بقع الزمرد الشفافة. ما أن تراه حتى تدرك السبب الذي جعل عشتروت تولد من تلك الأمواج.

اندريه جيجر، 1932

بيروت موقع من أجمل المواقع في العالم، وكان بالإمكان ان تكون من أجمل مدن العالم.

ميشال إيكوشار، 1955

بيروتُ شكل الظلِّ
أجملُ من قصيدتها وأسهلُ من كلام الناس
تُغرينا بألف بدايةٍ مفتوحة وبأبجدياتٍ جديدة:

بيروتُ خيمتُنا الوحيدة
بيروتُ نجمتُنا الوحيدة

محمود درويش، 1982

بين سحر بيروت مدينة منفتحة، شرقية وغربية في آن، عصرية ومتجذرة عميقا في تاريخ شهد مرور بمبيوس الروماني وصلاح الدين الأيوبي واحمد باشا الجزار وابراهيم باشا المصري... وكوابيسها ساحة للحروب، كانت المدينة ولا تزال، بسكانها الوافدين من كل مكان، بنسائها ورجالها وادبائها وفنانيها وعمرانها، تربة خصبة للأوهام المتضاربة. كيف تكوّنت هذه الصور وممّ تغذّت؟ وما وجه الحاضرة الحقيقي خلف الأقنعة الكثيرة التي تلبستها؟

يعيد هذا الكتاب الفذ لبيروت تاريخَها المتعدد وتنوعَ وجوهها مظهراً الاسباب التي جعلت منها منذ القرن التاسع عشر إحدى أولى بؤر الحداثة في ارض العرب. لا يغفل الكتاب الأزمات المتكررة، لكنه يستكشف، باسلوب كبار المؤرخين الاجتماعيين، خصوصية هذه الحاضرة الاقليمية المتنوعة الثقافات التي نمّت، على صغر مساحتها، مخيّلة هائلة واستبقت هجنة المدن الكبرى في زماننا.

سمير قصير (1960-2005) عاشق بيروت وشهيدها، كما هو شهيد لبنان والحريات والعروبة والتقدم. ويظهر هذا الكتاب أنه كبير مؤرخيها. صدر له عن دار النهار: **عسكر على مين؟ لبنان الجمهورية المفقودة** (2004)؛ **ديمقراطية سوريا واستقلال لبنان، البحث عن ربيع دمشق** (2004)؛ **تأملات في شقاء العرب** (2005).

ملصق Julien Lacaze (حوالي 1925) لشركة باريس ليون مارسيليا PLM مجموعة نواف سلام.

ISBN 9953-74-101-8